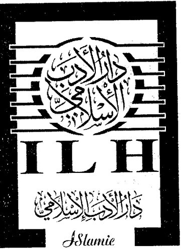
صوت الإسلام الصارخ
أحمد محرم

بقلم د. محمد رجب البيومي
عضو مجمع البحوث الإسلامية





Islamic
Literature House

ص. ب. : ٨١
بريد بانوراما ١١٨١١
القاهـرة - ج. م. ع.

هاتف وفاكس :
+ ٢٠ (٢) ٥١٤٧٦٢٦

محمول :
+ ٢٠ (١٠) ٥١٠٥٥٧٧

P.O. Box : 81
Panorama P.O. 11811
Cairo - Egypt

Tel. & Fax :
+ 20 (2) 5147626

Mob. :
+ 20 (10) 5105577

www:ilh4pub.8m.com

E. Mail :
ilh4pub@hotmail.com



الطبعة الأولى
1425 هـ - 2004 م

رقم الإيداع
٢٠٠٤/٢٠٧٨

I.S.B.N.
977-5827-08-6

الغلاف والخطوط : منير الشعراني

الإعداد الفني والتنضيد الضوئي
بدار الأدب الإسلامي

لا يسمح بإعادة نشر هذا الكتاب كليًا أو جزئيًا بأي شكل من الأشكال ،
أو خزنه في أي نظام لخزن المعلومات واسترجاع الكتاب أو جزء منه ،
أو نقله على أي هيئة أو بأي وسيلة سواء كانت إلكترونية أو ميكانيكية ،
أو استنساخًا أو تسجيلاً أو تحويله إلى عمل إذاعي أو مرئي أو غير ذلك ،
أو اقتباس أي جزء من الكتاب أو ترجمته لأي لغة أخرى ..
إلا بعد الحصول على إذن خطي مسبق .

صوت الإسلام الصارخ

أحمد محرم

بسم الله الرحمن الرحيم

قَالُوا عَنْ أَحْمَدَ مُحَرَّمٍ

سَرِيعُ الْخَاطِرِ ، فِي رَأْسِهِ خِزَانَةُ أَدَبٍ ، إِنْ لَمْ تَجْتَمِعْ فِيهَا دَوَاوِينُ الْعَرَبِ كُلُّهَا ، فَفِيهَا مَحَاسِنُهَا وَعُيُونُهَا ، فَهْوَ بِلَا مُنَازِعٍ وَلَا مُدَافِعٍ أَمْهَرُ نَاسِجٍ عَلَىٰ مِنْوَالِ فُصَحَاءِ الْعَرَبِ ، وَلَيْسَ هَذَا بِالْقَلِيلِ .

[خليل مُطران]

رَدَدْتَ عَلَىٰ مُلْكِ الْبَيَانِ شَبَابَهُ ... وَجَدَّدْتَ عَصْرَ الْبُحْتُرِيِّ وَمُسْلِمِ

أَرَىٰ قَوْمَنَا بِالْعَبْقَرِيَّةِ أُولِعُوا ... فَمَا ظَنُّهُمْ بِالْعَبْقَرِيِّ الْمُقَدَّمِ

[حافظ إبْراهيم]

أَحْمَدُ مُحَرَّم فِي شِعْرِهِ نَسِيجٌ وَحْدَهُ ، وَهُوَ أَقْرَبُ الشُّعَرَاءِ الْمُعَاصِرِينَ دِيبَاجَةً مِنْ شُعَرَاءِ الْعَرَبِ ، وَمَا زَالَ يُعَانِي ذَلِكَ فِي أَوَّلِ أَمْرِهِ مُعَانَاةً حَتَّىٰ مَلَكَهُ الْيَوْمَ ، وَصَارَ مَلَكَةً فِي طَبْعِهِ .

[وليُّ الدِّين يَكَن]

أَحْمَدُ مُحَرَّم مِنَ الشُّعَرَاءِ الْمَطْبُوعِينَ عَلَىٰ الدِّيبَاجَةِ الْمُشْرِقَةِ ، وَالْقَافِيَةِ

الْمُحْكَمَةِ ، وَكَانَ يُطِيلُ فِي غَيْرِ سَقَطٍ ، وَيُبَالِغُ فِي غَيْرِ شَطَطٍ ، وَيَتَأَنَّقُ فِي غَيْرِ تَكَلُّفٍ ، وَرُبَّمَا كَانَ أَقَلَّ مُعَاصِرِيهِ وُقُوعًا عَلَى الْمَعْنَى الطَّرِيفِ ، وَالْفِكْرَةِ الْعَمِيقَةِ ، وَلَكِنَّهُ كَانَ مِنْ أَكْثَرِهِمُ احْتِفَالًا بِحُسْنِ الصِّيَاغَةِ ، وَلُطْفِ التَّخَيُّلِ .

[أَحْمَدُ حَسَن الزَّيَّاتُ]

لَعَمْرِي إِنَّ هَذِهِ النَّفْسَ الَّتِي تَحْتَرِقُ وَطَنِيَّةً وَأَلَمًا لِمَا نُكِبَتْ بِهِ مِصْرُ فِي بَنِيهَا كَانَتْ جَدِيرَةً أَنْ تَتَبَوَّأَ مَكَانَتَهَا اللَّائِقَةَ بِهَا فِي عَالَمِ الْأَدَبِ .. وَقَدْ بَقِيَ أَحْمَدُ مُحَرَّم .. مَحْرُومًا الْقَلَمَ الْقَوِيَّ الَّذِي يَعْرِضُ دُرَرَهُ بَيْنَ النَّاسِ .

[عُمَر الدُّسُوقِي]

كَانَ أَحْمَدُ مُحَرَّم شَاعِرًا فِي الطَّبَقَةِ الْأُولَى مِنْ شُعَرَاءِ جِيلِهِ .. وَلَكِنَّ تَرَفُّعَهُ عَنِ السَّيْرِ فِي رِكَابِ الْحَاكِمِينَ ، وَالزُّلْفَى إِلَى أَصْحَابِ الْجَاهِ ، أَلْقَى عَلَى اسْمِهِ شِعَارًا مِنَ الْجُحُودِ ، فَنَسِيَهُ النَّاسُ ، وَإِنْ لَمْ يَنْسَهُ الشُّعَرَاءُ الْكِبَارُ أَنْفُسُهُمْ فَقَدْ عَرَفُوا قَدْرَهُ بَيْنَهُمْ ، وَمَكَانَتَهُ فِي صُفُوفِهِم .

[حَسَن كَامِل الصَّيْرَفِي]

إِنَّ مُحَرَّمًا قَدْ بَزَّ شَوْقِيًّا فِي الشِّعْرِ الْوِجْدَانِي وَشِعْرِ الطَّبِيعَةِ وَالتَّأَمُّلِ النَّفْسِيِّ إِلَّا أَنَّ مُوسِيقَى شَوْقِيٍّ وَخَيَالَهُ الْمُجَنِّح قَدْ أَمَدَّاهُ بِقُوَّةٍ فَنِّيَّةٍ لَمْ يَسْتَطِعْ مُحَرَّمٌ أَنْ يُزَاحِمَهَا فِي كُلِّ حِينٍ .

[د . مُحَمَّدُ إِبْرَاهِيم الْجُيُوشِي]

أَصْبَحَ ذِكْرُ مُحَرَّمٍ الشَّابِّ مُتَدَاوَلًا عَلَى أَلْسِنَةِ الْأُدَبَاءِ ، مَحْبُوبًا لَدَيْهِم ،

لِمَا اشْتُهِرَ بِهِ مِنْ عُلُوِّ الْهِمَّةِ ، وَبُعْدِ النَّظَرِ فِي كِتَابَتِهِ الَّتِي تَعَطَّرَتْ بِهَا الصُّحُفُ وَضُرِبَتْ بِجَوْدَتِهَا الْأَمْثَالُ .

[أَحْمَدُ الْكَاشِفُ]

يُقْرَنُ حَافِظُ إِبْرَاهِيمَ بِأَحْمَدَ شَوْقِيٍّ كَثِيرًا عِنْدَ مُؤَرِّخِي الْأَدَبِ الْمُعَاصِرِ ، وَكَانَ الْأَصْوَبُ أَنْ يُقْرَنَ مُحَرَّمٌ بِشَوْقِيٍّ لِأَنَّهُمَا مُتَقَارِبَانِ وَإِنْ لَمْ يَتَسَاوَيَا ، أَمَّا حَافِظٌ فَعَلَى بُعْدٍ مِنْهُمَا ، وَهُوَ بَعْدُ شَاعِرٌ مُجِيدٌ . .

[د . مُحَمَّدُ رَجَبِ الْبَيُّومِيُّ]

فَاتَ مُحَرَّمٌ الْآنَ سِنَّ الْكُهُولَةِ ، وَلَكِنَّ رُوحَهُ مَا تَزَالُ فَتِيَّةً ، وَهُوَ فِي شِعْرِهِ الْوِجْدَانِيِّ يُرْسِلُ نَفْسَهُ عَلَى سَجِيَّتِهَا ، فَيُبْدِعُ أَيَّمَا إِبْدَاعٍ ، وَكَذَلِكَ يَحْتَرِمُهُ الْمُحَافِظُونَ وَالْمُجَدِّدُونَ عَلَى السَّوَاءِ لِأَنَّ لَهُ نَصِيبًا مَحْسُوسًا مِنْ مَذْهَبَيْهِمَا .

[مُصْطَفَى السَّحَرْتِيُّ]

امْتَازَ مُحَرَّمٌ إِلَى جَانِبِ مَكَانَتِهِ الشِّعْرِيَّةِ بِحَرَارَةِ الْعَاطِفَةِ ، وَتَذَوُّقِهِ لِلْفَنِّ وَالْجَمَالِ ، وَقُوَّةِ إِيمَانِهِ ، وَاسْتِمْسَاكِهِ طُولَ حَيَاتِهِ بِمَبَادِئِهِ الْوَطَنِيَّةِ ، فَكَانَ شِعْرُهُ كُلُّهُ وَقْفًا عَلَى هَذِهِ الْمَبَادِئِ ظَلَّ مُقِيمًا عَلَيْهَا ، وَفِيًّا لَهَا فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ ، فَكَانَ حَقًّا مَثَلًا أَعْلَى فِي الشِّعْرِ وَالْوَطَنِيَّةِ .

[عَبْدُ الرَّحْمَنِ الرَّافِعِيُّ]

مُقَدِّمَةٌ

أَحْمَدُ مُحَرَّم أَحَقُّ شُعَرَاءِ الْعَرَبِيَّةِ جَمِيعًا بِلَقَبِ شَاعِرِ الْإِسْلَامِ فِي الْعَصْرِ الْحَدِيثِ ؛ لِأَنَّ عَاطِفَتَهُ الدِّينِيَّةَ كَانَتْ تُهَيْمِنُ عَلَىٰ كُلِّ مَا نَظَمَ مِنْ فُنُونِ الشِّعْرِ ، حَتَّىٰ فِيمَا يُظَنُّ أَنَّهُ أَبْعَدُ عَنِ الرُّوحِ الدِّينِيَّةِ مِنْ أَغْرَاضِ الْقَصِيدَةِ تَجِدُ هَذِهِ الرُّوحَ بَارِزَةً فِي الشِّعْرِ الِاجْتِمَاعِيِّ ، وَفِي شِعْرِ الطَّبِيعَةِ ، وَفِي الْمَدَائِحِ الَّتِي كَانَتْ بَعْضَ فُنُونِ الشِّعْرِ فِي عَصْرِهِ ، بَلْ فِي الْغَزَلِ الْعُذْرِيِّ الْعَفِيفِ الَّذِي يَرْتَفِعُ إِلَىٰ مُسْتَوَىٰ الطُّهْرِ النَّبِيلِ ، أَمَّا سِيَاسِيَّاتُهُ فَتَسْتَلْهِمُ رُوحَ الْإِسْلَامِ فِي بَقِيَّةِ الْحَمِيَّةِ الصَّادِقَةِ وَالدَّعْوَةِ إِلَىٰ الْحُرِّيَّةِ وَالْعِزَّةِ وَالْإِخَاءِ وَالْمُسَاوَاةِ وَحِفْظِ كَرَامَةِ الْإِنْسَانِ مِنْ أَيِّ لَوْنٍ أَوْ جِنْسٍ أَوْ دِينٍ ، وَقَدْ طُبِعَ دِيوَانُهُ أَخِيرًا فِي خَمْسَةِ مُجَلَّدَاتٍ كِبَارٍ فَأَعْطَىٰ الْجِيلَ الْحَدِيثَ صُورَةً حَقِيقِيَّةً عَنْهُ ، إِذْ لَا يَكَادُ يُضَارِعُهُ شَاعِرٌ فِي اتِّجَاهِهِ الْمِثَالِيِّ ، وَهَدَفِهِ الْإِنْسَانِيِّ وَشُعُورِهِ الْإِسْلَامِيِّ ، وَهُوَ دَائِمًا لِسَانُ الْمُؤْمِنِ الْحَيِّ ، وَتُرْجُمَانُ مَشَاعِرِهِ ، وَقَدْ عَاشَ كَرِيمَ الْهَدَفِ ، نَبِيلَ الْمَقْصِدِ وَلَقِيَ رَبَّهُ بَعْدَ نِضَالٍ شَرِيفٍ فِي مَيْدَانِ الْعِزَّةِ وَالِاسْتِقْلَالِ .

وَقَدْ فُطِرْتُ عَلَىٰ حُبِّ هَذَا الشَّاعِرِ مُنْذُ بَدَأْتُ أَقْرَأُ الصُّحُفَ الْيَوْمِيَّةَ ،

وَالْمَجَلَّاتِ الْأُسْبُوعِيَّةِ ، وَكَانَتْ جَرِيدَةُ الْأَهْرَامِ تُطَالِعُ قُرَّاءَهَا بِفَرَائِدَ مِنْ شِعْرِهِ تَحْتَفِلُ بِهَا كَثِيرًا ، إِذْ غَالِبًا مَا تُنْشَرُ فِي الصَّفْحَةِ الْأُولَىٰ ، كَذَلِكَ كَانَتْ مَجَلَّةُ الْفَتْحِ شَدِيدَةَ الِاحْتِفَاءِ بِشِعْرِهِ النَّابِضِ الْحَيِّ ، وَمَا زِلْتُ أَسْتَقْصِي شَوَارِدَهُ . وَأَنْسَخُهَا مِنَ الصُّحُفِ فِي كَرَّاسَاتٍ مُتَتَالِيَةٍ ، حَتَّىٰ دَفَعَنِي التَّحَمُّسُ لِمَنْحَاهُ ، فَكَتَبْتُ بَحْثًا بِمَجَلَّةِ الرِّسَالَةِ الصَّادِرَةِ بِتَارِيخِ ١٩٤٩/٣/٧م تَحْتَ عُنْوَانِ « الْعَاطِفَةُ الدِّينِيَّةُ فِي شِعْرِ مُحَرَّمٍ » وَقَدْ نُشِرَ فِي عَدَدَيْنِ مُتَوَالِيَيْنِ ، وَقَدْ قُلْتُ فِيهِ(١):

وَالْحَقُّ أَنَّ دِرَاسَةَ شِعْرِ مُحَرَّمٍ - رَحِمَهُ اللَّهُ - مِنْ أَلْزَمِ اللَّوَازِمِ فِي عَصْرٍ مَاجِنٍ مُسْتَهْتِرٍ ، فَقَدْ عَصَفَتْ بِرُءُوسِ بَعْضِ الشُّعَرَاءِ فِي الشَّرْقِ وَالْغَرْبِ نَوَازِعُ خَبِيثَةٌ تَدْفَعُهُمْ إِلَىٰ الْفَوْضَىٰ الْخُلُقِيَّةِ ، وَالتَّحَلُّلِ الْإِبَاحِيِّ ، زَاعِمِينَ أَنَّ الشَّاعِرَ الْحَقَّ هُوَ الَّذِي يَنْسَابُ وَرَاءَ غَرَائِزِهِ وَمُيُولِهِ ، وَأَنَّ الْعَبْقَرِيَّةَ تُتِيحُ لِصَاحِبِهَا أَنْ يَتَزَلَّقَ فِي سَقَطَاتٍ مُرِيبَةٍ ، بَلْ إِنَّ مِنْ هَؤُلَاءِ مَنْ يَتَعَمَّدُ الْوُقُوعَ فِي الْبَغْيِ لِيَكُونَ أَحَدَ هَؤُلَاءِ الْعَبَاقِرَةِ .

كَتَبْتُ هَذَا الْبَحْثَ وَأَنَا طَالِبٌ نَاشِئٌ بِكُلِّيَّةِ اللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ ، وَمَا كَادَ يَقْرَؤُهُ أُسْتَاذٌ فَاضِلٌ مِمَّنْ أَعْهَدُ فِيهِمُ الدِّرَايَةَ حَتَّىٰ دَعَانِي كَالْغَاضِبِ ، وَقَالَ : إِنِّي رَفَعْتُ مُحَرَّمًا عَنْ مُسْتَوَاهُ ، وَأَنَّهُ لَيْسَ شَاعِرَ الْعَاطِفَةِ الدِّينِيَّةِ وَحْدَهُ ، بَلْ هُنَاكَ مَنْ يَسْبِقُهُ ! ، وَلَمْ أَكُنْ ذَا شَجَاعَةٍ تَدْفَعُنِي إِلَىٰ الرَّدِّ الْحَاسِمِ ، بَلْ إِنَّنِي كِدْتُ أَشُكُّ فِيمَا كَتَبْتُ نَظَرًا لِمَكَانَةِ الْأُسْتَاذِ ، وَطُولِ خِبْرَتِهِ بِالنِّسْبَةِ لِطَالِبٍ مُبْتَدِئٍ مِثْلِي ، وَلَكِنِّي أُرَاجِعُ مَا أَحْتَفِظُ بِهِ مِنْ آثَارِ مُحَرَّمٍ فَأَجِدُ الدَّلِيلَ الَّذِي لَا يَقْبَلُ الدَّفْعَ ،

(١) مجلة الرسالة العدد ٨١٨، ١٩٤٩/٣/٧م.

وَفِي هَذِهِ الْحَيْرَةِ أَخَذْتُ أُتَابِعُ الْبَحْثَ عَنْ آثَارِ الشَّاعِرِ فِي الْمَجَلَّاتِ الْأَدَبِيَّةِ، فَأَجِدُ مَا يُؤَيِّدُ مَنْحَايَ، وَأَلْمَسُ فِي بَعْضِ مَا أَقْرَأُ عَنِ الشَّاعِرِ مَا يَزِيدُنِي إِيمَانًا بِصِدْقِ قَوْلِي، ثُمَّ أَصْدَرَ الْأُسْتَاذُ الْكَبِيرُ عُمَرُ الدُّسُوقِيُّ الْجُزْءَ الثَّانِيَ مِنْ كِتَابِهِ «فِي الْأَدَبِ الْحَدِيثِ» وَكَانَ حِينَئِذٍ جَهِيرَ الصَّوْتِ فِي كُلِّيَّةِ دَارِ الْعُلُومِ وَرَئِيسَ قِسْمِ الدِّرَاسَاتِ الْأَدَبِيَّةِ بِهَا، فَوَجَدْتُهُ يَمْلَأُ الصَّفَحَاتِ التَّحْلِيلِيَّةَ إِشَادَةً بِأَدَبِ مُحَرَّم، وَيَسْتَشْهِدُ بِرَوَائِعَ مَطْبُوعَةٍ مِنْ شِعْرِهِ ثُمَّ يَقُولُ فِي خَاتِمَةِ حَدِيثِهِ عَنْهُ[1]:

«وَلَعَمْرِي إِنَّ هَذِهِ النَّفْسَ الَّتِي تَحْتَرِقُ وَطَنِيَّةً وَأَلَمًا لِمَا نُكِبَتْ بِهِ مِصْرُ فِي بَنِيهَا كَانَتْ جَدِيرَةً أَنْ تَتَبَوَّأَ مَكَانَتَهَا اللَّائِقَةَ بِهَا فِي عَالَمِ الْأَدَبِ، لَقَدْ حَظِيَ حَافِظٌ بِالشُّهْرَةِ فِي عَالَمِ الْوَطَنِيَّاتِ، وَهُوَ فِي شِعْرِهِ الْوَطَنِيِّ لَا يُشْعِرُكَ بِتِلْكَ الْحَرَارَةِ الَّتِي يَبْعَثُهَا فِي نَفْسِكَ شِعْرُ مُحَرَّم، وَلَكِنَّ عَيْبَ مُحَرَّم وَعَيْبَ الْكَاشِفِ مَعَهُ أَنَّهُمَا آثَرَا الْعُزْلَةَ بِالرِّيفِ، حِينَ فَسَدَتِ الْحَيَاةُ فِي الْقَاهِرَةِ، وَكَانَ فِي مُحَرَّم زُهْدٌ وَعِفَّةٌ وَإِيمَانٌ قَوِيٌّ فَلَمْ يَتَمَلَّقْ رَئِيسًا أَوْ يَعْرِفْ فِي الْحَقِّ لِينًا أَوْ مُوَارَبَةً، وَكَانَ حَافِظٌ رَجُلَ دُنْيَا كَثِيرَ الِاخْتِلَاطِ بِالنَّاسِ.

وَقَدْ بَقِيَ أَحْمَدُ مُحَرَّم حَتَّى الْيَوْمَ مَحْرُومًا الْقَلَمَ الْقَوِيَّ الَّذِي يَعْرِضُ دُرَرَهُ بَيْنَ النَّاسِ، وَيُعَرِّفُ بِهِ قَوْمَهُ وَهُوَ الَّذِي آثَرَ الْفَقْرَ وَالْوَحْدَةَ وَالْحِرْمَانَ فِي سَبِيلِ مَبْدَئِهِ، وَكَانَ شَاعِرًا صَاحِبَ رِسَالَةٍ، وَكَانَ مِنْ أَقْوَى الشُّعَرَاءِ دِيبَاجَةً، وَأَنْصَعِهِمْ بَيَانًا، كَانَ عَيْبُ مُحَرَّم أَنَّهُ يُمَثِّلُ الْفَرِيقَ الْجَادَّ مِنَ الْأُمَّةِ، الَّذِي يُشْعِرُنَا بِآلَامِهَا الْمُبَرِّحَةِ، وَأَدْوَائِهَا الْمُسْتَعْصِيَةِ، وَكَانَ صَاحِبَ مَثَلٍ أَعْلَى فِي أُمَّةٍ هَازِلَةٍ تَطْرَبُ لِلْعَبَثِ وَيَفْتِنُهَا زِبْرِجُ الْحَيَاةِ الْغَرْبِيَّةِ، لِيَفْتِنَنَا عَنْ أَهْدَافِنَا

---

(١) في الأدب الحديث للأستاذ عمر الدسوقي ج ٢، ص ١٥٧.

الْقَوِيمَةِ ، كَانَ شَاعِرَ مِصْرَ سِيَاسِيًّا وَاجْتِمَاعِيًّا ، وَكَانَ شَاعِرَ الْعُرُوبَةِ وَالْإِسْلَامِ مُتَعَدِّدَ النَّوَاحِي الْأَدَبِيَّةِ ، وَمَعَ ذَلِكَ كَانَ عَاثِرَ الْجَدِّ فِي حَيَاتِهِ ؛ لِأَنَّهُ لَمْ يَتَمَلَّقِ الْعُظَمَاءَ فَيَمْدَحُهُمْ بِالْبَاطِلِ ، بَلْ كَانَ شَاعِرًا صَادِقَ الشُّعُورِ فِي كُلِّ مَا يَنْطِقُ بِهِ ، لَا نَظَّامًا يَقُولُ فِي الْمُنَاسَبَاتِ ، فَلَمْ يَجِدْ مَنْ يَدْفَعُهُ إِلَى عَالَمِ الصَّدَارَةِ ، كَمَا وَجَدَ سِوَاهُ مِنَ الشُّعَرَاءِ » .

هَذَا بَعْضُ مَا قَالَهُ الْمُؤَرِّخُ النَّاقِدُ الْأُسْتَاذُ عُمَرُ الدُّسُوقِيُّ ، وَقَدْ زَادَنِي إِيمَانًا بِمَا كَتَبْتُهُ بِالرِّسَالَةِ ، وَطَفِقْتُ مُنْذُ قَرَأْتُ كَلَامَ الْأُسْتَاذِ أَكْتُبُ الْبُحُوثَ الْأَدَبِيَّةَ فِي تَحْلِيلِ شِعْرِ مُحَرَّمٍ ، وَأَنْشُرُ بِمُخْتَلِفِ الْمَجَلَّاتِ مَقَالَاتٍ تُبْرِزُ مَعْدِنَهُ الْأَدَبِيَّ ، وَأَذْكُرُ أَنَّ أُسْتَاذِي الدُّكْتُورَ عَبْدَ الْحَسِيبِ طَهَ وَكِيلَ كُلِّيَّةِ اللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ سَابِقًا ، قَابَلَنِي ذَاتَ يَوْمٍ بَاسِمًا ، وَقَالَ لِي : أَلَيْسَ فِي الشُّعَرَاءِ وَهُمْ كَالطُّوفَانِ غَيْرُ أَحْمَدَ مُحَرَّمٍ !! فَقُلْتُ لَهُ : أَتَسْتَكْثِرُ بَاحِثًا صَغِيرًا مِثْلِي عَلَى شَاعِرٍ عَظِيمٍ مِثْلِهِ ! فَقَالَ : أَرَدْتُ مُدَاعَبَتَكَ ، وَأَنْتَ تُؤَدِّي وَاجِبًا مَفْرُوضًا إِزَاءَ هَذَا الشَّاعِرِ الْكَبِيرِ ! .

ثُمَّ جَاءَ صَدِيقِي الْأُسْتَاذُ الدُّكْتُورُ مُحَمَّدُ إِبْرَاهِيمَ الْجُيُوشِيُّ ؛ فَكَتَبَ رِسَالَةَ الْمَاجِسْتِيرِ تَحْتَ عُنْوَانِ « شَاعِرُ الْعُرُوبَةِ وَالْإِسْلَامِ أَحْمَدُ مُحَرَّمٍ » وَالْحَقُّ أَنَّهُ أَوَّلُ بَاحِثٍ مَوْضُوعِيٍّ أَفْرَدَ رِسَالَةً قَوِيَّةً عَنْ هَذَا الشَّاعِرِ الْعَظِيمِ ، وَقَدْ طُبِعَتْ فِي كِتَابٍ قَيِّمٍ تَدَاوَلَهُ الْقُرَّاءُ ، وَأَحْرَزَ انْتِشَارًا وَاسِعًا ، فَكَأَنَّ الْقُرَّاءَ كَانُوا مُتَلَهِّفِينَ عَلَيْهِ ، حَتَّى وَقَعَ مِنْ نُفُوسِهِمْ مَوْقِعَ الْمَاءِ مِنَ الظَّمْآنِ ، وَفِي الرِّسَالَةِ فُصُولٌ جَيِّدَةٌ عَنْ عَصْرِ الشَّاعِرِ سِيَاسِيًّا وَاجْتِمَاعِيًّا وَثَقَافِيًّا ، ثُمَّ عَنْ شِعْرِهِ الْمُتَنَوِّعِ الْأَغْرَاضِ ، الْمُخْتَلِفِ الْفُنُونِ ، مَعَ حَدِيثٍ جَيِّدٍ عَنْ سِمَاتِهِ الْفَنِّيَّةِ وَآرَاءِ الْمُعَاصِرِينَ فِي أَدَبِهِ ، وَأَذْكُرُ أَنَّ كَثِيرًا مِنَ الْبَاحِثِينَ قَدِ اسْتَعَانُوا بِهَذَا الْكِتَابِ اسْتِعَانَةً وَاضِحَةً ،

وَفِيهِمْ مَنِ اعْتَرَفَ بِالْفَضْلِ لِصَاحِبِهِ فَذَكَرَهُ حِينَ اسْتَشْهَدَ بِبَعْضِ آرَائِهِ . وَفِيهِمْ مَنْ حَاوَلَ أَنْ يَتَجَاهَلَهُ ثُمَّ ظَهَرَتْ حَقِيقَةُ هَذَا التَّجَاهُلِ ، حِينَ اسْتَشْهَدَ بِشِعْرٍ لِمُحَرَّمٍ قَالَ : إِنَّهُ مِنْ دِيوَانِهِ ، مَعَ أَنَّهُ مِنْ مَخْطُوطٍ لَمْ يُتَحْ لِغَيْرِ الدُّكْتُورِ الْجُيُوشِيِّ !! وَهِيَ خُلَّةٌ سَيِّئَةٌ كَانَ الْأَحْرَىٰ بِذَوِي الْبَحْثِ أَنْ يَنْكُصُوا عَنْهَا مُتَرَفِّعِينَ !.

وَإِذَا كُنْتُ قَدْ ذَكَرْتُ كِتَابَ الْأُسْتَاذِ عُمَرَ الدُّسُوقِيِّ ، فَإِنَّ الْحَقِيقَةَ الْعِلْمِيَّةَ تُلْزِمُنِي أَنْ أَذْكُرَ الدُّكْتُورَ الْبَحَّاثَةَ « مُحَمَّدَ مُحَمَّدٍ حُسَيْن » إِذْ أَصْدَرَ كِتَابَهُ الشَّهِيرَ « الِاتِّجَاهَاتُ الْوَطَنِيَّةُ فِي الْأَدَبِ الْمُعَاصِرِ » فِي جُزْأَيْنِ كَبِيرَيْنِ فَخَصَّ الشَّاعِرَ الْكَبِيرَ أَحْمَدَ مُحَرَّمٍ بِاحْتِفَاءٍ بَارِزٍ تَجَلَّىٰ فِي اخْتِيَارَاتِهِ الْمُتَعَدِّدَةِ لِفَرَائِدَ مِنْ شِعْرِهِ ، وَلِحُكْمِهِ الصَّادِقِ عَنْ مَنْحَاهُ الْمُتَرَفِّعِ ، وَإِخْلَاصِهِ الْمُتَّقِدِ وَحَمِيَّتِهِ الصَّادِقَةِ ، وَمِثْلُ الدُّكْتُورِ مُحَمَّدِ حُسَيْنٍ لَا يَفُوتُهُ أَنْ يَتَحَدَّثَ بِالْخَيْرِ عَنْ ذَوِي الْفَضْلِ مِمَّنْ يَتَّجِهُ اتِّجَاهُهُمْ فِي قَضِيَّةِ الْيَقَظَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ ، وَالتَّوَثُّبِ النَّاهِضِ لِشُعُوبِ الْإِسْلَامِ، وَإِنْ كَانَتْ مَرَاجِعُهُ عَنْ مُحَرَّمٍ لَا تَتَعَدَّىٰ الدِّيوَانَيْنِ الصَّغِيرَيْنِ اللَّذَيْنِ طُبِعَا فِي حَيَاةِ الشَّاعِرِ ، مَعَ بَعْضِ مَا جَاءَ فِي الصُّحُفِ وَهُوَ قَلِيلٌ مِنْ كَثِيرٍ ، وَيَقِينِي أَنَّ الدُّكْتُورَ مُحَمَّدَ مُحَمَّدٍ حُسَيْنٍ - رَحِمَهُ اللَّهُ - لَوْ أُتِيحَ لَهُ أَنْ يَطَّلِعَ عَلَىٰ دِيوَانِ مُحَرَّمٍ فِي مُجَلَّدَاتِهِ الْخَمْسَةِ ، لَانْفَتَحَ أَمَامَهُ مِنْ مَيَادِينِ الْقَوْلِ مَا يُحَدِّدُ مَكَانَةَ الشَّاعِرِ عَلَىٰ وَجْهِهَا الصَّحِيحِ ، وَكَذَلِكَ كُلُّ مَنْ كَتَبَ عَنِ الشَّاعِرِ قَبْلَ صُدُورِ دِيوَانِهِ الْمُكْتَمِلِ ، وَهِيَ مُنَاسَبَةٌ تَدْعُو الدَّارِسِينَ إِلَىٰ الْبَحْثِ عَنْ مُحَرَّمٍ الشَّاعِرِ بَعْدَ أَنْ سَهُلَتْ مَرَاجِعُهُ ، وَانْتَشَرَتْ بَيْنَ الْبَاحِثِينَ .

وَلَا يَفُوتُنِي أَنْ أُشِيرَ إِلَىٰ الدِّرَاسَةِ الْقَيِّمَةِ الَّتِي قَامَ بِهَا الْأُسْتَاذُ الدُّكْتُورُ سَعْدُ الدِّين الْجِيزَاوِيُّ فِي رِسَالَتَي الْمَاجِسْتِير وَالدُّكْتُورَاه الْخَاصَّتَيْنِ بِالْعَامِلِ الدِّينِيِّ فِي الشِّعْرِ الْمُعَاصِرِ ، حَيْثُ أَكْثَرَ الِاسْتِشْهَادَ بِقَصَائِدِ مُحَرَّم ، ثُمَّ أَفْرَدَ لَهُ فِي رِسَالَةِ الدُّكْتُورَاه بَحْثًا هَامًّا احْتَلَّ مَا بَيْنَ ص ٣٩١، وَص ٤٦٠ مِنَ الطَّبْعَةِ الْأُولَىٰ ، وَلَمْ يُبَالِغْ فِيمَا أَطْرَىٰ بِهِ الشَّاعِرَ الْكَبِيرَ لِأَنَّ دِيوَانَ مُحَرَّم يَنْطِقُ بِفَضْلِهِ الْجَهِيرِ ، وَهُوَ مَلْحَمَةٌ مِنَ الْجِهَادِ الْحَاسِمِ فِي مَيْدَانِ الْعِزَّةِ وَالِاسْتِقْلَالِ ، وَالْعَمَلِ عَلَىٰ نَهْضَةِ الْإِسْلَامِ .

وَلَقَدْ قُدِّمَتْ بَعْضُ الرَّسَائِلِ الْجَامِعِيَّةِ عَنْ مُحَرَّم ، حَيْثُ بَذَلَ أَصْحَابُهَا جُهْدًا يَسْتَحِقُّ التَّقْدِيرَ ، وَلَكِنِّي أَرَىٰ الطَّابَعَ التَّقْلِيدِيَّ فِي تَتَابُعِ الْفُصُولِ عَنْ أَغْرَاضِ الشِّعْرِ ، كَالسِّيَاسَةِ وَالِاجْتِمَاعِ وَالتَّهَانِي وَالْوَصْفِ وَالرِّثَاءِ وَالْغَزَلِ وَالْإِسْلَامِيَّاتِ يَتَّخِذُ خَطًّا وَاحِدًا بِحَيْثُ لَا يَكَادُ يَتَمَيَّزُ غَرَضٌ عَنْ غَرَضٍ ، أَرَىٰ هَذَا الطَّابَعَ التَّقْلِيدِيَّ يَحُولُ دُونَ تَقْدِيرِ الرِّسَالَةِ الْعَظِيمَةِ الَّتِي قَامَ بِهَا الشَّاعِرُ فِي حَرَكَةِ الْيَقَظَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ ، وَإِثَارَةِ الْوَعْيِ الدِّينِي ، وَلَعَلَّ مِنَ الْبَاحِثِينَ مَنْ خَصَّ هَذِهِ النَّاحِيَةَ بِرِسَالَةٍ مُسْتَقِلَّةٍ لَمْ أَسْعَدْ بِقِرَاءَتِهَا ، لِأَنَّ مَكَانَةَ مُحَرَّم التَّوْجِيهِيَّةَ لَا بُدَّ أَنْ تُلْفِتَ إِلَيْهَا مَنْ يَتَتَبَّعُ آثَارَهُ ، لِذَلِكَ رَأَيْتُ أَنْ أَكْتُبَ عَنْ مُحَرَّم مُسَلِّطًا الضَّوْءَ عَلَىٰ دَوْرِهِ الرِّيَادِيِّ فِي قِيَادَةِ الْحَرَكَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ دُونَ أَنْ أُغْفِلَ بَعْضَ اتِّجَاهَاتِهِ الْأُخْرَىٰ الَّتِي تَقْتَرِبُ مِنْ هَذَا الْمَنْحَىٰ النَّاهِضِ ، وَاخْتَرْتُ أَنْ يَكُونَ عُنْوَانُ الْكِتَابِ « **صَوْتُ الْإِسْلَامِ الصَّارِخُ أَحْمَدُ مُحَرَّم** » لِيُوَجِّهَ الْقَارِئَ الْكَرِيمَ إِلَىٰ حَقِيقَةِ مَا أَعْنِيهِ فِي هَذَا الْبَحْثِ الْمُتَوَاضِعِ .

وَإِذَا كَانَ الشَّاعِرُ الْكَبِيرُ - رَحِمَهُ اللَّهُ - رَائِدًا فِي هَذَا الاتِّجَاهِ الْمُعَاصِرِ، فَمِنَ الظُّلْمِ كُلِّ الظُّلْمِ أَنْ يَعْمَدَ بَعْضُ الدَّارِسِينَ إِلَى قَصِيدَةٍ مُبْتَدِئَةٍ قَالَهَا مُحَرَّمٌ مُنْذُ خَمْسَةٍ وَتِسْعِينَ عَامًا، وَهُوَ فَتًى مُبْتَدِئٌ، قَالَهَا فِي مُنَاسَبَةٍ دِينِيَّةٍ، فَتَكُونَ مَوْضِعَ الْمُوَازَنَةِ مَعَ قَصِيدَةٍ قِيلَتِ الْيَوْمَ، بَعْدَ أَنْ تَسَهَّلَ الطَّرِيقُ الشِّعْرِيُّ أَمَامَ مُرْتَادِيهِ، وَبَعْدَ أَنْ مَهَّدَ مُحَرَّمٌ بَابَ الْقَوْلِ فِي هَذَا الْمِضْمَارِ، فَبَدَأَ مُتَوَاضِعًا ثُمَّ اسْتَوَى شَاعِرًا عِمْلَاقًا، وَمِنَ الْجَائِزِ، إِذَا تَحَتَّمَ ذَلِكَ، أَنْ تَكُونَ الْمُوَازَنَةُ بَيْنَ قَصِيدَةٍ وَقَصِيدَةٍ فَقَطْ، أَمَّا أَنْ يَتَوَرَّطَ الدَّارِسُ فِي حُكْمٍ عَامٍّ عَلَى الشَّاعِرَيْنِ، وَلَيْسَ أَمَامَهُ غَيْرُ نَمُوذَجَيْنِ لَهُمَا مَعًا، فَمِمَّا لَا يَسِيرُ مَعَ النَّقْدِ الصَّحِيحِ، وَلِكُلِّ شَاعِرٍ مُبْدِعٍ سَبَحَاتُهُ الْعَالِيَةُ مَعَ مَا لَا يَرْقَى إِلَيْهَا فِي بَعْضِ الْأَحَايِينِ..

وَأَنَا فِي هَذَا الْكِتَابِ لَا أَسْتَطِيعُ أَنْ أُلِمَّ بِرَوَائِعِ مُحَرَّمٍ الْإِسْلَامِيَّةِ؛ لِأَنَّ آفَاقَهُ الرَّحِيبَةَ جَعَلَتْهُ يَطِيرُ كُلَّ مَطَارٍ دُونَ أَنْ يَقْدِرَ مُحَلِّلٌ جَادٌّ عَلَى اسْتِقْصَاءِ مَا أَبْدَعَ، وَإِذَنْ فَفِي بَعْضٍ مَا يُغْنِي عَنْ بَعْضٍ، وَسَيَجِدُ الْقَارِئُ عَنَاوِينَ تَتَقَارَبُ أَكْثَرَ مِمَّا تَتَبَاعَدُ، وَقَدْ يُسَبِّبُ ذَلِكَ بَعْضَ التَّدَاخُلِ، وَهَذَا مَعْقُولٌ مُنْتَظَرٌ فِي دِرَاسَةِ شَاعِرٍ يَسْتَلْهِمُ مَنْطِقَ الْإِسْلَامِ فِي كُلِّ مَا يَتَحَدَّثُ عَنْهُ، فَرُوحُ الْإِيمَانِ تُرَفْرِفُ فِي شَتَّى الْأَغْرَاضِ رَفْرَفَةً تَتَمَاثَلُ فِي مَعَانِي بَعْضِ الْأَبْيَاتِ، بَلْ إِنَّ الشَّاعِرَ يَحْتَاجُ إِلَى أَنْ يُكَرِّرَ نَفْسَهُ حِينًا، إِذْ يَرَى مَا قَالَهُ بِالْأَمْسِ جَدِيرًا بِالذُّيُوعِ فِي الْغَدِ، وَالنَّاصِحُ الْأَمِينُ يُكَرِّرُ النُّصْحَ دُونَ سَأَمٍ، وَحَظُّ الشَّاعِرِ هُنَا أَحْسَنُ مِنْ حَظِّ الْخَطِيبِ، إِذْ فِي وَشْيِ التَّصْوِيرِ وَسَبَحَاتِ الْخَيَالِ، مَا يَجْعَلُ الْمَعْنَى الْقَدِيمَ طَرِيفًا حَدِيثًا، أَمَّا الْخَطِيبُ فَيُعِيدُ مَا قَالَ بِأَلْفَاظٍ تَتَقَارَبُ، وَهُنَا تَكُونُ الْحُظْوَةُ لِلشَّاعِرِ الْفَنَّانِ.

لَا أُطِيلُ عَلَى الْقَارِئِ فِي هَذِهِ الْمُقَدِّمَةِ، فَأُجْمِلُ بِهِ أَنْ يَتْرُكَ الشَّاطِئَ إِلَى

الْعُبَابِ فِي فُصُولٍ تَتَابَعُ عَلَىٰ نَحْوٍ أَرْجُو أَنْ يَحُوزَ قَبُولَهُ ، وَإِذَا لَمْ يَجِدْ بَرَاعَةً فِي التَّحْلِيلِ فَسَيَجِدُهَا فِي الِاسْتِشْهَادِ بِالْمَأْثُورِ مِنْ قَوْلِ الشَّاعِرِ الْكَبِيرِ ..

الدُّكْتُور مُحَمَّدُ رَجَب الْبَيُّومِيُّ

سِيرَةٌ فَاضِلَةٌ

وَأَقُولُ سِيرَةٌ فَاضِلَةٌ دُونَ أَنْ أُغَالِيَ ؛ لِأَنَّ حيَاةَ مُحَرَّم كَانَتْ مِنَ الْوُضُوحِ الْبَارِزِ بِحَيْثُ يَسْتَطِيعُ دَارِسُهَا أَنْ يَهْتَدِيَ إِلَىٰ وَصْفِهَا الصَّحِيحِ ، وَالرَّجُلُ بَعْدُ لَمْ يَكُنْ ذَا مَنْصِبٍ يَتَنَقَّلُ بِهِ مِنْ مَكَانٍ إِلَىٰ مَكَانٍ ، إِذْ حُبِّبَ إِلَيْهِ أَنْ يَنْقَطِعَ لِلْأَدَبِ وَحْدَهُ شِعْرًا وَنَثْرًا ، وَكَانَ يُحِبُّ الِاعْتِزَالَ عَنِ النَّاسِ ، لَا عَنْ كَرَاهَةٍ غَاضِبَةٍ ، بَلْ لِيَفْرَغَ إِلَىٰ تَأَمُّلَاتِهِ الَّتِي تَمْلَأُ فِكْرَهُ ، ثُمَّ تَنْتَقِلُ إِلَىٰ خَاطِرِهِ فَتَغْمُرُهُ جَيَشَانًا وَتَدَفُّقًا ، وَإِذْ ذَاكَ يَنْدَفِعُ إِلَىٰ تَصْوِيرِ مَا فَكَّرَ فِيهِ ، وَمَا أَحَسَّ بِهِ ، فِي تَعْبِيرِ انْفَرَدَ بِهِ وَارْتَضَاهُ ، وَأَصْبَحَ مَعْرُوفًا بِهِ ، يَفْطِنُ إِلَيْهِ الْقَارِئُ ، وَإِنْ لَمْ يَكُنْ مَشْهُورًا بِاسْمِهِ ، وَتِلْكَ إِحْدَىٰ سِمَاتُ الْأَدِيبِ الْمَطْبُوعِ .

وُلِدَ أَحْمَدُ مُحَرَّم يَوْمَ السَّبْتِ الْخَامِسِ مِنْ مُحَرَّمٍ سَنَةَ ١٢٩٤هـ الْمُوَافِقِ ٢٠ مِنْ يَنَايِرَ سَنَةَ ١٨٧٧م كَمَا تَحَدَّثَ عَنْ نَفْسِهِ فِي رِسَالَةٍ بَعَثَ بِهَا إِلَىٰ مَنْ سَأَلَهُ شَيْئًا مِنْ تَارِيخِهِ ، وَهُوَ الْأَدِيبُ الدِّمَشْقِيُّ أَحْمَدُ عُبَيْدٍ صَاحِبُ كِتَابِ « مَشَاهِيرُ شُعَرَاءِ الْعَصْرِ فِي الْأَقْطَارِ الْعَرَبِيَّةِ » وَقَدْ أَخْطَأَ مَنِ ادَّعَىٰ غَيْرَ هَذَا التَّارِيخَ دُونَ أَنْ يَرْجِعَ إِلَىٰ مَا كَتَبَ الشَّاعِرُ عَنْ نَفْسِهِ ، لِأَنَّهُ

أَدْرَىٰ وَأَصْدَقُ ، وَقَدْ حَاوَلَ بَعْضُ الدَّارِسِينَ أَنْ يُرَجِّحَ رِوَايَةً عَلَىٰ رِوَايَةٍ ، وَهُوَ نِقَاشٌ فِي غَيْرِ مَوْضِعِهِ ، إِذْ لَيْسَ مِنْ هَمِّ الشَّاعِرِ أَنْ يَزِيدَ مِنْ عُمُرِهِ عَامًا أَوْ يُنْقِصَ عَامًا ، وَإِنَّمَا ذَكَرَ مَا كَانَ .

وَقَدْ كَانَ وَالِدُهُ « حَسَنُ أَفَنْدِي عَبْدُ اللَّهِ » تُرْكِيًّا مُسْتَعْرِبًا ، وَلَيْسَ لَهُ مِنْ تُرْكِيَّتِهِ غَيْرُ النَّسَبِ فَحَسْبُ ، لِأَنَّ لُغَتَهُ عَرَبِيَّةٌ ، وَقِرَاءَاتُهُ عَرَبِيَّةٌ ، وَمَوْلِدُهُ مِصْرِيٌّ ، لِذَلِكَ نَشَأَ مُحَرَّمُ نَشْأَةً عَرَبِيَّةً خَالِصَةً ، لَمْ يَتَعَلَّمِ التُّرْكِيَّةَ وَلَمْ يَنْطِقْ بِهَا ، وَأَنَا أَعْجَبُ لِقَوْمٍ يُطِيلُونَ الْقَوْلَ فِي غَيْرِ مَطَالٍ ، فَيُحَاوِلُونَ أَن يَرْجِعُوا مَوَاهِبَ الرَّجُلِ إِلَىٰ أَصْلِهِ ، وَتَأْثِيرُ الأَصْلِ مِمَّا لَا شَكَّ فِيهِ ، وَلَكِنَّ الثَّقَافَةَ هِيَ الْمَعِينُ الَّذِي يَرْتَشِفُ مِنْهُ الدَّارِسُ ، وَتُعْجِبُنِي فِي هَذَا الْمَجَالِ كَلِمَةٌ لِلدُّكْتُورِ زَكِيّ مُبَارَكٍ تَحْتَ عُنْوَانِ « الْعُرُوبَةُ لُغَةٌ لَا جِنْسٌ » قَالَ فِيهَا(١):

« أَنَا أُرِيدُ أَنْ تَكُونَ الْعُرُوبَةُ صِفَةً أَسَاسِيَّةً لِكُلِّ مَنْ يَتَكَلَّمُ بِاللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ ، وَلَوْ كَانَ أَجْدَادُهُ مِنَ الصِّينِ ، وَإِنَّ صَدْرِي لَيَضِيقُ بِالْخِلَافِ الَّذِي يَقَعُ مِنْ غَيْرِ مُوجِبٍ ، وَأَنَا أَدْعُو إِلَىٰ تَقْدِيسِ الْفِكْرَةِ الَّتِي تَقُولُ إِنَّ الْخَالَ وَالِدٌ ، وَالْعَرَبُ صَاهَرُوا أَكْثَرَ الشُّعُوبِ ، وَنَقَلُوا إِلَىٰ سُلَالَتِهِمْ كَثِيرًا مِنَ الْخَصَائِصِ بِفَضْلِ التَّسَامُحِ فِي الْعَصَبِيَّةِ الْجِنْسِيَّةِ ، فَكَيْفَ نَخْرُجُ عَلَىٰ تَقَالِيدِ أُولَئِكَ الأَسْلَافِ ، فَالْعُرُوبَةُ لُغَةٌ لَا جِنْسٌ » .

وَلَا يَقُولُ أَحَدٌ إِنَّ الْمُسْتَشْرِقَ يَحْذَقُ اللُّغَةَ الْعَرَبِيَّةَ وَلَا يَظُنُّ ظَانٌّ أَنَّهُ عَرَبِيٌّ ؛ لِأَنَّ الْمُسْتَشْرِقَ يَتَعَلَّمُ اللُّغَةَ ، وَلَكِنَّهُ لَا يَتَّخِذُهَا أَدَاةً لِلْحَدِيثِ الْعَامِّ بَيْنَهُ وَبَيْنَ النَّاسِ ، فَمَثَلُهُ مَثَلُ مَنْ يَتَعَلَّمُ لُغَةً أُورُبِّيَّةً مِنَ الْعَرَبِ ، إِنَّمَا نُرِيدُ أَنْ

(١) مجلة الرسالة ـ العدد ٤٣٨ ـ ١٩٤١/١١/٢٤م .

تَكُونَ الْعَرَبِيَّةُ لُغَةً عِنْدَ مَنْ يَتَكَلَّمُ بِهَا فِي أَحْوَالِهِ الْمَعِيشِيَّةِ فِي الْمَنْزِلِ وَالْمُجْتَمَعِ بِحَيْثُ تَكُونُ لُغَتَهُ الْأُولَىٰ ، وَمُحَرَّمٌ لَمْ يَعْرِفْ غَيْرَ الْعَرَبِيَّةِ لُغَةً يَتَحَدَّثُ بِهَا وَيَكْتُبُ وَيَنْظِمُ ، وَقَدْ كَانَ وَالِدُهُ كَذَلِكَ لَا يَقْرَأُ غَيْرَ الْعَرَبِيَّةِ ، وَقَدْ تَحَدَّثَ عَنْهُ فَقَالَ(١):

« كَانَ أَوَّلَ مَا قَرَأْتُ مِنْ شِعْرِ صَبْرِي أَبْيَاتٌ وَجَدْتُهَا مَجْمُوعَةً بِخَطِّ وَالِدِي ، دَوَّنَ فِيهَا مَا تَلَقَّفَهُ مِنْ شِعْرِ أُدَبَاءِ عَصْرِهِ فِي رِحْلَاتِهِ إِلَىٰ الْقَاهِرَةِ ، وَكَانَ رَحِمَهُ اللَّهُ يُخَالِطُهُمْ وَيَشْهَدُ مَجَالِسَهُمْ ، وَمِنْ هَؤُلَاءِ جَمَاعَةٌ مِنَ الشُّعَرَاءِ الَّذِينَ جَمَعَ الْعُنْصُرُ التُّرْكِيُّ الْكَرِيمُ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ وَالِدِي .. فَإِذَا عَادَ مِنْ إِحْدَىٰ هَذِهِ الرِّحْلَاتِ كَانَ أَوَّلُ مَا يُتْحِفُنِي بِهِ مِنَ الْهَدَايَا مَا اشْتَرَىٰ مِنَ الْكُتُبِ وَمَا حَمَلَ مِنَ الْأَشْعَارِ » .

وَيَقُولُ مُحَرَّمٌ فِي رِسَالَةٍ بَعَثَ بِهَا إِلَىٰ الْأُسْتَاذِ حَسَنِينَ مَحْمُودِ حَسَنِين(٢):

« وُلِدتُ مِنْ أَبٍ تُرْكِيٍّ ، كَانَ رَحِمَهُ اللَّهُ شَدِيدَ الشَّغَفِ بِاللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ ، وَبِالشِّعْرِ خَاصَّةً ، وَحَدَثَ أَنِ انْقَطَعْتُ عَنِ الدِّرَاسَةِ لِأَسْبَابٍ خَاصَّةٍ ، فَأَحَالَنِي وَالِدِي عَلَىٰ مَكْتَبَتِهِ الَّتِي كَانَتْ حَافِلَةً بِشَتَّىٰ أَنْوَاعِ الْكُتُبِ الْأَدَبِيَّةِ وَالْعِلْمِيَّةِ ، ثُمَّ وَجَّهَنِي تَوْجِيهًا شَدِيدًا إِلَىٰ الشِّعْرِ ، وَجَعَلَ لِي جَائِزَةً عَلَىٰ نَظْمِهِ ، وَكُنْتُ مُسْتَعِدًّا بِطَبْعِي لِهَذَا الْفَنِّ فَأَقْبَلْتُ بِكُلِّيَّتِي عَلَيْهِ ، وَشَاءَ اللَّهُ أَنْ أَكُونَ مِنْ رِجَالِهِ » .

---

(١) مجلة أبولو - أكتوبر سنة ١٩٣٤م .

(٢) الدّيوان طبعة سنة ١٩٨٤ ج ١، ص ٩.

أَمَّا انْقِطَاعُ مُحَرَّمٍ عَنِ الدِّرَاسَةِ فَقَدْ كَانَ لِضِيقِهِ بِأُسْلُوبِ التَّدْرِيسِ حِينَئِذٍ، لِأَنَّهُ قَبْلَ أَنْ يَلْتَحِقَ بِإِحْدَىٰ الْمَدَارِسِ الابْتِدَائِيَّةِ بِالْقَاهِرَةِ كَانَ قَدْ حَفِظَ الْقُرْآنَ بِإِحْدَىٰ مَدَارِسِ قُرَىٰ الْبُحَيْرَةِ، وَتَعَلَّمَ فِي مَنْزِلِ أَبِيهِ مَبَادِئَ الْقِرَاءَةِ وَالْكِتَابَةِ عَلَىٰ يَدِ مُعَلِّمٍ خَاصٍّ أَحْضَرَهُ وَالِدُهُ لِتَرْبِيَتِهِ الثَّقَافِيَّةِ، وَحِينَ انْتَقَلَ إِلَىٰ الْمَدْرَسَةِ لَمْ يَجِدْ بِهَا جَوَّ الْقُرْآنِ وَالشِّعْرِ وَالدِّينِ، وَهِيَ الْمَوَادُّ الَّتِي قَامَ أُسْتَاذُهُ بِتَدْرِيسِهَا لَهُ فِي بَيْتِ أَبِيهِ، فَكَتَبَ إِلَىٰ وَالِدِهِ، وَهُوَ فِي سِنِّ الْخَامِسَةَ عَشْرَةَ مِنْ عُمُرِهِ، يَشْكُو انْقِبَاضَهُ عَنْ دُرُوسِ الْمَدْرَسَةِ، وَيَطْلُبُ الْعَوْدَةَ إِلَىٰ الْقَرْيَةِ، حَيْثُ كَانَ وَالِدُهُ يَعْمَلُ نَاظِرًا لِلزِّرَاعَةِ لَدَىٰ بَعْضِ الْأَعْيَانِ.

وَقَدِ اسْتَجَابَ الْوَالِدُ لِرَغْبَةِ وَلَدِهِ فَاسْتَدْعَاهُ، لِيُحْضِرَ لَهُ أُسْتَاذًا أَزْهَرِيًّا يُتْقِنُ الْعَرَبِيَّةَ، وَيُجِيدُ تَدْرِيسَهَا، فَعَادَ النَّاشِئُ الْمُتَطَلِّعُ إِلَىٰ مَا أَلِفَ مِنْ جَوِّ الْأَدَبِ وَالشِّعْرِ وَالتَّارِيخِ! وَقَدْ فَكَّرْتُ فِي عَقْلِيَّةِ هَذَا الْأَبِ الَّذِي قَبِلَ عَنْ سَمَاحَةٍ أَنْ يَتْرُكَ وَلَدُهُ الْمَدْرَسَةَ سَرِيعًا إِلَىٰ دُرُوسِ الْمَنْزِلِ، إِذْ لَوْ كَانَ أَحَدٌ سِوَاهُ مَا قَبِلَ هَذَا الْأَمْرَ بِسُهُولَةٍ يَسِيرَةٍ، وَأَكْبَرُ الظَّنِّ أَنَّهُ لَمَسَ بَوَاكِيرَ الشِّعْرِ تَلُوحُ بَوَارِقُهَا فِي نَفْسِ وَلَدِهِ؛ لِأَنَّهُ أَرْسَلَ إِلَيْهِ فِي سِنِّ الْخَامِسَةَ عَشْرَةَ قَصِيدَةً مُسْتَعْطِفَةً، وَقَدْ قَرَأَهَا مُتَدَبِّرًا، فَعَرَفَ أَنَّ وَلَدَهُ سَيَكُونُ ذَا شَأْنٍ فِي عَالَمِ الشِّعْرِ إِذَا أُتِيحَ لَهُ السَّبِيلُ إِلَىٰ إِنْمَاءِ مَوْهِبَتِهِ، وَمِنْ هُنَا كَانَ يَذْهَبُ إِلَىٰ الْقَاهِرَةِ لِيَعُودَ إِلَيْهِ بِمَا اشْتَرَىٰ مِنْ نَفَائِسِ الْمَطْبُوعَاتِ الْأَدَبِيَّةِ، وَقَدْ حَقَّقَ اللَّهُ رَجَاءَهُ فَمَا مَضَىٰ عَامَانِ حَتَّىٰ كَانَ وَلَدُهُ شَاعِرًا مَرْمُوقًا فِي سِنِّ السَّابِعَةَ عَشْرَةَ، إِذْ قَامَتْ مُسَابَقَةٌ شِعْرِيَّةٌ بَيْنَ الْأُدَبَاءِ نَالَ جَائِزَتَهَا، كَمَا اخْتِيرَتْ لَهُ بَعْضُ الْقَصَائِدِ الَّتِي قَالَهَا فِي الْخَلِيفَةِ مَعَ الْمَرْمُوقِينَ النَّابِهِينَ مِنْ شُعَرَاءِ الْعَصْرِ وَهُوَ

فِي هَذِهِ السِّنِّ الْبَاكِرَةِ ، كَمَا سَأُشِيرُ إِلَىٰ ذَلِكَ بِبَعْضِ التَّفْصِيلِ فِي فَصْلٍ قَادِمٍ[(١)]! وَإِذَنْ فَلَمْ تَكُنْ مُجَازَفَةً خَطِيرَةً أَنْ يَتْرُكَ التِّلْمِيذُ مَدْرَسَتَهُ وَأَنْ يَقْبَلَ الْوَالِدُ ذَلِكَ فِي ارْتِيَاحٍ .

أَكَادُ أَجْزِمُ أَنَّ سِيرَةَ الشَّاعِرِ الْكَبِيرِ مَحْمُودِ سَامِي الْبَارُودِيِّ كَانَ لَهَا أَثَرُهَا الْهَامُّ فِي نَفْسِ الْأَبِ وَاتِّجَاهِ الِابْنِ مَعًا ، فَمَحْمُودُ سَامِي الْبَارُودِيُّ زَعِيمُ الشِّعْرِ فِي عَصْرِهِ ، وَبَاعِثُ نَهْضَتِهِ التَّجْدِيدِيَّةِ فِي الْعَالَمِ الْعَرَبِيِّ ، لَمْ يَبْلُغْ مَا بَلَغَ مِنَ الزَّعَامَةِ الْأَدَبِيَّةِ لِأَنَّهُ تَخَرَّجَ فِي الْمَدْرَسَةِ الْحَرْبِيَّةِ ، وَزُمَلَاؤُهُ بِهَا الَّذِينَ نَالُوا أَعْلَىٰ مَرَاتِبِ الْقِيَادَةِ الْعَسْكَرِيَّةِ لَا يَكَادُ الْوَاحِدُ مِنْهُمْ يَنْظِمُ بَيْتًا ، وَلَكِنَّهُ كَانَ أُسْتَاذَ نَفْسِهِ حِينَ عَكَفَ عَلَىٰ دَوَاوِينِ الشُّعَرَاءِ فِي الْجَاهِلِيَّةِ وَالْإِسْلَامِ حِفْظًا وَاخْتِيَارًا وَتَصْنِيفًا ؛ فَأَصْبَحَ بِدِرَاسَتِهِ الْخَاصَّةِ عَلَمَ الشِّعْرِ الْمُفْرَدَ ، وَتَطَلَّعَ النَّاشِئُونَ مِنْ هُوَاةِ الْأَدَبِ إِلَىٰ مَنْزِلَتِهِ ، وَهَذَا مَا تَأَكَّدَ مِنْهُ الشَّاعِرُ النَّاشِئُ حِينَ رَأَىٰ أَنْ يَكُونَ أُسْتَاذَ نَفْسِهِ فِي دِرَاسَةِ الدَّوَاوِينِ الشِّعْرِيَّةِ ، وَحِينَ عَكَفَ عَلَىٰ دَوَاوِينِ الْفُحُولِ اسْتِظْهَارًا وَتَأَمُّلًا ، حَتَّىٰ وَعَتْ ذَاكِرَتُهُ فَرَائِدَ الشِّعْرِ الْعَرَبِيِّ فِي شَتَّىٰ عُصُورِهِ ، وَقَارِئُ شِعْرِ مُحَرَّمٍ يَلْمَسُ ثَرْوَتَهُ الطَّائِلَةَ الْحَافِلَةَ بِذَخَائِرِ الشِّعْرِ الْعَرَبِيِّ ؛ لِأَنَّ الَّذِي يَنْحُو مَنْحَىٰ مُحَرَّمٍ فِي أَصَالَتِهِ الْعَرَبِيَّةِ ، وَدِيبَاجَتِهِ الْبَيَانِيَّةِ لَا بُدَّ أَنْ يَكُونَ قَارِئًا مُنْقَطِعَ النَّظِيرِ ، وَقَدْ كَتَبَ الشَّاعِرُ عِدَّةَ دِرَاسَاتٍ عَنِ الشُّعَرَاءِ إِسْمَاعِيلَ صَبْرِي وَحَافِظِ إِبْرَاهِيمَ وَمُحَمَّدٍ تَوْفِيقٍ الْبَكْرِيِّ فِي مَجَلَّةِ أَبُولُّو ، فَأَبْدَىٰ مِنْ قُوَّةِ الْحَافِظَةِ ، وَشُمُولِ الدِّرَاسَةِ مَا كَانَ مَوْضِعَ الدَّهْشَةِ حَقًّا ، إِذْ كَانَ يَأْتِي بِالْبَيْتِ الْوَاحِدِ لِأَحَدِ هَؤُلَاءِ فَيَذْكُرُ فِي مَعْنَاهُ أَوْ مَا يَقْرُبُ مِنْهُ أَبْيَاتًا كَثِيرَةً تَتَجَاوَزُ الْعَشَرَةَ

(١) فصل «الخلافة الإسلامية» .

مِنْ شَتَّى الْعُصُورِ، وَلَا يُتَاحُ ذَلِكَ إِلَّا لِشَاعِرٍ رَاوِيَةٍ! رَاوِيَةٍ مِنْ طِرَازِ حَمَّادٍ وَالْأَصْمَعِيِّ فِي الْقَدِيمِ، وَالشَّنْقِيطِيِّ وَالْمَرْصَفِيِّ فِي الْحَدِيثِ، وَأَضْرِبُ مَثَلًا وَاحِدًا يُؤَكِّدُ مَا قُلْتُهُ، فَقَدْ وَقَفَ مُحَرَّمٌ عِنْدَ قَوْلِ إِسْمَاعِيلَ صَبْرِي[1]:

هَلْ عِنْدَ ذَاكَ السِّرْبِ أَنَّا بَعْدَهُ   فِي الْحَيِّ مِنْ آمَاقِنَا نَتَدَفَّقُ

فَقَالَ إِنَّ أَثَرَ الْعَبْقَرِيَّةِ يَتَجَلَّى فِي قَوْلِ الشَّاعِرِ «مِنْ آمَاقِنَا نَتَدَفَّقُ» وَصَبْرِي مِنْ هَذَا الْأَثَرِ بَيْنَ حَالَتَيْنِ، حَالَةِ الْبَصَرِ بِأَسْرَارِ الْفَنِّ وَدَقَائِقِهِ، وَحَالَةِ الاتِّكَاءِ عَلَى ...يمِ وَإِعَادَتِهِ فِي لِبَاسٍ جَدِيدٍ مِنَ اللَّفْظِ الْمَصْقُولِ، وَالْكَلَامِ الْمُنَمَّقِ .. ثُمَّ ... يَعْرِضُ أَبْيَاتًا تَحُومُ حَوْلَ هَذَا الْمَعْنَى فَذَكَرَ قَوْلَ الشَّرِيفِ الرَّضِي:

لقد جل قَدْرُ الرُّزْءِ أَنْ يَبْلُغَ الْبُكَى   مَدَاهُ وَلَوْ أَنَّ الْقُلُوبَ دُمُوعُ

وَقَوْلَ الْبَهَاءِ زُهَيْرٍ:

وَأُقْسِمُ مَا ضَاعَتْ دُمُوعِي عَلَيْكُمُ   وَلَوْ أَنَّ رُوحِي فِي الدُّمُوعِ تَسِيلُ

وَقَوْلَ الْآخَرِ:

اللَّهَ فِي مُغْرَمٍ حُشَاشَتُهُ   مُنْهَلَّةٌ فِي الْأَدْمُعِ الذُّرُفِ

وَقَوْلَ الْمُتَنَبِّي:

أَشَارُوا بِتَسْلِيمٍ فَجُدْنَا بِأَنْفُسٍ   تَسِيلُ مِنَ الْآمَاقِ وَالسَّمُّ[2] أَدْمُعُ

وَقَوْلَهُ:

أَرْوَاحُنَا انْهَمَلَتْ وَعِشْنَا بَعْدَهَا   مِنْ بَعْدِ مَا قَطَرَتْ عَلَى الْأَقْدَامِ

(١) مجلة أبولو أكتوبر سنة ١٩٣٤م ص ١٣٥.
(٢) السّم: الاسم.

وَقَوْلَ غَيْرِهِ :

تَرَفَّقْ فَمَا هَذِي دُمُوعِي الَّتِي تَرَىٰ ... وَلَكِنَّهَا نَفْسٌ تَذُوبُ فَتَقْطُرُ

وَقَوْلَ ابْنِ قَاسِمٍ :

لَوْ عَايَنَتْ عَيْنَاكَ قَذْفِي مِنْ فَمِي ... كَبِدِي ، وَدَمْعِيَ مَعْ دَمِي مَسْفُوحُ

لَرَأَيْتَ مَقْتُولًا ، وَلَمْ تَرَ قَاتِلًا ... وَعَلِمْتَ أَنِّي مِنْ فَمِي مَذْبُوحُ

وَقَوْلَ الْآخَرِ :

مَلَكْتُ دُمُوعَ الْعَيْنِ ثُمَّ رَدَدْتُهَا ... إِلَىٰ نَاظِرِي ، فَالْعَيْنُ فِي الْقَلْبِ تَدْمَعُ !

فَهَذَا مَعْنَى تَعَقُّبِهِ مُحَرَّمٌ فِي عِدَّةِ أَبْيَاتٍ ، وَكَذَلِكَ فَعَلَ فِي بُحُوثٍ ضَافِيَةٍ مُتَعَدِّدَةِ الصَّفَحَاتِ ، مِمَّا يُؤَكِّدُ ثَرَاءَهُ الشِّعْرِيَّ ، وَأَنَّ دِرَاسَتَهُ الْخَاصَّةَ سَاعَدَتْهُ عَلَى التَّعَمُّقِ فِيمَا لَا يَبْلُغُهُ الْمُتَخَصِّصُونَ ! وَقَدْ قَالَ فِي مُقَدِّمَةِ الطَّبْعَةِ الْأُولَىٰ مِنْ دِيوَانِهِ الصَّادِرِ سَنَةَ ١٩٠٨[1]:

« وَخَيْرُ مَا يَهْتَدِي بِهِ الطَّالِبُ إِلَىٰ قَرْضِ الشِّعْرِ الْجَيِّدِ ، وَالْإِحَاطَةِ بِغُرَرِهِ وَمَحَاسِنِهِ أَنْ يُكْثِرَ مِنْ قِرَاءَةِ دَوَاوِينِ الْبُلَغَاءِ ، وَحِفْظِ الْجَيِّدِ مِنْ أَشْعَارِهِمْ حَتَّىٰ تَرْسَخَ فِي نَفْسِهِ مَلَكَةُ الشِّعْرِ وَالْبَلَاغَةِ ، فَيَلْحَقَ بِآثَارِهِمْ ، وَيَدْرُجَ عَلَىٰ سَنَنِهِمْ ، وَلِسَلَامَةِ الذَّوْقِ صِلَةٌ بِهَذِهِ الصِّنَاعَةِ ، بَلْ هِيَ أَشَدُّ أَرْكَانِهَا وَأَوَّلُ شَرَائِطِهَا ، فَإِذَا فَقَدَهَا الشَّاعِرُ فَقَدَ كُلَّ شَيْءٍ ، وَإِذَا أُوتِيَهَا فَقَدْ أُوتِيَ كُلَّ شَيْءٍ » .

وَمِنْ طَالِعِ مُحَرَّمٍ أَنَّهُ دَرَسَ التَّارِيخَ الْإِسْلَامِيَّ قِرَاءَةً فِي كُتُبِهِ الْمُتَدَاوَلَةِ مَعَ التُّرَاثِ الْأَدَبِيِّ فِي وَقْتٍ وَاحِدٍ ، فَأَلْهَمَتْهُ سِيَرُ الصَّفِّ الْأَوَّلِ مِنْ أَئِمَّةِ الصَّحَابَةِ

---

(١) الْمقدمة ص ٦ الطّبعة الأُولَىٰ من الدّيوَان سنة ١٩٠٨م .

وَعُظَمَاءِ الْإِسْلَام سُلُوكًا مِثَالِيًا ، جَعَلَهُ دَرْسًا أَخْلَاقِيًا اصْطَفَاهُ مِنْ أَصْفَى مَنَابِعِهِ ، وَ إِذْ ذَاكَ فَهِمَ أَنَّ الشِّعْرَ رِسَالَةٌ لَا تَرَفٌ ، وَأَنَّ صَاحِبَ هَذِهِ الرِّسَالَةِ يَجِبُ أَنْ يَلْتَزِمَ بِضَوَابِطِ السُّلُوكِ الْمِثَالِيِّ لِيَكُونَ قَائِدَ أُمَّةٍ ، وَمُرْشِدَ جَمَاعَةٍ ! هَذَا الْفَهْمُ الَّذِي اعْتَنَقَهُ مُحَرَّمٌ فَهِمَهُ مُحَمَّدُ إِقْبَال فِي الْهِنْدِ ، وَمُحَمَّدُ عَاكِف فِي تُرْكِيَا ، فَكَانَ ثَلَاثَتُهُمْ جَدِيرًا بِأَنْ يَكُونَ شَاعِرَ الْإِسْلَام فِي مَوْطِنِهِ ، وَبِهَذَا الْفَهْمِ أَبَى مُحَرَّمٌ أَنْ يَكُونَ بُوقًا لِبَعْضِ الْأَحْزَابِ السِّيَاسِيَّةِ ، أَوْ صَنِيعَةَ رَجُلٍ عَظِيمٍ يُشِيدُ بِذِكْرِهِ ؛ لِأَنَّهُ صَاحِبُ مَنْصِبٍ رَسْمِيٍّ ، وَمِنْ هُنَا كَانَ الرَّجُلُ بَائِسَ الْحَظِّ فِي دُنْيَاهُ ، إِذْ لَمْ يَجِدْ مَنْ يَأْخُذُ بِنَاصِرِهِ فِي سَاحَةِ الْعَيْشِ ، فَاكْتَفَى قَانِعًا بِالْكَفَافِ ، أَمَّا رِسَالَةُ الشَّاعِرِ كَمَا فَهِمَهَا مُحَرَّمٌ فَتَلُوحُ فِي قَوْلِهِ عَنْ رِسَالَةِ صَاحِبِ الْقَلَمِ فِي مَوْطِنِهِ(١):

« إِنَّهَا رِسَالَةُ التَّهْذِيبِ وَالْإِصْلَاحِ لِقَوْمِهِ أَوَّلًا ، وَلِغَيْرِهِمْ مِنْ شُعُوبِ الْأَرْضِ ثَانِيًا ، فَهِيَ عَلَى هَذَا الْوَصْفِ رِسَالَةُ الْإِنْسَانِيَّةِ عَامَّةً عَلَى اخْتِلَافِ أَجْنَاسِهَا وَأَوْطَانِهَا ، تَتَلَقَّى فِيهَا مِنَ التَّعَالِيمِ الْفَاضِلَةِ ، وَالْمَبَادِئِ الْحَكِيمَةِ ، مَا يَرْقَى بِهَا إِلَى مُسْتَوًى مِنَ الْفَضِيلَةِ يَكُونُ لَهَا عَرْشًا مَكِينًا مِنَ الْحِكْمَةِ ، ذَلِكَ هُوَ أَثَرُ الشَّاعِرِ الصَّالِحِ فِي حَيَاةِ الْأُمَمِ وَالْمَمَالِكِ ، وَهُوَ يَسْتَمِدُّ قُوَّةَ التَّأْثِيرِ ، وَأَسْبَابَ النَّجَاحِ فِي نَشْرِ رِسَالَتِهِ ، وَحَمْلِ النَّاسِ عَلَى قَبُولِهَا ، مِنْ مَقْدِرَتِهِ الْفَنِّيَّةِ ، وَمِنْ صِدْقِ إِيمَانِهِ هُوَ نَفْسُهُ بِمَا فِي هَذِهِ الرِّسَالَةِ مِنْ حَقٍّ ، وَبِمَا لَهَا مِنْ جَمَالٍ ، فَالْمَقْدِرَةُ الْفَنِّيَّةُ وَصِدْقُ الْإِيمَانِ بِرِسَالَةِ الشَّاعِرِ لَهُمَا الْأَثَرُ فِي رِسَالَتِهِ التَّوْجِيهِيَّةِ » .

(١) مقدمة الجزء الأول الطبعة الثانية سنة ١٩٨٤م ص ١٠.

وَمَا أَكْثَرَ مَا يَتَحَدَّثُ النَّاسُ عَنِ السُّلُوكِ الْإِنْسَانِيِّ الرَّفِيعِ، وَمَا أَكْثَرَ مَا يَهْتِفُ بِهِ فَرِيقٌ مِنَ الْأُدَبَاءِ فِي قَصَائِدِهِمْ وَمَقَالَاتِهِمْ، وَلَكِنَّهُمْ يَعْجَزُونَ عَنْ تَحْقِيقِ مَا يَقُولُونَ فِي دُنْيَا الْوَاقِعِ، فَتَضِيعُ أَقْوَالُهُمْ هَبَاءً؛ لِأَنَّ صَاحِبَ هَذِهِ الْأَقْوَالِ رَجُلُ أَلْفَاظٍ لَا رَجُلُ أَعْمَالٍ، وَلَمْ يَكُنْ أَحْمَدُ مُحَرَّم مِنْ هَذَا الطِّرَازِ، بَلْ أَلْزَمَ نَفْسَهُ كُلَّ مَا نَادَىٰ بِهِ مِنْ مُثُلٍ فِي دُنْيَا السُّلُوكِ، وَوَاقِعُ حَيَاتِهِ الصَّرِيحِ يَنْطِقُ بِذَلِكَ، فَكَمْ عُرِضَ عَلَيْهِ مِنْ مَنَاصِبَ فِي دِيوَانِ الْأَوْقَافِ، وَبَعْضِ الْمَكْتَبَاتِ الْحُكُومِيَّةِ، وَالدَّوَائِرِ التَّعْلِيمِيَّةِ، لِيَكُونَ بِذَلِكَ مُنْضَمًّا إِلَىٰ مَذْهَبٍ سِيَاسِيٍّ يَجِدُ فِي شِعْرِهِ تَأْيِيدًا لَهُ فِي الْمُحِيطِ الْعَامِّ، فَلَمْ يَقْبَلْ مَا عُرِضَ، عَلَىٰ شِدَّةِ حَاجَتِهِ الْمَادِّيَّةِ، وَبَرِيقِ الْعَرْضِ الْخَالِبِ، وَأَذْكُرُ مَثَلًا وَاقِعِيًّا لَمْ يَكْتُبْهُ أَحَدٌ مِمَّنْ أَلَّفَ عَنْ مُحَرَّم، وَلَكِنِّي قَرَأْتُهُ بِمَجَلَّةِ الثَّقَافَةِ[1]. وَمُنَاسَبَتُهُ أَنَّ الْكَاتِبَ الْكَبِيرَ مُحَمَّد كُرْدِ عَلِيٍّ نَشَرَ مَقَالًا عَنْ ذِكْرَيَاتِهِ مَعَ أُدَبَاءِ مِصْرَ حِينَ قَدِمَ فِي زِيَارَتِهِ الْأُولَىٰ لِلْقَاهِرَةِ، وَذَكَرَ اسْمَ أَحْمَدَ مُحَرَّم فِيمَنْ عَرَفَهُمْ مِنْ كِبَارِ الْأُدَبَاءِ وَالْبَاحِثِينَ، فَأُتِيحَتِ الْفُرْصَةُ لِلْأُسْتَاذِ أَحْمَدَ مُحَرَّم أَنْ يُعَقِّبَ عَلَىٰ مَقَالِ الْأُسْتَاذِ مُحَمَّدِ كُرْدِ عَلِيٍّ بِمَا يَكْشِفُ نَوْعًا رَفِيعًا مِن سُلُوكِهِ الْخُلُقِيِّ النَّزِيهِ دُونَ أَنْ يَقْصِدَ الشَّاعِرُ إِلَىٰ مُبَاهَاةٍ، وَلَكِنَّهُ اسْتِطْرَادٌ حَسَنٌ فِي مَجَالِ الذِّكْرَيَاتِ، وَقَدْ قَرَأَ الْأُسْتَاذُ مُحَمَّدُ كُرْدِ عَلِيٍّ مَقَالَ الْأُسْتَاذِ أَحْمَدَ مُحَرَّم فَلَمْ يُبْدِ اعْتِرَاضًا مَا عَلَىٰ مَا تَضَمَّنَ مِنَ الْحَقَائِقِ، فَهِيَ إِذَنْ حَادِثَةٌ صَحِيحَةٌ لَا مِرْيَةَ فِي تَحْقِيقِهَا، وَإِنِّي لَأُوجِزُهَا مَا اسْتَطَعْتُ، وَفِي الْمَصْدَرِ الْأَوَّلِ مَزِيدٌ لِمَنْ يُرِيدُ الِاسْتِقْصَاءَ!.

(١) مجلة الثقافة ـ العدد «٧٨» ١٩٤٠/٦/٢٥م.

كَانَ بِمِصْرَ لِأَوَائِلِ هَذَا الْقَرْنِ جَرِيدَةٌ تُسَمَّىٰ «الرَّائِدُ الْمِصْرِيُّ» تَهْتَمُّ بِالشُّئُونِ السِّيَاسِيَّةِ وَالْأَدَبِيَّةِ مَعًا. وَكَانَ أَحْمَدُ مُحَرَّم مِمَّنْ يَخُصُّهَا عَلَى الْبُعْدِ بِمَقَالَاتٍ وَقَصَائِدِهِ حَتَّىٰ اشْتُهِرَتْ بِهِ، وَاشْتُهِرَ بِهَا حِقْبَةً مِنَ الزَّمَنِ، وَهُوَ فَتًى يَافِعٌ يَقْبَعُ فِي مَدِينَةِ دَمَنْهُورَ دُونَ أَنْ تَأْخُذَ عَيْنَيْهِ أَضْوَاءُ الْعَاصِمَةِ الْكُبْرَىٰ، ثُمَّ وَاتَتْهُ الْفُرْصَةُ إِذْ جَاءَتْهُ رِسَالَةٌ مِنْ «صَاحِبِ الرَّائِدِ الْمِصْرِيِّ» تَدْعُوهُ إِلَىٰ الْعَمَلِ بِالْجَرِيدَةِ مُحَرِّرًا دَائِمًا يُقِيمُ بِالْقَاهِرَةِ، وَيَتَنَاوَلُ الرَّاتِبَ الْمُجْزِيَ، فَعَرَضَ الْأَمْرَ عَلَىٰ وَالِدِهِ، فَرَآهَا فُرْصَةً سَانِحَةً لِتَأَلُّقِ مَجْدِهِ وَانْتِشَارِ أَدَبِهِ، وَهَيَّأَ لَهُ أَسْبَابَ الرِّحْلَةِ مُوصِيًا إِيَّاهُ بِالْكِيَاسَةِ وَالْحِيطَةِ لِيَأْخُذَ مَكَانَهُ اللَّامِعَ بَيْنَ شُعَرَاءِ الْعَصْرِ وَأَعْلَامِهِ، وَيَطْرَحَ عَنْهُ خُمُولَ الرِّيفِ، وَقَدْ خَفَّ الشَّاعِرُ الشَّابُّ إِلَىٰ الْقَاهِرَةِ، وَاتَّجَهَ إِلَىٰ إِدَارَةِ الْجَرِيدَةِ، فَشَاهَدَ الْأُسْتَاذَ مُحَمَّدَ كُرْدِ عَلِيٍّ أَوَّلَ مَنْ شَاهَدَ مِنَ الْحَاضِرِينَ، فَتَعَارَفَا وَتَصَافَحَا، وَعَلِمَ مُحَرَّمٌ أَنَّ الْأُسْتَاذَ مُحَمَّدَ كُرْدِ عَلِيٍّ هُوَ الْمُحَرِّرُ الْوَحِيدُ بِالْمَجَلَّةِ، وَفَهِمَ مِنْ لَحْنِ الْحَدِيثِ مَا يَدُلُّ عَلَىٰ أَنَّ صَاحِبَ الْجَرِيدَةِ يُرِيدُ أَنْ يَسْتَبْدِلَهُ بِغَيْرِهِ، وَأَنَّ زِيَارَةَ مُحَرَّم لِهَذَا الْغَرَضِ بِالذَّاتِ، وَكَانَ مِمَّا قَالَهُ الْأُسْتَاذُ كُرْدُ عَلِيٍّ: إِنَّهُ وَحِيدٌ بِالْقَاهِرَةِ وَأَنَّهُ يَعُولُ وَالِدَتَهُ وَلَا وَجْهَ لِلرِّزْقِ غَيْرَ مَكَانِهِ فِي جَرِيدَةِ «الرَّائِدِ الْمِصْرِيِّ»، ثُمَّ أَسْمَعَ الشَّاعِرَ بَيْتًا لِلْبَارُودِيِّ قَالَ فِيهِ:

أُحِسُّ فِي نَفْسِي دَبِيبَ الْمُنَىٰ ... وَأَلْمَحُ الشُّبْهَةَ فِي خَاطِرِي

وَقَدْ فَهِمَ الشَّاعِرُ كُلَّ مَا عَنَاهُ الْأُسْتَاذُ مُحَمَّدُ كُرْدِ عَلِيٍّ، وَسَلَّمَ عَلَيْهِ بِحَرَارَةٍ وَاشْتِيَاقٍ، ثُمَّ تَوَجَّهَ إِلَىٰ مُقَابَلَةِ صَاحِبِ الْجَرِيدَةِ فَعَانَقَهُ فِي شَوْقٍ، وَأَخْبَرَهُ أَنَّهُ اخْتَارَهُ لِيَكُونَ صَاحِبَ الرَّأْيِ فِي إِعْدَادِ مَوَادِّ الْجَرِيدَةِ وَعَلَيْهِ أَنْ

يَكْتُبَ افْتِتَاحِيَّاتِهَا ، ثُمَّ أَوْصَاهُ بِكِتْمَانِ الْأَمْرِ عَنِ الْأُسْتَاذِ مُحَمَّدِ كُرْدِ عَلِيٍّ ؛ لِأَنَّهُ يُمَهِّدُ بِهِ لِاسْتِبْعَادِهِ ، وَانْتَقَلَ الْحَدِيثُ إِلَى عُنْوَانِ الِافْتِتَاحِيَّةِ الْقَادِمَةِ ، فَقَالَ صَاحِبُ الْجَرِيدَةِ :

إِنَّ فُلَانًا - يَعْنِي بَعْضَ الْكِبَارِ - تَعَرَّضَ لِغَضَبِ الْإِنْكِلِيزِ ، وَأُودِعَ السِّجْنَ لِأَسْبَابٍ أُخِذَتْ عَلَيْهِ ، وَسَيُقَدَّمُ قَرِيبًا لِلْمُحَاكَمَةِ ، وَبَيْنَ صَاحِبِ الْجَرِيدَةِ وَبَيْنَهُ عَدَاءٌ شَخْصِيٌّ ، كَمَا أَنَّ بَعْضَ الْجِهَاتِ يَسُرُّهَا أَنْ تُسْهِمَ الْجَرِيدَةُ فِي التَّنْدِيدِ بِالسَّجِينِ ، وَإِشَاعَةِ مَا يُدِينُهُ ، كَيْلَا يُفَاجَأَ الرَّأْيُ الْعَامُّ بِقَسْوَةِ الْحُكْمِ عَلَيْهِ ، وَعَلَيْكَ الْآنَ أَنْ تَجْعَلَ الْمَقَالَ الِافْتِتَاحِيَّ الْقَادِمَ تَشْهِيرًا بِالرَّجُلِ وَتَنْدِيدًا بِهِ !.

فَقَالَ مُحَرَّمٌ دَهِشًا : وَلَكِنِّي أَعْتَقِدُ أَنَّ الرَّجُلَ الْكَبِيرَ بَرِيءٌ ، وَأَنَّ مِنَ الظُّلْمِ الْفَادِحِ أَنْ نُجَازِيَ ذَوِي الْأَغْرَاضِ الْمَرِيضَةِ بِتَعْضِيدِهِمْ ، دُونَ أَنْ نَرْعَى أَمَانَةَ الْقَلَمِ !.

فَابْتَسَمَ صَاحِبُ الْجَرِيدَةِ ابْتِسَامَةً مَاكِرَةً ، ثُمَّ قَالَ فِي كِيَاسَةٍ : أَنْتَ صَغِيرٌ يَا بُنَيَّ ، وَسَتَعْرِفُ أَنَّ الْمُحَرِّرَ بِأَيِّ جَرِيدَةٍ لَا يَصْدُرُ عَنْ رَأْيِهِ فِيمَا يَعْتَقِدُ هُوَ ، وَلَكِنَّهُ مُوَظَّفٌ يَأْخُذُ رَاتِبَهُ مِنْ صَاحِبِ الْجَرِيدَةِ ، وَأَوَّلُ وَاجِبٍ عَلَيْهِ أَنْ يَضَعَ قَلَمَهُ تَحْتَ تَوْجِيهِهِ ، فَقُمِ الْآنَ ، وَاكْتُبْ مَقَالَكَ الِافْتِتَاحِيَّ لِأَقْرَأَهُ فِي الْغَدِ .

فَصَاحَ مُحَرَّمٌ قَائِلًا : يَا سَيِّدِي لَيْسَ صَاحِبُ الْقَلَمِ سِلْعَةً فِي يَدِ أَحَدٍ ، وَمَا جِئْتُ إِلَيْكَ إِلَّا لِأَكْتُبَ آرَائِي الْخَاصَّةَ فِي جَرِيدَتِكَ كَمَا كُنْتُ أَفْعَلُ حِينَ أُرَاسِلُهَا مِنْ دَمَنْهُورَ ، فَإِذَا رَفَضْتَ ذَلِكَ فَلَنْ أَبِيعَ كَرَامَتِي !.

قَالَ صَاحِبُ الْجَرِيدَةِ ، وَلَكِنَّ أَحَدًا لَنْ يَعْلَمَ أَنَّكَ كَاتِبُ الْمَقَالِ ، وَلَنْ

تُوَقِّعُهُ بِاسْمِكَ فَمَاذَا يَضِيرُكَ !.

فَقَالَ مُحَرَّمٌ ، يَكْفِي أَنْ أَعْلَمَ ، وَأَكُونَ مُتَّهَمًا أَمَامَ نَفْسِي !.

ثُمَّ بَادَرَ بِالْخُرُوجِ ، وَقَابَلَ الْأُسْتَاذَ مُحَمَّدَ كُرْدِ عَلِيٍّ فَطَمْأَنَهُ عَلَىٰ بَقَائِهِ بِالْجَرِيدَةِ ؛ لِأَنَّهُ أَبَىٰ أَنْ يَكُونَ مُحَرِّرًا بِهَا ، وَقَابَلَ وَالِدَهُ ، فَحَدَّثَهُ بِمَا كَانَ ، وَأَخْبَرَهُ أَنَّهُ تَلَقَّىٰ دُرُوسَ الْأَخْلَاقِ الْأُولَىٰ عَلَىٰ يَدِهِ ، وَهَا هُوَ ذَا قَدْ بَادَرَ بِتَنْفِيذِهَا ، فَحَيَّاهُ وَالِدُهُ ، وَشَدَّ عَلَىٰ يَدِهِ مُبَارِكًا .

إِنَّ الَّذِينَ يَسْأَلُونَ عَنْ بَقَاءِ مُحَرَّمٍ فِي دَمَنْهُورَ ، مُنْزَوِيًا فِي عَاصِمَةٍ صَغِيرَةٍ لَا تُتِيحُ لِسَاكِنِهَا التَّأَلُّقَ فِي الْمُحِيطِ الْأَدَبِيِّ عَلَىٰ نَحْوٍ بَاهِرٍ ، يَجِدُ فِي هَذِهِ الْقِصَّةِ جَوَابًا عَنْ هَذَا التَّسَاؤُلِ ، وَلَمْ تَكُنْ هَذِهِ الْقِصَّةُ هِيَ الْوَاحِدَةَ فِي بَابِهَا ، وَلَكِنْ لَهَا مُشَابِهَاتٌ .

فَمِنْ مُشَابَهَاتِهَا أَنَّ مُدِيرًا لِلْبُحَيْرَةِ عَاصِمَةِ دَمَنْهُورَ ، وَكَانَ الْبَاشَا الْمُدِيرُ حِينَئِذٍ مَلِكَ الْإِقْلِيمِ فِي مُدِيرِيَّتِهِ ، يَأْمُرُ وَيَنْهَىٰ دُونَ مُعَارَضَةٍ ! هَذَا الْمُدِيرُ رَأَىٰ اسْمَ أَحْمَدَ مُحَرَّمٍ يَتَرَدَّدُ فِي الصُّحُفِ ، وَيُذْكَرُ مَعَ شَوْقِيٍّ وَحَافِظٍ وَإِسْمَاعِيلَ صَبْرِي وَكِبَارِ الشُّعَرَاءِ فِي الْعَاصِمَةِ ، وَعَلِمَ أَنَّهُ يُقِيمُ فِي بَلْدَتِهِ قَرِيبًا مِنْ مَوْضِعِ حُكْمِهِ ، فَقَالَ لِبَعْضِ مُجَاوِرِيهِ : وَلِمَ لَا يَمْدَحُنِي مُحَرَّمٌ ، وَيَنْشُرُ قَصِيدَةً تَتَحَدَّثُ عَنِّي ، وَهُوَ مَعَنَا فِي دَمَنْهُورَ ؟ وَجَاءَ الرَّسُولُ إِلَىٰ مُحَرَّمٍ يُعْلِنُ رَغْبَةَ الْمُدِيرِ ، وَيَرَاهَا سَهْلَةَ التَّنْفِيذِ ، وَقَدْ أَسَرَّ لِلشَّاعِرِ بِأَنَّهُ إِذَا نَالَ الْحُظْوَةَ لَدَىٰ الرَّجُلِ الْكَبِيرِ فَقَدْ يَنْفَحُهُ بِمَا يُرْضِيهِ ! فَسَكَتَ مُحَرَّمٌ مَلِيًّا ، ثُمَّ قَالَ لِلزَّائِرِ : قُلْ لِلْبَاشَا الْمُدِيرِ : إِنَّ أَحْمَدَ مُحَرَّمٍ يَرْقُبُ أَعْمَالَكَ فِي الْمُدِيرِيَّةِ بِعَيْنٍ يَقِظَةٍ ، فَإِذَا لَمَسَ وَجْهًا مِنْ وُجُوهِ الْإِصْلَاحِ الْحَقِيقِيِّ قُمْتَ بِهِ ، أَشَادَ بِهِ دُونَ أَنْ تَسْأَلَهُ

الْمَدِيحِ ، وَإِذَا لَمْ يَلْمَسْ شَيْئًا مِنْ ذَلِكَ فَمَاذَا يَقُولُ ؟ وَذَهَبَ الرَّسُولُ إِلَىٰ الْمُدِيرِ ، فَحَارَ فِيمَا يَصْنَعُ .

هَذَا الرَّدُّ الطَّبِيعِيُّ الْمَعْقُولُ بِالنِّسْبَةِ لِسُلُوكِ مُحَرَّمٍ ، كَانَ إِهَانَةً كُبْرَىٰ لِلْمُدِيرِ ، فَتَوَعَّدَ الشَّاعِرَ ، وَجَدَّ مِنَ الْأَحْدَاثِ مَا أَوْقَعَ الْمُدِيرَ فِي مَأْزِقٍ حِينَ أَمَرَ بِضَرْبِ فَرِيقٍ مِنَ الْفَلَّاحِينَ بَغْيًا دُونَ حَقٍّ ، وَثَارَ الشَّاعِرُ وَنَشَرَ قَصِيدَةً غَاضِبَةً ، وَأَرَادَ الْمُدِيرُ مُعَاقَبَتَهُ ، فَعَرَفَ أَنَّ الْجَرَائِدَ سَتُذِيعُ النَّبَأَ ، وَلَيْسَ الْأَمْرُ مَقْصُورًا عَلَىٰ مَدِينَتِهِ بِالنِّسْبَةِ لِمُحَرَّمٍ ، فَغَلَىٰ غَيْظًا ، وَعَلِمَ إِسْمَاعِيلُ صَبْرِي بَاشَا بِمَوْقِفِ مُحَرَّمٍ مِنْ حَاكِمِ إِقْلِيمِهِ فَقَامَ بِسِفَارَةٍ لَمْ تُنْتِجْ شَيْئًا مِنَ الصَّفَاءِ ، وَلَكِنَّهَا أَحْدَثَتْ مُهَادَنَةً ، يَقُولُ مُحَرَّمٌ[1]:

« وَأَوَّلُ مَا لَقِيتُ إِسْمَاعِيلَ صَبْرِي الَّذِي أَصْبَحَ بَعْدَ ذَلِكَ مِنْ مُلُوكِ الشِّعْرِ ، وَأُمَرَاءِ الْبَيَانِ ، يَوْمَ جَاءَنِي رَسُولُهُ يَدْعُونِي لِمُوَافَاتِهِ بِدَارِ الْحُكْمِ ، فِي مَدِينَةِ دَمَنْهُورَ ، وَحَاكِمُ الْإِقْلِيمِ يَوْمَئِذٍ مُحَمَّدُ مَحْمُودٍ بَاشَا ، فَلَمَّا لَقِيتُ صَبْرِي فِي مُنْصَرَفِهِ مِنْ حَضْرَةِ الْحَاكِمِ - وَكُنْتُ عَلَىٰ شَوْقٍ دَائِمٍ إِلَيْهِ - صَافَحْتُهُ لِأَوَّلِ مَرَّةٍ ، وَفِي نَفْسِي مِنَ التَّهَيُّبِ وَالِانْقِبَاضِ مَا انْطَوَىٰ وَشِيكًا فِي ذَلِكَ الْبِشْرِ الْمُتَدَفِّقِ الَّذِي بَدَأَنِي بِهِ ، وَمَا انْقَضَتِ التَّحِيَّةُ ، حَتَّىٰ أَخَذَ بِذِرَاعِي يَدُسُّهُ تَحْتَ إِبِطِهِ وَيَقُولُ : وَيْحَكَ يَا مُحَرَّمُ ! مَاذَا فَعَلْتَ بِالرَّجُلِ ، إِنَّهُ لَشَدِيدُ الْحَنَقِ عَلَيْكَ ، لَقَدْ رَوَّضْتُهُ فَمَا ازْدَادَ إِلَّا شَرَاسَةً وَغِلْظَةً .

ثُمَّ قَالَ صَبْرِي وَهُوَ يَصِفُ شَرَاسَةَ مُحَمَّدِ مَحْمُودٍ بَاشَا : دَعْهُ عَنْكَ فَقَدْ أَصْبَحَ أَمْرُكَ بِيَدِ الْأَمِيرِ [عَبَّاس] فَقَدْ قُرِئَتْ عَلَيْهِ قَصِيدَتُكَ ، وَأُعْجِبَ بِهَا ،

(١) مجلة أبولو - أكتوبر سنة ١٩٣٤م ص ١٠١.

وَسَتَرَىٰ » وَكَانَ مُحَرَّمٌ قَدِ اسْتَقْبَلَ عَبَّاسًا بِقَصِيدَةٍ عِنْدَ زِيَارَتِهِ دَمَنْهُورَ ، بَدَأَهَا بِقَوْلِهِ(١):

أَوَ كُلَّمَا سَكَنَ الْمَشُوقُ فَأَقْصَرَا هَاجَتْهُ أَسْرَابُ الْمَهَا فَتَذَكَّرَا

وَإِلَيْهَا يُشِيرُ إِسْمَاعِيلُ صَبْرِي ، ! فَنَالَتْ إِعْجَابَ الْأَمِيرِ ، وَلَمْ يَبْقَ بَعْدَهَا مَجَالٌ لِلتَّحَكُّمِ فِيهِ ! .

بِهَذِهِ الْعِزَّةِ النَّفْسِيَّةِ الْمُفْرِطَةِ ، حَفِظَ مُحَرَّمٌ كَرَامَتَهُ بَيْنَ الزُّعَمَاءِ وَذَوِي النُّفُوذِ ، وَإِنْ لَاقَى الْأَهْوَالَ فِي كَسْبِ الْعَيْشِ ، وَضَرُورِيَّاتِ الْحَيَاةِ ، كَمَا أَنَّ نَاحِيَةً سِيَاسِيَّةً أُخْرَىٰ كَانَ لَهَا الْأَثَرُ فِي انْزِوَائِهِ الْأَلِيمِ دُونَ مَنْ يَقِلُّونَ عَنْهُ مَوْهِبَةً مِنْ مُنَافِسِيهِ ، فَقَدِ انْضَمَّ لِلْحِزْبِ الْوَطَنِيِّ ، وَآمَنَ بِزَعَامَةِ مُصْطَفَىٰ كَامِلٍ ، إِيمَانًا مُفْرِطًا ، وَلَمْ يَكُنْ لِلْحِزْبِ الْوَطَنِيِّ مِنَ الْجَاهِ السِّيَاسِيِّ مَا يُشَجِّعُ بِهِ أَنْصَارَهُ الْمُسْتَشْهِدِينَ ، فَلَاقُوا مِنْ قُوَّةِ الْبَطْشِ الِاسْتِعْمَارِيِّ ، وَمِنْ مُعَانَدَةِ الْوُصُولِيِّينَ مَا ضَيَّقَ فِي عُيُونِهِمْ مَنَافِذَ الْآمَالِ ، هَذَا شَيْءٌ ، وَشَيْءٌ آخَرُ يُعَادِلُهُ أَثَرًا فِي انْزِوَاءِ مُحَرَّمٍ ، حَيْثُ كَانَ مُتَشَدِّدًا كُلَّ التَّشَدُّدِ فِي مُنَابَذَةِ زَعِيمِ الْأُمَّةِ سَعْدِ زَغْلُولٍ ، وَرَجُلُ السِّيَاسَةِ غَيْرُ رَجُلِ الْأَدَبِ ، فَقَدْ يَلْجَأُ إِلَىٰ مُهَادَنَةٍ يَرَاهَا بَابًا لِلتَّفَاهُمِ مَعَ الْقُوَّةِ الْغَاشِمَةِ ، وَتِلْكَ لَا تُرْضِي مُحَرَّمًا الَّذِي يُرِيدُ أَنْ يَكُونَ الْعِدَاءُ سَافِرًا حَتَّىٰ يَتَحَقَّقَ الْجَلَاءُ ، وَلِذَلِكَ أَنْحَىٰ بِقَصَائِدَ لَائِمَةٍ غَاضِبَةٍ عَلَىٰ زَعِيمِ الْأُمَّةِ الْأَمِينِ ، فَلَمْ تَرْضَ عَنْ سُلُوكِهِ الْأَكْثَرِيَّةُ الَّتِي آمَنَتْ بِسَعْدٍ وَعَدَّتْهُ زَعِيمَ الْأُمَّةِ الْأَوْحَدَ ! وَعِنْدِي شَيْءٌ أَحَارُ فِي فَهْمِهِ بِشَأْنِ سُلُوكِ مُحَرَّمٍ السِّيَاسِيِّ بَعْدَ وَفَاةِ سَعْدِ زَغْلُولٍ ، فَقَدْ سَلَّطَ غَضَبَهُ عَلَىٰ زُعَمَاءِ الْأُمَّةِ مِنْ قَادَةِ الْوَفْدِ الْمِصْرِيِّ ، وَهُمْ

(١) ديوان مُحَرَّم ج ٤١ ص ٩٥.

الْمُمَثِّلُونَ الْحَقِيقِيُّونَ لِرَغَبَاتِ الْأُمَّةِ ! وَلَهُ أَنْ يَفْعَلَ هَذَا بِنَاءً عَلَى تَشَدُّدِهِ الْمُلْتَزِمِ ، وَلَكِنَّ الَّذِي لَيْسَ لَهُ إِطْلَاقًا أَنْ يُهَاجِمَ سَعْدًا ثُمَّ يَمْدَحَ إِسْمَاعِيلَ صِدْقِي !! وَإِسْمَاعِيلُ صِدْقِي هُوَ الَّذِي حَارَبَ الْأُمَّةَ ، وَزَيَّفَ إِرَادَتَهَا فِي انْتِخَابَاتٍ مُزَوَّرَةٍ لَا تَمُتُّ لِلْوَاقِعِ بِشَيْءٍ ! كَمَا دَارَتِ الْأَحْوَالُ بِهِ فَأَصْبَحَ مَادِحًا مُكَرِّرًا لِزَعِيمِ الْأَقَلِّيَّةِ مُحَمَّدِ مَحْمُودٍ وَهَاجِيًا لِلزَّعِيمِ الشَّعْبِيِّ الْجَهِيرِ مُصْطَفَى النَّحَّاسِ !! وَهِيَ مَسْأَلَةٌ مِنْ حَقِّ مُؤَرِّخِ مُحَرَّمٍ أَنْ يَقِفَ أَمَامَهَا مُتَسَائِلًا !! لَقَدْ كُنَّا نُبَرِّئُهُ مِنْ كُلِّ نَقْدٍ لَوِ اقْتَصَرَ فِي شِعْرِهِ عَلَى تَأْيِيدِ الْحِزْبِ الْوَطَنِيِّ الْمُتَشَدِّدِ الَّذِي أَنْشَأَهُ مُصْطَفَى كَامِلٍ ، وَبَقِيَتْ أَنْفَاسُهُ تَتَرَدَّدُ مِنْ بَعْدِهِ ، فَلِلْمُغَالَاةِ الْوَطَنِيَّةِ شُهَدَاؤُهَا النُّبَلَاءُ ! وَلَكِنَّ هِجَاءَ زَعِيمِ الْأُمَّةِ ، وَمَدْحَ خُصُومِهِ الَّذِينَ لَا يُعَبِّرُونَ إِلَّا عَنْ أَنْفُسِهِمْ فَقَطْ ، هُوَ مَوْضِعُ التَّسَاؤُلِ ، وَقَدْ يُقْبَلُ مَدْحُ مُحَمَّدِ مَحْمُودٍ عَلَى وَجْهٍ مِنَ الْوُجُوهِ لِنَزَاهَتِهِ وَتَرَفُّعِهِ ، وَلَكِنْ مَا بَالُ إِسْمَاعِيلَ صِدْقِي وَكَيْفَ يَمْدَحُهُ مَنْ يَلُومُ سَعْدًا وَمُصْطَفَى النَّحَّاسَ ؟ وَهُمَا أَعْلَى قَدْرًا بِكُلِّ الْمَقَايِيسِ .

هَذِهِ مُلَاحَظَةٌ أَسُوقُهَا لِيَرَى الْقَارِئُ أَنِّي أُقِيمُ الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ ، فَلَا أُخْفِي شَيْئًا وَأُبْدِي سِوَاهُ ، وَلَعَلَّ لِلشَّاعِرِ مِنْ وِجْهَاتِ النَّظَرِ السِّيَاسِيَّةِ مَا غَابَ عَنِّي تَقْدِيرُهُ ، وَلَكِنَّ الْقَارِئَ الدَّارِسَ يَمْلِكُ أَسْبَابَ التَّرْجِيحِ حِينَ يَعْرِضُ شَتَّى الْآرَاءِ ، وَيَمِيلُ إِلَى مَا يَرَى فِيهِ الصَّوَابَ ، أَمَامَ نُصُوصٍ لَا شَكَّ فِي نِسْبَتِهَا . لَقَدْ كَتَبَ الْأُسْتَاذُ عَبْدُ الرَّحْمَنِ الرَّافِعِيُّ مُؤَرِّخُ مِصْرَ الْحَدِيثَةِ كِتَابًا عَنْ شُعَرَاءِ الْوَطَنِيَّةِ كَانَ لِأَحْمَدَ مُحَرَّمٍ فَصْلٌ بَارِزٌ مِنْ فُصُولِهِ ، وَكَانَ مِمَّا قَالَهُ عَنْهُ(١):

« امْتَازَ مُحَرَّمٌ إِلَى جَانِبِ مَكَانَتِهِ الشِّعْرِيَّةِ بِحَرَارَةِ الْعَاطِفَةِ ، وَتَذَوُّقِهِ لِلْفَنِّ

---

(١) شعراء الوطنية للرافعي ص ٢٣٢ وَمَا بعدهَا..

وَالْجَمَالِ ، وَقُوَّةِ إِيمَانِهِ وَتَأَمُّلَاتِهِ الْعَمِيقَةِ الْفَلْسَفِيَّةِ ، وَاسْتِمْسَاكِهِ بِمَبَادِئِهِ الْوَطَنِيَّةِ ، فَكَانَ شِعْرُهُ كُلُّهُ وَفْقًا عَلَىٰ هَذِهِ الْمَبَادِئِ لَمْ يَنْحَرِفْ عَنْهَا فِي قَصِيدَةٍ أَوْ فِي بَيْتٍ مِنَ الشِّعْرِ ، ظَلَّ مُقِيمًا عَلَيْهَا وَافِيًا لَهَا فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ ، فَكَانَ حَقًّا مَثَلًا أَعْلَىٰ فِي الشِّعْرِ لِلْوَطَنِيَّةِ ، وَكَانَ مُصْطَفَىٰ كَامِلٍ يُعْجَبُ بِهِ وَبِشِعْرِهِ ، وَيُسَمِّيهِ نَابِغَةَ الْبُحَيْرَةِ ثُمَّ قَالَ الْأُسْتَاذُ الرَّافِعِيُّ بَعْدَ أَنِ اسْتَشْهَدَ بِنَمَاذِجَ قَوِيَّةٍ مِنْ شِعْرِهِ السِّيَاسِيِّ فِي مُنَاوَءَةِ الِاحْتِلَالِ وَنَهْضَةِ الشَّرْقِ ، وَاسْتِعَادَةِ الْمَجْدِ الْغَابِرِ ، وَعُدْوَانِ الْإِنْكِلِيزِ ، وَالتَّضْحِيَةِ بِالْبَذْلِ فِي سَبِيلِ مِصْرَ ، قَالَ الرَّافِعِيُّ :

« كَانَ مُحَرَّمٌ يَطْعَنُ فِي الْمُلُوكِ ، وَيَسْتَهْجِنُ الرُّتَبَ وَالْأَلْقَابَ ، وَهُوَ أَوَّلُ شَاعِرٍ وَطَنِيٍّ حَمَلَ عَلَىٰ الرُّتَبِ وَهَاجَمَ الْمُلُوكَ بِهَذِهِ الْقُوَّةِ وَالشَّجَاعَةِ ، فَسَبَقَ بِهَذِهِ الْقَصِيدَةِ الَّتِي نَشَرَهَا سَنَةَ ١٩٠٨م بِمَجَلَّةِ الْحَوَادِثِ بِنِصْفِ قَرْنٍ مِنَ الزَّمَانِ ، ثُمَّ اسْتَشْهَدَ بِقَوْلِ مُحَرَّمٍ :

كَذَبَ الْمُلُوكُ ، وَمَنْ يُحَاوِلُ عِنْدَهُمْ ... شَرَفًا وَيَزْعُمُ أَنَّهُمْ شُرَفَاءُ
رُتَبٌ وَأَلْقَابٌ تَغُرُّ وَمَا بِهَا ... فَخْرٌ لِمُحْرِزِهَا وَلَا اسْتِعْلَاءُ
آنًا تُبَاعُ وَآنَةً هِيَ خُدْعَةٌ ... تُمْنَىٰ بِشَرِّ سُعَاتِهَا الْأُمَرَاءُ
كَمْ رُتْبَةٍ نَعِمَ الْغَبِيُّ بِنَيْلِهَا ... مِنْ حَيْثُ جَلَّلَهَا أَسًى وَشَقَاءُ
لَوْ كَانَ يَعْلَمُ ذُلَّهَا وَهَوَانَهَا ... مَا طَالَ مِنْهُ الزَّهْوُ وَالْخُيَلَاءُ
تَلْقَىٰ الْكَرَامَةَ حَيْثُ كَانَ وَفِعْلُهُ ... جَمُّ الْمَسَاوِئِ، وَالْمَقَالُ هُرَاءُ
ذَنْبُ الْمُلُوكِ ، رَمَىٰ الشُّعُوبَ بِنَكْبَةٍ ... جُلَّىٰ تَنُوءُ بِحَمْلِهَا الْغَبْرَاءُ
لَا الْمَجْدُ مَجْدٌ ، حِينَمَا عَبَثَتْ بِهِ ... أَيْدِي الْمُلُوكِ وَلَا السَّنَاءُ سَنَاءُ

مَالُوا عَنِ الشَّرَفِ الصَّمِيمِ وَأَحْدَثُوا ... مَا شَاءَتِ الْأَوْهَامُ وَالْأَهْوَاءُ
رَفَعُوا الطَّغَامَ عَلَىٰ الْكِرَامِ فَأُشْكِلَتْ ... قِيَمُ الرِّجَالِ وَرَابَتِ الْأَشْيَاءُ
وَإِذَا الرُّعَاةُ تَنَكَّبَتْ سُبُلَ الْهُدَىٰ ... غَوَتِ الْهُدَاةُ، وَطَاشَتِ الْحُكَمَاءُ
لَوْ جَاوَرَ الشَّرَفُ الْمُلُوكَ لَأَوْرَقَتْ ... صُمُّ الصُّخُورِ وَضَاءَتِ الظَّلْمَاءُ
ظُلْمٌ يُبَرِّحُ بِالْبَرِيءِ وَغِلْظَةٌ ... يَشْقَىٰ بِهَا الضُّعَفَاءُ وَالْفُقَرَاءُ..
الْحَقُّ مُنْتَهَكُ الْمَحَارِمِ بَيْنَهُمْ ... وَالْعَدْلُ وَهْمٌ، وَالْوَفَاءُ هَبَاءُ

وَالَّذِي يَقُولُ ذَلِكَ لَا بُدَّ أَنْ يَكُونَ قَدْ نَفَضَ يَدَهُ مِنْ أَيِّ مَأْرَبٍ وَظِيفِيٍّ، وَالدِّيوَانُ بِأَجْزَائِهِ الْمُتَعَدِّدَةِ يَحْمِلُ مِنَ اسْتِقْلَالِ الرَّأْيِ السِّيَاسِيِّ مَا لَا نَجِدُهُ عَنْ شَاعِرٍ مِنْ مُعَاصِرِيهِ، وَقَدْ يَكُونُ مِنَ الْعَجِيبِ لَدَىٰ الْقَارِئِ أَنَّ مُحَرَّمًا هُوَ الَّذِي افْتَتَحَ الْقَوْلَ فِي الشِّعْرِ السِّيَاسِيِّ الْمُعَاصِرِ قَبْلَ أَنْ يَتَّجِهَ إِلَيْهِ شَوْقِيٌّ وَحَافِظٌ وَصَبْرِي إِذْ نَظَمَ قَصِيدَةً سَمَّاهَا «شَكْوَىٰ الِاحْتِلَالِ بِلِسَانِ الْحَالِ» وَبَعَثَ بِهَا إِلَىٰ الصُّحُفِ، فَكَانَتْ كُلُّ صَحِيفَةٍ تَنْشُرُ بَعْضَ مَا يَرُوقُهَا وَتَتْرُكُ مَا اشْتَعَلَتْ حَرَارَتُهُ مِنَ الشِّعْرِ الْحَمَاسِيِّ، لِذَلِكَ طَبَعَهَا الشَّاعِرُ عَلَىٰ نَفَقَتِهِ فِي كِتَابٍ مُسْتَقِلٍّ، وَقَامَ بِتَوْزِيعِهَا عَلَىٰ أَصْدِقَائِهِ، وَقَدْ بَدَأَهَا بِمُقَدِّمَةٍ نَثْرِيَّةٍ[1] تَكْشِفُ أَبْعَادَهَا، وَتُومِئُ إِلَىٰ إِشَارَاتِهَا، وَمَطْلَعُهَا:

إِلَامَ تَجِنُّ الْحَادِثَاتُ وَتُظْلِمُ ... وَحَتَّىٰ مَتَىٰ تَبْغِي الْعُدَاةُ وَتَظْلِمُ؟

وَعِدَّةُ أَبْيَاتِهَا سِتَّةٌ وَتِسْعُونَ بَيْتًا مِنْ حَارِّ الشِّعْرِ وَأَوْجَعِهِ، وَأَشَدِّهِ نِقْمَةً عَلَىٰ الْمُحْتَلِّ الْغَاصِبِ وَغَيْظًا عَلَىٰ السُّكُوتِ الْمُطْبِقِ مِنْ أَلْسِنَةِ الْأُمَّةِ

(١) الجزء الأول ص ٤٣ الطبعة الثانية.

وَأَعْلَامِهَا، وَقَدْ كَانَ صُدُورُهَا فِي ٢ دِيسَمْبِر سَنَةَ ١٨٩٨م أَي وَسِنُّ الشَّاعِرِ عِشْرُونَ فَحَسْبُ! وَقَدْ نَسْتَشْهِدُ بِبَعْضِ أَبْيَاتِهَا فِي فَصْلٍ أَكْتُبُهُ عَنْ مِصْرَ الْمُجَاهِدَةِ(١)، هَذِهِ الْقَصِيدَةُ أَوَّلُ دَعْوَةٍ سِيَاسِيَّةٍ لِلشُّعَرَاءِ كَيْ يَتْرُكُوا مَا عَرَفُوا فِيهِ مِنَ الْأَغْرَاضِ الشِّعْرِيَّةِ التَّقْلِيدِيَّةِ، وَيَتَّجِهُوا إِلَىٰ مُحَارَبَةِ الْمُحْتَلِّ الْغَاصِبِ، وَقَدْ قَالَ أَحْمَدُ مُحَرَّم عَنْ هَذِهِ الْقَصِيدَةِ(٢):

«وَمِمَّا يَجِبُ ذِكْرُهُ وَأَنَا بِصَدَدِ هَذِهِ الْقَصِيدَةِ أَنَّهَا ظَهَرَتْ فِي عَالَمِ الْأَدَبِ وَالسِّيَاسَةِ قَبْلَ ظُهُورِ الْحِزْبِ الْوَطَنِيِّ الَّذِي أَنْشَأَهُ الزَّعِيمُ الْأَوَّلُ الْمَغْفُورُ لَهُ مُصْطَفَىٰ كَامِل بَاشَا وَالَّذِي اجْتَذَبَ إِلَيْهِ طَائِفَةً غَيْرَ قَلِيلَةٍ مِنْ كِبَارِ الشُّعَرَاءِ، وَعَلَّمَهُمْ كَيْفَ يَنْظِمُونَ الشِّعْرَ فِي التَّغَنِّي بِحُبِّ بِلَادِهِمْ، وَإِيقَاظِ الرُّوحِ الْوَطَنِيَّةِ فِي نُفُوسِ أَبْنَائِهَا.

وَقَدْ كَانَتِ الْأَرِسْتُقْرَاطِيَّةُ الْأَدَبِيَّةُ فِي ذَلِكَ الْعَهْدِ بَالِغَةً أَقْصَىٰ حُدُودِهَا، فَلَمْ يَكُنْ يَطِيبُ لِأَحْمَدَ شَوْقِي بِكْ، وَهُوَ شَاعِرُ الْأَمِيرِ وَأَمِيرُ الشُّعَرَاءِ، أَنْ يَظْهَرَ تَحْتَ سَمَاءِ مِصْرَ شَاعِرٌ غَيْرُهُ، يَسِيرُ فِي الصَّفِّ الْأَوَّلِ، فَأَخَذَ يَسْتَخْدِمُ مَا لَهُ مِنْ نُفُوذٍ وَاسِعٍ عَلَىٰ الصُّحُفِ الَّتِي تَتَلَقَّىٰ الْمَعُونَةَ مِنْ مَوْلَاهُ، فِي سَبِيلِ الدِّعَايَةِ لِأَدَبِهِ، وَالِاسْتِئْثَارِ بِصَفَحَاتِهَا، لِتَكُونَ وَقْفًا عَلَيْهِ دُونَ سِوَاهُ، وَلَكِنِّي وَقَدِ اتَّجَهْتُ إِلَىٰ الْمَثَلِ الْأَعْلَىٰ فِي شِعْرِي وَتَأَهَّبْتُ لِحَيَاةٍ أَدَبِيَّةٍ وَاسِعَةِ النِّطَاقِ، اسْتَطَعْتُ أَنْ أَشُقَّ الطَّرِيقَ لِنَفْسِي، وَكَانَتْ لِي عَدَا كِفَايَتِي الْفَنِّيَّةِ مَيْزَاتٌ أُخْرَىٰ تُعِينُنِي عَلَىٰ تَحْطِيمِ تِلْكَ الْأَرِسْتُقْرَاطِيَّةِ الشَّدِيدَةِ الْجَشِعَةِ، وَتَجْعَلُنِي أَحْتَلُّ مَرْكَزِي فِي عَالَمِ الْأَدَبِ!».

---

(١) فصل «ظلمات الاحتلال في مصر».

(٢) الجزء الأول ص ١٣ الطبعة الثانية.

وَ إِذَنْ فَمُحَرَّمٌ قَدْ سَبَقَ شُعَرَاءَ عَصْرِهِ فِي مَجَالِ الشِّعْرِ السِّيَاسِيِّ ، وَهُوَ الَّذِي دَعَاهُمْ إِلَىٰ فَرْضِهِ بِمَا وَالَىٰ مِنْ مُنَاهَضَةِ الِاحْتِلَالِ فِي قَصَائِدَ نَارِيَّةٍ كَانَتْ ذَاتَ دَوِيٍّ يَجْذِبُ الْأَسْمَاعَ ، وَلَعَلِّي أُشِيرُ إِلَىٰ مَا يُكَمِّلُ هَذِهِ الْقَضِيَّةَ فَأَقُولُ : إِنَّ الْبَارُودِيَّ ، وَهُوَ أُسْتَاذُ مَنْ بَعْدَهُ جَمِيعًا وَفِي مُقَدِّمَتِهِمْ شَوْقِيٌّ وَحَافِظٌ وَمُطْرَانُ وَمُحَرَّمٌ وَالْكَاشِفُ ، قَدْ سَبَقَ إِلَىٰ هَذَا اللَّوْنِ السِّيَاسِيِّ ، وَمِنْ رَوَائِعِهِ فِي ذَلِكَ قَصِيدَةٌ حَمَاسِيَّةٌ افْتَتَحَهَا بِقَوْلِهِ(١):

قَلَّدْتُ جِيدَ الْمَعَالِي حَلْيَةَ الْغَزَلِ وَقُلْتُ فِي الْجِدِّ مَا أَغْنَىٰ عَنِ الْهَزَلِ

وَمِنْهَا قَوْلُهُ :

لَكِنَّنَا غَرَضٌ لِلشَّرِّ فِي زَمَنٍ أَهْلُ الْعُقُولِ بِهِ فِي طَاعَةِ الْخَمِلِ
قَامَتْ بِهِ مِنْ رِجَالِ السُّوءِ طَائِفَةٌ أَدْهَىٰ عَلَىٰ النَّفْسِ مِنْ بُؤْسٍ عَلَىٰ ثُكُلِ
مِنْ كُلِّ وَغْدٍ يَكَادُ الدَّسْتُ(٢) يَدْفَعُهُ بُغْضًا ، وَيَلْفِظُهُ الدِّيوَانُ مِنْ مَلَلِ
ذَلَّتْ بِهِمْ مِصْرُ بَعْدَ الْعِزِّ وَاضْطَرَبَتْ قَوَاعِدُ الْمُلْكِ ، حَتَّىٰ ظَلَّ فِي خَلَلِ
وَأَصْبَحَتْ دَوْلَةُ الْفُسْطَاطِ خَاضِعَةً بَعْدَ الْإِبَاءِ ، وَكَانَتْ زَهْرَةَ الدُّوَلِ
أَرْضٌ تَأَثَّلَ فِيهَا الظُّلْمُ وَانْقَذَفَتْ صَوَاعِقُ الْغَدْرِ بَيْنَ السَّهْلِ وَالْجَبَلِ
وَأَصْبَحَ النَّاسُ فِي عَمْيَاءَ مُظْلِمَةٍ لَمْ يَخْطُ فِيهَا امْرُؤٌ إِلَّا عَلَىٰ وَجَلِ
لَمْ أَدْرِ مَا حَلَّ بِالْأَبْطَالِ مِنْ خَوَرٍ بَعْدَ الْمَرَاسِي وَبِالْأَسْيَافِ مِنْ فَلَلِ
أَصَوَّحَتْ(٣) شَجَرَاتُ الْمَجْدِ أَمْ نَضُبَتْ غُدُرُ الْحَمِيَّةِ حَتَّىٰ لَيْسَ مِنْ رَجُلِ ؟

---

(١) دِيوَان الْبَارودي ج «٣» ص ٦.
(٢) الدَّسْت : مجلس الدّيوان .
(٣) أَصَوَّحت : ذبلت .

خَافُوا الْمَنِيَّةَ فَاحْتَالُوا وَمَا عَلِمُوا ... أَنَّ الْمَنِيَّةَ لَا تَرْتَدُّ بِالْحِيَلِ
فَطَالَبُوا بِحُقُوقٍ أَصْبَحَتْ غَرَضًا ... لِكُلِّ مُنْتَزِعٍ سَهْمًا وَمُخْتَتِلِ
عَيْشُ الْفَتَىٰ فِي فِنَاءِ الذُّلِ مَنْقَصَةٌ ... وَالْمَوْتُ فِي الْعِزِّ فَخْرُ السَّادَةِ النُّبُلِ

وَلَهُ نَفَثَاتٌ أُخْرَىٰ تَمْشِي مَعَ هَٰذِهِ الْقَصِيدَةِ فِي اتِّجَاهٍ ثَائِرٍ ، وَمَعْنَىٰ ذَلِكَ أَنَّ لِمُحَرَّمٍ أُسْتَاذًا فِي السِّيَاسَةِ الشِّعْرِيَّةِ ، كَمَا هُوَ أُسْتَاذٌ فِي الدِّيبَاجَةِ الْبَيَانِيَّةِ ، وَقَدْ صَالَ مُحَرَّمٌ مِنْ بَعْدِهِ فِي مَيْدَانِهِ سَابِقًا زُمَلَاءَهُ الْأَتْرَابَ ، وَرُبَّمَا كَانَ مُحَرَّمٌ يَقْصِدُ تَلَامِيذَ الْبَارُودِيِّ وَحْدَهُمْ دُونَ أُسْتَاذِهِمُ الْكَبِيرِ ..

قَضَىٰ مُحَرَّمٌ طِيلَةَ أَيَّامِ أَبِيهِ مُمَتَّعًا بِخَيْرِهِ ، إِذْ حَرَصَ الْوَالِدُ عَلَىٰ أَنْ يُفَرِّغَ ابْنَهُ لِشَاعِرِيَّتِهِ ، وَكَانَ يَفْرَحُ فَرَحًا شَدِيدًا حِينَ يَسْمَعُ شِعْرَهُ يَتَرَدَّدُ عَلَىٰ الْأَفْوَاهِ ، وَكَانَ يُفَارِقُ الْقَرْيَةَ إِلَىٰ الْعَاصِمَةِ فَيَرَىٰ النَّاسَ يَتَحَدَّثُونَ عَنْ نَجْلِهِ بِمَا يُبْهِرُ ، وَيَتَمَنَّوْنَ أَنْ يَكُونَ لَهُمْ مِثْلُ هَذَا النَّابِغَةِ ، يُخَلِّدُ ذِكْرَهُمْ ، وَيَبْنِي مَجْدَهُمْ ، وَلَكِنْ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ ، فَقَدْ مَاتَ الْوَالِدُ وَلَمْ يَتْرُكْ مِنَ الثَّرَاءِ مَا يَقُومُ بِنَفَقَاتِ النَّجْلِ ، وَهُوَ بَعْدُ ذُو أُسْرَةٍ ، إِذْ تَزَوَّجَ وَأَنْجَبَ ، وَدَفَعَ أَوْلَادَهُ إِلَىٰ الْمَدَارِسِ ، وَكُلُّ ذَلِكَ يَتَطَلَّبُ تَكَالِيفَ الْعَيْشِ الْكَرِيمِ ، وَالرِّزْقِ الْمُسْعِفِ ، هُنَا عَانَىٰ الشَّاعِرُ كَثِيرًا كَثِيرًا ، فَكَانَ يَدْخُلُ الْمُسَابَقَاتِ الْأَدَبِيَّةَ لِيَنَالَ جَوَائِزَهَا بَعِيدًا عَنِ الْأَنْظَارِ ، ثُمَّ كَانَتْ مَجَلَّاتُ الْهِلَالِ وَالصِّدْقِ وَالْقَلَمِ تُسْعِفُهُ أَحْيَانًا بِمُكَافَآتٍ مَالِيَّةٍ جَزَاءَ مَا يُرْسِلُ لَهَا مِنَ الْبُحُوثِ وَالْقَصَائِدِ ، وَهِيَ طَلٌّ يَتَسَاقَطُ عَلَىٰ فَتَرَاتٍ دُونَ أَنْ يَشْفِيَ غُلَّةً ، وَلِلشَّاعِرِ فِي مَجَالِ الشَّكْوَىٰ صَرَخَاتٌ أَلِيمَةٌ ، كَانَ مِنَ الْمُنْتَظَرِ أَنْ تَجِدَ الْمُغِيثَ الْمُسْعِفَ فِي بَلَدٍ جَاعَ فِيهِ الشَّاعِرُ وَأَكَلَتِ الْمَاشِيَةُ ، وَعَرِيَ بِهِ الْأَدِيبُ وَاكْتَسَتِ الْأَضْرِحَةُ ،

وَلا أَدْرِي لِمَاذَا غَفَلَتِ الْجَرَائِدُ الْكُبْرَىٰ عَنْ مُكَافَآتِهِ الْمَادِّيَّةِ ، حَيْثُ كَانَتْ جَرَائِدُ الْأَهْرَامِ وَالْبَلَاغِ وَالسِّيَاسَةِ تَنْشُرُ قَصَائِدَهُ فِي الصَّفْحَةِ الْأُولَىٰ ، مُجَاوِرَةً لِقَصَائِدِ حَافِظٍ وَشَوْقِيٍّ وَمُطْرَانَ ، ثُمَّ لَا يَنَالُ مَلِّيمًا وَاحِدًا عَلَىٰ أَدَبِهِ السَّيَّارِ ، إِذْ كَانَ الشِّعْرُ حِينَئِذٍ لَا يُبَاعُ بِثَمَنٍ مَا ، وَقَدْ قَرَأَ ذَاتَ يَوْمٍ أَنَّ جَرِيدَةَ السِّيَاسَةِ الْيَوْمِيَّةَ ، بَشَّرَتِ الشُّعَرَاءَ بِأَنَّهَا سَتَدْفَعُ إِلَىٰ الْجَمْعِيَّةِ الْخَيْرِيَّةِ خَمْسِينَ جُنَيْهًا عَنْ كُلِّ قَصِيدَةٍ يَنْشُرُهَا شَوْقِيٌّ فِي السِّيَاسَةِ ؛ إِذْ لَيْسَ مِنْ عَادَةِ أَمِيرِ الشُّعَرَاءِ أَنْ يَتَقَاضَىٰ أَجْرًا عَلَىٰ نِتَاجِهِ الشِّعْرِيِّ ، فَقَالَ مُحَرَّمٌ لِبَعْضِ جُلَسَائِهِ : وَلَكِنِّي أَكْتَفِي بِعَشَرَةِ جُنَيْهَاتٍ تُدْفَعُ لِي فَحَسْبُ ، وَمَعَ ذَلِكَ فَقَدْ رَاسَلَ السِّيَاسَةَ وَنَشَرَتْ قَصَائِدَهُ فِي الصَّدْرِ وَلَمْ تَدْفَعْ شَيْئًا !.

وَمِنَ الْمُنَاسِبِ أَنْ أَذْكُرَ طُرْفَةً ذَكَرْتُهَا مِنْ قَبْلُ فِي كِتَابِي « مِنْ أَعْلَامِ الْعَصْرِ ، كَيْفَ عَرَفْتُ هَؤُلَاءِ ؟ » حِينَ تَحَدَّثْتُ عَنْ صَدِيقِي الْكَاتِبِ الْأَدِيبِ مُحَمَّدِ فَهْمِي عَبْدِ اللَّطِيفِ ، فَقُلْتُ رَاوِيًا عَنْهُ[1]:

لَقَدْ أَقَامَتِ السَّيِّدَةُ هُدَىٰ هَانِم شَعْرَاوِي مُسَابَقَةً شِعْرِيَّةً لِأُدَبَاءِ الشَّبَابِ فِي مَوْضُوعٍ وَطَنِيٍّ ، وَتَأَلَّفَتْ لَجْنَةُ التَّحْكِيمِ مِنْ كِبَارِ الشُّعَرَاءِ إِذْ ذَاكَ ، وَهُمْ خَلِيلُ مُطْرَانَ ، وَعَلِيٌّ الْجَارِمُ ، وَأَحْمَدُ مُحَرَّم ، وَاجْتَمَعَتِ اللَّجْنَةُ ، وَأَصْدَرَتْ قَرَارَهَا ، وَأُقِيمَ احْتِفَالٌ لِتَوْزِيعِ الْجَوَائِزِ الْمَالِيَّةِ عَلَىٰ الْفَائِزِينَ مِنَ الْمُتَسَابِقِينَ ، وَهِيَ جَوَائِزُ مُغْرِيَةٌ بِالنِّسْبَةِ لِقِيمَةِ الْجُنَيْهَاتِ فِي هَذَا الْعَصْرِ ، ثُمَّ رَأَتِ السَّيِّدَةُ هُدَىٰ هَانِم شَعْرَاوِي ، أَنْ تَخُصَّ لَجْنَةَ التَّحْكِيمِ بِمَادِلْيَاتٍ تَقْدِيرِيَّةٍ ؛ لِأَنَّهُمْ أَرْفَعُ مِنْ أَنْ يَنَالُوا الْمُكَافَآتِ الْمَالِيَّةَ ، يَقُولُ الْأُسْتَاذُ فَهْمِي : وَكَانَ مِنْ حَظِّي أَنْ

(١) من أعلام العصر ، للدكتور مُحَمَّد رجب البيومي ص ١٤٦.

أَجْلِسَ جِوَارَ الشَّاعِرِ الْكَبِيرِ أَحْمَدَ مُحَرَّم ، فَلَمَحْتُ فِي وَجْهِهِ دَلَائِلَ الْحَسْرَةِ ، فَقُلْتُ لَهُ فِي هَمْسٍ : أَخْشَىٰ أَنْ تَكُونَ مَرِيضًا يَا سَيِّدِي ! فَقَالَ فِي هَمْسٍ : مَاذَا أَصْنَعُ بِالْمَادِلْيَةِ التَّقْدِيرِيَّةِ يَا أَخِي ؟ وَلَيْسَ فِي جَيْبِي أُجْرَةُ الْقِطَارِ الَّذِي سَيَحْمِلُنِي مِنَ الْقَاهِرَةِ إِلَىٰ دَمَنْهُورَ !!.

إِنَّ مُطْرَانَ وَالْجَارِمَ يَحْمِلُ كُلٌّ مِنْهُمَا دَرَجَةَ الْبَكَوِيَّةِ ، وَيَعِيشَانِ فِي رَخَاءٍ وَهَنَاءَةٍ ! لَقَدْ كُنْتُ أَتَوَقَّعُ مُكَافَأَةً مَالِيَّةً لِلَجْنَةِ التَّحْكِيمِ ، إِذْ قُمْتُ بِعَمَلٍ شَاقٍّ لَا بُدَّ أَنْ يُؤْجَرَ ، وَهَأَنَذَا لَا أَجِدُ مَا أُسَافِرُ بِهِ ، وَهُنَا قَامَ الْأُسْتَاذُ مُحَمَّدُ فَهْمِي إِلَىٰ حَيْثُ تَجْلِسُ السَّيِّدَةُ هُدَىٰ ، وَأَسَرَّ إِلَيْهَا بِبَعْضِ مَا سَمِعَ ، فَدُهِشَتْ لِمَا فَاتَهَا مِنْ أَمْرِ الْأُسْتَاذِ أَحْمَدَ مُحَرَّم ، وَأَمَرَتْ سِكِرْتِيرَهَا الْخَاصَّ أَنْ يَضَعَ خَمْسِينَ جُنَيْهًا فِي مَظْرُوفٍ يَحْمِلُهُ فَوْرًا إِلَىٰ الشَّاعِرِ الْكَبِيرِ ، وَفُوجِئَ مُحَرَّمٌ بِمَا صَنَعَ الْأُسْتَاذُ فَهْمِي ، فَنَادَاهُ مُسْتَفْسِرًا ، وَقَالَ لَهُ :

أَخْشَىٰ أَنْ تَكُونَ قَدْ هَتَكْتَ مَا اسْتَتَرَ !! فَقَالَ : أَبَدًا وَاللَّهِ ، وَلَكِنَّ الْمَالَ كَانَ مُعَدًّا فِي مَظْرُوفٍ بِاسْمِكَ مِنْ قَبْلُ ، لِيَصِلَ إِلَيْكَ عَنْ طَرِيقِ الْبَرِيدِ » .

وَكَانَتِ السَّيِّدَةُ هُدَىٰ قَدْ تَبَرَّعَتْ بِجَائِزَةٍ مَالِيَّةٍ كُبْرَىٰ لِمَنْ يَفُوزُ فِي مُسَابَقَةٍ شِعْرِيَّةٍ يُقِيمُهَا مَجْمَعُ اللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ عَنِ الْفَلَّاحِ ، فَكَانَ الْأُسْتَاذُ مُحَرَّمٌ صَاحِبَ الْجَائِزَةِ ، وَرَأَتِ السَّيِّدَةُ أَنْ تُقِيمَ لَهُ حَفْلَةَ تَكْرِيمٍ كُبْرَىٰ بِهَذِهِ الْمُنَاسَبَةِ حَضَرَهَا كِبَارُ الْأُدَبَاءِ فِي مِصْرَ ، وَأَنْشَدَ فِيهَا الْأُسْتَاذُ مُحَرَّمٌ قَصِيدَةً قَالَ فِيهَا عَنِ السَّيِّدَةِ هُدَىٰ(1):

حَيِّ الزَّعِيمَةَ وَاجْزِ مَا صَنَعَتْ ... إِنَّ الصَّنِيعَةَ مَوْضِعُ الشُّكْرِ

(1) ديوان مُحرَّم ج «5» ص 118.

جَعَلَتْ لَنَا مِنْ فَيْضِ نِعْمَتِهَا وَفْـرًا وَمَـا كُـنَّـا ذَوِي وَفْـرِ
وَسِعَ الدُّنَا أَدَبِي وَضَاقَ بِمَا تُسْدِيهِ مِنْ خَيْرٍ وَمِنْ بِرِّ

وَفِي الْأَيَّامِ الْأَخِيرَةِ مِنْ حَيَاتِهِ أَدْرَكَهُ مُدِيرُ الْبُحَيْرَةِ الشَّاعِرُ الْكَبِيرُ عَزِيزُ أَبَاظَةَ بِوَظِيفَةٍ فِي دَارِ الْكُتُبِ بِدَمَنْهُورَ، ظَلَّ قَائِمًا بِهَا حَتَّى انْتَقَلَ الشَّاعِرُ الْمُدِيرُ إِلَى أَسْيُوطَ، فَأَرَادَ أَنْ يَجْعَلَ لَهُ مَنْصِبًا لَائِقًا بِهِ فِي عَاصِمَةِ الصَّعِيدِ، وَلَكِنَّ الْمَوْتَ كَانَ أَسْبَقُ، إِذْ لَقِيَ الشَّاعِرُ رَبَّهُ فِي ٧ يُونْيَةَ سَنَةَ ١٩٤٥م مُسْتَرِيحًا مِنْ ذُلِّ الْعَيْشِ هَانِئًا بِكَرَامَةِ النَّفْسِ، وَتَعَالِيهَا عَنْ هَوَابِطِ الشَّهَوَاتِ.

وَكَانَتْ لِلشَّاعِرِ سَاعَاتٌ مِنَ الضِّيقِ، يُعَانِي بِهَا مِنْ أَزْمَاتِ الْعَيْشِ مَا يَمْلَأُ خَوَاطِرَهُ شُجُونًا، وَقَدْ نَظَمَ مَقْطُوعَاتٍ شَتَّى يُرَفِّهُ بِهَا عَنْ كَوَاظِمِهِ الْأَلِيمَةِ(١)، وَلَعَلَّ مِنْ آخِرِ مَا نَظَمَ فِي هَذَا الْبَابِ قَصِيدَةَ «وُجُودِي» الَّتِي سَأَجْعَلُهَا مِسْكَ الْخِتَامِ لِهَذَا الْكِتَابِ، حَيْثُ تَقِفُ فِي طَلِيعَةِ الشِّعْرِ الْمُعَاصِرِ، جَوْدَةَ صِيَاغَةٍ، وَقُوَّةَ خَاطِرٍ، وَبَلَاغَةَ تَصْوِيرٍ مَعَ حُرْقَةٍ يُحِسُّهَا الْقَارِئُ فِي كُلِّ بَيْتٍ، وَأَكْتَفِي بِأَنْ أَنْقُلَ - فِي هَذَا الِاتِّجَاهِ - زَفْرَةً هَادِئَةً نَشَرَهَا الشَّاعِرُ تَحْتَ عُنْوَانِ «أَجْنَاسُ الْخُطُوبِ» فَقَالَ(٢):

لَا تَسَلْنِي مَاذَا نَظَمْتُ مِنَ الشِّعْرِ وَسَلْنِي مَاذَا عَمِلْتُ لِنَفْسِي
ضَاعَ فِي مَوْقِعِ الْإِصَابَةِ سَهْمِي وَذَوَى فِي مَخْيَلَةِ(٣) الْخِصْبِ غَرْسِي
رَوَّعَ اللَّهُ سِرْبَهَا مِنْ لَيَالٍ وَرَمَى جَدَّهَا الطَّمُوحَ بِتَعْسِ
هُنَّ رَوَّعْنَنِي وَعَلَّقْنَ حَظِّي فِي جَنَاحَيْ طَيْرٍ مِنَ الْعَيْشِ نَحْسِ

(١) سأتحدث عن ذلك في فصل «شكاة الجريح».
(٢) الديوان ج ٣، ص ٤١٤.
(٣) مَخْيَلَة: مظنة.

أَخْرَسَتْ أَلْسُنَ الْفِصَاحِ خُطُوبٌ يَتَعَاقَبْنَ مِنْ فِصَاحٍ وَخُرْسِ
إِنَّ أَجْنَاسَهَا لَشَتَّىٰ وَإِنِّي لَمُصَابٌ مِنْهَا بِأَخْبَثِ جِنْسِ
تُصْبِحُ النَّفْسُ فِي الْهُمُومِ وَتُمْسِي مَا أَمَرَّ الْحَيَاةَ، لَوْلَا التَّأَسِّي!
صَيَّرَتْنِي النُّهَىٰ بِحَيْثُ تَرَانِي يُوحِشُ الْعَالَمِينَ مَا فِيهِ أُنْسِي

وَأَرْجُو الْقَارِئَ أَنْ يَسْتَعِيدَ هَذِهِ الْأَبْيَاتَ، لِيَعْلَمَ مَا يَسْتَتِرُ خَلْفَ رَمَادِهَا مِنْ جَذْوَاتٍ..

الْخِلَافَةُ الْإِسْلَامِيَّةُ

كَانَتِ الْخِلَافَةُ الْإِسْلَامِيَّةُ فِي نَشْأَةِ مُحَرِّمِ الْأُولَى مَهْوَى قُلُوبِ الْمُخْلِصِينَ مِنْ أَبْنَاءِ الْإِسْلَامِ فِي كُلِّ أَنْحَاءِ الْعَالَمِ الْإِسْلَامِيِّ ؛ لِأَنَّهُمْ يَرَوْنَهَا الرِّبَاطَ الْوَثِيقَ الْجَامِعَ لِلشَّمْلِ الْمُتَفَرِّقِ ، وَكَانَتِ الْفَرْحَةُ الْغَامِرَةُ تُشْرِقُ فِي نُفُوسِهِمْ حِينَ تَنْتَصِرُ الْجُيُوشُ التُّرْكِيَّةُ الْمُحَارِبَةُ فِي الْمَيْدَانِ . كَمَا كَانَ الْأَسَى يَلْتَهِبُ فِي تِلْكَ النُّفُوسِ حِينَ تَأْتِي هَزِيمَةٌ مَا لِلتُّرْكِ ، هَؤُلَاءِ هُمُ الْمُخْلِصُونَ لِدِينِهِمْ وَوَطَنِهِمْ مَعًا . أَمَّا سِوَاهُمْ مِمَّنْ أَخَذُوا يَدْعُونَ لِلْوَطَنِيَّةِ فِي حُدُودِهَا الضَّيِّقَةِ ، وَيُبَالِغُونَ فِي تَعْدَادِ مَا يَسْمَعُونَهُ مِنْ أَخْطَاءِ الْخَلِيفَةِ ، فَهُمْ فِي أَكْثَرِهِمْ لَا يُبْغِضُونَ الْخِلَافَةَ الْعُثْمَانِيَّةَ وَحْدَهَا . وَلَكِنَّهُمْ يُبْغِضُونَ شَرِيعَةَ الْإِسْلَامِ ، وَيُحَاذِرُونَ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ عَاجِلٌ أَوْ آجِلٌ تُهَيْمِنُ فِيهِ الشَّرِيعَةُ عَلَى حَيَاةِ النَّاسِ قَانُونًا مُلْزِمًا ، وَدُسْتُورًا مُطَاعًا ، وَالدَّلِيلُ الْأَكِيدُ عَلَى صَوَابِ مَا أَتَّجِهُ إِلَيْهِ مِنْ رَأْيٍ ، أَنَّ هَؤُلَاءِ ظَلُّوا يُنَاصِبُونَ تُرْكِيَا الْعَدَاءَ ، وَيَجْعَلُونَ الِانْتِمَاءَ لِلْخِلَافَةِ احْتِلَالًا مِثْلَ احْتِلَالِ الْإِنْكِلِيزِ ، حَتَّى إِذَا سَقَطَتِ الْخِلَافَةُ ، وَقَامَ مُصْطَفَى كَمَالُ بِإِلْغَاءِ التَّشْرِيعِ الْإِسْلَامِيِّ أَصْبَحَتْ تُرْكِيَا مَثَلَهُمُ الْأَعْلَى ، وَطَفِقُوا يَكْتُبُونَ الْمَقَالَاتِ ، وَيُؤَلِّفُونَ الْكُتُبَ فِي إِطْرَائِهَا ، دَاعِينَ إِلَى الِاقْتِدَاءِ

بِهَا فِي كُلِّ مَا فَعَلَتْ ، حَتَّىٰ الْحُرُوفِ الْعَرَبِيَّةِ دَعَوْا إِلَىٰ هَجْرِهَا لَا لِشَيْءٍ سِوَىٰ أَنَّ مُصْطَفَىٰ كَمَالَ قَدْ تَرَكَ الْحُرُوفَ الْعَرَبِيَّةَ إِلَى اللَّاتِينِيَّةِ ، وَإِذَنْ فَقَدْ بَرِحَ الْخَفَاءُ !.

نَشَأَ أَحْمَدُ مُحَرَّم كَمَا يَنْشَأُ كُلُّ مُسْلِمٍ ، طَاهِرَ السَّرِيرَةِ مُخْلِصَ الاتِّجَاهِ مَشْغُوفًا بِتَوْحِيدِ كَلِمَةِ الْمُسْلِمِينَ تَحْتَ رَايَةِ الْخِلَافَةِ الْعُثْمَانِيَّةِ ، وَقَدْ رَزَقَهُ اللَّهُ فِطْرَةً صَادِقَةً ، وَبَصِيرَةً نَافِذَةً ، فَاهْتَدَىٰ إِلَىٰ الدَّعْوَةِ لِلْخِلَافَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ عَنْ وَحْيِ عَقِيدَتِهِ الْإِسْلَامِيَّةِ الَّتِي اسْتَشَفَّهَا فِيمَا قَرَأَ بِنَفْسِهِ مِنْ كِتَابِ اللَّهِ وَسُنَّةِ الرَّسُولِ ﷺ وَأَحْدَاثِ التَّارِيخِ . وَأَقُولُ بِمَا قَرَأَ بِنَفْسِهِ ، لِأَنَّ تَعْلِيمَهُ بِالْمَدَارِسِ الابْتِدَائِيَّةِ لَمْ يُجَاوِزْ عَامَيْنِ ، وَقَدْ هَيَّأَ لَهُ وَالِدُهُ مَنْ يُعِينُهُ عَلَىٰ حِفْظِ الْقُرْآنِ ، وَفَهْمِ آثَارِ السَّلَفِ فِي كُتُبِ التُّرَاثِ ، وَذَلِكَ فِي قُرَابَةِ عَامَيْنِ أَيْضًا ، حَيْثُ تَهَيَّأَ وَحْدَهُ لِدِرَاسَةٍ مُسْتَقِلَّةٍ فِي الْكُتُبِ الْعَرَبِيَّةِ دُونَ هَادٍ سِوَىٰ بَصِيرَتِهِ ، مَثَلُهُ فِي ذَلِكَ مَثَلُ الْكَاتِبِ الْإِسْلَامِيِّ الْكَبِيرِ مُصْطَفَىٰ صَادِقٍ الرَّافِعِيِّ ، حَيْثُ لَمْ يَقْضِ فِي التَّعْلِيمِ سِوَىٰ أَرْبَعِ سَنَوَاتٍ فِي الْمَدْرَسَةِ الابْتِدَائِيَّةِ ، ثُمَّ مَنَعَهُ مَرَضُهُ الْمُفَاجِئُ فِي سَمْعِهِ أَنْ يَلْتَحِقَ بِالْمَدْرَسَةِ الثَّانَوِيَّةِ ، فَعَكَفَ عَلَىٰ الْمَكْتَبَةِ الْعَرَبِيَّةِ قَارِئًا هَاضِمًا ، وَتِلْمِيذًا مُتَبَصِّرًا وَقَدْ أَذِنَ اللَّهُ لَهُ أَنْ يَكُونَ فِيمَا بَعْدُ كَاتِبَ الْإِسْلَامِ ، كَمَا أَذِنَ لِمُحَرَّم أَنْ يَكُونَ شَاعِرَ الْإِسْلَامِ ..

وَبَعْضُ الْكَاتِبِينَ يَجْعَلُونَ شَغَفَ مُحَرَّم لِمُنَاصَرَةِ الْأَتْرَاكِ رَاجِعًا إِلَىٰ أَصْلِهِ التُّرْكِيِّ ، كَمَا قَالُوا ذَلِكَ عَنْ أَحْمَدَ شَوْقِيٍّ وَعَنْ أَحْمَدَ الْكَاشِفِ ، وَهُوَ نَظَرٌ جُزْئِيٌّ يَتَّجِهُ إِلَىٰ نَاحِيَةٍ وَاحِدَةٍ قَدْ تَكُونُ سَبَبًا مِنَ الْأَسْبَابِ وَيُغْفِلُ ظَاهِرَةً عَامَّةً لَدَىٰ سَوَادِ الْمِصْرِيِّينَ هِيَ حُبُّهُمُ الْأَكِيدُ لِلْخِلَافَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ بِاعْتِبَارِهَا السَّدَّ

النَّاهِضَ أَمَامَ الْغَزْوِ الِاسْتِعْمَارِيِّ ، وَالزَّعِيمُ الْمِصْرِيُّ الصَّمِيمُ أَحْمَدُ عُرَابِيٌّ حِينَ قَامَ بِثَوْرَتِهِ الشَّهِيرَةِ ، خَتَمَ الْقَرَارَ الْخَاصَّ بِعَزْلِ الْخِدِيوي بِالِاعْتِرَافِ بِالْوَلَاءِ لِلسُّلْطَانِ ، وَظَلَّ خُطَبَاءُ الثَّوْرَةِ وَكُتَّابُهَا يُشِيدُونَ بِالِانْتِمَاءِ إِلَىٰ السُّلْطَانِ مُطَالِبِينَ تَأْيِيدَهُ فِي الْمَوْقِفِ الْوَطَنِيِّ الْحَاسِمِ ، وَأَذْكُرُ أَنَّ الْمُؤَرِّخَ الْأَدَبِيَّ الْفَاضِلَ الدُّكْتُورَ مُحَمَّدًا مُحَمَّدًا حُسَيْنًا قَدْ عَقَدَ فَصْلًا قَوِيًّا فِي مُفْتَتَحِ كِتَابِهِ «الِاتِّجَاهَاتُ الْوَطَنِيَّةُ فِي الْأَدَبِ الْمُعَاصِرِ» تَحْتَ عُنْوَانِ «الْجَامِعَةُ الْإِسْلَامِيَّةُ» تَتَبَّعَ فِيهِ أَقْوَالَ الزُّعَمَاءِ فِيَ مِصْر ، وَفِي طَلِيعَتِهِمْ مُحَمَّدٌ عَبْدُهُ وَعَبْدُ اللَّهِ النَّدِيمُ وَمُصْطَفَىٰ كَامِلٌ وَمُحَمَّدٌ فَرِيدٌ ، عَنْ تَمَسُّكِهِمْ بِالْخِلَافَةِ فِي وَجْهِ الِاحْتِلَالِ الْإِنْكِلِيزِيِّ ، وَسَأَنْقُلُ عَنْهُ بَعْضَ مَا قَالُوهُ فِي هَذَا الصَّدَدِ ، وَكَانَ الْمَسْرَحُ السِّيَاسِيُّ فِي أُورُبَّا يُحَتِّمُ عَلَىٰ الْمُسْلِمِينَ بِعَامَّةٍ وَالْمِصْرِيِّينَ بِخَاصَّةٍ هَذَا الِاتِّجَاهَ ؛ لِأَنَّ الْمَجَازِرَ الْوَحْشِيَّةَ الرَّهِيبَةَ الَّتِي قَامَ بِهَا الْمَسِيحِيُّونَ فِي الْبَلْقَانِ بِتَحْرِيضِ رُوسْيَا وَتَأْيِيدِ انْكِلْتِرَا قَدْ كَشَفَتِ الْقِنَاعَ عَنْ حَرْبٍ صَلِيبِيَّةٍ تُوَجِّهُ سَافِرَةً لِلْإِسْلَامِ ، وَلَيْسَ فِي الْبِلَادِ الْإِسْلَامِيَّةِ دَوْلَةٌ أَقْوَىٰ مِنْ دَوْلَةِ الْخِلَافَةِ عَلَىٰ ضَعْفِهَا الْوَاضِحِ أَمَامَ التَّكَتُّلِ الْأُورُبِّيِّ ، وَلَمْ تَكُنْ فَرَنْسَا بِمَعْزِلٍ عَنْ هَذَا الِاتِّجَاهِ فَقَدْ دَعَا أَحَدُ كُتَّابِهَا إِلَىٰ اسْتِئْصَالِ شَأْفَةِ الْإِسْلَامِ ، وَزَيَّنَ لَهُ الْوَهْمُ أَنَّ سَاعَةَ هَذَا الدِّينِ قَدْ دَنَتْ ، وَلَيْسَ أَمَامَ السَّاسَةِ فِي أُورُبَّا فِي سَبِيلِ الْقَضَاءِ عَلَىٰ الْمُسْلِمِينَ إِلَّا أَنْ يَنْبُشُوا قَبْرَ الرَّسُولِ ﷺ ، وَيَنْقُلُوا عِظَامَهُ إِلَىٰ مُتْحَفِ اللُّوفَرِ فِي بَارِيسَ(١)، وَقَدْ تُنوقِلَتْ هَذِهِ الْأَقْوَالُ فِي الصُّحُفِ الْمِصْرِيَّةِ ، وَهَبَّ الْكُتَّابُ يُنَادُونَ بِالِاتِّحَادِ فِي جَامِعَةٍ إِسْلَامِيَّةٍ ، وَقَارِئُ جَرِيدَةِ

---

(١) مُحَمَّد رشيد رضا : تاريخ الإمام ص ٨٠١.

الْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ يَجِدُ الدَّعْوَةَ إِلَىٰ الْجَامِعَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ تَتَرَدَّدُ فِي مَقَالَاتٍ عِدَّةٍ مُؤَيَّدَةً بِالدَّلِيلِ الْوَاقِعِ الْمَشْهُودِ ، وَالتَّارِيخِ السَّالِفِ ، يَقُولُ مُحَمَّدٌ عَبْدُه(1):

« وَازِعُ الْمُسْلِمِينَ فِي الْحَقِيقَةِ شَرِيعَتُهُمُ الْمُقَدَّسَةُ الْإِلَهِيَّةُ ، الَّتِي لَا تُمَيِّزُ بَيْنَ جِنْسٍ وَجِنْسٍ ، وَلَيْسَ لِلْحَاكِمِ أَدْنَىٰ امْتِيَازٍ عَنْهُمْ إِلَّا بِكَوْنِهِ أَحْرَصَهُمْ عَلَىٰ الشَّرِيعَةِ وَالدِّفَاعِ عَنْهَا ، وَكُلُّ فَخَارٍ تُكْسِبُهُ الْأَنْسَابُ ، وَكُلُّ امْتِيَازٍ تُفِيدُهُ الْأَحْسَابُ لَمْ يَجْعَلْ لَهُ الشَّارِعُ أَثَرًا فِي وِقَايَةِ الْحُقُوقِ ، وَحِمَايَةِ الْأَرْوَاحِ وَالْأَمْوَالِ وَالْأَعْرَاضِ ، بَلْ كُلُّ رَابِطَةٍ سِوَىٰ رَابِطَةِ الشَّرِيعَةِ الْحَقَّةِ مَمْقُوتَةٌ عَلَىٰ لِسَانِ الشَّارِعِ ، وَالْمُعْتَمِدُ عَلَيْهَا مَذْمُومٌ ، وَالْمُتَعَصِّبُ لَهَا مَلُومٌ ، فَقَدْ قَالَ صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : « لَيْسَ مِنَّا مَنْ دَعَا إِلَىٰ عَصَبِيَّةٍ ، وَلَيْسَ مِنَّا مَنْ قَاتَلَ عَلَىٰ عَصَبِيَّةٍ ، وَلَيْسَ مِنَّا مَنْ مَاتَ عَلَىٰ عَصَبِيَّةٍ » . وَالْأَحَادِيثُ النَّبَوِيَّةُ ، وَالْآيَاتُ الْمُنَزَّلَةُ مُتَضَافِرَةٌ عَلَىٰ هَذَا ، وَلَكِنْ يَمْتَازُ بِالْكَرَامَةِ وَالِاحْتِرَامِ مَنْ يَفُوقُ الْكَافَّةَ فِي التَّقْوَىٰ ﴿ **إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ** ﴾(2) وَمِنْ ثَمَّ قَامَ بِأَمْرِ الْمُسْلِمِينَ عَلَىٰ مَدَىٰ الْأَجْيَالِ ، مَنْ لَا شَرَفَ لَهُ فِي جِنْسِهِ ، وَلَا امْتِيَازَ لَهُ فِي قَبِيلَةٍ ، وَلَا وَرِثَ الْمُلْكَ عَنْ آبَائِهِ ، وَمَا رَفَعَهُ إِلَىٰ مِنَصَّةِ الْحُكْمِ إِلَّا خُضُوعُهُ لِلشَّرْعِ ، وَعِنَايَتُهُ بِالْمُحَافَظَةِ عَلَيْهِ .

هَذَا مَا أَرْشَدَتْنَا إِلَيْهِ سِيَرُ الْمُؤْمِنِينَ مِنْ نَشْأَةِ دِينِهِمْ إِلَىٰ الْآنَ ، لَا يَعْتَدُّونَ بِرَابِطَةِ الشُّعُوبِ وَعَصَبِيَّاتِ الْأَجْنَاسِ ، وَإِنَّمَا يَنْظُرُونَ إِلَىٰ جَامِعَةِ الدِّينِ .

• وَهَذَا الْكَلَامُ الْوَاضِحُ ، وُجِدَ مَنْ يُعَارِضُهُ ، لَا لِخَطَئِهِ ، فَهُوَ صَوَابٌ

---

(1) السابق .

(2) سورة الحجرات الآية ١٣.

صَوَابٌ ، وَلَكِنْ لِحَاجَةٍ فِي نَفْسِهِ ، فَقَدْ زَعَمَ بَعْضُ الْمُعَقِّبِينَ ، أَنَّ الْمِصْرِيِّينَ ثَارُوا عَلَىٰ وُلَاةِ التُّرْكِ فِي أَوَاخِرِ الْعَصْرِ الْعُثْمَانِيِّ مِنْ أَمْثَالِ خُورْشِيد بَاشَا ، مِمَّا يَنْقُضُ كَلَامَ الْأُسْتَاذِ الْإِمَامِ ، وَقَدْ نَسِيَ هَذَا الْمُعْتَرِضُ أَنَّ الثَّوْرَةَ عَلَىٰ خُورْشِيد وَأَمْثَالِهِ مِنْ ظَلَمَةِ الْحُكَّامِ لَمْ تَكُنْ لِأَنَّهُمْ أَتْرَاكٌ ، بَلْ لِأَنَّهُمْ تَجَاوَزُوا حُدُودَ الشَّرْعِ فِيمَا يَنْهَبُونَ مِنَ الْأَمْوَالِ وَيَسْفِكُونَ مِنَ الدِّمَاءِ ، بِدَلِيلِ أَنَّ الثَّائِرِينَ قَدْ أَرْسَلُوا إِلَىٰ السُّلْطَانِ الْعُثْمَانِيِّ رَاجِينَ أَنْ يُعَيِّنَ لَهُمْ وَالِيًا آخَرَ ، وَحِينَ تَقَاعَسَ السُّلْطَانُ فِي بَعْضِ الْأَحْوَالِ بَادَرُوا بِتَعْيِينِ مُحَمَّدِ عَلِيٍّ بَاشَا وَالِيًا عَلَىٰ مِصْرَ ، وَلَمْ يَكُنْ مُحَمَّدٌ عَلِيٌّ مِصْرِيًّا ، وَلَكِنَّهُ مُسْلِمٌ كُفْءٌ ، فَذَهَبَ الِاعْتِرَاضُ .

أَمَّا عَبْدُ اللَّهِ النَّدِيمُ فَيَقُولُ[1] فِي هَذَا الصَّدَدِ : لَوْ كَانَتِ الدَّوْلَةُ الْعُثْمَانِيَّةُ مَسِيحِيَّةَ الدِّينِ لَبَقِيَتْ بَقَاءَ الدَّهْرِ بَيْنَ تِلْكَ الدُّوَلِ الصَّغِيرَةِ وَالْكَبِيرَةِ ، وَلَكِنَّ الْمُغَايَرَةَ وَسَعْيَ أُورُبَّا فِي تَلَاشِي الدِّينِ الْإِسْلَامِيِّ أَوْجَبَ هَذَا التَّحَامُلَ الَّذِي أَخْرَجَ كَثِيرًا مِنْ مَمَالِكِ الدَّوْلَةِ بِالِاسْتِقْلَالِ وَالِابْتِلَاعِ ، وَإِنَّنَا نَرَىٰ كَثِيرًا مِنَ الْمُغَفَّلِينَ الَّذِينَ حَنَّكَتْهُمْ قَوَالِبُهُمْ بِاسْمِ أُورُبَّا يَذُمُّونَ الدَّوْلَةَ الْعَلِيَّةَ ، وَيَرْمُونَهَا بِالْعَجْزِ وَعَدَمِ التَّبَصُّرِ وَسُوءِ الْإِدَارَةِ وَقَسْوَةِ الْأَحْكَامِ ، وَلَوْ أَنْصَفُوا لَقَالُوا : إِنَّهَا أَعْظَمُ الدُّوَلِ ثَبَاتًا ، وَأَحْسَنُهَا تَبَصُّرًا ، فَإِنَّهَا فِي نُقْطَةٍ يَنْصَبُّ إِلَيْهَا تَيَّارُ أُورُبَّا الْعُدْوَانِيُّ ؛ لِأَنَّهَا دَوْلَةٌ إِسْلَامِيَّةٌ بَيْنَ ثَمَانِ عَشْرَةَ دَوْلَةً مَسِيحِيَّةً غَيْرِ دُوَلِ أَمْرِيكَا ، وَتَحْتَ رِعَايَتِهَا جَمِيعُ الطَّوَائِفِ وَالْأَجْنَاسِ وَالْأَدْيَانِ ، وَالْفِتَنُ مُتَوَاصِلَةٌ مِنْ رِجَالِ أُورُبَّا إِلَىٰ مَنْ يُمَاثِلُهُمْ مَذْهَبًا ، أَوْ يَقْرُبُ مِنْهُمْ جِنْسًا .

ثُمَّ مَضَىٰ الدُّكْتُورُ مُحَمَّدٌ مُحَمَّدٌ حُسَيْنٌ رَحِمَهُ اللَّهُ يَعْرِضُ فِي مَجَالِ

---

(١) الاتجاهات الوطنية ص ٥.

الإِسْتِشْهَادِ آرَاءً صَائِبَةً لِلزَّعِيمَيْنِ الْكَبِيرَيْنِ مُصْطَفَىٰ كَامِلٍ وَمُحَمَّدٍ فَرِيدٍ تَدُورُ هَذَا الْمَدَارَ فِي بَرَاعَةِ تَدْلِيلٍ ، وَقُوَّةِ حِجَاجٍ ، فَأُحِيلُ الْقَارِئَ الْكَرِيمَ إِلَىٰ مَا اسْتَشْهَدَ بِهِ الْمُؤَلِّفُ مِنْ أَقْوَالِ هَذَيْنِ الْمُجَاهِدَيْنِ ، وَمُحَمَّدٌ فَرِيدٌ وَمُصْطَفَىٰ كَامِلٌ مِنَ الإِخْلَاصِ لِلْوَطَنِ الْمِصْرِيِّ ، وَالْعَمَلِ عَلَىٰ اسْتِقْلَالِهِ ، وَالْمُنَادَاةِ بِطَرْدِ الْمُحْتَلِّ الْغَاصِبِ بِالْمَكَانَةِ الرَّفِيعَةِ الَّتِي لَا يَتَطَرَّقُ إِلَيْهَا أَدْنَىٰ اشْتِبَاهٍ ، وَغَيْرُ هَذَيْنِ مِنَ الْقَادَةِ الْمُخْلِصِينَ كُتَّابًا وَشُعَرَاءَ قَدْ سَلَكُوا مَسْلَكَهُمُ الْوَاضِحَ ، وَفِي طَلِيعَتِهِمْ أَحْمَدُ مُحَرَّمٍ الَّذِي نَخُصُّهُ بِهَذَا الْكِتَابِ .

إِنَّ الَّذِي يَقْرَأُ دِيوَانَ أَحْمَدَ مُحَرَّمٍ وَقَدْ طُبِعَ فِي خَمْسَةِ أَجْزَاءٍ كِبَارٍ يَلْمَسُ عَاطِفَتَهُ الإِسْلَامِيَّةَ الْمُتَّقِدَةَ نَحْوَ الْخِلَافَةِ الإِسْلَامِيَّةِ إِيمَانًا مِنْهُ بِأَنَّهَا عِصَامُ الأُمَّةِ الإِسْلَامِيَّةِ وَحَبْلُهَا الْمَتِينُ ، وَبِهَذَا الإِيمَانِ أَرْسَلَ مَدَائِحَهُ فِي خَلِيفَةِ الْمُسْلِمِينَ ، وَوَالَىٰ قَصَائِدَهُ فِي تَسْطِيرِ انْتِصَارَاتِ الدَّوْلَةِ عِنْدَ الانْتِصَارِ ، وَالتَّوَجُّعِ لَهَا عِنْدَ الْهَزِيمَةِ .

وَلَمْ يَكُنْ مُحَرَّمٌ فِي قَصَائِدِهِ مَادِحًا يُصَفِّقُ تَصْفِيقَ السَّاذِجِ الْغَافِلِ ، وَلَكِنَّهُ كَانَ نَاصِحَ أُمَّةٍ ، وَفَارِسَ رَأْيٍ ، وَصَاحِبَ مَذْهَبٍ ، فَهْوَ يُشِيرُ بِالْحَقِّ ، وَيَنْهَىٰ عَنِ الْجَوْرِ ، وَيُحَاسِبُ مَنْ يُخْطِئُ عِنْدَ الْخَطَإِ دُونَ أَنْ يَلْتَمِسَ الْعُذْرَ شَأْنَ مَنْ يَبْتَغِي الزُّلْفَىٰ عِنْدَ الْمَمْدُوحِ ، وَقَدْ عَاشَ مُحَرَّمٌ نَاصِحًا مُرْشِدًا دُونَ أَنْ يَنَالَ مِنْ مَمْدُوحِيهِ مِلِّيمًا وَاحِدًا ، بَلْ دُونَ أَنْ يَنْعَمَ بِوِسَامٍ سُلْطَانِيٍّ نَالَهُ مَنْ دُونَهُ حِينَ سَعَىٰ إِلَيْهِ طَالِبًا ، وَقَدْ كَابَدَ أَشَدَّ أَلْوَانِ الرَّهَقِ وَالْعَوَزِ ، وَهُوَ مُعْتَصِمٌ بِتَرَفُّعِهِ وَاسْتِعْلَائِهِ ، وَبِهَذَا التَّرَفُّعِ جَابَهَ الْمَسْئُولِينَ مِنَ الْحُكَّامِ نَاقِدًا مُعَنِّفًا ، وَلِهَذَا الْمَوْضِعِ مَكَانُهُ مِنَ الْبَحْثِ ، مُؤَيَّدًا بِالشَّوَاهِدِ الصَّادِقَةِ دُونَ افْتِعَالٍ .

نَظَمَ الشَّاعِرُ فِي سِنِّ السَّادِسَةَ عَشْرَةَ، وَهِيَ سِنٌّ لَا تَصِلُ بِصَاحِبِهَا إِلَى الْجَوْدَةِ الْفَنِّيَّةِ، إِذَا لَمْ يَكُنْ ذَا مَوْهِبَةٍ أَصِيلَةٍ. نَظَمَ قَصِيدَةً مَطْبُوعَةً فِي عِيدِ الْجُلُوسِ السُّلْطَانِيِّ تَهْنِئَةً لِلسُّلْطَانِ عَبْدِ الْحَمِيدِ، فَكَانَتْ إِحْدَى الْقَصَائِدِ الْمُخْتَارَةِ الَّتِي جُمِعَتْ فِي كِتَابٍ خَاصٍّ سَمَّاهُ جَامِعُهُ أَبُو النَّصْرِ السَّلَاوِيُّ شَاعِرُ دَارِ الْخِلَافَةِ: «عُكَاظُ الْأَدَبِ».

وَفِي هَذِهِ الْقَصِيدَةِ النَّاشِئَةِ كَثِيرٌ مِنْ سِمَاتِ مُحَرَّمٍ الَّتِي ظَلَّتْ مُتَّصِلَةً بِشِعْرِهِ، فَأَكَّدَتْ أَنَّ الشَّاعِرَ قَدْ طُبِعَ عَلَى مَذْهَبٍ فَنِّيٍّ، اسْتَقَامَتْ لَهُ أَدَاتُهُ الطَّيِّعَةُ دُونَ عَنَاءٍ، وَقَدْ بَدَأَهَا عَلَى عَادَةِ شُعَرَاءِ زَمَنِهِ بِالْحَنِينِ التَّقْلِيدِيِّ حَيْثُ قَالَ(١):

مَنَازِلَ سَلْمَى لَاعَدَتْكِ الْغَمَائِمُ ... وَلَا دَرَسَتْ بِالْجِزْعِ مِنْكِ الْمَعَالِمُ
وَقَفْتُ عَلَيْكِ الْعَيْشَ وِقْفَةَ حَائِمٍ ... يُنَازِعُهُ قَلْبٌ بِوَادِيكِ هَائِمُ

ثُمَّ قَالَ عَنِ الْمَمْدُوحِ بَعْدَ عِدَّةِ أَبْيَاتٍ:

مَلِيكُهُمْ عَبْدُ الْحَمِيدِ وَإِنَّهُ ... لَخَيْرُ مَلِيكٍ فِي الْمُلِمَّاتِ حَازِمُ
حَمَى بَيْضَةَ الْإِسْلَامِ عَنْ يَدِ لَامِسٍ ... فَأَصْبَحَ مِنْ كَيْدِ الْعِدَا وَهْوَ سَالِمُ
وَصَانَ ذِمَارَ الدِّينِ، وَالدِّينُ حَوْلَهُ ... أَيَامِنُ مِنْ أَعْدَائِهِ وَأَشَائِمُ
إِذَا فَاضَ طُوفَانُ النَّوَائِبِ لَمْ يَكُنْ ... سِوَاهُ لَنَا مِنْ صَائِلِ الْحَيْنِ عَاصِمُ
أَجَاهِلَهُ إِمَّا أَرَدْتَ فِعَالَهُ ... فَسَلْ عَنْهُ تُنْبِيكَ اللَّيَالِي الْعَوَارِمُ
فَيَا رُبَّ غَارَاتٍ سَقَيْنَا سُيُوفَنَا ... بِهَا مِنْ دِمَاءٍ، وَهْيَ هِيمٌ حَوَائِمُ

---

(١) ديوان محرم ج ٤١ ص ٢٣.

فَمَا أُهْمِدَتْ حَتَّىٰ وَهَتْ عَزَمَاتُهُمْ   وَحَتَّىٰ هَوَتْ فَوْقَ الرِّجَامِ[1] الْجَمَاجِمُ
فَأَصْبَحَ كُلٌّ نَادِمًا بَعْدَ غَيِّهِ   وَكُلُّ غَوِيٍّ لَا مَحَالَةَ نَادِمُ
إِذَا شَنَّ حَرْبًا غَيْرُنَا لِغَنِيمَةٍ   فَلَيْسَ لَنَا إِلَّا النُّفُوسَ غَنَائِمُ
مَحَارِمُنَا لَا تُسْتَبَاحُ وَإِنَّمَا   لَدَىٰ غَيْرِنَا قَدْ تُسْتَبَاح الْمَحَارِمُ
لَنَا الْأَرْضُ مَا تَنْفَكُّ لَمْحَةُ نَاظِرٍ   تَدِينُ لَنَا أَعْرَابُهَا وَالْأَعَاجِمُ

وَلَا بُدَّ أَنْ أُشِيرَ إِلَىٰ أَنَّ السُّلْطَانَ عَبْدَ الْحَمِيدِ ، قَدْ ظُلِمَ ظُلْمًا فَادِحًا مِنْ كَاتِبِي هَذَا الْعَصْرِ ، حَيْثُ تَوَاتَرَتْ أَقْلَامٌ جَاهِلَةٌ أَوْ مُغْرِضَةٌ عَلَىٰ ثَلْبِهِ بَغْيًا دُونَ حَقٍّ ، وَظَهَرَتْ كُتُبٌ رَأَتْ فِي هَدْمِهِ هَدْمَ الْخِلَافَةِ الَّتِي يُمَثِّلُهَا فَبَالَغَتْ فِي تَعْدَادِ مَسَاوِئَ نَقَلَتْهَا عَنْ صَحَائِفِ أُورُبَّا مِمَّا سَجَّلَهُ الْمَوْتُورُونَ عَنْهُ ، وَمَا أَزْعُمُ أَنَّ الرَّجُلَ مَعْصُومٌ مِنَ الْخَطَإِ ، وَلَكِنَّهُ إِنْسَانٌ لَهُ مَآخِذُهُ جِوَارَ حَسنَاتِهِ الْكَثِيرَةِ ، فَاخْتِصَاصُهُ بِالذَّمِّ الْبَاغِي عُدْوَانٌ عَلَىٰ الْحَقِيقَةِ ، وَأَذْكُرُ فِي هَذَا الْمَجَالِ كَبْوَةً كَبَوْتُهَا جَاهِلًا دُونَ دِرَايَةٍ ، حِينَ صَدَّقْتُ بَعْضَ مَا قَالَ الْمُغْرِضُونَ ، فَكَتَبْتُ مَقَالًا تَحتَ عُنْوَانِ « بَيْنَ شَوْقِيٍّ وَوَلِيِّ الدِّينِ يَكَنٍ » بِمَجَلَّةِ الرِّسَالَةِ الصَّادِرَةِ بِتَارِيخِ ١٠ مِنْ دِيسَمْبِر سَنَةَ ١٩٥١م وَكُنْتُ فِي مَطْلَعِ حَيَاتِيَ الْأَدَبِيَّةِ غَافِلًا عَنِ التَّيَّارَاتِ الْمُعَادِيَةِ الَّتِي قَلَبَتْ كَثِيرًا مِنَ الْحَقَائِقِ ، فَسَجَّلْتُ مَا اتَّضَحَ لِيَ الْآنَ خَطَؤُهُ ، وَلَسْتُ وَحْدِي فِي هَذِهِ الْكَبْوَةِ ، لِأَنَّ كَثِيرًا غَيْرِي قَدْ صَدَّقُوا الْإِفْكَ ، وَاعْتَقَدُوهُ حَقِيقَةً وَاقِعَةً ، فَكَتَبُوا لَائِمِينَ مُنَدِّدِينَ ، وَقَدْ مَضَتِ الْأَيَّامُ وَكَشَفَتِ الْحَقَائِقُ عَنْ أَوْهَامٍ اعْتَقَدَهَا الْغَافِلُونَ بِتَدْلِيسِ الْمُرْجِفِينَ ، فَعَادَ لِلرَّجُلِ اعْتِبَارُهُ عِنْدَ مَنْ يَسْتَمِعُونَ الْحَقَّ

(١) الرِّجَام : القبور .

فَيَنْدَفِعُونَ إِلَيْهِ تَائِبِينَ، أَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَلَوْ جِئْتَهُمْ بِكُلِّ آيَةٍ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا، وَمِنْ أَغْرَبِ مَا رَأَيْتُ فِي هَذَا الْبَابِ أَنَّ رِوَايَاتٍ أَدَبِيَّةً كَتَبَهَا الْقَصَّاصُونَ فِي أُورُبَّا اسْتِهْوَاءً لِعُقُولِ الْمُرَاهِقِينَ، حِينَ تَتَحَدَّثُ عَنِ الْجَوَارِي وَخِيَانَاتِ الْقُصُورِ، وَدَسَائِسِ الْمُتَنَافِسَاتِ مِنَ الضَّرَائِرِ، هَذِهِ الرِّوَايَاتُ الْخَيَالِيَّةُ الَّتِي لَا تَسْتَنِدُ إِلَى وَقَائِعَ صَحِيحَةٍ، أَصْبَحَتْ لَدَى بَعْضِ الْكَاتِبِينَ مَصْدَرًا مِنْ مَصَادِرِ التَّارِيخِ، فَنُقِلَتْ عَنْهَا الصَّفَحَاتُ ذَاتُ الْبَغْيِ وَالْفُحْشِ، وَكَأَنَّهَا حَقٌّ لَا مِرْيَةَ فِيهِ.

وَمِنْ حَظِّ الدَّارِسِ لِدِيوَانِ مُحَرَّمٍ أَنَّهُ فِي طَبْعَتِهِ الْأَخِيرَةِ قَدْ رُتِّبَ تَرْتِيبًا تَارِيخِيًّا، وَذُكِرَ فِي خِتَامِ كُلِّ قَصِيدَةٍ زَمَانُ إِنْشَائِهَا، وَهَذَا مِمَّا يُسَاعِدُ عَلَى رَصْدِ الْخُطُوَاتِ الْمُتَتَالِيَةِ فِي طَرِيقِ الشَّاعِرِ السِّيَاسِيِّ، وَبِمُرَاجَعَةِ هَذِهِ التَّوَارِيخِ عَرَفْنَا أَنَّ الشَّاعِرَ لَا يَكَادُ يُغَادِرُ حَدَثًا هَامًّا مِنَ الْأَحْدَاثِ السِّيَاسِيَّةِ إِلَّا تَحَدَّثَ عَنْهُ مِنْ وِجْهَةِ نَظَرِهِ الْخَاصَّةِ، الَّتِي عُرِفَ بِهَا وَاشْتُهِر، فَلَيْسَ بِالَّذِي يَرْصُدُ مَهَبَّ الرِّيحِ لِيَسِيرَ فِي اتِّجَاهِهَا، وَلَكِنَّهُ يُجَابِهُ الرِّيحَ فِي طَرِيقِ الْعَاصِفَةِ الْمُدَمِّرَةِ إِذَا كَانَ هُبُوبُهَا مِمَّا يُعَارِضُ اتِّجَاهَهُ الْحُرَّ الْأَبِيَّ، وَإِذَا كَانَتْ أَحْدَاثُ الْخِلَافَةِ فِي الرُّبْعِ الْأَوَّلِ مِنْ هَذَا الْقَرْنِ قَدْ تَتَابَعَتْ مُضْطَرِبَةً عَاصِفَةً، فَقَدْ وَجَدَتْ هَذِهِ الْأَحْدَاثُ تَسْجِيلَهَا الدَّءُوبَ فِي دِيوَانِ الشَّاعِرِ، وَيَسْتَطِيعُ مُؤَرِّخُ هَذِهِ الْفَتْرَةِ أَنْ يَسْتَشْهِدَ بِشِعْرِ مُحَرَّمٍ فِي أَكْثَرِ مَا يُسَجِّلُهُ مِنَ الْأَحْدَاثِ، وَيَضِيقُ الْمَقَامُ هُنَا عَنْ أَنْ نُتَابِعَ خُطُوَاتِ الشَّاعِرِ، خُطْوَةً خُطْوَةً؛ لِأَنَّهُ كَانَ دَافِقَ الْخَاطِرِ، سَيَّالَ الْعَاطِفَةِ لَا يَهْدَأُ لَهُ وِجْدَانٌ أَمَامَ مَا يَثُورُ مِنَ الْأَحْدَاثِ، وَهُوَ لَيْسَ شَاعِرَ مُنَاسَبَاتٍ سِيَاسِيَّةٍ طَارِئَةٍ، وَلَكِنَّهُ شَاعِرُ مَوْقِفٍ مُلْتَزَمٍ هُوَ الْإِطَارُ

الْبَارِزُ الَّذِي يُحَدِّدُ اتِّجَاهَهُ ، وَقَدْ كَانَتِ الْحَرْبُ التُّرْكِيَّةُ الْيُونَانِيَّةُ ذَاتَ حَلَقَاتٍ مُتَّصِلَةٍ ؛ لِأَنَّ دُوَلَ أُورُبَّا تَقِفُ مَعَ الْيُونَانِ بِالسِّلَاحِ الْحَرْبِيِّ ، وَالنُّفُوذِ السِّيَاسِيِّ ، فَتُشْعِلُ الْمَعَارِكَ بَعْدَ أَنْ تَنْطَفِئَ ، وَفِي مَعَارِكِ الِانْتِصَارِ كَانَ مُحَرَّمٌ يُرْسِلُ الْقَصِيدَةَ خَلْفَ الْقَصِيدَةِ مُهَنِّئًا مُبَارِكًا ، وَلَمْ يَنْسَ أَنْ يُكَرِّرَ أَنَّ الْحَرْبَ إِسْلَامِيَّةٌ ، وَأَنَّ كَتَائِبَ الْخِلَافَةِ كَتَائِبُ تُذَكِّرُنَا بِكَتَائِبِ خَالِدٍ وَأَبْطَالِ الْفَتْحِ الْإِسْلَامِيِّ فِي أَزْهَىٰ عُصُورِهِ ، وَأَنَّ تُرْكِيَا هِيَ الَّتِي تَحْمِي حِمَىٰ الْإِسْلَامِ ، وَتَأْخُذُ الْأَعْدَاءَ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ ، يَقُولُ مُحَرَّمٌ[١]:

أَهَابَ بِهَا النَّصْرُ الْحَمِيدِيُّ فَارْعَوَتْ[٢] ... وَأَقْبَلَ وَضَّاحًا تُضِيءُ كَوَاكِبُهْ
بَرِيدٌ مِنَ الْمُخْتَارِ يَعْبَقُ طِيبُهُ ... وَبَرْقٌ مِنَ الْأَنْصَارِ يَسْطَع ثَاقِبُهْ
سَنَا الْوَحْيِ أَسْطَارٌ ، فَإِنْ كُنْتَ قَارِئًا ... فَهَذَا كِتَابُ الْحَقِّ ، وَاللَّهُ كَاتِبُهْ
أَفِي مَعْقِلِ الْإِسْلَامِ تَطْمَحُ أُمَّةٌ ... تَبِيتُ مَنَايَاهَا حَيَارَىٰ تُرَاقِبُهْ ؟!
إِذَا لَمَحَتْ إِيمَاءَةً مِنْهُ أَجْلَبَتْ ... عَلَىٰ الْقَوْمِ حَتَّىٰ يَسْأَمَ الشَّرَّ جَالِبُهْ
كَتَائِبُ مِنْ أَقْوَامِنَا «خَالِدِيَّةٌ» ... وَمَا الْحَرْبُ إِلَّا خَالِدٌ وَكَتَائِبُهْ
مَشَتْ تَأْخُذُ الْأَعْدَاءَ وَاللَّهُ قَائِمٌ ... عَلَيْهَا ، وَدِينُ اللَّهِ يُعْتَزُّ غَالِبُهْ
إِذَا لَمَسَتْ حِصْنًا هَوَتْ شُرُفَاتُهُ ... وَإِنْ لَمَحَتْ طَوْدًا تَدَاعَتْ جَوَانِبُهْ
لَنَا مِنْ بَنِي عُثْمَانَ سَيْفٌ إِذَا انْتَمَىٰ ... تَسَامَتْ بِهِ أَعْرَاقُهُ وَمَنَاسِبُهْ
«لِحَمْزَةَ» حَدٌّ مِنْهُ غَيْرُ مُكَذَّبٍ ... وَحَدٌّ «لِسَيْفِ اللَّهِ» شَتَّىٰ مَنَاقِبُهْ

(١) الدّيوان ج ١، ص ٣٨.
(٢) ارْعَوَت : ازدجرت .

إِذَا مَا دَعَا الشُّمَّ الْأُبَاةَ لِغَارَةٍ دَعَا « الْبَيْتَ » فِيهِ وَاسْتَجَابَتْ أَخَاشِبُهْ

قَضَيْتَ لَهُمْ فِي اللَّهِ وَاجِبَ حَقِّهِ وَكَيْفَ بِحَقِّ اللَّهِ إِنْ ضَاعَ وَاجِبُهْ

فَالْحَرْبُ إِسْلَامِيَّةٌ ، وَأَبْطَالُهَا أَشْبَاهُ خَالِدٍ وَحَمْزَةَ ، وَالِّتجَاهُ كَهٰذَا لَا يُمَثِّلُ مَوْقِفَ الشَّاعِرِ وَحْدَهُ ، وَلَكِنَّهُ يُمَثِّلُ مَوْقِفَ الْعَالَمِ الْإِسْلَامِيِّ كُلِّهِ إِلَّا الْخَوَارِجَ مِنَ الْمُرْتَزِقَةِ الَّذِينَ لَا يُمَثِّلُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ ، وَقَدْ رَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ وَغَرَّتْهُمُ الْأَمَانِيُّ !.

وَأَحْوَالُ السِّيَاسَةِ فِي دَهَالِيزِهَا الْمُظْلِمَةِ قَدْ لَا يُدْرِكُهَا شَاعِرٌ لَا يَرَىٰ غَيْرَ الظَّوَاهِرِ الْبَادِيَةِ ، فَقَدِ اضْطُرَّ السُّلْطَانُ إِلَىٰ هُدْنَةٍ مَعَ الْيُونَانِ ، حَيْثُ رَأَىٰ تَأَلُّبَ الدُّوَلِ الْأُورُبِّيَّةِ عَلَيْهِ ، وَإِمْدَادَهَا بِالذَّخَائِرِ ، وَقَدِ اخْتَلَفَتْ رُوسْيَا مَعَ انْكِلْتِرَا وَفَرَنْسَا فِي النَّهْجِ السِّيَاسِيِّ ، وَلَكِنَّ الْفَرِيقَيْنِ مَعًا قَدِ اتَّفَقَا عَلَىٰ شَيْءٍ وَاحِدٍ ، هُوَ حَرْبُ الْخِلَافَةِ ، وَتَأْيِيدُ الْيُونَانِ بِمَا تَمْلِكُ هَذِهِ الدُّوَلُ مِنْ عَتَادٍ ، وَقَدْ لَحَظَ السُّلْطَانُ هَذَا التَّآمُرَ الصَّرِيحَ فَاسْتَجَابَ إِلَىٰ هُدْنَةٍ طَارِئَةٍ ، وَالْيُونَانُ تَعْرِفُ مَنْ يَشُدُّونَ أَزْرَهَا وَلَا يَتْرُكُونَهَا وَحْدَهَا أَمَامَ تُرْكِيَا ، فَأَخَذَتْ تَخْرِقُ الْهُدْنَةَ بِأَعْمَالٍ طَائِشَةٍ ، وَكَأَنَّهَا تَسْتَدْعِي الْخِلَافَةَ لِحَرْبٍ لَمْ يَحِنْ وَقْتُهَا ، وَقَدْ نُشِرَتْ أَنْبَاءُ هَذِهِ الِاعْتِدَاءَاتِ فِي الصُّحُفِ الْمِصْرِيَّةِ ، وَرَأَىٰ مُحَرَّمٌ فِي سُكُوتِ الْخِلَافَةِ عَنْ مُجَابَهَتِهَا الْعَاجِلَةِ شَرًّا يُنْذِرُ بِالْخَطَرِ السَّرِيعِ ، فَقَالَ قَصِيدَةً تُبْدِي انْزِعَاجَهُ مِنْ هَذَا التَّبَاطُؤِ ، وَتَتَسَاءَلُ عَنْ بَوَارِجِ الْخِلَافَةِ فِيمَ انْتِظَارُهَا ؟ دُونَ أَنْ تَرُدَّ الِاعْتِدَاءَ بِعَمَلٍ حَاسِمٍ ، وَكَانَ صَرِيحًا كُلَّ الصَّرَاحَةِ حِينَ وَاجَهَ السُّلْطَانَ بِقَوْلِهِ(١):

(١) الدِّيوَان ج «١» ص ١٠٧.

طَالَتْ أَنَاتُكَ بِالْقَوْمِ الْأُلَى جَهِلُوا وَزَادَ حِلْمَكَ مَا قَالُوا وَمَا فَعَلُوا
لَفَتَّ سَيْفَكَ عَنْ آجَالِهِمْ فَعَتَوْا وَأَيْقَظُوا الشَّرَّ لَا لِقِيَامِهِمْ وَجَلُ
مَا طَيَّرَ الْبَرْقُ عَنْهُمْ حَادِثًا جَلَلًا نَخْشَاهُ إِلَّا تَلَاهُ حَادِثٌ جَلَلُ
جَرِّدْهُ أَشْطَبَ ضَحَّاكًا عَلَىٰ حَنَقٍ يَجِدُّ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ إِنْ هَزَلُوا
مَا لِلْفَيَالِقِ كَالدَّأْمَاءِ[1] لَا غَرَقٌ يَغْشَىٰ قَطِيعَ الْعِدَا مِنْهَا وَلَا بَلَلُ
وَلَوْ تَشَاءُ إِذَنْ جَاشَتْ غَوَارِبُهَا بِالْمَوْتِ لَا زَوْرَ عَنْهَا وَلَا حَوَلُ
حَنَّتْ إِلَىٰ الْحَرْبِ تُذْكِيهَا وَتُمْطِرُهَا دَمًا يَزِيدُ لَظَاهَا حِينَ تَشْتَعِلُ
تَمُوجُ شَوْقًا إِلَيْهَا وَهْيَ سَاكِنَةٌ حَتَّىٰ تَكَادَ لِطُولِ الشَّوْقِ تَقْتَتِلُ
تَرْمِي الْعِدَا بِعُيُونٍ حَشْوُهَا ضِغَنٌ تُبْدِي خَفَايَا قُلُوبٍ مِلْؤُهَا دَخَلُ
خُذْهُمْ بِحَوْلٍ تَمِيدُ الْأَرْضُ خَشْيَتَهُ فَالْحَوْلُ يَبْلُغُ مَا لَا تَبْلُغُ الْحِيَلُ

وَقَدْ كَانَ الشَّاعِرُ الْكَبِيرُ الْأُسْتَاذُ أَحْمَدُ الْكَاشِفُ يُشَارِكُ مُحَرَّمًا شُعُورَهُ الدِّينِيَّ، وَيَسِيرُ فِي اتِّجَاهِهِ نَحْوَ الْخِلَافَةِ، بَلْ رُبَّمَا زَادَ عَلَيْهِ بِكَثْرَةِ مَا نَظَمَ فِي تَأْيِيدِهَا؛ لِأَنَّ أَغْرَاضَ الشِّعْرِ الْأُخْرَىٰ لَمْ تَشْغَلْهُ كَمَا شَغَلَتْ مُحَرَّمًا، إِذْ أَتَىٰ عَلَيْهِ وَقْتٌ كَانَتْ حَوَادِثُ السِّيَاسَةِ شَرْقًا وَغَرْبًا أَكْثَرَ هَمِّهِ، وَقَدْ دَعَا الْكَاشِفُ السُّلْطَانَ إِلَىٰ نَجْدَةِ مِصْرَ فِي مَأْسَاتِهَا مَعَ الْمُحْتَلِّ الْإِنْكِلِيزِيِّ، وَكَرَّرَ هَذِهِ الدَّعْوَةَ فِي قَصَائِدَ كَثِيرَةٍ حَالَتِ الْمَوَاقِعُ السِّيَاسِيَّةُ دُونَ الِاسْتِجَابَةِ إِلَيْهَا، فَاضْطُرَّ الْكَاشِفُ أَنْ يَثُورَ عَلَىٰ السُّلْطَانِ ثَوْرَةَ الشَّفِيقِ الْغَاضِبِ، لَا الْعَدُوِّ الْمُتَرَبِّصِ فَقَالَ مِنْ قَصِيدَةٍ[2]:

---

(١) الدَّأْمَاء: الرمال.

(٢) ديوان الكاشف ص ١٣٤.

يَا آلَ عُثْمَانَ لَا نَدْرِي أَنَعْتَذِرُ   عَنْ تَرْكِنَا الْقَيْدَ أَمْ بِاللَّوْمِ نَبْتَدِرُ؟
وَإِنَّ فِي الْعُتْبِ تَعْلِيلَ النُّفُوسِ وَمَا   كُنَّا لِنَعْتِبَ لَوْلَا الْهَمُّ وَالضَّجَرُ
كُنْتُمْ إِذَا مَا شَكَوْنَا جَوْرَ غَالِبِنَا   كَذَّبْتُمْ وَادَّعَيْتُمْ أَنَّهُ بَطَرُ
وَالْيَوْمَ لَا نَشْتَكِي حُكْمًا وَلَا حَكَمًا   وَلَا نَعُوذُ بِكُمْ مِمَّا أَتَى الْقَدَرُ
لَكِنَّنَا نَرْتَجِي مِنْكُمْ مُجَامَلَةً   نَسْلُو بِهَا، وَعَلَى الْأَهْوَالِ نَصْطَبِرُ
بَكَى بَنُو الصِّينِ مِنْ أَخْبَارِنَا جَزَعًا   وَمَا اسْتَفَزَّكُمُ مِنْ أَمْرِنَا خَبَرُ
هَلَّا ذَكَرْتُمْ لَنَا صُنْعًا وَمَأْثُرَةً   إِنْ كَانَ لِلذِّكْرِ فِي أَلْبَابِكُمْ أَثَرُ
وَأَنْذَرُونَا فَزِدْنَاكُمْ مُظَاهَرَةً   حَتَّى اكْتَفَيْتُمْ، وَمَا أَغْنَتْهُمُ النُّذُرُ
وَلَا نَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَوْ نُعَيِّرُكُمْ   بِطَائِلَاتِ أَيَادِينَا وَنَفْتَخِرُ
فَالْقَوْسُ مِنْكُمْ وَمِنَّا السَّهْمُ وَالْوَتَرُ   وَالْأُسْدُ أَنْتُمْ، وَنَحْنُ النَّابُ وَالظُّفُرُ

هَذَا الْعِتَابُ الصَّادِقُ، لَمْ يُرْضِ مُحَرَّمًا؛ لِأَنَّهُ يُرِيدُ أَنْ تَنْدَمِلَ الْجِرَاحُ لَا أَنْ تَزِيدَ، وَهُوَ أَدْرَى بِهَوَى الْكَاشِفِ وَإِخْلَاصِهِ لِلْخِلَافَةِ، وَخَافَ أَنْ تُحْدِثَ قَصِيدَةُ الْكَاشِفِ تَأْثِيرَهَا فِي نُفُوسِ الْقُرَّاءِ، فَيَنْصَرِفُوا عَنْ هَوَى الْخِلَافَةِ، فَأَسْرَعَ يَرُدُّ عَلَيْهِ قَائِلًا[1]:

عَذَلْتَ بَنِي عُثْمَانَ وَالْعَذْلُ يُؤْلِمُ   وَمِلْتَ عَنِ الْمَدْحِ الَّذِي كُنْتَ تَنْظِمُ
بَلَى إِنَّهَا الْأَوْطَانُ هَاجَكَ أَنَّهَا   بِأَيْدِي بَنِي «التَّامِيزِ» نَهْبٌ مُقَسَّمُ
فَجَرَّدْتَ عَضْبًا ذَا غِرَارَيْنِ مُخْذِمًا   تَسِيلُ الْمَنَايَا مِنْهُ أَوْ يَقْطُرُ الدَّمُ
حَنَانَكَ بِالْقَوْمِ الْأُلَى أَنْتَ مِنْهُمُ   وَرَأْيُكَ فِي الْأَهْلِ الَّذِينَ هُمُ هُمُ

(١) ديوان مُحَرَّم ج «٤» ص ٤١٢.

أُعِيذُكَ مِنْ قَوْلِ الْوُشَاةِ تَغَيَّرَتْ خِلَائِقُهُ وَاعْوَجَّ مِنْهَا الْمُقَوَّمُ

وَقَدْ كَانَ لِعِتَابِ مُحَرَّم صَدًى قَوِيٌّ فِي نَفْسِ الْكَاشِفِ ، وَكَأَنِّي بِهِ وَقَدْ سَاءَهُ أَنْ يَكُونَ الْعِتَابُ مِنْ أَحْمَدَ مُحَرَّمٍ نَفْسِهِ ، وَهُوَ الَّذِي يَعْرِفُ شِدَّةَ إِخْلَاصِهِ لِلْخِلَافَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ ، وَكَانَ عَلَيْهِ أَنْ يَعْلَمَ أَنَّ الْعِتَابَ دَلِيلُ الْحُبِّ ، وَسَيَبْقَىٰ الْوُدُّ مَا بَقِيَ الْعِتَابُ ! وَأَنَّ هُنَاكَ فَرْقًا بَيْنَ مَنْ يَنْقُدُ لِيَتَشَفَّىٰ وَيَشْمُتُ ، وَمَنْ يَنْقُدُ مُحَاوِلًا رَأْبَ الصَّدْعِ ، وَرَتْقَ الْفَتْقِ ، وَكَانَ الْكَاشِفُ مُوَفَّقًا حِينَ رَاجَعَ مُحَرَّمًا بِقَوْلِهِ[1]:

أَتَدْرِي بِعُذْرِي فِي شَكَاتِي وَتَعْلَمُ وَتُكْثِرُ لَوْمِي !! إِنَّكَ الْآنَ أَظْلَمُ
هَلْ كُنتَ أَرْجُو أَنْ تُؤَيِّدَ حُجَّتِي بِأَبْلَغَ مِنْهَا أَيُّهَا الْمُتَحَكِّمُ !
أَيَرْثِي لِبَلْوَايَ الْغِلَاظُ قُلُوبُهُمْ وَتَغْضَبُ إِنْ أَبْصَرْتَنِي أَتَأَلَّمُ
لَعَمْرُكَ لَوْلَا فَرْطُ خَوْفِي عَلَيْهِمُ لَكُنْتُ بِعَيْشِي هَانِئًا أَتَنَعَّمُ
فَلَا تُنْكِرَنْ حُبِّي لَهُمْ إِنْ عَذَلْتُهُمْ فَقَدْ يَقْتُلُ الصَّبَّ الْحَبِيبُ وَيُعْدِمُ
وَتَصْغُرُ بَعْدَ الْإِثْمِ لِلْمَرْءِ نَفْسُهُ فَيَقْتَصُّ مِنْهَا نَاقِمًا حِينَ يَنْدَمُ

وَالْبَيْتُ الْأَخِيرُ وَحْيٌ لِخِبْرَةٍ نَفْسِيَّةٍ عَمِيقَةٍ بِطَبِيعَةِ النَّفْسِ الْبَشَرِيَّةِ ، وَهُوَ فِي رَأْيِي وَثْبَةٌ عَالِيَةٌ انْتَقَلَ إِلَيْهَا الْكَاشِفُ فَجْأَةً ! وَلَا أَحَرَّ وَجِيعَةً وَلَا أَقْسَىٰ عِقَابًا مِنْ أَنْ تَصْغُرَ نَفْسُ الْمَرْءِ بَعْدَ أَنْ يُقَارِفَ الْإِثْمَ فَيَقْتَصُّ مِنْهَا نَادِمًا ! عَلَىٰ أَنَّ حَمِيَّةَ الْكَاشِفِ الْمَعْرُوفَةِ عَنْهُ تَبَعًا لِمِزَاجِهِ النَّارِي قَدْ دَفَعَتْهُ إِلَىٰ إِعْلَانِ الثَّوْرَةِ مَرَّةً ثَانِيَةً فَقَالَ فِي هَذَا الرَّدِّ الْحَاسِمِ[2]:

(١) ديوان مُحَرَّم ج ٤، ص ٤١٢.
(٢) ديوان الكاشف ص ١٣٦.

إِذَا لَمْ أُمَتَّعْ مِنْهُمْ بِتَحِيَّةٍ فَلَا هُمْ أَحِبَّائِي وَلَا أَنَا مِنْهُمُ
وَإِنْ لَمْ يُظَاهِرْهُمْ لِسَانِي فَلَا مَضَتْ لَهُمْ فِي أَعَادِيهِمْ سُيُوفٌ وَأَسْهُمُ

وَحِينَ صَدَرَ الدُّسْتُورُ الْعُثْمَانِيُّ فِي ٢٣ يولية سَنَةَ ١٩٠٨م، هَتَفَ الشُّعَرَاءُ بِتَأْيِيدِهِ، وَلَمْ تَفُتِ الْفُرْصَةُ أَعْدَاءَ الْخَلِيفَةِ عَبْدِ الْحَمِيدِ أَنْ يَقُولُوا: إِنَّهُ أُجْبِرَ عَلَى الدُّسْتُورِ إِجْبَارًا، وَكَانَ يَوَدُّ أَنْ يَبْقَى حَاكِمًا مُطْلَقًا، لَوْلَا قُوَّةُ الْجَيْشِ الَّتِي دَفَعَتْهُ إِلَى تَأْيِيدِ الدُّسْتُورِ، وَهُوَ مَا لَا يَرْتَضِيهِ مُحَرَّمٌ فِي مِثْلِ هَذَا الْمَقَامِ؛ لِأَنَّهُ يُرِيدُ أَنْ تَكُونَ لِلسُّلْطَانِ هَيْبَتُهُ، وَأَنْ تُلْتَمَسَ لَهُ الْأَعْذَارُ فِي بَعْضِ مَا كَانَ مِنْهُ، وَهَذَا الْمَنْحَى لَمْ أَرَهُ عِنْدَ غَيْرِهِ مِمَّنْ أَرْسَلُوا قَصَائِدَهُمْ فِي مَدْحِ الدُّسْتُورِ، فَقَدْ قَالَ مُحَرَّمٌ(١):

يَا آلَ عُثْمَانَ مِنْ تُرْكٍ وَمِنْ عَرَبٍ وَأَيُّ شَعْبٍ يُسَاوِي التُّرْكَ وَالْعَرَبَا؟
إِنَّ الَّذِي كَانَ مِنْ عَدْلٍ وَمِنْ شَطَطٍ أَمْسَى تَوَارَى وَرَاءَ الدَّهْرِ وَاحْتَجَبَا
لَا تَذْكُرُوا مَا مَضَى مِنْ أَمْرِكُمْ وَدَعُوا مَا جَرَّ بِالْأَمْسِ حُكْمُ الْفَرْدِ أَوْ جَلَبَا
لَا تَكْتُمُوا الْحَقَّ وَارْضُوا عَنْ خَلِيفَتِكُمْ وَاقْضُوا لَهُ مِنْ حُقُوقِ الْبِرِّ مَا وَجَبَا
لَوْلَا مَوَاضِيهِ وَالْأَهْوَالُ مُحْدِقَةٌ بِالْمُلْكِ أَصْبَحَ فِي أَيْدِي الْعِدَى سَلَبَا
تَأَلَّبُوا، يَحْسَبُونَ اللَّيْثَ قَدْ وَهَنَتْ مِنْهُ الْقُوَى فَرَأَوْهَا قُوَّةً عَجَبَا
يَا تَاجَ عُثْمَانَ إِنَّ الْيَوْمَ مَوْعِدُنَا فَجَدِّدِ الْعَهْدَ، وَالْقَ الْحُبَّ وَالرَّغَبَا
لَوْ ضَاعَ عَهْدُكَ أَوْ حَامَ الرَّجَاءُ بِنَا عَلَى سِوَاكَ لَقِينَا الْحَيْنَ وَالْعَطَبَا
طَالَ الْمَدَى وَتَمَشَّتْ بَيْنَنَا تُهَمٌ لَوْلَا الْهَوَى لَمْ تَدَعْ قُرْبَى وَلَا نَسَبَا

(١) الدِّيوَان ج ١، ص ١٢٣.

الْيَوْمَ نَنْسَخُ مَا قَالَ الْوُشَاةُ لَنَا   وَنَتْرُكُ الظَّنَّ إِنْ صِدْقًا وَإِنْ كَذِبَا

لَقَدْ كَانَ الْجَوُّ مُلَبَّدًا بِالْغُيُومِ بَعْدَ صُدُورِ الدُّسْتُورِ ، وَكَانَ الَّذِينَ تَزَعَّمُوا الْجَيْشَ يُحَاوِلُونَ إِزْهَاقَ الْخَلِيفَةِ لِإِزْعَاجِهِ فِي مَقَرِّهِ ، مِمَّا أَثَارَ ثَائِرَتَهُ ، وَإِذَا كَانَتِ الْقُوَّةُ مَعَهُمْ لَا مَعَهُ ، فَقَدْ أَقْدَمُوا عَلَىٰ عَزْلِهِ ، وَانْفَجَرَتِ الْأَقْلَامُ فِي شَتَّىٰ الصُّحُفِ مِنْ شَرْقِيَّةٍ وَغَرْبِيَّةٍ تَتَحَدَّثُ عَنْ هَذَا النَّبَإِ الْهَائِلِ ، بِمَا يَرُوقُ لِكُلِّ كَاتِبٍ أَنْ يَكْتُبَ ، وَانْطَلَقَتْ صُحُفُ الْآسِتَانَةِ الَّتِي كَانَتْ تَكِيلُ الْمَدَائِحَ لِلسُّلْطَانِ هَاجِيَةً ثَالِبَةً ، نَاسِيَةً مَا كَانَتْ تُدَبِّجُهُ بِالْأَمْسِ ، وَإِذَا كَانَ ذَلِكَ صَنِيعَ صُحُفِ الْآسِتَانَةِ ، فَغَيْرُهَا بِالْبِلَادِ الْعَرَبِيَّةِ وَغَيْرِ الْعَرَبِيَّةِ أَشَدُّ لَهْجَةً وَأَعْنَفُ لَدَدًا ، وَفِي الشُّعَرَاءِ نَفَرٌ يَمِيلُونَ بِعَوَاطِفِهِمْ وِجْهَةَ الْمُحْتَلِّ فِي مِصْرَ رَأَوْا الْمَقَامَ فَسِيحًا لِتَنَقُّصِ عَبْدَ الْحَمِيدِ ، وَاتَّسَعَتْ صَحِيفَةُ الْمُقَطَّمِ الِاسْتِعْمَارِيَّةُ لِأَهَاجٍ شِعْرِيَّةٍ جَانَبَتِ الصَّوَابَ فِي كُلِّ مَا أَسْرَفَتْ فِيهِ مِنْ قَوْلٍ ، وَأَحْمَدُ مُحَرَّمٍ يَشْهَدُ مَا يُقَالُ مُتَعَجِّبًا مِنْ قَوْمٍ كَانُوا مُصَفِّقِينَ بِالْأَمْسِ هَاتِفِينَ ، فَغَدَوْا يَشْتُمُون ثَالِبِينَ ، وَيَرَىٰ ذَلِكَ مَعَرَّةً خُلُقِيَّةً قَبْلَ أَنْ يَكُونَ تَعْبِيرًا سِيَاسِيًّا عَنْ مَوْقِفٍ ، لِذَلِكَ لَمْ يَسْكُتْ عَنْ مَظْهَرٍ خُلُقِيٍّ سَيِّءٍ رَاعَهُ أَنْ يَتَجَسَّدَ أَمَامَ عَيْنِهِ لَدَىٰ نَفَرٍ مِنَ الْوُصُولِيِّينَ ، فَأَنْشَدَ قَصِيدَةً يَتَسَاءَلُ فِيهَا عَنِ الْأَمْسِ الْقَرِيبِ ، حِينَ كَانَتْ رُءُوسُ الصِّيدِ خَاشِعَةً ذَلِيلَةً فِي مَجْلِسِ السُّلْطَانِ ، وَحِينَ كَانَتِ السَّرَايَا وَالْفَيَالِقُ تَأْتَمِرُ بِأَمْرِهِ دُونَ نُكُولٍ ، وَحِينَ كَانَ السَّائِلُونَ يَقْصِدُونَ جَنَابَهُ رَاجِينَ آمِلِينَ ، وَمَضَىٰ مُحَرَّمٌ فِي تَسَاؤُلِهِ يَقُولُ لِلَائِمِيهِ : أَلَمْ يَكُ ظِلَّ اللَّهِ بِالْأَمْسِ بَيْنَكُمْ ؟ أَلَمْ يَحْكُمِ الْبِلَادَ ثَلَاثِينَ عَامًا سَاهِرًا عَلَىٰ رِعَايَتِهَا ؟ أَلَيْسَ لَهُ حَسَنَاتٌ تُذْكَرُ ؟ أَكُلُّ مَآتِيهِ ذُنُوبٌ ؟ أَلَيْسَ الَّذِينَ غَشُّوهُ فِي بَعْضِ الْمَشُورَاتِ

أَوْلَىٰ مِنْهُ بِالْمَلَامِ ؟ أَكُلُّ مُلُوكِ الْأَرْضِ قَدْ سَلِمَ مِنَ الْمَآخِذِ غَيْرَ عَبْدِ الْحَمِيدِ ؟ أَسْئِلَةٌ قَوِيَّةٌ مُعَبِّرَةٌ صَاغَهَا مُحَرَّمٌ حِينَ قَالَ(١):

أَلَمْ يَكُ ظِلَّ اللَّهِ بِالْأَمْسِ بَيْنَنَا ... نَلُوذُ بِهِ وَالْخَطْبُ ضَنْكٌ مَذَاهِبُهْ ؟
أَنُطْرِيهِ قَهَّارًا ، وَنُؤْذِيهِ مُرْهَقًا ... كَفَىٰ اللَّيْثَ شَرًّا أَنْ تُفَلَّ مَخَالِبُهْ
أَمَا فِي الثَّلَاثِينَ اللَّوَاتِي تَصَرَّمَتْ ... ذِمَامٌ لِمَنْكُوبٍ تَوَالَتْ نَوَائِبُهْ ؟؟
أَكُلُّ مَآتِيهِ ذُنُوبٌ ؟ أَكُلُّهُ ... عُيُوبٌ ؟ أَلَا مِنْ مُنْصِفٍ إِذْ نُحَاسِبُهْ ؟
أَلَمْ يَشْتَطِرْ يَوْمًا لِخَطْبٍ مُسَاوِرٍ ... مُحَافَظَةً مِنْ أَنْ تَسُوءَ عَوَاقِبُهْ
أَكَانَ يُرِيدُ السُّوءَ بِالْمُلْكِ ؟ أَمْ يَرَىٰ ... مَسَرَّتَهُ فِي أَنْ تَرِنَّ نَوَادِبُهْ
أَكُلُّ ذَوِي التِّيجَانِ بِالْعَدْلِ قَائِمٌ ؟ ... أَمَا فِيهِمُ مَا لَا تُعَدُّ مَثَالِبُهْ
أَلَيْسَ الْأُلَىٰ غَشُّوهُ أَجْدَرُ بِالْأَذَىٰ ... وَأَوْفَىٰ الْوَرَىٰ بِالشَّرِّ مَنْ هُوَ جَالِبُهْ
هُمُ اكْتَنَفُوهُ بِالدَّسَائِسِ وَافْتَرَوْا ... مِنَ الْقَوْلِ مَا يَعْمَىٰ عَنِ الرُّشْدِ كَاذِبُهْ

وَيَلْتَفِتُ الشَّاعِرُ إِلَىٰ أُبَّهَةِ الْمَاضِي وَجَلَالِ الْغَابِرِ فِي عِزِّ السُّلْطَانِ وَمَنَعَةِ الْخِلَافَةِ فَيَقُولُ(٢):

كَأَنَّ جَلَالَ الْمُلْكِ لَمْ يَبْدُ حَوْلَهُ ... مَهِيبًا ، وَلَمْ تُضْرَبْ عَلَيْهِ مَضَارِبُهْ
كَأَنَّ السَّرَايَا وَالْفَيَالِقَ لَمْ تَسِرْ ... إِلَىٰ الْمَوْتِ تَثْنِي دُونَهُ مَنْ يُحَارِبُهْ
كَأَنَّ رُءُوسَ الصِّيدِ لَمْ تَكُ خُشَّعًا ... لَدَىٰ بَابِهِ الْمَرْجُوِّ بِالْأَمْسِ حَاجِبُهْ
كَأَنَّ بُغَاةَ الْجُودِ وَالْمَجْدِ لَمْ تَفِدْ ... عَلَيْهِ وَلَمْ تَهْطِلْ عَلَيْهِمْ مَوَاهِبُهْ

(١) الدِّيوَان ج «١» ص ١٤١.
(٢) دِيوَان مُحَرَّم ج «١» ص ١٤٠.

كَأَنَّ الْأُلَىٰ زَانُوا الْمَنَابِرَ بِاسْمِهِ أَحَلُّوا بِدِينِ اللَّهِ مَا لَا يُنَاسِبُهْ
طَوَوْا ذِكْرَهُ وَاسْتَوْدَعُوا اللَّهَ عَهْدَهُ وَكُلُّ امْرِئٍ رَهْنٌ بِمَا هُوَ كَاسِبُهْ

وَأَحْمَدُ شَوْقِيٌّ شَارَكَ مُحَرِّمًا شُعُورَهُ، وَلَكِنْ بِلَهْجَةٍ أَخَفَّ، وَبِأُسْلُوبٍ يَدُلُّ عَلَىٰ قُدْرَةِ السِّيَاسِيِّ أَكْثَرَ مِمَّا يَدُلُّ عَلَىٰ انْفِعَالِ الْعَاطِفِيِّ، وَلَمْ يَجْرِ قِيدَ أُنْمُلَةٍ مَعَ الشَّامِتِينَ، وَلَكِنَّهُ عَابَ عَلَيْهِمُ اتِّجَاهَهُمْ، وَرَدَّ أَبْلَغَ رَدٍّ عَلَيْهِمْ فِي قَوْلِهِ عَنِ السُّلْطَانِ الْمَخْلُوعِ(١):

شَيْخُ الْمُلُوكِ وَإِنْ تَضَعْـ ـضَعَ فِي الْفُؤَادِ وَفِي الضَّمِيرِ
نَسْتَغْفِرُ الْمَوْلَىٰ لَهُ وَاللَّهُ يَعْفُو عَنْ كَثِيرِ
وَنَرَاهُ عِنْدَ مُصَابِهِ أَوْلَىٰ بِبَاكٍ أَوْ عَذِيرِ
وَنَصُونُهُ وَنُجِلُّهُ بَيْنَ الشَّمَاتَةِ وَالنَّكِيرِ
عَبْدَ الْحَمِيدِ حِسَابُ مِثْلِكَ فِي يَدِ الْمَلِكِ الْغَفُورِ

وَيُخَيَّلُ إِلَيَّ أَنَّ أَمِيرَ الشُّعَرَاءِ لَمْ يَكُنْ مُوَفَّقًا حِينَ تَعَرَّضَ فِي قَصِيدَتِهِ إِلَىٰ مُغْرِيَاتِ قُصُورِ السُّلْطَانِ، وَبَالَغَ فِي وَصْفِ الْجَوَارِي، وَزِينَتِهِنَّ الْحَالِيَةِ، وَسَيْطَرَتِهِنَّ عَلَىٰ الْقُوَّادِ وَالْحُكَّامِ؛ لِأَنَّ ذَلِكَ مِمَّا يُؤَاخَذُ بِهِ السُّلْطَانُ فِعْلًا، وَلَا مَجَالَ لَهُ عِنْدَ شَاعِرٍ يَقُولُ إِنَّهُ يَصُونُهُ وَيُجِلُّهُ عَنِ الشَّمَاتَةِ وَالنَّكِيرِ، وَإِخَالُ أَنَّ شَوْقِيًّا الْفَنَّانَ كَانَ أَقْوَىٰ سَيْطَرَةً مِنْ شَوْقِيٍّ الْحَكِيمِ الْمُتَأَمِّلِ، يَتَجَلَّىٰ ذَلِكَ فِي قَوْلِهِ عَنْ قُصُورِ الْخَلِيفَةِ(٢):

أَيْنَ الْأَوَانِسُ فِي ذُرَاهَا مِنْ مَلَائِكَةٍ وَحُورِ

---

(١) الشوقيات ج «١» ص ١٣٦.
(٢) الشوقيات ج «١» ص ١٣٧.

الْمُتْرَعَاتُ مِنَ النَّعِيمِ   الرَّاوِيَاتُ مِنَ السُّرُورِ
الْآمِرَاتُ عَلَى الْوُلَاةِ   النَّاهِيَاتُ عَلَى الصُّدُورِ
الذَّاهِلَاتُ عَنِ الزَّمَا(م)   نِ بِنَشْوَةِ الْعَيْشِ النَّضِيرِ
الْمُشْرِفَاتُ وَمَا انْتَقَلْنَ عَلَى   الْمَمَالِكِ وَالْبُحُورِ
أَمْضَى نُفُوذًا مِنْ زُبَيْدَةَ   فِي الْإِمَارَةِ وَالْأَمِيرِ
بَيْنَ الرَّفَارِفِ[1] وَالْمَشَارِفِ   وَالزَّخَارِفِ وَالْحَرِيرِ
وَالرَّوْضِ فِي حَجْمِ الدُّنَا   وَالْبَحْرِ فِي حَجْمِ الْغَدِيرِ
فِي مَسْكَنٍ فَوْقَ السِّمَاكِ[2]   وَفَوْقَ غَارَاتِ الْمُغِيرِ
بَيْنَ الْمَعَاقِلِ وَالْقَنَا   وَالْخَيْلِ وَالْجَمِّ الْغَفِيرِ

وَقَدْ سُقْتُ هَذِهِ الْأَبْيَاتَ لِأَنْقُدَ بَعْضَ مَا جَاءَ بِهَا مِنَ الْمُقَرَّرَاتِ، لِأَنَّ عَبْدَ الْحَمِيدِ كَانَ صَلْبَ الرَّأْيِ، وَلَمْ يَكُنْ يَسْتَمِعِ لِجَوَارِيهِ، وَلَا يُتِيحُ لِإِحْدَاهُنَّ أَنْ تَتَدَخَّلَ فِي أُمُورِ السِّيَاسَةِ، كَمَا أَنَّ هَارُونَ الرَّشِيدَ لَمْ يَكُنْ يُتِيحُ لِزُبَيْدَةَ أَنْ تَتَحَكَّمَ فِي أُمُورِ الدَّوْلَةِ إِلَّا فِي أَمْرٍ وَاحِدٍ، هُوَ مَوْقِفُهَا مِنَ الْبَرَامِكَةِ حِينَ رَأَتْ أَنَّهُمْ ضَالِعُونَ مَعَ الْمَأْمُونِ مُحَابَاةً لَهُ عَلَى وَلَدِهَا الْأَمِينِ، وَكُلُّ أُمٍّ - مَلِكَةً كَانَتْ أَوْ مَمْلُوكَةً - لَا تَسْكُتُ عَنْ خَطَرٍ يُهَدِّدُ مُسْتَقْبَلَ وَلَدِهَا! فَالْقَوْلُ فِي نُفُوذِ زُبَيْدَةَ عَلَى الرَّشِيدِ هُوَ كَالْقَوْلِ فِي نُفُوذِ جَوَارِي الْقَصْرِ عَلَى عَبْدِ الْحَمِيدِ، لِذَلِكَ كَانَ شَوْقِيٌّ الْفَنَّانُ مُنْدَفِعًا فِي تَصْوِيرِهِ دُونَ اتِّئَادٍ، وَكَانَ أَحْمَدُ مُحَرَّمٍ شَاعِرَ الْمَوْقِفِ الَّذِي الْتَزَمَ بِمَنْطِقِ الْوَاقِعِ قَبْلَ أَنْ يَسْبَحَ بِهِ

(١) الرَّفَارِف: الوسائد.   (٢) السِّمَاك: النجم.

خَيَالُ الشَّاعِرِ إِلَى آفَاقٍ تَتَجَاوَزُ الْحَقِيقَةَ إِلَى الْوَهْمِ، وَكَانَتْ مُنَاسَبَةٌ أَلِيمَةٌ أَذْكَتْ نُفُوسَ الشُّعَرَاءِ أَلَمًا حِينَ سَقَطَتْ طَائِرَةٌ تُرْكِيَّةٌ قَادَهَا طَيَّارَانِ عُثْمَانِيَّانِ رَائِدَانِ وَكَانَتْ مِصْرُ تَرْقُبُ مَقْدِمَهَا فَرِحَةً مُسْتَبْشِرَةً لِأَوَّلِ عَهْدِ الْعَالَمِ بِالطَّيَرَانِ سَنَةَ ١٩١٣م فَانْطَلَقَتْ كَلِمَاتُ التَّأْبِينِ آسِفَةً بَاكِيَةً، وَجَالَ شُعَرَاءُ الْفِكْرَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ جَوْلَاتٍ مُوَاسِيَةً، وَكَانَ أَحْمَدُ مُحَرَّمٍ مِنْ أَصْدَقِ الْأَلْسِنَةِ تَعْبِيرًا عَنْ عَوَاطِفِ الْأَخِ الْبَاكِي لِمَصْرَعِ أَخِيهِ، وَكَانَ خَيَالُهُ الشِّعْرِيُّ يُرَفْرِفُ فِي أَعْلَى الْأَجْوَازِ رَوْعَةً وَإِبْدَاعًا حَيْثُ تَصَوَّرَ نَسْرَ الْفَضَاءِ غَيُورًا عَلَى مَسْرَحِهِ الْأَعْلَى حِينَ وَجَدَ مُزَاحِمًا مِنْ بَنِي الْإِنْسِ يَرْقَى إِلَى مَمْلَكَتِهِ فَتَخْضَعُ الطَّيْرُ لِمَشِيئَتِهِ، وَتُقْبِلُ أُمَمُ الطَّيْرِ حَاشِرَةً تُضْفِي الْوَلَاءَ لِلْمَالِكَيْنِ الْجَدِيدَيْنِ. يَقُولُ مُحَرَّمٌ(١):

لَمْ يَبْقَ غَيْرُ سَوَادِ الْعَيْنِ أَسْفَحُهُ	دَمْعًا لِعَادٍ مِنَ الْحَدَثَانِ مُجْتَاحِ
رَمَى الشِّهَابَيْنِ مِنْ أُفْقَيْهِمَا وَسَمَا	لِلطَّائِرَيْنِ بِظُفْرٍ مِنْهُ جَرَّاحِ
رَمَاهُمَا نَسْرُهُ مِنْ بَعْدِ مَا احْتَكَمَا	فِي الطَّيْرِ مِنْ كُلِّ غَدَّاءٍ وَرَوَّاحِ
مَرَّا بِهَا وَهْيَ فَوْضَى فِي مَسَارِحِهَا	فَاهْتَاجَ غَافِلُهَا وَاسْتَوْفَزَ الصَّاحِي
حَيَّاهُمَا كُلُّ نَعَّابٍ وَحَفَّهُمَا	إِجْلَالُ كُلِّ رَخِيمِ الصَّوْتِ صَدَّاحِ
رَدَّ الْعُقَابُ جَنَاحَيْ نَافِذٍ عَجِلٍ	وَأَمْسَكَ النَّسْرُ مِنْ أَلْحَاظِ طَمَّاحِ
وَأَقْبَلَتْ أُمَمٌ لِلطَّيْرِ حَاشِرَةٌ	تُضْفِي الْوَلَاءَ، بِأَجْسَامٍ وَأَرْوَاحِ
تَمَلَّكَا الْجَوَّ حَتَّى قِيلَ قَدْ أَخَذَا	جَوَّ الْكِنَانَةِ أَخْذَ الْمَاءِ بِالرَّاحِ

(١) الشوقيات ج ١١، ص ١٣٧.

لَمَّا دَعَاهَا بَشِيرُ الرِّيحِ فَازْدَلَفَتْ تَلْقَىٰ رِكَابَهُمَا فِي الْمَوْكِبِ الضَّاحِي

خَرَّا شَهِيدَيْنِ عَنْ عَرْشَيْهِمَا وَهَوَىٰ مُلْكَاهُمَا بَيْنَ آلَامٍ وَأَتْرَاحِ

رُزْءُ الْخِلَافَةِ ذَاقَتْ مِصْرُ لَوْعَتَهُ فَمَا تَفِيقُ وَلَا تُصْغِي إِلَىٰ اللَّاحِي[1]

مَحَا الْعَزَاءُ وَأَدْمَىٰ كُلَّ جَانِحَةٍ فَمَا لِرَوْعَتِهِ فِي الْقَلْبِ مِنْ مَاحِ

وَالنَّفَسُ الشِّعْرِيُّ حَارٌّ، وَالتَّصْوِيرُ بَارِعٌ مُبْدِعٌ.

أَمَّا الْمَوْقِفُ الرَّائِعُ الْحَارُّ الَّذِي يُمَيِّزُ النُّصَارَ عَمَّا سِوَاهُ مِنَ الْمَعَادِنِ، فَهُوَ مَوْقِفُ أَحْمَدَ مُحَرَّم مِنَ الْإِنْكِلِيزِ الَّذِينَ شَنُّوا الْحَرْبَ عَلَىٰ تُرْكِيَا وَأَلْمَانْيَا فِي الْوَقْعَةِ الْعَالَمِيَّةِ الْكُبْرَىٰ سَنَةَ ١٩١٤م، فَقَدْ تَحَكَّمَتْ فِئَةُ الاحْتِلَالِ الْبَغِيضِ فِي الْأَقْلَامِ الْمِصْرِيَّةِ تَحَكُّمًا كَتَمَ الْأَفْوَاهَ، وَأَلْجَمَ الشِّفَاهَ إِلَّا لِسَانَ مَنِ انْطَلَقَ يُسَبِّحُ بِحَمْدِ الْمُغْتَصِبِ الْأَثِيمِ فِي صُحُفِ الْخِيَانَةِ النَّكْرَاءِ، وَآثَرَ بَعْضُ الشُّعَرَاءِ الِانْطِوَاءَ خَوْفًا مِنَ الْإِرْهَابِ الْمُسَلَّطِ عَلَىٰ الْأَرْوَاحِ سَجْنًا وَتَشْرِيدًا وَنَفْيًا، وَأَنَا أَعْذُرُ أَحْمَدَ شَوْقِي حِينَ اضْطُرَّ إِلَىٰ مُمَالَأَةِ الْإِنْكِلِيزِ فِي هَذَا الْمَوْقِفِ؛ لِأَنَّهُ كَانَ شَاعِرَ الْخِدِيوِي الْمَعْزُولِ، وَقَدْ حَامَتِ الرِّيبَةُ حَوْلَ مَوْقِفِهِ، فَرَأَىٰ أَنْ يَنْجُوَ بِنَفْسِهِ بِأَبْيَاتٍ سَاقَهَا فِي مَدِيحِ الْإِنْكِلِيزِ، وَهُوَ يَعْرِفُ أَنَّهُ يُخَالِفُ هَوَاهُ الْبَاطِنِيَّ، وَيَسْلُكُ خُطَّةً عَوْجَاءَ خَاضَ إِلَيْهَا الْوَحْلَ الْآسِنَ، وَقَدْ عَدَّهَا الدُّكْتُورُ الْحُوفِيُّ زَلَّةً وَاضِحَةً إِذْ قَالَ عَنْ هَذَا الْمَوْقِفِ تَحْتَ عُنْوَانِ «زَلَّةٌ»[2]:

«أَنُسَمِّيهَا مُهَادَنَةً أَمْ زَلَّةً؟ لَقَدْ هَادَنَ شَوْقِي أَوْ زَلَّ! إِذْ وَصَفَ الْإِنْكِلِيزَ بِأَنَّهُمْ حُلَفَاءُ مِصْرَ الْأَحْرَارُ، وَأَنَّهُمْ أَرْقَىٰ الشُّعُوبِ، وَأَعَزُّ الْمَمَالِكِ سُلْطَانًا،

---

(١) اللَّاحِي: اللائم.
(٢) وَطَنِيَّة شوقي لأحمد الحوفي ص ١٨٧.

وَقَالَ : إِنَّهُمْ بَعْدَ خَلْعِ الْخِدِيوِي عَبَّاس وَلَّوْا عَمَّهُ السُّلْطَانَ حُسَيْنَ كَامِل ، فَرَاعَوْا نِظَامَ الْوِرَاثَةِ لِلْعَرْش ، وَهَذَا عَدْلٌ مِنْهُمْ وَسَمَاحٌ .

حُلَفَاؤُنَا الْأَحْرَارُ إِلَّا أَنَّهُمْ أَرْقَى الشُّعُوبِ عَوَاطِفًا وَمُيُولَا
أَعْلَى مِن الرُّومَانِ ذِكْرًا فِي الْوَرَى وَأَعَزُّ سُلْطَانًا وَأَمْنَعُ غِيلَا
لَمَّا خَلَا وَجْهُ الْبِلَادِ لِسَيْفِهِمْ سَارُوا سِمَاحًا فِي الْبِلَادِ عُدُولَا
وَأَتَوْا بِكَابِرِهَا وَشَيْخِ مُلُوكِهَا مَلِكًا عَلَيْهِمْ صَالِحًا مَأْمُولَا

وَمَا مِنْ شَكٍّ فِي أَنَّهَا وَلِيدَةُ ضَعْفٍ طَارِئٍ ، وَحَالٍ قَاهِرَةٍ فِي وَقْتٍ كَانَ لِانْكِلْتِرَا فِيهِ السُّلْطَانُ وَالسَّيْطَرَةُ وَفِي وَقْتٍ كَانَ شَوْقِيٌّ فِيهِ غَيْرَ مَرْضِيٍّ عَنْهُ ، وَلَا مَرْغُوبٍ فِي بَقَائِهِ بِمِصْرَ » .

وَهَذَا اعْتِذَارٌ عَنِ الشَّاعِرِ نُقَدِّرُهُ ، وَنَرْعَى الظُّرُوفَ الْقَاسِيَةَ الَّتِي أَحَاطَتْ بِهِ ، ثُمَّ لَمْ تُغْنِ عَنْهُ قَصِيدَتُهُ شَيْئًا فَصَدَرَ الْأَمْرُ بِنَفْيِهِ إِلَى أَسْبَانْيَا ، وَذَهَبَ حَزِينًا دَامِعًا .

أَمَّا حَافِظٌ إِبْرَاهِيم ، فَلَمْ يَكُنْ لَهُ ظَرْفٌ قَاهِرٌ مِثْلُ شَوْقِيٍّ ، وَكَانَ فِي مَقْدُورِهِ أَنْ يَسْكُتَ ، وَلَكِنَّهُ ظَنَّ أَنَّ شَاعِرَ الْقَصْرِ قَدْ غَرَبَتْ شَمْسُهُ ، وَأَصْبَحَ السُّلْطَانُ الْجَدِيدُ فِي حَاجَةٍ إِلَى شَاعِرٍ مِثْلِهِ ، وَسَبِيلُ ذَلِكَ أَنْ يُرْضِيَ السُّلْطَانَ وَالْإِنْكِلِيزَ مَعًا ، فَقَالَ مُخَاطِبًا حُسَيْنَ كَامِل[1]:

وَوَالِ الْقَوْمَ إِنَّهُمُ كِرَامٌ مَيَامِينُ النَّقِيبَةِ حَيْثُ حَلُّوا
لَهُمْ مُلْكٌ عَلَى « التَّامِيزِ » أَضْحَتْ ذُرَاهُ عَلَى الْمَغَانِي تَسْتَهِلُّ

(١) ديوان حافظ ج ٤١، ص ٦٥.

وَلَيْسَ كَقَوْمِهِمْ فِي الْقُرْبِ قَوْمٌ مِنَ الْأَخْلَاقِ قَدْ نَهِلُوا وَعَلُّوا
فَإِنْ صَادَقْتَهُمْ صَدَقُوكَ وُدًّا وَلَيْسَ لَهُمْ إِذَا فَتَّشْتَ مِثْلُ
وَإِنْ شَاوَرْتَهُمْ وَالْأَمْرُ جِدٌّ ظَفِرْتَ لَهُمْ بِرَأْيٍ لَا يَزِلُّ
وَإِنْ نَادَيْتَهُمْ لَبَّاكَ مِنْهُمْ أَسَاطِيلٌ وَأَسْيَافٌ تُسَلُّ

وَهَذَا نِفَاقٌ كَاذِبٌ يُنْكِرُهُ حَافِظٌ نَفْسُهُ؛ لِأَنَّ صَفَحَاتِ دِيوَانِهِ تَنْطِقُ بِغَدْرِ الْإِنْكِلِيزِ، وَمُجَافَاتِهِمُ الْإِنْصَافَ وَاسْتِئْسَادِهِمْ عَلَى الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الْأَبْرِيَاءِ! وَمَا كَانَ أَغْنَاه عَنْ قَوْلٍ لَمْ يَزِدْهُ غَيْرَ السُّخْرِيَةِ بِمَا قَالَ، أَمَّا مُحَرَّمٌ - حَيَّا اللَّهُ مُحَرَّمًا - فَلَمْ يَكُنْ مِنْ شَأْنِهِ أَنْ يُهَادِنَ قَوْمًا حَارَبُوا وَطَنَهُ الْمِصْرِيَّ وَخَلِيفَتَهُ الرُّوحِيَّ، وَوَقَفُوا مِنَ الْأُمَمِ الْإِسْلَامِيَّةِ مَوْقِفَ النَّاقِمِ الْمُتَرَبِّصِ، فَأَرْسَلَ قَصَائِدَهُ الْمُتَوَالِيَةَ فِي تَحِيَّةِ التُّرْكِ وَالْفَرَحِ بِانْتِصَارِهِمْ إِذَا تَمَّ، وَالتَّأَوُّهِ لَهُمْ إِذَا انْدَحَرُوا، كَانَ الشَّاعِرُ ذَا قَلْبٍ جَرِيءٍ حِينَ أَظْهَرَ الْوَلَاءَ لِمَنْ يُحَارِبُونَ الدَّوْلَةَ الْمُحْتَلَّةَ، الْقَادِرَةَ بِأَسَاطِيلِهَا وَحُشُودِهَا عَلَى سَوْقِ الْآلَافِ مِنْ أَمْثَالِهِ إِلَى غَيَاهِبِ السُّجُونِ، بَلْ عَلَى تَلْفِيقِ التُّهَمِ الْكَاذِبَةِ كَيْ يُخْرِسُوا صَوْتًا يُجَابِهُهُمْ بِمَا لَا يَبْتَغُونَ، وَهُمُ الْحَرِيصُونَ عَلَى أَنْ يَكُونُوا أَمَامَ الشَّعْبِ - حِينَئِذٍ - أَصْحَابَ حَقٍّ فِي مُنَازَلَةِ الْأَتْرَاكِ وَالْأَلْمَانِ، لَقَدْ جَاهَرَ مُحَرَّمٌ بِمُعَارَضَتِهِ الصَّرِيحَةِ لِنَفَرٍ مِنَ الشُّعَرَاءِ حَابَوْا الْإِنْكِلِيزَ عَلَى صَفَحَاتِ الْمُقَطَّمِ، الَّتِي صَارَتْ بُوقًا يُرَدِّدُ هِجَاءَ الْأَتْرَاكِ وَيَصِفُهُمْ «بِالْعَدُوِّ» كَمَا يَصِفُهُمْ كُتَّابُ الْإِنْكِلِيزِ فَقَالَ غَاضِبًا[1]:

إِنَّ الْعَدُوَّ أَحَبُّ مِمَّنْ تَصْطَفِي وَأَجَلُّ شَأْنًا فِي النُّفُوسِ وَأَوْقَعُ

(١) ديوان محرم ج ١، ص ٢٤٠.

لَا يَجْهَلِ الْقَوْمُ الَّذِينَ تَمَرَّدُوا أَنَّ الرِّقَابَ لِحُكْمِهِمْ لَا تَخْضَعُ
لَيْسُوا لَنَا أَهْلًا، وَلَسْنَا نَبْتَغِي بَدَلًا بِأَهْلِينَا الَّذِينَ تَمَزَّعُوا
إِخْوَانُنَا الْأَدْنَوْنَ يُلْحِقُنَا بِهِمْ عَلَمٌ يُظَلِّلُنَا، وَدِينٌ يَجْمَعُ
سَيَلُفُّنَا الزَّمَنُ الْمُفَرِّقُ بَيْنَنَا وَيَضُمُّنَا الْعَهْدُ الَّذِي نَتَوَقَّعُ
فَتَزُولُ أَيَّامُ النُّحُوسِ وَتَنْقَضِي مِنْ حَادِثَاتِ الدَّهْرِ مَا نَتَجَرَّعُ

وَالشِّعْرُ خِطَابِيٌّ تَقْرِيرِيٌّ، لِأَنَّ مُحَرَّمًا يُرِيدُ أَنْ يَفْهَمَ عَنْهُ كُلُّ مِصْرِيٍّ مَا يَعْنِيهِ، أُمِّيًّا كَانَ أَوْ مُتَعَلِّمًا، وَمَا مِنْ سَبِيلٍ لِلْخَيَالِ الْمُجَنَّحِ أَوِ التَّصْوِيرِ الْخَالِبِ حِينَئِذٍ، وَيُخَيَّلُ إِلَيَّ أَنَّهُ كَتَبَ هَذِهِ الْقَصِيدَةَ مُرْتَجِلًا يَفِيضُ عَنْ إِحْسَاسِهِ بِمَا يَجِيشُ بِهِ، دُونَ حَاجَةٍ إِلَى تَنْمِيقٍ، فِي لَحْظَةِ غَضَبٍ، رَأَى فِيهَا الْبَبْغَاوَاتِ تَصِفُ الْمُحْتَلَّ بِالصَّدِيقِ وَتَصِفُ التُّرْكِيَّ بِالْعَدُوِّ! وَهُوَ فِي غَيْرِهَا أَرْقَى تَعْبِيرًا، وَأَبْدَعُ تَصْوِيرًا، فَقَدْ صَوَّرَ الرِّقَابَةَ عَلَى الصُّحُفِ تَصْوِيرًا أَخَّاذًا، كَمَا تَهَكَّمَ بِالْجَوَاسِيسِ وَمَنْ يُسَمَّوْنَ رِجَالَ الْمَبَاحِثِ، حِينَ يَرْتَابُونَ بِالْأَبْرِيَاءِ! وَلَمْ يَقِفْ عِنْدَ هَذَا الْحَدِّ بَلْ بَشَّرَ الْإِنْكِلِيزَ مُتَهَكِّمًا بِنَصْرِ التُّرْكِ فِي الْقَرِيبِ، وَسَفَّهَ أَحْلَامَ فَارِسِ نَمِرِ الْقَائِمِ عَلَى تَحْرِيرِ جَرِيدَةِ الْمُقَطَّمِ لِيَجْعَلَهَا بُوقًا لِلِاحْتِلَالِ نَظِيرَ رِشْوَةٍ حَقِيرَةٍ سَتُصْبِحُ هَبَاءً بَعْدَ أَنْ يَنْهَزِمَ مَوَالِيهِ، يَقُولُ مُحَرَّمٌ(١):

نَئِنُّ وَيَأْبَى الْقَوْمُ أَنْ نَتَكَلَّمَا وَمَا يَمْلِكُ الصَّمْتُ اللِّسَانَ وَلَا الْفَمَا
رَأَوْا حِمَمَ الْأَفْوَاهِ يَرْمِي بِهَا الْأَسَى فَصَاغُوا لَهَا سَدًّا مِنَ النَّارِ مُحْكَمَا

(١) الدّيوان ج ١، ص ٢٥٢.

عَلَىٰ كُلِّ سَطْرٍ مَالِكٌ مِنْ قُضَاتِهِمْ يُعِيدُ لَنَا فِي كُلِّ حَرْفٍ جَهَنَّمَا
إِذَا اسْتَصْرَخَ الْمَكْرُوبُ مِنَّا مُؤَمِّلَا أَكَبَّ يُدِيرُ الرَّأْيَ ثَمَّتَ هَوَّمَا
رُوَيْدًا بَنِي «التَّامِيزِ» إِنَّ وَرَاءَكُمْ مِنَ الْهَوْلِ يَوْمًا يَقْذِفُ النَّارَ وَالدَّمَا
سَيُصْبِحُ مُلْكُ التُّرْكِ بَعْدَ هُنَيْهَةٍ رَفِيعَ الذُّرَىٰ، مَا يُسْتَبَاحُ لَهُ حِمَىٰ
إِذَا مَا بَنُو عُثْمَانَ هَزُّوا سُيُوفَهُمْ فَقُلْ لِبَنِي «التَّامِيزِ» هُزُّوا «الْمُقَطَّمَا»
يَعُدُّونَهُ سَيْفًا عَلَىٰ الدَّهْرِ مُصلَتًا وَجَيْشًا يَهُزُّ الْخَافِقَيْنِ عَرَمْرَمَا
وَيَعْتَدُّهُ «نَمِرٌ» وَأَشْيَاخُ قَوْمِهِ أَجَلَّ مِنَ الْأُسْطُولِ شَأْنًا وَأَعْظَمَا
كَأَنِّي بِهِ أَمْسَىٰ هَبَاءً مُبَدَّدًا وَأَمْسَتْ مَوَالِيهِ حَدِيثًا مُتَرْجَمَا

وَلَا يَنْسَىٰ مُحَرَّمٌ أَنَّهُ تُرْكِيٌّ مِنْ نَاحِيَةِ أَصْلِهِ، فَطَرِبَ لِانْتِصَارٍ تَحَقَّقَ مِنَ الْأَتْرَاكِ عَلَىٰ الْإِنْكِلِيزِ فِي بَعْضِ الْمَعَارِكِ فَقَالَ(١):

تَرَاكَمَتْ ظُلُمَاتُ الْخَطْبِ فَانْبَلَجَتْ طَلَائِعُ الْفَتْحِ بِيضًا فِي حَوَاشِيهَا
نَهَضْتُ أَوْ جَاشَتِ الْأَعْرَاقُ تَنْهَضُ بِي إِلَىٰ سُيُوفِ بَنِي عَمِّي أُحَيِّيهَا
أَسْبَابُ دُنْيَا وَدِينٍ بَيْنَنَا اجْتَمَعَتْ بَعْدَ التَّفَرُّقِ وَانْضَمَّتْ أَوَاخِيهَا
خَلُّوا السَّبِيلَ بَنِي «التَّامِيزِ» وَاجْتَنِبُوا أُسْدًا تَفِرُّ الْمَنَايَا مِنْ ضَوَارِيهَا
دَعُوا الْخِلَافَةَ إِنَّ اللَّهَ حَافِظُهَا وَإِنَّ بَأْسَ بَنِي عُثْمَانَ وَاقِيهَا
يَمْشِي الزَّمَانُ مُكِبًّا تَحْتَ أَلْوِيَةٍ رَامُوا السَّمَاءَ، فَنَالَتْهَا عَوَالِيهَا
صَانُوا السَّمَاءَ فَصَانَ اللَّهُ دَوْلَتَهُمْ وَاسْتُؤْصِلَتْ دُوَلٌ بِالسُّوءِ تَبْغِيهَا

(١) الدّيوان ج ١، ص ٢٦٤.

إِنَّ السُّيُوفَ سُيُوف التُّرْكِ مَا بَرِحَتْ   تَحْمِي حِمَاهَا ، وَتَمْضِي فِي أَعَادِيهَا

وَقَدْ تَتَابَعَتْ قَصَائِدُ كَثِيرَةٌ تَدُورُ هَذَا الْمَدَارَ ، يَطُولُ بِنَا التَّحْلِيلُ إِذَا وَقَفْنَا عِنْدَ رَوَائِعِهَا ، وَمِنْ أَهَمِّهَا قَصِيدَةُ « عَجِبْتُ مِنَ الْغُوَاةِ »(١)، وَقَصِيدَةُ « جُنَاةُ الْحَرْبِ »(٢)، أَمَّا الْقَصِيدَةُ الرَّنَّانَةُ حَقًّا فَهِيَ الْمُعَلَّقَةُ الشِّعْرِيَّةُ الَّتِي نَاهَزَتْ مِائَتَيْنِ وَخَمْسِينَ بَيْتًا مِنْ رَائِعِ الشِّعْرِ الْحَمَاسِيِّ وَمَطْلَعُهَا(٣):

طَرِبَ الْحَطِيمُ وَكَبَّرَ الْحَرَمَانِ   وَاعْتَزَّ دِينُ اللَّهِ بَعْدَ هَوَانِ
قَامَتْ سُيُوفُ الْفَاتِحِينَ بِنَصْرِهِ   وَالنَّصْرُ بَيْنَ مُهَنَّدٍ وَسِنَانِ

وَقَدْ مَضَتْ تُسَجِّلُ غَارَاتِ الصَّلِيبِ عَلَى الْهِلَالِ ، إِذْ مَا يُحَاوِلُ الْمُسْلِمُونَ نَهْضَةً حَتَّى يَتَكَالَبَ عَلَيْهِمُ الْأَعْدَاءُ فِي حَرَدٍ نَاقِمٍ ، لَكِنَّ جَيْشَ الْخِلَافَةِ يَسُدُّ مَسَدًّا رَائِعًا لَا يَقُومُ بِهِ سِوَاهُ(٤):

جَيْشٌ يَسِيرُ بِهِ النَّبِيُّ وَحَوْلَهُ   جُنْدُ الْمَلَائِكِ بَيْتَهُ الْعُمَرَانِ
أَخَذَ الْفَوَارِسَ أَخْذَ أَغْلَبَ بَاسِلٍ   تَرْتَدُّ عَنْهُ بَوَاسِلُ الْأَقْرَانِ
يَطْفُو عَلَى ثَبَجِ الدِّمَاءِ إِذَا هَوَتْ   فِي الْهَالِكِينَ رَوَاسِبُ الشُّجْعَانِ
مَا لِلْجُنُودِ الْبَاسِلِينَ وَإِنْ عَلَوْا   بِجُنُودِ رَبِّ الْعَالَمِينَ يَدَانِ

وَإِذَا كَانَتِ الْحَمَاسَةُ وَاضِحَةَ النَّبْرَةِ فِي أَوَائِلِ هَذِهِ الْمُعَلَّقَةِ الْخَالِدَةِ ، فَإِنَّ التَّصْوِيرَ الْأَدَبِيَّ يَجِدُ أَمْثِلَةً كَثِيرَةً بِهَا ، مِمَّا يَدُلُّ عَلَى تَمَكُّنِ الشَّاعِرِ الْمُقْتَدِرِ ،

---

(١) ص ٢٨٥ ج «١» .
(٢) ص ٢٩٥ .
(٣) الدِّيوَان ج «١» من ص ٣٠٢ إِلَى ٣١٧ وَكلها جذوَات لَاهبة .
(٤) الدِّيوَان ج «١» ص ٣٠٣ .

وَبَرَاعَةِ الْفَنَّانِ الْمُصَوِّرِ، كَأَنْ يَقُولَ[1]:

فِي الدَّرْدَنِيلِ[2] وَفِي الْجَزِيرَةِ بَعْدَهُ ... رُعْبُ الْمِيَاهِ وَرَوْعَةُ النِّيرَانِ
بَرَزَتْ تَمَاثِيلُ الْمَنِيَّةِ كُلُّهَا ... شَتَّىٰ الضُّرُوبِ كَثِيرَةَ الْأَلْوَانِ
كُلٌّ يَمُوجُ بِهَا وَكُلٌّ سَاكِنٌ ... فَالْحَرْبُ فِي قَلَقٍ وَفِي اطْمِئْنَانِ
نَارَانِ بَرَّحَ بِالْكَتَائِبِ مِنْهُمَا ... حَالَانِ فِي الْهَيْجَاءِ مُخْتَلِفَانِ
هَذِي تَفِيضُ مِنَ الْبُرُوجِ وَهَذِهِ ... تَنْسَابُ بَيْنَ أَبَاطِحٍ وَرِعَانِ[3]
الْبَحْرُ يَفْتَحُ لِلْبَوَارِجِ جَوْفَهُ ... فَتَغُورُ مِنْ مَثْنَىٰ وَمِنْ وُحْدَانِ
وَالْبَرُّ مُلْتَهِبُ الْجَوَانِحِ مُضْمِرٌ ... حَنَقَ الْمَغِيظِ وَلَوْعَةَ الْحَرَّانِ
مَدَّ الشِّرَاكَ إِلَىٰ الْعَدُوِّ وَبَيْنَهَا ... طَرَبُ الْمَشُوقِ، وَهِزَّةُ الْجَذْلَانِ
حَتَّىٰ إِذَا أَخَذَ الدَّهَاءُ بِلُبِّهِ ... أَخَذَ الْبَلَاءُ عَلَيْهِ كُلَّ مَكَانِ
ظَمِئَتْ إِلَىٰ وِرْدِ الْأُسُودِ نُفُوسُهُمْ ... وَالْمَوْتُ يُنْقِعُ غُلَّةَ الظَّمْآنِ
عَصَفَتْ بِأَحْلَامِ الْغُزَاةِ وَقَائِعٌ ... رَكَدَتْ بِأَحْلَامِ هُنَاكَ رِزَانِ
أَإِلَىٰ الْأُسُودِ الْغُلْبِ فِي أَجَمَاتِهَا ... تَرْمِي شِعَابُ الْبِيدِ بِالْجُرْذَانِ؟!
مَا الْجَيْشُ مِنْ نَصْرِ الْإِلَهِ وَفَتْحِهِ ... كَالْجَيْشِ مِنْ فَشَلٍ وَمِنْ خِذْلَانِ

هَذِهِ اللَّوْحَةُ الزَّاهِيَةُ فِي حَاجَةٍ إِلَىٰ مُحَلِّلٍ شَارِحٍ، يُبَيِّنُ دِقَّةَ أَلْوَانِهَا، وَامْتِزَاجَ الْأَضْوَاءِ بِالظِّلَالِ فِي سَاحَتِهَا عَلَىٰ نَحْوٍ يُشْبِعُ الْعَاطِفَةَ، وَيُرْضِي الْحِسَّ الْفَنِّيَّ، وَمِثْلُهَا كَثِيرٌ فِي شِعْرِ مُحَرَّمٍ، وَلَكِنَّ اشْتِهَارَ شِعْرِهِ الْحَمَاسِيِّ الْفَوْرِيِّ

(١) الديوان ج ١، ص ٣٠٦.
(٢) الدَّرْدَنيل: المضيق التركي.
(٣) وِرِعَان: رءوس الجبال.

حَالَ دُونَ إِذَاعَةِ هَذَا الْمَذْهَبِ الْمُتَّئِدِ فِي رَسْمِ صُوَرِ الْبَيَانِ عِنْدَ أُنَاسٍ يَكْتَفُونَ بِالسُّطُوحِ الْبَارِزَةِ فِي الْقِرَاءَةِ دُونَ التَّغَلْغُلِ إِلَىٰ الْأَعْمَاقِ ، وَلَمْ يَكُنْ مُحَرَّمٌ الْوَحِيدَ بَيْنَ شُعَرَاءِ جِيلِهِ الَّذِينَ خَاصَمُوا انْكِلْتِرَا فِي حَرْبِ الْخِلَافَةِ ، بَلْ شَارَكَهُ مَنْ يَذْهَبُ مَذْهَبَهُ دُونَ حَاجَةٍ إِلَىٰ النِّفَاقِ أَوِ الْمُدَارَاةِ ، ذَلِكَ هُوَ شَاعِرُ الْبَادِيَةِ الْكَبِيرُ الشَّيْخُ مُحَمَّدٌ عَبْدُ الْمُطَّلِبِ ، فَقَدْ نَظَمَ فِي الْحَرْبِ الْعَالَمِيَّةِ الْأُولَىٰ مُعَلَّقَةً مُمَاثِلَةً قَالَ عَنْهَا الْأُسْتَاذُ الْكَبِيرُ الشَّيْخُ أَحْمَدُ الْإِسْكَنْدَرِيُّ فِي خُطْبَةِ التَّأْبِينِ الْخَاصَّةِ بِالشَّاعِرِ الْكَبِيرِ(١):

« وَمَنْ قَرَأَ قَصِيدَتَهُ - عَبْدِ الْمُطَّلِبِ - الْقَافِيَّةَ الَّتِي تَرْبُو عَلَىٰ مِائَتَيْ بَيْتٍ ، وَالَّتِي ضَمَّنَهَا وَصْفَ حَوَادِثِ الْحَرْبِ الْكُبْرَىٰ ، وَحَظَّ مِصْرَ مِنْهَا لَا يَسَعُهُ إِلَّا أَنْ يُسَمِّيَهَا « أُمَّ الْقَصَائِدِ » الَّتِي حَوَتْ مِنْ بَلَاغَةٍ تَتَدَفَّقُ ، وَفَصَاحَةٍ تَتَرَقْرَقُ ، وَأَلْفَاظٍ جَزْلَةٍ ، وَقَوَافٍ مَتِينَةٍ ، وَدِقَّةِ وَصْفٍ ، وَنَبَالَةٍ فِي غَرَضٍ ، وَلَمْ يُسْمِعْهَا إِلَّا بَعْضَ خُلَصَائِهِ حَذَرَ السُّلْطَةِ يَوْمَئِذٍ » وَمِمَّا جَاءَ فِي هَذِهِ الْقَصِيدَةِ(٢) مِنْ غَارَاتِ الْإِنْكِلِيزِ :

عَشِيَّةَ يَحْدُونَ الْأَسَاطِيلَ شُرَّعًا ... عَلَىٰ الْيَمِّ تَحْبُو فِي الْحَدِيدِ الْمُطَبَّقِ
تَشُنُّ عَلَىٰ دَارِ الْخِلَافَةِ غَارَةً ... مِنَ الْبَحْرِ إِنْ تَقْرَعْ بِهَا الدَّهْرَ يَفْرَقِ
فَأَقْبَلْنَ فِي شَمْلٍ مِنَ الْبَغْيِ جَامِعٍ ... وَعُدْنَ بِشَمْلٍ بِالْهَوَانِ مُفَرَّقِ
وَمَنْ يَتَحَرَّشْ بِالرَّدَىٰ يَكْرَعِ الرَّدَىٰ ... زُعَافًا وَمَنْ يَسْتَثْبِتِ النَّارَ يُحْرَقِ
نَصَبْنَا لَهُمْ فِي كُلِّ جَوٍّ خَبِيئَةً ... تَصُبُّ عَلَيْهِمْ كُلَّ شَعْوَاءَ خَيْفَقِ
كُئُوسٌ أَدَرْنَاهَا سِجَالًا عَلَيْهِمُ ... تَنَاسَوْا بِهَا طَعْمَ الشَّرَابِ الْمُرَوَّقِ

---
(١) ديوان عبد المطلب المقدمة ص «س» .
(٢) ديوان عبد المطلب ص ١٦٢ وَمَا بعدها .

دَلِفْنَا إِلَيْهِمْ كَوْكَبًا خَلْفَ كَوْكَبِ ... وَجَاشُوا إِلَيْنَا فَيْلَقًا بَعْدَ فَيْلَقِ
طَغَتْ نَارُنَا فِيهِمْ فَمَا لِمُغَرِّبٍ ... مِنَ النَّارِ مَنْجَاةٌ وَلَا لِمُشَرِّقِ
يَوَدُّونَ لَوْ أَنَّ السَّمَاءَ تَشَقَّقَتْ ... لَهُمْ طُرُقًا، هَيْهَاتَ لَمْ تَتَشَقَّقِ
فَمَا إِنْ تَرَىٰ إِلَّا صَرِيعًا عَلَى الثَّرَىٰ ... وَمُلْتَهِبًا يَقْفُو، مُصَابًا بِأَوْلَقِ
تَرَكْنَا عِتَاقَ الطَّيْرِ فِي حُجُرَاتِهَا ... تَخَطَّفُ مِنْهُمْ كُلَّ شِلْوٍ مُمَزَّقِ

وَالْمُلَاحَظُ أَنَّ الشَّاعِرَ الْكَبِيرَ يَتَحَدَّثُ بِنُونِ الْجَمْعِ حَدِيثَ مَنْ يُشَارِكُ فِي الْمَعْرَكَةِ بِنَفْسِهِ؛ إِذْ كَانَ يَعْتَبِرُ نَفْسَهُ جُنْدِيًّا مِنْ جُنُودِ الْخِلَافَةِ، وَهَكَذَا كَانَ شُعُورُ الْمِصْرِيِّينَ فِي حَرْبٍ يَخُوضُهَا أَعْدَاؤُهُمُ الْمُحْتَلُّونَ وَيَدَّعُونَ أَنَّهُمْ حُلَفَاءُ، وَإِذَا كَانَتْ نَتِيجَةُ الْحَرْبِ قَاسِيَةً بِالنِّسْبَةِ لِلْأَتْرَاكِ، فَنَحْنُ نَعْلَمُ أَنَّ الْخِلَافَةَ لَمْ تَكُنْ ذَاتَ شَأْنٍ فِي إِشْعَالِهَا؛ لِأَنَّ الْأَمْرَ كَانَ بِأَيْدِي الِاتِّحَادِيِّينَ، وَهُمْ فِئَةٌ مِنَ الْمَغْرُورِينَ الْمُتَعَصِّبِينَ، قَذَفُوا بِالْبِلَادِ فِي حَرْبٍ كَانَ مِنَ الْأَصْوَبِ أَنْ تَظَلَّ بَعِيدَةً عَنْهَا، وَمَعَ مَا لَاحَ مِنْ خَطَئِهِمُ الْفَادِحِ، وَتَعَصُّبِهِمُ الذَّمِيمِ فَإِنَّ الْمُخْلِصِينَ فِي الْأُمَّةِ الْإِسْلَامِيَّةِ قَدْ شَدُّوا أَزْرَهُمْ فِي كُلِّ مَكَانٍ حَمِيَّةً لِدِينِهِمْ، وَعَصَبِيَّةً لِرَحِمِهِمْ، حَتَّىٰ إِنَّ مَوْلَايَ مُحَمَّدًا عَلِيًّا بِالْهِنْدِ قَدْ أَصْدَرَ فَتْوَىٰ بِتَحْرِيمِ انْضِمَامِ الْمُسْلِمِينَ إِلَىٰ جَيْشِ الْمُحْتَلِّ الْإِنْكِلِيزِيِّ الَّذِي يُحَارِبُ الْأَتْرَاكَ؛ لِأَنَّ الْمُسْلِمَ لَا يُحَارِبُ الْمُسْلِمَ، وَقَدْ قُدِّمَ مُحَمَّدٌ عَلِيٌّ إِلَى الْمُحَاكَمَةِ، فَأَيَّدَ مَوْقِفَهُ الدِّينِيَّ بِالدَّلِيلِ السَّاطِعِ، وَانْتَهَى الْأَمْرُ بِبَرَاءَتِهِ! وَلَوْ عَلِمَ الِاتِّحَادِيُّونَ مَا يَكْسِبُونَهُ مِنَ الْتِفَافِ الْعَالَمِ الْإِسْلَامِيِّ حَوْلَ الْخِلَافَةِ لَمَا رَكِبُوا مَرْكَبَهُمُ الْجَائِرَ، وَقَدْ كَشَفَتِ الْأَيَّامُ فِيمَا بَعْدُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ كَانُوا عُمَلَاءَ لِلْيَهُودِ، وَهِيَ مَأْسَاةٌ أَيَّةُ مَأْسَاةٍ!!.

ظَلَّتْ هُمُومُ الْأَتْرَاكِ شُغْلَ مُحَرَّمٍ الشَّاغِلَ ، وَكَانَ يُنَفِّسُ عَنْ صَدْرِهِ بِمَا يُرْسِلُ مِنْ قَصَائِدِ الشِّعْرِ ، وَلَا أَدَلَّ عَلَىٰ اشْتِغَالِهِ الْمُرْهِقِ بِهُمُومِ الْخِلَافَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ ، أَنَّهُ فِي رِثَاءِ وَالِدِهِ ، وَقَدْ لَقِيَ رَبَّهُ فِي فَتْرَةٍ كَانَتْ بَعْضُ الصُّحُفِ الْمِصْرِيَّةِ الْمَأْجُورَةِ أَثْنَاءَهَا تُفِيضُ فِي حَدِيثِ الْخَلَاصِ مِنَ الِانْتِمَاءِ إِلَىٰ الْخِلَافَةِ ، وَتَرَىٰ ذَلِكَ احْتِلَالًا آخَرَ ، وَمُحَرَّمٌ مَعَ مَنْ يَفْهَمُونَ أَنَّ الْمُسْلِمِينَ أُمَّةٌ وَاحِدَةٌ ، فَهُوَ يَضِيقُ بِهَذَا الِاتِّجَاهِ ، وَيَلْمَسُ أَصَابِعَ الِاسْتِعْمَارِ فِي إِثَارَةِ هَذَا الْغُبَارِ ، وَيَعْرِفُ تَارِيخَ مَنْ يَجْهَرُونَ بِهَذِهِ الْأَرَاجِيفِ وَمَدَىٰ مَا يُحَقِّقُونَهُ مِنْ كَسْبٍ خَاسِرٍ عِنْدَ سَادَتِهِمُ الْإِنْكِلِيزِ ، لِذَلِكَ نَجِدُهُ فِي رِثَاءِ وَالِدِهِ لَا يَنْسَىٰ حَسْرَتَهُ عَلَىٰ هَؤُلَاءِ الْخَوَارِجِ مِنَ الْأَذْنَابِ ، وَقَدْ بَدَأَ قَصِيدَتَهُ بِقَوْلِهِ(١):

بِأَيِّ مَنَازِلِ الْقَوْمِ الثَّوَاءُ   وَهَلْ يُرْجَىٰ التَّجَاوُرُ وَاللِّقَاءُ؟

ثُمَّ اتَّجَهَ مِنَ الْمُصَابِ الْخَاصِّ إِلَىٰ الْمُصَابِ الْعَامِّ ؛ فَقَالَ بَعْدَ عِدَّةِ أَبْيَاتٍ :

نُحِبُّ مُحَمَّدًا، وَنَذُبُّ عَنْهُ   وَنَغْضَبُ حِينَ يُؤْذَىٰ أَوْ يُسَاءُ
وَنَرْفَعُ لِلْخِلَافَةِ جَانِبَيْهَا   وَنَدْعَمُهَا إِذَا مَالَ الْبِنَاءُ
نَصُونُ ذِمَارَهَا بِالْبَأْسِ إِنَّا   وَآلَ مُحَمَّدٍ فِيهَا سَوَاءُ
أَبَيْنَا أَنْ نَخُونَ اللَّهَ فِيهَا   وَإِنْ خَانَ الْحُمَاةُ الْأَوْفِيَاءُ
حُمَاةُ الْمُلْكِ وَالْإِسْلَامِ فِينَا   وَجُنْدُ اللَّهِ مِنَّا وَاللِّوَاءُ
أَقَمْنَا نَدْفَعُ الْأَعْدَاءَ عَنْهَا   دِفَاعَ الْأُسْدِ هَيَّجَهَا الضِّرَاءُ

(١) ديوان مُحرّم ج ٢، ص ٣٧٤.

يَرَوْنَ لَهُمْ عَلَىٰ الْإِسْلَامِ دَيْنًا وَنَـأْبَـىٰ أَنْ يَـكُـونَ لَـهُ أَدَاءُ
يُنَازِعُنَا حِمَىٰ عُثْمَانَ قَوْمٌ هُمُ الْمَكْرُوهُ وَالدَّاءُ الْعَيَاءُ
وَلَوْ مَلَكُوا الْخِلَافَةَ لَاسْتُبِيحَتْ مَحَارِمُهَا وَأَعْوَزَهَا الْوَفَاءُ
وَبِيعَ الْمُسْلِمُونَ بِكُلِّ أَرْضٍ كَمَا بِيعَ الْعَبِيدُ أَوِ الْإِمَاءُ
إِذَا حُلَفَاؤُنَا جَارُوا عَلَيْنَا فَإِنَّ سُيُوفَنَا مِنْهُمْ بَرَاءُ

وَالْحُلَفَاءُ الَّذِينَ يَتَبَرَّأُ مِنْهُمْ الشَّاعِرُ هُمُ الْإِنْكِلِيزُ، وَلَيْسُوا عِنْدَهُ بِحُلَفَاءَ، وَلَكِنَّهُمْ يُعْلِنُونَ ذَلِكَ تَمْوِيهًا وَخِدَاعًا، وَإِلَّا فَأَيْنَ حَقُّ الْحَلِيفِ عَلَى الْحَلِيفِ؟ أَهُوَ النَّصْرُ وَالِاتِّحَادُ؟ أَمِ الْمَذَلَّةُ وَالِاحْتِلَالُ؟!!.

أَقِفُ عِنْدَ هَذَا الْحَدِّ فِي حَدِيثِ الْخِلَافَةِ الْآنَ؛ لِأَنَّ لَهَا حَدِيثًا آخَرَ سَيَأْتِي بَعْدَ صَفَحَاتٍ! حِينَ أَتَحَدَّثُ عَنْ مَأْسَاةِ الْخِلَافَةِ مَعَ الْكَمَالِيِّينَ جَزَاهُمُ اللَّهُ.

عَنِ الْإِسْلَامِ وَكِتَابِهِ الْخَالِدِ

وَارَحْمَتَا لِلْمُسْلِمِينَ تَفَرَّقُوا وَتَبَاعَدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ تَدَانِ
فَلَئِنْ بَكَيْتُ فَقَدْ وَجَدْتُ مُصَابَهُمْ فِي مَنْكِبِي وَجَوَانِحِي وَجَنَانِي
مَا بِالدُّمُوعِ الْمُسْتَهِلَّةِ رِيبَةٌ هِيَ فِي الْجُفُونِ عُصَارَةُ الْوِجْدَانِ
مَنْ كَانَ أَبْصَرَ خَطْبَهُمْ فَأَنَا الَّذِي مَارَسْتُهُ وَلَمَسْتُهُ بِبَنَانِي
مَا زِلْتُ أَجْمَعُ بِالْقَرِيضِ شَتَاتَهُمْ حَتَّى انْقَضَى أَدَبِي وَضَاعَ زَمَانِي

أَرَانَا أَحْمَدُ مُحَرَّم صَفْحَةَ نَفْسِهِ رُؤْيَةً صَادِقَةً فِي هَذِهِ الْأَبْيَاتِ(١)، فَقَدْ عَهِدْنَاهُ يُلِمُّ بِمُشْكِلَاتِ الْمُسْلِمِينَ فِي شَتَّى رُبُوعِهِمْ، وَيَبْكِي لِمُصَابِهِمْ إِنْ نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ مَا يَسْتَدِرُّ الدُّمُوعَ، وَالشَّاعِرُ حِينَ يَبْكِي بِالدَّمْعِ الْمُرَاقِ السَّاخِنِ لَا يَرْتَابُ أَحَدٌ شَاهَدَ قَطَرَاتِ عَيْنِهِ مُتَدَفِّقَةً هَامِرَةً فِي صِدْقِ عَاطِفَتِهِ؛ لِأَنَّ دُمُوعَهُ لَمْ تَنْشَأْ مِنْ فَرَاغٍ، إِنَّمَا هِيَ عُصَارَةُ وِجْدَانِهِ، وَذَوْبُ خَوَاطِرِهِ، وَقَدْ نَزَلَتْ مَصَائِبُ قَوْمِهِ فِي مَنْكِبِهِ وَجَوَانِحِهِ وَقَلْبِهِ، فَهُوَ يُحِسُّ أَلَمَهَا ثَقِيلًا عَلَى كَاهِلِهِ، مُلْتَهِبًا فِي جَوَانِحِهِ، ضَارِبًا قَلْبَهُ بِأَحَدِّ الْمُدَى وَأَقْسَى السِّهَامِ، وَقَدْ جَعَلَ

(١) الدِّيوَان ج ١، ص ٧٣٦.

الْقَصِيدَةَ رِسَالَتَهُ فِي جَمْعِ الشَّتَاتِ ، وَلَمِّ الشَّمْلِ ، وَلَا يَدْرِي أَيُخْفِقُ فِي رِسَالَتِهِ أَمْ يُصِيبُ ؟! هَذَا هُوَ الشَّاعِرُ الَّذِي جَعَلَ نَوَائِبَ الْإِسْلَامِ فِي عَصْرِهِ شُغْلَهُ الشَّاغِلَ ، وَمِنْ سُوءِ حَظِّهِ أَنَّهُ عَاشَ فِي زَمَنٍ تَكَالَبَ فِيهِ الْغَرْبُ عَلَىٰ بِلَادِ الْإِسْلَامِ فَمَا يَكَادُ يَمُرُّ يَوْمٌ حَتَّىٰ يَسْمَعَ نَبَأً صَاعِقًا فِي الْجَبَلِ الْأَسْوَدِ وَتُرْكِيَا وَتُونُسَ وَالْجَزَائِرِ وَمُرَاكِشَ وَمِصْرَ وَالْعِرَاقِ وَالْهِنْدِ وَالشَّامِ ، بَلْ تَأْتِي الْأَنْبَاءُ الصَّاعِقَةُ مِنَ الصِّينِ وَالْيَابَانِ وَأَنْدُونِيسْيَا حِينَ تَتَحَرَّشُ الْقُوَّةُ الْمُسَلَّحَةُ ، بِالْأَقَلِّيَّةِ الْمُسْلِمَةِ هُنَاكَ ، وَالشَّاعِرُ يَقْرَأُ فَيَتَفَتَّتُ قَلْبُهُ أَلَمًا .

وَأَنْتَ تُطَالِعُ دِيوَانَهُ فَتَجِدُهُ سِجِلًّا لِأَحْدَاثِ عَصْرِهِ الدَّامِيَةِ وَغَيْرِ الدَّامِيَةِ ، وَأَقْصِدُ بِهَا مَا يُثِيرُهُ كُتَّابُ الْغَرْبِ مِنْ طَعَنَاتٍ دَامِيَةٍ فِي الْإِسْلَامِ ، وَنَقْضٍ لِأُمَّهَاتِ تَعَالِيمِهِ ، وَأُصُولِ تَشْرِيعِهِ ، وَلِهَؤُلَاءِ اعْتِزَازٌ بِمَا بَلَغَتْهُ دُوَلُهُمْ مِنْ تَقَدُّمِهَا السِّيَاسِيِّ ، وَاسْتِعْمَارِهَا الْقَائِمِ عَلَىٰ الْحَدِيدِ وَالنَّارِ ، وَقَدْ ظَنُّوا أَنَّ انْتِصَارَ الْقُوَّةِ الْغَاشِمَةِ دَلِيلُ الْحَقِّ ، وَأَنَّ انْدِحَارَ الْمُسْلِمِينَ أَمَامَ الْأَسْلِحَةِ الْمُعَاصِرَةِ دَلِيلُ التَّأَخُّرِ وَالِانْحِطَاطِ .

لَقَدْ نَشَرَ وَزِيرُ خَارِجِيَّةِ فَرَنْسَا « الْمسيو هَانوتو » بَحْثًا عَنِ الْعَالَمِ الْإِسْلَامِيِّ وَأَسْبَابِ تَأَخُّرِهِ خَبَطَ فِيهِ خَبْطًا مُنْكَرًا إِذِ ادَّعَىٰ أَنَّ عَقِيدَةَ الْقَدَرِ - دُونَ أَنْ يَفْهَمَ مَعْنَاهَا الْحَقِيقِيَّ - سَبَبُ تَأَخُّرِ الْمُسْلِمِينَ ، وَأَنَّ فَرَنْسَا تُحَاوِلُ أَنْ تُنْقِذَ بِلَادَ الْإِسْلَامِ مِنْ جَهَالَتِهَا بِنَشْرِ تَعَالِيمِ الْمَسِيحِيَّةِ ، وَزَادَ فَجَعَلَ أُلُوهِيَّةَ الْمَسِيحِ ، وَكَوْنَهُ بَشَرًا ارْتَقَىٰ إِلَىٰ مَرْتَبَةِ الْإِلَهِ دَلِيلَ سُمُوِّ الْمَسِيحِيَّةِ !! ، أَمَّا أَنْ يَكُونَ الْإِلَهُ فِي الْإِسْلَامِ مُنَزَّهًا عَنِ التَّشْبِيهِ مِنْ بَنِي الْبَشَرِ ، فَذَلِكَ دَلِيلُ الِانْحِطَاطِ وَالتَّقَهْقُرِ !! ، ثُمَّ وَازَنَ بَيْنَ الْجِنْسِ الْآرِيِّ وَالْجِنْسِ السَّامِيِّ لِيَجْعَلَ الْأَوَّلَ مَصْدَرَ التَّمَدُّنِ ،

وَالْآخَرَ مَصْدَرَ الِانْحِطَاطِ وَنَقَلَ كَلَامًا سَمِجًا لِوَغْدٍ مِنْ أَوْغَادِ فَرَنْسَا يَرَىٰ أَنْ تُهْدَمَ الْكَعْبَةُ ، وَيُنْبَشَ قَبْرُ الرَّسُولِ ﷺ بِالْمَدِينَةِ ، لِتَمْكُثَ جُثَّتُهُ فِي مُتْحَفِ اللُّوفَرِ ! وَقَامَ الْأُسْتَاذُ الْإِمَامُ مُحَمَّدٌ عَبْدُهُ بِالرَّدِّ الْحَاسِمِ عَلَىٰ هَذِهِ الْأَبَاطِيلِ ، فَكَتَبَ ثَلَاثَ مَقَالَاتٍ أَوْضَحَتْ لِلْوَزِيرِ الْكَبِيرِ أَنَّهُ لَا يَعْرِفُ شَيْئًا عَنْ حَقِيقَةِ الْمَسِيحِيَّةِ ، وَلَا عَنْ حَقِيقَةِ الْإِسْلَامِ ، وَلَكِنَّهُ مُسْتَعْمِرٌ غَاصِبٌ ، يُرِيدُ أَنْ تَأْكُلَ فَرَنْسَا أَكْبَرَ مَا تَسْتَطِيعُ أَكْلَهُ مِنْ بِلَادِ الْإِسْلَامِ ، مُتَعَلِّلَةً بِأَنَّهَا رَسُولُ الْمَدَنِيَّةِ وَالْحَضَارَةِ ! وَالْمَدَنِيَّةُ الْحَقِيقِيَّةُ لَا تَكُونُ بِاسْتِعْمَارِ الْبِلَادِ وَامْتِصَاصِ خَيْرَاتِهَا ، وَنَهْبِ ثَرَوَاتِهَا ، فَكُلُّ ذَلِكَ أُسْلُوبٌ هَمَجِيٌّ لَا صِلَةَ لَهُ بِالْحَضَارَةِ ! وَ التَّمَدُّنِ ! قَرَأَ مُحَرَّمٌ فِي جَرِيدَةِ الْمُؤَيَّدِ مَا قَالَهُ « هَانُوتُو » وَمَا رَدَّ بِهِ الْأُسْتَاذُ الْإِمَامُ ؛ فَغَلَىٰ الدَّمُ فِي عُرُوقِهِ وَأَنْشَأَ قَصِيدَةً قَالَ فِيهَا(١):

غَضِبَ الْحُمَاةُ لِدِينِ أَحْمَدَ غَضْبَةً ... نُصِرَ الْإِلَٰهُ بِهَا وَعَزَّ الْمُصْحَفُ
قَذَفَتْ «بِهَانُوتُو» فَطَاحَ بِهَبْوَةٍ ... تَرْمِي بِأَبْطَالِ الرِّجَالِ وَتَقْذِفُ
مَا انْفَكَّ يَرْمِي الْمُسْلِمِينَ بِعَسْفِهِ ... حَتَّىٰ انْبَرَىٰ الْقَدَرُ الَّذِي لَا يَعْسِفُ
أَيَهُمُّ «هَانُوتُو» بِقَبْرِ مُحَمَّدٍ ... وَيَسُوءُ حَوْلَيْهِ يَطُوفُ وَيَعْكُفُ
أَيَقُولُ تِلْكَ ، فَلَا تَمِيدُ بِأَهْلِهَا ... « بَارِيسُ » مِنْ فَزَعٍ وَيَهْوِي الْمُتْحَفُ
فَلَسَوْفَ يَنْظُرُ أَيَّ مُلْكٍ يَنْطَوِي ... وَلَسَوْفَ يَعْلَمُ أَيَّ عَرْشٍ يُنْسَفُ
وَيْحِي عَلَىٰ الْإِسْلَامِ هَانَ وَزَلْزَلَتْ ... أَيْدِي الْخُطُوبِ شُعُوبَهُ فَاسْتُضْعِفُوا
مَهْلًا دُعَاةَ الشَّرِّ إِنَّ وَرَاءَكُمْ ... يَوْمًا تَظَلُّ بِهِ الشُّعُوبُ تَخَطَّفُ

(١) الدّيوان ج ١، ص ٥٣.

لِلَّهِ فِيمَا تَفْعَلُونَ بِدِينِهِ   عَهْدٌ أَبَرُّ، وَمَوْعِدٌ مَا يُخْلَفُ
كَشَفَ الْكِتَابُ عَنِ الْمَحَجَّةِ فَانْظُرُوا   وَأَرَىٰ الْمَحَجَّةَ عِنْدَكُمْ أَنْ تَصْدُفُوا
إِنَّ الَّذِي قَهَرَ الْجَبَابِرَ مَا لَهُ   مِثْلٌ يُعَدُّ وَلَا شَبِيهٌ يُوصَفُ
تُزْجِي أَسَاطِيلَ الْقَضَاءِ سُطُورُهُ   وَتَقُودُ خَيْلَ اللَّهِ مِنْهُ الْأَحْرُفُ
حِصْنٌ يَلُوذُ الدِّينُ مِنْهُ بِجَانِبٍ   عَزْرِيلُ مُرْتَقِبٌ عَلَيْهِ يُرَفْرِفُ
فِي كُلِّ يَوْمٍ لِلتَّعَصُّبِ غَارَةٌ   يَدْعُو بِهَا دَاعِي الصَّلِيبِ وَيَهْتِفُ
ضَجَّتْ شُعُوبُ الْمُسْلِمِينَ وَرَاعَهُمْ   ظُلْمُ الْأُلَىٰ، لَوْلَا السِّيَاسَةُ أَنْصَفُوا
إِنَّ الصَّلِيبَ عَلَىٰ جَهَالَةِ أَمْرِهِ   لَيَرَىٰ سَبِيلَ الْمُصْلِحِينَ وَيَعْرِفُ

وَالْقَصِيدَةُ مِنْ بَوَاكِيرِ مَا قَالَ الشَّاعِرُ فِي الدِّفَاعِ عَنِ الْإِسْلَامِ؛ حَيْثُ نَظَمَهَا فِي سِنِّ الْعِشْرِينَ، وَمِنْ يَوْمِهَا وَقَدْ أَخَذَ عَلَىٰ نَفْسِهِ عَهْدًا أَنْ يَكُونَ لِلْغُوَاةِ بِمَرْصَدٍ.

ثُمَّ جَاءَ كُرُومَر الْمَنْدُوبُ الْبِرِيطَانِيُّ فِي مِصْرَ، فَحَكَمَ الْبِلَادَ قُرَابَةَ رُبْعِ قَرْنٍ، وَكُلُّ هَمِّهِ أَنْ يَمْحُوَ أَيَّ أَثَرٍ لِلْإِسْلَامِ فِي الشَّرْقِ لَا فِي مِصْرَ فَحَسْبُ، وَقَدْ مَكَّنَ لِلِاسْتِعْمَارِ وَذُيُوعِهِ مَا جَعَلَهُمْ أَصْحَابَ الْكَلِمَةِ الْعُلْيَا فِي مِصْرَ، وَفَسَحَ لَهُمْ مَجَالَ الصَّحَافَةِ فَجَعَلُوا يَبُثُّونَ سُمُومَهُمْ بِوَحْيِهِ، وَيَدْعُونَ إِلَىٰ التَّغْرِيبِ وَكَأَنَّهُ بَابُ الْأَمَلِ الْأَوْحَدِ، ثُمَّ افْتَضَحَتْ مَخَازِيهِ بَعْدَ حَادِثِ «دُنْشُوَايَ» فَأُجْبِرَ عَلَىٰ الِاسْتِقَالَةِ، وَلَمْ يَشَأْ أَنْ يَنْفُضَ يَدَهُ مِنَ الْأَمْرِ، بَلْ جَعَلَ يُصْدِرُ الْمَقَالَاتِ وَالْكُتُبَ الَّتِي تَطْعَنُ فِي الْإِسْلَامِ لِتَكُونَ دُسْتُورًا لِمَنْ يَخْلُفُونَهُ، وَأَصْدَرَ كِتَابَ «مِصْرُ الْحَدِيثَةُ»، يَرْسِمُ بِهِ وِجْهَةَ الْحَدَاثَةِ مِنْ

رُؤْيَتِهِ الاسْتِعْمَارِيَّةِ ، وَإِذَا كَانَ الْإِسْلَامُ عَدُوَّ الاحْتِلَالِ ، وَرَائِدَ الْحُرِّيَّةِ ، فَقَدْ وَجَّهَ هِمَّتَهُ إِلَى نَقْدِ الْإِسْلَامِ بِالَّتِي هِيَ أَقْبَحُ ، حَيْثُ افْتَرَىٰ عَلَيْهِ زُورًا بِمَا لَيْسَ فِيهِ ، فَهُوَ دِينٌ بَدَوِيٌّ لَا يَصْلُحُ لِلْحَضَارَةِ ، وَلَمْ يَسْتَقِمْ لَهُ الْأَمْرُ إِلَّا بَيْنَ الْبُدَاةِ مِنَ الْأَعْرَابِ ، وَهُوَ يَعْلَمُ أَنَّ الْإِسْلَامَ صَاحِبُ أَعْظَمِ حَضَارَةٍ إِنْسَانِيَّةٍ مَدَّتْ ظِلَالَهَا عَلَى الْعَالَمِ ، وَمِنْهَا نَهِلَتْ أُورُبَّا وَعَلَّتْ ، حَتَّىٰ خَرَجَتْ مِنْ ظَلَامِ الْعُصُورِ الْوُسْطَىٰ بَعْدَ الْحُرُوبِ الصَّلِيبِيَّةِ وَفَتْحِ الْأَنْدَلُسِ ، وَهِيَ أُمُورٌ بَدَهِيَّةٌ لَا يُمْكِنُ لِمُؤَرِّخٍ أَنْ يَتَجَاهَلَهَا إِلَّا إِذَا كَانَ مَرِيضَ النَّفْسِ مِثْلَ كُرُومَرْ وَأَشْيَاعِهِ ، ثُمَّ حَكَمَ بِأَنَّ الْمُسْلِمِينَ لَا يُمْكِنُ أَنْ يَلِجُوا بَابَ التَّقَدُّمِ إِلَّا إِذَا تَرَكُوا دِينَهُمْ جُمْلَةً وَتَفْصِيلًا ، كَمَا افْتَرَىٰ عَلَى الْإِسْلَامِ بِأَنَّهُ دِينُ التَّعَصُّبِ وَالِانْتِقَامِ ، وَتَحَجُّرِ الْأَذْهَانِ ، وَأَنَّ أَسَاسَهُ الْقُرْآنُ ، وَهُوَ كِتَابٌ يُنَافِي الْعُمْرَانَ وَيُبِيحُ الطَّلَاقَ وَيُحَرِّمُ شُرْبَ الْخَمْرِ ، مَعَ أَنَّ أَعْلَامًا فُضَلَاءَ مِنْ كُتَّابِ أُورُبَّا جَعَلُوا إِبَاحَةَ الطَّلَاقِ مَزِيَّةً ، وَحَرَّمُوا الْخَمْرَ مِنْ تِلْقَاءِ أَنْفُسِهِمْ ، فَهَلْ كَانُوا بِذَلِكَ يَقِفُونَ فِي طَرِيقِ الْعُمْرَانِ أَوْ أَنَّهُمْ يَهْتَدُونَ بِمِصْبَاحٍ مِنَ الْفِكْرِ الْمُنِيرِ !! وَفِي سَبِيلِ تَحْقِيقِ مَا يُرِيدُ هَذَا الْمَاكِرُ الْمُتَّشِحُ ظَاهِرِيًّا بِزِيِّ الْإِصْلَاحِ دَعَا إِلَى إِطْلَاقِ الْحُرِّيَّةِ فِي مِصْرَ وَالسُّودَانِ لِلتَّبْشِيرِ بِالْمَسِيحِيَّةِ ، وَقَالَ :

إِنَّ مِنَ الْوَاجِبِ أَنْ تَحْتَضِنَ إِنْكِلْتِرَا طَائِفَةً مِنْ أَبْنَاءِ مِصْرَ وَتُعْطِيَهُمْ أَعْلَى الدَّرَجَاتِ الْعِلْمِيَّةِ لِيَكُونُوا رُسُلَ الْحَضَارَةِ الْمَسِيحِيَّةِ فِي الشَّرْقِ ، وَهُمُ الْأَسَاسُ الْحَقِيقِيُّ لِكُلِّ تَعَاوُنٍ سَيَحْدُثُ بَيْنَ إِنْكِلْتِرَا وَالْمِصْرِيِّينَ ، وَهِيَ نَظْرَةٌ اسْتِعْمَارِيَّةٌ تُوحِي بِخَلْقِ الذُّيُولِ وَالْأَذْنَابِ لِيَكُونُوا أَدَاةً طَيِّعَةً فِي أَيْدِي الِاحْتِلَالِ ، بِمَا يَتَوَفَّرُ لَهُمْ مِنَ الْمَنَاصِبِ الْعَالِيَةِ ، وَالْوَظَائِفِ الْمَرْمُوقَةِ ، وَقَدْ

أَحدَثَ كِتَابُ كُرُومَرَ ضَجَّةً كَبِيرَةً ، فَجَابَهَهُ رِجَالُ الْفِكْرِ الإِسْلَامِيِّ بِالنَّقْدِ الْعَاصِفِ ، وَكَانَ أَهْدَأَهُمْ لَهْجَةً هُوَ الأُسْتَاذُ الْكَبِيرُ مُحَمَّدٌ فَرِيدٌ وَجْدِي إِذْ فَنَّدَ هَذِهِ الأَرَاجِيفَ بِأُسْلُوبٍ هَادِئٍ ، لَا يَنَالُ مِنْ نَفْسِيَّةِ كُرُومَرَ ؛ لِأَنَّهُ قَارَنَ الْحُجَّةَ بِالْحُجَّةِ دُونَ أَنْ يَكْشِفَ عَنْ نِيَّاتِهِ السُّودِ وَأَغْرَاضِهِ الاسْتِعْمَارِيَّةِ ، وَكَانَ الأُسْتَاذُ وَجْدِي ، يَنْتَظِرُ بَعْدَ الْتِزَامِ الْمَنْطِقِ الْمُعْتَدِلِ ، وَالإِدْلَاءِ بِالْحُجَّةِ الْقَاطِعَةِ ، دُونَ تَهَجُّمٍ عَلَى اللُّورْدِ ، أَنْ يَكُونَ رَدُّهُ مَوْضِعَ الْقَبُولِ ، إِذْ أَنَّهُ أَوْضَحَ الْحَقَائِقَ فِي بَيَانٍ سَافِرٍ تَدْعَمُهُ الْبَرَاهِينُ ، وَلَكِنَّ اللُّورْدَ كُرُومَرَ قَدْ عَلَّقَ عَلَى رَدِّ الأُسْتَاذِ وَجْدِي بِمَا يُفِيدُ تَعَصُّبَهُ الْبَغِيضَ ، وَعَدَمَ إِذْعَانِهِ لِلْحَقِّ ، فَرَدَّ عَلَيْهِ الأُسْتَاذُ فَرِيدُ وَجْدِي رَدًّا يَقُولُ فِيهِ : إِنَّ اللُّورْدَ صَغُرَ فِي عَيْنِهِ جِدًّا مِنْ حَيْثُ مَعَارِفُهُ التَّارِيخِيَّةُ وَالاجْتِمَاعِيَّةُ وَالدِّينِيَّةُ .

وَكَانَ الأُسْتَاذُ وَجْدِي يَظُنُّ أَنَّهُ بِاطِّلَاعِهِ عَلَى مَا يَجْهَلُ مِنَ الْحَقَائِقِ سَيُسَلِّمُ بِجَهْلِهِ ، وَيَتَنَازَلُ عَمَّا اخْتَزَنَهُ فِي صَدْرِهِ لِلإِسْلَامِ مِنْ عَدَاءٍ ، وَإِذَا رَدُّهُ الْفَاحِشُ يُعْلِنُ أَنَّهُ لَا يَبْغِي الْحَقِيقَةَ وَلَا يَنْشُدُهَا ، بَلْ يُرِيدُ اسْتِعْمَارًا لِلْبِلَادِ وَهَدْمًا لِلإِسْلَامِ بِادِّعَاءَاتٍ كَاذِبَةٍ عَرَفَ الآنَ مَبْلَغَ قِيمَتِهَا الْعِلْمِيَّةِ ثُمَّ لَمْ يَشَأْ أَنْ يَؤُوبَ إِلَى الرَّشَادِ ! وَرَدُّ الأُسْتَاذِ وَجْدِي أَوَّلًا وَثَانِيًا مَبْسُوطٌ فِي كِتَابٍ نَشَرَهُ إِذْ ذَاكَ تَحْتَ عُنْوَانِ « اللُّورْدُ كُرُومَرَ وَالإِسْلَامُ » بَعْدَ أَنْ نَشَرَهُ مُتَفَرِّقًا فِي جَرِيدَةِ الدُّسْتُورِ الَّتِي كَانَ يَقُومُ عَلَى تَحْرِيرِهَا ، أَمَّا الأُسْتَاذُ أَحْمَدُ مُحَرَّم فَقَدْ سَاعَدَ النَّاقِدِينَ بِصَيْحَةٍ شِعْرِيَّةٍ فَنَّدَتْ أَبَاطِيلَ كُرُومَرَ الْمَكْذُوبَةَ بِلِسَانٍ بَيَانِيٍّ أَخَّاذٍ ، قَالَ فِيهَا مُخَاطِبًا كُرُومَرَ[1]:

---

(١) الديوان ج «١» ص ١٢٨.

رُوَيْدَكَ أَيُّهَا الْجَبَّارُ فِينَا فَإِنَّ الرَّأْيَ أَلَّا تَزْدَرِينَا
زَعَمْتَ الْحُكْمَ حُكْمَكَ فِي كِتَابٍ كَذَبْتَ بِهِ الْخَلَائِقَ أَجْمَعِينَا
وَمَا غَفَلُوا عَنِ الْأَحْقَادِ تَغْلِي مَرَاجِلُهَا، وَمَا جَهِلُوا الْيَقِينَا
نَفَثْتَ سُمُومَهَا، إِذْ ضَاقَ عَنْهَا فُؤَادُكَ، وَالْقُلُوبُ تَضِيقُ حِينَا
زَعَمْتَ بِنَا مَزَاعِمَ كَاذِبَاتٍ وَمَا يُغْنِي مَقَالُ الزَّاعِمِينَا
زَعَمْتَ الدِّينَ وَالْقُرْآنَ جَاءَا بِمَا يُشْقِي حَيَاةَ الْمُسْلِمِينَا
زَعَمْتَ مُحَمَّدًا لَمْ يُؤْتَ رُشْدًا وَلَمْ يَسْلُكْ سَبِيلَ الْمُصْلِحِينَا
رُوَيْدَكَ أَيُّهَا الْجَبَّارُ فِينَا فَبِئْسَ الْحُكْمُ حُكْمُ الْقَاسِطِينَا(١)
وَهَبْنَا أُمَّةً فِي الْجَهْلِ غَرْقَىٰ وَشَعْبًا فِي مَهَانَتِهِ دَفِينَا
أَدِينُ اللَّهِ يَأْمُرُنَا بِجَهْلٍ وَيُوجِبُ أَنْ نَذِلَّ وَنَسْتَكِينَا
سَلِ الْأَحْيَاءَ وَالْمَوْتَىٰ جَمِيعًا أَكُنَّا أُمَّةً مُسْتَضْعَفِينَا!
لَيَالِيَ يَبْعَثُ الْإِسْلَامُ مِنَّا عَزَائِمَ تُخْضِعُ الْمُتَغَطْرِسِينَا
نَثُلُّ عُرُوشَ جَبَّارِينَ غَلْبًا وَنَجْتَثُّ الْمَمَالِكَ فَاتِحِينَا
وَقَائِعُ تَرْجُفُ الدَّوْلَاتُ مِنْهَا وَيَذْكُرُهَا الْقَيَاصِرُ صَاغِرِينَا
تَرَكْنَا الدَّهْرَ يَنْتَفِضُ انْتِفَاضًا وَغَادَرْنَا الْخَلَائِقَ ذَاهِلِينَا
بِبَأْسٍ لَا كِفَاءَ لَهُ وَعِلْمٍ جَلَا الْغَمَرَاتِ وَاكْتَسَحَ الدُّجُونَا
سَنَنَّا الرُّشْدَ لِلْغَاوِينَ طُرًّا وَلَوْلَا الدِّينُ لَمْ نَكُ رَاشِدِينَا

(١) الْقَاسِطِينَا : الظالمين .

وَلَوْلَا مَعْشَرٌ خَذَلُوهُ مِنَّا لَكُنَّا السَّابِقِينَ الْأَوَّلِينَا
أَتَزْعُمُ مَا جَنَىٰ الْجُهَلَاءُ دِينًا وَتَأْخُذُنَا بِذَنْبِ الْجَاهِلِينَا
رُوَيْدَكَ أَيُّهَا الْجَبَّارُ فِينَا فَمَا أَنْصَفْتَنَا دُنْيَا وَدِينَا

وَهُجُومُ كُرُومَرْ عَلَىٰ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ ، وَعَدُّهُ مَصْدَرَ التَّأَخُّرِ ، قَدْ وَجَدَ مِنْ ذُيُولِ الْمُسْتَشْرِقِينَ مَنْ حَاوَلَ أَنْ يَدُورَ فِي هَذَا الْفَلَكِ الْبَاطِلِ ، فَظَهَرَتْ كِتَابَاتٌ تَصْطَنِعُ الْبَحْثَ ، وَتَدْعُو لِلْمَنْهَجِ الْعِلْمِيِّ ، وَكُلُّ هَدَفِهَا الطَّعْنُ فِي كِتَابِ اللَّهِ ، فَمَرَّةً يَقُولُونَ : إِنَّهُ فَقَدَ التَّرْتِيبَ الْمَنْطِقِيَّ ، وَمَرَّةً يَقُولُونَ : إِنَّهُ يُكَرِّرُ الْمَعَانِيَ دُونَ مُوجِبٍ ، وَمَرَّةً يَعْجَزُونَ عَنْ فَهْمِ آيَاتٍ مِنْهُ تَبْدُو فِي أَذْهَانِهِمُ الْعَلِيلَةِ مُتَعَارِضَةً ، فَيُكْثِرُونَ مِنَ اللَّجَاجَةِ حَوْلَهَا ، وَمِنْ وَرَاءِ ذَلِكَ كُلِّهِ الْخُلُوصُ إِلَىٰ هَدْمِ الْقُرْآنِ وَرَمْيِهِ بِالتَّأَخُّرِ ، وَقَدِ انْسَابَتْ بَعْضُ آثَارِهِمْ إِلَىٰ أَقْلَامِ فِئَةٍ مِمَّنْ دَرَسُوا بِفَرَنْسَا وَلَنْدَنَ ؛ فَجَعَلُوا يُرَدِّدُونَهَا عَلَىٰ طُلَّابِهِمْ بِاسْمِ الْبَحْثِ الْعِلْمِيِّ ، وَهِيَ شُبَهٌ ظَالِمَةٌ كَشَفَ الْمُخْلِصُونَ قِنَاعَهَا الزَّائِفَ ، وَأَوْضَحُوا وَجْهَ الْبُطْلَانِ السَّافِرِ بِهَا ، وَلَمْ يَتَحَدَّثُوا عَنْ أُسْلُوبِ الْقُرْآنِ بِالنَّقْدِ إِلَّا لِيَنْتَهُوا إِلَىٰ أَنَّ أَحْكَامَهُ قَدِيمَةٌ عَفَا عَلَيْهَا الزَّمَنُ ، وَأَنَّهَا لَا تَصْلُحُ لِلتَّطْبِيقِ فِي الْقَرْنِ الْعِشْرِينَ الْحَضَارِيِّ ، وَهِيَ أَرَاجِيفُ أَصْبَحَتْ أُضْحُوكَةً سَاخِرَةً بَعْدَ أَنْ كَشَفَ الْبَاحِثُونَ زَيْفَهَا ، وَكَانَ أَحْمَدُ مُحَرَّم أَحَدَ الْأَحْرَارِ الَّذِينَ تَصَدَّوْا لِهَذِهِ الْأَرَاجِيفِ فِي قَصَائِدَ عِدَّةٍ ، خَاصَّةً بِكِتَابِ اللَّهِ ، مِمَّا يَدُلُّ عَلَىٰ أَنَّ شُكُوكَ الْقَوْمِ قَدْ أَثَارَتْهُ إِثَارَةَ الْمُؤْمِنِ الْغَيُورِ ، فَجَعَلَ يُفَنِّدُهَا فِي عِدَّةِ قَصَائِدَ ، لَا فِي قَصِيدَةٍ وَاحِدَةٍ ، وَقَدْ أَكَّدَ حِرْصَ الْمُسْلِمِينَ عَلَىٰ شَرِيعَةِ الْقُرْآنِ مِرَارًا دُونَ تَعَبٍ ، فَهُوَ يَقُولُ فِي أُولَىٰ قَصَائِدِهِ(١):

(١) الدِّيوَان ج ٤، ص ١٠٣.

نَأْتَمُّ بِالنُّورِ الْمُبِينِ وَحَسْبُنَا ... بِالْبَيِّنَاتِ مِنَ الْكِتَابِ إِمَامَا
مَلَأَ الزَّمَانَ هُدًى وَأَشْرَقَ حِكْمَةً ... لِلْعَالَمِينَ وَرَحْمَةً وَسَلَامَا
نَزَلَ الْأَمِينُ بِهِ فَكَانَ حَكِيمُهُ ... لِلَّهِ عَهْدًا بَيْنَنَا وَذِمَامَا
مَجْدٌ لِأَحْمَدَ لَا يُنَالُ وَسُؤْدُدٌ ... يُعْيِي الزَّمَانَ، وَيُعْجِزُ الْأَقْوَامَا
وَبِنَاءُ عِزٍّ لَا يَخَافُ مَكِينُهُ ... صَدْعًا وَلَا يَتَهَيَّبُ الْهُدَّامَا
اللَّهُ أَمَّنَ رُكْنَهُ وَأَحَلَّهُ ... رُكْنًا يَهُدُّ الدَّهْرَ وَالْأَيَّامَا
هَدَمَ الْعُرُوشَ الشَّامِخَاتِ وَرَدَّهَا ... بَعْدَ الْمَهَابَةِ وَالْجَلَالِ رِغَامَا

وَقَالَ فِي صَيْحَةٍ أُخْرَىٰ، مُخَاطِبًا بَعْضَ مَنْ شَرَعُوا فِي تَهْيِئَةِ مَكَاتِبَ لِحِفْظِ الْقُرْآنِ، وَإِذَاعَةِ فَضَائِلِهِ(١):

لَمَّا عَطَفْتُمْ عَلَى الْقُرْآنِ مِنْ نُسُكٍ ... تَدَفَّقَتْ جَنَبَاتُ النِّيلِ قُرْآنَا
تِلْكَ الْجَمَاعَاتُ هَبَّتْ مِنْ مَجَاثِمِهَا ... تَدْعُو إِلَى اللَّهِ شَعْبًا بَاتَ وَسْنَانَا
يَشْكُو الْعَمَىٰ وَكِتَابُ اللَّهِ فِي يَدِهِ ... يَكَادُ يُنْكِرُهُ جَهْلًا وَنِسْيَانَا
نُورٌ تَدَفَّقَ لَوْلَا اللَّهُ مُرْسِلُهُ ... إِذَنْ لَجَاشَتْ شُعُوبُ الْأَرْضِ عُمْيَانَا
إِذَا الْمَمَالِكُ مَالَتْ عَنْ مَنَاهِجِهِ ... كَانَتْ حَضَارَتُهَا زُورًا وَبُهْتَانَا
مَنْ رَاحَ مِنْ قَوْمِنَا يُحْيِي مَرَاشِدَهُ ... أَحْيَا بِهَا أُمَمًا شَتَّىٰ وَأَوْطَانَا
إِنْ أَنْتَ أَطْلَقْتَ لِلْآفَاقِ حِكْمَتَهُ ... أَطْلَقْتَ لِلْعِلْمِ وَالْعِرْفَانِ طُوفَانَا
يُزْجِي الْأَسَاطِيلَ فِي الْآيَاتِ ظَافِرَةً ... وَيَغْمُرُ الْحَرْبَ أَبْطَالًا وَفُرْسَانَا

(١) الدّيوان ج ١، ص ٨٩٠.

بَنَى الرَّسُولُ عَلَيْهِ أُمَّةً هَدَمَتْ أَقْوَى الشُّعُوبِ بِهِ عِزًّا وَسُلْطَانَا
إِنَّ الَّذِي نَزَّلَ الذِّكْرَ الْحَكِيمَ عَلَى رَسُولِهِ زَادَهُ حِفْظًا وَتِبْيَانَا
بَاقٍ عَلَى الدَّهْرِ لَا تُخْشَى غَوَائِلُهُ وَلَا يَخَافُ مِنَ الْبَاغِينَ عُدْوَانَا
أَلَا تَقُومُ بِدَارِ الْمُلْكِ جَمْهَرَةٌ تَحْمِي الْبِنَاءَ وَتَرْعَى الْأَمْرَ وَالشَّانَا ؟!
لَا بُدَّ لِلْأَمْرِ مِنْ مَسْعَى يُحَقِّقُهُ وَاللَّهُ أَكْرَمُ مَنْ يُرْجَى لِمَسْعَانَا

وَفِي دِيوَانِ مُحَرَّم بِأَجْزَائِهِ الْخَمْسَةِ الْكِبَارِ أَكْثَرُ مِنْ خَمْسَ عَشْرَةَ قَصِيدَةً عَالِيَةَ الصَّوْتِ ، تَمْجِيدًا لِلْقُرْآنِ وَشَرْحًا لِأَثَرِهِ الْخَالِدِ فِي إِصْلَاحِ الْكَوْنِ ، وَإِخْرَاجِ النَّاسِ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ ، وَسَأُشِيرُ إِلَى بَعْضِهَا فَقَطْ مِمَّا كَانَتْ لَهُ مُنَاسَبَةٌ اجْتِمَاعِيَّةٌ صَادِقَةٌ ، أَوْ مُشْكِلَةٌ تَعْلِيمِيَّةٌ بَارِزَةٌ ؛ لِأَنَّ الْإِحَاطَةَ بِهَذِهِ الْقَصَائِدِ الْمُمْتَازَةِ تَتَطَلَّبُ مَكَانًا أَفْسَحَ ، وَأُفُقًا أَرْحَبَ ، وَلَا أَدْرِي لِمَاذَا غَفَلَ عَنْ هَذِهِ الْقَصَائِدِ ذَاتِ النَّبْضِ الْإِيمَانِيِّ مَنْ يَخْتَارُونَ قَصَائِدَ النُّصُوصِ فِي الْمَعَاهِدِ الدِّينِيَّةِ ، وَلَا أَقُولُ الْمَدَارِسِ الْحُكُومِيَّةِ ؛ لِأَنَّنَا طَالَبْنَا بِمِثْلِ هَذِهِ الرَّغْبَةِ فِي مُذَكِّرَاتٍ رُفِعَتْ إِلَى وَزَارَةِ التَّرْبِيَةِ وَالتَّعْلِيمِ فَمَا وَجَدَتْ سَمِيعًا ، وَكُنْتُ إِذْ ذَاكَ مِنْ رِجَالِ التَّرْبِيَةِ وَالتَّعْلِيمِ فِي دُورِ الْمُعَلِّمِينَ وَالْمُعَلِّمَاتِ ، وَأَلْزَمْتُ نَفْسِي فِي التَّقْرِيرِ السَّنَوِيِّ الَّذِي يُرْفَعُ إِلَى الْوَزَارَةِ أَنْ أَقُومَ بِوَاجِبِ النُّصْحِ .

ثُمَّ حَانَتْ غَاشِيَةٌ أَلِيمَةٌ حِينَ آثَرَتْ وَزَارَةُ الْمَعَارِفِ أَنْ تُكْثِرَ مِنَ الْمَدَارِسِ الْإِلْزَامِيَّةِ فِي الْقُرَى وَالْمُدُنِ ، إِذْ رَأَتِ الْوَزَارَةُ أَنْ تَكُونَ هَذِهِ الْمَدَارِسُ مُغْنِيَةً عَنِ الْمَكَاتِبِ الْخَاصَّةِ بِتَحْفِيظِ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ ، بِدَعْوَى أَنَّ هَذِهِ الْمَكَاتِبَ تَضُمُّ مِنَ التَّلَامِيذِ مَنْ يَنْبَغِي أَنْ يَكُونُوا بِالْمَدَارِسِ الْإِلْزَامِيَّةِ ، وَمَعْنَى ذَلِكَ أَنَّ حِفْظَ الْقُرْآنِ لَنْ يَجِدَ مَنْ يَقُومُ بِهِ عَلَى وَجْهِهِ الصَّحِيحِ ؛ لِأَنَّ الْمُقَرَّرَ الْمَفْرُوضَ عَلَى التَّلَامِيذِ

فِي الْمَدَارِسِ الْإِلْزَامِيَّةِ لَا يَتَعَدَّىٰ بَعْضَ السُّوَرِ فِي جُزْءِ «عَمَّ» وَبَعْضَ آيَاتِ الْأَخْلَاقِ الَّتِي لَا تَبْلُغُ فِي مَجْمُوعِهَا جُزْءًا وَاحِدًا، كَمَا أَنَّ الْمَدَارِسَ الْأَوَّلِيَّةَ كَانَتْ مُنْذُ إِنْشَائِهَا تُحَتِّمُ حِفْظَ الْقُرْآنِ فِي أَرْبَعِ سَنَوَاتٍ، بِحَيْثُ يَخْرُجُ التِّلْمِيذُ مِنْهَا حَافِظًا لِكِتَابِ اللَّهِ، فَرَأَىٰ الْقَائِمُونَ عَلَىٰ التَّعْلِيمِ بِوَزَارَةِ الْمَعَارِفِ إِبْطَالَ هَذَا الْمَنْهَجِ وَالِاكْتِفَاءَ بِبَعْضِ السُّوَرِ فِي السَّنَوَاتِ الْأَرْبَعِ، وَمَعْنَىٰ هَذَا أَنَّ مَكَاتِبَ تَحْفِيظِ الْقُرْآنِ قَدْ أُغْلِقَتْ أَوْ هِيَ فِي سَبِيلِ ذَلِكَ، وَأَنَّ الْمَدَارِسَ الْإِلْزَامِيَّةَ، وَمِثْلُهَا الْمَدَارِسُ الْأَوَّلِيَّةُ، لَمْ يَعُدْ مِنْ هَمِّهَا أَنْ تُحَفِّظَ التَّلَامِيذَ كِتَابَ اللَّهِ، وَهِيَ بَلْوَىٰ شَدِيدَةٌ دَعَتِ الزَّعِيمَ الْغَيُورَ الدُّكْتُورَ عَبْدَ الْحَمِيدِ سَعِيدَ رَئِيسَ جَمْعِيَّةِ الشُّبَّانِ الْمُسْلِمِينَ أَنْ يُقَدِّمَ بِسَبَبِهَا اسْتِجْوَابًا فِي الْبَرْلَمَانِ يُبَيِّنُ فِيهِ النَّتَائِجَ الْخَطِيرَةَ لِإِهْمَالِ تَحْفِيظِ الْقُرْآنِ، كَمَا دَعَتِ الشَّيْخَ الْجَلِيلَ حُسَيْنَ وَالِيَ عُضْوَ مَجْلِسِ الشُّيُوخِ وَرَئِيسَ لَجْنَةِ الْفَتْوَىٰ بِالْأَزْهَرِ أَنْ يُقَدِّمَ اقْتِرَاحًا بِالْمَجْلِسِ خَاصًّا بِوُجُوبِ تَدْرِيسِ الْقُرْآنِ جَمِيعِهِ فِي الْمَرْحَلَتَيْنِ الْأُولَيَيْنِ، وَظَلَّتِ الْوَزَارَةُ تَتَلَكَّأُ فِي تَنْفِيذِ هَذِهِ الْمُقْتَرَحَاتِ بِدَعْوَىٰ كَثْرَةِ الْمَنَاهِجِ وَازْدِحَامِهَا بِالْمَوَادِّ! وَكَأَنَّ حِفْظَ الْقُرْآنِ وَحْدَهُ مَصْدَرُ هَذَا الِازْدِحَامِ، وَلَيْسَتْ هِيَ الْعُلُومُ الَّتِي لَا يَسْتَفِيدُ مِنْهَا التِّلْمِيذُ النَّاشِئُ فِي شَيْءٍ حِينَ يُجْبَرُ فِي دَرْسِ الْجُغْرَافْيَا عَلَىٰ حِفْظِ أَسْمَاءِ الْأَنْهَارِ وَالْجِبَالِ وَالْعَوَاصِمِ فِي قَارَّتَيْ أُورُبَّا وَاسْتُرَالْيَا، وَيُلِمُّ بِرَسْمِ خَرَائِطَ لِبِلَادٍ نَائِيَةٍ لَا تُهِمُّهُ فِي شَيْءٍ! وَمَا يُقَالُ فِي دَرْسِ الْجُغْرَافْيَا يُقَالُ مِثْلُهُ فِي دَرْسِ التَّارِيخِ حِينَ يَكُونُ تَارِيخُ أُورُبَّا بِدُوَلِهَا وَحُرُوبِهَا وَرُؤَسَاءِ مَمَالِكِهَا وَجُمْهُورِيَّاتِهَا مِمَّا يُصَدِّعُ بِهِ رَأْسَ التِّلْمِيذِ الصَّغِيرِ، وَكَأَنَّهُ أَدَاةُ تَثْقِيفٍ لَا مَعْدَىٰ عَنْهَا، هُنَا قَامَ الْغَيُورُونَ مِنْ أَبْنَاءِ الْأُمَّةِ بِالدَّعْوَةِ إِلَىٰ إِنْشَاءِ جَمْعِيَّاتِ الْمُحَافَظَةِ عَلَىٰ الْقُرْآنِ فِي عَوَاصِمِ الدَّوْلَةِ وَمُدُنِهَا تَمْهِيدًا لِإِنْشَائِهَا فِي الْقُرَىٰ، وَهُنَا أَرْسَلَ الْأُسْتَاذُ أَحْمَدُ مُحَرَّم صَيْحَاتٍ

مُتَكَرِّرَةٌ تَدْعُو إِلَىٰ وُجُوبِ الْعِنَايَةِ بِدُورِ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ أَيًّا كَانَ نَوْعُهَا مِثْلَ مَكْتَبٍ صَغِيرٍ لِلْأَوْلَادِ ، أَوْ دَارٍ لِجَمْعِيَّةِ الْمُحَافَظَةِ عَلَىٰ الْقُرْآنِ ، أَوْ تَعْمِيمِ الْحِفْظِ فِي الْمَدَارِسِ الِابْتِدَائِيَّةِ ، ثُمَّ رَأَىٰ أَنَّ أَهْلَ الْخَيْرِ يُشْرِعُونَ فِي إِنْشَاءِ جَمْعِيَّاتِ الْمُحَافَظَةِ ، فَبَارَكَ هَذِهِ الْجُهُودَ الْمُخْلِصَةَ ، وَأَخَذَ يَنْشُرُ فِي الْجَرَائِدِ الْيَوْمِيَّةِ قَصَائِدَ عِدَّةً فِي الْإِشَادَةِ بِكِتَابِ اللَّهِ ، وَالتَّذْكِيرِ بِأَنَّهُ أَوَّلُ دَاعٍ لِلنَّهْضَةِ الْحَقِيقِيَّةِ فِي بِلَادِ الْإِسْلَامِ جَمِيعِهَا ؛ إِذَا أَرَادَتْ طَرِيقَ النُّهُوضِ لِلْحَقِّ ، يَقُولُ الْأُسْتَاذُ أَحْمَدُ مُحَرَّمٍ[1]:

كَفَىٰ بِكِتَابِكُمْ يَا قَوْمِ نُورًا ... فَشُقُّوا السُّبْلَ وَاخْتَرِقُوا الظَّلَامَا
عَرَفْتُمْ خَيْرَهُ وَرَعَيْتُمُوهُ ... وَكُنْتُمْ خَيْرَ مَنْ حَفِظَ الزِّمَامَا
بِنِعْمَةِ رَبِّكُمْ قُمْتُمْ عَلَيْهِ ... وَقَامَ رَسُولُهُ فِيكُمْ إِمَامَا
نِظَامُ الدِّينِ وَالدُّنْيَا ، وَمَاذَا ... يَكُونُ النَّاسُ إِنْ فَقَدُوا النِّظَامَا ؟!
كِتَابٌ يَمْلَأُ الدُّنْيَا حَيَاةً ... وَيَنْشُرُ فِي جَوَانِبِهَا السَّلَامَا
أَقِيمُوا الْحَقَّ بِالسُّوَرِ الْعَوَالِي ... فَإِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ أَنْ يُقَامَا
تَعَالَىٰ اللَّهُ أَنْزَلَهَا عَلَيْنَا ... عِظَامًا تَبْعَثُ الْهِمَمَ الْعِظَامَا
وَلَيْسَ لِغَافِلٍ عَنْهَا نَصِيبٌ ... مِنَ الْحُسْنَىٰ وَإِنْ صَلَّىٰ وَصَامَا
نَرَىٰ فِي كُلِّ مَا نَعْتَادُ مِنْهَا ... إِمَامًا عَادِلًا ، وَفَتًى هُمَامَا
نَرَىٰ مَعْنَىٰ الْحَيَاةِ وَكَيْفَ تَسْمُو ... فَتَحْتَلُّ الذُّؤَابَةَ وَالسَّنَامَا

وَلَمَّا كَانَ مُحَرَّمٌ مُقِيمًا إِقَامَةً دَائِمَةً بِمَدِينَةِ دَمَنْهُورَ عَاصِمَةِ الْبُحَيْرَةِ ، فَقَدْ

(١) الديوان ج ٤، ص ٩١٠.

دَعَا الْأَثْرِيَاءَ بِهَا إِلَىٰ إِنْشَاءِ جَمْعِيَّةٍ لِلْمُحَافَظَةِ عَلَىٰ الْقُرْآنِ ، وَزَارَ مَنْ يَتَوَسَّمُ فِيهِمُ الْخَيْرَ بِمَنَازِلِهِمْ دَاعِيًا إِلَىٰ أَنْ تَكُونَ مُدِيرِيَّةُ الْبُحَيْرَةِ صَاحِبَةَ السَّبْقِ الْأَوَّلِ فِي هَذَا الْمَجَالِ ، وَقَدْ صَدَقَ الْقَوْمُ فِي إِيمَانِهِمْ إِذْ لَبَّوْا دَعْوَةَ الشَّاعِرِ الْكَبِيرِ وَحُدِّدَ يَوْمُ ١٩٣٥/٩/٢٣م مَوْعِدًا لِافْتِتَاحِ الْجَمْعِيَّةِ ، وَقَدْ رَأَىٰ الْمَسْئُولُونَ أَنْ يَكُونَ شَيْخُ الْأَزْهَرِ الْأُسْتَاذُ الْأَكْبَرُ مُحَمَّدٌ مُصْطَفَىٰ الْمَرَاغِيُّ عَلَىٰ رَأْسِ الْمُحْتَفِلِينَ بِهَذِهِ الْمُنَاسَبَةِ الْكَرِيمَةِ ، فَوَجَّهُوا إِلَيْهِ دَعْوَةً لِرِئَاسَةِ الِاحْتِفَالِ ، قَبِلَهَا بِارْتِيَاحٍ ، وَبَادَرَ بِالْحُضُورِ لِيُلْقِيَ كَلِمَةً ضَافِيَةً قَالَ فِيهَا(١):

« إِنَّ الْأُمَّةَ الْإِسْلَامِيَّةَ قَدْ عُنِيَتْ بِحِفْظِ الْقُرْآنِ أَدَقَّ عِنَايَةٍ ، وَجَاهَدَتْ فِي هَذَا السَّبِيلِ أَقْوَمَ جِهَادٍ حَتَّىٰ إِنَّهَا حَفِظَتْ رِوَايَتَهُ ، وَعَدَدَ آيَاتِهِ ، وَعَدَدَ كَلِمَاتِهِ ، وَعَدَدَ حُرُوفِهِ ، وَحَفِظَتْ مَا نَزَلَ مِنْهُ لَيْلًا ، وَمَا نَزَلَ مِنْهُ نَهَارًا ، وَمَا نَزَلَ فِي السَّفَرِ ، وَمَا نَزَلَ فِي الْإِقَامَةِ ، كَمَا حَفِظَتْ لَهَجَاتِهِ ، فَأَصْبَحَ الْقَارِئُ يَقْرَأُ الْقُرْآنَ وَلَيْسَ يَعْتَرِيهِ أَدْنَىٰ شَكٍّ ، وَلَا يُدَاخِلُهُ أَقَلُّ رِيبَةٍ فِي أَنَّ الَّذِي يَتْلُوهُ هُوَ مَا أَنْزَلَهُ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ ﷺ » .

ثُمَّ مَضَىٰ الْأُسْتَاذُ الْأَكْبَرُ يَتَحَدَّثُ بِإِفَاضَةٍ وَإِشْبَاعٍ عَنْ حِفْظِ الْكِتَابِ ، وَدَرَجَاتِ حِفْظِهِ الْمُخْتَلِفَةِ بِاخْتِلَافِ الْحُفَّاظِ ، وَعَنْ وُجُوبِ الْعَمَلِ بِآيَاتِ الْكِتَابِ ؛ لِأَنَّ الْحِفْظَ لَا يَكُونُ عَلَىٰ وَجْهِهِ الصَّحِيحِ إِلَّا بِالْعَمَلِ بِالْمَحْفُوظِ ، سَارِدًا نَمَاذِجَ مِنَ الْأَخْلَاقِ الْقُرْآنِيَّةِ الَّتِي يَجِبُ أَنْ يَتَحَلَّىٰ بِهَا الْمُسْلِمُونَ جَمِيعًا - وَالْحُفَّاظُ بِنَوْعٍ خَاصٍّ - ثُمَّ قَالَ فِي خِتَامِ كَلِمَتِهِ :

« لَقَدْ رَأَيْتُمْ أَنْ تَكُونَ هَذِهِ الْجَمْعِيَّةُ مَوْضِعَ عَطْفِي وَمَحَلَّ رِعَايَتِي ، وَإِنِّي

(١) مجلة الأزهر : السنة السادسة ص ٥٠٢ « المجلد السادس » .

أَتَشَرَّفُ أَنْ أَكُونَ مِنْ خَدَمِ الْمُحَافَظَةِ عَلَىٰ الْقُرْآنِ ، وَأُصَرِّحُ لَكُمْ بِأَنِّي أُعِدُّ نَفْسِي سَعِيدًا بِأَنْ أَكُونَ عُضْوًا فِي جَمْعِيَّةِ الْمُحَافَظَةِ عَلَىٰ الْقُرْآنِ بِدَمَنْهُورَ » .

ثُمَّ قَامَ الشَّاعِرُ الْكَبِيرُ الْأُسْتَاذُ أَحْمَدُ مُحَرَّم فَأَنْشَدَ قَصِيدَةً جَاءَ بِهَا[1]:

هِمَمٌ نَوَيْنَ عَلَىٰ الرَّجَاءِ عُكُوفًا ... وَضَحَ السَّبِيلُ فَمَا لَهُنَّ وُقُوفًا
حَتَّىٰ يَسِيرَ الْعَامِلُونَ صُفُوفًا ... يَا دَهْرُ لَا تَرْفُقْ، وَيَا دُنْيَا امْنَعِي
وَافٍ وَيَحْسَبُهُ الْغَبِيُّ طَفِيفًا ... ثَمَنُ الْحَيَاةِ لِمَنْ يُرِيدُ شِرَاءَهَا
فَكُنِ امْرَأً يَقِظَ الْفُؤَادِ حَصِيفًا ... لَكَ فِي كِتَابِ اللَّهِ خَيْرُ مُعَلِّمٍ
وَجَدُوهُ بَرًّا بِالشُّعُوبِ رَءُوفًا ... إِنَّ الَّذِينَ عَلَىٰ هَوَاهُ تَعَلَّمُوا
وَبَدَا الْمُغَيَّبُ وَاضِحًا مَعْرُوفًا ... كَشَفَ الظَّلَامَ عَنِ الْقُلُوبِ فَأَبْصَرَتْ
طَبَعُوا عَلَيْهِ أَسِنَّةً وَسُيُوفًا ... مَلَكَ الرِّقَابَ بِهِ أَوَائِلُنَا الْأُلَىٰ
مَنْ كَانَ مِنْ حُكَمَائِهِ مَوْصُوفًا ... هِيَ حِكْمَةُ الْإِسْلَامِ يَعْرِفُ وَصْفَهَا
عَنْ دِينِهِ وَكِتَابِهِ مَصْرُوفًا ... اللَّهُ أَكْبَرُ هَلْ رَأَيْتُمْ مُؤْمِنًا
إِنِّي لَأَسْمَعُ فِي السَّمَاءِ حَفِيفًا ... يَا قَوْمِ مَاذَا تَسْمَعُونَ؟ رُوَيْدَكُمْ
مِلْءَ السُّرَادِقِ هَاتِفِينَ وُقُوفًا ... جِبْرِيلُ يَهْبِطُ بِالتَّحِيَّةِ فَانْهَضُوا
إِنَّا نَرَاهُ مُحَبَّبًا مَأْلُوفًا ... اللَّهُ أَكْبَرُ، مَا أَجَلَّ شِعَارَنَا

وَقَدْ أَنْشَأَ مُحَرَّمٌ أَوَّلَ مَرَّةٍ فِي تَارِيخِ الْأَنَاشِيدِ، نَشِيدًا لِتَلَامِيذِ جَمْعِيَّةِ الْمُحَافَظَةِ عَلَىٰ الْقُرْآنِ جَعَلَ عُنْوَانَهُ «نَشِيدُ طَلَبَةِ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ» وَهُوَ بِالْجُزْءِ الْأَوَّلِ مِنْ دِيوَانِهِ ص ٧٦٨، لِيَعُودَ إِلَيْهِ مَنْ يُرِيدُ.

(١) الدِّيوَان ج ١، ص ٧٧٠.

عَلَىٰ أَنَّ أَثَرَ الْقُرْآنِ فِي شِعْرِ مُحَرَّمٍ لَا يَقِفُ عِنْدَ حَدِيثِهِ عَنْ كِتَابِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ ، بَلْ يَمْتَدُّ إِلَىٰ أَكْثَرِ أَغْرَاضِ الدِّيوَانِ ؛ لِأَنَّ رُوحَ الشَّاعِرِ الْإِيمَانِيَّةَ تُسَيْطِرُ سَيْطَرَةً تَامَّةً عَلَىٰ أَفْكَارِهِ ، فَأَنْتَ تَقْرَؤُهُ فَتَلْمَسُ شَاعِرًا مُثَقَّفًا ثَقَافَةً قُرْآنِيَّةً آمَنَ بِهَا عَنِ اقْتِنَاعٍ ، بَلْ إِنَّ الْأُسْلُوبَ التَّعْبِيرِيَّ يَنْقُلُ بَعْضَ تَعْبِيرَاتِ الْكِتَابِ الْمُبِينِ فَتَكُونُ حِلْيَةً ثَمِينَةً فِي الْبَيْتِ ، وَتَمْلِكُ إِعْجَابَ الْقَارِئِ بِشَاعِرٍ تَأَثَّرَ لَفْظًا وَمَعْنًى بِكِتَابِ اللَّهِ ، وَقَارِئُ مُحَرَّمٍ فِي عَصْرِهِ كَانَ يَنْتَظِرُ مِنْهُ ذَلِكَ ، وَيَعُدُّهُ سِمَةً مِنْ سِمَاتِهِ الْعَالِيَةِ ، وَإِنْ غَصَّتْ بِهَا حُلُوقٌ تَكْرَهُ أَنْ يَكُونَ كِتَابُ اللَّهِ مَصْدَرَ تَوْجِيهٍ شِعْرِيٍّ فِي عَالَمٍ يَنْحَدِرُ كَثِيرٌ مِنْ شُعَرَائِهِ إِلَىٰ إِسْفَافٍ لَا يَعْتَذِرُونَ عَنْهُ بَلْ يَتَبَاهَوْنَ ، وَأُشِيرُ هُنَا إِلَىٰ مَوْقِفٍ أَدَبِيٍّ لِلشَّاعِرِ سَيْطَرَتْ فِيهِ رُوحُ الْقُرْآنِ عَلَىٰ مَا أَبْدَعَ فِي حَفْلٍ شِعْرِيٍّ كَبِيرٍ ، تَنَوَّعَتْ فِيهِ أَفَانِينُ الشِّعْرِ ، وَتَعَدَّدَ قَائِلُوهُ الْفُحُولُ .

فَفِي سَنَةِ ١٩٣٦م أَقَامَ كِبَارُ الشُّعَرَاءِ فِي مِصْرَ مَا سَمَّوْهُ : « مَوْسِمُ الشِّعْرِ » فَأَعَدَّ كُلُّ شَاعِرٍ قَصِيدَةً مِنْ إِبْدَاعِهِ لِتُلْقَىٰ فِي الْمَوْسِمِ الْحَاشِدِ ، وَتَحَدَّثَ كَثِيرٌ مِنْهُمْ عَنِ الْكَأْسِ وَالْخَمْرِ وَذِكْرَيَاتِ الشَّبَابِ بِنَزَوَاتِهِ ، وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ يَنْتَحِيهَا ، أَمَّا الشَّاعِرُ أَحْمَدُ مُحَرَّمٍ فَقَدْ رَأَىٰ أَنْ تَكُونَ قَصِيدَتُهُ الَّتِي أَعَدَّهَا لِلْمَوْسِمِ تَحْتَ عُنْوَانِ « ثَوْرَةُ الْقَدَرِ » مُسْتَوْحَاةً مِنْ كِتَابِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ فِيمَا سَاقَهُ عَنْ سِيَرِ الْأَنْبِيَاءِ وَالْمُرْسَلِينَ ، وَفَلْسَفَةُ الْقَصِيدَةِ الطَّوِيلَةِ تَتَّجِهُ إِلَىٰ الْعِبْرَةِ الْمُسْتَقَاةِ مِنْ مَوَاقِفَ مُتَكَرِّرَةٍ لِأَنْبِيَاءَ جَاهَدُوا الْبَاطِلَ فَلَمْ يَسْتَجِبْ إِلَيْهِمْ غَيْرُ قِلَّةٍ قَلِيلَةٍ ، أَمَّا الْأَكْثَرِيَّةُ فَقَدْ غَالَتْ فِي الِاعْتِرَاضِ ، وَاتَّخَذَتْ أَسْلِحَةً مُنْكَرَةً فِي تَهْجِينِ الرُّسُلِ وَرَمْيِهِمْ بِالْكَذِبِ ثُمَّ حَقَّتْ كَلِمَةُ اللَّهِ عَلَىٰ الظَّالِمِينَ ! لَقَدْ أَرَادَ الشَّاعِرُ أَنْ يَرْمُزَ إِلَىٰ أَنْمَاطِ الْفَسَادِ فِي عَصْرِهِ حِينَ سَيْطَرَ الِاحْتِلَالُ وَالْبَغْيُ ؛ وَارْتَفَعَ الْوُصُولِيُّونَ

وَخَابَ الْمِثَالِيُّونَ مِنْ أَمْثَالِهِ، وَظَنَّ النَّاسُ أَنَّ السَّلَامَةَ فِي الِانْقِيَادِ وَعَدَمِ الِاعْتِرَاضِ، وَهُوَ مَا يَأْبَاهُ الشَّاعِرُ إِذْ صَمَّمَ أَنْ يَسْتَمِرَّ النِّضَالُ، حَتَّىٰ تَجِيءَ النِّهَايَةُ بِانْدِحَارِ الْبَاطِلِ وَانْتِصَارِ الْحَقِّ، كَمَا تَمَّ ذَلِكَ مِنْ قَبْلُ فِي قَصَصِ الْأَنْبِيَاءِ، وَقَدْ بَدَأَ قَصِيدَتَهُ مُشِيرًا إِلَىٰ قِصَّةِ آدَمَ وَ إِبْلِيسَ إِشَارَةً مُوجَزَةً، تُومِئُ أَكْثَرَ مِمَّا تُفَسِّرُ فَقَالَ(١):

عَاصِفٌ مَا قِيلَ أَمْسِكْ فَازْدَجِرْ ... زَلْزَلَ الْأَقْطَارَ وَاجْتَاحَ الْبَشَرْ
هَاجَهُ مِنْ قَبْلُ فِي مَرْبِضِهِ ... طَائِفٌ مَا مَسَّهُ حَتَّىٰ انْفَجَرْ
أَخَذَ الْخَصْمَيْنِ فِي هَبْوَتِهِ ... وَهَوَىٰ غَضْبَانَ يَرْمِي بِالشَّرَرْ
مِنْ طَرِيدٍ أَهْلَكَتْهُ سَجْدَةٌ ... وَشَرِيدٍ غَالَهُ لُؤْمُ الشَّجَرْ
ثَوْرَةٌ فِي الْأَرْضِ مِنْ آثَارِهَا ... كُلَّ يَوْمٍ ثَوْرَةٌ تُزْجِي الْعِبَرْ
شَمَخَ الْكِبْرُ بِهَذَا فَهَوَىٰ ... وَأَرَادَ الْخُلْدَ هَذَا فَدَثَرْ
ثَوْرَةٌ خَاطِئَةٌ لَوْ لَمْ تَقُمْ ... فِي ظِلَالِ الْعَرْشِ مَا ثَارَ الْقَدَرْ
تَجْمَحُ النَّفْسُ فَلَا تَنْفَعُهَا ... بَيِّنَاتُ الْأَمْرِ مِنْ خَيْرٍ وَشَرْ
وَجَلَالُ الْحَقِّ فِي صُورَتِهِ ... مُظْهِرُ الْعِزَّةِ فِي هَذِي الصُّوَرْ!

فَالْإِشَارَةُ عَابِرَةٌ إِلَىٰ الْمُتَكَبِّرِ الْبَغِيضِ إِبْلِيسَ؛ وَإِلَىٰ آدَمَ الطَّامِعِ فِي الْخُلْدِ، وَلَا شَكَّ أَنَّ السَّامِعَ يَعْرِفُ الْقِصَّةَ كَمَا فَصَّلَهَا الْقُرْآنُ، فَأَرَادَ الشَّاعِرُ أَنْ يُشِيرَ إِلَىٰ مَا يَعْنِيهِ مِنْ فَحْوَىٰ الْقِصَّةِ فَقَطْ، وَلَا يَعْنِيهِ أَنْ يُفَصِّلَهَا فِي شَيْءٍ، إِنَّمَا يَعْنِيهِ أَنْ يُقَرِّرَ أَنَّهَا كَانَتْ ثَوْرَةً خَاطِئَةً تَدُلُّ عَلَىٰ جِمَاحٍ لَا يَنْفَعُ فِيهِ

(١) الديوان ج ٤٥ ص ٧٢.

الدَّلِيلُ، مُتْبِعًا ذَلِكَ بِقَوْلِهِ:

وَجَلَالُ الْحَقِّ فِي صُورَتِهِ   مُظْهِرُ الْعِزَّةِ فِي هَذِي الصُّوَرْ

وَمَضَىٰ يَعْرِضُ مَا حَكَاهُ الْقُرْآنُ عَنْ نُوحٍ وَهُودٍ وَصَالِحٍ وَلُوطٍ فِي سِيَاقٍ يُومِئُ إِلَىٰ الْمَقْصُودِ دُونَ اسْتِرْسَالٍ فِي وَصْفِ الذَّائِعِ الْمُشْتَهِرِ، وَلِلشَّاعِرِ دِيبَاجَتُهُ الْبَيَانِيَّةُ ذَاتُ الْإِشْرَاقِ الْفَاتِنِ، كَأَنْ يَقُولُ عَنْ قَوْمِ هُودٍ[1]:

تِلْكَ عَادٌ غَرَّهَا سُلْطَانُهَا   وَازْدَهَاهَا فِي صَيَاصِيهَا[2] الْبَطَرْ
تَحْمِلُ الْأَجْسَادَ شُمًّا ضَخْمَةً   صَلْبَةَ الْأَيْدِي مُنِيفَاتِ الْقُصُرْ
تَنْقُبُ الصَّخْرَ فَلَا يُعْجِزُهَا   مَنْكِبٌ صَعْبٌ، وَلَا خَلْقٌ عَسِرْ
مَا يَخَافُ الْقَوْمُ أَنْ يَنْزِعَهُمْ   عَاصِفُ الْأَقْدَارِ مِنْ تِلْكَ الْجُحُرْ
زَعَمُوهَا جَنَّةً مَانِعَةً   مِنْ يَدِ اللَّهِ الْعَلِيِّ الْمُقْتَدِرْ
أَمَّلُوا الْخُلْدَ وَقَالُوا مَا لَنَا   بَعْدَ هَذَا الْعَيْشِ مَوْتٌ يُنْتَظَرْ
ظَنَّ هُودٌ أَنَّنَا مِنْ أَمْرِنَا   فِي أَظَانِينَ وَأَوْهَامٍ نُكُرْ
أَبِرَبٌّ وَاحِدٍ يَأْمُرُنَا؟!   لَيْتَ هُودًا كَانَ بِالْحَقِّ أَمَرْ
هَذِهِ أَرْبَابُنَا نَعْبُدُهَا   آخِرَ الدَّهْرِ، وَنَعْصِي مَنْ كَفَرْ
ثَارَ مِنْ عُلُوٍّ عَلَيْهِمْ قَدَرٌ   فِي غَمَامٍ مِنْ عَذَابٍ مُكْفَهِرْ
نَظَرُوهُ فَتَنَادَوْا فَرَحًا: عَارِضٌ سَكِبٌ، وَغَيْثٌ مُنْهَمِرْ
حَسْبُنَا مَا شَفَّنَا مِنَ ظَمَإٍ   فَاسْتَهِلِّي يَا شَآبِيبَ الْمَطَرْ

(١) الدِّيوَان ج «٥» ص ٧٤.
(٢) صَيَاصِيهَا: الأعالي.

أَطْلَقَ الرِّيحَ عَلَيْهِمْ فَجَرَتْ بِالْمَنَايَا الْهُوجِ تَهْمِي وَتَدِرْ
كُلَّمَا قَالُوا اسْتَقَرَّتْ هَاجَهَا حَنَقٌ وَارٍ وَغَيْظٌ مُسْتَعِرْ
تَنْزِعُ الْهَامَ وَتَذْرُوهُمْ فَهُمْ قِطَعٌ تُرْمَىٰ، وَتَرْمِيهَا أُخَرْ
رُبَّ ضِرْسٍ فَلَّ ضِرْسًا وَشَبَا ظُفُرٍ لِلْقَوْمِ أَوْدَتْ بِظُفُرْ
ذَهَبُوا لَمْ يَبْقَ شَيْءٌ بَعْدَهُمْ غَيْرُ ذِكْرٍ نَافِعٍ لِلْمُدَّكِرْ

وَنَحْنُ نَعْلَمُ أَنَّ كُلَّ كَلَامٍ يُعَبِّرُ عَنْ كَلَامِ اللَّهِ يَنْحَدِرُ عَنْ مُسْتَوَاهُ، وَلَا يَرْقَىٰ إِلَيْهِ، وَأَحْمَدُ مُحَرَّم يَعْرِفُ ذَٰلِكَ وَيُقَرِّرُهُ فِي كَثِيرٍ مِمَّا قَالَ! وَلَكِنَّهُ يَلْتَمِسُ الْعِبْرَةَ فِي قَصَصٍ سَجَّلَهَا الْكِتَابُ الْعَزِيزُ، فَلَيْسَ لَنَا أَنْ نُطَالِبَهُ بِتَجَاوُزِ مَا قَرَّرَ الْقُرْآنُ إِلَىٰ سَبَحَاتِ خَيَالٍ لَا يَرَاهَا مُقْنِعَةً لِقَارِئِهِ الْمُؤْمِنِ، وَلِذَٰلِكَ نَرَىٰ أَنَّ النَّاقِدَ الْأُسْتَاذَ عَبَّاسَ خِضْر قَدْ ظَلَمَهُ حِينَ قَالَ عَنِ الْقَصِيدَةِ[1]:

«إِنَّ أَكْثَرَ الْعِنَايَةِ فِي قُوَّةِ الْأَلْفَاظِ وَقُوَّةِ الْقَافِيَةِ، وَهَٰذَا مُوَائِمٌ لِحَالِ الْمَعْنَىٰ، وَلَكِنَّ هَٰذِهِ الْأَبْيَاتَ، بَلِ الْقُصُورَ الْمُؤَلَّفَةَ مِنْ صُخُورِ الْكَلِمِ وَجَلَامِيدِ الْقَوَافِي، لَا تَمْلَأُ جَوَانِبَهَا رُوحُ الشِّعْرِ».

فَقَدْ بَحَثْتُ عَنِ الْجَلَامِيدِ وَالصُّخُورِ فَلَمْ أَجِدْهَا، وَالْحَدِيثُ هُنَا عَنْ عَاصِفَةٍ مَاحِقَةٍ هَدَّتِ الْجِبَالَ، وَاقْتَلَعَتِ الْقُصُورَ، وَطَاحَتْ بِجُذُوعِ الشَّجَرِ، فَكَيْفَ لَا تَكُونُ الْجَزَالَةُ التَّعْبِيرِيَّةُ، مَادَّةَ التَّصْوِيرِ الشِّعْرِيِّ الْمُنَاسِبِ لِلْمَقَامِ ؟!.

لَقَدْ عَاشَ مُحَرَّمٌ حَيَاتَهُ الْخِصْبَةَ فِي حِمَىٰ الْإِسْلَامِ، يَدْفَعُ عَنْهُ، وَفِي رَوْضَةِ الْقُرْآنِ، يَتَفَيَّأُ ظِلَالَهَا الْمُورِقَةَ، وَيَأْكُلُ مِنْ ثِمَارِهَا الْمُشْتَهَاةِ! فَكَانَ نَسِيجًا وَحْدَهُ فِي هَٰذَا الْمَجَالِ.

(١) مجلة الرّسالة ـ العدد «١٦٠» ٢٧/٧/١٩٣٦م.

ذِكْرَيَاتٌ إِسْلَامِيَّةٌ

عَرَفَتْ مِصْرُ الِاحْتِفَالَ بِالْأَعْيَادِ الدِّينِيَّةِ فِي هَذَا الْعَصْرِ مُنْذُ سَنَةِ «١٣٢٦هـ - ١٩٠٨م» إِذْ فَكَّرَ الزَّعِيمُ مُصْطَفَىٰ كَامِلٌ قُبَيْلَ وَفَاتِهِ فِي إِقَامَةِ حَفْلٍ دِينِيٍّ رَائِعٍ بِدَارِ التَّمْثِيلِ الْعَرَبِيِّ لَيْلَةَ أَوَّلِ الْمُحَرَّمِ سَنَةَ ١٣٢٦هـ احْتِفَالًا بِذِكْرَىٰ الْهِجْرَةِ، وَدَعَا إِلَيْهِ فَرِيقًا مِنَ الْخُطَبَاءِ وَطَلَبَةِ الْمَدَارِسِ أَيَّامَ كَانَ طَلَبَةُ الْمَدَارِسِ خُطَبَاءَ يُجِيدُونَ اللُّغَةَ الْعَرَبِيَّةَ وَيَكْتُبُونَ بِهَا فِي الصُّحُفِ الْوَطَنِيَّةِ، وَيَخْطُبُونَ بِهَا فِي الْأَنْدِيَةِ عَنْ فَصَاحَةٍ مُؤْتَلِقَةٍ! فَأَيْنَ نَحْنُ الْيَوْمَ مِنْ هَذَا؟ وَكَانَ شَاعِرُ الْحَفْلِ[1] الْأَدِيبَ الْبَائِسَ مُحَمَّدًا إِمَامَ الْعَبْدِ، وَلِنَجَاحِ الْحَفْلِ، وَشِدَّةِ مَا أَثَّرَ فِي النُّفُوسِ، صَارَ الِاحْتِفَالُ بِالْمَوَاسِمِ الدِّينِيَّةِ مِنْ هِجْرَةٍ وَمَوْلِدٍ سَنَنًا مَأْلُوفًا، وَكَأَنَّهُ دُسْتُورٌ مُقَرَّرٌ، وَفِي الْعَامِ التَّالِي أُقِيمَ الِاحْتِفَالُ عَلَىٰ نَهْجٍ أَوْسَعَ، وَكَانَ شَاعِرُهُ الْمَرْحُومَ حَافِظًا إِبْرَاهِيمَ؛ فَأَلْقَىٰ قَصِيدَةً قَوِيَّةً بَدَأَهَا بِقَوْلِهِ[2]:

أَطَلَّ عَلَىٰ الْأَكْوَانِ وَالْخَلْقُ تَنْظُرُ ... هِلَالٌ رَآهُ الْمُسْلِمُونَ فَكَبَّرُوا
تَجَلَّىٰ لَهُمْ فِي صُورَةٍ زَادَ حُسْنَهَا ... عَلَىٰ الدَّهْرِ حُسْنًا أَنَّهَا تَتَكَرَّرُ

---

(١) مُحَمَّد فريد لعبد الرحمن الرافعي ص ٩١.
(٢) ديوان حافظ ج ٢، ص ٣٧.

وَأَذْكَرَهُمْ يَوْمًا أَغَرَّ مُحَجَّلًا ... بِهِ تُوِّجَ التَّارِيخُ وَالسَّعْدُ مُسْفِرُ

وَهَاجَرَ فِيهِ خَيْرُ دَاعٍ إِلَى الْهُدَى ... يَحُفُّ بِهِ مِنْ قُوَّةِ اللَّهِ عَسْكَرُ

يُمَاشِيهِ جِبْرِيلٌ وَتَسْعَى وَرَاءَهُ ... مَلَائِكَةٌ تَرْعَى خُطَاهُ وَتَخْفِرُ

بِيُسْرَاهُ بُرْهَانٌ مِنَ اللَّهِ سَاطِعٌ ... هُدًى، وَبِيُمْنَاهُ الْكِتَابُ الْمُطَهَّرُ

فَكَانَ عَلَى أَبْوَابِ «مَكَّةَ» رَكْبُهُ ... وَفِي «يَثْرِبَ» أَنْوَارُهُ تَتَفَجَّرُ

وَانْتَقَلَ بَعْدَ كَلَامٍ جَيِّدٍ إِلَى الْحَاضِرِ، فَتَحَدَّثَ عَمَّا تَمَّ فِي الْعَامِ الْمَاضِي مِنْ أَحْدَاثٍ سِيَاسِيَّةٍ لَهَا أَثَرُهَا الْبَارِزُ فِي مِصْرَ وَالْعَالَمِ الْإِسْلَامِيِّ، فَقَالَ عَنْ هَذَا الْعَامِ:

سَلُوا «التُّرْكَ» عَمَّا أَدْرَكُوا فِيهِ مِنْ مُنًى ... وَمَا بَدَّلُوا فِي الْمَشْرِقَيْنِ وَغَيَّرُوا

وَبَعْدَ سَرْدٍ لِمَا كَانَ هُنَاكَ قَالَ:

سَلُوا «الْفُرْسَ» عَنْ ذِكْرَى أَيَادِيهِ عِنْدَهُمْ ... فَقَدْ كَانَ فِيهِ «الْفُرْسُ» عُمْيًا فَأَبْصَرُوا

وَانْتَقَلَ إِلَى عَبْدِ الْعَزِيزِ مَلِكِ مُرَاكِشَ الْمَخْلُوعِ، فَقَالَ بَعْدَ أَبْيَاتٍ:

وَفِيهِ هَوَى «عَبْدُ الْعَزِيزِ» وَعَرْشُهُ ... وَأَخْنَى عَلَيْهِ الدَّهْرُ، وَالْأَمْرُ مُدْبِرُ

وَأَلَمَّ بِالْأَفْغَانِ وَالْهِنْدِ وَجَاوَةَ وَالْجَزَائِرِ وَتُونُسَ وَمِصْرَ فَأَلْمَحَ إِلَى أُمُورٍ صَادَفَتْ إِعْجَابَ السَّامِعِينَ، وَمُنْذُ هَذِهِ الْقَصِيدَةِ وَشُعَرَاءُ مِصْرَ - فِي أَكْثَرِهِمْ - يَسْتَقْبِلُونَ الْمَوَاسِمَ الدِّينِيَّةَ بِقَصَائِدَ رَنَّانَةٍ، تَنْحُو مَنْحَى حَافِظٍ إِذْ تَخُصُّ الْمُنَاسَبَةَ الْكَرِيمَةَ بِبَعْضِ الْأَبْيَاتِ ثُمَّ تَنْتَقِلُ إِلَى مَا تَمَّ فِي الْعَامِ الْمُنْصَرِمِ مِنْ أَحْدَاثٍ، وَتَظْهَرُ الْجَرَائِدُ نَاقِلَةً مَا قِيلَ فِي الِاحْتِفَالِ، وَقَدْ سَكَتَ حَافِظٌ بَعْدَ مُرُورِ عَامَيْنِ، وَسَكَتَ سِوَاهُ أَيْضًا، وَلَكِنَّ الَّذِي وَاصَلَ هَذَا النَّهْجَ الرَّائِعَ مُجِيدًا

مُجلْجِلا هُوَ الشَّاعِرُ الإِسْلَامِيُّ الْكَبِيرُ أَحْمَدُ مُحَرَّم إِذْ دَأَبَ عَلَىٰ أَنْ يَصْدَحَ فِي الْمُنَاسَبَاتِ الْإِسْلَامِيَّةِ بِقَصَائِدَ مُمْتَازَةٍ حَقًّا، وَكَأَنَّ حَافِظًا إِبْرَاهِيمَ قَدْ أَوْحَىٰ لَهُ أَنْ يَخْرُجَ مِنَ الْمَوْضُوعِ الْأَصْلِيِّ إِلَىٰ مُعَالَجَةِ مَا تَمَّ مِنَ الْأَحْدَاثِ، فَسَارَ عَلَىٰ نَهْجِهِ طَرِيقَةً، وَبَرَعَهُ أُسْلُوبًا أَدَبِيًّا وَحَرَارَةً عَاطِفِيَّةً، وَاسْتِحْثَاثًا لِلْهِمَمِ وَإِثَارَةً لِلْمَشَاعِرِ، وَدِيوَانُ مُحَرَّم مَلِيءٌ بِهَذِهِ الْجَذَوَاتِ الْمُلْتَهِبَةِ الَّتِي تُعَبِّرُ عَنْ كَوَامِنِ النُّفُوسِ، وَمِنْ أَقْوَىٰ مَا قَالَ فِي هَذَا الْمَجَالِ قَصِيدَةٌ رَائِعَةٌ، أُنْشِدَتْ أَثْنَاءَ الْتِهَابِ الثَّوْرَةِ الْمِصْرِيَّةِ «مُحَرَّمَ سَنَةَ ١٣٣٨هـ - ١٩١٩م» بَدَأَهَا بِقَوْلِهِ[١]:

حَيُّوا الْهِلَالَ وَحَيُّوا أُمَّةَ النِّيلِ ... وَاسْتَقْبِلُوا الْعِيدَ عِيدَ الْعَصْرِ وَالْجِيلِ
يَأَيُّهَا الْعَامُ يُزْجِي كُلَّ مُرْتَقَبٍ ... مِنَ الرَّجَاءِ وَيُدْنِي كُلَّ مَأْمُولِ
اكْشِفْ لَنَا مِنْ خَبَايَا الْغَيْبِ مَا كَتَمَتْ ... حُجْبُ الْحَوَادِثِ مِنْ مُرْخًى وَمَسْدُولِ
إِنِّي أَرَىٰ الْأَمْرَ قَدْ لَاحَتْ مَخَايِلُهُ ... فِي صَادِقٍ مِنْ عُهُودِ اللَّهِ مَسْئُولِ
يَمْشِي «النَّبِيُّ» بِهِ وَالْآلُ هَاتِفَةٌ ... وَ«الرُّوحُ» مَا بَيْنَ تَكْبِيرٍ وَتَهْلِيلِ
يَا دَاعِيَ الْيَأْسِ يَرْجُو أَنْ يُرَوِّعَنَا ... انْظُرْ إِلَىٰ الْآيِ، هَلْ رِيعَتْ بِتَبْدِيلِ؟

وَبَعْدَ أَنْ أَلَمَّ بِأَحْدَاثٍ مِصْرِيَّةٍ أَلِيمَةٍ، انْتَقَلَ إِلَىٰ مَوْضُوعِ الْهِجْرَةِ فَقَالَ:

وَالْحَقُّ لَوْلَا الْأُنُوفُ الشُّمُّ تَرْفَعُهُ ... عَلَاهُ كُلُّ وَضِيعِ النَّفْسِ مَرْذُولِ
سَنَّ النَّبِيُّ لَنَا أَيَّامَ هِجْرَتِهِ ... مِنْ صَادِقِ الْعَزْمِ شَرْعًا غَيْرَ مَجْهُولِ
مَضَىٰ عَلَىٰ الْحَقِّ لَمْ تَعْصِفْ بِهِمَّتِهِ ... رِيحُ الضَّلَالِ، وَلَمْ يَحْفِلْ بِتَهْوِيلِ
غِيظَتْ «قُرَيْشٌ» فَهَاجَتْ كُلَّ مُنْصَلِتٍ ... ذِي سَاعِدٍ يَقْطَعُ الْهِنْدِيَّ مَغْلُولِ

(١) الدِّيوَان ج ١، ص ٣٧٧.

يَبْغُونَ بِالْقَتْلِ مِقْدَامًا يَصُولُ عَلَى دِينٍ لَهُمْ فِي حِمَى الْأَصْنَامِ مَقْتُولِ
رَامَ الْمَدِينَةَ جَمَّ الْعَزْمِ يَبْعَثُهُ قَضَاءُ أَمْرٍ لِرَبِّ النَّاسِ مَفْعُولِ
فَاسْتَعْصَمَ «الْغَارَ» وَاشْتَغَلَتْ جَوَانِبُهُ بِعِصْمَةِ اللَّيْثِ وَالْأَشْبَالِ وَالْغِيلِ
لَمَّا رَأَى غَمْرَةَ الصِّدِّيقِ كَشَّفَهَا بِمُشْرِقٍ مِنْ بَيَانِ اللَّهِ مَصْقُولِ
فَتَابَتِ النَّفْسُ وَارْتَدَّ الْيَقِينُ بِهَا وَانْجَابَ مَا كَانَ مِنْ ظَنٍّ وَتَخْيِيلِ
وَاسْتَرْسَلَتْ بِرَسُولِ اللَّهِ هِمَّتُهُ تَرْمِي الصِّعَابَ، وَتَلْوِي بِالْعَرَاقِيلِ
حَتَّى عَلَا الْحَقُّ فِي الْآفَاقِ وَاطَّرَدَتْ بِيضُ الشَّرَائِعِ تَهْدِي كُلَّ ضِلِّيلِ

وَبَعْدَ إِفَاضَتِهِ فِي أَحْدَاثِ الْهِجْرَةِ، وَمَا أَعْقَبَهَا مِنْ نَصْرٍ سَاحِقٍ تَمَّتْ بِهِ كَلِمَةُ اللَّهِ عَلَى الْمُسْلِمِينَ، فَأَشْرَقَ نُورُ الْإِسْلَامِ بِالْفَتْحِ الْمُبِينِ شَرْقًا وَغَرْبًا، انْتَقَلَ إِلَى الْوَاقِعِ السِّيَاسِيِّ فِي مِصْرَ، وَالْمَعْرَكَةُ عَلَى أَشُدِّهَا بَيْنَ الِاحْتِلَالِ وَالثَّائِرِينَ، وَالدِّمَاءُ تَسِيلُ، وَالْأَرْوَاحُ تُزْهَقُ فَقَالَ(١):

يَا حِجَّةً وَقَفَتْ مِصْرُ تُوَدِّعُهَا خُذِي مَكَانَكِ خَلْفَ الدَّهْرِ أَوْ زُولِي
كَمْ فَادِحٍ فِيكِ لَوْلَا مَا يُؤَيِّدُنَا مِنْ قُوَّةِ اللَّهِ أَضْحَى غَيْرَ مَحْمُولِ
لَمْ تَتْرُكِي مَنْزِلًا أَمْنًا، وَلَمْ تَدَعِي لِمُدْمِنِ الْخَوْفِ عَيْشًا غَيْرَ مَمْلُولِ
مَا تُبْصِرُ الْعَيْنُ مِنْ شَيْءٍ يَلُوحُ لَهَا إِلَّا رَأَتْ عِنْدَهُ تِمْثَالَ «عِزْرِيلِ»
نَفْسٌ تَطِيرُ، وَأُخْرَى لَا قَرَارَ لَهَا إِلَّا عَلَى عِدَةٍ تُرْجَى وَتَأْمِيلِ
يَدْعُو اللَّهِيفُ لِحَقٍّ، لَا مُجِيرَ لَهُ نَائِي الْحُمَاةِ إِلَى الدَّيَّانِ مَوْكُولِ

(١) الدّيوان ج «١» ص ٣٨٠.

لَمْ نَنْسَ مِصْرَ، وَلَمْ يَخْدَعْ عَزَائِمَنَا   مَا حَدَّثُونَا عَنِ الْعَنْقَاءِ، وَالْغُولِ
تَلَهَّبَ الْيَأْسُ إِذْ خَفَّتْ عَقَائِلُهَا   بَيْنَ الْأَسَاوِرِ مِنْهَا وَالْخَلَاخِيلِ
يُنْشِدْنَ مِنْ رَائِعَاتِ الْآيِ مُطْرِبَةٍ   يُزِدْنَهَا حُسْنَ تَرْدِيدٍ وَتَرْتِيلِ
يَهْتِفْنَ: مِصْرُ، وَمِصْرُ كُلُّ مُنْجِبَةٍ   وَمُنْجِبٍ مِنْ بَنِيهَا غَيْرُ مَفْضُولِ

وَالْقَصِيدَةُ طَوِيلَةٌ مُمْتَدَّةٌ، وَتَحْتَاجُ إِلَىٰ قِرَاءَةٍ مُسْتَأْنِيَةٍ، إِذْ لَا يُغْنِي اقْتِطَافُ بَعْضِ الْأَبْيَاتِ عَنْ وَصْفِهَا التَّامِّ فِي الْتِحَامِهَا الْمُتَمَاسِكِ.

وَمِنْ أَعْظَمِ قَصَائِدِ مُحَرَّمٍ التَّذْكَارِيَّةِ - إِنْ لَمْ تَكُنْ أَعْظَمَهَا - قَصِيدَتُهُ الْخَالِدَةُ الَّتِي قَالَهَا بِمُنَاسَبَةِ عِيدِ الْمَوْلِدِ النَّبَوِيِّ سَنَةَ ١٣٥٥هـ فَقَدْ نَظَمَهَا أَثْنَاءَ نِقَاشٍ شَرِسٍ يُنْكِرُ قِيمَةَ الشَّرِيعَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ، وَيَتَذَرَّعُ بِأَقْوَالٍ حَاقِدَةٍ لِغُلَاةٍ يَنْتَسِبُونَ إِلَىٰ الْبَحْثِ ظَاهِرًا، وَهُمْ عُمَلَاءُ لِلِاسْتِعْمَارِ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَرَىٰ مُحَمَّدًا صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ صَاحِبَ شَرِيعَةٍ زَمَنِيَّةٍ لَا شَرِيعَةٍ عَالَمِيَّةٍ لَا يَنْتَهِي دَوْرُهَا إِلَّا حِينَ يَرِثُ اللَّهُ الْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا، وَقَدْ أَرَادَ هَؤُلَاءِ، وَمِنْهُمُ الْمَأْجُورُونَ مِنْ رِجَالِ الْقَانُونِ، أَنْ يَتَحَدَّثُوا عَنِ الشَّرَائِعِ الْحَدِيثَةِ فِي كُتُبِهِمُ الْجَامِعِيَّةِ فَصَدَّرُوا حَدِيثَهُمْ بِشَيْءٍ عَنِ الشَّرَائِعِ الْقَدِيمَةِ، كَقَانُونِ حَمُورَابِي، وَالْعَهْدِ الْأَثِينِيِّ، وَالْقَانُونِ الرُّومَانِيِّ وَالشَّرِيعَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ، لِيَجْعَلُوا الشَّرِيعَةَ الْخَالِدَةَ تَارِيخًا مَضَىٰ، وَقَدْ تَنَبَّهَ لِذَلِكَ الْأَعْلَامُ فِي كُلِّيَّاتِ الْحُقُوقِ الْمِصْرِيَّةِ، فَرَدُّوا لِلشَّرِيعَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ اعْتِبَارَهَا الْحَقِيقِيَّ الَّذِي يُرِيدُ أَنْ يُشَوِّهَهُ هَؤُلَاءِ الْحَاقِدُونَ، وَأَعْلَنَ الدُّكْتُورُ عَبْدُ الرَّازِقِ السَّنْهُورِيُّ - رَحِمَهُ اللَّهُ - أَنَّ الشَّرِيعَةَ الْإِسْلَامِيَّةَ شَرِيعَةٌ خَالِدَةٌ، وَهِيَ أَوْفَىٰ الشَّرَائِعِ حَدِيثَةً وَقَدِيمَةً بِالْقِيَامِ بِحُقُوقِ الْإِنْسَانِ، وَلَمْ يَكُنْ حَدِيثُ السَّنْهُورِيِّ عَاطِفِيًّا، بَلْ كَانَ حَدِيثًا قَانُونِيًّا مُوَازِنًا مُقَارِنًا

حَتَّىٰ أَطْفَأَ فِتْنَةً مُرِيبَةً كَانَ أَصْحَابُهَا يُرِيدُونَ أَنْ يَتَسَلَّلُوا بِهَا إِلَىٰ عُقُولِ النَّاشِئَةِ فَخَابَ مَا يَأْفِكُونَ !.

فِي هَذِهِ الْفَتْرَةِ جَاءَ رَبِيعٌ الْأَوَّلُ مِنْ سَنَةِ ١٣٥٥هـ، فَانْبَرَىٰ أَحْمَدُ مُحَرَّمٍ لِيَصْدَعَ بِقَصِيدَةٍ حَارَّةِ النَّبْضِ قَوِيَّةِ التَّأْثِيرِ، بَدَأَهَا بِمَدْحِ الرَّسُولِ الْأَعْظَمِ ﷺ، فَقَالَ فِيهِ أَعْظَمَ مَا يُمْكِنُ أَنْ يَقُولَهُ شَاعِرٌ! تَحَدَّثَ عَنْ بَيَانِهِ الرَّائِعِ الَّذِي يَنْبِضُ كُلُّ بَيَانٍ مِنْ نُورِهِ، وَأَعْلَنَ أَنَّ النَّوَابِغَ جَمِيعًا يَدِينُونَ لِمَنْطِقِهِ، وَأَنَّ الشُّعَرَاءَ الَّذِينَ قَامُوا بِمَدِيحِهِ فِي عَصْرِهِ، وَغَيْرِ عَصْرِهِ مُنْبَهِرُونَ عَاجِزُونَ، لَا يَسْتَطِيعُونَ أَنْ يُؤَدُّوا رِسَالَتَهُمْ عَلَىٰ وَجْهِهَا، كُلُّ ذَلِكَ فِي مُقَدِّمَةٍ بَيَانِيَّةٍ رَائِعَةٍ يَجِبُ أَنْ تَكُونَ ذَائِعَةً يَسْتَظْهِرُهَا الطُّلَّابُ فِي مَعَاهِدِهِمُ الْمُخْتَلِفَةِ ! وَلِلَّهِ هَذَا الشَّاعِرُ الْمُؤْمِنُ حِينَ قَالَ(١):

مِنْ هَيْبَةٍ يُغْضِي الْبَيَانُ وَيُطْرِقُ ... وَيَمِيلُ فِيكَ إِلَىٰ السُّكُوتِ الْمَنْطِقُ
إِيذَنْ يَفِضْ هَذَا الْبَيَانُ فَإِنَّهُ ... مِمَّا يَفِيضُ بَيَانُكَ الْمُتَدَفِّقُ
مَا فِي النَّوَابِغِ مِنْ لَبِيبٍ حَاذِقٍ ... إِلَّا وَأَنْتَ أَلَبُّ مِنْهُ وَأَحْذَقُ
إِنْ يَلْبَسِ الشِّعْرُ الْجَمَالَ مُنَوِّرًا ... عَبِقًا فَأَنْتَ جَمَالُهُ وَالرَّوْنَقُ
وَالْقَوْلُ مُسْتَلَبُ الْمَحَاسِنِ عَاطِلٌ ... حَتَّىٰ يَقُولَ الْعَبْقَرِيُّ الْمُفْلِقُ
هِيَ مِدْحَتِي انْطَلَقَتْ إِلَيْكَ مَشُوقَةً ... وَالسُّبْلُ تَسْطَعُ وَالْمَنَازِلُ تَعْبَقُ
أَنْتَ الْمَجَالُ الرَّحْبُ تُعْتَصَرُ الْقُوَىٰ ... فِيهِ، وَتُمْتَحَنُ الْجِيَادُ السُّبَّقُ
حَسَّانُ مُنْبَهِرٌ وَكَعْبٌ عَاجِزٌ ... وَالشَّاعِرُ الْجَعْدِيُّ عَانٍ مُوثَقُ

(١) الدِّيوَان ج «١» ص ٧٨٨.

أَطْمَعْتَهُمْ فَتَجَاوَزُوا فِيكَ الْمَدَىٰ وَأَبَيْتَ فَانْقَلَبُوا، وَكُلٌّ مُخْفِقُ
لِي عُذْرُهُمْ مَا أَنْتَ مِنْ عِدَةِ الْمُنَىٰ إِلَّا وَرَاءَ مَخِيلَةٍ مَا تَصْدُقُ!

وَمَضَىٰ يَتَحَدَّثُ عَنْ أَعْبَاءِ الرِّسَالَةِ الَّتِي تَنْصَدِعُ الْقُوَىٰ فِي حَمْلِهَا، وَيُصَوِّرُ مَوْقِفَ قُرَيْشٍ الْمُتَعَالِي مِنْ صَاحِبِ الدَّعْوَةِ الْأَمِينِ لِأَنَّهُ فِي رَأْيِهِمْ:

لَا الْمَالُ يَنْصُرُهُ وَلَا هُوَ إِنْ دَعَا خَفَقَ اللِّوَاءُ لَهُ وَخَفَّ الْفَيْلَقُ

وَلَكِنَّ الْحَقَّ كَانَ أَقْوَىٰ مِنْ أَسْلِحَتِهِمْ جَمِيعِهَا، فَالظَّلَامُ حَائِرٌ يُطَارِدُهُ الضِّيَاءُ، وَالْوَحْيُ مُطَّرِدٌ، وَبَأْسُ مُحَمَّدٍ ﷺ جَارٍ إِلَىٰ غَايَاتِهِ لَا يُسْبَقُ، وَحَوَالَيْهِ مِنْ أَصْحَابِهِ مَنْ رُزِقُوا الْيَقِينَ، وَمُنِحُوا الْعِزَّةَ، فَلَا ذَلِيلٌ ضَارِعٌ وَلَا جَبَانٌ مُشْفِقٌ، حَتَّىٰ صَدَّعُوا بِنَاءَ الشِّرْكِ، وَرَفْرَفَتْ رَايَةُ الْإِسْلَامِ، أَمَّا الشَّرِيعَةُ الْخَالِدَةُ الَّتِي يَرْجُفُ بِهَا الْعُمَلَاءُ؛ فَهِيَ كَمَا قَالَ الشَّاعِرُ الْكَبِيرُ(١):

بُعِثَ الرَّسُولُ مُعَلِّمًا وَمُهَذِّبًا يَبْنِي الْحَيَاةَ جَدِيدَةً تَتَأَلَّقُ
يَتَخَيَّرُ الْأَخْلَاقَ يَنْظِمُ حُسْنَهَا فِي كُلِّ رُكْنٍ قَائِمٍ وَيُنَسِّقُ
عَفَتِ الرُّسُومُ وَأَخْفَقَتْ فَأَقَامَهَا شَمَّاءَ لَا تَعْفُو وَلَا هِيَ تَخْلَقُ
قُدْسِيَّةُ الْأَرْجَاءِ مَا بِرِحَابِهَا عَنَتٌ، وَلَا فِيهَا مَكَانٌ ضَيِّقُ
تَسَعُ الْمَمَالِكَ وَالشُّعُوبَ بِأَسْرِهَا وَتَفِيضُ خَيْرًا، مَا بَقِينَ وَمَا بَقُوا
عَرَفَتْ لِحَاجَاتِ الْعُصُورِ مَكَانَهَا فَلِكُلِّ عَصْرٍ سُؤْلُهُ وَالْمِرْفَقُ
مَنَعَتْ مَغَالِقُهَا الشُّرُورَ، وَمَا بِهَا لِلْخَيْرِ وَالْمَعْرُوفِ بَابٌ مُغْلَقُ
الْمُصْلِحُ الْأَعْلَىٰ أَتَمَّ نِظَامَهَا فَانْظُرْ أَيَنْقُضُهُ الْغَبِيُّ الْأَخْرَقُ؟!!

(١) الدّيوان ج (١) ص ٧٩١.

أَوْفَىٰ عَلَىٰ الدُّنْيَا وَمِلْءُ فِجَاجِهَا بَغْيٌ يُزَلْزِلُهَا، وَظُلْمٌ مُوبِقُ
يَدْعُو إِلَىٰ الْحُسْنَىٰ فَإِنْ جَمَحَ الْهَوَىٰ فَالسَّيْفُ مَسْنُونُ الْغِرَارِ مُذَلَّقُ
يَرْمِي الْعُرُوشَ فَمَا يَزَالُ يَهُزُّهَا ذُعْرٌ يَطُوفُ بِهَا، وَهَمٌّ مُقْلِقُ
وَإِذَا الْمَمَالِكُ مَا يُهَلِّلُ مَغْرِبٌ إِلَّا اسْتَجَابَ لَهُ وَكَبَّرَ مَشْرِقُ

وَإِذَا كَانَتِ الْأُمَمُ الْإِسْلَامِيَّةُ مُسْتَضْعَفَةً يَسْتَعْمِرُهَا الْمُحْتَلُّ، فَلَا بُدَّ أَن يَأْتَسِيَ أَبْنَاؤُهَا بِسِيرَةِ نَبِيِّهِمُ الْكَرِيمِ ﷺ، وَلَنْ يَبْلُغُوا النَّصْرَ إِلَّا بِقُوَّةٍ رَادِعَةٍ يُعِدُّ بِهَا الْمُسْلِمُونَ مَا يَسْتَطِيعُونَ مِنْ بَأْسٍ[1]،

إِنْ كُنْتَ ذَا حَقٍّ فَخُذْهُ بِقُوَّةٍ الْحَقُّ يَخْذُلُهُ الضَّعِيفُ فَيُزْهَقُ
لُغَةُ السُّيُوفِ تَحُلُّ كُلَّ قَضِيَّةٍ فَدَعِ الْكَلَامَ لِجَاهِلٍ يَتَشَدَّقُ
وَكُنِ اللَّبِيبَ فَلَيْسَ مِنْ كَلِمَاتِهَا شَرْعٌ يُدَاسُ وَلَا نِظَامٌ يُخْرَقُ
الْخَيْلُ وَالرُّمْحُ الْمُثَارُ حُرُوفُهَا وَالنَّارُ وَالدَّمُ وَالْبَلَاءُ الْمُطْبِقُ
فَتَّشْتُ مَا بَيْنَ السُّطُورِ فَلَمْ أَجِدْ أَنَّ الْأُسُودَ بِصَيْدِهَا تَتَصَدَّقُ

وَفِي سَنَةِ ١٩٣٧م لَاحَتْ نُذُرُ الْحَرْبِ الْعَالَمِيَّةِ عَلَىٰ وَجْهٍ يُؤْذِنُ بِالشَّرِّ الْمُسْتَطِيرِ، فَقَدْ أَنْشَأَتْ رُوسْيَا دُسْتُورًا جَدِيدًا يَجْمَعُ كُلَّ السُّلْطَاتِ فِي يَدِ «سْتَالِينْ»، وَيُبِيحُ لَهُ أَنْ يُعْلِنَ الْحَرْبَ دُونَ رُجُوعٍ إِلَىٰ الْحِزْبِ، وَاشْتَعَلَتِ الْحَرْبُ فِي الشَّرْقِ الْأَقْصَىٰ بَيْنَ الصِّينِ وَالْيَابَانِ، وَقَامَتِ الْحَرْبُ الْأَهْلِيَّةُ فِي أَسْبَانْيَا مُؤْذِنَةً بِالشَّرِّ؛ لِأَنَّ الدُّوَلَ الْأُورُبِّيَّةَ قَدِ انْقَسَمَتْ إِزَاءَهَا انْقِسَامًا مُعَارِضًا، حَيْثُ تُؤَيِّدُ كُلُّ دَوْلَةٍ فَرِيقًا مِنَ الْمُتَحَارِبِينَ، وَتَمُدُّهُ بِالذَّخَائِرِ لِتَزِيدَ النَّارَ

(١) الديوان ج «١» ص ٧٩٤.

اشْتِعَالًا ، أَمَّا إِيطَالْيَا فَقَدْ كَشَّرَتْ عَنْ نَابِهَا بَعْدَ أَنِ احْتَلَّتِ الْحَبَشَةَ وَأَخَذَتْ تَتَحَفَّزُ لِغَزْوٍ آخَرَ ، وَأَعْلَنَ « مُوسُولِينِي » أَنَّ الْإِمْبِرَاطُورِيَّةَ الرُّومَانِيَّةَ لَا بُدَّ أَنْ تَعُودَ ، وَسَتُحَارِبُ إِيطَالْيَا كُلَّ مَنْ يَقِفُ فِي طَرِيقِهَا ، وَدَعْكَ مِنْ أَلْمَانْيَا ، فَإِنَّ شِعَارَ « أَلْمَانْيَا فَوْقَ الْجَمِيعِ » جَعَلَ الشَّعْبَ الْأَلْمَانِيَّ يُسْحَرُ سِحْرًا مُنَوَّمًا بِخُطَبِ « هِتْلَرَ » ، وَيَرَىٰ أَنَّ عَظَمَةَ أَلْمَانْيَا لَا تَتَحَقَّقُ إِلَّا بِخَوْضِ حَرْبٍ تَنْدَحِرُ فِيهَا إِنْكِلْتِرَا وَفَرَنْسَا ، وَقَدْ أَعْلَنَتْ إِيطَالْيَا وَأَلْمَانْيَا أَنَّ لَهُمَا حُقُوقًا اسْتِعْمَارِيَّةً تُتِيحُ لَهُمَا أَنْ يَحْتَلَّا أَجْزَاءً مِنَ الْعَالَمِ ، كَمَا احْتَلَّتْ دُوَلُ الْحُلَفَاءِ أَمَاكِنَ اسْتِرَاتِيجِيَّةً هَامَّةً بَعْدَ الْحَرْبِ الْعَالَمِيَّةِ الْأُولَىٰ ، أَمَّا سِلَاحُ الْعُنْصُرِيَّةِ فَقَدِ اسْتُخْدِمَ عَلَىٰ أَبْشَعِ وَجْهٍ ؛ لِأَنَّهُ فِي أَلْمَانْيَا أَعْلَنَ تَفَوُّقَ الْجِنْسِ الْآرِيِّ ، وَدَعَا دَعْوَةً صَرِيحَةً إِلَىٰ احْتِلَالِ مَا سَمَّاهُ بِالشُّعُوبِ الْمُنْحَطَّةِ ، وَإِبَادَةِ الْعَاصِيَةِ لِلْإِذْعَانِ مِنْ هَٰذِهِ الشُّعُوبِ ، وَبِذَٰلِكَ أَصْبَحَتْ رَائِحَةُ الدَّمِ تَفُوحُ فِي صُحُفِ الْعَالَمِ وَإِذَاعَاتِهِ ، وَكَانَ « مُوسُولِينِي » أَقْوَىٰ الْأَصْوَاتِ الدَّاعِيَةِ إِلَىٰ انْتِهَاكِ حُقُوقِ الْأُمَمِ الضَّعِيفَةِ ، أَمَّا « هِتْلَرُ » فَصَاحِبُ أَقْوَىٰ الْأَصْوَاتِ فِي ضَرُورَةِ مُحَارَبَةِ إِنْكِلْتِرَا ؛ لِأَنَّهَا الَّتِي قَهَرَتْ أَلْمَانْيَا مِنْ قَبْلُ ، وَقَدْ فَازَتْ بِنَصِيبِ الْأَسَدِ فِيمَا ضَمَّتْهُ إِلَىٰ مُسْتَعْمَرَاتِهَا مِنَ الشُّعُوبِ ! هَكَذَا اضْطَرَبَ الْعَالَمُ فِي كُلِّ مَكَانٍ ، وَهَكَذَا تَلَاشَىٰ صَوْتُ السَّلَامِ ، وَأَصْبَحَ الدِّينُ إِسْلَامِيًّا وَمَسِيحِيًّا لَا يَأْبَهُ أَحَدٌ إِلَىٰ تَعَالِيمِهِ ، وَمُحَرَّمٌ يَعِي ذَٰلِكَ كُلَّهُ ، لِذَٰلِكَ اسْتَقْبَلَ الْعَامَ الْهِجْرِيَّ سَنَةَ ١٣٥٦هـ الْمُوَافِقَ سَنَةَ ١٩٣٧م بِقَصِيدَةٍ صَارِخَةٍ قَالَ فِي مَطْلَعِهَا مُخَاطِبًا هِلَالَ الْمُحَرَّمِ(١):

أَقْبِلْ عَلَيْكَ مِنَ الشُّعُوبِ سَلَامُ   فَزِعَ الصَّلِيبُ إِلَيْكَ وَالْإِسْلَامُ

(١) الدِّيوَان ج «١» ص ٨١٩.

عِيسَىٰ يُنَاجِي فِيكَ سَيْفَ مُحَمَّدٍ وَالدَّمْعُ سَيْلٌ وَالْهُمُومُ رُكَامُ
الْأَرْضُ وَلْهَىٰ، وَالْمَمَالِكُ رُجَّفٌ وَالنَّاسُ حَرْبٌ، وَالزَّمَانُ خِصَامُ
دُنْيَا تَمُوجُ بِهَا الشُّرُورُ وَعَالَمٌ تَطْغَىٰ عَلَىٰ جَنَبَاتِهِ الْآثَامُ
أَقْبِلْ كَعَهْدِكَ مُوقِظًا وَمُنَبِّهًا إِنَّ الْبَصَائِرَ وَالْعُقُولَ نِيَامُ
وَانْشُرْ كِتَابَكَ هَادِيًا وَمُهَذِّبًا فَالنَّاسُ ضُلَّالٌ وَأَنْتَ إِمَامُ
هَذَا كِتَابٌ لِلْحَيَاةِ مُفَصَّلٌ وَضَحَتْ بِهِ الْآيَاتُ وَالْأَحْكَامُ
يَا مُنْقِذَ الضُّعَفَاءِ مِنْ آلَامِهِمْ أُمَمُ الْبَسِيطَةِ كُلُّهَا آلَامُ
هَاتِ الرِّسَالَةَ مِنْ يَمِينِ مُحَمَّدٍ إِنَّا نَسِينَا الدِّينَ كَيْفَ يُقَامُ
وَإِذَا الْحَيَاةُ تَنَكَّرَتْ أَعْلَامُهَا فَالدِّينُ دُسْتُورٌ لَهَا وَنِظَامُ
إِنَّا جَهِلْنَاهَا وَعِنْدَكَ عِلْمُهَا وَالْجَهْلُ دَاءٌ لِلشُّعُوبِ عُقَامُ
زَاغَتْ بَصَائِرُنَا فَأَصْبَحَ أَمْرُنَا بِيَدِ الْأُلَىٰ، نَامَ الْحُمَاةُ وَقَامُوا
نَمْضِي عَلَىٰ هُونٍ بِكُلِّ مُضِلَّةٍ حَتَّىٰ كَأَنَّا فِي الْبَلَاءِ سَوَامُ
لَا الْجَاهِلِيَّةُ إِذْ تَقَادَمَ عَهْدُهَا دَرَسَتْ مَعَالِمُهَا وَلَا الْأَصْنَامُ

وَكَانَتْ طَبِيعَةُ الْمَوْضُوعِ تَقْضِي بِأَنْ يَتَحَدَّثَ الشَّاعِرُ عَنْ هِجْرَةِ الرَّسُولِ ﷺ إِلَى الْمَدِينَةِ، وَنَشْرِ الْإِسْلَامِ بِهَا بَعِيدًا عَنْ طَوَاغِيتِ قُرَيْشٍ، وَهُوَ عُنْصُرٌ تَكَرَّرَ فِي قَصَائِدِ الْهِجْرَةِ، وَهُوَ مِمَّا لَيْسَ مِنْهُ بُدٌّ مَهْمَا تَكَرَّرَ، ثُمَّ اتَّجَهَ الشَّاعِرُ يُنَاجِي الْهِلَالَ، فَيَقُولُ لَهُ: إِنَّكَ آمَالُ الْمُسْلِمِينَ، وَبِهِمْ إِلَيْكَ شَوْقٌ مُبَرِّحٌ(1)..

---

(1) الدّيوان ج 1، ص 822.

هُمْ فِي الْمَنَابِرِ أَلْسُنٌ وَجَوَانِحُ وَعَلَى الْمَآذِنِ أَعْيُنٌ أَوْهَامُ
نَظَرُوكَ فَازْدَلَفُوا تُهِلُّ شُعُوبُهُمْ فَلِكُلِّ شَعْبٍ ضَجَّةٌ وَزِحَامُ
أَوَ مَا لَمَسْتَ صُدُورَهُمْ فَعَرَفْتَهَا وَمِنَ التَّرَائِبِ وَالصُّدُورِ ضِرَامُ ؟!

وَقَدْ كَانَ صَدَىٰ هَذِهِ الْقَصِيدَةِ رَنَّانًا حِينَ أُلْقِيَتْ بِجَمْعِيَّةِ الشُّبَّانِ الْمُسْلِمِينَ، فَتَدَاوَلَتْهَا الصُّحُفُ وَالْمَجَلَّاتُ، وَنُشِرَتْ بِمَجَلَّةِ الْفَتْحِ وَمَجَلَّةِ الْهِدَايَةِ وَمَجَلَّةِ الْأَزْهَرِ، وَقَالَ الْأُسْتَاذُ مُحَمَّدٌ فَرِيدٌ وَجْدِي فِي تَقْدِيمِهَا بَعْدَ الثَّنَاءِ عَلَىٰ الشَّاعِرِ الْكَبِيرِ[1]: «قَدْ حَوَتْ مِنْ عِبَرِ التَّارِيخِ فِي مَعْرِضٍ مِنْ بَدِيعِ الْقَرِيضِ، مَا لَا يُتَاحُ إِلَّا لِأَلْمَعِيٍّ مِثْلِهِ مِنْ أَعْلَامِ الْأَدَبِ، أَثَابَهُ اللَّهُ».

لَمْ تَهْدَأْ زَفْرَةُ مُحَرَّمٍ بَعْدَ أَنْ أَنْشَأَ هَذِهِ الْقَصِيدَةَ الصَّارِخَةَ؛ لِأَنَّهُ رَأَىٰ نُذُرَ الْحَرْبِ تَلُوحُ فِيمَا يَأْتِي مِنْ أَنْبَاءِ أُورُبَّا إِلَىٰ الشَّرْقِ، وَقَدْ عَاصَرَ الْحَرْبَ الْعَالَمِيَّةَ الْأُولَىٰ وَأَدْرَكَ كَمْ حَصَدَتْ مِنْ مَلَايِينَ الْأَبْرِيَاءِ، لِهَوَسٍ قَامَ فِي رُءُوسِ الْكِبَارِ مِنْ قَادَةِ الْغَرْبِ، كَمَا رَاعَهُ أَنْ يَأْتِيَ مِنَ الْفَلَاسِفَةِ مَنْ يُعْلِنُ أَنَّ الْحَرْبَ ضَرُورَةٌ لَا بُدَّ مِنْهَا، وَأَنَّ مَبْدَأَ تَنَازُعِ الْبَقَاءِ مَبْدَأٌ مُسَلَّمٌ بِهِ لِبَقَاءِ الْأَصْلَحِ، وَهُوَ كَلَامٌ نَظَرِيٌّ لَا أَسَاسَ لَهُ؛ لِأَنَّ تَنَازُعَ الْبَقَاءِ يَنْتَهِي فِي رَأْيِ الْقَائِلِينَ بِهِ إِلَىٰ بَقَاءِ الْأَصْلَحِ وَفَنَاءِ الضَّعِيفِ، وَلَكِنَّ الْحَرْبَ تَأْكُلُ أَوَّلَ مَا تَأْكُلُ الشَّبَابَ وَذَوِي الْقُوَّةِ، وَإِذَا أَبْقَتْ فَلَنْ تُبْقِيَ فِي الْغَالِبِ غَيْرَ الْعَجَزَةِ مِنَ الشُّيُوخِ وَالنِّسَاءِ وَالْأَطْفَالِ، فَكَيْفَ تَكُونُ الْحَرْبُ ضَرُورَةً يُؤَكِّدُهَا مَا يُقَالُ عَنْ تَنَازُعِ الْبَقَاءِ، وَدَوَامِ الْأَصْلَحِ، وَاسْتِئْصَالِ الضَّعِيفِ؟!! وَقَدْ قَالُوا: إِنَّ الْإِنْسَانَ حَيَوَانٌ مُحَارِبٌ، مَعَ أَنَّ الْحَيَوَانَ لَا يَعْرِفُ الْحَرْبَ

(١) مجلة الأزهر «محرم» سنة ١٣٥٦هـ.

إِطْلَاقًا ، وَلَا يُقَاتِلُ إِلَّا إِذَا جَاعَ وَأَرَادَ الطَّعَامَ ، فَإِذَا شَبِعَ فَلَنْ يَتَّجِهَ إِلَىٰ الْقِتَالِ ، فَكَيْفَ يُرْمَىٰ الْحَيَوَانُ بِحُبِّ الْحَرْبِ وَهُوَ مِنْهَا بَرِيءٌ ؟!!.

هَذِهِ الْآرَاءُ يَقْرَؤُهَا مُحَرَّمٌ فَتَزِيدُهُ غَضَبًا ؛ لِأَنَّهَا تُنَافِي مَا شَرَعَهُ الْإِسْلَامُ مِنْ حُرِّيَّةٍ وَمُسَاوَاةٍ وَإِخَاءٍ ، لِذَلِكَ لَمْ يَكَدْ يَمُرُّ شَهْرَانِ وَعَشْرَةُ أَيَّامٍ وَجَاءَ مَوْسِمُ الْمَوْلِدِ النَّبَوِيِّ الْكَرِيمِ ؛ حَتَّىٰ أَعَادَ الشَّاعِرُ ثَوْرَتَهُ الْغَاضِبَةَ فِي قَصِيدَةٍ رَنَّانَةٍ تَوَجَّهَ بِهَا إِلَىٰ مُخَاطَبَةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَائِلًا(١):

الْكَوْنُ أَشْرَقَ نَضْرَةً وَنَعِيمَا   هَذَا مَكَانُكَ فَاتَّخِذْهُ كَرِيمَا
حَنَّ الزَّمَانُ إِلَيْكَ حَتَّىٰ جِئْتَهُ   فَطَوَىٰ الْحَنِينَ وَرَدَّدَ التَّسْلِيمَا

وَالْبَيْتُ الثَّانِي رَائِعٌ رَائِعٌ ؛ لِأَنَّهُ يُصَوِّرُ اشْتِيَاقَ الزَّمَانِ إِلَىٰ الْمُصْلِحِ الْعَظِيمِ قَبْلَ أَنْ يَجِيءَ ، فَلَمَّا سَعِدَتِ الدُّنْيَا بِمَقْدِمِهِ ، انْتَقَلَ الْحَنِينُ الْآمِلُ إِلَىٰ تَسْلِيمِ الْمُرَحِّبِ الْمُبْتَهِلِ ، وَمَا كَانَ هَذَا الْحَنِينُ مِنْ قَبْلُ ، وَمَا كَانَ هَذَا التَّرْحِيبُ مِنْ بَعْدُ ، إِلَّا لِأَنَّ الْقَادِمَ الْعَزِيزَ سَيُنْقِذُ الْإِنْسَانِيَّةَ مِنْ مَهَاوِيهَا السَّحِيقَةِ ، وَإِذَا كَانَ قَدْ أَنْقَذَهَا فِعْلًا يَوْمَ أَخْرَجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَىٰ النُّورِ ، فَذِكْرَىٰ مِيلَادِهِ الْكَرِيمِ ﷺ سَتُعِيدُ تَارِيخَ حَيَاتِهِ لِلنَّاسِ بِعَامَّةٍ ، وَلِلْمُسْلِمِينَ بِخَاصَّةٍ ، وَهِيَ حَيَاةٌ تَدْفَعُ إِلَىٰ الْأَمَلِ ، وَتَرُدُّ الْبُغَاةَ مِنْ زُعَمَاءِ الدُّوَلِ الْمَرِيضَةِ إِلَىٰ الصَّوَابِ ، لَوْ عَقِلُوا أَنَّ نَبِيَّ السَّلَامِ ﷺ يَدْعُو لِلْوِئَامِ ، وَهَذَا مَا عَبَّرَ عَنْهُ الْأُسْتَاذُ أَحْمَدُ مُحَرَّم حِينَ قَالَ لِلرَّسُولِ الْكَرِيمِ ﷺ(٢):

أَنْتَ الْمُؤَمَّلُ لِلشُّعُوبِ، وَهَذِهِ   دُنْيَاكَ لَا تَبْغِي سِوَاكَ زَعِيمَا

---

(١) الدّيوان ج ٤١، ص ٨٣٢.
(٢) السّابق.

خُذْهَا مِنَ الْقَوْمِ الْأُلَى هَتَفُوا بِهَا   وَاشْرَعْ لَهُمْ نَهْجَ الْحَيَاةِ قَوِيمًا
دَاوِ السَّقَامَ فَقَدْ تَفَاقَمَ وَانْثَنَىٰ   طِبُّ الْأُلَىٰ سَبَقُوكَ عَنْهُ سَقِيمًا
عِلْمُ الْحَضَارَةِ كَانَ قَبْلَكَ خَافِيًا   فَأَتَيْتَ تُظْهِرُ سِرَّهُ الْمَكْتُومَا
وَالْحَقُّ مَا عَرَفَ الدُّعَاةُ سَبِيلَهُ   حَتَّىٰ أَقَمْتَ بِنَاءَهُ الْمَهْدُومَا
بَلِّغْ رِسَالَةَ مَنْ أَقَامَكَ هَادِيًا   وَحَبَاكَ فَضْلًا مِنْ لَدُنْهُ عَظِيمًا

وَهُنَا اسْتَرْسَلَ الشَّاعِرُ فِي سَرْدِ شُذُورٍ مِنْ تَارِيخِ الْبُقْعَةِ الْمُحَمَّدِيَّةِ حِينَ رَجَفَتْ قُلُوبُ الشِّرْكِ لِدَعْوَةِ مُحَمَّدٍ ﷺ، وَقَامَ الْمُتَكَبِّرُونَ بِتَعْذِيبِ الْمُسْتَضْعَفِينَ، وَقَدْ تَوَقَّعُوا أَنْ يَكُونَ مُحَمَّدٌ ﷺ غَاشِمًا مُنْتَقِمًا، وَلَكِنَّهُمْ كَمَا قَالَ مُحَرَّمٌ(١):

وَجَدُوهُ سَمْحًا لَا يَضِيقُ بِمُذْنِبٍ   وَرَأَوْهُ مَوْفُورَ الْأَنَاةِ حَلِيمَا
يَدْعُو لَهُمْ: رَبِّ اهْدِ قَوْمِي إِنَّهُمْ   لَا يَعْلَمُونَ، وَكُنْتَ أَنْتَ عَلِيمًا
إِنِّي رَسُولُكَ لَنْ أَمَلَّ جِهَادَهُمْ   أَوْ يَعْبُدُوكَ، وَلَنْ أَكُونَ سَئُومًا

وَلِمُحَرَّمٍ تَسَلْسُلٌ عَذْبٌ حِينَ يُتَابِعُ أَحْدَاثَ السِّيرَةِ، أَوِ الْهَادِفَ الْمُوحِيَ مِنْهَا؛ فَيَعْرِضُهُ عَلَى الْقُرَّاءِ وَقَدْ عَلِمُوهُ مِنْ قَبْلُ، وَلَكِنَّهُمْ يَتَأَثَّرُونَ بِلُطْفِ الْإِيمَاءِ، وَدِقَّةِ الْإِيحَاءِ، وَرِقَّةِ الِاسْتِشْفَافِ، حَتَّى إِذَا قَضَى الشَّاعِرُ وَطَرًا مِنَ الْحَدِيثِ عَنِ الْمَاضِي الزَّاهِرِ؛ انْتَقَلَ إِلَى الْحَدِيثِ عَنِ الْحَاضِرِ الْأَلِيمِ، فَصَاحَ يَقُولُ شَاكِيًا(٢):

يَا مَوْلِدَ الْمُخْتَارِ أَنْتَ بَعَثْتَهَا   ذِكْرَىٰ تُسَاجِلُ دَمْعِيَ الْمَسْجُومَا

(١) الدِّيوَان ج ١، ص ٨٣٤ وَمَا بعدهَا.   (٢) السَّابق.

أَبْكِي عَلَىٰ الْإِسْلَامِ يَذْهَبُ عِزُّهُ   وَيَبِيتُ مَطْوِيَّ الْجَنَاحِ مَضِيمًا
نَهَضَتْ شُعُوبُ الْأَرْضِ تَرْفَعُ مَجْدَهَا   وَأَرَىٰ شُعُوبَ الْمُسْلِمِينَ جُثُومًا
لَزِمُوا تُخُومَ بُيُوتِهِمْ، وَغُزَاتُهُمْ   لَا يَرْتَضُونَ سِوَىٰ النُّجُومِ تُخُومًا
قَوْمٌ هُمُ اتَّخَذُوا بِكُلِّ مَحَلَّةٍ   كَهْفًا يَضُمُّ نِيَامَهُمْ وَرَقِيمًا
أَوَ كُلَّمَا جَذَبَ الْمَقَادَةَ مُصْعَبٌ   فِي الشَّرْقِ غُودِرَ أَنْفُهُ مَخْزُومًا ؟!
لَا هُمَّ جَنِّبْنَا الْمَجَاهِلَ وَاهْدِنَا   هَذَا السَّبِيلَ الْمُعْلَمَ الْمَوْسُومَا

وَكَانَ مَا خَافَ مُحَرَّمٌ أَنْ يَكُونَ ، فَانْدَلَعَتِ الْحَرْبُ الْعَالَمِيَّةُ ، وَاسْتَطَارَ لَهِيبُهَا فِي كُلِّ مَكَانٍ ، فِي الْأُمَمِ الْمُسَالِمَةِ قَبْلَ الْأُمَمِ الْمُحَارِبَةِ ، وَتَعَرَّضَتْ مُدُنُ مِصْرَ إِلَىٰ الْغَارَاتِ الْجَوِّيَّةِ الْمُتَتَالِيَةِ ، وَفَزِعَ الْمُهَاجِرُونَ إِلَىٰ الرِّيفِ النَّائِي فِرَارًا مِنَ الْمَوْتِ الْمُحَقَّقِ ، وَمُحَرَّمٌ دَائِمُ التَّفْكِيرِ فِي الْأُمَمِ الْمَغْلُوبَةِ عَلَىٰ أَمْرِهَا وَفِي مُقَدِّمَتِهَا الْأُمَمُ الْمُسْلِمَةُ الْمُسْتَضْعَفَةُ ، لِمَاذَا اسْتَكَانُوا هَذِهِ الِاسْتِكَانَةَ ؟ لِمَاذَا تَحَكَّمَ فِيهِمُ الْعَدُوُّ ؟ إِنَّ الْمُسْتَعْمِرَ الطَّاغِيَ يَزْعُمُ أَنَّ دِينَهُمْ سَبَبَ التَّخَلُّفَ ، فَهَلْ لَزِمَ الْمُسْلِمُونَ تَعَالِيمَ دِينِهِمْ ؟ أَمْ أَنَّهُمْ هَجَرُوا هَذِهِ التَّعَالِيمَ ؟ وَإِذَا كَانَ الْأَمْرُ كَذَلِكَ ، فَأَيُّ جَرِيرَةٍ لِلدِّينِ ؟ وَلِمَاذَا لَا يَرْجِعُ الْمُسْلِمُونَ ثَانِيَةً إِلَيْهِ ، وَعِنْدَهُمْ كِتَابُ اللَّهِ يَهْدِيهِمُ الصِّرَاطَ الْقَوِيمَ ! إِنَّ ذِكْرَىٰ الْمِيلَادِ النَّبَوِيِّ لَتَصْرُخُ فِي آذَانِ النَّائِمِينَ لِيَسْتَيْقِظُوا ، وَهِيَ ذِكْرَىٰ تَأْتِي كُلَّ عَامٍ مَرَّةً وَاحِدَةً ، وَيَا لَيْتَ أَنَّهَا تَتَجَدَّدُ فِي كُلِّ يَوْمٍ ، لِأَنَّ الطُّغَاةَ الَّذِينَ حَارَبَهُمْ مُحَمَّدٌ صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْ أَمْثَالِ أَبِي لَهَبٍ وَأَبِي جَهْلٍ ؛ لَا يَزَالُونَ مَعَنَا الْآنَ يَتَسَمَّوْنَ بِأَسْمَاءِ « هِتْلَرْ » وَ« مُوسُولِينِي » وَ« سْتَالِينْ »

وَ« تْشِرْشِلْ » ! وَيَجِبُ أَنْ يَلْقَىٰ هَؤُلَاءِ مِنَ الْجَزَاءِ الرَّادِعِ مَا لَقِيَهُ أَشْبَاهُهُمْ مِنْ قَبْلُ ، هَذِهِ الْخَوَاطِرُ الإِسْلَامِيَّةُ الْبَدِيعَةُ تَرْجَمَهَا مُحَرَّمٌ شِعْرًا عَذْبًا سَلِسًا ، حِينَ قَالَ فِي إِحْدَىٰ ذِكْرَيَاتِ الْمَوْلِدِ النَّبَوِيِّ الْكَرِيمِ(١):

لَا الْيَوْمُ يَوْمُكَ إِذْ وُلِدْتَ وَلَا الْغَدُ ... يَا لَيْتَ أَنَّكَ كُلَّ يَوْمٍ تُولَدُ
عَادَ الظَّلَامُ كَمَا عَهِدْتَ وَهَذِهِ ... دُنْيَا الْجَهَالَةِ وَالْأَذَىٰ تَتَجَدَّدُ
مَا ذَاقَ مَهْلِكَهُ أَبُو جَهْلٍ وَلَا ... أَوْدَىٰ أَبُو لَهَبٍ ، وَرَبُّكَ يَشْهَدُ
فِي كُلِّ أَرْضٍ مِنْهُمَا مُتَجَبِّرٌ ... يَأْبَىٰ الرَّشَادَ ، وَظَالِمٌ يَتَمَرَّدُ
وَعِبَادَةُ الْأَصْنَامِ قَامَ دُعَاتُهَا ... مِلْءَ الْمَمَالِكِ ، مَا عَلَىٰ يَدِهِمْ يَدُ
فَلِكُلِّ قَوْمٍ مِنْ سَفَاهَةِ رَأْيِهِمْ ... رَبٌّ يُعَظَّمُ ، أَوْ إِلَٰهٌ يُعْبَدُ
قُمْ يَا مُحَمَّدُ مَا لِحَقِّكَ نَاصِرٌ ... حَتَّىٰ تَقُومَ ، وَمَا لِدِينِكَ مُنْجِدُ
قُمْ فِي جُنُودِكَ غَازِيًا وَافْتَحْ بِهِمْ ... دُنْيَا الْجُمُودِ لِأُمَّةٍ لَا تَجْحَدُ
جَدِّدْ لَنَا أَيَّام بَدْرٍ إِنَّهَا ... أَيَّامُنَا اللَّاتِي نُحِبُّ وَنَحْمَدُ
حَفِظَتْ عَلَىٰ الْإِسْلَامِ يَانِعَ غَرْسِهِ ... وَالْجَاهِلِيَّةُ بِالْقَوَاضِبِ تُحْصَدُ
قُمْ يَا رَسُولَ اللَّهِ وَانْظُرْ هَلْ تَرَىٰ ... إِلَّا شُعُوبًا غَابَ عَنْهَا الْمُرْشِدُ ؟
نَامَتْ سُيُوفُكَ بَعْدَ طُولِ سُهَادِهَا ... فَاسْتَيْقَظَ الْغَاوِي ، وَهَبَّ الْمُفْسِدُ
أَسَفِي عَلَىٰ الْإِسْلَامِ هَانَ عَرِينُهُ ... وَعَدَا عَلَيْهِ الْفَاتِكُ الْمُسْتَأْسِدُ
إِنَّ الَّذِي جَمَعَتْ سُيُوفُ مُحَمَّدٍ ... أَمْسَىٰ بِأَيْدِي الْمُسْلِمِينَ يُبَدَّدُ

(١) الدّيوَان ج «١» ص ٩٢٧.

مَا أَوْجَعَ الذِّكْرَىٰ، وَيَا لَكِ لَوْعَةٍ فِي قَلْبِ كُلِّ مُوَحِّدِ تَتَوَقَّدُ
السُّبُلُ خَافِيَةُ الْمَعَالِمِ وَالْهُدَىٰ قَوْلٌ يُقَالُ، وَمَطْلَبٌ لَا يُوجَدُ
ذَهَبَ الزَّمَانُ فَمَنْ لَنَا بِبَقِيَّةٍ مِنْهُ تُحَلُّ بِهَا الْأُمُورُ وَتُعْقَدُ
مَنْ كَانَ يَسْأَلُ فِي الشَّدَائِدِ مَنْ لَنَا؟ فَاللَّهُ جَلَّ جَلَالُهُ وَمُحَمَّدُ

وَقَدْ أُسِّسَتْ فِي مِصْرَ أَثْنَاءَ الْحَرْبِ الْعَالَمِيَّةِ جَمَاعَةُ إِحْيَاءِ مَجْدِ الْإِسْلَامِ، وَرَأَتْ أَنْ تَبْدَأَ احْتِفَالَاتِهَا بِإِحْيَاءِ ذِكْرَىٰ بَدْرِ الْكُبْرَىٰ فِي السَّابِعَ عَشَرَ مِنْ رَمَضَانَ كَمَا رَأَتْ أَنْ يَكُونَ الشَّاعِرُ الْإِسْلَامِيُّ الْكَبِيرُ أَحْمَدُ مُحَرَّم شَاعِرَ الْحَفْلِ، وَقَدْ فَكَّرَ الشَّاعِرُ فِيمَا سَيَقُولُهُ، أَيُعِيدُ أَحْدَاثَ الْغَزْوَةِ الْكُبْرَىٰ؟ إِنَّ لِلْحَدِيثِ عَنْهَا مَوْضِعًا فِي الْإِلْيَاذَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ الَّتِي تُسَطِّرُ مَجْدَ الْإِسْلَامِ، وَقَدْ أَفَاضَ فِي وَصْفِ مَشَاهِدِ بَدْرٍ هُنَاكَ بِمَا لَا مَزِيدَ عَلَيْهِ!.

وَأَكْثَرُ السَّامِعِينَ هُمْ مِنَ الصَّفْوَةِ الَّذِينَ أَلَمُّوا بِأَحْدَاثِ السِّيرَةِ جَمِيعِهَا، وَمِنْ أَبْرَزِ أَحْدَاثِهَا غَزْوَةُ بَدْرٍ، لِذَلِكَ رَأَىٰ مُحَرَّمٌ أَنْ يُعْرِضَ عَنِ الْجَانِبِ التَّارِيخِيِّ الْمَعْرُوفِ، وَأَنْ يَسْتَلْهِمَ هَذِهِ الْغَزْوَةَ الرَّائِدَةَ اسْتِلْهَامًا دَافِعًا إِلَىٰ الْيَقَظَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ فِي جَمِيعِ شُعُوبِ الشَّرْقِ، فَوَاجَهَ السَّامِعِينَ بِقَوْلِهِ الصَّرِيحِ(1):

مَاذَا تُرِيدُونَ مِنْ ذِكْرَىٰ أَوَائِلِكُمْ أَكُلُّ مَا عِنْدَكُمْ أَنْ تُحْشَدَ الْكَلِمُ؟
لَسْنَا بِأَبْنَائِهِمْ إِنْ كَانَ مَا رَفَعُوا مِنْ بَاذِخِ الْمَجْدِ يُمْسِي وَهُوَ مُنْهَدِمُ
إِنْ تَذْكُرُوا يَوْمَ بَدْرٍ فَهْوَ يَذْكُرُكُمْ وَالْحُزْنُ أَيْسَرُ مَا يَلْقَاهُ وَالْأَلَمُ

(1) الدّيوان ج ١، ص ٨٨٣.

سَنَّ السَّبِيلَ لَكُمْ مَجْدًا وَمَأْثُرَةً فَلَا يَدٌ نَشِطَتْ مِنْكُمْ وَلَا قَدَمُ
غَازٍ يَصُولُ بِجُنْدٍ مِنْ وَسَاوِسِهِ وَقَائِدٌ، مَا لَهُ سَيْفٌ وَلَا عَلَمُ

وَهُوَ تَقْرِيعُ الْمَحْزُونِ الْبَاكِي، إِذْ يَرَى الْأَمْرَ مَقْصُورًا عَلَى الِاحْتِفَالِ وَإِلْقَاءِ الْكَلِمَاتِ! مَعَ أَنَّ صَاحِبَ الِاحْتِفَالِ الْأَعْظَمِ قَدْ سَنَّ السَّبِيلَ لِلْجِهَادِ، فَلَا يَدٌ نَشِطَتْ لِلْجُلَّى، وَلَا قَدَمٌ سَعَتْ لِإِعْدَادِ الْعَتَادِ!!.

وَلِمَاذَا نُجَاهِدُ؟ نُجَاهِدُ لِنُصْرَةِ دِينٍ يَحْمِي الْحُقُوقَ، وَيُؤَمِّنُ الضُّعَفَاءَ، وَقَدْ سَنَّ دُسْتُورًا مَكِينًا لِصَلَاحِ الْكَوْنِ، فَأَعْرَضَ عَنْهُ الْبُلَهَاءُ، وَهُوَ بَعْدُ دِينُ الْجِهَادِ، إِذَا حَزَبَ الْأَمْرُ، وَسَادَ الضَّلَالُ، وَتَعَذَّرَ الرُّجُوعُ إِلَى الْحَقِّ.. كُلُّ ذَلِكَ عَنَاهُ مُحَرَّمٌ حِينَ هَتَفَ(1):

الدِّينُ دِينُ الْهُدَى تَبْدُو شَرَائِعُهُ بِيضًا تَكَشَّفُ عَنْ أَنْوَارِهَا الظُّلَمُ
يُحْيِي النُّفُوسَ إِذَا مَاتَتْ وَيَرْفَعُهَا إِذَا تَرَدَّتْ بِهَا الْأَخْلَاقُ وَالشِّيَمُ
لَا شَيْءَ أَعْظَمُ خِزْيًا، أَوْ أَشَدُّ أَذًى مِنْ أَنْ يُطَاعَ الْهَوَى أَوْ يُعْبَدَ الصَّنَمُ
دِينٌ تُصَانُ حُقُوقُ الْعَالَمِينَ بِهِ وَيَسْتَوِي عِنْدَهُ السَّادَاتُ وَالْخَدَمُ
ضَلَّ الْأُلَى تَرَكُوا دُسْتُورَهُ سَفَهًا فَلَا الدَّسَاتِيرُ أَغْنَتْهُمْ وَلَا النُّظُمُ

وَمِنْ هَذَا الْمُنْطَلَقِ، مُنْطَلَقِ الدَّعْوَةِ إِلَى الْجِهَادِ، اقْتِدَاءً بِكِفَاحِ الرَّسُولِ ﷺ فِي غَزْوَةِ بَدْرٍ، مَضَى الشَّاعِرُ يُصَوِّرُ مَيْدَانَ الْمَعْرَكَةِ، وَيَصِفُ حَمَاسَةَ الْمُجَاهِدِينَ، وَمَا يَغْلِي فِي نُفُوسِهِمْ مِنَ الْحَمِيَّةِ الْمُشْتَعِلَةِ، وَالْبَأْسِ الْمَحْتُومِ، وَكَانَ قَوِيَّ الِالْتِفَاتِ إِلَى مَوَاقِفِ الْخَشْيَةِ وَالضَّرَاعَةِ، وَالِالْتِجَاءِ

(1) الدِّيوَان ج 1، ص ٨٨٥ وَمَا بعدهَا.

إِلَى السَّمَاءِ فِي سَاعَةِ الْهَوْلِ، فَصَوَّرَ مَجْلِسَ الرَّسُولِ ﷺ دَاعِيًا فِي خَيْمَتِهِ، وَأَبُو بَكْرٍ قَائِمٌ بِسَيْفِهِ دُونَهُ؛ فَقَالَ(١):

مَاذَا يَظُنُّ أَبُو بَكْرٍ بِصَاحِبِهِ إِنَّ الرَّسُولَ حِمًى لِلْجَيْشِ أَوْ حَرَمُ
دَعَا فَمَاجَتْ سَمَاءُ اللَّهِ وَانْطَلَقَتْ كَتَائِبُ النَّصْرِ مِلْءَ الْجَوِّ تَنْتَظِمُ
لَا هُمَّ عَوْنَكَ إِنَّ الْحَقَّ مَطْلَبُنَا وَأَنْتَ أَعْلَمُ بِالْقَوْمِ الْأُلَى ظَلَمُوا
تِلْكَ الْعِصَابَةُ مَا لِلَّهِ إِنْ هَلَكَتْ فِي الْأَرْضِ مِنْ عَابِدٍ لِلْحَقِّ مُلْتَزِمُ

ثُمَّ حَقَّقَ اللَّهُ الرَّجَاءَ، وَاسْتُجِيبَ الدُّعَاءُ!.

وَفِي مُنَاسَبَةٍ أُخْرَى دُعِيَ الشَّاعِرُ الْكَبِيرُ مِنْ جَمْعِيَّةِ الشُّبَّانِ الْمُسْلِمِينَ بِالْقَاهِرَةِ، لِيُشَارِكَ فِي احْتِفَالِهَا بِذِكْرَى غَزْوَةِ بَدْرٍ، فَأَلْقَى مُحَرَّمٌ قَصِيدَةً رَائِعَةً قَدَّمَتْهَا جَرِيدَةُ الصِّدْقِ بِدِيبَاجَةٍ صَادِقَةٍ فَقَالَتْ عَنْهَا:

«احْتَفَلَتِ الْجَمْعِيَّاتُ الْإِسْلَامِيَّةُ فِي مِصْرَ فِي مَسَاءِ السَّادِسَ عَشَرَ مِنْ شَهْرِ رَمَضَانَ الْمُعَظَّمِ بِذِكْرَى غَزْوَةِ بَدْرٍ الْكُبْرَى، وَقَدِ اتَّجَهَ الْمَرْكَزُ الْعَامُّ لِلشُّبَّانِ الْمُسْلِمِينَ إِلَى شَاعِرِ الْعُرُوبَةِ وَالْإِسْلَامِ الْأُسْتَاذِ أَحْمَدَ مُحَرَّم لِيُشَارِكَهُ بِقَصِيدَةٍ مِنْ شِعْرِهِ الْخَالِدِ، فَلَمْ يَرَ بُدًّا مِنَ الْقِيَامِ بِنَصِيبِهِ فِيهِ، وَهُوَ النَّصِيبُ الْأَكْبَرُ، عَلَى الرَّغْمِ مِنْ أَنَّهُ اسْتَوْفَى وَصْفَ هَذِهِ الْغَزْوَةِ الْمُبَارَكَةِ، حِينَ دَوَّنَ وَقَائِعَهَا فِي الْجُزْءِ الْأَوَّلِ مِنَ الْإِلْيَاذَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ، وَعَلَى الرَّغْمِ مِنْ أَنَّهُ نَظَمَ فِي الْغَزْوَةِ ذَاتِهَا قَصِيدَةً رَنَّانَةً فِي الْعَامِ الْمَاضِي إِجَابَةً لِطَلَبِ جَمْعِيَّةِ إِحْيَاءِ مَجْدِ الْإِسْلَامِ، وَهَذِهِ هِيَ الْقَصِيدَةُ الَّتِي نَظَمَهَا أَخِيرًا وَفِيهَا مِنَ الصُّوَرِ وَالْمَعَانِي

(١) الدِّيوَان ج «١» ص ٨٨٧.

مَا لَيْسَ فِي الْأُولَىٰ وَلَا الثَّانِيَةِ»[١].

وَمَوْضِعُ الِاسْتِشْهَادِ قَوْلُ جَرِيدَةِ الصِّدْقِ عَنْ هَذِهِ الْقَصِيدَةِ إِنَّ بِهَا مِنَ الصُّوَرِ وَالْمَعَانِي مَا لَيْسَ فِي الْقَصِيدَةِ الْأُولَىٰ وَلَا فِي الْقَصِيدَةِ الثَّانِيَةِ، مَعَ أَنَّ الْمَوْضُوعَ وَاحِدٌ فِي الْقَصَائِدِ الثَّلَاثِ، وَتِلْكَ مَقْدِرَةٌ أَصِيلَةٌ يَتَمَتَّعُ بِهَا الشَّاعِرُ، حِينَ يَتَحَدَّثُ فِي الْمَوَاسِمِ الدِّينِيَّةِ الْمُتَتَابِعَةِ بِتَوَالِي الْأَعْوَامِ فَلَا يَعْمَدُ إِلَىٰ تَكْرَارِ الْمَعَانِي، وَقَدْ عَرَفْنَا شُعَرَاءَ كَثِيرِينَ مِنْ رِجَالِ الصَّفِّ الْأَوَّلِ فِي الْأَدَبِ يَعْتَذِرُونَ عَنِ الْقَوْلِ فِي مَوْضُوعٍ سَبَقَ أَنْ تَحَدَّثُوا عَنْهُ، بِدَعْوَىٰ أَنَّهُمْ أَفْرَغُوا مَشَاعِرَهُمْ، فِيمَا هَتَفُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ، أَمَّا مَشَاعِرُ مُحَرَّمِ الْإِسْلَامِيَّةُ فَكَالْغَيْثِ لَا يَزَالُ يَهْمِي دُونَ انْقِطَاعٍ، رَحْمَةً بِالنَّاسِ، وَمِمَّا جَاءَ فِي هَذِهِ الْقَصِيدَةِ قَوْلُ الشَّاعِرِ الْكَبِيرِ[٢]:

أَهَابَ رَسُولُ اللَّهِ بِالْجُنْدِ أَقْدِمُوا ... وَلَا تَرْهَبُوا الطَّاغُوتَ، فَاللَّهُ خَاذِلُهُ

أَمَا تَنْظُرُونَ الْأَرْضَ كَيْفَ أَظَلَّهَا ... مِنَ الشِّرْكِ دِينٌ أَهْلَكَ النَّاسَ بَاطِلُهُ ؟!

خُذُوهُ بِبَأْسٍ لَا تَطِيشُ سِهَامُهُ ... فَأَنْتُمْ مَنَايَاهُ، وَهَذِي مَقَاتِلُهُ

عَلَيْنَا الْهُدَىٰ إِمَّا بِآيَاتِ رَبِّنَا ... وَإِمَّا بِحَدِّ السَّيْفِ، لَا خَابَ حَامِلُهُ

إِذَا أَنْكَرَ الْقَوْمُ الْبَرَاهِينَ أَخْضَعَتْ ... بَرَاهِينُهُ أَعْنَاقَهُمْ وَدَلَائِلُهُ

وَبَعْدَ سَبَحَاتٍ ضَافِيَةٍ فِي يَوْمِ بَدْرٍ، رَجَعَ الشَّاعِرُ مِنَ الْمَاضِي الْأَغَرِّ إِلَىٰ الْحَاضِرِ الشَّجِيِّ، فَقَالَ[٣]:

عَجِبْتُ لِقَوْمِي عُطِّلَ الدِّينُ بَيْنَهُمْ ... وَجُنُّوا بِهِ، وَالْجَهْلُ شَتَّىٰ مَنَازِلُهُ

---

(١) نقلاً عن هامش الديوان ج «١» ص ٩١٤.
(٢) المصدر السابق.
(٣) الديوان ج «١» ص ٩١٧.

يُحِبُّونَهُ حُبَّ الَّذِي ضَلَّ رَأْيُهُ فَقَاطِعُهُ مِنْهُمْ سَوَاءٌ وَوَاصِلُهُ
وَكَيْفَ يَقُومُ الدِّينُ مَا بَيْنَ أُمَّةٍ إِذَا عُطِّلَتْ آدَابُهُ وَفَضَائِلُهُ ؟!
أَلَا هِمَّةٌ بَدْرِيَّةٌ تَكْشِفُ الْأَذَىٰ وَتَشْفِي مِنَ الدَّاءِ الَّذِي اهْتَاجَ دَاخِلُهُ
أَلَا أُمَّةٌ تَنْهَىٰ النُّفُوسَ عَنِ الْهَوَىٰ وَتُصْغِي إِلَىٰ الْقَوْلِ الَّذِي أَنَا قَائِلُهُ
إِذَا نَحْنُ لَمْ نَرْشُدْ وَلَمْ نَتَّبِعِ الْهُدَىٰ فَلَا تُنْكِرُوا يَا قَوْمِ مَا اللَّهُ فَاعِلُهُ

وَهَكَذَا أَخَذَ الشَّاعِرُ يَسْتَحِثُّ سَامِعِيهِ ! وَظَلَّ يَسْتَحِثُّ دُونَ يَأْسٍ ، حَتَّىٰ لَقِيَ وَجْهَ رَبِّهِ الْكَرِيمِ ، وَقَدْ أَعْذَرَ إِذْ نَصَحَ ، فَأَسْعَفَهُ النُّطْقُ الْبَلِيغُ ، إِذْ لَا يَمْلِكُ سِوَاهُ .

الْإِلْيَاذَةُ الْإِسْلَامِيَّةُ

كَانَ مِنْ تَوْفِيقِ أَحْمَدَ مُحَرَّمٍ الثَّقَافِيِّ أَنَّهُ - كَمَا تَحَدَّثْتُ مِنْ قَبْلُ - دَرَسَ كُتُبَ الْأَدَبِ فِي نَشْأَتِهِ الْأُولَىٰ مَعَ كُتُبِ السِّيرَةِ النَّبَوِيَّةِ وَالتَّارِيخِ الْإِسْلَامِيِّ جَنْبًا لِجَنْبٍ ، بِحَيْثُ عَرَفَ دَوَاوِينَ الشُّعَرَاءِ مَعَ كُتُبِ الطَّبَقَاتِ وَمَوْسُوعَاتِ التَّارِيخِ ، فَظَهَرَ أَثَرُ هَذِهِ الدِّرَاسَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ فِي شِعْرِهِ بِوُضُوحٍ أَكْثَرَ مِمَّا ظَهَرَتْ آثَارُ السِّيرَةِ لَدَىٰ زُمَلَائِهِ الْمُعَاصِرِينَ ، وَأَنْتَ تَقْرَأُ قَصَائِدَهُ السِّيَاسِيَّةَ فِي تَشْجِيعِ الْأَبْطَالِ ، وَمُنَازَلَةِ الِاحْتِلَالِ فَتَجِدُهَا حَافِلَةً بِالْإِشَارَةِ إِلَىٰ أَبْطَالِ الْإِسْلَامِ مِثْلِ عَلِيٍّ وَحَمْزَةَ وَعُمَرَ وَخَالِدٍ وَسَعْدٍ ، يَسْتَمِدُّ مِنْهُمْ عَنَاصِرَ الْحَمَاسَةِ ، وَيَكَادُ يَكُونُ وَحِيدًا فِي هَذَا الِاتِّجَاهِ حَتَّىٰ أَصْبَحَ بِحَقٍّ شَاعِرَ الدَّعْوَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ فِي هَذَا الْعَصْرِ .

وَالشِّعْرُ الدِّينِيُّ فِي الْعَصْرِ الْحَدِيثِ قَدِ ابْتُدِئَ بِقَصِيدَةِ الْبَارُودِيِّ - رَحِمَهُ اللَّهُ - الَّتِي سَمَّاهَا « كَشْفُ الْغُمَّةِ فِي مَدْحِ خَيْرِ الْأُمَّةِ » مُعَارِضًا بِهَا قَصِيدَةَ الْبُوصِيرِيِّ الْمَعْرُوفَةَ بِالْبُرْدَةِ ! وَقَدْ تَقَدَّمَتْهَا مَنْظُومَاتٌ بَدِيعِيَّةٌ لَا تُحْسَبُ فِي مِضْمَارِ التَّحْلِيلِ الْأَدَبِيِّ الْخَالِصِ لِلشِّعْرِ وَحْدَهُ ، كَقَصَائِدِ مَحْمُودٍ صَفْوَتِ السَّاعَاتِيِّ وَمَنْ سَبَقَهُ مِنْ أَصْحَابِ الْبَدِيعِيَّاتِ ، أَمَّا قَصِيدَةُ الْبَارُودِيِّ فَكَانَتْ

لِلْمَدِيحِ الْخَالِصِ بَعِيدًا عَنْ تَأْثِيرِ الْمُحَسِّنَاتِ الْبَدِيعِيَّةِ ، وَقَدْ نَظَمَهَا بِمُنَاسَبَةِ مَرَضٍ رَمَدِيٍّ لَحِقَ عَيْنَهُ ، فَأَرَادَ أَنْ يَكْشِفَ اللَّهُ غُمَّتَهُ بِمَدِيحِ رَسُولِهِ ﷺ ! وَلَا يَعِيبُ قَصِيدَةَ الْبَارُودِيِّ غَيْرُ الْتِزَامِهِ بِالْمَنْهَجِ التَّارِيخِيِّ لِلسِّيرَةِ النَّبَوِيَّةِ كَمَا جَاءَ فِي سِيرَةِ ابْنِ هِشَامٍ ، فَتَوَالَتِ الْأَحْدَاثُ فِي كَثِيرٍ مِنَ الْأَبْيَاتِ عَلَىٰ نَحْوٍ يَبْعُدُ عَنِ الرُّوحِ الشِّعْرِيِّ الْمُتَوَثِّبِ ، وَإِنْ ظَهَرَتْ هَذِهِ الرُّوحُ الشِّعْرِيَّةُ فِي مُنَاسَبَاتٍ قَلِيلَةٍ ، فَأَضَاءَتْ مَا تَكَاثَفَ مِنَ التَّقْرِيرِيَّاتِ النَّظْمِيَّةِ ، وَمِنْ ذَلِكَ الْوَصْفُ الْبَدِيعُ لِحَمَامَةِ الْغَارِ ، فَقَدْ أَبْدَعَ الْبَارُودِيُّ إِبْدَاعًا بَارِعًا حِينَ تَحَدَّثَ عَنِ الْحَمَامَةِ وَالْعَنْكَبُوتِ بِمَا لَمْ يَصِلْ إِلَيْهِ الْبُوصِيرِيُّ وَشَوْقِيٌّ وَعَبْدُ الْمُطَّلِبِ وَغَيْرُهُمْ مِمَّنْ أَجَادُوا الْمُعَارَضَةَ الْقَوِيَّةَ لِقَصِيدَةِ الْبُوصِيرِيِّ .. وَأَنْقُلُ عَنِ الْبَارُودِيِّ قَوْلَهُ(١):

فَمَا اسْتَقَلَّ بِهِ حَتَّىٰ تَبَوَّأَهُ ... مِنَ الْحَمَائِمِ زَوْجٌ بَارِعُ الرَّنَمِ
إِلْفَانِ مَا جَمَعَ الْمِقْدَارُ بَيْنَهُمَا ... إِلَّا لِسِرٍّ بِصَدْرِ الْغَارِ مُكْتَتَمِ
كِلَاهُمَا دَيْدَبَانٌ فَوْقَ مَرْبَأَةٍ ... يَرْعَىٰ الْمَسَالِكَ مِنْ بُعْدٍ ، وَلَمْ يَنَمِ
إِنْ حَنَّ هَذَا غَرَامًا أَوْدَعَا طَرَبًا ... بِاسْمِ الْهَدِيلِ أَجَابَتْ تِلْكَ بِالنَّغَمِ
يَخَالُهَا مَنْ يَرَاهَا وَهْيَ جَاثِمَةٌ ... فِي وَكْرِهَا كُرَةً مَلْسَاءَ مِنْ أُدُمِ
إِنْ رَفْرَفَتْ سَكَنَتْ ظِلًّا وَإِنْ هَبَطَتْ ... رَوَّتْ غَلِيلَ الصَّدَىٰ مِنْ حَائِرٍ شَبِمِ(٢)
مَرْقُومَةُ الْجِيدِ مِنْ مِسْكٍ وَغَالِيَةٍ ... مَخْضُوبَةُ السَّاقِ وَالْكَفَّيْنِ بِالْعَنَمِ(٣)
كَأَنَّمَا شَرَعَتْ فِي قَانِئٍ سَرِبٍ ... مِنْ أَدْمُعِي فَغَدَتْ مُحْمَرَّةَ الْقَدَمِ
وَسَجَّفَ الْعَنْكَبُوتُ الْغَارَ مُخْتَفِيًا ... بِخَيْمَةٍ صَاغَهَا مِنْ أَبْدَعِ الْخِيَمِ

(١) كشف الْغمة ص ٦ للبَارودي ، وَليست فِي الدّيوَان .
(٢) شَبِم : البارد .
(٣) الْعَنَم : صبغ أحمر .

فَشَدَّ أَطْرَافَهَا ، وَاسْتَحْكَمَتْ وَرَسَتْ بِالْأَرْضِ ، لَكِنَّهَا قَامَتْ بِلَا دُعُمِ
كَأَنَّهَا سَابِرِيٌّ[1] حَاكَهُ لَبِقٌ مِنْ أَرْضِ سَابُورَ فِي بَحْبُوحَةِ الْعَجَمِ
وَارَتْ فَمَ الْغَارِ عَنْ عَيْنٍ تُلِمُّ بِهِ فَصَارَ يَحْكِي - خَفَاءً - وَجْهَ مُلْتَثِمِ

وَقَدْ عَلَّقَ الدُّكْتُورُ زَكِيٌّ مُبَارَكٌ عَلَىٰ هَذِهِ الْأَبْيَاتِ بِقَوْلِهِ[2]:

« وَفِي هَذِهِ الْقِطْعَةِ انْتَقَلَ الْبَارُودِيُّ مِنْ سَرْدِ الْقِصَّةِ النَّبَوِيَّةِ إِلَى الْإِفَاضَةِ فِي وَصْفِ الْحَمَامَتَيْنِ وَالْعَنْكَبُوتِ فَتَحَدَّثَ عَنْ بِنَاءِ الْعُشِّ وَالْغَرَضِ مِنْ سُكْنَاهُ ، وَتَكَلَّمَ عَنْ حِرَاسَةِ الْحَمَامَتَيْنِ ، وَرِعَايَتِهِمَا الْمَسَالِكَ الْبَعِيدَةَ ، وَهَجْرِهِمَا النَّوْمَ ، وَتَغَنِّيهِمَا بِاسْمِ الْهَدِيلِ ، وَذَكَرَ كَيْفَ كَانَتِ الْحَمَامَةُ مَخْضُوبَةَ السَّاقِ وَالْكَفَّيْنِ ، وَكَيْفَ كَانَتْ مَرْقُومَةَ الْجِيدِ ، مُحْمَرَّةَ الْقَدَمِ ، كَأَنَّمَا شَرَعَتْ فِي دُمُوعِهِ الْحَمْرَاءِ ، ثُمَّ تَكَلَّمَ عَنِ الْخَيْمَةِ الَّتِي شَدَّ أَطْنَابَهَا الْعَنْكَبُوتُ ، وَوَصَفَهَا بِجَوْدَةِ النَّسْجِ حَتَّىٰ لَيَحْسَبُهَا الرَّائِي حُلَّةً سَابِرِيَّةً ، وَهَذَا كُلُّهُ خُرُوجٌ عَنِ الْمَوْضُوعِ وَاسْتِسْلَامٌ لِلْخَيَالِ » .

أَمَّا كَوْنُهُ اسْتِسْلَامًا لِلْخَيَالِ فَنَعَمْ ! وَأَمَّا كَوْنُهُ خُرُوجًا عَنِ الْمَوْضُوعِ فَلَا أَجِدُ ذَلِكَ خُرُوجًا ؛ لِأَنَّ الشَّاعِرَ يَصِفُ مَشْهَدًا تَحَدَّثَ عَنْهُ التَّارِيخُ ، فَحَمَّلَهُ مِنَ الْأَصْبَاغِ الزَّاهِيَةِ وَالْأَلْوَانِ الْبَدِيعَةِ مَا يَجْمُلُ بِجَلَالِ الْمَشْهَدِ ، وَمَا يُحْسَبُ تَقْدِيرُهُ فِي فَنِّ الشَّاعِرِ الْمُجِيدِ ! وَكَيْفَ يَكُونُ وَصْفُ الْحَمَامَةِ وَالْعَنْكَبُوتِ بَعِيدًا عَنْ وَصْفِ الْغَارِ ؟!.

ثُمَّ أَنْشَأَ شَوْقِيٌّ قَصِيدَةَ « نَهْجُ الْبُرْدَةِ » سَنَةَ ١٩٠٩م بِمُنَاسَبَةِ حَجِّ الْأَمِيرِ

---

(١) السابري : الثوب من الحرير .
(٢) أحمد شوقي لزكي مبارك ص ١٨١ ـ الهيئة المصرية للكتاب .

عبّاس الثّاني إِلَىٰ بَيْتِ اللَّهِ ! وَظَلَّ الشِّعْرُ الدِّينِيُّ بَعْدَ هَاتَيْنِ الْمُعَارَضَتَيْنِ حَبِيسًا ! حَتَّىٰ جَاءَ أَحْمَدُ مُحَرَّم ، فَكَانَ أَوَّلَ مَنْ مَدَحَ الرَّسُولَ ﷺ مِنَ الْمُعَاصِرِينَ مُبْتَدِئًا لَا مُعَارِضًا ، إِذْ رَأَىٰ أَنْ يَسْتَقِلَّ بِقَصِيدَةٍ حَدِيثَةٍ تُعَبِّرُ عَنْ خَوَالِجِهِ دُونَ أَنْ يَحْتَذِيَ فِيهَا حَذْوَ شَاعِرٍ سَابِقٍ ، وَمِنْ هُنَا كَانَ أَحْمَدُ مُحَرَّم أَوَّلَ مَادِحٍ مُسْتَقِلٍّ لِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي الشِّعْرِ الْحَدِيثِ إِذْ تَوَجَّهَ فِي مُفْتَتَحِ سَنَةِ ١٩١١م إِلَىٰ سُدَّةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ بِقَصِيدَةٍ قَالَ فِيهَا[١]:

عَلَيْكَ رَسُولَ اللَّهِ أَمْسَىٰ الْمُعَوَّلُ وَأَنْتَ الْمُرَجَّىٰ فِي الْخُطُوبِ الْمُؤَمَّلُ
رَدَدْتُ إِلَيْكَ النَّفْسَ بَعْدَ جِمَاحِهَا فَجَاءَتْكَ لَا تَنْزُو ، وَلَا هِيَ تَجْفُلُ
تَنُوءُ بِهَا آمَالُهَا وَيَئُودُهَا مِنَ الْهَمِّ عِبْءٌ مَا يُطَاقُ فَيُحْمَلُ
أُلَامُ عَلَىٰ حُبِّيكَ ، وَالْوَحْيُ كُلُّهُ لِسَانٌ يَلُومُ الْكَاشِحِينَ وَيَعْذِلُ
هُمُ أَنْكَرُوا الْآيَاتِ تَتْرَىٰ وَكَذَّبُوا مِنَ الْحَقِّ مَا يَجْلُو الْعَمَىٰ لَوْ تَأَمَّلُوا
بَصَائِرُ يَسْتَوْفِي الْمَدَىٰ كُلُّ جَائِلٍ يُضِيءُ سَنَاهُ وَهْيَ فِي الدَّهْرِ جُوَّلُ

وَبَعْدَ أَنْ وَصَفَ آيَ الذِّكْرِ الْحَكِيمِ وَصْفًا رَائِعًا يُعَدُّ مِنْ أَوَائِلِ مَا قِيلَ فِي هَذَا الْعَصْرِ إِحْكَامًا وَبَرَاعَةً وَإِخْلَاصًا ، وَبَعْدَ أَنْ وَصَفَ أَحْوَالَ الْأُمَّةِ الْإِسْلَامِيَّةِ وَمَا هِيَ عَلَيْهِ مِنَ الضَّعْفِ وَالتَّخَاذُلِ وَالْهَوَانِ ، تَوَجَّهَ إِلَىٰ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَائِلًا[٢]:

مُحَمَّدُ ، هَذَا مَوْقِفٌ أَنْتَ أَهْلُهُ فَأَيَّةُ نَفْسٍ نَفْسَ أَحْمَدَ تَجْعَلُ ؟
أَلَا كُلُّ شَيْءٍ فِي الْكِتَابِ مُسَجَّلٌ وَمَا لِامْرِئٍ عَنْ مَوْقِفِ الْحَشْرِ مَعْزِلُ

---

(١) الدّيوان ج ٣، ص ٢٧٠.

(٢) الدّيوان ج ٣، ص ٢٧٤.

أَسَاءَتْ بِيَ الْأَقْوَامُ صُنْعًا وَهَدَّنِي   زَمَانٌ بِأَهْلِ الصَّالِحَاتِ مُوَكَّلُ
وَلَسْتُ أُبَالِي مَنْزِلِي فِي جِوَارِهِمْ   إِذَا مَا احْتَوَانِي فِي جِوَارِكَ مَنْزِلُ

وَالْبَيْتُ الْأَخِيرُ تُرْجُمَانٌ لِنَفْسِيَّةِ شَاعِرِ الْإِسْلَامِ مُحَرَّم، إِذْ ظَلَّ - طُولَ حَيَاتِهِ - يَلُوذُ بِكِتَابِ اللَّهِ وَسُنَّةِ رَسُولِهِ ﷺ، فَلَيْسَ لَهُ مَنْزِلٌ غَيْرُ مَنْزِلِ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ! وَمِنْ هُنَا أَخَذَتْ قَصَائِدُهُ فِي مُنَاسَبَاتِ الْهِجْرَةِ وَالْمَوْلِدِ وَالْإِسْرَاءِ وَبَدْرٍ تَتَوَالَى مُغَرِّدَةً صَائِحَةً عَلَى نَحْوِ مَا أَشَرْنَا إِلَيْهِ مِنْ قَبْلُ فِي حَدِيثٍ يُلِمُّ بِهَذِهِ الذِّكْرَيَاتِ.. ثُمَّ شَاءَ اللَّهُ أَنْ يَكُونَ مُحَرَّمٌ الشَّاعِرَ الْمُخْتَارَ بَيْنَ أَبْنَاءِ عَصْرِهِ لِكِتَابَةِ الْإِلْيَاذَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ مُسَجِّلًا أَمْجَادَ الْبَعْثَةِ الْمُحَمَّدِيَّةِ الشَّرِيفَةِ، وَمَا قَامَ بِهِ نَبِيُّ الْإِسْلَامِ ﷺ مِنْ جِهَادٍ حَافِلٍ، أَتَمَّ اللَّهُ بِهِ النَّصْرَ عَلَى نَبِيِّهِ، فَأَشْرَقَ نُورُ الْإِسْلَامِ فِي جَنَبَاتِ الْأَرْضِ مُبَدِّدًا ظُلُمَاتِ الشِّرْكِ، دَاعِيًا إِلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ، أَمَّا كَيْفَ نَظَمَ مُحَرَّمٌ هَذِهِ الْإِلْيَاذَةَ الْخَالِدَةَ فَهَذَا مَا أُلِمُّ بِهِ فِي هَذَا الْمَقَالِ..

لِلْأُسْتَاذِ مُحِبِّ الدِّينِ الْخَطِيبِ أَوَّلِيَّاتٌ سَابِقَةٌ فِي بَعْثِ الْمَجْدِ الْإِسْلَامِيِّ فِي نُفُوسِ الشَّبِيبَةِ الْمُتَطَلِّعَةِ لِلْكَرَامَةِ وَالْعِزَّةِ[1]، وَقَدْ أَشَرْتُ فِي تَرْجَمَتِهِ الَّتِي دَوَّنْتُهَا فِي كِتَابِي عَنْ «أَعْلَامِ النَّهْضَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ الْمُعَاصِرِينَ» إِلَى بَعْضِ هَذِهِ السَّوَابِقِ، وَأَقُولُ إِلَى بَعْضِ هَذِهِ السَّوَابِقِ؛ لِأَنَّهَا كُلَّهَا تَحْتَاجُ إِلَى كِتَابٍ بِرَأْسِهِ، وَقَدْ تَحَدَّثَ عَنْ نَفْسِهِ فَقَالَ: إِنَّه تَعَلَّمَ فِي نَشْأَتِهِ الْأُولَى بِدِمَشْقَ عَلَى يَدِ أُسْتَاذٍ فَارِسِيٍّ كَانَ شَدِيدَ الْإِعْجَابِ بِشَاهْنَامَةِ الْفِرْدَوْسِيِّ، وَكَانَ يَقْرَأُ نَمَاذِجَ مِنْهَا لِطُلَّابِهِ مُبَاهِيًا بِتَارِيخِ الْفُرْسِ الْقَدِيمِ كَمَا جَاءَ فِي

(١) مقدمة ديوان مجد الإسلام ص ٤٧.

الشَّاهْنَامَةِ ، وَلٰكِنَّ الشَّابَّ النَّاهِضَ مُحِبَّ الدِّينِ كَانَ يَسْتَمِعُ إِلَىٰ أُسْتَاذِهِ وَفِي نَفْسِهِ شُجُونٌ عَبَّرَ عَنْهَا بِقَوْلِهِ :

« لَقَدْ كُنْتُ أَقُولُ فِي نَفْسِي ، وَأَنَا أَسْمَعُ مُبَالَغَةَ أُسْتَاذِنَا الْفَارِسِيِّ فِي وَصْفِ الشَّاهْنَامَةِ وَالْإِشَادَةِ بِعَظَمَتِهَا ، أَلَيْسَ فِي دُنْيَا الْعُرُوبَةِ وَالْإِسْلَامِ مَنْ يَقُومُ لِلْعُرُوبَةِ وَالْإِسْلَامِ بِمِثْلِ هَٰذَا الْعَمَلِ الْأَدَبِيِّ الْكَبِيرِ ، لِيَتَعَرَّفَ شَبَابُنَا إِلَىٰ أَكْمَلِ قَوْمِيَّةٍ بَرَأَهَا اللَّهُ فِي الدَّهْرِ الْأَوَّلِ ، وَأَعَدَّهَا لِلْقِيَامِ بِأَكْمَلِ رِسَالَاتِ اللَّهِ إِلَىٰ خَلْقِهِ » !!.

وَمَضَىٰ الْكَاتِبُ الْكَبِيرُ يَعْرِضُ نَمَاءَ هَٰذَا الْخَاطِرِ فِي نَفْسِهِ حَتَّىٰ قَالَ[١]:

« وَلَمَّا تَوَطَّنْتُ مِصْرَ الْحَبِيبَةَ ، وَتَأَسَّسَتْ جَمْعِيَّةُ الشُّبَّانِ الْمُسْلِمِينَ ضَمَّنَا مَجْلِسٌ مِنْ مَجَالِسِهَا بِأَمِيرِ الشُّعَرَاءِ شَوْقِيٍّ وَكَانَ فِي الْمَجْلِسِ الْأَسَاتِذَةُ عَبْدُ الْحَمِيدِ سَعِيدٌ وَمُحَمَّدٌ أَحْمَدُ الْغَمْرَاوِيُّ وَيَحْيَىٰ الدَّرْدِيرِيُّ فَانْتَهَزْتُ هَٰذِهِ الْفُرْصَةَ وَتَحَدَّثْتُ عَنِ الشَّاهْنَامَةِ وَالْإِلْيَاذَةِ ، وَاقْتَرَحْتُ عَلَىٰ أَمِيرِ الشُّعَرَاءِ أَنْ يَكُونَ أَعْظَمَ أَحْدَاثِ إِمَارَتِهِ فِي الشِّعْرِ إِهْدَاءُ مِثْلِ هَٰذِهِ الْهَدِيَّةِ إِلَىٰ الْعُرُوبَةِ وَالْإِسْلَامِ وَأَدَبِهِمَا ، وَاسْتَمَعَ شَوْقِيٌّ إِلَىٰ هَٰذَا الْحَدِيثِ وَلَمْ يَعِدْ وَلَمْ يَرْفُضْ .. فَلَمَّا عَقَدَ اللَّهُ الصِّلَةَ وَالْمَحَبَّةَ بَيْنِي وَبَيْنَ الْأُسْتَاذِ أَحْمَدَ مُحَرَّمٍ وَجَّهْتُ إِلَيْهِ هَٰذَا الِاقْتِرَاحَ » .

أَمَّا هَٰذَا الِاقْتِرَاحُ الرَّائِعُ ؛ فَكَانَ طَيَّ رِسَالَةٍ أَخَوِيَّةٍ نُشِرَتْ فِي مُقَدِّمَةِ الْإِلْيَاذَةِ ، جَاءَ بِهَا[٢]:

---

(١) مقدمة الإلياذة ص «٨» .
(٢) جاءت هٰذِهِ الرسالة في مقدمة الدكتور مُحَمَّد إبراهيم الجيوشي ص «١» .

« سَيِّدِي الْأُسْتَاذُ الْجَلِيلُ مَفْخَرَةَ الْبَيَانِ الْعَرَبِيِّ وَشَاعِرَ مِصْرَ الْكَبِيرَ الْأُسْتَاذُ أَحْمَدُ مُحَرَّم ..

السَّلَامُ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَةُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ ، وَبَعْدُ ، فَإِنَّ مِنْ دَلَائِلِ رِضَا اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ عَنْ حَرَكَةِ الْجِهَادِ الضَّئِيلَةِ انْشِرَاحَ صَدْرِكُمْ لِتَأْيِيدِ « هَذَا الْجِهَادِ » ، وَتَصَدُّقَكُمْ بِبَعْضِ الْوَقْتِ لِلْوُقُوفِ فِي صُفُوفِهِ ، وَرُبَّ فَارِسٍ وَاحِدٍ خَيْرٌ مِنْ أَلْفٍ ، وَكُنْتُ هَمَمْتُ غَيْرَ مَرَّةٍ أَنْ أَكْتُبَ إِلَيْكُمْ أَقْتَرِحُ مَشْرُوعًا كُنَّا نُحَاوِلُ إِقْنَاعَ شَوْقِيٍّ بِكَ رَحِمَهُ اللَّهُ بِهِ ، وَلَكِنِّي خَشِيتُ أَنْ يَصْرِفَكُمْ ذَلِكَ عَنْ مَعَانِي الْجِهَادِ الْأُخْرَى ، وَهَذَا الْمَشْرُوعُ هُوَ إِرْسَالُ نَظَرِكُمُ الْكَرِيمِ ، إِلَى مَفَاخِرِ التَّارِيخِ الْإِسْلَامِيِّ الْخُلُقِيَّةِ وَالْعُمْرَانِيَّةِ وَالسِّيَاسِيَّةِ وَالْإِصْلَاحِيَّةِ ، وَنَظْمُ كُلِّ مَفْخَرَةٍ مِنْهَا فِي قِطْعَةٍ خَالِدَةٍ تُنْقَشُ فِي أَفْئِدَةِ الشَّبَابِ ، فَإِذَا ذَخَرَ أَدَبُنَا بِكَثِيرٍ مِنْ هَذِهِ الْقِطَعِ عَلَى اخْتِلَافِ أَوْزَانِهَا وَقَوَافِيهَا أَمْكَنَ بَعْدَ ذَلِكَ تَرْتِيبُهَا بِحَسَبِ تَارِيخِ الْوَقَائِعِ وَتَأْلِيفِ إِلْيَاذَةٍ مِنْ مَجْمُوعِهَا ! أَلَيْسَ مِنَ الْعَارِ أَنْ يَكُونَ لِلْفُرْسِ الَّذِينَ حَفَلَ تَارِيخُهُمْ فِي الْجَاهِلِيَّةِ بِالشَّنَائِعِ دِيوَانُ مَفَاخِرَ يُغَطِّي فِيهِ الْبَيَانُ عَلَى هَذِهِ الْعُيُوبِ ، وَيُلَوِّنُ ذَا الْوَجَاهَةِ مِنْهَا بِأَلْوَانٍ زَاهِيَةٍ ، فَيَكُونُ مِنْ ذَلِكَ « شَاهْنَامَةُ الْفِرْدَوْسِيِّ » ؟!، وَأَنْ يَكُونَ لِلْيُونَانِ زَمَنَ وَثَنِيَّتِهِمْ وَأَهْوَائِهِمُ الصِّبْيَانِيَّةِ دِيوَانُ مَفَاخِرَ كَالْإِلْيَاذَةِ تَتَغَنَّى بِهَا الْإِنْسَانِيَّةُ إِلَى يَوْمِ النَّاسِ هُنَا ؟!، وَالْإِسْلَامُ الَّذِي لَمْ تَفْتَحِ الْإِنْسَانِيَّةُ عَيْنَيْهَا عَلَى أَعْلَى مِنْهُ رُتْبَةً ، وَأَعْظَمَ مِنْهُ مَحَامِدَ ، يَجْتَهِدُ مُؤَرِّخُوهُ فِي تَشْوِيهِ صَفَحَاتِهِ وَالْحَطِّ مِنْ أَقْدَارِ رِجَالِهِ .. إِنَّ الَّذِي قَصَّرَ فِيهِ الْمُؤَرِّخُونَ لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يَسْتَدْرِكَهُ إِلَّا الشُّعَرَاءُ ، وَلَمْ أَجِدْ قَلْبًا أُفْضِي إِلَيْهِ بِبَعْضِ مَا فِي قَلْبِي غَيْرَ قَلْبِكَ ، وَقَدْ يَكُونُ اللَّهُ قَدِ اخْتَصَّكَ بِهَذَا الْفَضْلِ فَأَلْهَمَنِي بِالْإِفَاضَةِ إِلَيْكَ » .

وَقَدِ اسْتَجَابَ الشَّاعِرُ لِنِدَاءِ مُحِبِّ الدِّينِ، لِتَوَافُقِ مَشَاعِرِهِمَا الْإِسْلَامِيَّةِ، وَرَمْيِهِمَا عَنْ قَوْسٍ وَاحِدَةٍ فِي مَيْدَانِ الْجِهَادِ، فَأَعْلَنَ بَدْءَ الْإِلْيَاذَةِ، وَطَارَ الْخَبَرُ إِلَىٰ شَتَّىٰ رُبُوعِ الْعَالَمِ الْإِسْلَامِيِّ، فَلَاقَىٰ تَرْحِيبًا كَبِيرًا، لَعَلَّ مِنْ أَبْرَزِهِ مَا تَحَدَّثَتْ بِهِ مَجَلَّةُ الضِّيَاءِ الْهِنْدِيَّةُ مُثْنِيَةً عَلَىٰ هِمَّةِ الشَّاعِرِ، وَرَاجِيَةً أَنْ يَتَقَدَّمَ عَاجِلًا غَيْرَ آجِلٍ، وَكَأَنَّ حَدِيثَ الْمَجَلَّةِ الْهِنْدِيَّةِ كَانَ دَافِعًا جَبَّارًا مَعَ دَافِعِهِ الْأَوَّلِ، فَشَحَذَ عَزْمَهُ، وَأَمَدَّهُ بِرُوحِ الْمُثَابَرَةِ، وَقَدْ سَرَّهُ أَنْ يَصِلَ صَدَىٰ تَأْلِيفِ الْإِلْيَاذَةِ إِلَى الْهِنْدِ؛ فَنَظَمَ قَصِيدَةً حَمَاسِيَّةً قَالَ فِيهَا[1]:

صَوْتٌ تَرَدَّدَ فِي الْآفَاقِ يَهْتِفُ بِي ... لَا سَرَّنِي هَاتِفٌ إِنْ لَمْ يُجِبْ أَدَبِي
أَجَلْ، هُوَ الْخَطْبُ إِنْ أَمْسَىٰ أَوَائِلُنَا ... فِي الْهَالِكِينَ، وَهُمْ مِنَّا عَلَىٰ كَثَبِ
قَالَ الْوُشَاةُ: وَفَىٰ لِلْفُرْسِ شَاعِرُهُمْ ... وَمَا وَفَىٰ شَاعِرُ الْإِسْلَامِ وَالْعَرَبِ
مَهْلًا فَإِنِّي لِقَوْمِي إِنْ هُمُ الْتَمَسُوا ... مُسْتَوْدَعَ الْوُدِّ مِنْ نَفْسِي لَذُو حَدَبِ
لَوْ لَمْ يُطِعْنِي بَيَانِي حِينَ أَنْصُرُهُمْ ... نَصَرْتُهُمْ بِبَيَانٍ مِنْ دَمٍ سَرِبِ
مَا فَارَقُونِي وَلَا جَاوَزْتُ مَوْضِعَهُمْ ... فِي هَاتِفٍ زَجِلٍ، أَوْ زَاجِفٍ لَجِبِ
أَكْبَرْتُ لِلشَّاعِرِ الْهِنْدِيِّ غَضْبَتَهُ ... لِلْحَقِّ يُنْصِفُهُ مِنْ خَصْمِهِ الشَّغِبِ
عَلَىٰ «الضِّيَاءِ» لِحَسَّانِ الْهُنُودِ وَلِي ... حَقٌّ، لَهُ إِنْ قَضَاهُ أَجْرُ مُحْتَسِبِ
تِلْكَ التَّحِيَّةُ أُزْجِيهَا عَلَىٰ يَدِهِ ... إِلَيْهِ، أَعْتَدُّهَا مِنْ أَفْضَلِ الْقُرَبِ

تِلْكَ هِيَ بَوَاعِثُ الْإِلْيَاذَةِ الْكَامِنَةِ فِي نَفْسِ مُحَرَّمٍ حَتَّىٰ اسْتَثَارَهَا صَدِيقُهُ مُحِبُّ الدِّينِ، فَدَفَعَ الشَّاعِرَ إِلَى السَّبْقِ فِي مَيْدَانٍ لَمْ يُجَلِّ بِهِ سِوَاهُ عَلَىٰ كَثْرَةِ

(١) الدِّيوَان ج ٤٤، ص ٢٧٣.

الْقَائِلِينَ ..

لَمْ يَكُنْ مُحَرَّمٌ فِي إِلْيَاذَتِهِ صَاحِبَ خَيَالٍ يَسْتَوْحِي الْأَسَاطِيرَ كَمَا كَانَ « هُومِيرُوسْ » فِي إِلْيَاذَتِهِ[1]، وَكَمَا كَانَ « الْفِرْدَوْسِيُّ » فِي شَاهْنَامَتِهِ وَأَمْثَالِهِمَا مِمَّنْ دَوَّنُوا جَانِبًا مِنَ التَّارِيخِ الْمُخْتَلِطِ فِي قَصَصٍ تُرْوَىٰ وَأَشْعَارٍ تُقَالُ ، فَقَدْ أَغْنَاهُ وَاقِعُ الْإِسْلَامِ الْوَضِيءُ عَنْ تَلْفِيقِ الْخَيَالِ وَالِاسْتِرْسَالِ مَعَ الْوَهْمِ إِلَىٰ أَبْعَدِ مَدَاهُ ، فَأَكَبَّ عَلَىٰ دِرَاسَةِ هَذِهِ الْحِقْبَةِ الرَّائِعَةِ مِنْ تَارِيخِنَا الْأَوَّلِ فِي مَصَادِرِهَا الْيَقِينِيَّةِ الْمُعْتَمَدَةِ ، لِيُسَلْسِلَ رَوَائِعَهَا الْبَاهِرَةَ فِي أَنَاشِيدَ تَتَرَدَّدُ ، وَأَحْمَدُ مُحَرَّمٍ شَاعِرٌ يَلْتَزِمُ الصِّيَاغَةَ الْمَأْثُورَةَ فِي نَسْجِ قَصَائِدِهِ ، فَسَبِيلُهُ هُنَا فِيمَا يَتَعَرَّضُ لَهُ مِنْ أَحْدَاثِ التَّارِيخِ سَبِيلُ السَّالِفِينَ مِنْ شُعَرَاءِ الْعَرَبِ كَأَبِي تَمَّامٍ فِي. فَتْحِ « عَمُّورِيَّةَ » ، وَالْمُتَنَبِّي فِي تَصْوِيرِ غَزَوَاتِ الرُّومِ ، إِنَّهُ يَسْتَلْهِمُ الْوَاقِعَةَ الْحَيَّةَ بِأَحْدَاثِهَا وَأَبْطَالِهَا لِيُفْصِحَ عَنْ خَوَاطِرِهِ نَحْوَهَا فِي ظِلِّ مَا تَرَكَتْ مِنْ نَتَائِجَ ، وَمَا تَضَمَّنَتْ مِنْ أَحْدَاثٍ تَارِكًا لِخَيَالِهِ أَنْ يَسْتَلْهِمَ هَذِهِ الْوَاقِعَةَ اسْتِلْهَامًا لَا يَخْرُجُ بِهِ عَنْ جَوِّهَا الْخَاصِّ كَيْ يَفْتَعِلَ أُسْلُوبًا تَصْوِيرِيًّا يَمْلَؤُهُ بِخَيَالَاتِ الْأَسَاطِيرِ ، كَمَا وَدَّ بَعْضُ نَاقِدِيهِ أَنْ يَفْعَلَ !.

وَسَبَحَاتُ الشِّعْرِ لَدَيْهِ تَتَوَاكَبُ مَعَ أَحْدَاثِ التَّارِيخِ فِي أَكْثَرِ مَا نَظَمَ ، فَلَيْسَ مِنَ الَّذِينَ يَسْرِدُونَ الْقَوْلَ دُونَ أَنْ يُصَوِّرُوا الْوَقَائِعَ بِأَصْبَاغِهِمُ الزَّاهِيَةِ ، وَلَيْسَ مِمَّنْ يَحْبِسُونَ خَوَاطِرَهُمْ عَنِ الِامْتِدَادِ فِي جُزْئِيَّاتٍ صَغِيرَةٍ يَذْكُرُهَا الْمُؤَرِّخُونَ سِرَاعًا ، وَلَكِنَّ الشَّاعِرَ يَجِدُ فِي مَطَاوِيهَا مَا يَفِيضُ بِهِ الْخَاطِرُ

(١) استعان الكَاتب هنَا ببعض مَا سجله في كتَابه « السّيرة النّبوية عند الرّوّاد المعَاصرين » حيْثُ بسط فصلًا عَنْ إلْيَاذة مُحرّم نقل مِنْهُ مَا يتطلبه المجَال .

الْمُؤْمِنُ مِنْ أَحَاسِيسَ تَتَوَالَىٰ وَكَأَنَّهَا غَيْثٌ مُنْهَمِرٌ، وَالَّذِينَ يَأْخُذونَ عَلَىٰ الشَّاعِرِ الْتِزَامَهُ بِالْمَنْهَجِ التَّارِيخِيِّ فِي تَرْتِيبِهِ الزَّمَنِيِّ، وَهُوَ شَاعِرٌ لَهُ أَنْ يَسْبِقَ الزَّمَنَ، يَتَوَهَّمُونَ أَنَّ الشَّاعِرَ نَاظِمٌ يَكْتُبُ الْوَقَائِعَ بِأَوْزَانِ الْعَرُوضِ، وَقَدْ ظَلَمُوهُ ظُلْمًا بَيِّنًا، وَكَأَنَّهُمْ - عَنْ يَقِينٍ - لَمْ يَقْرَءُوا الْإِلْيَاذَةَ فِي دِيوَانِهَا الْمُكْتَمِلِ، وَأَنَا أَضْرِبُ مَثَلًا لِمَا صَوَّرَهُ مُحَرَّمٌ عَنْ غَزْوَةِ «بَدْرٍ»، فِيمَا بَيْنَ الصَّفَحَاتِ ٣٥ وَ ٦٥، أَيْ فِي ثَلَاثِينَ صَفْحَةً كَامِلَةً، حَيْثُ وَقَفَ وِقْفَةَ الشَّاعِرِ مُبْتَدِئًا بِقَوْلِهِ[١]:

مَا لِلنُّفُوسِ إِلَىٰ الْعَمَايَةِ تَجْنَحُ؟ أَتَظُنُّ أَنَّ السَّيْفَ عَنْهَا يَصْفَحُ!
دَاوَيْتَ بِالْحُسْنَىٰ فَلَجَّ فَسَادُهَا وَلَدَيْكَ إِنْ شِئْتَ الدَّوَاءُ الْأَصْلَحُ
الْإِذْنُ جَاءَ فَقُلْ لِقَوْمِكَ: أَقْبِلُوا بِالْبِيضِ تَبْرُقُ، وَالصَّوَافِنُ تَضْبَحُ
أَمِنُوا نَكَالَكَ فَاسْتَبَدَّ طُغَاتُهُمْ أَفَكُنْتَ إِذْ تُزْجِي الزَّوَاجِرَ تَمْزَحُ؟
ظَمِئَتْ سُيُوفُكَ يَا مُحَمَّدُ، فَاسْقِهَا مِنْ خَيْرِ مَا تُسْقَىٰ السُّيُوفُ وَتُنْضَحُ
فَجِّرْ يَنَابِيعَ الْفُتُوحِ فَرِيُّهَا مَا تَسْتَبِيحُ مِنَ الْبِلَادِ وَتَفْتَحُ
الظُّلْمُ أَوْرَدَهَا الْغَلِيلَ، وَإِنَّهُ لَأَشَدُّ مَا تَجِدُ السُّيُوفُ وَأَبْرَحُ
الْيَوْمَ تُورِدُهَا الدِّمَاءَ فَتَرْتَوِي وَتَرُدُّهَا نَشْوَىٰ الْمُتُونِ فَتَفْرَحُ

بِهَذَا النَّسَقِ الْمُطَّرِدِ الْخَاطِرِ، الدَّافِقِ الْعَاطِفَةِ، انْسَابَ مُحَرَّمٌ يَتَحَدَّثُ عَنِ الْغَزْوَةِ، وَقَدْ سَلْسَلَ الْوَقَائِعَ فِي ثَوْبٍ جَمَالِيٍّ، كَمَا يَرْسِمُ الْمُصَوِّرُ لَوْحَةً بَدِيعَةً، وَالشَّاعِرُ قَادِرٌ مُقْتَدِرٌ لَا يُعْجِزُهُ مَعْنًىٰ، أَوْ يَقِفُ أَمَامَهُ مَرْقًى لَا يَرْتَقِيهِ

(١) ديوان مجد الإسلام ص ٣٥.

حَتَّىٰ تَرَامَتْ أَبْيَاتُهُ إِلَىٰ مِائَةٍ وَاثْنَيْ عَشَرَ بَيْتًا مِنْ رَائِعِ الشِّعْرِ وَأَعْذَبِهِ! فَهَلِ اكْتَفَىٰ بِذَلِكَ مَعَ أَنَّهُ أَحَاطَ بِأَبْرَزِ مَا بِالْغَزْوَةِ مِنَ الْمَشَاهِدِ! إِنَّهُ بَعْدَ ذَلِكَ كُلِّهِ أَفْرَدَ قَصِيدَةً خَاصَّةً بِمَصْرَعِ أَبِي جَهْلٍ، وَقَصِيدَةً أُخْرَىٰ خَاصَّةً بِأَثَرِ الْمَوْقِعَةِ الْحَاسِمَةِ فِي مَكَّةَ، وَثَالِثَةً فِي مَوْقِفٍ كَانَ لِلرَّسُولِ ﷺ مَعَ سَوَادِ بْنِ غُزَيَّةَ حَلِيفِ بَنِي النَّجَّارِ، وَهُوَ مِنْ أَصْدَقِ مَوَاقِفِ الْإِيمَانِ، وَرَابِعَةً فِي أَصْحَابِ الْقَلِيبِ مِنَ الْمُشْرِكِينَ الَّذِينَ لَقُوا مَصَارِعَهُمْ، وَتَوَارَوْا قَتْلَىٰ الْبَغْيِ وَالْعُدْوَانِ، وَخَامِسَةً فِي شُهَدَاءِ «بَدْرٍ» مِمَّنْ قَضَوْا نَحْبَهُمْ حِينَ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ، وَإِذَا كُنَّا لَا نَسْتَطِيعُ أَنْ نَسْتَشْهِدَ لِكُلِّ مَا قَالَ فِي هَذِهِ الْقَصَائِدِ الْمُتَتَابِعَةِ الْخَاصَّةِ بِغَزْوَةٍ وَاحِدَةٍ فَإِنَّنَا نَجْتَزِئُ بِبَعْضِ مَا قَالَ عَنِ الشُّهَدَاءِ؛ لِأَنَّ حَدِيثَهُمْ حَبِيبٌ أَثِيرٌ! قَالَ الشَّاعِرُ الْكَبِيرُ تَحْتَ عُنْوَانِ «شُهَدَاءُ بَدْرٍ»[1]:

طُفْ بِالْمَصَارِعِ وَاسْتَمِعْ نَجْوَاهَا ... وَالْثُمْ بِأَفْيَاءِ الْجِنَانِ ثَرَاهَا
ضَاعَ الشَّذَىٰ الْقُدْسِيُّ فِي جَنَبَاتِهَا ... فَانْشَقْ، وَصِفْ لِلْمُؤْمِنِينَ شَذَاهَا
حُلَلٌ يَرُوعُ جَلَالُهَا وَمَنَازِلٌ ... مِنْ نُورِ رَبِّ الْعَالَمِينَ سَنَاهَا
ضَمَّتْ حُمَاةَ الْحَقِّ مَا عَرَفَ امْرُؤٌ ... عِزًّا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ أَوْ جَاهَا
هُمْ فِي حِمَىٰ الْإِيمَانِ أَوَّلُ صَخْرَةٍ ... فَسَلِ الصُّخُورَ أَمَا عَرَفْنَ قُوَاهَا؟
حَمَلَتْ جِبَالَ الْحَقِّ فِي دُنْيَا الْهُدَىٰ ... بِيضًا شَوَاهِقَ مَا تُنَالُ ذُرَاهَا
ذَهَبَتْ تُرَفْرِفُ فِي مَسَابِحِ عِزِّهَا ... وَمَضَتْ يَفُوتُ مَدَىٰ النُّسُورِ مَدَاهَا
تَجْرِي الرِّيَاحُ الْهُوجُ طَوْعَ قَضَائِهَا ... وَتَخَافُهَا فَتَحِيدُ عَنْ مَجْرَاهَا

(١) ديوان مجد الإسلام ص ٥٤.

طَافَ الْغَمَامُ مُهَلِّلًا بِظِلَالِهَا فَسَقَتْهُ مِنْ بَرَكَاتِهَا، وَسَقَاهَا
شُهَدَاءَ «بَدْرٍ»، أَنْتُمُ الْمَثَلُ الَّذِي بَلَغَ الْمَدَىٰ بَعْدَ الْمَدَىٰ فَتَنَاهَىٰ
مَنْ رَامَ تَفْسِيرَ الْحَيَاةِ لِقَوْمِهِ فَدَمُ الشَّهِيدِ يُبِينُ عَنْ مَعْنَاهَا
أَدْنَىٰ الرِّجَالِ مِنَ الْمَهَالِكِ مَنْ إِذَا عُرِضَتْ مَنَايَا الْخَالِدِينَ أَبَاهَا
مَا أَكْرَمَ الْأَبْطَالَ يَوْمَ تَفَيَّئُوا ظُلَلَ الْمَنَايَا يَبْتَغُونَ جَنَاهَا
رَاحُوا مِنَ الدَّمِ فِي مَطَارِفَ أَشْرَقَتْ حُمْرُ الْجِرَاحِ بِهَا فَكُنَّ حُلَاهَا
لَوْ أَنَّهُمْ نُشِرُوا وَجَدْتَ كُلُومَهُمْ تَدْمِي كَأَنَّكَ فِي الْقِتَالِ تَرَاهَا
هُمْ عِنْدَ رَبِّكَ يُرْزَقُونَ فَحَيِّهِمْ وَصِفِ الْحَيَاةَ لِأَنْفُسٍ تَهْوَاهَا
اللَّهُ بَارَكَهَا بِبَدْرٍ وَقْعَةً كُلُّ الْفُتُوحِ الْغُرِّ مِنْ جَدْوَاهَا
بَخِلَ الزَّمَانُ فَكُنْتُ مِنْ شُعَرَائِهَا لَوْ شَاءَ رَبِّي كُنْتُ مِنْ قَتْلَاهَا

وَالْبَيْتُ الْأَخِيرُ يُصَوِّرُ شُعُورَ الشَّاعِرِ الْحَقِيقِيَّ نَحْوَ هَؤُلَاءِ الشُّهَدَاءِ، فَهُوَ يَقُولُ مُتَأَوِّهًا: لَقَدْ بَخِلَ الزَّمَانُ حِينَ تَأَخَّرَ بِيَ الزَّمَنُ فَلَمْ أَكُنْ مِنْ شُهَدَاءِ هَذِهِ الْمَعْرَكَةِ، بَلْ قُدِّرَ لِيَ أَنْ أَكُونَ مِنْ شُعَرَائِهَا الْيَوْمَ فَحَسْبُ، وَهُوَ مَعْنًى لَا يَفِدُ إِلَّا عَلَىٰ خَاطِرِ مُؤْمِنٍ بَاسِلٍ يَتَمَنَّىٰ الشَّهَادَةَ كَسَابِقِيهِ مِنَ الْأَبْرَارِ، وَلَوْ أُتِيحَ لِهَذَا الدِّيوَانِ الْخَالِدِ، دِيوَانِ مَجْدِ الْإِسْلَامِ مَنْ يَقْرَؤُهُ بِعَاطِفَتِهِ قَبْلَ أَنْ يَقْرَأَهُ بِفِكْرِهِ، لَأَنْشَأَ جِيلًا بَاسِلًا يَهِيمُ بِالْعِزَّةِ، وَتِلْكَ رِسَالَةُ الشِّعْرِ فِي أَبْهَىٰ مَجَالِيهَا الرَّفِيعَةِ، ذَاتِ السُّمُوِّ وَالِاسْتِعْلَاءِ. لَقَدْ قُلْتُ مِنْ قَبْلُ: إِنَّ الشَّاعِرَ الْكَبِيرَ قَدِ الْتَزَمَ بِالْوَقَائِعِ الْمُدَوَّنَةِ، فَلَمْ يُتِحْ لِنَفْسِهِ أَنْ يَخْتَلِقَ مَا لَمْ يَكُنْ، لِيَزِيدَ مِنْ رَوْعَةِ التَّأْثِيرِ كَمَا يَفْعَلُ بَعْضُ الرِّوَائِيِّينَ وَأَصْحَابُ الْمَلَاحِمِ، وَلَئِنْ

جارَ اصْطِنَاعُ الْأُسْطُورَةِ فِي مَلْحَمَاتٍ شَعْبِيَّةٍ تَتَحَدَّثُ عَنْ عَنْتَرَةَ وَالْمُهَلْهِلِ وَالظَّاهِرِ بِيبَرْسَ ، فَلَنْ يَجُوزَ فِي دِيوَانٍ يُسَجِّلُ مَجْدًا حَقِيقِيًّا نَهَضَ بِهِ أَعْظَمُ دَاعِيَةٍ أَرْسَلَهُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ لِيُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَىٰ النُّورِ ، وَمِنْ هُنَا كَانَ الْأُسْتَاذُ الدُّكْتُورُ شَوْقِيٌّ ضَيْفٌ مُبَالِغًا حِينَ قَالَ عَنْ إِلْيَاذَةِ مُحَرَّمٍ[1]:

« وَقَدْ نَظَمَ أَحْمَدُ مُحَرَّمٍ السِّيرَةَ النَّبَوِيَّةَ ، وَسَمَّاهَا الْإِلْيَاذَةَ الْإِسْلَامِيَّةَ ، وَهِيَ مَجْمُوعَةٌ مِنَ الْقَصَائِدِ لَا رَابِطَةَ بَيْنَهَا ، وَلَا خَيَالَ وَلَا حَيَاةَ ، وَهِيَ فِي الْحَقِيقَةِ ضَرْبٌ مِنَ الشِّعْرِ التَّارِيخِيِّ تُسَجَّلُ فِيهِ حَوَادِثُ التَّارِيخِ ، أَوْ ضَرْبٌ مِنَ الشِّعْرِ التَّعْلِيمِيِّ الَّذِي يُنْظَمُ فِيهِ تَارِيخُ الْعُلُومِ ، وَلَيْسَ فِيهَا شَيْءٌ مِنَ الشِّعْرِ الْقَصَصِيِّ ، الَّذِي يَخْلُقُ الْخَيَالُ فِيهِ مَادَّةَ الشِّعْرِ خَلْقًا جَدِيدًا » .

فَأَنْتَ تَرَىٰ النَّاقِدَ الْفَاضِلَ يَصِفُ دِيوَانَ مَجْدِ الْإِسْلَامِ بِأَنَّهُ قَصَائِدُ لَا رَابِطَ بَيْنَهَا ، وَهَذَا مَا يُخَالِفُ الْوَاقِعَ ؛ لِأَنَّ الدِّيوَانَ يَتَحَدَّثُ عَنْ سِيرَةٍ مُتَرَابِطَةِ الْأَحْدَاثِ ، وَقَدْ سَلْسَلَ الشَّاعِرُ حَدِيثَهُ تَسَلْسُلًا زَمَنِيًّا ، إِذِ ابْتَدَأَ بِالْحَدِيثِ عَنْ إِيذَاءِ قُرَيْشٍ لِصَاحِبِ الدَّعْوَةِ ثُمَّ عَنْ هِجْرَتِهِ الْكَرِيمَةِ ، وَكَانَ حَدِيثُهُ فِي هَذَيْنِ مُقْتَضَبًا يَحْتَاجُ إِلَىٰ سَبْحٍ دَافِقٍ ، وَكَأَنَّهُ رَأَىٰ أَنَّ أَحْدَاثَ الْبَلَاءِ فِي مَكَّةَ لَيْسَتْ مِنْ أَمْجَادِ الْإِسْلَامِ الَّتِي تُضَافُ إِلَىٰ تَارِيخِهِ الْمُسَطَّرِ ، حِينَ تَبَدَّلَ الْوَضْعُ فِي الْمَدِينَةِ فَأَصْبَحَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ رَئِيسًا لِدَوْلَةٍ نَاشِئَةٍ ذَاتِ أَهْدَافٍ ، بَعْدَ أَنْ كَانَ مُحَاصَرًا مِنْ أَعْدَائِهِ فِي كُلِّ اتِّجَاهٍ يَنْتَحِيهِ ، وَهَذِهِ نَظْرَةٌ أُخَالِفُهَا ؛ لِأَنَّ حَلَقَاتِ الِاضْطِهَادِ فِي مَكَّةَ كَانَتْ لَيْلًا تَمَخَّضَ عَنْهُ الْفَجْرُ ، وَلَا بُدَّ أَنْ نَذْكُرَ مَا كَانَ كَمَا كَانَ ، وَالَّذِي يَذُوقُ الْغِنَىٰ مِنْ أَهْلِ الْيَسَارِ

(١) دراسات في الشعر المعاصر ص ٣٤ للدكتور شوقي ضيف .

لَا يَعِيبُهُ أَنْ كَانَ فَقِيرًا يَبْنِي مَجْدَهُ مُجَالِدًا مُجَاهِدًا حَتَّىٰ بَلَغَ مَا تَمَنَّاهُ ! فَإِذَا أَفْضَىٰ الْحَدِيثُ إِلَىٰ مَا بَعْدَ الْهِجْرَةِ فَقَدِ اتَّسَعَ الْمَقَامُ لِتَحْلِيلٍ شَافٍ وَوَصْفٍ ضَافٍ وَتَصْوِيرٍ بَلِيغٍ ، وَإِذَا كَانَ الشَّاعِرُ الْكَبِيرُ يَسْرِدُ تَارِيخًا مُعَيَّنًا تَرَتَّبَ زَمَنُهُ ، وَتَسَلْسَلَتْ أَحْدَاثُهُ ، حَدَثًا وَرَاءَ حَدَثٍ ، فَأَيْنَ هُوَ عَدَمُ التَّرَابُطِ ؟.

أَلَسْنَا حِينَ نُتَرْجِمُ لِإِنْسَانٍ فَنَسْرِدُ مَا تُعُورِفَ مِنْ مَوْلِدِهِ وَنَشْأَتِهِ وَشَبَابِهِ وَكُهُولَتِهِ نَكُونُ قَدْ مَرَرْنَا بِسِلْسِلَةِ حَيَاتِهِ حَلْقَةً حَلْقَةً ، فَإِذَا جَازَ لِأَحَدٍ أَنْ يَقُولَ فِي هَذَا التَّتَابُعِ الزَّمَنِيِّ إِنَّهُ غَيْرُ مُتَرَابِطٍ ، فَلَيْتَ شِعْرِي أَيُّ رَبْطٍ يَعْنِيهِ ؟.

وَإِذَا تَرَكْنَا الْقَوْلَ بِعَدَمِ التَّرَابُطِ إِلَىٰ قَوْلِ النَّاقِدِ : إِنَّ الدِّيوَانَ قَدْ خَلَا مِنَ الْحَيَاةِ وَالْخَيَالِ ، وَإِنَّمَا هُوَ ضَرْبٌ مِنَ الشِّعْرِ التَّارِيخِيِّ تُسَجَّلُ فِيهِ حَوَادِثُ التَّارِيخِ ، أَوْ ضَرْبٌ مِنَ الشِّعْرِ التَّعْلِيمِيِّ الَّذِي يُنْظَمُ فِيهِ تَارِيخُ الْعُلُومِ « يُرِيدُ قَوَاعِدَ الْعُلُومِ » فَإِنَّنَا نَعْجَبُ لِهَذَا الرَّأْيِ ؛ لِأَنَّ النَّظْمَ التَّعْلِيمِيَّ فِي مُتُونِهِ الْمَشْهُورَةِ ، لَا يَمُتُّ بِسَبَبٍ قَرِيبٍ أَوْ بَعِيدٍ إِلَىٰ إِلْيَاذَةِ مُحَرَّمٍ ، وَقَدْ طُبِعَتْ أَخِيرًا فِي أَكْثَرَ مِنْ أَرْبَعِمِائَةٍ وَخَمْسِينَ صَفْحَةً تُسَجِّلُ أَحْدَاثَ السِّيرَةِ تَسْجِيلَ الشَّاعِرِ الْمُسْتَلْهِمِ لَا النَّاظِمِ الْجَامِعِ ، فَلَمْ يَكُنْ أَحْمَدُ مُحَرَّم سَارِدَ أَحْدَاثٍ تَتَعَاقَبُ كَمَا دَوَّنَهَا الْمُؤَرِّخُونَ دُونَ أَنْ يُبْرِزَ الْكَثْرَةَ الْكَاثِرَةَ مِنْ هَذِهِ الْأَحْدَاثِ فِي مَشَاهِدَ أَخَّاذَةٍ تَنْتَقِلُ إِلَىٰ عَالَمِ الشِّعْرِ الْجَائِشِ بِصُوَرِهِ وَخَوَاطِرِهِ وَمَعَانِيهِ ، وَلِلْقَارِئِ أَنْ يُطَالِعَ مَشَاهِدَ الْغَزَوَاتِ الْحَرْبِيَّةِ مَشْهَدًا مَشْهَدًا ، لِيَرَىٰ كَيْفَ اتَّجَهَ الشَّاعِرُ فِي تَصْوِيرِهَا ! إِنَّهُ يَتَّخِذُ مِنَ الْمَادَّةِ التَّارِيخِيَّةِ سَبِيلًا إِلَىٰ الْحَدِيثِ الشِّعْرِيِّ عَنِ انْفِعَالِهِ الصَّادِقِ ، وَهُيَامِهِ الْمَشْبُوبِ ، وَانْطِبَاعِهِ الْبَصِيرِ ، وَلَوِ اقْتَصَرَ عَلَىٰ نَظْمِ الْوَاقِعِ فَحَسْبُ كَمَا قَرَّرَ الدُّكْتُورُ شَوْقِي مَا كَانَ

الشَّاعِرَ الْكَبِيرَ حَقًّا !! وَلَكِنَّ نَاقِدِي مُحَرَّم لَا يُرِيدُونَ أَنْ يَفْهَمُوا مِنْ دِيوَانِ مَجْدِ الْإِسْلَامِ إِلَّا مَا فَهِمُوهُ مِنْ إِلْيَاذَةِ هُومِيرُوسَ ، فَلَا بُدَّ أَنْ يَخْلُقَ الشَّاعِرُ أُسْطُورَةً ، وَأَنْ يُحَلِّقَ بِجَنَاحِهِ إِلَىٰ حَيْثُ تَتَوَالَىٰ الشَّيَاطِينُ وَالْغِيلَانُ وَعَرَائِسُ الْبَحْرِ ، وَتَتَهَاوَىٰ النَّيَازِكُ وَالشُّهُبُ ، وَهُنَا يَصِيرُ الشَّاعِرُ ذَا خَيَالٍ ، أَمَّا أَحْمَدُ مُحَرَّم فَيَتَحَدَّثُ عَنْ بَطَلٍ نَبِيٍّ مَشْهُورِ الْوَقَائِعِ لَا لِيَخْتَلِقَ مَا لَمْ يَكُنْ ، بَلْ لِيُصَوِّرَ مَا كَانَ فِي جَوٍّ شِعْرِيٍّ بَاهِرٍ ، ثُمَّ هُوَ بَعْدُ أَحَدُ شُعَرَاءِ الْبَعْثِ الَّذِينَ أَدَّوْا دَوْرَهُمُ الْقَوِيَّ فِي تَجْدِيدِ الدِّيبَاجَةِ الشِّعْرِيَّةِ ، وَإِعَادَتِهَا إِلَىٰ بَهَائِهَا السَّالِفِ فِي أَزْهَىٰ عُهُودِهَا الزَّاهِرَةِ ، وَلَئِنْ خَالَفَ « هُومِيرُوسَ » وَأَضْرَابَهُ فَمَا خَرَجَ عَنْ سَنَنِ شُعَرَاءِ الْعَرَبِ فِي وَصْفِ الْمَعَارِكِ مِنْ أَمْثَالِ أَبِي تَمَّامٍ وَأَبِي الطَّيِّبِ وَأَبِي فِرَاسٍ وَالْبَارُودِيِّ وَهُمْ ذَوُو مَكَانَةٍ لَا تُنْكَرُ لَدَىٰ الدَّارِسِينَ ! يُخَيَّلُ إِلَيَّ أَنَّ الْمُؤَرِّخَ النَّاقِدَ الدُّكْتُورَ شَوْقِيَّ ضَيْفَ قَدْ قَرَأَ دِيوَانَ مَجْدِ الْإِسْلَامِ قِرَاءَةَ الْمُتَصَفِّحِ الْمُتَعَجِّلِ ، فَاكْتَفَىٰ بِبَعْضِ قَصَائِدَ طَالَعَتْهُ لِأَوَّلِ وَهْلَةٍ ، وَتَعَجَّلَ فِي الْحُكْمِ دُونَ أَنْ يَقْرَأَ الدِّيوَانَ فِي صَفَحَاتِهِ الْوَافِيَةِ وَالشَّافِيَةِ ! وَمَعَ هَذَا الْفَرْضِ فَإِنِّي أَرَىٰ النَّاقِدَ لَمْ يَقْرَأْ حَتَّىٰ مَطْلَعَ الدِّيوَانِ فِي قَصِيدَتِهِ الْأُولَىٰ ؛ لِأَنَّهُ لَوْ قَرَأَ الْقَصِيدَةَ الْفَاتِحَةَ فَحَسْبُ ، مَا ذَهَبَ إِلَىٰ أَنَّ الدِّيوَانَ نَظْمٌ تَعْلِيمِيٌّ كَنَظْمِ أَصْحَابِ الْمُتُونِ الدِّرَاسِيَّةِ مِنْ نَاظِمِي الْقَوَاعِدِ الْعِلْمِيَّةِ ! وَكَيْفَ يَذْهَبُ إِلَىٰ ذَلِكَ وَهُوَ يَتْلُو قَوْلَ مُحَرَّم فِي افْتِتَاحِيَّتِهِ تَحْتَ عُنْوَانِ « مَطْلَعُ النُّورِ الْأَوَّلِ »(1) :

امْلَإِ الْأَرْضَ يَا مُحَمَّدُ نُورًا　　وَاغْمُرِ النَّاسَ حِكْمَةً وَالدُّهُورَا

(1) دِيوَانُ مَجْدِ الْإِسْلَامِ ص ٣٥ .

حَجَبَتْكَ الْأَقْدَارُ سِرًّا تَجَلَّىٰ   يَكْشِفُ الْحُجُبَ كُلَّهَا وَالسُّتُورَا
عَبَّ سَيْلُ الْفَسَادِ فِي كُلِّ وَادٍ   فَتَدَفَّقْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَغُورَا
جِئْتَ تَرْمِي عُبَابَهُ بِعُبَابٍ   رَاحَ يَطْوِي سُيُولَهُ وَالْبُحُورَا
زَاخِرٌ يَشْمَلُ الْبَسِيطَةَ مَدًّا   وَيَعُمُّ السَّبْعَ الطِّبَاقَ هَدِيرَا
أَنْجَبَ الدَّهْرُ فِي ظِلَالِكَ عَصْرًا   نَابِهَ الذِّكْرِ فِي الْعُصُورِ شَهِيرَا
كَيْفَ تَجْزِي جَمِيلَ صُنْعِكَ دُنْيَا   كُنْتَ بَعْثًا لَهَا، وَكُنْتَ نُشُورَا؟!
وَلَدَتْكَ الْكَوَاكِبُ الزُّهْرُ فَجْرًا   هَاشِمِيَّ السَّنَا، وَصُبْحًا مُنِيرَا
يَصْدَعُ الْغَيْهَبَ الْمُجَلَّلَ بِالْوَحْـ(م)   ـــيِ الْمُلَقَّىٰ، وَيَكْشِفُ الدَّيْجُورَا
مَنْطِقُ الْقُدْرَةِ الَّتِي تُرْهِقُ الْقَا(م)   دِرَ عَجْزًا، وَالْعَبْقَرِيَّ قُصُورَا
خَرَّتِ الْعُرْبُ مِنْ مَشَارِفِهَا   الْعُلْيَا تُوَالِي هُوِيَّهَا وَالْحُدُورَا..
بَاتَ فِيهَا مَلْكُ الْبَيَانِ حَرِيبًا   يُسْلِمُ الْجُنْدَ وَالْحِمَىٰ وَالثُّغُورَا
أَنْكَرَ النَّاسُ رَبَّهُمْ وَتَوَلَّوْا   يَحْسَبُونَ الْحَيَاةَ إِفْكًا وَزُورَا
تِلْكَ أَرْبَابُهُمْ أَيَمْلِكُ أَنْ تَنْـــ(م)   ـــفَعَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ، أَوْ تَضِيرَا
قَهَرُوهَا صِنَاعَةً، أَعْجَبُ الْأَرْ(م)   بَابِ مَا كَانَ عَاجِزًا مَقْهُورَا

فَهَلْ هَذِهِ الْأَبْيَاتُ نَظْمٌ تَعْلِيمِيٌّ كَمُتُونِ الْعُلُومِ؟.

لَا أُنْكِرُ أَنَّ مُحَرَّمًا تَعَجَّلَ فِي قَلِيلٍ مِمَّا نَظَمَ، فَأَدْرَكَهُ الْفُتُورُ فِي قَصَائِدَ قَلِيلَةٍ لَا تَكَادُ تَكُونُ شَيْئًا جِوَارَ مَا أَبْدَعَ فِيهِ، وَلِكُلِّ مُبْدِعٍ ارْتِقَاءَاتُهُ الْعَالِيَةُ أَحْيَانًا، وَمُنْحَدَرَاتُهُ حِينًا، وَمِنْ هَذِهِ الْمُنْحَدَرَاتِ مَا سَبَقَ أَنْ أَلْمَعْنَا إِلَيْهِ حِينَ

أَشَرْنَا إِلَى إِيجَازِهِ الْحَدِيثَ عَنِ الْفَتْرَةِ الْمَكِّيَّةِ ؛ لِأَنَّ نُزُولَ الْوَحْيِ فِي غَارِ حِرَاءٍ ، وَرُؤْيَةَ الْمَلَكِ فِي السَّمَاءِ ، وَابْتِدَاءَ الدَّعْوَةِ عَلَى الصَّفَا ، وَجَلَالَ دَارِ الْأَرْقَمِ ، وَإِسْلَامَ حَمْزَةَ ، وَبَأْسَ الْفَارُوقِ فِي مُصَاوَلَةِ الْمُشْرِكِينَ مِمَّا يَحْتَاجُ إِلَى تَصْوِيرٍ دَقِيقٍ ، هَذَا عَمَّا يُقَالُ فِيمَا قَبْلَ الْهِجْرَةِ ، أَمَّا مَا يُقَالُ بَعْدَ الْهِجْرَةِ فِي الْمَدِينَةِ ؛ فَإِنَّ الْمَأْخَذَ الَّذِي يَلُوحُ لِلْمُتَأَمِّلِ فِي قَصَائِدِ الشَّاعِرِ الْمَدَنِيَّةِ ، هُوَ أَنَّهُ الْتَزَمَ أَنْ يُسَلْسِلَ جَمِيعَ أَحْدَاثِ النُّبُوَّةِ حَدَثًا حَدَثًا ، وَهُوَ الْتِزَامٌ أَضْعَفَ بَعْضَ النَّوَاحِي فِي إِبْدَاعِهِ ، إِذْ كَانَ الْأَوْفَقُ أَنْ يَسْتَعْرِضَ مُحَرَّمٌ الْأَحْدَاثَ جَمِيعَهَا ثُمَّ يَخْتَارَ مِنْهَا مَا يَصْلُحُ لِلتَّصْوِيرِ الْأَدَبِيِّ بِرَوْعَةِ مُفَاجَآتِهِ ، وَسُمُوِّ مَغْزَاهُ ، وَبَالِغِ تَضْحِيَاتِهِ ، أَمَّا الْحَدِيثُ عَنِ الْمَشَاهِدِ الثَّانَوِيَّةِ فَمِنْ شَأْنِ الْمُؤَرِّخِ الْمُدَقِّقِ ، لَا الشَّاعِرِ الْمُصَوِّرِ ، إِذِ الْأَصْلُ فِي رِسَالَةِ الشَّاعِرِ أَنْ يَسْتَجِيشَ خَوَاطِرَ قُرَّائِهِ ، حِينَ يَعْرِضُ عَلَيْهِمْ أَبْرَعَ اللَّوْحَاتِ فَيَسْمُو بِهِمْ إِلَى أَرْفَعِ الْمَعَانِي الْإِنْسَانِيَّةِ الَّتِي أَبْلَى رَسُولُ اللَّهِ ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ أَصْدَقَ الْبَلَاءِ فِي تَحْقِيقِهَا ، وَلَكِنْ هَذَا شَيْءٌ ، وَمَا قِيلَ عَنِ الْإِلْيَاذَةِ مِنْ أَنَّهَا قَرِيبَةُ الشَّبَهِ بِنَظْمِ الْمُتُونِ التَّعْلِيمِيَّةِ شَيْءٌ آخَرُ ، فَالشَّأْوُ بَيْنَهُمَا بَعِيدٌ ..

وَمِنَ الْأَوْفَقِ أَنْ أُمَثِّلَ لِبَعْضِ مَا لَا أَوَدُّهُ ـ عَلَى قِلَّتِهِ الْقَلِيلَةِ فِي الدِّيوَانِ ـ لِأَتَحَدَّثَ بَعْدَ ذَلِكَ عَنْ أَمْثِلَةٍ رَائِعَةٍ مِمَّا أُعْجَبُ بِهِ ، فَلَدَيْكَ مَثَلًا حَدِيثُ الشَّاعِرِ عَنْ مَسْجِدِ الضِّرَارِ ، إِذْ كَانَ وَكْرَ النِّفَاقِ ، هُيِّئَ لِيَجْتَمِعَ بِهِ مَنْ يَكِيدُونَ لِلْإِسْلَامِ مِنْ أَعْدَائِهِ وَقَدْ عَبَّرَ عَنْهُ الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ أَعْظَمَ تَعْبِيرٍ حِينَ قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ فِي كِتَابِهِ الْعَزِيزِ :

﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ

وَ إِرْصَادًا لِمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِن قَبْلُ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَىٰ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ * لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ * أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أَم مَّنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَانْهَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ * لَا يَزَالُ بُنْيَانُهُمُ الَّذِي بَنَوْا رِيبَةً فِي قُلُوبِهِمْ ، إِلَّا أَن تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾[1].

هَذَا الْمَوْقِفُ ذُو أَثَرٍ انْفِعَالِيٍّ ضَخْمٍ ، يَسْتَطِيعُ الشَّاعِرُ الْمُحَلِّقُ أَنْ يُصَوِّرَ فِيهِ هَمَسَاتِ الارْتِيَابِ ، وَتَنَاجِيَ الدَّسَائِسِ ، وَتَغَلْغُلَ الْمَكَائِدِ ، ثُمَّ يَنْتَقِلَ إِلَى الْخِدَاعِ الزَّائِفِ بِبِنَاءِ مَسْجِدٍ ظَاهِرُهُ الْإِيمَانُ وَبَاطِنُهُ الْكُفْرُ ، وَقَدْ حَسِبَ أَصْحَابُهُ أَنَّهُمْ خَدَعُوا الْمُسْلِمِينَ بِإِيمَانِهِمْ ، وَأَنَّهُمْ قَدِ اسْتَلُّوا كُلَّ هَاجِسِ شَكٍّ مِنْ نُفُوسِهِمْ ، حِينَ أَقَامُوا الْمَسْجِدَ لِعِبَادَةِ اللَّهِ ! وَ إِذَا بِالضُّحَىٰ السَّاطِعِ يُسَلِّطُ ضَوْءَهُ عَلَىٰ سَرَادِيبِ النِّفَاقِ لِيَجِدَهَا مَلِيئَةً بِسُمِّ الْعَقَارِبِ ، وَأَنْيَابِ الْأَفَاعِي الْقَاتِلَاتِ ، وَلَكِنَّ الشَّاعِرَ الْمُتَسَرِّعَ هُنَا قَدْ مَرَّ بِالْحَدَثِ مُرُورًا عَابِرًا حِينَ قَالَ عَنْهُ :

يَا بَنِي غُنْمِ بْنِ عَوْفٍ مَا لَكُمْ　　تَجْعَلُونَ الدِّينَ كَيْدًا وَضِرَارًا ؟
أَغَضِبْتُمْ أَنْ بَنَىٰ إِخْوَتُكُمْ　　فِي قِبَاءٍ مَسْجِدًا يَهْدِي الْحَيَارَىٰ
فَاتَّخَذْتُمْ غَيْرَهُ تَبْغُونَهُ　　فِتْنَةً لِلنَّاسِ جَهْلًا وَاغْتِرَارًا
وَجَمَعْتُمْ فِيهِ مِنْ أَشْيَاعِكُمْ　　كُلَّ غَاوٍ يَجْعَلُ السُّوءَ شِعَارًا

(١) سورة التوبة الآية ١٠٧ إلى ١١٠.

مُفْترٍ يَهْذِي بِقَوْلِ الزُّورِ فِي ... سَيِّدِ الرُّسْلِ، وَيُؤْذِيهِ جِهَارَا

يَا بَنِي غُنْمِ بْنِ عَوْفٍ إِنَّهَا ... شِيَمُ الْحَمْقَى، وَأَخْلَاقُ السُّكَارَى

اسْتَفِيقُوا إِنَّهُ قَدْ جَاءَكُمْ ... مِنْ جُنُودِ اللَّهِ أَقْوَامٌ غَيَارَى

قَالَ مَوْلَاهُمْ هَلُمُّوا فَاهْدِمُوا ... مَسْجِدَ السُّوءِ جِدَارًا فَجِدَارَا

وَابْعَثُوا النَّارَ عَلَيْهِ جَهْرَةً ... إِنَّمَا الْمُؤْمِنُ مَنْ يُصْلِيهِ نَارَا

صَدَعُوا بِالْأَمْرِ وَازْدَادَ الْأُلَى ... طَاوَعُوا الْفَاسِقَ ذُلًّا وَصَغَارَا

زَيَّنَ الْفَاحِشَةَ الْكُبْرَى لَهُمْ ... فَأَتَوْهَا لَا يَخَافُونَ الْبَوَارَا

هَذَا كُلُّ مَا قَالَهُ مُحَرَّمٌ عَنْ مَسْجِدِ الضِّرَارِ، وَلَهُ فِي مِثْلِ هَذَا التَّسَرُّعِ نَظَائِرُ قَلِيلَةٌ فِي الدِّيوَانِ، لَنْ تَكُونَ وَحْدَهَا مَوْضِعَ الْحُكْمِ الشَّامِلِ الْعَامِّ عَلَيْهِ، لِأَنَّ بِجِوَارِهَا الْكَثِيرَ الْحَافِلَ مِمَّا ازْدَهَرَ بِرَوَائِعِ الْخَيَالِ، وَحَفَلَ بِأَمْتَعِ الصُّوَرِ وَأَصْدَقِ الِانْطِبَاعَاتِ، وَإِذَا أَلَّفَ نَاقِدُ مُحَرَّمٍ كِتَابًا أَجَادَ فِي أَكْثَرِ فُصُولِهِ، وَتَخَلَّفَ فِي قَلِيلٍ مِنْهُ عَنِ الْمُسْتَوَى الْمَعْرُوفِ، فَهَلْ يَرْضَى أَنْ يَجِيءَ نَاقِدٌ آخَرُ فَيَحْكُمُ عَلَيْهِ بِمَا قَصَّرَ فِيهِ عَلَى قِلَّتِهِ دُونَ أَنْ يَنْظُرَ إِلَى مَوَاضِعِ السَّبْقِ وَالتَّبْرِيزِ؟! لَقَدْ آنَ أَنْ أَسْتَعْرِضَ مِنْ رَوَائِعِ الدِّيوَانِ بَعْضَ مَا يُمْتِعُ الْقَارِئَ الْمُحَايِدَ وَيُرْضِيهِ، وَسَيَكُونُ الشَّاهِدُ الْأَوَّلُ مَا حَاكَهُ مُحَرَّمٌ عَنْ قِصَّةِ الْإِفْكِ الشَّهِيرَةِ إِذْ صَوَّرَ مَشَاهِدَهَا الْمُعَبِّرَةَ، بِأَرْقَى مَا يَتَطَلَّعُ إِلَى تَصْوِيرِهِ شَاعِرٌ مُبْدِعٌ يَلْتَزِمُ الْوَاقِعَ دُونَ الْأُسْطُورَةِ فَيَقُولُ فِيمَا قَالَ[1]:

سَيِّدَ الرُّسْلِ وَأُمَّ الْمُؤْمِنِينَ ... بَشِّرَا الْأَبْطَالَ بِالنَّصْرِ الْمُبِينْ

(١) ديوان مجد الإسلام ص ١٤٠.

خَرَجَتْ فِي الْجَيْشِ تَرْجُو رَبَّهَا   عِصْمَةَ الرَّاجِي، وَعَوْنَ الْمُسْتَعِينْ
يَنْصُرُ الْحَقَّ وَيَقْضِي أَمْرَهُ   إِنْ رَمَاهُ كُلُّ أَفَّاكٍ مَهِينْ
اصْبِرِي إِنْ جَلَّ أَمْرٌ إِنَّهَا   يَا ابْنَةَ الصِّدِّيقِ دُنْيَا الصَّالِحِينْ
أَرَأَيْتِ الْأَرْضَ لَمَّا رَجَفَتْ   إِذْ هَوَىٰ عِقْدُكِ، بَلْ لَا تَشْعُرِينْ
اقْشَعَرَّتْ وَتَمَنَّتْ لَوْ هَوَىٰ   كُلّ عَالٍ مِنْ رَوَاسِيهَا مَكِينْ
أَنْتِ فِي شَأْنِكِ إِذْ تَبْغِينَهُ   وَهْيَ فِي هَمٍّ وَغَمٍّ وَأَنِينْ
سَوْفَ يُبْدِي الْخَطْبُ عَنْ رَوْعَتِهِ   بَعْدَ حِينٍ، فَاصْبِرِي حَتَّىٰ يَحِينْ
رَفَعُوا الْهَوْدَجَ، وَالظَّنُّ بِهَا   أَنَّهَا فِيهِ وَسَارُوا مُدْلِجِينْ
وَانْجَلَىٰ اللَّيْلُ عَنِ الْخَطْبِ الَّذِي   غَادَرَ الْإِصْبَاحَ مُسْوَدَّ الْجَبِينْ
أَيْنَ غَابَتْ؟ أَيَّ أَرْضٍ نَزَلَتْ؟   كَيْفَ غُمَّ الْأَمْرُ؟ هَلْ مِنْ مُسْتَبِينْ
يَا رَسُولَ اللَّهِ صَبْرًا إِنَّهَا   فِي ذِمَامِ اللَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينْ
رَجَعَتْ، وَاللَّيْلُ فِي بُرْدَتِهِ   دَائِمُ الْإِطْرَاقِ كَالشَّيْخِ الرَّزِينْ
ذَهَبَ الْجَيْشُ وَأَمْسَتْ وَحْدَهَا   غَيْرَ أَصْدَاءٍ مِنَ الْوَادِي الْحَزِينْ
خَطَرَتْ فِي الْجَوِّ مِنْ أَنْفَاسِهَا   خَطَرَاتٌ لِلْأَسَىٰ مَا يَنْقَضِينْ
مَاجَ كَالْبَحْرِ طَغَتْ أَثْبَاجُهُ   وَارْتَمَتْ أَهْوَالُهُ حَوْلَ السَّفِينْ

وَمَضَىٰ الشَّاعِرُ بَعْدَ هَذَا التَّصْوِيرِ الرَّائِعِ لِلْجَوِّ النَّفْسِيِّ لَدَىٰ عَائِشَةَ الْوَحِيدَةِ فِي غَيْهَبِ اللَّيْلِ يَتَحَدَّثُ عَنْ صَفْوَانَ، حِينَ قَدِمَ فَرَأَىٰ عَائِشَةَ الْوَحِيدَةَ، وَجَعَلَ[1]:

(١) ديوَان مجد الْإِسْلَام ص ١٤١.

يُرْسِلُ الطَّرْفَ وَيَمْشِي نَحْوَهَا   مِشْيَةَ الْمُرْتَابِ فِي رِفْقٍ وَلِينْ
عَرَفَ الْخَطْبَ فَمَا أَصْدَقَهُ   حِينَ يَدْعُو دَعْوَةَ الْمُسْتَرْجِعِينْ
دَعْوَةٌ رَنَّتْ، فَلَوْ قِيلَ اسْمَعُوا   لَسَمِعْنَا الْيَوْمَ تَرْدَادَ الرَّنِينْ
أَيْقَظَتْ عَائِشَةً مِنْ نَوْمِهَا   مِثْلَمَا يُوقِظُهَا صَوْتُ الْأَذِينْ
جَفَلَتْ مِنْهُ فَغَطَّتْ وَجْهَهَا   وَهْيَ فِي سِتْرَيْنِ مِنْ عَقْلٍ وَدِينْ
أَخَذَ الْمِقْوَدَ يُمْنًا، وَمَضَىٰ   يَتْبَعُ الْمَاضِينَ مِنْ أَهْلِ الْيَمِينْ
يَنْتَحِي يَثْرِبَ بِالنُّورِ الَّذِي   يَمْلَأُ الدُّنْيَا وَيُعْيِي الْمُطْفِئِينْ

وَشَاعَ حَدِيثُ الْإِفْكِ، وَقَدْ صَوَّرَهُ الشَّاعِرُ بِمَا كُنَّا نَوَدُّ ذِكْرَهُ لَوْلَا خَشْيَةُ التَّطْوِيلِ، وَتَرَفُّعًا عَنْ ذِكْرِ الْمُرْجِفِينَ مِنْ دُعَاةِ السُّوءِ، وَقَدْ مَرِضَتْ عَائِشَةُ قَبْلَ أَنْ يُزْعِجَهَا النَّبَأُ، وَلِسَلَامَةِ طَوِيَّتِهَا أَخَذَتْ تَشْتَكِي الْعِلَّةَ الطَّارِئَةَ وَحْدَهَا، وَهُنَاكَ الْعِلَّةُ الْأُخْرَىٰ الذَّائِعَةُ، تِلْكَ الَّتِي أَفْصَحَ عَنْهَا الشَّاعِرُ قَائِلًا(١):

يَا ابْنَةَ الصِّدِّيقِ صَبْرًا لَيْتَهُ   أَلَمُ الْمَرْضَىٰ وَهَمُّ الْمُوجَعِينْ
يَا لَهَا مِنْ عِلَّةٍ لَوْ تَعْلَمِينَ   إِنَّهَا أَبْرَحُ مَا تَشْتَكِينْ
أَعْقَبَ الْبِشْرَ عُبُوسٌ وَبَدَا   مِنْ رَسُولِ اللَّهِ مَا لَا تَرْتَضِينْ
غَيَّرُوهُ، فَلَوَىٰ مِنْ عِطْفِهِ   وَطَوَىٰ مِنْ لُطْفِهِ مَا تَعْهَدِينْ
وَهْوَ يُخْفِي لَكِ مَا لَا يَنْقَضِي   مِنْ هَوًى صَافٍ، وَشَوْقٍ وَحَنِينْ
سَجَنَ السِّرَّ، وَكَمْ مِنْ رَوْعَةٍ   لَكِ يَا أُمَّاهُ فِي السِّرِّ السَّجِينْ
أَنْصِتِي، فَاللَّيْلُ مُصْغٍ أَنْصِتِي   وَقَعَ الْخَطْبُ فَمَاذَا تَصْنَعِينْ

(١) ديوان مجد الإسلام ص ١٤٢.

جَاشَتِ النَّفْسُ، وَلَجَّتْ رَعْدَةٌ لَمْ تَدَعْ فِي الْقَلْبِ مِنْ رُكْنٍ رَكِينْ
مِشْطَحٌ لَا قَرَّ عَيْنًا مِسْطَحٌ شَبَّهَا نَارًا تَهُولُ الْمُصْطَلِينْ
فَضَحَتْهُ عَثْرَةٌ مِنْ أُمِّهِ فَانْظُرِي كَيْدَ ذَوِيكِ الْأَقْرَبِينْ
لَا تَلُومِيهَا إِذَا مَا غَضِبَتْ إِنَّهَا تَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمِينْ!
أَرْسَلَتْهَا دَعْوَةً وَاحِدَةً لَيْتَهَا زَادَتْ عَلَىٰ حَدِّ الْمِئِينْ
تَعِسَ الثَّعْلَبُ، مَا أَخْبَثَهُ فَدَعِي بَدْرًا وَآسَادَ الْعَرِينْ

فَمَاذَا يَرَىٰ الْقَارِئُ فِي هَذَا التَّصْوِيرِ الْمُلِمِّ بِخَوَافِي النُّفُوسِ، فِي إِحْكَامٍ بَارِعٍ لَا تَنْقُصُهُ حَلَاوَةُ الْإِيقَاعِ، وَلَا بَرَاعَةُ التَّلْوِينِ؟ هَلْ فَاتَ الشَّاعِرَ مَا يُمْكِنُ أَنْ يُقَالَ فِي رَسْمِ الْخَوَالِجِ، وَتَصْوِيرِ الْهَمَسَاتِ الْخَافِيَةِ طَيَّ الشِّغَافِ، لَقَدْ وَاصَلَ حَدِيثَهُ الرَّائِعَ عَمَّا تَلَا ذَلِكَ مِنَ الْمَوَاقِفِ الْمُضْطَرِعَةِ، حِينَ اسْتَأْذَنَتْ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ أَنْ تَذْهَبَ إِلَىٰ بَيْتِ أَبِيهَا فَأَذِنَ، وَمَضَتْ عَلَىٰ حَالٍ أَجَادَ مُحَرَّمٌ وَصْفَهَا حِينَ قَالَ[1]:

ذَهَبَتْ يُحْزِنُهَا إِنْ لَمْ يَكُنْ طَوَّحَ الدَّهْرُ بِهَا فِي الذَّاهِبِينْ
ثُمَّ قَالَتْ، وَهْيَ تَبْكِي عَجَبًا لَكِ يَا أُمَّاهُ مَاذَا تَكْتُمِينْ؟
أَفَلَا نَبَّأْتِنِي مَا زَعَمُوا وَيْحَهُمْ مَا حِيلَتِي فِي الزَّاعِمِينْ
ظَلَمُونِي مَا رَعَوْا لِيَ حُرْمَةً رَبِّ كُنْ لِي، مَا أَقَلَّ الْمُنْصِفِينْ
جَزِعَ الصِّدِّيقُ مِمَّا نَابَهُ إِنَّهُ خَطْبٌ يَهُولُ الْمُصْطَلِينْ
قَالَ أُفٍّ لَكِ مِنْ دَاهِيَةٍ مَا رُمِينَا بِكِ فِي مَاضِي السِّنِينْ

(١) ديوان مجد الإسلام ص ١٤٤.

أَفَلَمَّا زَانَنَا دِينُ الْهُدَىٰ   شَانَنَا مِنْكَ حَدِيثٌ لَا يَزِينْ
كَيْفَ تِيكُمْ؟ يَا لَهَا صَاعِقَةً   أُرْسِلَتْ مِنْ فَمِ خَيْرِ الْمُرْسَلِينْ
كَيْفَ تِيكُمْ؟ كُلَّمَا جَاءَ،   إِنَّ اللَّهَ مَوْلَىٰ الصَّابِرِينْ

وَمَضَتِ الْحَادِثَةُ إِلَىٰ غَايَتِهَا فِي هَذَا السِّيَاقِ الْمُتَسَلْسِلِ، حَتَّىٰ هَبَطَ الْوَحْيُ بِالْبَرَاءَةِ! وَلَئِنْ كَانَ هَذَا شَبِيهًا بِنَظْمِ الْمُتُونِ، فَأَيْنَ يَكُونُ الْقَصِيدُ؟!!.

فَإِذَا تَرَكْنَا حَادِثَ الإِفْكِ لِمَثَلٍ آخَرَ، فَإِنَّنَا نَخْتَارُ فَتْحَ مَكَّةَ إِذْ نَظَمَ أَحْمَدُ مُحَرَّم رَائِعَتَيْنِ بَارِعَتَيْنِ، تَتَحَدَّثُ أُولَاهُمَا عَمَّا سَبَقَ الْفَتْحَ الأَعْظَمَ مِنْ أَحْدَاثٍ، إِذْ نَقَضَتْ بَنُو بَكْرٍ عَهْدَهَا، وَكَانَتْ مَعَ قُرَيْشٍ فِي صُلْحِ الْحُدَيْبِيَةِ، فَعَدَوْا عَلَىٰ حُلَفَاءِ الْمُسْلِمِينَ فِي خُزَاعَةَ نَاكِثِينَ مَا أَعْطَوْهُ مِنْ مَوَاثِيقَ، فَتَأَهَّبَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لِرَدْعِ الظَّالِمِينَ. وَتَحَيَّرَ أَبُو سُفْيَانَ زَعِيمُ قُرَيْشٍ فِيمَا يَصْنَعُ، وَخَرَجَ يَتَحَسَّسُ الأَمْرَ، فَسَمِعَ عَنْ جُيُوشِ مُحَمَّدٍ صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَا أَفْزَعَهُ وَرَوَّعَهُ، وَوَقَفَ يُكَابِدُ هَوْلًا عَاصِفًا مِنْ جَرَّاءِ مَا ارْتَطَمَ فِيهِ مِنْ مَأْزِقٍ، ثُمَّ بَدَا لَهُ أَنْ يُعْلِنَ إِسْلَامَهُ لِحَسْمِ الشَّرِّ الْمُتَوَقَّعِ، وَقَدْ سَامَحَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَجَعَلَ مَنْزِلَهُ فِي مَكَّةَ دَارَ أَمْنٍ، وَهَذَا مَا تَرْوِيهِ كُتُبُ السِّيرَةِ! أَفَنَظَمَهُ مُحَرَّمٌ نَظْمَ الْمُتُونِ التَّعْلِيمِيَّةِ، كَمَا أَرَادَ النَّاقِدُ أَنْ يَقُولَ؟ أَمْ أَنَّهُ طَارَ فِي أُفُقِهِ الشِّعْرِيِّ؛ لِيُصَوِّرَ هَوَاجِسَ أَبِي سُفْيَانَ، إِذْ رَأَىٰ مَهَبَّ الْخَطَرِ، فَأَرَادَ النَّجَاةَ؟ لِنَدَعِ الشَّاعِرَ يُسْمِعُنَا قَوْلَهُ مِنْ رَائِعَتِهِ الأُولَىٰ[1]:

أَبَا سُفْيَانَ، ذَلِكَ مَا تَرَاهُ   هُوَ الْبَأْسُ الْمُصَمِّمُ لَا سِوَاهُ

(١) ديوان مجد الإسلام ص ٢٧٤.

أَلَيسَ الحِلْفُ قَدْ وَهَنَتْ عُرَاهُ   فَكَيْفَ تَشُدُّ بَعْدَئِذٍ قُوَاهُ
أَبَا سُفْيَانَ لَيْسَ لَكُمْ ذِمَامُ

دَعِ الأَرْحَامَ لَيسَ لَكُمْ شَفِيعُ   لَقَدْ حَاوَلْتَ مَا لَا تَسْتَطِيعُ
رُوَيْدَكَ إِنَّهُ الرَّأْيُ الْجَمِيعُ   وَإِنَّ اللَّهَ لَيْسَ لَهُ قَرِيعُ
تَعَالَىٰ جَدُّهُ وَسَمَا الْمَقَامُ

رَجَعْتَ وَأَزْعَجَتْكَ الحَادِثَاتُ   فَسِرْتَ تَقُولُ: هَلْ قَدِمَ الْغُزَاةُ؟
نَعَمْ قَدِمَ الْمَيَامِينُ الْهُدَاةُ   وَتِلْكَ جِيَادُهُمْ وَالْمُرْهَفَاتُ
فَدَعْ دِينَ الْغُوَاةِ، وَقُلْ: سَلَامُ

أَبَا سُفْيَانَ هَلْ أَبْصَرْتَ نَارًا   كَنَارِ الْقَوْمِ إِذْ بَاتُوا سَهَارَىٰ؟
أَبَتْ وَأَبَوْا، فَمَا تَأْلُوا اسْتِعَارًا   وَلَا تُحْصَىٰ، وَإِنْ عُدَّتْ مِرَارًا
هُوَ الْفَزَعُ الْمُؤَجَّجُ وَالضِّرَامُ

لَقَدْ أَنْذَرْتَ قَوْمَكَ فَاسْتَطَارُوا   وَرَاحُوا مَا يَقَرُّ لَهُمْ قَرَارُ
نَبَتْ بِهِمُ الْمَنَازِلُ وَالدِّيَارُ   وَضَاقَ سَبِيلُهُمْ فِيهَا وَحَارُوا
وَقَالَ سَرَاتُهُمْ: خَطْبٌ جِسَامُ

فَدَعْهُمْ يَا ابْنَ حَرْبٍ تَلْقَ رُشْدَا   وَبِالْحَقِّ اعْتَصِمْ فَالْحَقُّ أَجْدَىٰ
سَبِيلُ مُحَمَّدٍ، فَاسْلُكْهُ أَهْدَىٰ   وَخُذْهُ يَا ابْنَ حَرْبٍ مِنْهُ عَهْدَا
لِبَيْتِكَ فِيهِ مِنْ شَرَفٍ دِعَامُ

لَقِيتَ مُحَمَّدًا حُرًّا رَشِيدًا   فَعُدْتَ بِيُمْنِهِ خَلْقًا جَدِيدًا

هُدِيتَ، وَكُنْتَ جَبَّارًا عَنِيدَا   هَنِيئًا فَاصْحَبِ الْجَدَّ الْبَعِيدَا

بِـمَـا أَوْلَاكَ صَـاحِـبُـكَ الْـهُـمَـامُ

نَظَرْتَ فَهَلْ رَأَيْتَ أَشَدَّ صَبْرَا   وَأَحْسَنَ مَنْظَرًا، وَأَجَلَّ قَدْرَا

كَتَائِبُ مِنْ جُنُودِ اللَّهِ تَتْرَىٰ   تَمُرُّ عَلَيْكَ وَاحِدَةٌ، فَأُخْرَىٰ

لَـهَـا مِـنْ دِيـنِـهَـا الْـعَـالِـي نِـظَـامُ

تُكَبِّرُ رَبَّهَا، وَتَرَاهُ حَقًّا   وَتَبْذُلُ فِيهِ أَنْفُسَهَا فَتَبْقَىٰ

لَكَ الْبُشْرَىٰ نَعِمْتَ وَلَسْتَ تَشْقَىٰ   فَمَاذَا مِنْ أَيَادِي اللَّهِ تَلْقَىٰ

لَـقَـدْ حَـلَّـتْ فَـلَـيْـسَ لَـهَـا انْـصِـرَامُ

فَهَذَا تَصْوِيرٌ جَيِّدٌ لِهَوَاجِسِ أَبِي سُفْيَانَ كَانَ مُقَدِّمَةً مَحْتُومَةً لِمَا تَمَّ مِنْ إِسْلَامِهِ، أَحْسَنَ الشَّاعِرُ صِيَاغَتَهُ فِي غَيْرِ تَكَلُّفٍ أَوِ ادِّعَاءٍ، وَالشَّاعِرُ هُنَا يَقُصُّ أَمْرًا وَاقِعِيًّا فَمَا كَانَ لَهُ أَنْ يَعْدُوَهُ، وَلَوْ فَعَلَ ذَلِكَ مَا كَانَ صَاحِبَ دِيوَانِ مَجْدِ الْإِسْلَامِ، إِذْ يَحْتَرِسُ الْقَارِئُ حِينَئِذٍ فِي بَعْضِ مَا يَقُولُ، وَلَكِنَّهُ الْآنَ يَرِدُ مَعِينَ الصِّدْقِ لِيَرْتَوِيَ مِنْ نَمِيرِهِ، فَيُطَالِعُ قَارِئُهُ بِالصَّحِيحِ الْأَكِيدِ.

فَإِذَا تَرَكْنَا الرَّائِعَةَ الْأُولَىٰ الَّتِي تَتَحَدَّثُ عَنْ مُقَدِّمَاتِ الْفَتْحِ إِلَىٰ الْفَتْحِ نَفْسِهِ، فَإِنَّنَا نَجِدُ الشَّاعِرَ يَحْتَفِلُ بِفَنِّهِ فَيَتْرُكُ هَذِهِ الْمُخَمَّسَاتِ الْهَادِئَةَ، إِلَىٰ بَحْرٍ ذِي اتِّسَاعٍ وَرَنِينٍ لِيَسْمَحَ لِأَمْوَاجِ عَاطِفَتِهِ أَنْ تَتَدَافَعَ مُزْبِدَةً جَائِشَةً! لَقَدْ بَدَأَ بِتَصْوِيرِ «خَالِدٍ» الزَّاحِفِ كَالْجَبَلِ إِلَىٰ دِيَارِ مَكَّةَ، حَيْثُ ارْتَجَّ لِمَقْدِمِهِ مَا بِمَكَّةَ مِنْ جِبَالٍ، فَذَلِكَ طَوْدُ الشِّرْكِ الرَّاسِخُ يَهْوِي لِمَقْدِمِ طَوْدٍ مَا مَسَّ الْأَطْوَادَ إِلَّا تَنَاثَرَتْ كَالْهَبَاءِ، وَذَلِكَ سَيْفُ اللَّهِ يُزْهَىٰ بِاسْمِهِ فَتُزْهَىٰ بِهِ

السُّيُوفُ، وَتَزْدَادُ بِهِ شَرَفًا فِي عِزِّهَا الْمَنِيعِ، ثُمَّ هَذِهِ دَعْوَةُ الْإِسْلَامِ إِلَىٰ الْمُسَالَمَةِ فِي عَهْدٍ مَضَتْ أَنْوَارُهُ تَكْتَسِحُ ظُلُمَاتِ الْأَبَاطِيلِ، لَقَدْ جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ، إِذْ مَشَىٰ نَبِيُّ اللَّهِ ﷺ خَاشِعًا يَسْجُدُ لِرَبِّهِ، وَقَدْ أَخَذَ الْبَيْتُ يَتَحَرَّكُ مِنْ مَكَانِهِ فَتَنْهَضُ أَرْكَانُهُ مَشْغُوفَةً تَتَلَقَّىٰ الزَّائِرَ الْحَبِيبَ، أَمَّا أَصْنَامُ الْبَيْتِ فَكَانَتْ مَوْضِعَ السُّخْرِيَةِ، مِمَّنْ؟.

مِمَّنْ هَامُوا فِي عِبَادَتِهَا، وَبَذَلُوا دِمَاءَهُمْ فِي سَبِيلِهَا غَيْرَ مُقَصِّرِينَ، حَتَّىٰ رَأَوْهَا مُجَلَّلَةً بِالْهَوَانِ، فَنَظَرُوا إِلَيْهَا سَاخِرِينَ، وَكَانُوا يَظُنُّونَ حِمَاهَا لَا يُسْتَبَاحُ، فَوَجَدُوهَا قَدْ سَقَطَتْ تَفَارِيقَ، وَانْقَضَتْ مُحَطَّمَةً، نَامَتْ شَيَاطِينُهَا عَنْهَا، وَبَاتَ مَارِدُهَا مُلْتَحِفًا بِالْخِزْيِ وَالشَّنَارِ، أَمَّا هُبَلُ فَمَا دَرَىٰ وَالطَّعْنُ يَأْخُذُهُ مِنْ كُلِّ صَوْبٍ، هَلْ غَوَّرَ الدَّمْعُ مِنْ عَيْنَيْهِ أَمْ ذَرِفَ؟.

رَبَّاهُ! مَرَّةً أُخْرَىٰ، إِذَا لَمْ يَكُنْ هَذَا شِعْرًا، فَأَيْنَ الْقَصِيدُ؟ لَقَدْ رَمَىٰ اللَّهُ بِهُبَلَ مَدْحُورًا عَلَىٰ يَدِ الشَّرِيدِ الْمُهَاجِرِ، الَّذِي طَلَمَهُ ذَوُو قُرْبَاهُ إِذْ هَمُّوا بِقَتْلِهِ مِنْ قَبْلُ، فَعَادَ إِلَيْهِمْ صَافِحًا يَرُدُّ الظَّلَامَةَ فِي رِفْقٍ، وَأَرَاهُمْ مِنْ عَدْلِهِ وَإِيمَانِهِ مَا دَفَعَهُمْ إِلَىٰ الِانْضِوَاءِ تَحْتَ رَايَتِهِ مُسَالِمِينَ، فَاسْتَقَامَ عَلَىٰ الْبَيْضَاءِ مَنْ كَانَ يَضْرِبُ فِي الْعَمْيَاءِ، وَمَضَىٰ طَلْقًا نَشِيطًا مَنْ غَلَّتْهُ الْقُيُودُ، وَأَدْمَتْهُ الْأَوْهَاقُ، فَأَخَذَ يَغْشَىٰ مَوَارِدَ الْإِيمَانِ الصَّافِيَةَ، وَعَادَ رِجْسُهُ طُهْرًا، وَبَايَعَ الْقَوْمُ أَفْوَاجًا، فَأَمَّنَهُمْ دِينُ الْإِسْلَامِ، هَذَا بَعْضُ مَا أَشَارَ إِلَيْهِ الشَّاعِرُ الْمُبْدِعُ حِينَ قَالَ(١):

دِيَارَ مَكَّةَ، هَذَا خَالِدٌ زَحَفَا ... فَمَا احْتِيَالُكِ فِي الطَّوْدِ الَّذِي رَجَفَا
طَوْدٌ مِنَ الشِّرْكِ خَانَتْهُ جَوَانِبُهُ ... لَمَّا مَشَىٰ نَحْوَهُ الطَّوْدُ الَّذِي دَلَفَا

(١) ديوان مجد الإسلام ص ٢٧٨.

إِنَّ الْجِبَالَ الَّتِي فِي الْأَرْضِ لَوْ كَفَرَتْ   لَدَكَّهَا جَبَلُ الْإِسْلَامِ أَوْ نَسَفَا
لَمَّا دَعَاهُ بِسَيْفِ اللَّه سَيِّدُهُ   زَادَ السُّيُوفَ بِهِ فِي عِزِّهَا شَرَفَا
دِيَارَ مَكَّة، أَمَّا مَنْ يُسَالِمُهُ   فَلَا أَذًى يُتَّقَىٰ مِنْهُ وَلَا جَنَفَا
لَا تَجْزَعِي إِنَّهُ الْعَهْدُ الَّذِي انْبَعَثَتْ   أَنْوَارُهُ تَصْدَعُ الْعَهْدَ الَّذِي سَلَفَا
مَشَىٰ النَّبِيُّ يَحُفُ النَّصْرُ مَوْكِبَهُ   مُشَيَّعًا بِجَلَالِ اللَّهِ مُكْتَنِفَا
لَمْ يَبْقَ إِذْ سَطَعَتْ أَنْوَارُ غُرَّتِهِ   بَيْتٌ بِمَكَّةَ إِلَّا اهْتَزَّ أَوْ رَجَفَا
تَحَرَّكَ الْبَيْتُ حَتَّىٰ لَوْ تُطَاوِعُهُ   أَرْكَانُهُ خَفَّ يَلْقَىٰ رَكْبَهُ شَغَفَا
وَافَاهُ فِي صَحْبِهِ مِنْ كُلِّ مُزْدَلِفٍ   فَلَمْ يَدَعْ فِيهِ لِلْكُفَّارِ مُزْدَلِفَا
الْعَاكِفُونَ عَلَىٰ الْأَصْنَامِ أَضْحَكَهُمْ   أَنَّ الْهَوَانَ عَلَىٰ أَصْنَامِهِمْ عَكَفَا
كَانُوا يَظُنُّونَ أَلَّا يُسْتَبَاحَ لَهَا   حِمًى، فَلَا شَمَمًا أَبْدَتْ وَلَا أَنَفَا
نَامَتْ شَيَاطِينُهَا عَنْهَا مَذَمَّمَةً   وَبَاتَ مَارِدُهَا بِالْخِزْيِ مُلْتَحِفَا
هَوَتْ تَفَارِيقَ وَانْقَضَّتْ مُحَطَّمَةً   كَأَنَّهَا لَمْ تَكُنْ، إِذْ أَصْبَحَتْ كَسَفَا
رِيعَتْ جُيُوشُ قُرَيْشٍ مِنْ قَذَائِفِهَا   وَرِيعَ مِنْهَا الْخُزَاعِيُّ الَّذِي قَذَفَا
رَأَتْهُ يَنْحَطُّ مِنْ عَلْيَائِهِ فَزَعًا   مِنْ بَعْدِ مَا أَفْزَعَ الْأَجْيَالَ مُشْتَرِفَا
وَمَا دَرَىٰ هُبَلٌ، وَالطَّعْنُ يَأْخُذُهُ   هَلْ غَوَّرَ الدَّمْعَ مِنْ عَيْنَيْهِ أَمْ ذَرَفَا
لَوْ كَانَ لِلدَّمِ يَجْرِي حَوْلَهُ دَفَعًا   طُولَ الْمَدَىٰ مَثْعَبٌ فِي جَوْفِهِ نَزَفَا
رَمَىٰ بِهِ اللَّهُ يَحْمِي الْبَيْتَ مِنْ عَبَثٍ   يَعَافُ بَاطِلُهُ مَنْ عَافَ أَوْ عَزَفَا
لِلْجَاهِلِيَّةِ رَسْمٌ كَانَ يُعْجِبُهَا   فِي دَهْرِهَا، فَعَفَتْ أَيَّامُهُ وَعَفَا

لَا كُنْتَ يَا زَمَنَ الْأَوْهَامِ مِنْ زَمَنٍ   أَرْخَىٰ عَلَى النَّاسِ مِنْ ظَلْمَائِهِ سَجَفَا
إِنَّ الشَّرِيدَ الَّذِي قَدْ كَانَ يَظْلِمُهُ   ذَوُو قَرَابَتِهِ قَدْ عَادَ فَانْتَصَفَا
رَدَّ الظَّلَامَةَ فِي رِفْقٍ، وَإِنْ عَنُفُوا   وَلَوْ يَشَاءُ إِذنْ لَاشْتَدَّ أَوْ عَنُفَا
شُكْرًا مُحَمَّدُ إِنَّ اللَّهَ أَسْبَغَهَا   عَلَيْكَ نُعْمَىٰ، تَرَامَىٰ ظِلُّهَا وَضَفَا
قَدْ عَادَ يَكْلَفُ بِالْإِسْلَامِ مِنْ رَشَدٍ   مَنْ كَانَ بِالْكُفْرِ فِي غَيِّ الْهَوَىٰ كَلِفَا
ثُمَّ اسْتَقَامَ عَلَى الْبَيْضَاءِ يَسْلُكُهَا   مَنْ كَانَ يَضْرِبُ فِي الْعَمْيَاءِ مُعْتَسِفَا
يَغْشَىٰ مَوَارِدَ لِلْإِيمَانِ صَافِيَةً   مَا امْتَاحَ مِنْ مِثْلِهَا يَوْمًا وَلَا اغْتَرَفَا

هَذَا، وَمِنْ أَبْرَزِ سِمَاتِ الْجَمَالِ الْبَيَانِيِّ فِي دِيوَانِ مَجْدِ الْإِسْلَامِ مَا امْتَازَ بِهِ الشَّاعِرُ مِنْ دِقَّةِ التَّشْخِيصِ، وَخَلْعِ الْحَيَاةِ عَلَى الْجَمَادِ، فَهُوَ كَالْإِنْسَانِ يُحِسُّ وَيَتَأَلَّمُ، وَيُعَبِّرُ عَنْ مَشَاعِرِهِ فِي كِلْتَا حَالَتَيْهِ، فَمَكَّةُ - مَثَلًا - حِينَمَا هَاجَرَ مِنْهَا رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - جَنَحَتْ تَتَنَزَّىٰ أَلَمًا، وَتَمَنَّتْ هِضَابُهَا أَنْ تَنْتَفِضَ هَائِجَةً مَائِرَةً، وَلَوْلَا إِرَادَةُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ وَقُوَّةُ مَشِيئَتِهِ لَارْتَمَتْ تَقْذِفُ الصَّخْرَ، وَتُزْجِي هَبَاءَهَا الْمَنْثُورَ؛ إِذْ هَاجَهَا مِنْ جَوَىٰ الْفِرَاقِ وَلَوْعَةِ الْبُعْدِ مَا هَاجَ الْبَيْتَ الْعَتِيقَ، فَقَدْ تَعَاظَمَهُ مَا تَعَاظَمَ مَكَّةَ، وَكَانَ يَهْفُو مُتَقَلْقِلًا مُضْطَرِبًا، وَلَكِنَّ مَشِيئَةَ اللَّهِ أَدْرَكَتْهُ فَعَادَ وَقُورًا رَزِينًا، هَذَا مِثَالٌ أَوَّلُ لِلتَّشْخِيصِ الْحَيِّ أَجَادَهُ أَحْمَدُ مُحَرَّم حِينَ قَالَ مُخَاطِبًا رَبَّهُ تَعَالَىٰ(١):

رَبِّ آتَيْتَهُ عَلَى الْقَوْمِ نَصْرًا   فَتَبَارَكْتَ حَافِظًا وَنَصِيرًا

(١) ديوان مجد الإسلام ص ٩.

أَنْتَ نَجَّيْتَهُ فَهَاجَرَ يَقْضِي الْـــ(٣) ـــحَقَّ لَا خَائِفًا وَلَا مَذْعُورَا
يَوْمَ ضَجَّتْ جِبَالُ مَكَّةَ ذُعْرًا وَتَمَنَّتْ هِضَابُهَا أَنْ تَمُورَا
تَتَنَزَّىٰ أَسًى وَتُمْسِكُهَا تَمْـــ(٣) ـــنَعُهَا مِن وَرَائِهِ أَنْ تَسِيرَا
هِيَ لَوْلَاكَ لَارْتَمَتْ تَقْذِفُ الصَّخْرَ وَتُزْجِي هَبَاءَهَا الْمَنْثُورَا
هَاجَهَا مِنْ جَوَىٰ الْفِرَاقِ وَحَرِّ الْـ(٣) ـــوَجْدِ مَا هَاجَ بَيْتَكَ الْمَعْمُورَا
كَادَ يَهْفُو فَرَدَّتْهُ مِنْكَ رُوحًا فَانْثَنَىٰ رَاجِحَ الْجَلَالِ وَقُورَا

هَٰذِهِ مَكَّةُ، حَسْرَةٌ عَلَىٰ الْفِرَاقِ، وَهَيَاجٌ لِلْبِعَادِ، وَضَجَّةٌ تَكَادُ تَمِيدُ بِالْجِبَالِ، أَمَّا الْمَدِينَةُ الَّتِي أَقْبَلَ نَحْوَهَا الْمُهَاجِرُ الْكَرِيمُ، فَعَلَىٰ النَّقِيضِ حِينَ تَنْتَفِضُ فَرْحَةً، وَكَادَتْ دِيَارُهَا تَتْرُكُ أَمَاكِنَهَا سَائِرَةً نَحْوَ الْبِيدِ لِتُشَارِكَ فِي اسْتِقْبَالِ الْوَافِدِ الْعَظِيمِ، إِنَّ الدِّيَارَ لَتَهُزُّهَا نَشَوَاتُهَا طَرَبًا، وَقَدْ تَحَوَّلَتْ إِلَىٰ رِيَاضٍ نَضِرَةٍ، ذَاتِ عَنَادِلَ صَادِحَةٍ، فَكَأَنَّ فِي كُلِّ مَنْزِلٍ رَوْضَةً، وَكَأَنَّ فِي كُلِّ دَارٍ بُلْبُلًا يُغَرِّدُ! هَذَا بَعْضُ مَا عَنَاهُ أَحْمَدُ مُحَرَّمٍ حِينَ قَالَ مُخَاطِبًا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ(١):

أَقْبِلْ فَتِلْكَ دِيَارُ يَثْرِبَ تُقْبِلُ يَكْفِيكَ مِنْ أَشْوَاقِهَا مَا تَحْمِلُ
طَالَ التَّلَوُّمُ، وَالْقُلُوبُ خَوَافِقٌ يَهْفُو إِلَيْكَ بِهَا الْحَنِينُ الْأَطْوَلُ
الْقَوْمُ مُذْ فَارَقْتَ مَكَّةَ أَعْيُنٌ تَأْبَىٰ الْكَرَىٰ وَجَوَانِحٌ تَتَمَلْمَلُ
خَفَّ الرِّجَالُ إِلَيْكَ يَهْتِفُ جَمْعُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ فَرَحًا أَخَفُّ وَأَعْجَلُ
هِيَ فِي رِكَابِكَ مَا بِهَا مِنْ حَاجَةٍ إِلَّا إِلَيْكَ، وَمَا لَهَا مُتَحَوَّلُ

(١) ديوان مجد الإسلام ص ١٧.

هَجَرَتْ مَنَازِلَهَا بِيَثْرِبَ وَانْتَحَتْ أُخْرَىٰ بِمَكَّةَ دُورُهَا مَا تُؤْهَلُ
وَفُدَانِ، هَذَا مِنْ وَرَائِكَ يَرْتَمِي عَجِلًا، وَهَذَا مِنْ أَمَامِكَ يَنْسِلُ
مَا لِلدِّيَارِ تَهُزُّهَا نَشَوَاتُهَا أَهِيَ الْأَنَاشِيدُ الْحِسَانُ تُرَتَّلُ ؟!
رَفَّتْ نَضَارَتَهَا وَطَابَ أَرِيجُهَا وَتَرَدَّدَتْ أَنْفَاسُهَا تَتَسَلْسَلُ
فَكَأَنَّمَا فِي كُلِّ مَغْنًى رَوْضَةٌ وَكَأَنَّمَا فِي كُلِّ دَارٍ بُلْبُلُ
هُنَّ الْعَذَارَىٰ الْمُؤْمِنَاتُ أَقَمْنَهُ عِيدًا تُحَيِّيهِ الْمَلَائِكُ مِنْ عَلُ
فِي مَوْكِبٍ لِلَّهِ أَشْرَقَ نُورُهُ فِيهِ، وَقَامَ جَلَالُهُ يَتَمَثَّلُ

فَإِذَا تَرَكْنَا التَّشْخِيصَ إِلَىٰ تَصْوِيرِ الْخَلَجَاتِ النَّفْسِيَّةِ فَإِنَّنَا نَجِدُ مُحَرَّمًا قَدْ بَرَعَ فِي كَثِيرٍ مِنْ قَصَائِدِهِ فَأَسْمَعَنَا هَجْسَ الضَّمَائِرِ، وَنَجْوَىٰ الْعَوَاطِفِ، فَهُوَ مَثَلًا يَتَحَدَّث عَنْ «بَنِي قُرَيْظَةَ» حِينَ حَاصَرَهُمُ الْمُسْلِمُون بَعْدَ مَعْرَكَةِ الْخَنْدَقِ بِالْمَدِينَةِ، فَيُصَوِّرُ تَسَتُّرَهُمْ فِي الْحُصُونِ كَالنِّسَاءِ، وَيَتَغَلْغَلُ فِي رَسْمِ مَشَاعِرِهِم الْوَجِلَةِ الْمُرْتَاعَةِ، إِذْ يَبِيتُ الْهَمُّ مُنْتَشِرًا عَلَيْهِمْ فِي اللَّيْلِ، فَيَكُونُ لَيْلًا آخَرَ، وَإِذْ يَخَافُ الْيَهُودُ أَنْ يَحْتَسُوا الرُّقَادَ، فَيَرَوْا فِي الْمَنَامِ مِنَ الْفَزَعِ أَشَدَّ مَا يُلَاقُونَ فِي الْيَقَظَةِ، حَتَّىٰ الْحُصُونَ، أَحَسَّتْ إِحْسَاسَ سَاكِنِيهَا، فَحَاقَ بِهَا الْفَزَعُ وَالذُّهُولُ، هَذَا تَلْخِيصٌ مبتَسَرٌ لَا يُغْنِي عَنِ الشِّعْرِ ذَاتِهِ، وَكَيْفَ يَبْلُغُ مَبْلَغَ هَذَا الْقَوْلِ(١):

تَوَارَوْا كَالنِّسَاءِ مُحَجَّبَاتٍ حَمَتْهَا فِي الْمَقَاصِيرِ الْبُعُولُ
خَلَا الْمَيْدَانُ، لَا بَطَلٌ يُنَادِي أَلَا بَطَلٌ !؟ وَلَا فَرَسٌ يَجُولُ

(١) ديوان مجد الإسلام ص ١٦٨.

أَقَامُوا مُحْجَرِينَ عَلَىٰ هَوَانٍ أَقَامَ فَمَا يَرِيمُ وَمَا يَحُولُ
يُرَنِّقُ عَيْشَهُمْ جُوعٌ وَخَوْفٌ كِلَا الْخَطْبَيْنِ، أَيْسَرُهُ جَلِيلُ
يَبِيتُ الْهَمُّ مُنْتَشِرًا عَلَيْهِمْ إِذَا انْتَشَرَتْ مِنَ اللَّيْلِ السُّدُولُ
يَلُفُّهُمُ السُّهَادُ، فَلَا رُقَادٌ يَطِيبُ لَهُمْ، وَلَا صَبْرٌ جَمِيلُ
يَخَافُ النَّوْمَ أَكْثَرُهُمْ سُهَادًا كَأَنَّ النَّوْمَ فِي عَيْنَيْهِ غُولُ
إِذَا مَالَتْ بِهِ سِنَةٌ تَنَزَّىٰ يَظُنُّ جَوَانِبَ الدُّنْيَا تَمِيلُ
تَطُوفُ بِهِمْ مَنَايَاهُمْ ظُنُونًا تَوَهَّجُ فِي مَخَالِبِهَا النُّصُولُ
بِهِمْ وَبِحِصْنِهِمْ مِمَّا دَهَاهُمْ وَحَاقَ بِهِمْ جُنُونٌ أَوْ ذُهُولُ

وَيَمْضِي الشَّاعِرُ فَيَذْكُرُ كُلَّ حَدَثٍ أَلَمَّ بِهِمْ فِي هَذَا الْمَأْزِقِ الْوَبِيلِ، حَتَّىٰ يَصِلَ إِلَىٰ نِهَايَةِ اسْتِشْلَامِهِمْ فَاسْتِئْصَالِهِمْ، فَيَبْهِجُهُ مَصْرَعُ الْغَدْرِ وَالْجُحُودِ، وَيُقْسِمُ بِهِ فِي تَهَكُّمٍ سَاخِرٍ حِينَ يَقُولُ(١):

لَعَمْرُ الْهَالِكِينَ لَقَدْ تَأَذَّىٰ تُرَابٌ فِي حَفَائِرِهِمْ مَهِيلُ
طَوَىٰ رِجْسًا تَكَادُ الْأَرْضُ مِنْهُ تَمُورُ بِمَنْ عَلَيْهَا أَوْ تَزُولُ
يُسَاقُ السَّبْيُ، شِرْذِمَةٌ بِنَجْدٍ وَأُخْرَىٰ بِالشَّآمِ لَهَا أَلِيلُ
جَلَائِبُ، لَا أَبٌ فِي السُّوقِ يَحْمِي وَلَا وَلَدٌ يَذُبُّ وَلَا حَلِيلُ
تُجَرُّ عَلَىٰ الْهَوَانِ، وَلَا مُغِيثٌ بِأَرْضٍ مَا تُجَرُّ بِهَا الذُّيُولُ
أَصَابَ الْمُسْلِمُونَ بِهَا سِلَاحًا وَخَيْلًا فِي قَوَائِمِهَا الْحُجُولُ

(١) ديوان مجد الإسلام ص ١٧٣.

مُكَرَّمَةٌ تُعَدُّ لِكُلِّ يَوْمٍ   كَرِيمِ الذِّكْرِ لَيْسَ لَهُ مَثِيلُ

فَهَذِهِ نَمَاذِجُ تَنْطِقُ بِحَيَوِيَّةِ الشِّعْرِ، وَعُذُوبَتِهِ وَتَدَفُّقِهِ، وَقَدْ فَتَحَ بِهَا الْأُسْتَاذُ مُحَرَّمٌ سَبِيلَ الْقَوْلِ لِمَنْ يَسْتَلْهِمُونَ السِّيرَةَ النَّبَوِيَّةَ مِمَّنْ تَلَوْهُ مِنَ الشُّعَرَاءِ، وَمِنْهُمْ مَنْ حَاوَلَ، وَمِنْهُمْ مَنْ نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبِهِ قَبْلَ أَنْ يُحَاوِلَ، إِذْ هَالَهُ بُعْدُ الْمَسِيرِ، وَعُلُوُّ الْأُفُقِ، وَرَحَابَةُ الْأَمَدِ، وَإِذَا كُنَّا نَعْرِفُ أَنَّ الشَّاعِرَ الْكَبِيرَ - رَحِمَهُ اللَّهُ - قَدْ نَظَمَ دِيوَانَ مَجْدِ الْإِسْلَامِ فِي خَرِيفِ حَيَاتِهِ، فَإِنَّنَا نُدْرِكُ لِمَاذَا تَعَجَّلَ فِي بَعْضِ الْمَوَاقِفِ وَلَمْ يَتَمَهَّلْ، لَقَدْ كَانَ يَخْشَىٰ أَنْ يُدْرِكَهُ الْأَجَلُ قَبْلَ أَنْ يَزُفَّ لِلْقُرَّاءِ دِيوَانَهُ حَافِلًا بِأَنْبَاءِ السِّيرَةِ الْمُطَهَّرَةِ جَمِيعِهَا! وَقَدْ صَدَقَهُ اللَّهُ وَعْدَهُ، فَبَلَغَ مَا أَرَادَ ..

فِي آفَاقِ الْعُرُوبَةِ

خُلُقُ الْعُرُوبَةِ أَنْ تَجِدَّ وَتَدْأَبَا   وَسَجِيَّةُ الْإِسْلَامِ أَنْ يَتَغَلَّبَا
لَا تِلْكَ تَخْفِضُ مِنْ جَنَاحَيْهَا ، وَلَا   هَذَا يُرِيدُ سِوَىٰ التَّفَوُّقِ مَطْلَبَا

بَيْتَانِ قَالَهُمَا أَحْمَدُ مُحَرَّمٍ عَنِ الْعُرُوبَةِ وَالْإِسْلَامِ ، وَهُمَا يَدُلَّانِ عَلَىٰ قُرْبِ الْمَدْلُولِ بَيْنَهُمَا ، وَكَذَلِكَ كَانَ الْإِسْلَامُ يَحْتَضِنُ الْعُرُوبَةَ فِي ذِهْنِ مُحَرَّمٍ ، وَكَانَتِ الْعُرُوبَةُ تَعِيشُ فِي كَنَفِ الْإِسْلَامِ لَدَيْهِ ، وَنَحْنُ نَعْلَمُ أَنَّ الشُّعَرَاءَ فِي أَوَّلِ هَذَا الْقَرْنِ لَمْ يَكُونُوا يَتَحَدَّثُونَ عَنِ الْعُرُوبَةِ مُكْتَفِينَ بِالْحَدِيثِ عَنِ الْإِسْلَامِ اعْتِقَادًا مِنْهُمْ أَنَّ الْإِسْلَامَ شَامِلٌ لِلْعُرُوبَةِ ، وَأُمَمُ الْعُرُوبَةِ هِيَ أُمَّةُ الْإِسْلَامِ ، وَلَمْ يَأْتِ الْحَدِيثُ عَنِ الْعُرُوبَةِ بَعِيدًا عَنِ الْإِسْلَامِ فِي الْمُحِيطِ الْمِصْرِيِّ إِلَّا بَعْدَ انْتِهَاءِ الْحَرْبِ الْعَالَمِيَّةِ الْأُولَىٰ ، حِينَ انْتَشَرَتِ الدَّعْوَةُ إِلَىٰ الْقَوْمِيَّةِ الْعَرَبِيَّةِ فِي الشَّامِ وَالْعِرَاقِ وَانْتَقَلَ صَدَاهَا إِلَىٰ مِصْرَ ، وَكَانَتْ حِينَئِذٍ تَجِدُ مِنْ بَيْنِ بَنِيهَا مَنْ يُنَادِي بِالْفِرْعَوْنِيَّةِ لِتَكُونَ مُقَابِلًا لِلْعُرُوبَةِ فِي مَذْهَبِهِ ، وَهُمْ قِلَّةٌ لَمْ يَسْتَطِيعُوا الثَّبَاتَ عَلَىٰ اتِّجَاهِهِمْ ، بَلْ فِيهِمْ مَنْ جَاهَرَ بِخَطَإِ وِجْهَةِ نَظَرِهِ الَّتِي دَعَا إِلَيْهَا سَنَوَاتٍ عَلَىٰ صَفَحَاتِ جَرِيدَةِ السِّيَاسَةِ ، وَهُوَ الْمَرْحُومُ الْأُسْتَاذُ الدُّكْتُورُ مُحَمَّدٌ

حُسَيْنُ هَيْكَلُ، حَيْثُ قَالَ مُعْلِنًا رُجُوعَهُ عَنْ وِجْهَتِهِ السَّالِفَةِ، حِينَ كَتَبَ مَقَالَاتٍ شَتَّىٰ عَنْ ضَرُورَةِ اسْتِلْهَامِ الْحَضَارَةِ الْفِرْعَوْنِيَّةِ مُضَافَةً إِلَىٰ حَضَارَةِ الْغَرْبِ الزَّاهِرَةِ، لِيَتَّصِلَ الْقَدِيمُ بِالْحَدِيثِ، وَهُوَ بِذَلِكَ يُسْقِطُ التُّرَاثَ الرُّوحِيَّ، وَالتَّارِيخَ الْعَرَبِيَّ سُقُوطًا لَا مُبَرِّرَ لَهُ، ثُمَّ اهْتَدَىٰ إِلَىٰ خَطَإِ اتِّجَاهِهِ وَأَعْلَنَ ذَلِكَ صَرَاحَةً فِي مُقَدِّمَةِ كِتَابِهِ «فِي مَنْزِلِ الْوَحْيِ» حَيْثُ قَالَ[1]:

لَقَدْ خُيِّلَ إِلَيَّ - زَمَنًا - لَا يَزَالُ يُخَيَّلُ لِأَصْحَابِي - أَنَّ نَقْلَ حَيَاةِ الْغَرْبِ الرُّوحِيَّةِ وَالْعَقْلِيَّةِ سَبِيلُنَا إِلَىٰ النُّهُوضِ، وَمَا أَزَالُ أُشَارِكُ أَصْحَابِي فِي أَنَّا فِي حَاجَةٍ إِلَىٰ أَنْ نَنْقُلَ مِنْ حَيَاةِ الْغَرْبِ الْعَقْلِيَّةِ كُلَّ مَا نَسْتَطِيعُ أَنْ نَنْقُلَهُ، لَكِنِّي أَصْبَحْتُ أُخَالِفُهُمْ فِي أَمْرِ الْحَيَاةِ الرُّوحِيَّةِ، وَأَرَىٰ أَنَّ مَا فِي الْغَرْبِ مِنْهَا غَيْرُ صَالِحٍ لِأَنْ نَنْقُلَهُ، فَتَارِيخُنَا الرُّوحِيُّ غَيْرُ تَارِيخِ الْغَرْبِ، خَضَعَ الْغَرْبُ لِلتَّفْكِيرِ الْكَنَسِيِّ عَلَىٰ مَا أَقَرَّتْهُ الْبَابَوِيَّةُ الْمَسِيحِيَّةُ فِي عَهْدِهَا الْأَوَّلِ وَبَقِيَ الشَّرْقُ بَرِيئًا مِنَ الْخُضُوعِ لِهَذَا التَّفْكِيرِ، لِذَلِكَ بَقِيَ الشَّرْقُ مُطَهَّرًا مِنَ الْأَسْبَابِ الَّتِي أَدَّتْ إِلَىٰ اضْطِرَابِ الْغَرْبِ الرُّوحِيِّ، وَإِلَىٰ ثَوْرَاتِهِ السِّيَاسِيَّةِ، وَبَقِيَ الْمَسِيحِيُّونَ الْمُقِيمُونَ فِي الشَّرْقِ فِي جِوَارِ الْمُسْلِمِينَ فِي طُمَأْنِينَةٍ، لَا يَصْلَوْنَ مِنْ نِيرَانِ الثَّوْرَاتِ وَالْحُرُوبِ الْأَهْلِيَّةِ مَا كَانَ يَصْلَاهُ إِخْوَانُهُمْ فِي الْغَرْبِ .. أَمَا وَالْإِسْلَامُ لَا يَعْرِفُ سُلْطَةَ الْكَنِيسَةِ، وَأَقْرَبُ النَّاسِ فِيهِ إِلَىٰ اللَّهِ أَتْقَاهُمْ، وَلَا فَضْلَ لِعَرَبِيٍّ عَلَىٰ أَعْجَمِيٍّ إِلَّا بِالتَّقْوَىٰ، فَقَدْ بَقِيَتِ الثَّقَافَةُ الرُّوحِيَّةُ فِي الشَّرْقِ حُرَّةً طَلِيقَةً، إِلَّا حِينَ قَعَدَ الْجَهْلُ بِالنَّاسِ، فَفَتَرَتِ الْأَذْهَانُ، وَأُخْمِدَتِ الْقَرَائِحُ، وَجَمَدَتِ الْقُلُوبُ.

وَقَوْلُ الدُّكْتُورِ هَيْكَلِ: «وَبَقِيَ الْمَسِيحِيُّونَ الْمُقِيمُونَ فِي الشَّرْقِ فِي

(١) في منزل الوحي ص ٢٢.

جِوَارِ الْمُسْلِمِينَ فِي طُمَأْنِينَةٍ ، لَا يَصْلَوْنَ مِنْ نِيرَانِ الثَّوْرَاتِ وَالْحُرُوبِ مَا كَانَ يَصْلَاهُ إِخْوَانُهُمْ فِي الْغَرْبِ » ، يُسْقِطُ حُجَّةَ الْقَوْمِيِّينَ فِي الشَّامِ وَالْعِرَاقِ الَّذِينَ يَرَوْنَ إِسْقَاطَ الدِّينِ مِنْ عَنَاصِرِ الْأُمَّةِ الْعَرَبِيَّةِ كَيْلَا يُرْهَقَ الْمَسِيحِيُّونَ .

يَقُولُ الْأُسْتَاذُ عَلِيٌّ الطَّنْطَاوِيُّ[1]: « وَمِنَ الْمَفْهُومِ الْمَعْلُومِ مِنَ الدِّينِ وَمِنَ الْعَقْلِ وَمِنَ الْمَاضِي بِالضَّرُورَةِ أَنَّنَا لَا نَتَخَلَّىٰ عَنْ هَؤُلَاءِ الْعَرَبِ غَيْرِ الْمُسْلِمِينَ ، وَلَا نَعُدُّهُمْ غُرَبَاءَ عَنَّا ، بَلْ هُمْ إِخْوَانُنَا مَا أَحَبُّوا أُخُوَّتَنَا ، لَهُمْ مَا لَنَا ، وَعَلَيْهِمْ مَا عَلَيْنَا ، وَهَذِهِ نُصُوصُ دِينِنَا ، وَهَذِهِ وَقَائِعُ تَارِيخِنَا شَاهِدَةٌ عَلَىٰ دَعْوَانَا ، فَلَا مَجَالَ لِإِثَارَةِ الْعَصَبِيَّاتِ ، وَالْإِفْسَادِ بَيْنَ الْإِخْوَانِ ، وَلَا يَطْمَعُ فِي ذَلِكَ إِلَّا الْمُفَرِّقُونَ الْمُفْسِدُونَ » .

نَرْجِعُ إِلَىٰ الشَّاعِرِ أَحْمَدَ مُحَرَّمٍ فَنَقُولُ : إِنَّهُ مُنْذُ شَبَّ عَنِ الطَّوْقِ ، وَدَرَسَ تَارِيخَ الْإِسْلَامِ ، وَعَرَفَ أُصُولَهُ فِي الْقُرْآنِ وَالْحَدِيثِ أَيْقَنَ أَنَّ الدَّعْوَةَ إِلَىٰ الْجَامِعَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ هِيَ فِي صَمِيمِهَا دَعْوَةٌ إِلَىٰ مَجْدِ الْعُرُوبَةِ ، وَمِنْ هُنَا كَانَتْ أَحْدَاثُ الدُّوَلِ الْعَرَبِيَّةِ تَجِدُ صَدَاهَا الرَّنَّانَ فِي نَفْسِهِ ، وَيَنْفَعِلُ بِوَقْعِهَا كَمَا يَنْفَعِلُ بِأَحْدَاثِ مِصْرَ تَمَامًا ، وَحِينَ لَمَسَ أُنَاسًا يُرِيدُونَ بِالدَّعْوَةِ إِلَىٰ الْعُرُوبَةِ انْشِقَاقًا عَنِ الْوَحْدَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ جَاهَرَهُمْ بِالْعَدَاءِ ، لَا لِأَنَّهُ يَكْرَهُ الْعُرُوبَةَ ، بَلْ يُرِيدُهَا مُحْتَضَنَةً فِي نِطَاقِ الْإِسْلَامِ ، هَاتِفَةً بِاسْمِهِ ، فَهِيَ إِحْدَىٰ اللَّبِنَاتِ الْقَوْمِيَّةِ فِي هَذَا الصَّرْحِ إِنْ لَمْ تَكُنْ أَقْوَىٰ اللَّبِنَاتِ ، وَهَلْ يُنْكِرُ جَاحِدٌ أَنَّ الْقُرْآنَ عَرَبِيٌّ وَهُوَ أَسَاسُ الْإِسْلَامِ ، وَأَنَّ الرَّسُولَ عَرَبِيٌّ وَهُوَ نَبِيُّ الْإِسْلَامِ ﷺ ، وَأَنَّ التُّرَاثَ الَّذِي يَصُونُ أُصُولَ الْإِسْلَامِ وَتَارِيخَهُ وَأَحْدَاثَهُ وَأَبْطَالَهُ كُتِبَ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ !.

(١) مجلة الرّسالة العدد «١٠١٩» ١٢/١/١٩٥٣م.

لَقَدْ كَانَ مُحَرَّمٌ يَعْتَبِرُ نَفْسَهُ شَاعِرَ الْعُرُوبَةِ حَيْثُ قَالَ فِي تَكْرِيمِ رَئِيسِ الرَّابِطَةِ الْعَرَبِيَّةِ الْأُسْتَاذِ مَحْمُودِ بَسْيُونِيّ(١):

تِلْكَ الْعُرُوبَةُ قَدْ حَيَّاكَ شَاعِرُهَا   عَنْ كُلِّ مَنْ قَالَ قَوْلَ الصِّدْقِ أَوْ كَتَبَا

بَعْدَ أَنْ قَالَ:

وَإِنَّمَا الْمَجْدُ صَرْحٌ لَيْسَ يَرْفَعُهُ   إِلَّا فَتًى عَرَبِيٌّ يَرْفَعُ الْعَرَبَا
تَلْقَى الْعُرُوبَةُ فِي أَكْنَافِهِ حَرَمًا   وَتَنْزِلُ الضَّادُ مِنْهُ مَعْقِلًا أَشِبَا
اللَّهُ أَكْرَمَ مَثْوَاهَا وَأَلْبَسَهَا   ثَوْبَ الْجَلَالِ، وَحَلَّى تَاجَهَا ذَهَبَا
تَاجٌ إِذَا الْتُبِسَتْ تِيجَانُ مَمْلَكَةٍ   أَلْفَيْتَهُ فِي الْمَثَانِي السَّبْعِ مُنْتَسِبَا
لَا وَالَّذِي جَعَلَ الْأَقْدَارَ دَائِبَةً   لَنْ نَتْرُكَ الْمَجْدَ مَا عِشْنَا وَلَا الدَّأَبَا
نُحْيِي ذَوِينَا وَنَحْمِي مِنْ ذَخَائِرِهِمْ   مَا يَطْمَعُ الْقَوْمُ أَنْ يَبْقَى لَهُمْ سَلَبَا

وَسَبِيلُنَا الْآنَ أَنْ نَعْمَدَ إِلَى أَشْهَرِ الْأَحْدَاثِ، وَأَقْوَى الْمَوَاقِفِ، الَّتِي دَعَتِ الشَّاعِرَ الْغَيُورَ كَيْ يُنَافِحَ عَنِ الْعُرُوبَةِ فِي بِلَادِهَا الْمُغْتَصَبَةِ، وَأَنْ يَرْفَعَ صَوْتَهُ بِنُصْرَتِهَا حِينَ تَتَطَلَّبُ النَّصِيرَ، وَنَبْدَأُ بِالتَّنْوِيهِ بِبَعْضِ مَا قَالَهُ فِي مَعَارِكِ الْأَبْطَالِ بِطَرَابُلُسَ، حِينَ دَاهَمَهَا الطِّلْيَانُ، حَيْثُ كَانَ مُحَرَّمٌ أَقْوَى شَاعِرٍ عَرَبِيٍّ جَلْجَلَ صَوْتُهُ فِي هَذِهِ الْمَعْرَكَةِ، مُصَوِّرًا شُعُورَ الْمُسْلِمِينَ جَمِيعًا فِي أَقْصَى جَنَبَاتِ الْعَالَمِ الْإِسْلَامِيِّ وَأَدْنَاهَا، وَمُكَرِّرًا صَيْحَاتِ الِاسْتِغَاثَةِ، وَفَاضِحًا دَعْوَى الْغَرْبِ فِي تَقَدُّمِهِ الْحَضَارِيِّ، وَهُوَ يَسْلُكُ مَسْلَكَ الْوُحُوشِ فِي الْأَدْغَالِ.

---

(١) دِيوَان مُحَرَّم ج ٤، ص ٢٩٦.

كَذَلِكَ ، كَانَ صَوْتُ مُحَرَّم فِي مَعْرَكَةِ طَرَابُلُسَ حِينَ هَاجَمَهَا الطَّلْيَانُ سَنَةَ ١٩١١م ، فَهُوَ لَمْ يُفْرِغْ عَاطِفَتَهُ فِي قَصِيدَةٍ وَاحِدَةٍ يُبَرِّئُ بِهَا ذِمَّتَهُ أَمَامَ الْقَارِئِ كَمَا فَعَلَ غَيْرُهُ ، وَلَكِنَّ نَارًا أَخَذَتْ تَشْتَعِلُ فِي صَدْرِهِ فَجَعَلَ يُهَدِّئُ مِنْ لَهِيبِهَا بِمَا يَنْظِمُ مِنْ شِعْرٍ تَتَوَالَى قَوَافِيهِ ، الْقَصِيدَةَ غِبَّ الْقَصِيدَةِ ، وَإِذَا كَانَ الْمَوْضُوعُ وَاحِدًا لَمْ تَتَغَيَّرْ أَسْبَابُهُ وَأَحْدَاثُهُ وَنَتَائِجُهُ ، فَإِنَّ عَوَاطِفَ مُحَرَّم الْمُسْتَرْسِلَةَ كَانَتْ أَشَدَّ انْفِعَالًا مِنْ أَنْ تَقِفَ عِنْدَ أَفْكَارٍ وَاحِدَةٍ تَتَرَدَّدُ فِي إِطَارٍ مُعَيَّنٍ ، حَيْثُ أَنَّ سَبَحَاتِهِ الْبَعِيدَةَ كَانَتْ تَنْتَقِلُ بِالْقَارِئِ مِنْ أُفُقٍ إِلَى أُفُقٍ ، وَهُوَ فِي كُلِّ مَا يَقْرَأُ يَلْمَسُ غَيْرَةً مُشْتَعِلَةً ، وَحَمِيَّةً صَادِقَةً ، وَالشَّاعِرُ فِي قَصِيدَتِهِ الْأُولَى حِينَ فَاجَأَهُ النَّبَأُ لِأَوَّلِ وَهْلَةٍ كَانَ يُفَكِّرُ فِي الْعَالَمِ الْإِسْلَامِيِّ جَمِيعِهِ ، وَمَوْقِفِهِ أَمَامَ الْمَأْسَاةِ الدَّاهِمَةِ ، كَمَا كَانَ شَدِيدَ التَّيَقُّظِ لِمَجْدِ الْإِسْلَامِ الْمَاضِي ، يَسْتَلْهِمُهُ الْقُوَّةَ ؛ لِأَنَّ الْحَاضِرَ بِأَعْبَائِهِ الثَّقِيلَةِ لَا يُغْنِي وَحْدَهُ فِي سَاحَةِ الْحَمَاسَةِ الْمُلْتَهِبَةِ ، فَلَا بُدَّ مِنَ النَّظْرَةِ إِلَى التَّارِيخِ الْمَاضِي بِرَوَائِعِهِ الزَّاهِرَةِ لِيَكُونَ الْمَثَلَ الْأَعْلَى لِلْمُجَاهِدِينَ ، لَا بُدَّ مِنَ الِانْتِصَارِ بِأَبْطَالِ الْإِسْلَامِ لِيُعِيدَ خُلَفَاؤُهُمْ مَجْدَهُمُ السَّالِفَ ، وَهُوَ مَا عَنَاهُ مُحَرَّمٌ حِينَ هَتَفَ[1]:

وَيْحَ الْحَجِيجِ إِذَا حَانَتْ مَنَاسِكُهُمْ	مَاذَا يَرَى طَائِفٌ مِنْهُمْ وَمُعْتَمِرُ ؟
أَيَطْرَبُ الْبَيْتُ أَمْ تَبْكِي جَوَانِبُهُمْ	حُزْنًا وَيُعْوِلُ فِيهِ الرُّكْنُ وَالْحَجَرُ ؟
أَيْنَ ابْنُ عَمِّ رَسُولِ اللَّهِ يُطْفِئُهَا	حَرْبًا عَلَى كَبِدِي مِنْ نَارِهَا شَرَرُ ؟
أَيْنَ اللِّوَاءُ وَخَيْلُ اللَّهِ يَبْعَثُهَا	عَمْرٌو وَيَصْرُخُ فِي آثَارِهِ عُمَرُ ؟
أَيْنَ الْمَقَادِيمُ مِنْ فِهْرٍ وَمِنْ مُضَرٍ	وَمِنْ قُرَيْشٍ وَأَيْنَ السَّادَةُ الْغُرَرُ ؟

(١) الديوان ج ١، ص ١٧٩.

أَيْنَ الْمَلَائِكَةُ الْأَبْرَارُ يَقْدُمُهُمْ جِبْرِيلُ يَسْتَبِقُ الْهَيْجَا وَيَبْتَدِرُ؟
أَيْنَ الْحُمَاةُ وَقَدْ ضَاعَتْ مَحَارِمُنَا أَيْنَ الْكُفَاةُ وَأَيْنَ الذَّادَةُ الْغُيُرُ؟
أَيْنَ النُّفُوسُ تَرَامَىٰ غَيْرَ هَائِبَةٍ أَيْنَ الْعَزَائِمُ تَمْضِي مَا بِهَا خَوَرُ؟
مَنْ لِي بِهِمْ مَعْشَرًا صِيدًا غَطَارِفَةً مَا ضَيَّعُوا ذِمَّةً يَوْمًا وَلَا غَدَرُوا

هَكَذَا كَانَ أَبْطَالُ الْإِسْلَامِ فِي تَارِيخِهِ الزَّاهِرِ، وَهَكَذَا كَانَتْ رَوَائِعُ الْفُتُوحِ فِي الْمَاضِي التَّالِدِ، مَبْعَثِ الْحَمِيَّةِ، يُثِيرُهَا الشَّاعِرُ فِي النُّفُوسِ صَارِخًا بِقَوْمِهِ:

أَيْنَ التَّوَارِيخُ نَسْتَقْصِي عَجَائِبَهَا وَأَيْنَ مَا وَعَتِ الْآثَارُ وَالسِّيَرُ؟

ثُمَّ يَتَهَكَّمُ عَلَىٰ حَضَارَةِ أُورُبَّا الْمَزْعُومَةِ، وَمَدَنِيَّتِهَا الزَّائِفَةِ الَّتِي تُنَادِي بِالْإِنْصَافِ، وَهِيَ مَضْرِبُ الْمَثَلِ فِي الظُّلْمِ وَالِاسْتِعْبَادِ، وَتَمْضِي قَصِيدَةُ مُحَرَّمٍ فَتُثِيرُ نَخْوَةَ الشُّعَرَاءِ إِذْ كَانَ أَوَّلَ هَاتِفٍ فِي الْمَأْسَاةِ فَتَتَرَامَىٰ الْقَصَائِدُ نَاهِجَةً نَهْجَهُ، وَأَحْمَدُ مُحَرَّمٍ لَا يَهْدَأُ لَهُ أُوَارٌ، بَلْ يَتَخَيَّلُ شُهَدَاءَ الْمَعْرَكَةِ الْعُزَّلَ، وَقَدْ طَرَحَتْهُمْ قَذَائِفُ الْعَدُوِّ، وَيَرَىٰ بِخَيَالِهِ مَوَاقِفَ الْكَرِّ وَالْفَرِّ، وَهَجَمَاتِ الْعَدُوِّ، وَكَرَّاتِ الْمُجَاهِدِينَ، ثُمَّ تَشْتَعِلُ شُجُونُهُ حِينَ يَنْظُرُ إِلَىٰ طَرِيحٍ فِي الْغَبْرَاءِ، خَرَجَ إِلَىٰ الْمَيْدَانِ بِمَا لَدَيْهِ مِنْ عَتَادٍ بِدَائِيٍّ، لَا يَرْهَبُ الْمَوْتَ حَتَّىٰ تَرَصَّدَتْهُ قَاذِفَةٌ أَلْقَتْهُ طَرِيحًا فَوْقَ الرِّمَالِ، وَقَدْ أَمَضَّهُ الْأَسَفُ لِعَدَمِ قُدْرَتِهِ عَلَىٰ النُّهُوضِ، فَجَعَلَ يَسْتَنْهِضُ مِنْ زُمَلَائِهِ مَنْ لَا يَزَالُ لَدَيْهِ بَقِيَّةٌ مِنْ نَشَاطٍ، ثُمَّ سَرَحَ بِخَيَالِهِ إِلَىٰ أُسْرَتِهِ الْمُتَطَلِّعَةِ لِمَقْدِمِهِ ظَافِرًا، فَعَرَفَ أَنَّهُمْ فِي كَنَفِ اللَّهِ فَلَيْسَ لَهُ أَنْ يَسْأَلَ عَنْ مَصِيرِهِمْ فِي هَذَا الْمَأْزِقِ الْكَرِيهِ، وَإِنَّمَا

الَّذِي يَتَمَنَّاهُ أَنْ تُعَاوِدَهُ الصِّحَّةُ لِيَنْهَضَ بِعِبْءِ الدِّفَاعِ ، أَمَّا هَذَا الْبَطَلُ الطَّرِيحُ فَقَدْ عَنَاهُ مُحَرَّمٌ حِينَ قَالَ[1]:

هَاجَتْهُ يَوْمَ الرَّوْعِ حِمْيَةُ بَاسِلٍ ... خَوَّاضِ أَهْوَالِ الْكَرِيهَةِ أَنْجَدِ
لَا يَرْهَبُ الْمَوْتَ الْوَحِيَّ إِذَا دَنَا ... وَيَخَافُ قَوْلَ الْقَائِلِينَ أَلَا ابْعَدِ
مُسْتَبْسِلٌ تَحْتَ الْعَجَاجِ كَأَنَّهُ ... صَادٍ تُعَلِّلُهُ السُّيُوفُ بِمَوْرِدِ
نُصِبَتْ لَهُ الْجَنَّاتُ تَحْتَ ظِلَالِهَا ... فَهَفَا إِلَيْهَا كَرَّةَ الْمُسْتَشْهِدِ
وَدَنَا فَحَيَّاهُ النَّبِيُّ وَكَبَّرَتْ ... شُهَدَاءُ بَدْرٍ حَوْلَ ذَاكَ الْمَشْهَدِ
نَفَذَتْ عَلَيْهِ الْفَيْلَقَيْنِ قَذِيفَةٌ ... مَالَتْ بِمَنْكِبِهِ وَطَارَتْ بِالْيَدِ
فَهَوَىٰ يَهُزُّ الْعَرْشَ رَجْعُ أَنِينِهِ ... وَيُثِيرُ مِنْ حَرَدِ الْمَسِيحِ وَأَحْمَدِ
أَيْنَ الْفَوَارِسُ يَمْنَعُونَ بَقِيَّتِي ... مَا لِي جُفِيتُ ؟ وَكَيْفَ لِي بِالْعُوَّدِ ؟
أَيْنَ الْأُسَاةُ ، فَقَدْ ظَمِئْتُ إِلَىٰ الْوَغَىٰ ... وَهِيَ الشِّفَاءُ لِغُلَّةِ الصَّدْرِ الصَّدِي ؟
أَأَمُوتُ أَوْ يَبْقَىٰ الْحُسَامُ مُضَاجِعِي ... وَالْحَرْبُ عَاصِفَةُ الرَّدَىٰ لَمْ تَرْكُدِ ؟

وَبَعْدَ اسْتِرْسَالٍ فِي خَوَاطِرِ الْبَطَلِ الْجَرِيحِ ، يَنْتَقِلُ مُحَرَّمٌ إِلَىٰ مَنْ تَمَثَّلَهُ يُجِيبُ النِّدَاءَ ؛ إِذْ لَبَّاهُ مِنَ الْكِنَانَةِ «مِصْرَ» شُجَاعٌ مَاضِي الْعَزِيمَةِ ، وَالشَّاعِرُ يَتَحَدَّثُ عَنِ الْكَتَائِبِ الْمِصْرِيَّةِ الَّتِي خَرَجَتْ لِلدِّفَاعِ مُلَبِّيَةً نِدَاءَ الْإِسْلَامِ وَالْعُرُوبَةِ ، وَمَنْ لَمْ يَخْرُجْ جَاءَ بِالْمَالِ عَنْ طَوْعٍ ، مُسْتَجِيبًا لِصَيْحَاتِ الْمُسْتَغِيثِينَ فِي الْجَرَائِدِ ، وَفِي طَلِيعَتِهَا جَرِيدَةُ الْمُؤَيِّدِ ، أَمَّا الْجَرِيحُ فَقَدْ شَاهَدَ الْعَوْنَ السَّرِيعَ فَفَارَقَتْهُ مَوَاجِعُهُ .

(١) الديوان ص ١٨٢.

لَبَّىٰ الْجَرِيحَ، فَفَارَقَتْهُ كُلُومُهُ   وَمَضَىٰ، فَكَانَتْ وَقْعَةٌ لَمْ تُجْحَدِ

وَكَانَ الْمَوْسِمُ حِينَئِذٍ مَوْسِمَ الْعِيدِ، عِيدٌ أَثَارَ كُلُومَ الشَّاعِرِ، إِذْ لَمْ يَجِدْ بِهِ بَصِيصًا لِلْمَسَرَّةِ فِي لَيْلٍ مِنَ الظُّلُمَاتِ، كَيْفَ وَقَدْ أَقْبَلَ مَعَ الْقَذَائِفِ الْمُبِيدَةِ، وَالْفَيَالِقِ الزَّاحِفَةِ، وَالْمُرْعِدَاتِ الْعَاصِفَةِ؟ فَأَيَّ حُزْنٍ بَعَثَ؟ وَأَيَّ لَهْفَةٍ تَرَكَ؟ يَقُولُ مُحَرَّمٌ[1]:

يَا عِيدُ، هَيَّجْتَ الْأَسَىٰ لِمُعَذَّبٍ   قَلِقِ الْفِرَاشِ مِنَ الْهُمُومِ مُسَهَّدِ
أَقْبَلْتَ تَزْحَفُ بِالْفَيَالِقِ تَرْتَمِي   بَيْنَ الْقَوَاضِبِ وَالْقَنَا الْمُتَقَصِّدِ
الْقَاذِفَاتِ الْمَوْتَ أَحْمَرَ هَائِلًا   يَنْسَابُ بَيْنَ مُصَوَّبٍ وَمُصَعَّدِ
تَرْمِي، فَتَجْتَاحُ الْأُلُوفَ حَوَاصِدًا   وَتَظَلُّ جَاثِيَةً، كَأَنْ لَمْ تَحْصُدِ
يَا عِيدُ، أَيَّ شَجِيٍّ بَعَثْتَ وَلَوْعَةً   لِعُيُونِنَا وَقُلُوبِنَا وَالْأَكْبُدِ؟
عَادَيْتَنَا فَحُرِمْتَ صَفْوَ وِدَادِنَا   فَإِذَا رَجَعْتَ فَصَافِنَا، وَتَوَدَّدِ
لِلَّهِ دَرُّ الْمُنْعِمِينَ بِمَا لَهُمْ   فِي اللَّهِ، لَا نَزْرًا، وَلَا بِمُصَرَّدِ
ظَلَّتْ أَكُفُّهُمُ تَسُحُّ فَدِيمَةٌ   مِنْ فِضَّةٍ، وَغَمَامَةٌ مِنْ عَسْجَدِ

وَتَتَوَالَىٰ قَصَائِدُ مُحَرَّمٍ فِي الدَّعْوَةِ إِلَىٰ غَوْثِ الْمُجَاهِدِينَ، وَتَحِيَّةِ الْمُسْرِعِينَ لِلنَّجْدَةِ، وَشُكْرِ الْأَطِبَّاءِ الَّذِينَ رَابَضُوا فِي خِيَامِ الْجَرْحَىٰ مُتَطَوِّعِينَ، وَقَدْ شَغَلَتْ حَيِّزًا طَيِّبًا فِي الْجُزْءِ الْأَوَّلِ مِنَ الدِّيوَانِ، ثُمَّ تَشْتَدُّ الْمَعَارِكُ، وَيَزْدَادُ الْجَوُّ اكْفِهْرَارًا، لِقُوَّةِ الْعَدُوِّ بِذَخِيرَتِهِ الْمُتَطَوِّرَةِ، وَضَعْفِ الْمُدَافِعِينَ بِأَسْلِحَتِهِمُ الْمُتَوَاضِعَةِ! وَلَوْ وَقَفَ الْمُتَقَاتِلَانِ صَفًّا أَمَامَ صَفٍّ،

(١) الدّيوَان ص ١٨٧.

كَمَا كَانَ الْأَمْرُ فِي الْحُرُوبِ السَّالِفَةِ لَكَانَ النَّصْرُ لِمَنْ يَشْتَعِلُونَ حَمِيَّةً وَغَيْرَةً ! وَمَعَ ذَلِكَ كُلِّهِ فَقَدْ فَرَّ كَثِيرٌ مِنَ الْبُغَاةِ الزَّاحِفِينَ حِينَ أَدْرَكَهُمُ الْهَوْلُ فَتَرَكُوا الذَّخِيرَةَ فَزِعِينَ ، وَلَمْ يُغْنِهِمُ الْأُسْطُولُ الرَّابِضُ فِي الْبَحْرِ بِمَدَدِهِ الْهَائِلِ مِنَ الْعَتَادِ ، وَهِيَ سَانِحَةٌ اهْتَبَلَهَا الشَّاعِرُ فَسَجَّلَهَا مُبَاهِيًا ، حِينَ قَالَ(١):

لَقَدْ خَابَ مَنْ ظَنَّ الْأَسَاطِيلَ عُدَّةً ... تَقِيهِ الرَّدَىٰ إِنْ قَامَ لِلْحَرْبِ قَائِمُ

أَلَسْتَ تَرَىٰ ذُؤْبَانَ رُومَا وَمَا لَهُمْ ... مِنَ الْحَتْفِ فِي بَطْحَاءِ بَرْقَةَ عَاصِمُ

إِذَا اسْتَصْرَخُوا أُسْطُولَهُمْ لَمْ يَكُنْ لَهُمْ ... مِنَ النَّصْرِ إِلَّا أَنْ تَثُورَ الدَّمَادِمُ

تَنَاءَىٰ بِهِ الْأَمْوَاجُ آنًا وَيَدَّنِي ... وَيَجْرِي حِفَافَيْهِ الرَّدَىٰ الْمُتَلَاطِمُ

فَفِي الْبَحْرِ مَذْعُورٌ ، وَفِي الْبَرِّ طَائِحٌ ... وَمَا مِنْهُمَا إِلَّا عَلَى الْحَرْبِ نَاقِمُ

رَجَوْا مِنْ لَدُنَّا السِّلْمَ إِذْ فَاتَ حِينُهُ ... وَإِنَّ الَّذِي يَرْجُو الْمُحَالَ لَوَاهِمُ

أَبَوْا أَنْ يَكُفَّ الْمَشْرَفِيَّاتِ حِلْمُهَا ... أَفَالْآنَ لَمَّا اسْتَجْهَلَتْهَا الْمَلَاحِمُ !

وَالْقَصِيدَةُ مَلْحَمَةٌ نَارِيَّةٌ تَحْمِلُ مِنَ الشُّوَاظِ مَا يُؤَجِّجُ الْمَشَاعِرَ ، وَقَدْ خَتَمَهَا الشَّاعِرُ بِالاتِّجَاهِ إِلَىٰ رَبِّ الْبَيْتِ بِأَنْ يَتَوَلَّىٰ شُعُوبَ الْمُسْلِمِينَ بِرَحْمَتِهِ ، فَلَيْسَ قَضَاءً عَلَيْهِمْ أَنْ يُقَادُوا لِحَتْفِهِمْ قِيَادَ الْأُسَارَىٰ ، وَهُمْ عِصْمَةُ الْخَيْرِ فِي الْحَيَاةِ ، وَقَدْ صَمَّمُوا عَلَى النِّضَالِ(٢):

وَقَالُوا : يَمِينَ اللَّهِ نُسْلِمُ أَرْضَنَا ... وَلَمَّا تَزُلْ أَنْجَادُهَا وَالتَّهَائِمُ

وَبَعْدَ أَنْ هَدَأَتْ نَارُ الْحَرْبِ ، لَمْ تَهْدَأْ عَوَاطِفُ مُحَرَّم نَحْوَ لِيبْيَا بَلْ ظَلَّ يُتَابِعُ جُهُودَ الْفِدَائِيِّينَ فِي حُرُوبِ الْعِصَابَاتِ حَتَّىٰ أَصْبَحَ دِيوَانُهُ سِجِلًّا لِأَكْرَمِ

(١) الدِّيوَان ص ١٩٩.

(٢) الديوان ص ٢٠٢.

الْوَقَائِعِ ، وَأَنْبَلِ الْأَحْدَاثِ .

قُلْتُ : إِنَّ قَصَائِدَ مُحَرَّمٍ قَدْ تَوَالَتْ فِي مَأْسَاةِ طَرَابُلْسَ ، وَلَمْ يُفْرِغْ حَمَاسَتَهُ فِي قَصِيدَةٍ وَاحِدَةٍ كَمَا فَعَلَ غَيْرُهُ ، وَالْحَقُّ أَنَّ شَاعِرَ الْقُطْرَيْنِ خَلِيلَ مُطْرَانَ قَدْ شَارَكَهُ هَذِهِ الْحَمِيَّةَ الْمُلْتَهِبَةَ ؛ لِأَنَّ الْجُزْءَ الثَّانِيَ مِنْ دِيوَانِهِ يَحْفِلُ بِقَصَائِدَ حَارَّةٍ فِي هَذَا الِاتِّجَاهِ تَدُلُّ عَلَىٰ هَذِهِ الْحَمِيَّةِ الْمُتَّقِدَةِ ، وَلِلدَّارِسِ الْأَدَبِيِّ مَجَالٌ فَسِيحٌ فِي الْمُوَازَنَةِ بَيْنَ قَصَائِدِ الشَّاعِرَيْنِ إِذَا أَرَادَ .

وَلَمْ تَكَدْ مَأْسَاةُ طَرَابُلْسَ تَنْتَهِي لِخَاتِمَتِهَا الْأَلِيمَةِ ، حَتَّىٰ فُوجِئَ الْعَالَمُ الْإِسْلَامِيُّ بِإِعْلَانِ فَرَنْسَا الْحِمَايَةَ عَلَىٰ الْمَغْرِبِ ، وَلَمْ تَكُنْ لَدَىٰ السُّلْطَانِ عَبْدِ الْحَفِيظِ الْقُوَّةُ الَّتِي تَرُدُّ الِاعْتِدَاءَ ، فَآثَرَ التَّسْلِيمَ ، وَهُوَ مَا غَضِبَ لَهُ مُحَرَّمٌ ، إِذْ كَانَ يُؤْثِرُ أَنْ يُبْدِيَ السُّلْطَانُ مُقَاوَمَةً يَحْشُدُ بِهَا الشَّعْبَ حَوْلَهُ ، فَإِذَا لَمْ يُحَقِّقْ مَا أَرَادَ فَقَدْ أَعْذَرَ إِذْ بَذَلَ جُهْدَهُ ! هَذِهِ وِجْهَةُ نَظَرِ مُحَرَّمٍ ، وَمِنْهَا انْطَلَقَ يُرْسِلُ عِبَارَاتِ اللَّوْمِ الْقَاسِيَةَ ، وَلَمْ تَسِرِ الرِّيحُ رُخَاءً مَعَ السُّلْطَانِ ، حَيْثُ اضْطُرَّ إِلَىٰ التَّنَازُلِ عَنِ الْعَرْشِ لِأَخِيهِ ، وَسَافَرَ إِلَىٰ فَرَنْسَا لَاجِئًا سِيَاسِيًّا حَتَّىٰ وَافَاهُ الْأَجَلُ ، وَقَبْلَ أَنْ يَسْتَقِرَّ بِأُورُبَّا هَاجَتْ عَلَيْهِ الصُّحُفُ الْحُرَّةُ فِي الشَّرْقِ الْعَرَبِيِّ ، وَكَانَتْ قَصِيدَةُ مُحَرَّمٍ هِيَ الْأُولَىٰ فِي بَابِهَا حَيْثُ نَشَرَ بِهَا نَقْدًا لَاذِعًا تَحْتَ عُنْوَانِ « سَرِيرُ الْمَغْرِبِ » قَالَ فِيهِ مُخَاطِبًا السُّلْطَانَ عَبْدَ الْحَفِيظِ(1):

يَا ذَا الْجَلَالَةِ ، فِي مَآلِكَ عِبْرَةٌ ... لِلْمَالِكِينَ ، وَسَاءَ ذَاكَ مَآلَا
ضَيَّعْتَ مَا حَفِظَ الْحُمَاةُ فَلَمْ يَضِعْ ... وَهَدَمْتَ مَا رَفَعَ الْبُنَاةُ فَطَالَا

(1) الدِّيوَانُ ص ٢٠٤.

وَإِذَا الْمُلُوكُ اسْتَحْكَمَتْ غَفَلَاتُهَا   فَالْمُلْكُ أَسْرَعُ مَا يَكُونُ زَوَالَا
التَّاجُ لَا يَحْمِيهِ غَيْرُ مُجَرِّبٍ   يَزِنُ الْأُمُورَ وَيَقْدِرُ الْأَحْوَالَا
إِنَّ الشُّعُوبَ حَيَاتَهَا وَمَمَاتَهَا   بِيَدِ الْمُلُوكِ هِدَايَةً وَضَلَالَا
مَا قَامَ شَعْبٌ نَامَ عَنْهُ وُلَاتُهُ   وَاسْتَشْعَرُوا التَّفْرِيطَ وَالْإِهْمَالَا

وَكَانَ مُحَرَّمٌ يَتَوَقَّعُ أَنَّ الْمَسْأَلَةَ لَا تَنْتَهِي عِنْدَ مُرَاكِش، لِأَنَّ الْغَرْبَ شَحَذَ أَنْيَابَهُ لِاقْتِنَاصِ بِلَادِ الشَّرْقِ، وَهِيَ أَضْعَفُ مَا تَكُونُ جَيْشًا، تُقْصِي الْهُدَاةَ النَّاصِحِينَ، وَتَظَلُّ حَيْرَىٰ بِمُضْطَرِبِ الْحَيَاةِ، وَقَدْ هَدَّهَا مَعَ الضَّعْفِ التَّبَاغُضُ وَالتَّحَاسُدُ، وَلَا تَزِيدُهَا النَّكَبَاتُ إِلَّا لَهْوًا، وَكَأَنَّ الْأَمْرَ لَا يَعْنِيهَا حِينَ تُصْبِحُ فَرِيسَةً بَيْنَ الْأَنْيَابِ، وَقَدْ صَدَقَ تَوَقُّعُ مُحَرَّمٍ لِأَنَّ الدَّوْلَتَيْنِ الْمَاكِرَتَيْنِ تَقَاسَمَتَا شُعُوبَ الشَّرْقِ عَنْ رِضًى مُتَحَالِفٍ، بِحَيْثُ عَرَفَتْ كُلُّ دَوْلَةٍ صَيْدَهَا الْقَدِيمَ وَصَيْدَهَا الْمُرْتَقَبَ، وَحِينَ رَأَتْ إِيطَالْيَا أَنْ تُسْهِمَ فِي مَعْرَكَةِ الِاغْتِصَابِ فَاحْتَلَّتْ طَرَابُلُسَ، وَجَدَتْ كُلَّ تَرْحِيبٍ مِنْ فَرَنْسَا وَانْكِلْتِرَا، مَا دَامَتْ أَمَاكِنُ اسْتِعْمَارِهِمَا سَالِمَةً لَمْ تُهَدَّدْ، ! إِنَّ شُعُورَ مُحَرَّمٍ أَمَامَ هَذِهِ النَّكَبَاتِ قَدْ دَفَعَهُ إِلَىٰ أَنْ يُفَاجِئَ ذَوِيهِ بِرَأْيِهِ الْقَاسِي، حِينَ يَقُولُ فِي الْقَصِيدَةِ نَفْسِهَا(١):

إِيهًا مُلُوكَ الشَّرْقِ إِنَّ وَرَاءَكُمْ   قَوْمًا يُوَالُونَ الْمُغَارَ عِجَالَا
لَا يَشْبَعُونَ وَمَا يَزَالُ طَعَامُهُمْ   شَعْبًا أَشَلَّ، وَأُمَّةً مِكْسَالَا
تَأْبَى الْعِنَايَةُ أَنْ تُصَافِحَ أُمَّةً   تَرْضَى الْهَوَانَ وَتَأْلَفُ الْإِذْلَالَا
وَرْهَاءَ تَخْذُلُ مَنْ يَقُومُ بِنَصْرِهَا   وَتَظَلُّ تَنْصُرُ دُونَهُ الْخُذَّالَا

(١) الدّيوان ص ٢٠٥.

وَإِذَا أَهَابَ بِهَا الْهُدَاةُ رَأَيْتَهَا ... تَعْصِي الْهُدَاةَ ، وَتَتْبَعُ الضُّلَّالَا
تَسْعَى الشُّعُوبُ ، وَنَحْنُ فِي غَفَلَاتِنَا ... نَأْبَى الْفِعَالَ وَنُكْثِرُ الْأَقْوَالَا
يَا شَرْقُ ، مَا هَذَا الْجُمُودُ ؟ أَمَيِّتٌ ... فَنُطِيلُ حَوْلَ رُفَاتِكَ الْإِعْوَالَا ؟
لَوْ لَمْ تَمُتْ لَسَمِعْتَ دَعْوَةَ صَائِحٍ ... ذَعَرَ الدُّهُورَ وَأَفْزَعَ الْأَجْيَالَا
أَوْدَى بِنَا بَيْنَ الشُّعُوبِ تَبَاغُضٌ ... صَدَعَ الْقُلُوبَ وَمَزَّقَ الْأَوْصَالَا
لَهْفِي عَلَى الشَّرْقِ الْحَزِينِ وَأُمَّةٍ ... لَا تَبْتَغِي عِزًّا وَلَا اسْتِقْلَالَا
اللَّهُ يَحْكُمُ فِي الْمَمَالِكِ وَحْدَهُ ... وَيُصَرِّفُ الْأَقْدَارَ وَالْآجَالَا
أَنْحَى عَلَى الْمَلِكِ الشَّرِيدِ بِنَكْبَةٍ ... تَرَكَتْ مَغَانِيَ مُلْكِهِ أَطْلَالَا

وَالشَّرْقُ عِنْدَ مُحَرَّمٍ ، كَمَا كَانَ شَائِعًا فِي عَصْرِهِ ، هُوَ الْعَالَمُ الْإِسْلَامِيُّ عَرَبِيًّا وَغَيْرَ عَرَبِيٍّ ، لِذَلِكَ نَجِدُ لَهُ قَصَائِدَ نَارِيَّةً يُخَاطِبُ الشَّرْقَ بِهَا خِطَابًا عَامًّا ، وَهُوَ بِذَلِكَ يُخَاطِبُ قَوْمَهُ ، بَنِي جِنْسِهِ ، وَبَنِي دِينِهِ فِي كُلِّ مَكَانٍ ، يُخَاطِبُ خِطَابَ الطَّبِيبِ الَّذِي يَعْرِفُ الدَّاءَ وَيُشَخِّصُ الدَّوَاءَ ، يَعْرِفُ أَنَّ الشَّرْقَ نَائِمٌ وَالْعَدُوَّ يَقِظٌ مُتَحَفِّزٌ ، وَيَرَى بِعَيْنِ خَيَالِهِ مَا سَيَقَعُ مِنْ مَعَارِكَ تَسِيلُ بِهَا الدِّمَاءُ ، وَالذَّنْبُ ذَنْبُ الْأَبْنَاءِ الَّذِينَ لَمْ يَرْحَمُوا الشَّيْخَ الْهَرِمَ ، وَكَانَ لَهُ مِنَ التَّارِيخِ مَا يَدْفَعُ إِلَى النُّهُوضِ وَالِاسْتِقْلَالِ ! لَقَدْ كَانَ الشَّرْقُ صَرْحًا مَنِيعًا يَتَسَامَى فَوْقَ هَامِ الْأَنْجُمِ ، فَصَارَ رَبْعًا دَارِسًا هَدَمَهُ أَبْنَاؤُهُ ، قَبْلَ أَنْ يَهْدِمَهُ أَعْدَاؤُهُ ، وَلَا سَبِيلَ إِلَى اسْتِنْقَاذِهِ إِلَّا بِالْعَمَلِ السَّرِيعِ كَيْلَا يَطُولَ النَّدَمُ ! هَذِهِ مَعَانٍ مُبَعْثَرَةٌ وَجَدَتْ تَفْصِيلَهَا الْمُسْتَرِيحَ فِي قَصِيدَةِ مُحَرَّمٍ « يَا بَنِي الشَّرْقِ »[1] وَفِي قَصِيدَتِهِ « دُنْيَا

(١) الدِّيوَان ج ١، ص ٧٥.

الشُّعُوبِ »[1] وَنَخْتَارُ مِنَ الْقَصِيدَةِ الْأُولَىٰ قَوْلَهُ :

دَاءُ أَهْلِ الشَّرْقِ ضَعْفُ الْهِمَمِ — وَبِـهَـذَا كَـانَ مَـوْتُ الْأُمَـمِ
يَا بَنِي الشَّرْقِ ، وَلَا شَرْقَ لَكُمْ — بِسِوَىٰ الْجِدِّ وَرَعْيِ الذِّمَمِ
إِنَّ مِنْ شَرِّ الْبَلَايَا نَوْمَكُمْ — عَنْ عَدُوٍّ سَاهِرٍ لَمْ يَنَمِ
يَقِظِ الْعَيْنَيْنِ وَالرَّأْيِ مَعًا — وَهْوَ مَاضٍ كَالْحُسَامِ الْمُخْذَمِ
هَكَذَا نَحْنُ ، وَهَذِي حَالُنَا — لَيْسَ فِينَا غَيْرُ نِكْسٍ مُحْجِمِ
يَا بَنِي الشَّرْقِ ، لِمَجْدٍ ضَائِعٍ — مَنْ بَكَىٰ ضَيْعَتَهُ لَمْ يُلَمِ
كَانَ بِالْأَمْسِ مَنِيعًا صَرْحُهُ — يَتَسَامَىٰ فَوْقَ هَامِ الْأَنْجُمِ
أَصْبَحَ الْيَوْمَ كَرَبْعٍ دَارِسٍ — طَامِسٍ ، عَفَّتْهُ أَيْدِي النَّدَمِ
قَدْ شَجَانِي وَشَجَاهُ أَنَّهُ — بِسِوَىٰ أَيْدِيكُمُ لَمْ يُهْدَمِ
إِنَّنِي أَخْشَىٰ وَبِالشَّرْقِ صَدًى — أَنْ يُرَدَّىٰ مِنْ بَنِيهِ بِالدَّمِ
وَأَرَىٰ مَوْتَ الْفَتَىٰ خَيْرًا لَهُ — مِنْ حَيَاةٍ بَيْنَ نَابَيْ أَرْقَمِ
أَصْبَحَ الشَّرْقُ كَبِيرًا هَرِمًا — لَهْفَ نَفْسِي لِلْكَبِيرِ الْهَرِمِ
ازْجُرُوا أَنْفُسَكُمْ عَنْ غَيِّهَا — إِنَّ عُقْبَىٰ الْغَيِّ طُولُ النَّدَمِ ..

فَإِذَا تَرَكْنَا الْمَغْرِبَ إِلَىٰ الشَّامِ وَالْعِرَاقِ ، فَإِنَّ لِمُحَرَّمٍ مَوْقِفًا ثَابِتًا لَا يَتَزَعْزَعُ عَنْهُ ، حَيْثُ لَمْ يَرْضَ بِالِانْشِقَاقِ الَّذِي قَادَهُ الشَّرِيفُ حُسَيْنٌ ضِدَّ الْأَتْرَاكِ ! إِذْ كَانَ يَعْلَمُ أَنَّ الْإِنْكِلِيزَ لَا عَهْدَ لَهُمْ وَلَا ذِمَّةَ ، وَأَنَّ « لُورَنْس » حِينَ

---

(١) الدِّيوَانِ ج ١، ص ٧٣.

أَكَّدَ لِلْمَلِكِ حُسَيْنٍ اسْتِقْلَالَ الْعَرَبِ تَحْتَ رَايَتِهِ كَاذِبٌ يُظْهِرُ غَيْرَ مَا يُبْطِنُ، وَأَنَّ الْعَدُوَّ مُحَالٌ أَنْ يَنْقَلِبَ صَدِيقًا، وَقَدْ مَضَىٰ مِنْ تَارِيخِهِ فِي بِلَادِ الْإِسْلَامِ مَا يُنْبِئُ عَنْ غَدْرِهِ الْمُتَكَرِّرِ، وَكَيْدِهِ الْمُتَلَاحِقِ، وَإِذَا كَذَبَ فِي الْمَاضِي فَلَنْ يَصْدُقَ فِي الْحَاضِرِ، وَقَدْ أَبْدَىٰ الْمَلَقَ الْخَادِعَ أَثْنَاءَ الْحَرْبِ الْعَالَمِيَّةِ الْأُولَىٰ لِيَسْتَغِلَّ الْعَرَبَ قُوَّةً وَمَالًا وَنُفُوسًا وَأَرْضًا بِكَاذِبِ الْمَوَاعِيدِ، وَهُوَ يُبْطِنُ الشَّرَّ، وَعُهُودُهُ الْمُتَرَدِّدَةُ عَلَىٰ لِسَانِ سُفَرَائِهِ لَمْ تُسَجَّلْ فِي صَحِيفَةٍ، وَلَمْ تُدَوَّنْ فِي وَثِيقَةٍ، وَهَذَا مَا يُؤَكِّدُ احْتِيَاطَهُ إِذَا هُوجِمَ فِي مَحْكَمَةٍ دَوْلِيَّةٍ! عَرَفَ ذَلِكَ مُحَرَّمٌ وَتَأَكَّدَهُ، وَحِينَ وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ، وَبَدَا الْكَذِبُ الصَّرِيحُ، وَاضْطُرَّ فَيْصَلُ بْنُ الْحُسَيْنِ إِلَىٰ مُغَادَرَةِ الشَّامِ بَعْدَ أَنِ احْتَلَّهَا الْفَرَنْسِيُّونَ، لَمْ يَسْتَطِعْ مُحَرَّمٌ أَنْ يَكْتُمَ مَوَاجِدَهُ، بَلْ وَجَّهَ إِلَيْهِ قَصِيدَةً لَائِمَةً يَقُولُ فِيهَا(1):

نَزِيلَ النِّيلِ أَيْنَ تَرَكْتَ مُلْكًا ... أَلَمَّ بِبَابِكَ الْعَالِي نَزِيلَا؟
وَأَيْنَ التَّاجُ يُرْفَعُ فِي دِمَشْقٍ ... فَيَصْدَعُ هَامَةَ الْجَوْزَاءِ طُولَا؟
وَأَيْنَ الْجُنْدُ حَوْلَكَ تَزْدَهِيهِ ... مَوَاكِبُ تَحْمِلُ الْخَطَرَ الْجَلِيلَا؟
وَأَيْنَ الْفَتْحُ تُنْمِيهِ الْمَوَاضِي ... وَجُرْدُ الْخَيْلِ تَبْعَثُهَا فُحُولَا؟
عَزَاءً إِنَّ لِلْأَقْدَارِ حُكْمًا ... وَإِنَّ قَضَاءَ رَبِّكَ لَنْ يَحُولَا
سَأَرْحَمُ بَعْدَ قَصْرِكَ كُلَّ قَصْرٍ ... وَأَحْمَدُ بَعْدَكَ الطَّلَلَ الْمَحِيلَا
وَأَبْكِي الشَّرْقَ حِينًا بَعْدَ حِينٍ ... وَأَنْدُبُ فِي مَمَالِكِهِ الْعُقُولَا
قُلِ اللَّهُمَّ غَفَّارَ الْخَطَايَا ... إِلَيْكَ نَتُوبُ فَارْزُقْنَا الْقَبُولَا

---

(1) الديوان ص ٤٠٨.

عَرَفْنَا الْحَقَّ بَعْدَ الْجَهْلِ إِنَّا   وَجَدْنَا الْجَهْلَ لِلْأَقْوَامِ غُولَا

وَقَدْ هَاجَتْ مُحَرِّمًا أَفَاعِيلُ الِاحْتِلَالِ بِالشَّامِ، وَمَا نَزَلَ بِهِ مِنَ الْمَجَاعَةِ الْمُرَوِّعَةِ، وَالْغَدْرِ الْبَغِيضِ، وَحَاوَلَ أَنْ يُذَكِّرَ الْمَخْدُوعِينَ بِمَا صَدَّقُوهُ مِنْ كَاذِبِ الْوُعُودِ، وَلَكِنَّهُ يَتَّخِذُ مَا تَكَشَّفَ مِنْ غَدْرِ الْقَوْمِ سَبَبًا لِلْيَقَظَةِ الْحَافِزَةِ وَبَاعِثًا لِلْحَمِيَّةِ النَّاقِمَةِ، وَيُرْسِلُ فِي ذَلِكَ قَصِيدَةً مُمْتَدَّةَ النَّفَسِ، حَارَّةَ التَّأْثِيرِ يَقُولُ فِيهَا[١]:

يَا أُمَّةً فِي رُبُوعِ الشَّامِ يُوحِشُهَا   عَيْشٌ جَدِيبٌ وَرَبْعٌ لِلْمُنَى خَرِبُ
طَاحَتْ بِآمَالِهَا الْخُضْرِ اللِّدَانِ يَدٌ   خُضْرُ الْحَدَائِقِ فِي إِعْصَارِهَا حَطَبُ
عَسْرَاءُ سَوْدَاءُ يَجْرِي مِنْ أَنَامِلِهَا   حَتْفُ الشُّعُوبِ، وَيَهْمِي الْوَيْلُ وَالْحَرَبُ
لَا تَلْمَسُ الْأَرْضَ إِلَّا اسْوَدَّ جَانِبُهَا   بَعْدَ الضِّيَاءِ وَجَفَّ الْمَاءُ وَالْعُشُبُ
ضَاعَ الْحِمَى وَاسْتَبَاحَ الضَّيْمُ جَانِبَكُم   أَيْنَ الْحُمَاةُ، وَأَيْنَ الْعَطْفُ وَالْحَدَبُ؟
أَيْنَ الْمَوَاعِيدُ تَسْتَهْوِي رَوَائِعُهَا   مِنْكُمْ نُفُوسًا أَبِيَّاتٍ وَتَخْتَلِبُ
لَا تَعْجَبُوا إِنْ رَأَيْتُمْ مَوْعِدًا كَذِبًا   إِنَّ السِّيَاسَةَ مِنْ أَسْمَائِهَا الْكَذِبُ
مَاذَا تُرَجُّونَ مِنْ أَمْنٍ وَمِنْ دَعَةٍ؟   الْمَالُ يُسْلَبُ وَالْأَرْوَاحُ تُنْتَهَبُ
دَعُوا لِفَيْصَلَ مَا تُمْلِي مَشِيئَتُهُ   لَا فَيْصَلَ الْيَوْمَ إِلَّا الْمُرْهَفُ الذَّرِبُ!
كَانَتْ أَمَانِيَّ أَوْ أَحْلَامَ ذِي سِنَةٍ   طَارَتْ فَلَا أَمَمٌ مِنْهُ وَلَا كَثَبُ
مَا لِلسِّيَاسَةِ تُؤْذِينَا وَتُبْعِدُنَا   عَمَّا يَضُمُّ قُوَانَا حِينَ نَقْتَرِبُ

(١) الدِّيوَان ج ١، ص ٤٠٨.

أَغْرَتْ بِنَا الْخُلْفَ حَتَّىٰ اجْتَاحَ قُوَّتَنَا   وَطَاحَ بِالشَّرْقِ مَا نَجْنِي وَنَرْتَكِبُ

وَمُحَرَّمٌ حِينَ يَقُولُ هَذَا الْقَوْلَ ، يُوَجِّهُهُ لِمَنْ يُحِبُّ ، لَا لِمَنْ يَبْغَضُ ، وَقَدْ ظَهَرَ ذَلِكَ فِي رِثَائِهِ لِلْمَلِكِ عَلِيِّ بْنِ الْحُسَيْنِ شَقِيقِ فَيْصَلٍ ، حَيْثُ أَشَارَ إِلَىٰ مَا فَرَطَ مِنْهُ مِنَ الْمَلَامِ فَقَالَ(١):

لَئِنْ كَانَ بَعْضٌ لِلْأَعَارِيبِ لَائِمًا   فَإِنَّ لَهُمْ مِنْ بَعْضِ نَفْسِيَ عَاذِرَا
كَرِهْتُ لَهُمْ أَنْ يُورِدُوا النَّصْرَ خَصْمَهُمْ   وَأَنْ يَرْعُوا عَنْهُ الْحَلِيفَ الْمُنَاصِرَا
وَأَمْطَرْتُهُمْ عُتْبًا فَلَمَّا تَوَجَّعُوا   تَوَجَّعْتُ أَسْتَدْعِي الدُّمُوعَ الْمَوَاطِرَا
هُمُ الْقَوْمُ أَعْفَانِي مِنَ الذَّمِّ أَنَّنِي   حَفِظْتُ لَهُمْ أَرْحَامَهُمْ وَالْأَوَاصِرَا
حَكَمْتُ أُقِيمُ الْحَقَّ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ   فَمَا وَجَدُونِي ظَالِمَ الْحُكْمِ جَائِرَا
بَنِي يَعْرُبَ رُدُّوا عَلَىٰ الشَّرْقِ عِزَّهُ   وَلَا تَدَعُوهُ وَاهِنَ الْعَزْمِ حَائِرَا
ذَخَائِرُكُمْ يَا قَوْمِ شَتَّىٰ حِسَانُهَا   فَثُوبُوا إِلَىٰ الْحُسْنَىٰ وَصُونُوا الْمَفَاخِرَا

وَهَذَا الْقَوْلُ يُذَكِّرُنِي بِقَوْلِ مُحَرَّمٍ فِي رِثَاءِ أَبِي شَادِي(٢):

فَإِنْ يَذْهَبْ بِنَا وَبِهِ اخْتِلَافٌ   فَإِنَّ لَنَا إِلَىٰ الْحُسْنَىٰ مَآبَا
إِذَا مَا الْمَرْءُ كَانَ عَلَىٰ يَقِينٍ   فَقَدْ أَرْضَاكَ ، أَخْطَأَ أَمْ أَصَابَا

وَهُوَ قَوْلُ مَنْ يُقَدِّرُ وِجْهَةَ النَّظَرِ الْمُخَالِفِ ، وَيَعْرِفُ أَنَّ اللَّهَ لَوْ شَاءَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً !.

وَمَعْرُوفٌ أَنَّ الْوَحْدَةَ الْعَرَبِيَّةَ لَمْ تَقُمْ فِي الْبِلَادِ الْعَرَبِيَّةِ إِلَّا بِإِيحَاءِ الْأُدَبَاءِ

(١) الدّيوان ج «١» ص ٧٥٧.
(٢) الدّيوان ج «١» ص ٦٤٣.

وَالشُّعَرَاءِ ، قَبْلَ أَنْ يَتَّجِهَ إِلَىٰ تَحْقِيقِهَا رِجَالُ السِّيَاسَةِ ؛ لِأَنَّ أَقْلَامَ هَؤُلَاءِ قَدْ بَثَّتْ رُوحًا مِنَ الْحَمِيَّةِ الْعَرَبِيَّةِ دَفَعَتِ الْجُمُوعَ الْغَفِيرَةَ فِي كُلِّ قُطْرٍ عَرَبِيٍّ إِلَىٰ الْمُنَادَاةِ بِالْوَحْدَةِ ، وَحِينَ هَمَّ السِّيَاسِيُّونَ بِنَقْلِ هَذِهِ الْأَمَانِيِّ الْعَزِيزَةِ مِنْ عَالَمِ الْأَحْلَامِ إِلَىٰ عَالَمِ الْوَاقِعِ رَأَوْا الطَّرِيقَ مُمَهَّدًا بِفَضْلِ الدُّعَاةِ الْمُخْلِصِينَ مِنْ أَصْحَابِ الْأَقْلَامِ ، وَلَا شَكَّ أَنَّ أَحْمَدَ مُحَرَّم كَانَ الدَّاعِيَ الْكَبِيرَ لِلْوَحْدَةِ الْعَرَبِيَّةِ ؛ لِأَنَّهُ آمَنَ بِهَا عَنِ اعْتِقَادٍ جَازِمٍ بِاعْتِبَارِهَا حَلْقَةً أُولَىٰ مِنْ حَلَقَاتِ التَّضَامُنِ الْإِسْلَامِيِّ ، تَتْبَعُهَا خُطْوَةٌ أُخْرَىٰ هِيَ الْوَحْدَةُ الْإِسْلَامِيَّةُ ، وَلَوْ تُرِكَتِ الْجُمُوعُ الْعَرَبِيَّةُ وَشَأْنَهَا دُونَ أَنْ تُحَاوِلَ أَقْلَامُ الشُّعُوبِيِّينَ بِقُوَّةِ الْجُهُودِ لَرَسَخَتْ دَعَائِمُ الْوَحْدَةِ ، بَلْ لَوْ قَامَ عَلَيْهَا مِنْ رِجَالِ السِّيَاسَةِ مَنْ أَخْلَصُوا فِي دَعْوَتِهِمْ ، وَنَسَوْا نُفُوسَهُمْ لَكَانَ لِلْوَحْدَةِ شَأْنٌ أَيُّ شَأْنٍ ، وَلَكِنَّ الْبِلَادَ الْعَرَبِيَّةَ ابْتُلِيَتْ بِمَنْ يُتَاجِرُونَ بِالشِّعَارَاتِ ، وَلَا يَخْدِمُونَ غَيْرَ أَنْفُسِهِمْ فَقَطْ ، فَأَدَارُوا مَعَارِكَ كَلَامِيَّةً ، وَهَاجَمُوا مَنْ يُخَالِفُونَهُمْ فِي الرَّأْيِ ، وَلِذَلِكَ صَارَتِ الْوَحْدَةُ مَأْسَاةً بَدَلَ أَنْ تَكُونَ تَحْقِيقًا لِرَجَاءٍ عَزِيزٍ ، وَالْأَذْكِيَاءُ النَّابِهُونَ فِي الْأُمَّةِ الْعَرَبِيَّةِ يَعْرِفُونَ الطَّيِّبَ مِنَ الْخَبِيثِ ، وَيَعْلَمُونَ مَنْ تَاجَرَ بِالشِّعَارَاتِ ، وَمَنْ دَعَا إِلَىٰ الْوَحْدَةِ مُؤْمِنًا بِهَا دُونَ أَنْ يَسْتُرَ بِهَا رَغْبَةً شَخْصِيَّةً فِي السَّيْطَرَةِ وَالِاسْتِعْلَاءِ ، وَأَحْمَدُ مُحَرَّم لَمْ يَتْرُكْ مَوْقِفًا مِنَ الْمَوَاقِفِ الدَّاعِيَةِ إِلَىٰ الْوَحْدَةِ إِلَّا كَانَ سَبَّاقًا إِلَىٰ تَأْيِيدِهِ ، وَمِنْ صَيْحَاتِهِ الْعَالِيَةِ فِي هَذَا الْمَجَالِ قَصِيدَتُهُ الَّتِي قَالَهَا فِي اسْتِقْبَالِ رِجَالِ الْعِرَاقِ حِينَ قَدِمُوا إِلَىٰ مِصْرَ بِدَعْوَةٍ مِنَ الرَّابِطَةِ الْعَرَبِيَّةِ سَنَةَ ١٩٣٦م ، فَقَدْ أَلْقَىٰ قَصِيدَةً عَامِرَةً نَدَّدَ فِيهَا بِالْقَطِيعَةِ الْمُفْتَعَلَةِ بَيْنَ الْعِرَاقِ وَشُعُوبٍ مُجَاوِرَةٍ ، وَعَجِبَ كُلَّ الْعَجَبِ لِلنِّدَاءَاتِ الْإِقْلِيمِيَّةِ الَّتِي تَدْعُو لِلْقَطِيعَةِ بَيْنَ الْأَخِ وَأَخِيهِ ، وَالْقَصِيدَةُ ذَاتُ مَغَازٍ دَفِينَةٍ يُدْرِكُهَا الْقَارِئُ الْحَصِيفُ

حِينَ يَسْمَعُ قَوْلَ الْأُسْتَاذِ أَحْمَدَ مُحَرَّمٍ فِي اسْتِقْبَالِ الْوَفْدِ الْقَادِمِ مِنَ الْعِرَاقِ الشَّقِيقِ(١):

صِلُوا إِخْوَانَكُمْ وَاقْضُوا الذِّمَامَا ... وَبُلُّوا مِنْ جَوَانِحِنَا الْأُوَامَا
رُوَيْدًا بِالْقُلُوبِ بَنِي أَبِينَا ... أَمَا تُسْقُونَهَا إِلَّا ضِرَامَا؟!
لَعَمْرُ الرَّافِدَيْنِ لَقَدْ لَبِثْنَا ... نُعَلَّلُ بِالْمُنَىٰ عَامًا فَعَامَا
نُذَادُ عَنِ الْحِيَاضِ وَنَحْنُ هِيمٌ ... فَمَا نَرِدُ النِّطَافَ وَلَا الْجِمَامَا
رُوَيْدًا قَوْمَنَا، إِنَّا وَجَدْنَا ... قَطِيعَةَ قَوْمِنَا دَاءً عُقَامَا
وَمَا نَبْغِي إِذَا رُمْنَا انْتِصَافًا ... إِلَىٰ شَيْءٍ سِوَىٰ الْكَرَمِ احْتِكَامَا
عَهِدْنَاكُمْ عَلَىٰ الْأَحْدَاثِ أَهْلًا ... ذَوِي حَسَبٍ وَإِخْوَانًا كِرَامَا
فَزُورُوا أَرْضَنَا أَوْ فَاجْعَلُوهَا ... وَإِنْ غَضِبَ الْعِرَاقُ لَكُمْ مُقَامَا
أَيَغْضَبُ إِنْ يُحِبُّ أَخٌ أَخَاهُ ... وَهَلْ يَأْبَىٰ لِشَمْلِهِمَا الْتِئَامَا؟!
وَجَدْنَا الرِّيَّ يُنْكِرُهُ عَلَيْنَا ... وَإِنْ أَوْدَىٰ الْغَلِيلُ بِنَا حَرَامَا
جُسُومٌ مَا تُفَارِقُهَا قُلُوبٌ ... لَنَا كَالطَّيْرِ رَفْرَفَ ثُمَّ حَامَا
مَضَتْ أَسْرَابُهَا فَهَفَتْ رِيَاحًا ... وَمَرَّتْ فِي مَسَابِحِهَا غَمَامَا
فَمَا أَوْفَتْ عَلَىٰ النَّهْرَيْنِ حَتَّىٰ ... تَخَطَّفَهَا الْهَوَىٰ، فَهَوَتْ رُكَامَا

وَالْقَصِيدَةُ مِنْ عُيُونِ الشِّعْرِ الْقَوْمِيِّ الصَّادِقِ، وَلَوْ سَمَحَ الْمَجَالُ لَنَقَلْتُهَا جَمِيعًا؛ لِأَنَّهَا جَذْوَةٌ مَشْبُوبَةٌ يَنْطَلِقُ لَهَبُهَا مِنْ صَدْرٍ يُؤَجِّجُهُ الْحَنِينُ.

---

(١) الدِّيوَان ج ٤، ص ٧٨٠.

وَفِي مَوْقِفٍ مُمَاثِلٍ، احْتَفَلَ الطَّلَبَةُ الْعَرَبُ فِي مِصْرَ بِمُنَاسَبَةٍ وَطَنِيَّةٍ، وَرَأَوْا الْحَفْلَ جَدِيرًا بِأَنْ يُتَوِّجَهُ أَحْمَدُ مُحَرَّمٌ بِغُرَّةٍ مِنْ قَصَائِدِهِ، وَكَانَ الشَّاعِرُ مَرِيضًا، يُعَانِي مِنْ آلَامِ الظَّهْرِ، وَلَكِنَّ وَاجِبَهُ الْأَدَبِيَّ دَفَعَهُ أَنْ يُغَالِبَ دَاءَهُ، وَأَنْ يُمْلِيَ عَلَىٰ صَاحِبِهِ قَصِيدَةً لَمْ يَسْتَطِعْ كِتَابَتَهَا بِيَدِهِ، فَحَفِظَهَا فِي ذَاكِرَتِهِ، وَهِيَ إِحْدَىٰ دَعَوَاتِهِ الْخَالِدَةِ إِلَىٰ الْوَحْدَةِ، وَلَمْ تَكُنْ ذَاتَ طُولٍ مُمْتَدٍّ كَعَهْدِنَا بِهِ، وَلَكِنَّهَا نَفَّسَتْ عَنْ وِجْدَانٍ مَشْبُوبٍ أَحَسَّ بِهِ الشَّاعِرُ حِينَ قَالَ[1]:

بَنِي الْعُرُوبَةِ أَنْتُمْ هَا هُنَا رُسُلٌ ... تَقْضُونَ لِلضَّادِ أَوْطَارًا وَآمَالَا
رِدُوا الْمَنَاهِلَ مِنْ عِلْمٍ وَمِنْ أَدَبٍ ... يَجْرِي الْهَوَىٰ فِيهِمَا وَالْحُبُّ سَلْسَالَا
هِيَ الْكِنَانَةُ، وَالْأَعْرَاقُ وَاشِجَةٌ ... لَنْ تُعْدَمُوا وَطَنًا فِيهَا وَلَا آلَا
أَنْتُمْ لَهَا أَمَلٌ تَرْعَاهُ سَاهِرَةً ... فَمَا تَنَامُ وَلَا تَأْلُوهُ إِقْبَالَا
أَدُّوا رِسَالَتَهَا وَاقْضُوا لُبَانَتَهَا ... وَامْضُوا سِرَاعًا إِلَىٰ الْغَايَاتِ أَرْسَالَا
دَمُ الْعُرُوبَةِ فِي الْآفَاقِ مَا بَرِحَتْ ... تَجْرِي شَآبِيبُهُ سَحًّا وَتَهْطَالَا
هُوَ الْحَيَاةُ، فَصُونُوهُ عَلَىٰ يَدِكُمْ ... مِنْ أَنْ تَسِيلَ، كَفَاكُمْ مِنْهُ مَا سَالَا
مَنْ لِي بِهَا هِمَمًا إِنْ هِجْتُهَا بَعَثَتْ ... مِنْ قَوْمِنَا أُمَمًا مَرَّتْ وَأَجْيَالَا

وَحِينَ ظَهَرَتْ بَشَائِرُ الْوَحْدَةِ الْعَرَبِيَّةِ سَنَةَ ١٩٤٢م، وَطَالَ الْجَدَلُ حَوْلَهَا، وَانْتَصَرَتْ كِفَّةُ الْمُؤَيِّدِينَ لَهَا فِي مِصْرَ وَالْعَالَمِ الْعَرَبِيِّ، رَأَىٰ الشَّاعِرُ أَنْ يَسْتَنْهِضَ قَوْمَهُ إِلَىٰ السَّيْرِ السَّرِيعِ وَرَاءَ تَحْقِيقِ الْأَمَلِ الْمُرْتَقَبِ، كَمَا رَأَىٰ

(١) الدِّيوَان ج «١» ص ٩٤١.

أَنْ يَقْضِيَ عَلَىٰ نَزَعَاتِ التَّرَدُّدِ عِنْدَ قَوْمٍ لَا يَسُوءُهُمْ أَنْ تَكُونَ الشُّعُوبُ الْعَرَبِيَّةُ أُمَّةً وَاحِدَةً وَكَانَ الشَّاعِرُ يُدَافِعُ عَنْ قَضِيَّةٍ مَكْسُوبَةٍ فِي رَأْيِهِ ؛ لِأَنَّ الدَّعْوَةَ إِلَىٰ جَمْعِ الشَّمْلِ ذَاتُ مَنْطِقٍ صَادِعٍ يُلْجِمُ دُعَاةَ التَّفَرُّقِ وَالْخِذْلَانِ ، وَأَنَّ الْمَاضِيَ بِاجْتِمَاعِهِ الْحَاشِدِ كَانَ قُوَّةً رَهِيبَةً أَمَامَ الْأَعْدَاءِ ، وَمَا اسْتَطَاعَ الْغَاصِبُونَ أَنْ يَنَالُوا أَغْرَاضَهُمْ إِلَّا حِينَ تَحَطَّمَتِ الْوَحْدَةُ ، وَتَفَرَّقَ الشَّمْلُ الْجَمِيعُ ، يَقُولُ الْأُسْتَاذُ أَحْمَدُ مُحَرَّمٍ فِي قَصِيدَتِهِ « الْوَحْدَةُ الْعَرَبِيَّةُ »(1):

أُمَمَ الْعُرُوبَةِ ، لَا نَجَاةَ لِمُدْبِرٍ   يَبْغِي النَّجَاةَ ، وَلَا حَيَاةَ لِمُحْجِمِ
مَا فِي الصَّوَادِعِ وَهْيَ شَتَّىٰ كَالَّذِي   صَدَعَ الْقُوَىٰ مِنْ أَمْرِكِ الْمُتَقَسِّمِ
كُونِي جَمِيعًا ، فَالتَّفَرُّقُ لَمْ يَزَلْ   مُذْ كَانَ مِنْ نُذُرِ الْقَضَاءِ الْمُبْرَمِ
إِنَّ الْبِنَاءَ إِذَا تَمَاسَكَ فَاسْتَوَىٰ   لَمْ يَضْطَرِبْ ضَعْفًا وَلَمْ يَتَهَدَّمِ
وَالضَّعْفُ لِلضَّعْفِ الْمُهَدَّدِ قُوَّةٌ   تَمْضِي فَتَدْفَعُ قُوَّةَ الْمُتَهَجِّمِ
الشَّرْقُ يَنْظُرُ أَيْنَ يَذْهَبُ أَهْلُهُ   وَيَخَافُ عَادِيَةَ النُّسُورِ الْحُوَّمِ
وَيَهِيبُ بِاللَّاهِينَ مِنْ أَبْنَائِهِ   يَخْشَىٰ عَلَيْهِمْ حَسْرَةَ الْمُتَنَدِّمِ

وَقَدْ قُرِّرَتْ هَذِهِ الْقَصِيدَةُ عَلَى الْمَدَارِسِ الْمِصْرِيَّةِ وَقْتَ صُدُورِهَا ، وَكَانَتْ هِتَافًا لِلطُّلَّابِ ؛ لِأَنَّهَا عَبَّرَتْ عَنْ شُعُورِ الشَّبِيبَةِ الْمِصْرِيَّةِ ، وَقَدْ أَشْعَلَ النُّفُوسَ مَا بِهَا مِنْ دَعْوَةٍ إِلَى الْقُوَّةِ الرَّادِعَةِ ، وَهِيَ دَعْوَةٌ لَا يَمْتَرِي أَحَدٌ فِي تَصْدِيقِهَا ، وَلَكِنَّ بَعْضَ الزُّعَمَاءِ مِنَ السَّاسَةِ حِينَئِذٍ ، وَهُوَ إِسْمَاعِيلُ صِدْقِي ، قَدْ فَاجَأَ الْمِصْرِيِّينَ بِدَعْوَةٍ مُنَاقِضَةٍ إِذْ يَقُولُ : إِنَّ الْأُمَّةَ الْعَرَبِيَّةَ مَهْمَا بَذَلَتْ فَلَنْ

(1) الديوان ج ١، ص ٩١٨ وما بعدها.

تَكُونَ فِي مَصَافِّ الدُّوَلِ الْقَوِيَّةِ فِي أُورُبَّا ، وَعَلَيْهَا أَنْ تَصْرِفَ مَا تُعِدُّهُ لِلسِّلَاحِ فِي سَبِيلٍ آخَرَ كَالتَّعْلِيمِ أَوِ الصِّحَّةِ حَتَّىٰ يَنْتَشِرَ الْوَعْيُ ، وَلَهَا فِي الْمُعَاهَدَاتِ السِّلْمِيَّةِ مَا يَكْفُلُ لَهَا الْحَيَاةَ الْهَادِئَةَ ! وَهِيَ دَعْوَةٌ خَادِعَةٌ لَمْ تَجِدْ قَبُولًا مِنْ أَحَدٍ ، وَقَدْ جَابَهَهَا أَحْمَدُ مُحَرَّم بِقَوْلِهِ فِي هَذِهِ الْقَصِيدَةِ[1]:

هَذَا زَمَانٌ لَيْسَ يَفْهَمُ أَهْلُهُ إِلَّا حَدِيثَ النَّارِ أَوْ لُغَةَ الدَّمِ
كَثُرَتْ لُغَاتُ الْعَالَمِينَ وَهَذِهِ أَوْفَىٰ بَيَانًا فِي اللِّسَانِ وَفِي الْفَمِ
الْقُوَّةُ الدُّنْيَا ، فَمَنْ يَظْفَرْ بِهَا يَظْفَرْ بِدُنْيَا الْغَالِبِ الْمُتَحَكِّمِ
وَالْعَدْلُ أَكْثَرُ مَا يَكُونُ حَدِيثُهُ أُنْشُودَةَ الْجَانِي وَدَعْوَىٰ الْمُجْرِمِ
أُمَمَ الْعُرُوبَةِ أَيْنَ أَنْتِ ؟ فَقَدْ طَغَىٰ سَيْلُ الْأَذَىٰ فِي مَوْجَةِ الْمُتَضَرِّمِ
هَذَا هُوَ الطُّوفَانُ إِنْ تَتَهَيَّبِي يُطْبِقْ عَلَيْكِ وَإِنْ تَهُبِّي تُعْصَمِي

لَقَدِ اسْتَشْهَدْتُ بِنَزْرٍ يَسِيرٍ مِمَّا قَالَ الشَّاعِرُ فِي دُنْيَا الْعُرُوبَةِ ، وَفِي دِيوَانِهِ الْحَافِلِ رِيٌّ شَافٍ لِمَنْ يَطْلُبُ الْمَزِيدَ .

(١) السابق .

ظُلُمَاتُ الاِحْتِلَالِ فِي مِصْرَ

إِذَا أَرَدْتَ أَنْ تَقْرَأَ تَارِيخَ الاِحْتِلَالِ الْإِنْكِلِيزِيِّ فِي مِصْرَ ، مُطَّرِدَ الْفُصُولِ ، كَامِلَ الْحَلَقَاتِ فِي دِيوَانٍ شِعْرِيٍّ مُعَاصِرٍ ، فَلَنْ تَجِدَ غَيْرَ دِيوَانِ أَحْمَدَ مُحَرَّمٍ ؛ لِأَنَّ شُعَرَاءَ الْوَطَنِيَّةِ سِوَاهُ مِثْلَ شَوْقِيٍّ وَحَافِظٍ وَالْكَاشِفِ وَمُطْرَانَ وَغَيْرِهِمْ لَمْ يَبْلُغُوا مَبْلَغَه فِيمَا قَالُوهُ ؛ إِذ لَمْ يُتَابِعُوا الْأَحْدَاثَ مُتَابَعَةَ الْيَقِظِ السَّاهِرِ الْمُتَرَصِّدِ ، كَمَا تَابَعَهَا مُحَرَّمٌ ، وَقَدْ تَبْلُغُ بِهِ حَمَاسَتُهُ أَنْ يَقُولَ فِي الْمَوْضُوعِ الْوَاحِدِ عِدَّةَ قَصَائِدَ ، لَا قَصِيدَةً وَاحِدَةً ، وَكَأَنَّهُ يَحُسُّ هَيَجَانًا فِي نَفْسِهِ لَا يَسْتَرِيحُ مِنْهُ إِذَا نَظَمَ الْقَصِيدَةَ الْأُولَى ، بَلْ يَظَلُّ هَيَجَانُهُ يَثُورُ وَيَحْتَدِمُ ، فَيَدْفَعُهُ إِلَى الْمَزِيدِ ، وَلَوْ أَنَّ مُؤَرِّخًا سِيَاسِيًّا أَرَادَ أَنْ يَجْذِبَ قُرَّاءَهُ لِمَا كَتَبَ ، وَاسْتَعَانَ بِقَصَائِدِ مُحَرَّمٍ فِي تَصْوِيرِ الْمَشَاعِرِ عَقِبَ كُلِّ مَأْسَاةٍ اسْتِعْمَارِيَّةٍ لَبَلَغَ مِنْ نُفُوسِ الْقَارِئِينَ مَبْلَغًا عَظِيمًا ، وَعَهْدُنَا بِمُؤَرِّخِي الْعَرَبِ أَنْ يُتْبِعُوا الْأَحْدَاثَ بِمَا قِيلَ فِيهَا مِنَ الشِّعْرِ ، فَلِمَاذَا لَا يَكُونُ الْمُؤَرِّخُونَ الْمُحْدَثُونَ كَسَابِقِيهِمْ فِي هَذَا الاِسْتِشْهَادِ ؟!.

وَقَدِ اتَّجَهَ مُحَرَّمٌ إِلَى الشِّعْرِ السِّيَاسِيِّ مُنْذُ نَشْأَتِهِ الْأُولَى ، وَهُوَ فِي الْعِشْرِينَ مِنْ عُمُرِهِ ، فَأَنْشَدَ قَصِيدَةً شَارَفَتِ الْمِائَةَ مِنَ الْأَبْيَاتِ ، تُصَوِّرُ

مَشَاعِرَهُ أَمَامَ الاِحْتِلَالِ الْغَاشِمِ ، وَقَدْ بَعَثَ بِهَا إِلَى الصُّحُفِ فَاجْتَزَأَتْ بِبَعْضٍ عَنْ بَعْضٍ ؛ لِأَنَّ اسْمَهُ لَمْ يَكُنْ شَهِيرًا لَدَى أَصْحَابِهَا حِينَئِذٍ ، وَقَدْ عَزَّ عَلَيْهِ أَنْ تُوأَدَ أَفْكَارُهُ الْمُلْتَهِبَةُ فَنَشَرَ الْقَصِيدَةَ فِي كُتَيِّبٍ صَغِيرٍ عَلَى نَفَقَةِ وَالِدِهِ ، وَقَدَّمَ لَهَا بِحَدِيثٍ غَاضِبٍ عَنْ مَآسِي الاِحْتِلَالِ ، وَلَعَلِّي أَشَرْتُ إِلَى ذَلِكَ مِنْ قَبْلُ ، وَدَارِسُ الْأَدَبِ حِينَ يَقْرَأُ قَصِيدَةَ الشَّاعِرِ الشَّابِّ يَرَى أَنَّهُ نَشَأَ مُكْتَمِلَ الْأَدَاةِ ، بَارِعَ النَّسْجِ ، فَهُوَ مَثَلًا يَقُولُ فِي مُقَدِّمَةِ الْمُعَلَّقَةِ الرَّنَّانَةِ عَنِ الْإِنْكِلِيزِ حِينَ ادَّعَوْا أَنَّهُمْ ضُيُوفٌ يُقِرُّونَ الْأَوْضَاعَ فِي مِصْرَ ، ثُمَّ لَا يَلْبَثُونَ أَنْ يَرْتَحِلُوا ، وَلَكِنْ وَجَدُوا الْعَيْشَ الْهَنِيءَ وَاسْتَمْرَأُوهُ ، وَأَدْرَكُوا ضَعْفَ الْأُمَّةِ عَنْ مُقَاوَمَتِهِمْ ، فَازْدَادُوا تَمَرُّدًا وَاسْتِفْزَازًا ، يَقُولُ الشَّابُّ الْغَيُورُ فِي هَؤُلَاءِ(١):

وَمَا بَرِحُوا يَأْتُونَ كُلَّ عَظِيمَةٍ فَنُغْضِي ، وَيَأْبَوْنَ الْجَمِيلَ فَنَحْلُمُ
بَذَلْنَا لَهُمْ أَرْيًا(٢) وَجَاءُوا بِعَلْقَمٍ وَهَلْ يَسْتَوِي الضِّدَّانِ أَرْيٌ وَعَلْقَمُ
يَزِيدُ الْأَذَى مِنْهُمْ فَيَزْدَادُ حِلْمُنَا وَيَعْظُمُ وَقْعُ الْخَطْبِ فِينَا فَنَكْظِمُ
كَفَى حُزْنًا أَنْ نَرَى مِصْرَ أَصْبَحَتْ بِعَيْنِ بَنِيهَا ، وَهْيَ نَهْبٌ مُقَسَّمُ

ثُمَّ يَدْهَشُ لِلسُّكُوتِ الْمُخَيِّمِ عَلَى الرُّبُوعِ وَالِاسْتِسْلَامِ السَّائِدِ فِي النُّفُوسِ ؛ فَيَقُولُ :

بَنِي مِصْرَ ، هَيَّا قَدْ تَطَاوَلَ نَوْمُكُمْ أَأَنْتُمْ مِنَ الْآمَادِ عَنْ مِصْرَ نُوَّمُ ؟
أَسَأْتُمْ إِلَيْهَا جَاهِدِينَ وَأَنْتُمُ بَنُوهَا ، فَهَلَّا لِلْعُدَاةِ أَسَأْتُمُ ؟
لَقَدْ هَرِمَتْ مِصْرُ وَتَزْعُمُ أَنَّهَا فَتَاةٌ ، فَهَلْ أُدْعَى فَتًى حِينَ أَهْرَمُ ؟

(١) الدِّيوَان ج ١، ص ٤٦ طبعة ثانية .
(٢) أَرْيًا : شهدًا .

بَدَا ظَهْرُهَا بَعْدَ الشَّبَابِ مُقَوَّسًا   وَقَدْ كَانَ قَبْلَ الشَّيبِ، وَهْوَ مُقَوَّمُ
وَلَوْ أَسْفَرَتْ عَنْ وَجْهِهَا لَبَدَا لَنَا   حَقِيقَتُهَا، لَكِنَّهَا تَتَلَثَّمُ
إِذَا حَاوَلَتْ مِصْرُ إِلَى الْمَجْدِ نَهْضَةً   أَبَى ذَاكَ عَظْمٌ وَاهِنٌ مُتَهَضِّمُ

وَلَيسَ فِي هَذَا النَّقْدِ شَمَاتَةٌ وَاسْتِهَانَةٌ، وَلَكِنَّهُ دَعْوَةٌ إِلَى التَّحَفُّزِ الْوَاثِبِ، بِتَصْوِيرِ الْوَاقِعِ الْمُؤْلِمِ، وَهُوَ سَبِيلٌ مَطْرُوقَةٌ فِي الشِّعْرِ الْعَرَبِيِّ، مُنْذُ قَالَ الْحَمَاسِيُّ الْقَدِيمُ يَسْتَنْهِضُ قَوْمَهُ[1]:

لَكِنَّ قَوْمِي وَإِنْ كَانُوا ذَوِي عَدَدٍ   لَيْسُوا مِنَ الشَّرِّ فِي شَيْءٍ وَإِنْ هَانَا
يَجْزُونَ مِنْ ظُلْمِ أَهْلِ الظُّلْمِ مَغْفِرَةً   وَمِنْ إِسَاءَةِ أَهْلِ السُّوءِ إِحْسَانَا

وَمَضَتِ الْقَصِيدَةُ تُصَوِّرُ حَالَ الْفَلَّاحِ الْجَائِعِ وَهُوَ مُجْهَدٌ، وَالْمَتَاجِرِ الْمُعَطَّلَةِ، وَالْمَدَارِسِ الْمُهْمَلَةِ، وَكَانَتْ أَقْوَى صَيْحَةٍ قَالَهَا شَاعِرٌ حِينَئِذٍ صَيْحَةُ مُحَرَّمٍ، حِينَ اسْتَنْكَرَ أَنْ يَسِيرَ الْجُنُودُ الْمِصْرِيُّونَ لِحَرْبِ السُّودَانِ، وِفْقًا لِمَشِيئَةِ الْإِنْكِلِيزِ، بِدَعْوَى أَنَّهُمْ يَحْرِصُونَ عَلَى اسْتِقْلَالِ السُّودَانِ بِاعْتِبَارِهِ جُزْءًا مِنْ مِصْرَ، وَهِيَ دَعْوَى كَاذِبَةٌ خَدَعَ بِهَا الْمُحْتَلُّ سَاسَةً أَغْرَارًا مِنَ الْمُسْتَوْزِرِينَ هُمْ لُعْبَةٌ فِي يَدِهِ! كَانَ مُحَرَّمٌ هُوَ الشَّاعِرَ الْجَرِيءَ الَّذِي كَشَفَ الْقِنَاعَ عَنْ هَذَا الزَّيْفِ الْخَادِعِ؛ فَصَاحَ بِقَوْمِهِ[2]:

وَلَمْ أَرَ كَالسُّودَانِ أَبْعَثَ لِلْأَسَى   وَإِنْ لَجَّ فِي تَرْنَامِهِ الْمُتَرَنِّمُ
أَكَانُوا عُدَاةً فَابْتَدَرْنَا قِتَالَهُمْ   وَصَاوَلَهُمْ مِنَّا الْخَمِيسُ الْعَرَمْرَمُ؟!
دَهَمْنَاهُمُ، لَا بَلْ دَهَمْنَا نُفُوسَنَا   فَهَلَّا عَلِمْنَا أَيُّنَا كَانَ يُدْهَمُ؟!

(١) ديوان الحماسة، ص ٥٨ ت الدكتور عبد الله عسيلان ج ١. (٢) الديوان ج ١، ص ٤٩.

سُيُوفٌ لِغَيْرِ اللَّهِ سُلَّتْ عَلَيْهِمُ ... تُطَبِّقُ فِيهِمْ مَرَّةً وَتُصَمِّمُ
تَمَنَّىٰ لَوَ انَّ الْحَامِلِيهَا تَثَلَّمَتْ ... سَوَاعِدُهَا، أَوْ أَنَّهَا تَتَثَلَّمُ
فَيَا عَجَبًا لِلدَّهْرِ كَيْفَ يَضُمُّنَا ... وَإِخْوَانُنَا الْأَدْنَيْنَ فِي الْحَرْبِ مَأْزَمُ !
أَلَا حُرْمَةٌ وَافَىٰ بِهَا الدِّينُ تُتَّقَىٰ ... أَلَا رَحِمٌ أَوْصَىٰ بِهَا اللَّهُ تُرْحَمُ ؟!
لَعَمْرِي لَقَدْ غِيظَتْ لِسُوءِ صَنِيعِنَا ... مَلَائِكَةُ الْجَبَّارِ فَهْيَ تُدَمْدِمُ
يُهَنِّئُنَا قَوْمٌ بِهَذَا، وَإِنَّمَا ... يُهَنَّأُ مَنْ يَغْزُو الْعَدُوَّ فَيَنْعَمُ
أَلَا قَاتَلَ اللَّهُ الْمُقَطَّمَ إِنَّهُ ... لَيُوشِكُ أَنْ يَنْدَكَّ مِنْهُ الْمُقَطَّمُ

إِنَّ هَذِهِ الْأَبْيَاتَ الصَّارِخَةَ جَدِيرَةٌ أَنْ يَقْرَأَهَا كُلُّ عَرَبِيٍّ فِي مَوْطِنِهِ ؛ إِذْ مَا بَرِحَ الْوُصُولِيُّونَ مِنَ الِانْتِهَازِيِّينَ فِي كُلِّ جِيلٍ ، يُشْعِلُونَ الْحَرْبَ عَلَىٰ إِخْوَانِهِمُ الْعَرَبِ ، بِدَعَاوَىٰ كَاذِبَةٍ مُمَوَّهَةٍ ، وَلِهَؤُلَاءِ أَقْلَامٌ سَفِيهَةٌ مُنَافِقَةٌ ، تُؤَيِّدُ جَرَائِمَهُمُ الْمُنْكَرَةَ ، كَمَا انْبَرَتْ جَرِيدَةُ الْمُقَطَّمِ الِاسْتِعْمَارِيَّةُ تَشِيدُ بِبُطُولَاتِ الْمِصْرِيِّينَ الزَّائِفَةِ فِي حَرْبِ إِخْوَانِهِمُ الْمُسْلِمِينَ ! وَمِصْرُ وَالسُّودَانُ مَعًا فَرِيسَةٌ لِمُحْتَلٍّ غَاشِمٍ قَهَّارٍ ! هَذِهِ الْأَبْيَاتُ جَدِيرَةٌ بِأَنْ تُسْرَدَ فِي مَآسِي حَرْبِ مِصْرَ وَالْيَمَنِ ، وَحَرْبِ الْعِرَاقِ وَ إِيرَانَ ، وَحَرْبِ الْعِرَاقِ وَالْكُوَيْتِ ، وَكُلِّ كَارِثَةٍ يَأْتِي بِهَا مُعْتَدٍ بَاغٍ قَاهِرٍ وَيَجِدُ مَنْ حَوْلَهُ رِعَاعًا يَدُقُّونَ الطُّبُولَ ، وَيُلْجِمُونَ الْأَفْوَاهَ .

أَمَّا حَادِثُ « دُنْشُوَاي » ، وَقَدْ كَانَ أَفْدَحَ حَادِثٍ أَصَابَ مِصْرَ بِالذُّهُولِ ، فَقَدْ أَبْدَعَ أَحْمَدُ مُحَرَّمٍ فِي وَصْفِهِ إِذْ تَنَاوَلَهُ فِي قَصِيدَتَيْنِ بَاكِيَتَيْنِ ، كَمَا أَشَارَ إِلَيْهِ فِي خَطَرَاتٍ مِمَّا قَالَهُ بَعْدُ ، وَمِنْ حَدِيثِهِ أَنَّ كَتِيبَةً إِنْكِلِيزِيَّةً خَرَجَتْ لِتَصْطَادَ الْحَمَامَ مِنَ الرِّيفِ ! وَالْحَمَامُ لَيْسَ طَيْرًا بَرِّيًّا لَا أَهْلَ لَهُ ، وَلَكِنَّهُ مِلْكُ أُنَاسٍ مِنَ الْفَلَّاحِينَ يُرَبُّونَهُ لِيَقْتَاتُوا مِنْ عَائِدِهِ ، فَعَمَلِيَّةُ الِاصْطِيَادِ نَفْسُهَا جَرِيمَةٌ لَمْ تَرَ مُعَاقِبًا

لَهَا ، أَوْ ذَاكِرًا لِجُرْمِهَا ، وَقَدْ ذَهَبَ أَحَدُ الضُّبَّاطِ مُخْتَرِقًا قَرْيَةَ « دُنْشُوَاي » لِيَصْطَادَ حَمَامَ الْحُقُولِ ، وَكَانَتْ أَجْرَانُ الْقَمْحِ فِي مَوْسِمِ الْحَصَادِ ، وَأَيَّةُ شَرَارَةٍ نَارِيَّةٍ تَسْقُطُ عَلَىٰ الْهَشِيمِ الْيَابِسِ تُودِي بِمَحْصُولِ الْفَلَّاحِ الْبَائِسِ ، فَأَطْلَقَ الضَّابِطُ نَارَهُ غَيْرَ مُكْتَرِثٍ بِصِيَاحِ صَاحِبِ الْجُرْنِ ، وَهُوَ شَيْخٌ فَاتَ السَّبْعِينَ ، وَتَحَقَّقَ مَا خَشِيَهُ الشَّيْخُ فَسَقَطَتِ النَّارُ عَلَىٰ الْجُرْنِ وَأَكَلَتْ مَا بِهِ ، وَلَمْ يَقِفِ الْأَمْرُ عِنْدَ هَذَا الْحَدِّ ، بَلْ أَصَابَتْ نَارُ الْقَذِيفَةِ فَلَّاحَةً بَائِسَةً ، فَسَقَطَتْ جَرِيحَةً ، وَهَاجَ الْقَرَوِيُّونَ ، وَحَمَلُوا عَلَىٰ الضُّبَّاطِ بِالْعَصَا غَيْرَ هَائِبِينَ قَذَائِفَ نِيرَانِهِمْ ، فَأُصِيبَ أَحَدُهُمْ بِكَسْرٍ فِي ذِرَاعِهِ ، وَآخَرُ بِجُرْحٍ فِي رَأْسِهِ ، وَقَدْ كَانَتِ الشَّمْسُ حَامِيَةً فَضَرَبَتْهُ حَرَارَتُهَا وَلَفَظَ أَنْفَاسَهُ ، وَجَاءَ رِفَاقُهُ فَقَتَلُوا مَنْ كَانَ يَسْقِيهِ الْمَاءَ مِنَ الْفَلَّاحِينَ شَفَقَةً بِهِ ! ثُمَّ أُقِيمَتْ مُحَاكَمَةٌ عَاجِلَةٌ صَدَرَ الْأَمْرُ فِيهَا بِإِعْدَامِ الْأَبْرِيَاءِ قَبْلَ أَنْ تُعْقَدَ الْمُحَاكَمَةُ ؛ لِأَنَّ جَرِيدَةَ الْمُقَطَّمِ الْمُوَالِيَةَ لِلاحْتِلَالِ ذَكَرَتْ أَنَّ الْأَمْرَ قَدْ صَدَرَ بِإِرْسَالِ الْمَشَانِقِ إِلَىٰ « دُنْشُوَايَ » قَبْلَ أَنْ يُسْتَجْوَبَ مُتَّهَمٌ وَاحِدٌ ! وَكَانَتِ الْمُحَاكَمَةُ بَاطِشَةً لَا تَدَعُ لِلْمُتَّهَمِ أَنْ يَذْكُرَ أَقْوَالَهُ ، بَلْ تُقَاطِعُهُ مُتَشَفِّيَةً حَانِقَةً ، وَأَصْدَرَتْ حُكْمَهَا بِإِعْدَامِ أَرْبَعَةٍ وَسَجْنِ سَبْعَةَ عَشَرَ مُوَاطِنًا ، بَعْضُهُمْ بِالْأَشْغَالِ الشَّاقَّةِ مَعَ الضَّرْبِ بِالسِّيَاطِ عَلَنًا قَبْلَ السَّجْنِ ، وَهُوَ حُكْمٌ جَائِرٌ لَا مَثِيلَ لَهُ فِي مُحَاكَمَاتِ السِّيَاسَةِ ، وَكَانَ التَّنْفِيذُ فَوْرِيًّا ؛ إِذْ أَنَّ الْمَشَانِقَ أُعِدَّتْ فِي « دُنْشُوَايَ » ، فَأُعْدِمَ الْأَرْبَعَةُ عَلَىٰ رُءُوسِ الْأَشْهَادِ ، وَتَوَلَّىٰ الْمُجْرِمُونَ جَلْدَ الْأَبْرِيَاءِ بِالسِّيَاطِ ، وَلَا أَدَلَّ عَلَىٰ هَوْلِ الْفَجِيعَةِ مِمَّا قَالَهُ الصَّحَفِيُّ الْكَبِيرُ الْأُسْتَاذُ أَحْمَدُ حِلْمِيٌّ ، حِينَ وَصَفَ الْمَشْهَدَ الْبَشِعَ بِجَرِيدَةِ اللِّوَاءِ ؛ فَقَالَ[1]:

---

(١) مصطفىٰ كامل للأستاذ عبد الرحمن الرافعي ص ٢١١.

« كَادَ دَمِي يَجْمُدُ فِي عُرُوقِي بَعْدَ تِلْكَ الْمَنَاظِرِ الْفَظِيعَةِ ، فَلَمْ أَسْتَطِعِ الْوُقُوفَ بَعْدَ الَّذِي شَاهَدْتُهُ ، فَقَفَلْتُ رَاجِعًا ، وَرَكِبْتُ عَرَبَتِي ، وَبَيْنَمَا كَانَ السَّائِقُ يُلْهِبُ خُيُولَهَا بِسَوْطِهِ ، كُنْتُ أَسْمَعُ صِيَاحَ ذَلِكَ الرَّجُلِ ، يُلْهِبُ الْجَلَّادُ جِسْمَهُ بِسَوْطِهِ ، وَرَجَائِي مِنَ الْقُرَّاءِ أَنْ يَقْبَلُوا مَعْذِرَتِي فِي عَدَمِ وَصْفِ مَا فِي الْبَلْدَةِ ، مِنْ مَآتِمَ عَامَّةٍ ، وَكَآبَةٍ مَدَّتْ رُوَاقَهَا عَلَىٰ كُلِّ بَيْتٍ ، وَحُزْنٍ بَاسِطٍ ذِرَاعَيْهِ حَوْلَ الْأَهَالِي ، حَتَّىٰ إِنَّ أَجْرَانَ أَغْلَالِهِمْ كَانَ يَدُوسُهَا الَّذِينَ حَضَرُوا لِمُشَاهَدَةِ هَذِهِ الْمَجْزَرَةِ الْبَشَرِيَّةِ ، وَتَأْكُلُ فِيهَا الْأَنْعَامُ وَالدَّوَابُّ بِلَا مُعَارِضٍ ، وَلَا مُمَانِعٍ ، كَأَنْ لَا أَصْحَابَ لَهَا ، وَمَعْذِرَتِي وَاضِحَةٌ ؛ لِأَنِّي لَمْ أَتَمَالَكْ نَفْسِي وَشُعُورِي أَمَامَ هَذَا الْبَلَاءِ الْوَاقِعِ ، الَّذِي لَيْسَ لَهُ مِنْ دَافِعٍ ، إِلَّا بِهَذَا الْمِقْدَارِ مِنَ الْوَصْفِ وَالْإِيضَاحِ » .

وَبَعْدُ ، فَهَلْ يَحْتَاجُ مَا قَالَهُ الْأُسْتَاذُ أَحْمَدُ حِلْمِيٌّ إِلَىٰ تَعْقِيبٍ ، وَكُلُّ حَرْفٍ مِنْهُ عَلَىٰ إِيجَازِهِ يَبْعَثُ فِي النَّفْسِ حَسْرَةً كَاوِيَةً ، وَيُرْسِلُ مِنَ الصَّدْرِ زَفْرَةً لَاهِبَةً ، وَيَدَعُ الْأَكُفَّ يَضْرِبُ بَعْضُهَا بَعْضًا نَدَمًا وَغَيْظًا ، إِنَّنَا نَتْرُكُ الْمَجَالَ لِأَحْمَدَ مُحَرَّمٍ ؛ كَيْ يُعَبِّرَ عَنْهُ بِقَوْلِهِ(١):

أَتِلْكَ مَصَارِعُ الْمُسْتَضْعَفِينَا ... فَمَا بَالُ الْهُدَاةِ الْمُصْلِحِينَا ؟
أَجِيبِي « دُنْشُوَايُ » فَإِنْ تَكُونِي ... عَيِيتِ عَنِ الْجَوَابِ فَمَا عَيِينَا
مُلِئْتِ أَسًى فَلَنْ تَجِدِي عَزَاءً ... وَلَنْ تَدَعِي التَّوَجُّعَ وَالْأَنِينَا
تَذُوقِينَ الْعَذَابَ ، وَهُمْ نَشَاوَىٰ ... يُغَنُّونَ الْمَشَانِقَ نَاعِمِينَا
تَطُوفُ بِهَا الْأَرَامِلُ وَالْيَتَامَىٰ ... تَضِجُّ ، وَتَذْرِفُ الدَّمْعَ السَّخِينَا

(١) الدِّيوَان ج ٤ ، ص ٩٨.

وَتَعْطِفُهَا السِّيَاطُ عَلَى رِجَالٍ بِمُطَّرَحِ الْهَوَانِ مُمَزَّقِينَا
إِذَا انْسَابَ الدَّمُ الْمِهْرَاقُ مِنْهُمْ رَأَيْتَ ثِيَابَهُمْ حُمْرًا وَجُونَا
صَحَائِفُ بِالسِّيَاطِ تُخَطُّ فَاقْرَأْ وَقُلْ: لِلَّهِ أَيْدِي الْكَاتِبِينَا
رَضِينَا بِالْحَمَامِ يَكُونُ صَيْدًا فَمَا قَنَعَ الرُّمَاةُ بِمَا رَضِينَا
أَبَوْا إِلَّا النُّفُوسَ فَمَا اسْتَطَعْنَا سِوَى شَكْوَى الضِّعَافِ الْعَاجِزِينَا
أَذَابُوا الْأُمَّهَاتِ أَسًى وَوَجْدًا وَطَاحُوا بِالْأُبُوَّةِ وَالْبَنِينَا
قَتِيلُ الشَّمْسِ لَيْسَ لَهُ سِوَانَا فَمَرْحَى لِلْقُضَاةِ الْعَادِلِينَا

وَيَنْتَقِلُ الشَّاعِرُ إِلَى مَنْ عَاوَنُوا الْمُحْتَلَّ عَلَى هَذِهِ الْفَظَائِعِ الدَّامِيَةِ، فَيَقُولُ:

بَنِي «التَّامِيزِ»، كُونُوا كَيْفَ شِئْتُمْ فَلَنْ نَدَعَ الْكِفَاحَ، وَلَنْ نَلِينَا
خُذُوا أَنْصَارَكُمْ إِنَّا نَرَاهُمْ لَنَا وَلِقَوْمِنَا الدَّاءَ الدَّفِينَا
هُمُ الْأَعْدَاءُ لَسْنَا مِنْ ذَوِيهِمْ وَلَيْسُوا فِي الشَّدَائِدِ مِنْ ذَوِينَا
دَعُوا ذِكْرَ الْوِفَاقِ وَمَا يَلِيهِ فَمَا نَسِيَ الْحَمَامُ وَلَا نَسِينَا

وَلِلشَّاعِرِ زَفْرَةٌ أُخْرَى فِي دُنْشُوَايَ جَاءَ فِيهَا(١):

أَهَذَا هُوَ الْعَدْلُ الَّذِي فِيهِ أَطْنَبُوا وَرَاحَ بِهِ مِنْهُمْ فَخُورٌ وَمُعْجَبُ؟!
أَعَدْلًا يَرَوْنَ الْقَتْلَ لَمْ يَأْتِهِمْ بِهِ كِتَابٌ سِوَى مَا الظُّلْمُ يُوحِي وَيَكْتُبُ
أَخَذْتُمْ بِنَفْسٍ أَرْبَعًا وَنَسِيتُمْ دَمًا بَاتَ يَبْكِيهِ التُّرَابُ الْمُخَضَّبُ؟!

(١) الدّيوان ج ١، ص ١٠٩.

هُنَالِكَ حَيْثُ الْجُنْدُ لَا تَتَّقِي الْأَذَىٰ وَلَا تَرْقُبُ الْعَيْنَ الَّتِي ثَمَّ تَرْقُبُ

ثُمَّ بَعْدَ سُقُوطِ «كْرُومَرْ» حِينَ افْتَضَحَ أَمْرُهُ فِي حَادِثَةِ «دُنْشُوَايَ»، تَخَاذَلَ نَفَرٌ مِنْ أَرْبَابِ الْأَهْوَاءِ، فَمَضَوْا يُعْلِنُونَ سِيَاسَةَ الْوِفَاقِ مَعَ الْإِنْكِلِيزِ، وَيَعُدُّونَهُمْ أَصْدِقَاءَ، وَقَدْ بَسَطَ الِاحْتِلَالُ لَهُمْ رُوَاقَ الثَّرَاءِ، وَمَلَّكَهُمْ أَعِنَّةَ الصُّحُفِ الْمَأْجُورَةِ، فَهَبُّوا يَمْدَحُونَ الْمُعْتَمِدَ الْجَدِيدَ، وَيَعِدُونَ الْأُمَّةَ بِعَدْلٍ شَامِلٍ وَرَخَاءٍ نَاهِضٍ عَلَىٰ يَدِ الْمُحْتَلِّ، وَهُوَ مَا تَنَبَّهَ لَهُ مُحَرَّمٌ، فَأَرْسَلَ قَصَائِدَهُ مُنَدِّدَةً بِصَنَائِعِ الِاسْتِعْمَارِ وَأَعْوَانِهِ الْمُنَافِقِينَ، عَالِمًا أَنَّ مَا يُظْهِرُونَهُ مِنَ الْغَيْرَةِ عَلَىٰ الْوَطَنِ رِيَاءٌ كَاذِبٌ؛ إِذْ لَوْ كَانُوا كَذَلِكَ لَانْضَمُّوا إِلَىٰ الْفَرِيقِ الْمُجَاهِدِ، وَوَقَفَ الْجَمِيعُ فِي صَفٍّ وَاحِدٍ أَمَامَ الدَّخِيلِ، وَإِذَا كَانَ لِبَعْضِهِمْ مُرُونَةٌ فِي اللَّجَاجِ، وَتَشَقُّقٌ فِي سَاحَاتِ الْكَلَامِ فَإِنَّ ذَلِكَ لَنْ يُخْفِيَ وُصُولِيَّتَهُ الْحَقِيرَةَ، وَقَدْ رَجَمَهُمْ أَحْمَدُ مُحَرَّم بِقَوْلِهِ[1]:

لَا بُورِكَتْ تِلْكَ الْأَكُفُّ فَإِنَّهَا ضَرَبَتْ عَلَىٰ الْأَلْبَابِ سَدًّا عَاتِيَا
حَجَبَتْ صَدِيعَ الرُّشْدِ عَنْهَا فَارْتَمَتْ تَجْتَابُ لَيْلَ الْغَيِّ أَسْفَعَ دَاجِيَا
أَلْفَيْتُ أَصْدَقَ مَنْ رَأَيْتُ مُدَاهِنًا وَرَأَيْتُ أَمْثَلَ مَنْ رَأَيْتُ مُدَاجِيَا
بَعَثُوا الصَّحَائِفَ يَرْتَمِينَ كَأَنَّمَا بَعَثُوا بِهِنَّ عَقَارِبًا وَأَفَاعِيَا
صُحُفٌ يَزُولُ الصِّدْقُ عَنْ صَفَحَاتِهَا وَيَظَلُّ جِدُّ الْقَوْلِ عَنْهَا نَابِيَا
مَاجَتْ فِجَاجُ الْمَشْرِقَيْنِ مَصَائِبًا وَطَغَتْ شِعَابُ الْوَادِيَيْنِ دَوَاهِيَا
ذَهَبَ الرِّجَالُ الْعَامِلُونَ فَمَا تَرَىٰ فِي الْقَوْمِ إِلَّا نَاعِبًا أَوْ نَاعِيَا

(١) الدّيوان ج ١، ص ١٣٥.

هَدَمُوا مِنَ الشَّرَفِ الْمُرَفَّعِ مَا بَنَوْا ... وَمَحَوْا مَعَالِمَهُ وَكُنَّ زَوَاهِيَا
صَدَقُوا الْعَدُوَّ وَلَاءَهُمْ وَتَمَزَّقُوا ... خُصَمَاءَ فِيمَا بَيْنَهُمْ وَأَعَادِيَا
فَهُمُ الْمَعَاوِلُ إِنْ رَمَاهُمْ هَادِمًا ... وَهُمُ الدَّعَائِمُ إِنْ عَلَاهُمْ بَانِيَا
مَا لِي أَهِيبُ بِمَنْ لَوَانِّي نَافِخٌ ... فِي الصُّورِ مَا نَبَّهْتُ مِنْهُمْ غَافِيَا ؟!
لَيْتَ الصَّوَاعِقَ وَالزَّلَازِلَ فِي يَدِي ... فَأَصُبُّهَا لِلْغَافِلِينَ قَوَافِيَا

وَالْحَقُّ أَنَّ هَذِهِ الصَّيْحَةَ الْحُرَّةَ ، لَيْسَتْ لِسَاعَتِهَا فَحَسْبُ ، بَلِ الْجَدِيرُ بِهَا أَنْ تُرَدَّدَ فِي كُلِّ عَصْرٍ ؛ لِأَنَّ مِنْ مَصَائِبِ الْقَدَرِ أَنَّ هَؤُلَاءِ الْإِمَّعِينَ لَمْ يَخْلُ مِنْهُمْ تَارِيخٌ ، وَلَهُمْ صَفَاقَةٌ صَفِيقَةٌ حِينَ يَتَحَدَّثُونَ عَنْ بُعْدِ نَظَرِهِمْ وَحُسْنِ فَرَاسَتِهِمْ ، وَلَيْسَ لِلْوَطَنِ فِيهِ غَيْرُ الْبَلْبَلَةِ وَالِاضْطِرَابِ ، وَقَدْ يُصَدِّقُ حَدِيثَهُمْ بَعْضُ الْأَغْرَارِ ، وَهُنَا تَكُونُ الْمَأْسَاةُ !.

وَأَحْمَدُ مُحَرَّم مُسْلِمٌ أَبِيٌّ مُتَمَسِّكٌ بِتَعَالِيمِ دِينِهِ ، وَمِنْ تَعَالِيمِ هَذَا الدِّينِ حُسْنُ الْجِوَارِ ، وَمُعَامَلَةُ أَصْحَابِ الدِّيَانَاتِ الْأُخْرَىٰ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ، لَهُمْ مَا لَنَا وَعَلَيْهِمْ مَا عَلَيْنَا ! وَقَدْ ظَنَّ بَعْضُ الْكَاتِبِينَ أَنَّ الشَّاعِرَ الْكَبِيرَ لِكَثْرَةِ مَا يَهْتَمُّ بِالْأَحْدَاثِ السِّيَاسِيَّةِ فِي شَتَّىٰ بِلَادِ الْإِسْلَامِ ، وَلِكَثْرَةِ مَا يَهْتِفُ بِتَعَالِيمِ الْإِسْلَامِ ، وَيَعْتَزُّ بِكِتَابِ اللَّهِ وَسُنَّةِ رَسُولِهِ ﷺ وَتَارِيخِ السَّلَفِ الصَّالِحِ فِي صَدْرِ الْإِسْلَامِ وَمَا تَلَاهُ مِنْ عُهُودِ الِازْدِهَارِ ، ظَنَّ هَؤُلَاءِ أَنَّ الرَّجُلَ مُتَعَصِّبٌ دَاعِيَةٌ لِلْخِلَافِ ، وَمَقَالَاتُهُ النَّثْرِيَّةُ ، وَقَصَائِدُهُ الشِّعْرِيَّةُ تُكَذِّبُ هَذِهِ الدَّعْوَىٰ تَكْذِيبًا وَاضِحًا ، وَالتَّعَصُّبُ الْحَمِيدُ لِلدِّينِ هُوَ أَنْ تَتَشَدَّدَ فِي إِقَامَةِ فَرَائِضِهِ وَتَعَالِيمِهِ ، أَمَّا أَنْ تُحَارِبَ غَيْرَ مُعْتَنِقِيهِ ، فَذَلِكَ لَيْسَ تَعَصُّبًا ، بَلْ جُحُودٌ

بِتَعَالِيمِ الدِّينِ نَفْسِهِ ؛ لِأَنَّ اللَّهَ لَا يَنْهَىٰ الْمُسْلِمِينَ أَنْ يَبَرُّوا مُخَالِفِيهِمْ بِالْمَعْرُوفِ مَتَىٰ أَبْدَوْا وَجهَ الْمَوَدَّةِ وَالسَّلَامِ ! وَقَدْ كَانَ اغْتِيَالُ رَئِيسِ الْوُزَرَاءِ الْمِصْرِيِّ بُطْرُسَ غَالِي بِيَدِ شَابٍّ مُسْلِمٍ مَظَنَّةً لِتَعَصُّبٍ دِينِيٍّ ، وَلَكِنَّ الَّذِي يَقْرَأُ تَارِيخَ مِصْرَ يَجِدُ أَنَّ حَوَادِثَ الِاغْتِيَالِ السِّيَاسِيِّ قَدِ امْتَدَّتْ إِلَىٰ الْمَسْئُولِينَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ أَنْفُسِهِمْ ، فَلَيْسَتِ الْمَسْأَلَةُ مَسْأَلَةً دِينِيَّةً ، قَدْرَ مَا هِيَ اخْتِلَافٌ عَلَىٰ وَضْعٍ سِيَاسِيٍّ ، أَمَّا حَادِثُ اغْتِيَالِ بُطْرُسَ غَالِي فَقَدْ تَحَدَّثَ عَنْهُ مُؤَرِّخُ مِصْرَ الْحَدِيثَةِ الْأُسْتَاذُ عَبْدُ الرَّحْمَنِ الرَّافِعِيُّ قَائِلًا(١):

« لَا نِزَاعَ فِي الصِّبْغَةِ السِّيَاسِيَّةِ لِلْحَادِثِ ؛ لِأَنَّ الْأَسْبَابَ الَّتِي دَعَتْ إِبْرَاهِيمَ الْوَرْدَانِيَّ لِلْقَتْلِ كَانَتْ سِيَاسِيَّةً ، وَلَوْ لَمْ يَكُنْ بُطْرُسُ غَالِي قِبْطِيًّا لَوَقَعَتِ الْجَرِيمَةُ مَهْمَا كَانَتْ دِيَانَةُ الْمُعْتَدَىٰ عَلَيْهِ ، وَلَكِنَّ وُقُوعَ الْجِنَايَةِ عَلَىٰ رَئِيسِ وَزَارَةٍ قِبْطِيٍّ - وَهَذِهِ حَقًّا مُصَادَفَةٌ سَيِّئَةٌ - جَعَلَ فَرِيقًا مِنَ الْأَقْبَاطِ يَنْسِبُونَهَا إِلَىٰ التَّعَصُّبِ الدِّينِيِّ ، وَرَدَّدَتِ الصُّحُفُ الْبِرِيطَانِيَّةُ كَمَا رَدَدَّ « الْكُولُونِيلُ رُوزْفِلْت » رَئِيسُ جُمْهُورِيَّةِ الْوِلَايَاتِ الْمُتَّحِدَةِ الْأَسْبَقُ هَذِهِ التُّهْمَةَ ، وَالْحَقُّ أَنَّهَا تُهْمَةٌ بَاطِلَةٌ لَا تَتَّفِقُ وَالْحَقِيقَةَ فِي شَيْءٍ ، فَقَدْ أَثْبَتَ التَّحْقِيقُ وَأَثْبَتَتِ الْمُحَاكَمَةُ بِأَنَّ الِاعْتِدَاءَ سِيَاسِيٌّ بَحْتٌ ، وَأَنَّ أَسْبَابَهُ وَدَوَافِعَهُ سِيَاسِيَّةٌ ، لَا دَخْلَ لِلدِّينِ فِيهَا بِأَيِّ وَجْهٍ مِنَ الْوُجُوهِ ، وَدَلَّ عَلَىٰ هَذِهِ الْحَقِيقَةِ تَكْرَارُ حَوَادِثِ الِاعْتِدَاءِ السِّيَاسِيِّ بَعْدَ هَذِهِ الْحَادِثَةِ ، دُونَ أَنْ يَكُونَ لِدِيَانَةِ الْمُعْتَدَىٰ عَلَيْهِمْ أَثَرٌ مَا فِي تَوْجِيهِهَا ، وَلَا الْبَاعِثِ عَلَيْهَا » .

وَفِي هَذِهِ الْمُلَابَسَاتِ الْحَرِجَةِ ، خَرَجَ الْأُسْتَاذُ أَحْمَدُ مُحَرَّمٍ بِقَصَائِدِهِ

(١) مُحَمَّد فريد للأستاذ عبد الرحمن الرافعي ص ١٥٥.

الْمُتَكَرِّرَةِ دَاعِيًا إِلَى الْوَحْدَةِ مُنَبِّهًا الْمِصْرِيِّينَ إِلَى أَصَابِعِ الْمُحْتَلِّ فِي إِثَارَةِ الْبَغْضَاءِ جَرْيًا عَلَى سِيَاسَتِهِ الَّتِي جَعَلَهَا فِي شِعَارِهِ الْمُشْتَهِرِ : « فَرِّقْ تَسُدْ » وَمِمَّا قَالَهُ فِي هَذِهِ الْمَأْسَاةِ(١):

يَا أُمَّةَ الْقِبْطِ، وَالْأَجْيَالُ شَاهِدَةٌ ... بِمَا لَنَا وَلَكُمْ مِنْ صَادِقِ الذِّمَمِ
إِنْ يَخْتَلِفْ مِنْكُمْ فِي الْأَمْرِ مُخْتَلِفٌ ... فَمَا لَنَا الْيَوْمَ غَيْرُ اللَّهِ مِنْ حَكَمِ؟!
لَا تَظْلِمُوا الدِّينَ، إِنَّ الدِّينَ يَأْمُرُنَا ... بِمَا عَلِمْتُمْ مِنَ الْأَخْلَاقِ وَالشِّيَمِ
مِنَّا وَمِنْكُمْ رِجَالٌ لَا حُلُومَ لَهُمْ ... وَلَا يَفِيئُونَ لِلْأَدْيَانِ وَالْحُرَمِ
أَنْتُمْ لَنَا إِخْوَةٌ لَا شَيْءَ يُبْعِدُكُمْ ... عَنَّا عَلَى عَنَتِ الْأَقْدَارِ وَالْقِسَمِ
يَا وَيْحَ مِصْرَ، لِخُلْفٍ لَا رُكُودَ لَهُ ... إِلَّا لِيَعْصِفَ بِالْأَقْطَارِ وَالْأُمَمِ
مِثْلُ الْبَرَاكِينِ فِي الْحَالَيْنِ مَا هَدَأَتْ ... إِلَّا لِتَقْذِفَ بِالنِّيرَانِ وَالْحِمَمِ
وَلَوْ تَأَلَّفَ أَهْلُوهَا لَمَا بَقِيَتْ ... مِنْ حَاجَةٍ فِي ضَمِيرِ النِّيلِ وَالْهَرَمِ
صُونُوا الْعُهُودَ، وَكُونُوا أُمَّةً عَرَفَتْ ... مَعْنَى الْجِهَادِ، فَلَمْ تَعْسَفْ وَلَمْ تَهِمِ
يَا قَوْمُ لَا تَغْفُلُوا، إِنَّ الْعَدُوَّ لَهُ ... عَيْنٌ تُرَاقِبُ مِنْكُمْ زَلَّةَ الْقَدَمِ

وَيَدُورُ هَذَا الْمَدَارُ فِي قَصِيدَةٍ طَوِيلَةٍ، تَسْتَشْهِدُ التَّارِيخَ فِي مَاضِيهِ الْبَعِيدِ، وَحَاضِرِهِ الْقَرِيبِ عَلَى قُوَّةِ التَّنَاصُرِ، وَمَتَانَةِ الْوَشَائِجِ، وَتُذَكِّرُ الْمِصْرِيِّينَ بِأَحْدَاثٍ رَائِعَةٍ جَاءَ بِهَا الْإِنْجِيلُ وَدَوَّنَهَا الْقُرْآنُ، ثُمَّ يَلْجَأُ إِلَى الْعِظَةِ الْبَالِغَةِ فَيَقُولُ(٢):

يَا أُمَّةَ الْإِنْجِيلِ آمَنَّا بِهِ ... مَا بِالنَّبِيِّ وَلَا يَسُوعَ جُحُودُ

(١) الدِّيوَان ج ١، ص ١٦٨.
(٢) الدِّيوَان ج ١، ص ١٧٤.

الدِّينُ فِي أَمْرٍ وَنَهْيٍ وَاحِدٌ   وَاللَّهُ جَلَّ جَلَالُهُ الْمَعْبُودُ
دَرَجَ الزَّمَانُ عَلَىٰ الْمَوَدَّةِ بَيْنَنَا   وَأَرَاهُ يَنْقُصُ، وَالْإِخَاءُ يَزِيدُ
ذُخْرُ الْبَنِينَ نَصُونُ مِنْ مَوْرُوثِهِ   مَا صَانَ آبَاءٌ لَنَا وَجُدُودُ
شُدُّوا الْقُلُوبَ عَلَىٰ الْإِخَاءِ فَإِنَّهَا   مِصْرٌ، وَإِنَّ بَلَاءَهَا لَشَدِيدُ
أَنَرَىٰ الْمَمَالِكَ كُلَّ يَوْمٍ حَوْلَنَا   تَسْعَىٰ، وَنَحْنُ عَلَىٰ الرَّجَاءِ قُعُودُ
الْأَمْرُ مُشْتَرَكٌ، وَمِصْرُ لَنَا مَعًا   فِي الْعَالَمِينَ، مَنَازِلٌ وَلُحُودُ
أَنَخُونُ أَنْفُسَنَا وَنُفْسِدُ أَمْرَنَا   أَنْ قَالَ وَاشٍ أَوْ أَرَادَ حَسُودُ؟!
زَعَمَ الْعِدَا أَنَّا نَعُقُّ بِلَادَنَا   زَعْمٌ لَعَمْرُ الْأُمَّتَيْنِ بَعِيدُ
أَيُهَانُ لِلْأَهْرَامِ مَجْدٌ بَاذِخٌ   وَيُضَامُ تَارِيخٌ لِمِصْرَ مَجِيدُ

هَذِهِ النَّصَائِحُ الصَّادِقَةُ كَانَ الْأَحْرَىٰ بِهَا أَنْ تَكُونَ مَحْفُوظَاتٍ شِعْرِيَّةً فِي دُرُوسِ الْأَدَبِ وَالنُّصُوصِ بِالْمَعَاهِدِ، وَلَكِنَّ الْقَائِمِينَ عَلَىٰ اخْتِيَارِ النُّصُوصِ يَلْجَئُونَ إِلَىٰ الْمُكَرَّرِ الْمُشْتَهَرِ مِمَّا كَثُرَ تَدَاوُلُهُ، وَكَادَ يَفْقِدُ جَدْوَاهُ، وَلَوْ عَرَفَ هَؤُلَاءِ أَنَّ مِنْ رِسَالَةِ الْأَدَبِ الْحَقِيقِيَّةِ الدَّعْوَةَ إِلَىٰ جَمْعِ الشَّمْلِ، وَرَأْبِ الصَّدْعِ لَبَحَثُوا عَنْ هَذِهِ اللَّآلِئِ، وَاسْمُ أَحْمَدَ مُحَرَّم غَائِبٌ عَنْ هَؤُلَاءِ الْقَوْمِ، فَلَا أَكَادُ أَرَىٰ قَصِيدَةً مِنْ قَصَائِدِهِ إِلَّا عَلَىٰ أَبْعَادٍ مُتَرَامِيَةٍ، هَذَا إِذَا وُجِدَتْ وَأُحْسِنَ تَقْدِيمُهَا، وَلَعَلَّ مَا أَكْتُبُهُ الْآنَ يَلْفِتُ الْعُيُونَ الْهَاجِعَةَ إِلَىٰ يَقَظَةٍ نَاشِطَةٍ تَنْتَخِبُ الْجَيِّدَ، وَتَنْبِذُ الرَّدِيءَ.

ثُمَّ قَامَتِ الْحَرْبُ الْعَالَمِيَّةُ الْأُولَىٰ فَبَادَرَتِ انْكِلْتِرَا بِإِعْلَانِ الْأَحْكَامِ الْعُرْفِيَّةِ وَفَرْضِ الرَّقَابَةِ عَلَىٰ الصُّحُفِ، ثُمَّ تَجَرَّأَتْ فَأَعْلَنَتِ الْحِمَايَةَ عَلَىٰ

مِصْرَ، وَقَالَتْ فِي إِعْلَانِهَا الْمَاكِرِ: «إِنَّهُ بِالنَّظَرِ إِلَىٰ حَالَةِ الْحَرْبِ الَّتِي سَبَّبَهَا عَمَلُ تُرْكِيَا قَدْ وُضِعَتْ بِلَادُ مِصْرَ تَحْتَ حِمَايَةِ جَلَالَةِ مَلِكِ الْإِنْكِلِيزِ، وَأَصْبَحَتْ مِنَ الْآنَ فَصَاعِدًا مِنَ الْبِلَادِ الْمَشْمُولَةِ بِالْحِمَايَةِ الْبِرِيطَانِيَّةِ، وَبِذَٰلِكَ قَدْ زَالَتْ سِيَادَةُ تُرْكِيَا عَلَىٰ مِصْرَ، وَسَتَتَّخِذُ حُكُومَةُ جَلَالَتِهِ كُلَّ التَّدَابِيرِ اللَّازِمَةِ لِلدِّفَاعِ عَنْ مِصْرَ، وَحِمَايَةِ أَهْلِهَا وَمَصَالِحِهَا».

يَقُولُ الْأُسْتَاذُ عَبْدُ الرَّحْمَنِ الرَّافِعِيُّ(١): «وَمِنَ السَّهْلِ أَنْ تُدْرِكَ مَا فِي هَذَا الْإِعْلَانِ مِنْ مَعْنَىٰ الْبَغْيِ وَالْعُدْوَانِ، إِذْ مَا عَلَاقَةُ مَوْقِفِ تُرْكِيَا فِي الْحَرْبِ بِإِعْلَانِ الْحِمَايَةِ عَلَىٰ مِصْرَ، لَقَدْ كَانَتِ النَّتِيجَةُ الطَّبِيعِيَّةُ لِهَذَا الْمَوْقِفِ، لَوْ حَسُنَتْ نِيَّةُ انْكِلْتِرَا، أَنْ تُعْلِنَ الِاعْتِرَافَ بِاسْتِقْلَالِ مِصْرَ التَّامِّ لِأَنَّهُ بِزَوَالِ السِّيَادَةِ التُّرْكِيَّةِ عَنْهَا يُصْبِحُ اسْتِقْلَالُهَا تَامًّا، أَمَّا تَرْتِيبُ إِعْلَانِ الْحِمَايَةِ الْبِرِيطَانِيَّةِ عَلَىٰ زَوَالِ السِّيَادَةِ التُّرْكِيَّةِ فَأَمْرٌ لَا يُفَسَّرُ إِلَّا بِالْغَرَضِ الَّتِي كَانَتِ انْكِلْتِرَا تَسْعَىٰ لَهُ، وَهُوَ إِهْدَارُ اسْتِقْلَالِ مِصْرَ الْخَارِجِيِّ التَّامِّ، وَكَانَتْ هَذِهِ نِيَّتَهَا مُنْذُ سَنَةَ ١٨٨٢م أَي مُنْذُ احْتِلَالِهَا غَيْرِ الْمَشْرُوعِ».

ثُمَّ تَلَا ذَٰلِكَ خَلْعُ الْخِدِيوِي عَبَّاسٍ وَتَوْلِيَةِ السُّلْطَانِ حُسَيْنٍ كَامِلٍ.

هَذَا الْمَوْقِفُ الْخَطِيرُ، قَدْ قَلَبَ الْأَوْضَاعَ فَجْأَةً، وَلَنْ يَسْتَطِيعَ الْكُتَّابُ وَالشُّعَرَاءُ مُقَاوَمَتَهُ فِي الصُّحُفِ؛ لِأَنَّ الْأَحْكَامَ الْعُرْفِيَّةَ قَدْ فَرَضَتِ الرِّقَابَةَ عَلَىٰ الْجَرَائِدِ، فَلَا يُنْشَرُ حَرْفٌ وَاحِدٌ دُونَ رَقِيبٍ مِنْ صَنَائِعِ الِاحْتِلَالِ يَقْرَؤُهُ لِيُجِيزَ نَشْرَهُ! وَالْأَدْهَىٰ وَالْأَنْكَىٰ أَنَّ فَرِيقًا مِنَ الْوُزَرَاءِ السَّابِقِينَ قَدْ دَعَا إِلَىٰ الِاطْمِئْنَانِ، وَمُسَالَمَةِ الْإِنْكِلِيزِ، وَانْطَلَقَ يَسُبُّ الْأَتْرَاكَ، وَكَأَنَّهُمْ هُمُ الَّذِينَ

---

(١) مُحَمَّد فريد للرافعي ص ٣٤٧.

فَرَضُوا الْحِمَايَةَ عَلَى الْبِلَادِ !.

وَخَافَ شَوْقِيٌّ عَلَى نَفْسِهِ - وَحُقَّ لَهُ أَنْ يَخَافَ - ؛ لِأَنَّهُ كَانَ صَدِيقَ الْخِدِيوِي الْمَعْزُولِ، وَقَدْ تَرَبَّصَ بِهِ الْإِنْكِلِيزُ، فَأَنْشَأَ كَلَامًا يَتَضَمَّنُ مَدِيحَهُمْ، وَقَدْ أَلْمَعْنَا إِلَيْهِ مِنْ قَبْلُ، وَسَارَعَ حَافِظٌ فَهَنَّأَ السُّلْطَانَ الْجَدِيدَ بِالسَّلْطَنَةِ وَانْتَقَلَ إِلَى مَدْحِ الْإِنْكِلِيزِ ؛ فَقَالَ عَنْهُمْ :

وَوَالِ الْقَوْمَ، إِنَّهُمُ كِرَامٌ   مَيَامِينُ النَّقِيبَةِ حَيْثُ حَلُّوا..

أَمَّا أَعْضَاءُ الْحِزْبِ الْوَطَنِيِّ فِي خَارِجِ الْبِلَادِ فَقَدْ عَقَدُوا الْمُؤْتَمَرَاتِ فِي أُورُبَّا، وَنَدَّدُوا بِالْحِمَايَةِ تَنْدِيدًا جَرِيئًا، وَخَطَبَ مُحَمَّدُ فَرِيدٍ وَعَبْدُ الْعَزِيزِ جَاوِيشٌ فِي «اسْتُكْهُولْم» بِمَا فَضَحَ نِيَّاتِ الِاسْتِعْمَارِ، وَأَعْلَنَا الرَّفْضَ الصَّرِيحَ لِلْحِمَايَةِ، وَكَانَتِ السُّلْطَةُ قَدْ نَفَتْ إِلَى أُورُبَّا صَفْوَةً مِنْ رِجَالِ الْحِزْبِ الْوَطَنِيِّ مَخَافَةَ تَأْثِيرِهِمْ فِي الشَّعْبِ، فَكَانُوا أَعْوَانَ الزَّعِيمِ مُحَمَّدِ فَرِيدٍ فِي نِضَالِهِ الْمُكَافِحِ ! وَمُحَرَّمٌ ضَائِقُ الصَّدْرِ بِمَا يُشَاهِدُ مِنْ تَكْمِيمِ الْأَفْوَاهِ، وَبِمَا يَلْمَسُ مِنْ مُهَادَنَةِ الْمَخْدُوعِينَ، وَمُحَاوَلَتِهِمْ إِسْكَاتَ الثَّوْرَةِ الْمُشْتَعِلَةِ فِي النُّفُوسِ، وَقَدْ خَلَا إِلَى نَفْسِهِ، يَنْظِمُ الْقَصَائِدَ الْمُلْتَهِبَةَ تَبْكِيتًا لِهَؤُلَاءِ الَّذِينَ يَسِيرُونَ فِي رَكْبِ الِاسْتِعْمَارِ، يَنْظِمُ لِيُسْمِعَ مَنْ حَوْلَهُ، إِذْ لَا سَبِيلَ إِلَى النَّشْرِ بَعْدَ إِحْكَامِ الرِّقَابَةِ الصَّحَفِيَّةِ، حَتَّى إِذَا انْتَهَتِ الْحَرْبُ وَأَصْدَرَ دِيوَانَهُ الثَّانِيَ سَنَةَ ١٩٢٠م قَرَأَ النَّاسُ مَا قَالَ، وَكَانَتْ حَمْلَتُهُ عَلَى صَنَائِعِ الِاحْتِلَالِ مِنَ الْمِصْرِيِّينَ أَشَدَّ حَرِيقًا مِنْ حَمْلَتِهِ عَلَى الْإِنْكِلِيزِ أَنْفُسِهِمْ ؛ لِأَنَّ الْإِنْكِلِيزَ أَعْدَاءٌ يَصْنَعُونَ مَا يَصْنَعُ الْعَدُوُّ، فَوَجْهُهُمُ الِاسْتِعْمَارِيُّ كَالِحٌ بَغِيضٌ يَعْرِفُهُ الْمِصْرِيُّونَ جَمِيعًا ! أَمَّا صَنَائِعُهُمْ فَهُمْ يَتَظَاهَرُونَ بِالْوَطَنِيَّةِ وَيَدْعُونَ

لِلتَّخَاذُلِ فَيَفِتُّونَ فِي أَعْضَاءِ النَّاقِمِينَ، وَيُجْهِضُونَ مَا تَتَمَخَّضُ بِهِ نُفُوسُهُمْ مِنْ ثَوْرَةٍ غَاضِبَةٍ، وَهَذَا مَا عَبَّرَ عَنْهُ أَحْمَدُ مُحَرَّمٍ حِينَ قَالَ[1]:

هِدَايَتَكَ اللَّهُمَّ إِنِّي أَرَىٰ الْأُلَىٰ هُمُ الْقَادَةُ الْهَادُونَ شَتَّىٰ الْمَسَالِكِ
أَضِنُّ بِنَفْسِي أَنْ تَسِيرَ وَرَاءَهُمْ وَأَخْشَىٰ عَلَيْهَا عَادِيَاتِ الْمَهَالِكِ
يَمِلْنَ بِأَهْوَاءِ الْغَوِيِّ عَنِ الْهُدَىٰ وَيَعْلُقْنَ أَسْبَابَ التَّقِيِّ الْمُتَارِكِ
تَقَاذَفَ دُفَّاعُ الْخُطُوبِ بِأَنْفُسٍ تَطَايَحْنَ فِي تَيَّارِهِ الْمُتَدَارِكِ
أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ مِنْ كُلِّ ظَالِمٍ وَأَشْكُو إِلَيْهِ كُلَّ خَصْمٍ مُمَاحِكِ

وَقَدْ تَكُونُ هَذِهِ الْأَبْيَاتُ جَانِحَةً إِلَىٰ الْعُمُومِ الَّذِي لَا يُحَدِّدُ الْأَسْمَاءَ، وَلَا يَذْكُرُ الْأَوْصَافَ لِيُعْرَفَ الْمَوْصُوفُ، وَهُوَ نَوْعٌ مِنَ الْحَذَرِ رَآهُ الشَّاعِرُ سَبِيلًا إِلَىٰ بَعْضِ الذُّيُوعِ حِينَ تَتَرَدَّدُ الْأَبْيَاتُ عَلَىٰ الْأَفْوَاهِ مُنْتَقِلَةً مِنْ بَلَدٍ إِلَىٰ بَلَدٍ، كَمَا كَانَ يَنْتَقِلُ الشِّعْرُ الْجَاهِلِيُّ فِي عَهْدِ الْأُمِّيَّةِ عَلَىٰ أَلْسِنَةِ الرُّوَاةِ، أَمَّا الْأَبْيَاتُ الصَّرِيحَةُ الَّتِي لَمْ تَسْتَطِعْ حَمَاسَةُ الشَّاعِرِ أَنْ تُخَفِّفَ مِنْ حِدَّتِهَا الْقَاسِيَةِ فَتَتَّضِحُ فِي مِثْلِ قَوْلِ مُحَرَّمٍ[2]:

دُعَاةَ الْحِمَايَةِ لَا تَنْعَقُوا فَمَا أَهْلَكَ النَّاسَ غَيْرُ الدُّعَاةِ
أَيَمْلِكُ بَاطِلُكُمْ أَنْ يَسُودَ وَقَدْ وَضَحَ الْحَقُّ ذُو الْبَيِّنَاتِ؟
وَصَفْتُمْ لَنَا حَسَنَاتِ الْكِتَا(*) بِ، فَمَا إِنْ رَأَيْنَا سِوَىٰ السَّيِّئَاتِ
يُعَلِّمُنَا كَيْفَ تُرْمَىٰ الشُّعُوبُ وَكَيْفَ نُقَبِّلُ أَيْدِي الرُّمَاةِ
لَعَمْرُ الْغُوَاةِ وَمَا أَحْدَثُوا لَقَدْ سَئِمَتْ مِصْرُ دَعْوَىٰ الْغُوَاةِ

---

(١) الدّيوان ج ١، ص ٢٧١.
(٢) الدّيوان ج ١، ص ٢٣٧.

إِذَا نَحْنُ شِئْنَا نَشَرْنَا لَهُمْ صَحَائِفَ تَطْفَحُ بِالْمُخْزِيَاتِ
عَلَىٰ اللَّهِ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ جَزَاءُ الْخَبَائِثِ وَالطَّيِّبَاتِ
أَلَا إِنَّ مِصْرَ لَحَقُّ الْبَنِينَ وَعِرْضُ الْأُبُوَّةِ وَالْأُمَّهَاتِ
وَمَحْكَمَةُ الدَّهْرِ مِنْ بَعْدِنَا تُقَامُ لِأَجْدَاثِنَا وَالرُّفَاتِ
وَإِنَّ الْأُمُورَ بِأَشْبَاهِهَا وَبَعْضُ الَّذِينَ كَبَعْضِ اللَّوَاتِي
وَكَائِنْ تَرَىٰ مِنْ فَتًى لَا يَقُومُ غَدَاةَ الْحِفَاظِ مَقَامَ الْفَتَاةِ

وَمِنْ هَذَا الْوَادِي قَوْلُهُ(١):

قُلْ لِلْأُلَىٰ رَكِبُوا الرِّيَاحَ تَمَهَّلُوا لَا يَقْذِفَنَّكُمُ الْمَطَارُ الْأَبْعَدُ
يَا قَوْمُ، مَاذَا تُورِدُونَ بِلَادَكُمْ؟ بِئْسَ الْجَزَاءُ لَهَا، وَبِئْسَ الْمَوْرِدُ
هَلْ لِامْرِئٍ فِي الْأَرْضِ بَعْدَ بِلَادِهِ مَجْدٌ يَزِينُ بِهِ الْحَيَاةَ، وَسُؤْدُدُ
أَعَلَىٰ الْحِمَايَةِ يَحْرِصُونَ وَغَيْرُهَا أَسْمَىٰ لِأَحْرَارِ الْبِلَادِ وَأَمْجَدُ
خَدَعُوا الصِّغَارَ بِهَا وَقَالُوا: نِعْمَةٌ شَرُّ الْبَلِيَّةِ نِعْمَةٌ لَا تُحْمَدُ!
يَتَعَجَّلُونَ الْأَمْرَ شَرًّا كُلَّهُ وَالشَّعْبُ يَصْخَبُ، وَالْكِنَانَةُ تَحْرِدُ
يَا مِصْرُ، لَا تَلِدِي رِجَالًا بَعْدَهُمْ وَأَرَىٰ الرِّجَالَ لِغَيْرِ ذَلِكَ تُولَدُ

وَتَطَوَّرَتِ الْأُمُورُ بِانْتِهَاءِ الْحَرْبِ الْعَالَمِيَّةِ، حَيْثُ أُعْلِنَتْ مَبَادِئُ الرَّئِيسِ «وِلْسُنْ» وَقَامَ وَفْدٌ يُطَالِبُ بِأَحَقِّيَّةِ مِصْرَ بِالِاسْتِقْلَالِ وَإِنْهَاءِ الِاحْتِلَالِ، وَقَدْ رَفَضَتْ حُكُومَةُ انْكِلْتِرَا هَذَا الْمَطْلَبَ الْعَادِلَ، مُعْتَقِدَةً أَنَّهَا تَسْتَطِيعُ أَنْ تَحْكُمَ

(١) الدّيوان ج ١٥، ص ٢٣١.

الْبِلَادَ فِي ظِلِّ الْحِمَايَةِ ، وَلَكِنَّ الثَّوْرَةَ الْمِصْرِيَّةَ قَدِ انْدَلَعَتْ فِي كُلِّ مَكَانٍ ، وَشَاهَدَ الْإِنْكِلِيزُ مِنْ تَصْمِيمِ الْأُمَّةِ عَلَىٰ مَطَالِبِهَا رَغْمَ الِاعْتِدَاءِ الشَّرِسِ عَلَى الْمُظَاهَرَاتِ ، وَ إِقَامَةِ الْمُحَاكَمَاتِ الَّتِي وَصَلَتْ نَتَائِجُهَا إِلَىٰ الْإِعْدَامِ فِي أَحْيَانٍ كَثِيرَةٍ ، شَاهَدَ الْإِنْكِلِيزُ مَا أَجْبَرَهُمْ عَلَىٰ الْإِعْلَانِ الصَّرِيحِ بِانْتِهَاءِ الْحِمَايَةِ ، وَقِيَامِ حُكْمٍ مِصْرِيٍّ فِي ظِلِّ دُسْتُورٍ يَكْتُبُهُ رِجَالُ الْقَانُونِ فِي مِصْرَ ، أَمَّا الشَّاعِرُ مُحَرَّمٌ فَقَدْ أَنْشَأَ كَثِيرًا مِنَ الْقَصِيدِ فِي تَأْيِيدِ الْمُظَاهَرَاتِ الْوَطَنِيَّةِ ، بَاكِيًا لِمَا أَصَابَ الْمُتَظَاهِرِينَ مِنْ بَطْشٍ عَلَىٰ يَدِ الْقُوَّةِ الْغَاشِمَةِ أَثْنَاءَ التَّظَاهُرِ ، ثُمَّ الْمُحَاكَمَةِ وَالزَّجِّ فِي السُّجُونِ لِهَؤُلَاءِ الْأَبْرِيَاءِ ، وَمِمَّا قَالَهُ حِينَئِذٍ[1]:

يَا سُوءَ مَا حَمَلَ الْبَرِيدُ وَيَا لَهَا ... مِنْ نَكْبَةٍ تَدَعُ النُّفُوسَ شَعَاعَا
يَا رَبُّ مَا ذَنْبُ الَّذِينَ تَتَابَعُوا ... يَسْتَرْسِلُونَ إِلَىٰ الْمَنُونِ سِرَاعَا ؟!
جَرْحَىٰ وَمَا حَمَلُوا السُّيُوفَ لِغَارَةٍ ... صَرْعَىٰ ، وَمَا سَأَلُوا الْعَدُوَّ صِرَاعَا
قَالُوا : الْحَيَاةُ ، فَعُوجِلُوا أَنْ يَقْرَعُوا ... عِنْدَ النِّدَاءِ « بِتَائِهَا »[2] الْأَسْمَاعَا
عِزْرِيلُ نَبَّأَ مَا أَصَابَ جُمُوعَهُمْ ... فَارْتَابَ ، ثُمَّ رَآهُمُ فَارْتَاعَا
مَرْأًى يَشُقُّ عَلَىٰ الْعُيُونِ وَمَشْهَدٌ ... يُدْمِي الْقُلُوبَ ، وَيَقْصِمُ الْأَضْلَاعَا
سَفَكُوا الدِّمَاءَ بَرِيئَةً ، وَتَنَمَّرُوا ... يَرْمُونَ شَعْبًا لَا يُطِيقُ دِفَاعَا
أَخَذُوهُ أَعْزَلَ آمِنًا مُتَجَرِّدًا ... يُلْقِي السِّلَاحَ وَيَنْزَعُ الْأَدْرَاعَا
لَمْ يَذْكُرُوا إِذْ نَحْنُ نَبْذُلُ قُوتَنَا ... وَنَظَلُّ صَرْعَىٰ فِي الْبُيُوتِ جِيَاعَا
بِئْسَ الْجَزَاءُ ، وَرُبَّمَا كَانَ الْأَذَىٰ ... عَدْلًا لِمَنْ يَأْلُو الْعَدُوَّ قِرَاعَا

---

(1) الدِّيوَان ص ٣٦٧.

(2) يريد قبل اللفظ بحرف تاء من الحياة .

وَلَا نُرِيدُ أَنْ نُفَصِّلَ أَدْوَارَ الثَّوْرَةِ ، فَذَلِكَ مِمَّا يَخْرُجُ بِنَا عَنْ مَوْضُوعِ الْكِتَابِ ، وَلَكِنَّنَا نُعْلِنُ أَنَّ مُحَرَّمًا الْتَزَمَ بِمَبْدَإِ الْحِزْبِ الْوَطَنِيِّ ، وَهُوَ أَنَّهُ لَا مُفَاوَضَةَ قَبْلَ الْجَلَاءِ وَوَحْدَةِ وَادِي النِّيلِ ، وَهُوَ مَبْدَأٌ عَزِيزُ الْمَنَالِ حِينَئِذٍ ، وَزَعِيمُ الْأُمَّةِ سَعْدُ زَغْلُولُ مِنْ أَكْبَرِ أَمَانِيهِ أَنْ يُتَاحَ الْجَلَاءُ ، وَتَتَحَقَّقَ وَحْدَةُ وَادِي النِّيلِ ، وَلَكِنَّ الْأُمَّةَ تُوَاجِهُ عَدُوًّا شَرِسًا ، وَلَا مَانِعَ عِنْدَ سَعْدٍ أَنْ تَحْصُلَ عَلَى أَكْبَرِ مَا تَسْتَطِيعُ تَحْقِيقَهُ ، وَقَدْ تَعَرَّضَ لِلنَّفْيِ وَالِاعْتِقَالِ ، وَلَاقَى مِنَ الْمَكَايِدِ دَاخِلِيًّا وَخَارِجِيًّا مَا جَعَلَهُ يَنْظُرُ إِلَى الْوَاقِعِ نَظْرَةَ مَنْ يُرِيدُ أَنْ يُحَقِّقَ مَا يَسْتَطِيعُ مِنْ نَصْرٍ لِأُمَّتِهِ ، مُعْتَرِفًا لَهَا بِالْمَثَلِ الْأَعْلَى الَّذِي لَا بُدَّ أَنْ تَسْعَى إِلَى تَحْقِيقِهِ ، وَأَحْمَدُ مُحَرَّم قَدْ هَاجَمَ سَعْدًا فِي اتِّجَاهِهِ ، وَمَضَى يُشِيدُ بِفِكْرَةِ الْحِزْبِ الْوَطَنِيِّ ، وَيُشَجِّعُ أَبْطَالَهُ ، وَيَبْكِي رَاحِلِيهِ وَكَانَ يَنْتَهِزُ كُلَّ فُرْصَةٍ لِإِعْلَانِ رَأْيِهِ ، وَكَانَ شُعُورُهُ حِينَئِذٍ شُعُورَ مَنْ يَرَى أَنَّ كُلَّ كَسْبٍ أُتِيحَ يَظَلُّ لَا قِيمَةَ لَهُ حَتَّى يَرْحَلَ الْإِنْكِلِيزُ ؟ وَلَكِنْ كَيْفَ ؟ لَقَدْ عَبَّرَ عَنْ شُعُورِهِ هَذَا فِي قَصِيدَةٍ قَالَ فِيهَا[1]:

مَا لِي دَعَوْتُ فَلَمْ أَجِدْ ... فِي الشَّعْبِ أَجْمَعَ مَنْ يُجِيبْ ؟!

ذَنْبِي إِلَيْهِ أَمَانَةٌ ... هِيَ عِنْدَهُ شَرُّ الذُّنُوبْ

الْحَقُّ أَنَّ سَبِيلَنَا ... خَطَرُ الْمَطَامِعِ وَالدُّرُوبْ

لَكِنَّهُ دِينُ الرَّئِيـ[؟] ... ـسِ وَحُكْمُ كُلِّ فَتًى مُصِيبْ

بَطَلُ الْمُفَاوَضَةِ الْمَخُوفُ ... وَلَيْثُهَا الْخَطَرُ النَّيُوبْ[2]

مَا لِلْخَيَالِيِّينَ فِي ... تِلْكَ الْمَنَاقِبِ مِنْ نَصِيبْ

(١) الدّيوان ج ٤، ص ٦١٢.
(٢) النّيوب : جمع ناب .

مَـنْ عَـلَّـمَ الـشُّـعَـرَاءَ تَـدْ(٢) بِـيـرَ الْـمَـمَـالِـكِ وَالـشُّـعُـوبْ
زَعَـمُـوا الْـجَـلَاءَ مُـحَـقَّـقًـا وَالـلَّـهُ عَـلَّامُ الْـغُـيُـوبْ
يَا سُوءَ مُنْقَلَبِ الرَّئِيـــــ(٢) ـــسِ وَخِزْيِهِ الْفَرِحِ الطَّرُوبْ
الْـيَـوْمَ تَـهْـنِـئَـةُ الْـعَـرُو(٢) سِ وَفِي غَـدٍ شَـقُّ الْـجُـيُـوبْ

هَكَذَا وَقَفَ مُحَرَّمٌ صَامِدًا فِي وَجْهِ كُلِّ اتِّفَاقٍ لَا يُحَقِّقُ الْجَلَاءَ الْعَاجِلَ، وَهَكَذَا وَالَىٰ قَصَائِدَهُ فِي نَقْدِ سِيَاسَةِ سَعْدِ زَغْلُولٍ، وَلَا نُجْبِرُهُ عَلَىٰ اعْتِقَادِ مَذْهَبٍ لَا يَرَاهُ، فَأَعْضَاءُ الْحِزْبِ الْوَطَنِيِّ وَهُمْ قِلَّةٌ بِالنِّسْبَةِ لِحِزْبِ الْوَفْدِ عَلَىٰ رَأْيِ مُحَرَّمٍ، وَكَانَ عَلَىٰ الشَّاعِرِ أَنْ يُعَادِيَ كُلَّ مَنْ يَتَحَدَّىٰ رَغَبَاتِ الْأُمَّةِ وَيَقِفَ فِي طَرِيقِهَا، وَلَكِنَّهُ حِينَ يَتَنَاوَلُ سَعْدًا بِالنَّقْدِ اللَّاذِعِ فِي قَصَائِدَ مُتَّصِلَةٍ، يَهَشُّ لِإِسْمَاعِيلَ صِدْقِي الَّذِي حَارَبَ مَشَاعِرَ الْأُمَّةِ، وَأَسْقَطَ دُسْتُورَهَا، وَزَيَّفَ انْتِخَابَاتِهَا، وَمَلَأَ السُّجُونَ بِمُعَارِضِيهِ مِنَ الْأَحْرَارِ، فَأَضْفَىٰ عَلَيْهِ مَدَائِحَهُ، وَقَالَ فِي شَأْنِهِ(١):

كَانَتْ نَوَازِعُ نَفْسٍ رَدَّهَا قَدَرٌ يَرُدُّ كُلَّ غَوِيٍّ لِلْأَذَىٰ نَزَعَا
اللَّهُ أَدْرَكَ شَعْبَ النِّيلِ فَانْصَدَعَتْ عَنْهُ الْخُطُوبُ، وَلَوْلَا اللَّهُ لَانْصَدَعَا
أَجْرَىٰ عَلَىٰ يَدِ إِسْمَاعِيلَ رَحْمَتَهُ فَكَانَ مِنْ مُسْتَحَبِّ الْأَمْرِ مَا وَقَعَا
رَاحَ السَّلَامُ مَصُونًا فِي كَلَاءَتِهِ وَبَاتَ كُلُّ فَتًى بِالْأَمْنِ مُدَّرِعَا
لَا الْأَرْضُ زَالَتْ بِأَهْلِيهَا كَمَا زَعَمُوا وَلَا السَّمَاءُ هَوَتْ أَجْرَامُهَا قِطَعَا
طَافُوا الْبِلَادَ، وَقَالُوا كُلَّ مَا ابْتَدَعُوا فَمَا رَأَىٰ الشَّعْبُ مِنْ شَيْءٍ وَلَا سَمِعَا

(١) الديوان ج ١، ص ٧١٦.

وَكَانَ عَلَى مُحَرَّم أَنْ يَعْرِفَ أَنَّ الْحِزْبَ الْوَطَنِيَّ الَّذِي يَنْتَمِي إِلَيْهِ بِمَبَادِئِهِ الْمِثَالِيَّةِ، قَدْ خَاصَمَ إِسْمَاعِيلَ صِدْقِي لِاحْتِقَارِهِ رَغَبَاتِ الشَّعْبِ، وَوُقُوفِهِ فِي صُفُوفِ مُعَارِضِيهِ، وَلَكِنَّ الرُّوحَ الَّتِي يَحْمِلُهَا الشَّاعِرُ لِلْوَفْدِ دَفَعَتْهُ لِإِطْرَاءِ خَصْمِهِ الْأَلَدِّ! وَهِيَ مُلَاحَظَةٌ لَا بُدَّ مِنْ تَسْجِيلِهَا!.

وَلِلشَّاعِرِ الْكَبِيرِ قَصِيدَةٌ فِي الذِّكْرَى الثَّامِنَةَ عَشْرَةَ لِرَحِيلِ مُصْطَفَى كَامِلٍ أَوْدَعَهَا كُلَّ عَوَاطِفِهِ السِّيَاسِيَّةِ، إِذْ أَخَذَ يُوَازِنُ بَيْنَ تَشَدُّدِ مُصْطَفَى كَامِلٍ، وَمُرُونَةِ سَعْدِ زَغْلُولٍ الَّتِي يَعُدُّهَا انْتِكَاسًا فَيَقُولُ(1):

وَمَا بَعْضُ الْحُمَاةِ وَإِنْ تَغَالَى ... بِثَبْتٍ فِي الْخُطُوبِ وَلَا صَلِيبِ
إِذَا ضَاقَ الْخِنَاقُ بِهِ تَنَحَّى ... يَلُوذُ بِكُلِّ مُرْتَكَضٍ رَحِيبِ
يَمِيلُ مَعَ الشَّمَالِ فَإِنْ تَنَاهَتْ ... بِهَا الْغَايَاتُ مَالَ مَعَ الْجَنُوبِ

وَيَعْجَبُ مُحَرَّمٌ لِالْتِفَافِ الشَّعْبِ حَوْلَ سَعْدٍ، فَيَقُولُ مُخَاطِبًا مُصْطَفَى كَامِلَ:

إِمَامَ الْمُهْتَدِينَ أَفِضْ عَلَيْنَا ... مِنَ النُّورِ الْمُحَجَّبِ فِي الْغُيُوبِ
أَلَسْتَ تَرَى السَّوَادَ طَغَى عَلَيْهِ ... ظَلَامُ الْموقِفِ الْخَطِرِ الرَّهِيبِ
تَرَكْتَ الْأَمْرَ مُجْتَمِعًا فَأَمْسَى ... كَثِيرَ السُّبْلِ مُخْتَلِفَ الدُّرُوبِ
أَلَا أَرِنَا مَنَاسِكَنَا، فَإِنَّا ... مَعَ الْأَحْبَارِ فِي أَمْرٍ عَجِيبِ
رُعَاةُ الشَّعْبِ طَاعَ لَهُمْ فَأَمْسَى ... بِوَادٍ مِنْ سِيَاسَتِهِمْ جَدِيبِ
وَلَمْ أَرَ كَالشُّعُوبِ تُسَاسُ فَوْضَى ... وَتُؤْخَذُ بِالْمَخَالِبِ وَالنُّيُوبِ!

(1) الدِّيوَان ج ١، ص ٦٥٢.

وَلَعَلَّ مَا يَرْفَعُ مَكَانَةَ مُحَرَّمٍ ، أَنَّهُ يَقُولُ عَنِ اعْتِقَادٍ ! وَلِلتَّارِيخِ أَنْ يَحْكُمَ عَلَيْهِ أَخْطَأَ أَمْ أَصَابَ ؟.

وَتَوَالَتْ أَحْدَاثُ السِّيَاسَةِ ، وَانْضَمَّ مُحَرَّمٌ إِلَى الْحِزْبِ الْوَطَنِيِّ كَعَهْدِهِ مُنْذُ أَنْشَأَهُ مُصْطَفَى كَامِلُ ، وَأَخَذَ عَلَى نَفْسِهِ أَنْ يَنْظِمَ الْقَصَائِدَ فِي احْتِفَالَاتِهِ ، وَذِكْرَى مَنْ سَمَّاهُمُ الشُّهَدَاءَ مِنْ أَبْطَالِهِ ، وَلَا نِزَاعَ فِي أَنَّ الْحِزْبَ الْوَطَنِيَّ قَدْ أَوْجَدَ أَبْطَالًا مِنَ الْفِدَائِيِّينَ ، وَالَاهُمْ مُحَرَّمٌ بِتَقْدِيرِهِ الْمَادِحِ أَحْيَاءً ، وَبِرِثَائِهِ الْبَاكِي أَمْوَاتًا ، وَمِنْهُمْ مُصْطَفَى كَامِلُ وَمُحَمَّدُ فَرِيدٍ وَعَبْدُ الْعَزِيزِ جَاوِيش ، وَأَمِينُ الرَّافِعِيِّ ، وَقَدْ لَاحَظْتُ أَنَّهُ فِي قَصَائِدِ هَؤُلَاءِ يُعْنَى كُلَّ الْعِنَايَةِ بِاتِّجَاهِهِمُ الْإِسْلَامِيِّ مَعَ الْإِشَادَةِ بِمَوَاقِفِهِمُ الْوَطَنِيَّةِ ، لِأَنَّهُ يَعْتَقِدُ أَنَّ الْإِسْلَامَ هُوَ الدَّافِعُ الْأَوَّلُ لِلْحُرِّيَّةِ ، وَالْخُلُوصِ مِنَ الِاسْتِعْبَادِ ، كَأَنْ يَقُولَ فِي رِثَاءِ أَمِينِ الرَّافِعِيِّ[1]:

الشَّرْقُ يَرْجُفُ وَالْإِسْلَامُ فِي فَزَعٍ ... عَانِي الْمَمَالِكِ يَخْشَى كُلَّ دَسَّاسِ
عَالِي الضَّجِيجِ لِيَوْمٍ مِنْ مَآتِمِهِ ... كَيَوْمِ حَمْزَةَ أَوْ يَوْمِ ابْنِ عَبَّاسِ
رَاحُوا بِهِ صَبِيًّا مِنْ حِكْمَةٍ وَهُدًى ... فِي صَيِّبٍ مِنْ دُمُوعِ الرُّسْلِ رَجَّاسِ[2]
نُورٌ مِنَ الْمَلَأِ الْأَعْلَى مَطَالِعُهُ ... يَنْسَابُ سَاطِعُهُ فِي كُلِّ نِبْرَاسِ

وَقَدْ أَفْرَطَ كَثِيرًا كَثِيرًا فِي مَدْحِ الزَّعِيمِ مُحَمَّد مَحْمُود ، وَهُوَ ذُو نُبْلٍ بَارِزٍ ، وَشَمَمٍ مُتَرَفِّعٍ ، وَلَكِنَّهُ لَمْ يَكُنْ لِسَانَ الْأُمَّةِ الْمُعَبِّرَ ، وَزَعِيمَهَا الَّذِي تُؤْثِرُهُ بِتَأْيِيدِهَا ، وَقَدْ رَأَى فِيهِ مُحَرَّمٌ مَا جَعَلَهُ يَهْتِفُ بِمَدَائِحِهِ مُكَرَّرًا ، ثُمَّ يَلْتَاعُ لِمَمَاتِهِ فَيَبْكِيهِ بِقَصِيدَةٍ حَارَّةٍ مَطْلَعُهَا[3]:

---

(١) الدّيوَان ج ٤، ص ٦٩٠.
(٢) رَجّاس: منهمر.
(٣) الدّيوَان ج ٤، ص ٩٠٢.

مَنْ لِي بِمِلْءِ الْمَشْرِقَيْنِ بَيَانَا ... وَبِمَا وَرَاءَ النَّيِّرَيْنِ مَكَانَا
رُمْتُ الرِّثَاءَ، فَمَا ظَفِرْتُ بِمِنْبَرٍ ... يَسَعُ الرِّثَاءَ وَمَا وَجَدْتُ لِسَانَا

وَفِي الْبَيْتِ الثَّانِي تَعْرِيضٌ بِمَنْ أَقَامُوا حَفْلَةَ تَأْبِينٍ لِلرَّاحِلِ الْكَرِيمِ، فَدَعَوْا مِنَ الشُّعَرَاءِ الْأَسَاتِذَةَ خَلِيلَ مُطْرَانٍ وَعَبَّاسَ مَحْمُودِ الْعَقَّادِ وَمَحْمُودَ حَسَنِ إِسْمَاعِيلَ، وَغَفَلُوا عَنْ دَعْوَةِ مُحَرَّمٍ وَالْكَاشِفِ، وَهُمَا اللَّذَانِ صَدَقَا الرَّاحِلَ الْوُدَّ، وَقَالَا فِي مَدَائِحِهِ كَثِيرًا.

أَمَّا رَائِعَةُ مُحَرَّمٍ الَّتِي قَالَهَا حِينَ سَقَطَ شُهَدَاءُ الْجَامِعَةِ الْمِصْرِيَّةِ فِي مُظَاهَرَاتِ سَنَةَ ١٩٣٥م فَمِنْ أَرْوَعِ مَا قَالَ، وَتَكَادُ تَكُونُ أَعْظَمَ قَصِيدَةٍ قِيلَتْ فِي مَوْضُوعِهَا، مَعَ أَنَّ الصُّحُفَ الْمِصْرِيَّةَ حِينَئِذٍ قَدْ فَاضَتْ بِمِئَاتِ الْقَصَائِدِ الْحَارَّةِ، وَالْقَوَافِي الْمَرِنَّةِ فِي مَشَاهِدِ التَّوْدِيعِ الْحَزِينِ، وَمِمَّا جَاءَ فِيهَا قَوْلُهُ(١):

يَا لِلضَّحَايَا الْحَامِلَاتِ جِرَاحَهَا ... يُغْدَى بِهَا مَحْمُولَةً وَيُرَاحُ
هَتَفَتْ تُحَيِّي مِصْرَ فِي أَتْرَاحِهَا ... فَتَحَرَّمَتْ وَتَوَالَتِ الْأَتْرَاحُ
يَتَسَاقَطُونَ مُهَذَّبًا فَمُهَذَّبًا ... غَضُّ الشَّبَابِ، جَبِينُهُ وَضَّاحُ
النُّورُ فِي دَمِهِ الْمُطَهَّرِ مُشْرِقٌ ... وَالطِّيبُ مُنْتَشِرُ الشَّذَى فَوَّاحُ
أَهِيَ الْمَآتِمُ فِي الْبِلَادِ مُقَامَةٌ ... لِشَبَابِ مِصْرَ أَمْ هِيَ الْأَفْرَاحُ؟!
ضَرَمُ الْحَمِيَّةِ تُطْفِئُ الضَّرَمَ الَّذِي ... يَجِدُ الْحَزِينُ، وَيَشْتَكِي الْمُلْتَاحُ
لَا تَنْعَمِ الْأَرْوَاحُ فِي عَلْيَائِهَا ... إِلَّا إِذَا شَقِيَتْ بِهَا الْأَشْبَاحُ..

(١) الدِّيوَان ج ٤، ص ٧٧٢.

إِنَّ شِعْرَ مُحَرَّمٍ تَسْجِيلٌ فَنِّيٌّ لِأَحْدَاثِ مِصْرَ ، لَا يَكْتُبُهُ مُؤَرِّخٌ حَرْفِيٌّ ، بَلْ يُسَطِّرُهُ سَاحِرٌ فَنَّانٌ ، وَحَسْبِي مَا قَدَّمْتُ مِنَ الشَّوَاهِدِ السَّاطِعَاتِ ..

غُرُوبُ الْخِلَافَةِ

قُلْتُ: «غُرُوبُ الْخِلَافَةِ»، وَلَمْ أَقُلْ: «سُقُوطُهَا» كَمَا يَذْكُرُ الْمُؤَرِّخُونَ؛ لِأَنَّ الْغُرُوبَ يَتْبَعُهُ فِي الصَّبَاحِ شُرُوقٌ، وَنَرْجُو أَنْ تُشْرِقَ بِإِذْنِ اللَّهِ.

لَقَدْ تَحَدَّثْتُ مِنْ قَبْلُ عَنِ اتِّجَاهِ الشُّعُورِ الْإِسْلَامِيِّ فِي شُعُوبِهِ إِلَىٰ التَّعَاطُفِ الشَّدِيدِ مَعَ تُرْكِيَا ضِدَّ الْحُلَفَاءِ أَثْنَاءَ الْحَرْبِ الْعَالَمِيَّةِ الْأُولَىٰ، وَفَاتَنِي أَنْ أَذْكُرَ بِالتَّفْصِيلِ أُمُورًا هَامَّةً حَدَثَتْ فِي مِصْرَ، رَغْمَ تَشَدُّدِ الِاحْتِلَالِ فِي مُقَاوَمَةِ هَذَا الشُّعُورِ الْجَارِفِ نَحْوَ تُرْكِيَا، وَمِنْ دَلَائِلِ ذَلِكَ هَذَا الِاعْتِدَاءُ الْمُتَكَرِّرُ عَلَىٰ السُّلْطَانِ حُسَيْنٍ الَّذِي أَقَامَهُ الِاحْتِلَالُ سُلْطَانًا عَلَىٰ مِصْرَ، بَعْدَ خَلْعِ الْخِدِيوِي عَبَّاسٍ أَمِيرِ مِصْرَ السَّابِقِ، كَذَلِكَ الِاعْتِدَاءُ عَلَىٰ بَعْضِ الْوُزَرَاءِ مِمَّنِ اشْتَهَرُوا بِمُصَافَاةِ الْإِنْكِلِيزِ، وَكَانُوا كَالْخَاتَمِ فِي أُصْبُعِ الِاسْتِعْمَارِ، وَقَدْ أَرَادَ السُّلْطَانُ حُسَيْنٌ أَنْ يَصِلَ أَسْبَابَهُ بِبَعْضِ الْمُثَقَّفِينَ فَحَدَّدَ مَوْعِدًا لِزِيَارَةِ كُلِّيَّةِ الْحُقُوقِ كَيْ يَتَّصِلَ بِالْأَسَاتِذَةِ وَالطُّلَّابِ وَيَخْطُبَ فِيهِمْ، مُبْدِيًا وِجْهَةَ نَظَرِهِ فِي قَبُولِ الْعَرْشِ فَامْتَنَعَ الطُّلَّابُ جَمِيعًا عَنِ الْحُضُورِ،

وَكَانَ يَوْمًا عَصِيبًا بِالنِّسْبَةِ لَهُ، بَلْ إِنَّ التَّمَرُّدَ وَصَلَ إِلَىٰ كَتَائِبِ الْجَيْشِ الْمِصْرِيِّ نَفْسِهِ، حَيْثُ امْتَنَعَ الضُّبَّاطُ وَالْجُنُودُ فِي الْإِسْمَاعِيلِيَّةِ عَنْ إِطْلَاقِ النَّارِ عَلَىٰ إِخْوَانِهِمُ الْأَتْرَاكِ، وَقَدْ حَارَ أَذْنَابُ الِاسْتِعْمَارِ فِيمَا يَجِبُ أَنْ يَقُولُوهُ فِي الْجَرَائِدِ الْمِصْرِيَّةِ لِتَخْفِيفِ حِدَّةِ هَذَا الْعَدَاءِ، فَزَعَمُوا أَنَّ الْإِنْكِلِيزَ يُحَارِبُونَ الِاتِّحَادِيِّينَ فَقَطْ، وَلَكِنَّهُمْ يُضْمِرُونَ كُلَّ حُبٍّ لِلْخَلِيفَةِ، وَلَيْسَ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُمْ عَدَاءٌ! وَلَمَّا وَضَعَتِ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا وَكَانَتِ الْهَزِيمَةُ فَادِحَةً بِالنِّسْبَةِ لِتُرْكِيَا سَادَ شُعُورٌ حَارٌّ بِالْأَلَمِ فِي مِصْرَ، وَيَقُولُ الْأُسْتَاذُ الدُّكْتُورُ مُحَمَّدٌ مُحَمَّدٌ حُسَيْنٌ بِصَدَدِ ذَلِكَ(١):

«امْتَلَأَتْ قُلُوبُ الْمِصْرِيِّينَ حُزْنًا لِمَصِيرِ الْآسِتَانَةِ - دَارِ الْخِلَافَةِ - وَقَدِ احْتَلَّتْهَا جُيُوشُ الْأَعْدَاءِ وَتَقَاسَمَهَا الْإِنْكِلِيزُ وَالْفَرَنْسِيُّونَ وَالطَّلْيَانُ، وَسَيْطَرُوا فِيهَا عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ، حَتَّىٰ أَصْبَحَ الْخَلِيفَةُ سَجِينًا أَوْ كَالسَّجِينِ، وَقَدْ عَبَّرَ عَنْ ذَلِكَ حَافِظٌ إِبْرَاهِيمُ أَصْدَقَ تَعْبِيرٍ حِينَ تَحَوَّلَ مَسْجِدُ أَيَاصُوفْيَا الْكَبِيرُ إِلَىٰ كَنِيسَةٍ فَقَالَ(٢):

أَيَاصُوفْيَا حَانَ التَّفَرُّقُ فَاذْكُرِي ... عُهُودَ كِرَامٍ فِيكِ صَلُّوا وَسَلَّمُوا
إِذَا عُدْتِ يَوْمًا لِلصَّلِيبِ وَأَهْلِهِ ... وَحَلَّىٰ نَوَاحِيكِ الْمَسِيحُ وَمَرْيَمُ
فَلَا تُنْكِرِي عَهْدَ الْمَآذِنِ إِنَّهُ ... عَلَىٰ اللَّهِ مِنْ عَهْدِ النَّوَاقِيسِ أَكْرَمُ

ثُمَّ جَاءَتِ الْأَنْبَاءُ بِثَوْرَةِ الْأَنَاضُولِ، حَيْثُ قَادَ مُصْطَفَىٰ كَمَالُ الثَّوْرَةَ عَلَىٰ الْيُونَانِ الَّذِينَ انْدَفَعُوا فِي قُرَىٰ «أَزْمِيرَ» يُدَمِّرُونَ كُلَّ شَيْءٍ، وَيَعْبَثُون

(١) الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر ج «٢» ص ٢٠.
(٢) ديوان حافظ ج «٢» ص ٨٢.

كَالسُّكَارَىٰ فِي مَنَازِلِ الْمُسْلِمِينَ، وَقَدْ نَجَحَ كُلَّ النَّجَاحِ فِي هَزِيمَةِ الدُّخَلَاءِ، وَأَعَادَ الْإِقْلِيمَ إِلَىٰ تُرْكِيَا مُحَرَّرًا مِنْ مُحْتَلِّيهِ، وَهُنَا عَمَّتِ الْفَرْحَةُ شُعُوبَ الْعَالَمِ الْإِسْلَامِيِّ جَمِيعِهِ، وَقَامَ شُعَرَاءُ مِصْرَ بِالتَّعْبِيرِ عَنْ هَذِهِ الْفَرْحَةِ الْغَامِرَةِ، وَكَانَ فِي طَلِيعَةِ هَؤُلَاءِ أَحْمَدُ شَوْقِيٌّ وَأَحْمَدُ مُحَرَّم، وَأَخُصُّ هَذَيْنِ الشَّاعِرَيْنِ مِنَ الَّذِينَ أَبْدَعُوا فِي هَذَا الْمَجَالِ؛ لِأَنَّهُمَا عَبَّرَا أَحْسَنَ تَعْبِيرٍ وَأَصْدَقَهُ عَنْ شُعُورِ الْأُمَّةِ الْجَارِفِ، وَلَا جَرَمَ كَانَ شَوْقِيٌّ أَبْلَغَ شَاعِرِيَّةً مِنْ زَمِيلِهِ فِي هَذَا الْمَقَامِ، لِأَنَّ شَوْقِيًّا كَانَ مُتَّئِدًا فِي نَظْمِهِ، لَا يَقُولُ إِلَّا بَعْدَ أَنْ يُبْدِعَ الصُّورَةَ إِبْدَاعًا رَصِينًا، أَمَّا مُحَرَّمٌ فَقَدِ انْدَفَعَ فِي مَلْحَمَةٍ جَاوَزَتْ سِتَّمِائَةِ بَيْتٍ، تُعَبِّرُ عَنْ كُلِّ مَا اسْتَطَاعَ أَنْ يَقُولَهُ مِنْ أَحْدَاثِ هَذِهِ الْحَرْبِ الَّتِي قَادَهَا مُصْطَفَىٰ كَمَالُ، وَلَوْ أَنَّهُ لَجَأَ إِلَىٰ الِاتِّئَادِ الْهَادِئِ، وَلَمْ يَكُنْ سَرْدُ الْأَحْدَاثِ كُلِّهَا مِنْ شَأْنِهِ؛ لَبَلَغَ مَبْلَغَ شَوْقِيٍّ! وَحَسْبُهُ أَنْ يَكُونَ صَاحِبَ وَهَجٍ نَارِيٍّ مُشْتَعِلٍ لَا تَهْدَأُ حَرَارَتُهُ إِلَّا إِذَا أَفَاضَ فِي الْحَدِيثِ، فَبَلَغَ سِتَّمِائَةِ بَيْتٍ! وَهِيَ أَطْوَلُ قَصِيدَةٍ مُتَّحِدَةِ الْقَافِيَةِ عَرَفَهَا الشِّعْرُ الْمُعَاصِرُ فِي عَصْرِهِ، وَأَذْكُرُ أَنَّ الشَّاعِرَ الْكَبِيرَ خَلِيلَ مُطْرَانَ نَظَمَ مَلْحَمَةً فِي «نَيْرُون» بَلَغَتْ مَا يَقْرُبُ مِنْ أَرْبَعِمِائَةِ بَيْتٍ، وَقَالَ: إِنَّ هَذَا أَقْصَىٰ مَا يَسْتَطِيعُهُ شَاعِرٌ يَلْتَزِمُ الْقَافِيَةَ الْوَاحِدَةَ، وَاتَّخَذَ مِنْ ذَلِكَ مُبَرِّرًا لِلشُّعَرَاءِ كَيْ يَعْدِلُوا عَنْ نِظَامِ الْقَافِيَةِ الْوَاحِدَةِ، وَلَكِنَّ مُحَرَّمًا مَضَىٰ بِالْأَرْبَعِمِائَةِ إِلَىٰ سِتِّمِائَةٍ! وَلَمْ يَجِدْ مَجَالًا لِنَشْرِ هَذِهِ الْمَلْحَمَةِ فِي الصُّحُفِ الْمِصْرِيَّةِ، لِأَنَّهَا تَكْتَفِي بِالْحَدِّ الْمَعْقُولِ الَّذِي تَعَوَّدَهُ الشُّعَرَاءُ! أَمَّا أَنْ تَنْشُرَ سِتَّمِائَةِ بَيْتٍ فَهَذَا مَا يَتَعَذَّرُ فِي مَنْطِقِ الْقَائِمِينَ عَلَىٰ أَمْرِهَا، وَأَقُولُ فِي مَنْطِقِ الْقَائِمِينَ عَلَىٰ أَمْرِهَا؛ لِأَنَّهُمْ كَانُوا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ نَشْرِ الْمَلْحَمَةِ فِي عِدَّةِ أَعْدَادٍ، لَا فِي عَدَدٍ وَاحِدٍ، وَعُشَّاقُ

الشِّعْرِ الرَّفِيعِ سَيُتَابِعُونَ الْقَصِيدَةَ يَوْمًا بَعْدَ يَوْمٍ، كَمَا يَحْدُثُ فِي الْمَقَالَاتِ النَّثْرِيَّةِ الَّتِي تَتَوَالَىٰ حَلَقَاتُهَا حَتَّىٰ تَبْلُغَ الْعَشْرَ أَوْ تَزِيدَ! لَقَدْ كَانَ أَحْمَدُ شَوْقِي وَأَحْمَدُ مُحَرَّم مَعًا يَعْتَقِدَانِ أَنَّ نَصْرَ مُصْطَفَىٰ كَمَالٍ حِينَئِذٍ نَصْرٌ لِلْإِسْلَامِ، فَالْمَعْرَكَةُ إِسْلَامِيَّةٌ قَبْلَ أَنْ تَكُونَ تُرْكِيَّةً، وَلِذَلِكَ قَالَ شَوْقِي[1]:

اللَّهُ أَكْبَرُ كَمْ فِي الْفَتْحِ مِنْ عَجَبِ ... يَا خَالِدَ التُّرْكِ جَدِّدْ خَالِدَ الْعَرَبِ
صُلْحٌ عَزِيزٌ عَلَىٰ حَرْبٍ مُظَفَّرَةٍ ... فَالسَّيْفُ فِي غِمْدِهِ، وَالْحَقُّ فِي النُّصُبِ
أَتَيْتَ مَا يُشْبِهُ التَّقْوَىٰ وَإِنْ خُرِقَتْ ... سُيُوفُ قَوْمِكَ لَا تَرْتَاحُ لِلْقُرُبِ
وَلَا أَزِيدُكَ بِالْإِسْلَامِ مَعْرِفَةً ... كُلُّ الْمُرُوءَةِ فِي الْإِسْلَامِ وَالْحَسَبِ
سَفِينَةُ اللَّهِ لَمْ تُقْهَرْ عَلَىٰ دُسُرٍ ... فِي الْعَاصِفَاتِ وَلَمْ تُغْلَبْ عَلَىٰ خُشُبِ
قَدْ أَمَّنَ اللَّهُ مَجْرَاهَا وَأَبْدَلَهَا ... بِحُسْنِ عَاقِبَةٍ مِنْ سُوءِ مُنْقَلَبِ
يَوْمٌ «كَبَدْرٍ» فَخَيْلُ اللَّهِ رَاقِصَةٌ ... عَلَىٰ الصَّعِيدِ، وَخَيْلُ اللَّهِ فِي السُّحُبِ
لَمَّا أَتَيْتَ بِبَدْرٍ مِنْ مَطَالِعِهَا ... تَلَفَّتَ الْبَيْتُ فِي الْأَسْتَارِ وَالْحُجُبِ
وَهَشَّتِ الرَّوْضَةُ الْفَيْحَاءُ ضَاحِكَةً ... إِلَىٰ الْمُنَوَّرَةِ الْمِسْكِيَّةِ التُّرُبِ
وَمَسَّتِ الدَّارُ أَزْكَىٰ طِيبِهَا وَأَتَتْ ... بَابَ الرَّسُولِ، فَمَسَّتْ أَشْرَفَ الْعَتَبِ
هَزَّتْ «دِمَشْقُ» بَنِي «أَيُّوبَ» فَانْتَبَهُوا ... يُهَنِّئُونَ بَنِي «حَمْدَانَ» فِي «حَلَبِ»
مَمَالِكٌ ضَمَّهَا الْإِسْلَامُ فِي رَحِمٍ ... وَشِيجَةٍ وَحَوَاهَا الشَّرْقُ فِي نَسَبِ

وَلَا أَدْرِي لِمَاذَا لَمْ تُعْجِبْ هَذِهِ الْأَبْيَاتُ الدُّكْتُورَ طَهَ حُسَيْنٍ[2] فَانْدَفَعَ

(١) الشوقيات ج ١، ص ٥٠.
(٢) شوقي وحافظ للدكتور طه ص ١٨.

يَتَسَاءَلُ عَنْ صِلَةِ بَدْرٍ بِمَوْقِعَةِ الْأَنَاضُولِ ، وَعَنْ صِلَةِ مُصْطَفَىٰ كَمَالٍ بِخَالِدٍ ! وَهُوَ تَسَاؤُلٌ يُحَاوِلُ أَنْ يُنْكِرَ الشُّعُورَ الْإِسْلَامِيَّ الْمُتَّقِدَ فِي أَنْحَاءِ الصُّدُورِ ، وَيُخَيَّلُ إِلَيَّ أَنَّ الدُّكْتُورَ طَهَ حُسَيْنَ نَفْسَهُ يَسْتَنْكِرُ هَٰذَا التَّسَاؤُلَ الَّذِي عَنَاهُ إِذَا رَجَعَ إِلَىٰ صَوَابِهِ السَّدِيدِ ، وَكَأَنَّهُ بِذَٰلِكَ التَّجَاهُلِ كَانَ يُرْضِي قَوْمًا يَسُوؤُهُمْ أَلَّا يُذْكَرَ الْإِسْلَامُ فِي مَوْطِنٍ شَرِيفٍ .

أَمَّا أَحْمَدُ مُحَرَّم فَلَا أَدْرِي مَاذَا أَخْتَارُ وَمَاذَا أَدَعُ مِنْ قَصِيدَتَيْنِ رَائِعَتَيْنِ قِيلَتَا فِي هَذِهِ الْمُنَاسَبَةِ ، بَلَغَتِ الْأُولَىٰ أَكْثَرَ مِنْ مِائَةٍ وَعِشْرِينَ بَيْتًا ، وَبَلَغَتِ الثَّانِيَةُ سِتَّمِائَةِ بَيْتٍ ! فَهُوَ يَقُولُ فِي الْأُولَىٰ مُؤَكِّدًا الْمَعَانِيَ الرُّوحِيَّةَ الَّتِي اسْتَلْهَمَهَا أَمِيرُ الشُّعَرَاءِ(١):

وَمَا بِبَنِي عُثْمَانَ فِي الْحَرْبِ رِيبَةٌ ... إِذِ ابْتَدَرَ السَّيْفَ الْكَمِيُّ الْمُقَارِعُ
إِذَا نَفَرُوا لِلْحَرْبِ سَبَّحَ سَاجِدٌ ... وَكَبَّرَ مَا بَيْنَ اللِّوَائَيْنِ رَاكِعُ
يَطُوفُ عَلِيٌّ بِالصُّفُوفِ وَحَمْزَةٌ ... وَيَسْعَىٰ ابْنُ قَيْسٍ وَالْخَبَابُ وَرَافِعُ
يَلُوذُ بِآيَاتِ الْكِتَابِ رِبَاطُهُمْ ... وَتَمْضِي بِرَايَاتِ النَّبِيِّ الطَّلَائِعُ
بَنِي الرُّومِ ، هَلْ بَرَّتْ عُهُودُ حَلِيفِكُمْ ... وَهَلْ صَدَقَتْ آمَالُكُمْ وَالْمَطَامِعُ ؟!
رَمَيْتُمْ قُيُودَ الْفَاتِحِينَ فَزُلْزِلَتْ ... بِيَثْرِبَ أَجْدَاثٌ وَهِيلَتْ مَضَاجِعُ
وَدَافَعَ عَنْ مَجْدِ الْهِلَالِ وَعِزِّهِ ... ذَخَائِرُ طَهَ ، فِي حِمَاهَا الرَّوَائِعُ
أَتَرْتُمْ بِهَا عَهْدًا مِنَ الْفَتْحِ أَظْلَمَتْ ... عُصُورُ الْمَوَاضِي ، وَهْوَ أَبْيَضُ نَاصِعُ
تَنَفَّسَ عَنْ رِيحِ الْجِنَانِ فَهَزَّنَا ... إِلَيْهَا شَذًى مِنْ جَانِبِ الرُّوحِ ضَائِعُ

(١) الدّيوان ج ١، ص ٥٣٤.

وَيَقُولُ فِي الثَّانِيَةِ الَّتِي بَلَغَتْ سِتَّمِائَةِ بَيْتٍ[١]:

رَمَوْا بِاسْمِ الصَّلِيبِ فَمَا أَصَابُوا　　وَلَا وَجَدُوا الصَّلِيبَ لَهُمْ مُعِينَا
وَمَا يَرْضَىٰ الْمَسِيحُ إِذَا اسْتَبَاحَتْ　　دَمَ الضُّعَفَاءِ أَيْدِي الْآثِمِينَا
وَلَا الْعَذْرَاءُ حِينَ تَرَىٰ الْعَذَارَىٰ　　جَوَازِعَ يَنْتَحِبْنَ وَيَشْتَكِينَا
رَأَتْ حُورَ الْجِنَانَ مُصَرَّعَاتٍ　　يُقَرِّبْنَ النُّفُوسَ وَيَفْتَدِينَا
يَقُلْنَ لَهَا: حَنَانَكِ أَدْرِكِينَا　　فَقَدْ أَزْرَىٰ بِنَا مَا تَعْلَمِينَا
أَقَوْمُكِ أَمْ ذِئَابٌ عَادِيَاتٌ　　وَأَمْرُ يَسُوءَ أَمْ مَا تَأْمُرِينَا؟
هُمُ جَعَلُوا الصَّلِيبَ أَذًى وَبَغْيًا　　عَلَيْكِ سَلَامُ رَبِّكِ أَنْصِفِينَا

ثُمَّ قَالَ[٢]:

سَمَا الْغَازِي الْمُجَاهِدُ فِي جُنُودٍ　　لِرَبِّكِ مَا لَهُمْ مِنْ غَالِبِينَا
تَمُرُّ الْخَيْلُ بِالْأَبْطَالِ رَهْوًا　　وَتَمْضِي فِي مَوَاكِبِهَا ثُبِينَا[٣]
يُرَدِّدْنَ الصَّهِيلَ مُبَشِّرَاتٍ　　وَيَتْلُونَ الْكِتَابَ مُبَشِّرِينَا
مَشَىٰ جِبْرِيلُ يَدْعُو الْقَوْمَ شَتَّىٰ　　فَلَبَّوْهُ، وَخَرُّوا سَاجِدِينَا
يُنَادُونَ الْخِلَافَةَ: لَا تُرَاعِي　　فَلَنْ نَرْضَىٰ لِتَاجِكِ أَنْ يَهُونَا
إِذَا بَاتَ الْعَرِينُ بِغَيْرِ حَامٍ　　وَرِيعَ حِمَىٰ الْخَلَائِفِ فَاذْكُرِينَا
لِرَبِّكِ قَوْمُنَا خَاضُوا الْمَنَايَا　　وَفِيكِ وَفِي رَسُولِكِ مَا لَقِينَا

(١) الدّيوَان ج «١» ص ٥٧٦.
(٢) الدّيوَان ج «١» ص ٥٧٨ وَمَا بعدهَا.
(٣) ثُبِينَا : جماعات.

دَعَوْتِ إِلَىٰ الْجِهَادِ وَنَحْنُ صَرْعَىٰ   فَمَا أَبَتِ السُّيُوفِ وَلَا عَصِينَا
نَضِجُّ مُكَبِّرِينَ إِذَا رَمَيْنَا   وَنَسْتَبِقُ الْجِنَانَ إِذَا رُمِينَا

وَالْمَلْحَمَةُ فِي حَاجَةٍ إِلَىٰ دِرَاسَةٍ خَاصَّةٍ فِي كِتَابٍ مُسْتَقِلٍّ ؛ لِأَنَّ عَنَاصِرَهَا الْمُتَشَابِكَةَ تَدْعُو الدَّارِسَ إِلَىٰ اسْتِجْلَائِهَا فِي صَبْرٍ ، وَقَدْ أَفْرَدْنَا دِرَاسَاتٍ كَثِيرَةً لِمَلَاحِمَ أُسْطُورِيَّةٍ لَمْ تَأْتِ بِجَدِيدٍ ، وَلَكِنَّ الْمَلَاحِمَ الْوَاقِعِيَّةَ لَا تَجِدُ لَدَىٰ الدَّارِسِينَ مَنْ يَتَّجِهُ إِلَيْهَا ، وَهُوَ تَجَاهُلٌ يَجِبُ أَنْ يَقِفَ عِنْدَ حَدٍّ .

يَلْحَظُ الْقَارِئُ أَنَّ مَدِيحَ الشَّاعِرَيْنِ مُؤَكَّدٌ وَثَابِتٌ لِلْغَازِي مُصْطَفَىٰ كَمَالٍ ، إِذْ كَانَا يَظُنَّانِهِ دِرْعَ الْخِلَافَةِ ، وَحَامِيَ الْإِسْلَامِ ، بَلْ إِنَّ صُورَهُ الزَّيْتِيَّةَ الْمُكَبَّرَةَ ، قَدْ عُلِّقَتْ فِي مَنَازِلَ كَثِيرَةٍ بِمِصْرَ إِعْجَابًا بِدَوْرِهِ الْعَظِيمِ ، ثُمَّ فُوجِئَ النَّاسُ بِخَلْعِ السُّلْطَانِ الْعُثْمَانِيِّ ، وَ إِقَامَةِ خَلِيفَةٍ بَعْدَهُ ، عَلَىٰ أَنْ يُجَرَّدَ مِنَ السُّلْطَةِ الزَّمَنِيَّةِ ، وَتَبْقَىٰ لَهُ الْقِيَادَةُ الرُّوحِيَّةُ ، وَهِيَ قِيَادَةٌ اسْمِيَّةٌ لَا مَعْنَىٰ لَهَا ، وَقَدْ ثَارَ بَعْضُ الْكُتَّابِ عَلَىٰ هَذَا الِاتِّجَاهِ ؛ لِأَنَّهُ يُنْذِرُ بِشَرٍّ مُسْتَطِيرٍ يُدَبَّرُ لِلْحُكْمِ الْإِسْلَامِيِّ بِتَشْرِيعِهِ الصَّرِيحِ ، وَلَكِنَّ نَفَرًا آخَرَ أَحْسَنُوا الظَّنَّ بِالرَّجُلِ ، فَانْدَفَعُوا يُهَاجِمُونَ مُهَاجِمِيهِ ، وَيَقُولُونَ : إِنَّ الْغَازِيَ الظَّافِرَ سَيَلْتَزِمُ بِالشَّرِيعَةِ الْإِسلامِيةِ ، وَلَا عَلَيْنَا أَنْ يَكُونَ الْحَاكِمُ مِنْ آلِ عُثْمَانَ أَوْ سِوَاهُ مَا دَامَ الْقُرْآنُ هُوَ الشَّرْعُ النَّافِذُ ، وَطَالَ اللَّجَاجُ وَتَشَعَّبَ ، وَكَانَ شَيْخُ الْإِسْلَامِ فِي تُرْكِيَا الْعَلَّامَةُ مُصْطَفَىٰ صَبْرِي قَدْ هَاجَرَ إِلَىٰ الْقَاهِرَةِ ، وَهُوَ يَعْلَمُ أَكْثَرَ مِنْ غَيْرِهِ مَا يُدَبِّرُهُ الْكَمَالِيُّونَ فِي الْخَفَاءِ ، وَيُدْرِكُ أَنَّهُمْ فِي سُلُوكِهِمُ الشَّخْصِيِّ ، وَحَيَاتِهِمُ الْعَمَلِيَّةِ لَمْ يُظْهِرُوا أَيَّ مَيْلٍ لِقَوَاعِدِ الدِّينِ ، بَلْ أَتَوْا مِنَ الْمُوبِقَاتِ مَا يُحَرِّمُهُ الْإِسْلَامُ ، وَضَاعَتْ صَيْحَةُ الرَّجُلِ الصَّادِقِ فِي الْفَرَاغِ ؛ لِأَنَّ مُعَارِضِيهِ قَدِ اتَّهَمُوهُ بِالْغَرَضِ إِذْ نُزِعَتْ مِنْهُ

مَشْيَخَةُ الْإِسْلَامِ قَسْرًا ، فَهُوَ يُعَبِّرُ عَنْ حُرْقَةٍ لَا عَنْ هَدَفٍ ، وَرَمَوْهُ بِأَنَّهُ اصْطَحَبَ كُنُوزَ الْمَالِ مَعَهُ نَهْبًا مِنْ وَطَنِهِ ، وَقَدْ ظَهَرَ أَنَّ كُلَّ مَا قِيلَ عَنْهُ مَحْضُ افْتِرَاءٍ أَرْجَفَ بِهِ خُصُومُهُ فِي تُرْكِيَا ، فَتَقَلَّهُ كُتَّابُ مِصْرَ عَنْ تَصْدِيقٍ ، وَكَانَ مِنْ عُلَمَاءِ الْأَزْهَرِ مَنْ بَهَرَهُمْ نَصْرُ الْغَازِي فَانْضَمُّوا إِلَىٰ تَأْيِيدِهِ كَمَا فَعَلَ شَوْقِيٌّ وَمُحَرَّمٌ ، ثُمَّ انْجَابَ السِّتَارُ ، وَظَهَرَ مُصْطَفَىٰ كَمَالُ عَلَىٰ حَقِيقَتِهِ حِينَ أَسْقَطَ الْخِلَافَةَ ، وَعَزَلَ السُّلْطَانَ ، وَتَنَكَّرَ لِكُلِّ مَا هُوَ إِسْلَامِيٌّ ، فَتَحَقَّقَ مَا كَتَبَهُ الشَّيْخُ مُصْطَفَىٰ صَبْرِي وَمُؤَيِّدُوهُ ، وَارْتَجَّتِ الْأُمَمُ الْإِسْلَامِيَّةُ لِهَذَا الْحَادِثِ ارْتِجَاجًا ذَا دَوِيٍّ صَاعِقٍ ، وَعَمِلَ فَرِيقٌ عَلَىٰ إِحْيَاءِ الْخِلَافَةِ وَمُبَايَعَةِ حَاكِمٍ آخَرَ فِي جَزِيرَةِ الْعَرَبِ أَوِ الشَّامِ أَوْ مِصْرَ ، وَاضْطَرَبَتِ الْأُمُورُ عَلَىٰ نَحْوٍ لَا يُهِمُّنَا الْإِسْهَابُ فِيهِ قَدْرَ مَا يُهِمُّنَا مَوْقِفُ شَوْقِيٍّ وَمُحَرَّمٍ ، وَأَذْكُرُ شَوْقِيًّا بِالذَّاتِ مَعَ أَنَّ الْكِتَابَ خَاصٌّ بِمُحَرَّمٍ ؛ لِأَنَّهُ كَتَبَ قَصِيدَتَيْنِ نَارِيَّتَيْنِ شَوَىٰ فِيهِمَا جِلْدَ الْغَازِي بِالسِّيَاطِ ، وَهُوَ يَعْلَمُ أَنَّ الْقُرَّاءَ قَدْ طَالَعُوا مِنْ قَبْلُ قَصَائِدَهُ الْمَادِحَةَ ، إِذِ انْتَصَرَ عَلَىٰ الْأَعْدَاءِ ، وَسَلِمَتْ تُرْكِيَا عَلَىٰ يَدِهِ ، فَقَالَ يُبَرِّرُ اتِّجَاهَهُ النَّاقِمَ(١):

بَكَتِ الصَّلَاةُ ، وَتِلْكَ فِتْنَةُ عَابِثٍ ... بِالشَّرْعِ عِرْبِيدِ الْقَضَاءِ وَقَاحِ
أَسْتَغْفِرُ الْأَخْلَاقَ لَسْتُ بِجَاحِدٍ ... مَنْ كُنْتَ أَدْفَعُ دُونَهُ وَأُلَاحِي
مَا لِي أُطَوِّقُهُ الْمَلَامَ وَطَالَمَا ... قَلَّدْتُهُ الْمَأْثُورَ مِنْ أَمْدَاحِي !!
أَأَقُولُ مَنْ أَحْيَا الْجَمَاعَةَ مُلْحِدٌ ... وَأَقُولُ مَنْ رَدَّ الْحُقُوقَ إِبَاحِي
الْحَقُّ أَوْلَىٰ مِنْ وَلِيِّكَ حُرْمَةً ... وَأَحَقُّ مِنْكَ بِنُصْرَةٍ وَكِفَاحِ
أَدُّوا إِلَىٰ الْغَازِي النَّصِيحَةَ يَنْتَصِحْ ... إِنَّ الْجَوَادَ يَثُوبُ بَعْدَ جِمَاحِ

(١) الشوقيات ج ١، ص ١٠٨.

إنَّ الْغُرُورَ سَقَى الرَّئِيسَ بِرَاحِهِ   كَيْفَ احْتِيَالُكَ فِي صَرِيعِ الرَّاحِ؟
نَقَلَ الشَّرَائِعَ وَالْعَقَائِدَ وَالْقُرَى   وَالنَّاسَ، نَقْلَ كَتَائِبٍ فِي السَّاحِ
هُمْ أَطْلَقُوا يَدَهُ كَقَيْصَرَ فِيهِمُ   حَتَّى تَنَاوَلَ كُلَّ غَيْرِ مُبَاحِ
غَرَّتْهُ طَاعَاتُ الْجُمُوعِ وَدَوْلَةٌ   وَجَدَ السَّوَادُ لَهَا هَوَى الْمُرْتَاحِ
وَإِذَا أَخَذْتَ الْمَجْدَ مِنْ أُمِّيَّةٍ   لَمْ تَلْقَ غَيْرَ سَرَابِهِ اللَّمَّاحِ
فَلَتَسْمَعَنَّ بِكُلِّ أَرْضٍ دَاعِيًا   يَدْعُو إِلَى الْكَذَّابِ أَوْ لِسَجَاحِ

وَقَدْ شَاعَتْ قَصِيدَةُ شَوْقِيٍّ الْحَائِيَّةُ، وَاشْتَهَرَتْ وَتَنَاوَلَهَا بِالتَّحْلِيلِ نُقَّادٌ كَثِيرُونَ، وَلَكِنَّ قَصِيدَةً أُخْرَى فِي مَوْضُوعِهَا لَمْ يَكُنْ لَهَا حَظٌّ مِنَ الذُّيُوعِ، حَيْثُ لَمْ تُنْشَرْ فِي الشَّوْقِيَّاتِ الَّتِي جَمَعَهَا شَوْقِي بِيَدِهِ، وَإِنَّمَا نَشَرَهَا الدُّكْتُورُ سَعْدُ الدِّينِ الْجِيزَاوِيُّ فِي كِتَابِهِ «الْعَامِلُ الدِّينِيُّ فِي الشِّعْرِ الْحَدِيثِ» حَيْثُ عَثَرَ عَلَيْهَا بِجَرِيدَةِ عُكَاظِ[1]، وَفِيهَا يَقُولُ عَنِ الْخِلَافَةِ وَمَا أَصَابَهَا عَلَى يَدِ الْكَمَالِيِّينَ:

وَأَنَا الَّذِي مَرَّضْتُهَا فِي دَائِهَا   وَجَمَعْتُ فِيهِ عَوَاطِفَ الْعُوَّادِ
غَنَّيْتُهَا لَحْنًا تَغَلْغَلَ فِي الْبُكَا   يَا رُبَّ بَاكٍ فِي ظَوَاهِرِ شَادِ
وَنَصَرْتُهَا نَصْرَ الْمُجَاهِدِ فِي ذُرَى   عَبْدِ الْحَمِيدِ، وَفِي جَنَاحِ رَشَادِ
وَدَفَنْتُهَا وَدَفَنْتُ خَيْرَ قَصَائِدِي   مَعَهَا، وَطَالَ بِقَبْرِهَا إِنْشَادِي
حَتَّى اتُّهِمْتُ فَقِيلَ: تُرْكِيُّ الْهَوَى   صَدَقُوا، هَوَى الْأَبْطَالِ مِلْءُ فُؤَادِي
وَأَخِي الْقَرِيبُ، وَإِنْ شَقِيتُ بِظُلْمِهِ   أَدْنَى إِلَيَّ مِنَ الْغَرِيبِ الْعَادِي

(١) عكاظ - العدد ١٢١ - ١٩٢٦/٦/١٧م نقلاً عن كتاب الدكتور الجيزاوي ج ٢، ص ٤٨٥.

وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا انْفَرَدْتُ وَإِنَّمَا صَوَّرْتُ شِعْرِي مِنْ شُعُورِ الْوَادِي
كُنَّا نُعَظِّمُ لِلْهِلَالِ بَقِيَّةً فِي الْأَرْضِ مِنْ مَجْدٍ وَمِنْ أَجْنَادِ
وَجْهُ الْقَضِيَّةِ غَيَّرَتْهُ حَوَادِثٌ أَعْطَتْ بِأَيْدٍ غَيْرَ ذَاتِ أَيَادِ
مِنْ سَيِّدٍ بِالْأَمْسِ نُنْكِرُ قَوْلَهُ صِرْنَا لِفَعَّالٍ مِنَ الْأَسْيَادِ
مَضَتِ الْخِلَافَةُ وَالْإِمَامُ فَهَلْ مَضَىٰ مَا كَانَ بَيْنَ اللَّهِ وَالْعُبَّادِ؟!
وَاللَّهِ مَا نَسِيَ الشَّهَادَةَ حَاضِرٌ فِي الْمُسْلِمِينَ، وَلَا تَرَدَّدَ بَادِ

أَسْهَبْتُ فِي الْحَدِيثِ عَنْ شَوْقِيٍّ ، لِأُوَازِنَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ أَحْمَدَ مُحَرَّمٍ ؛ لِأَنَّ مُحَرَّمًا الْتَبَسَتْ عَلَيْهِ الْأُمُورُ حِينَ قَرَأَ الْأَنْبَاءَ عَنْ إِلْغَاءِ الْخِلَافَةِ ، فَلَمْ يَثُرْ ثَوْرَةَ شَوْقِيٍّ الْعَارِمَةَ ، وَلَعَلَّهُ لَمْ يَتَبَيَّنْ مَوْقِفَ الْكَمَالِيِّينَ عَلَىٰ حَقِيقَتِهِ ، إِذْ مَا زَالَ يَظُنُّ فِيهِمْ خَيْرًا ، وَإِلَّا لَمَا قَالَ :

قَضَىٰ الْغَازِي الْأُمُورَ فَلَا تَعِيبُوا أُمُورَ الْمُلْكِ حَتَّىٰ تَسْتَبِينَا
وَمَا نَفَعَ الْخِلَافَةَ حِينَ تُمْسِي حَدِيثُ خُرَافَةٍ لِلْهَازِلِينَا
ثَوَتْ تَتَجَرَّعُ الْآلَامَ شَتَّىٰ عَلَىٰ أَيْدِي الدُّهَاةِ الْمَاكِرِينَا
تُغِيثُ الْمُسْلِمِينَ إِذَا اسْتَغَاثُوا وَتَنْصُرُهُمْ عَلَىٰ الْمُسْتَعْمِرِينَا
فَلَمَّا جَدَّ جِدُّ الْحَرْبِ كَانُوا قُوَىٰ الْأَعْدَاءِ تَرْمِي النَّاصِرِينَا

وَالشَّاعِرُ يُشِيرُ فِي هَذِهِ الْأَبْيَاتِ إِلَىٰ اسْتِسْلَامِ السُّلْطَانِ وَحِيدِ الدِّينِ لِلْأَعْدَاءِ، حَيْثُ أَجْبَرُوهُ أَثْنَاءَ الْحَرْبِ الْيُونَانِيَّةِ التُّرْكِيَّةِ عَلَىٰ تَوْقِيعِ مَنْشُورٍ يُنَاهِضُ الْمُحَارِبِينَ !! وَقَدْ حَدَثَ ذَلِكَ رَغْمًا وَقَهْرًا ، إِذْ لَا يُعْقَلُ أَنْ يَكُونَ الْخَلِيفَةُ ، وَهُوَ رَهْنُ الْأَعْدَاءِ مُنْزَوٍ فِي بَارِجَةٍ بِرِيطَانِيَّةٍ ، مُسْتَطِيعًا أَنْ يَكْتُبَ

غَيْرَ مَا يُمْلَى عَلَيْهِ، وَقَدِ الْتَجَأَ إِلَى الْحِمَايَةِ الْإِنْكِلِيزِيَّةِ عُنْوَةً وَقَهْرًا، فَهْوَ لَمْ يَسْتَسْلِمْ بِاخْتِيَارِهِ، وَإِنَّمَا سِيقَ سَوْقًا تَحْتَ سُلْطَانِ الرَّهْبَةِ الْقَاهِرَةِ! وَلَعَلَّ شَوْقِيًّا كَانَ أَشَدَّ ذَكَاءً حِينَ أَعْلَنَ فِي قَصِيدَةِ «تُوتْ عَنْخ أَمُونْ» أَنَّ الْخَلِيفَةَ فِي الْتِجَائِهِ إِلَى انْكِلْتِرَا قَدْ سُرِقَ سِرْقَةً، وَلَمْ يَمْضِ بِاخْتِيَارِهِ، يَقُولُ شَوْقِيٌّ[1]:

أَمَنْ سَرَقَ الْخَلِيفَةَ وَهْوَ حَيٌّ ... يَعَفُّ عَنِ الْمُلُوكِ مُصَفَّدِينَا

وَقَدْ كَتَبَ شَوْقِيٌّ فِي شَرْحِ هَذَا الْبَيْتِ بِهَامِشِ الْقَصِيدَةِ: «إِنَّ انْكِلْتِرَا هِيَ الَّتِي نَقَلَتِ الْخَلِيفَةَ وَحِيدَ الدِّينِ مِنْ قَصْرِهِ فِي الْآسِتَانَةِ، وَأَلْجَأَتْهُ إِلَى الْمِدْرَعَةِ الْبِرِيطَانِيَّةِ «مَالَايَا» هَرَبًا مِنَ الْكَمَالِيِّينَ، فَذَهَبَتْ بِهِ إِلَى «مَالْطَةَ» فِي ١٦/١١/١٩٢٢م» وَلَعَلَّ هَذِهِ الْحَقِيقَةَ لَمْ تَلُحْ لِمُحَرَّم فَقَالَ مَا قَالَ.

عَلَى أَنَّ حَسْرَةَ الشَّاعِرِ عَلَى سُقُوطِ الْخِلَافَةِ تَجَلَّتْ فِي قَوْلِهِ مُخَاطِبًا عَاصِمَةَ الْخِلَافَةِ[2]:

أَعَنْ خَطْبِ الْخِلَافَةِ تَسْأَلِينَا ... أَجِيبِي يَا «فَرُوقُ» فَتًى حَزِينَا
هَوَى الْعَرْشُ الَّذِي اسْتَعْصَمْتِ مِنْهُ ... بِرُكْنِ الدَّهْرِ وَاسْتَعْلَيْتِ حِينَا
فَأَيْنَ الْبَأْسُ يَقْتَحِمُ الْمَنَايَا ... وَيَلْتَهِمُ الْكَتَائِبَ وَالْحُصُونَا؟
وَأَيْنَ الْجَاهُ يَغْمُرُ كُلَّ جَاهٍ ... وَإِنْ جَعَلَ السِّمَاكَ لَهُ سَفِينَا
مَضَى الْخُلَفَاءُ عَنْكِ، فَأَيْنَ حَلُّوا؟ ... وَكَيْفَ بَقِيتِ وَحْدَكِ؟ خَبِّرِينَا
لَقَدْ فَجَعَ الْمُرُوءَةَ فِيكِ دَهْرٌ ... أَصَابَكِ فِي ذَوِيكِ الْأَوَّلِينَا

(١) الشوقيات ج ١، ص ٣٣٩.
(٢) الديوان ج ١، ص ٦٢٥.

أَلَيْسَ الدَّهْرُ كَانَ لَهُمْ لِسَانًا   إِذَا نَطَقُوا، وَكَانَ لَهُمْ يَمِينًا ؟!
تَمَرَّدَ يَنْفُضُ التِّيجَانَ عَنْهُمْ   وَيَنْتَزِعُ الْعُرُوشَ وَمَا وَلِينَا
أَذَلَّ جِبَاهَهُمْ حَدَثٌ ذَمِيمٌ   أَهَانَ الْعِزَّ وَالشَّرَفَ الْمَصُونَا
أَتَاهُمْ أَمْرُهُ فَغَدَوْا مُلُوكًا   وَرَاحُوا سُوقَةً مُسْتَضْعَفِينَا

أَقُولُ ، وَأَنَا شَدِيدُ الْإِعْجَابِ بِحَمِيَّةِ مُحَرَّمٍ : إِنَّ الَّذِي قَالَ فِي انْتِصَارِ تُرْكِيَا عَلَىٰ الْيُونَانِ أَكْثَرَ مِنْ ثَمَانِمِائَةِ بَيْتٍ فِي قَصِيدَتَيْنِ نَارِيَّتَيْنِ ، كَانَ مِنَ الْمُنْتَظَرِ أَنْ يَقُولَ فِي سُقُوطِ الْخِلَافَةِ مَا يُعَبِّرُ عَنْ مَشَاعِرِ الْجُمْهُورِ الْمِصْرِيِّ بِخَاصَّةٍ ، وَالْعَالَمِ الْإِسْلَامِيِّ بِعَامَّةٍ ، وَلَعَلَّ الصَّدْمَةَ الْأَلِيمَةَ عَاقَتْ لِسَانَهُ عَنْ الِانْطِلَاقِ ، فَأَنَا أَعْرِفُ شَاعِرًا كَبِيرًا ، أَجَادَ النَّظْمَ فِي مَرَاثِي أَصْدِقَائِهِ حَتَّىٰ مَلَأَ دِيوَانًا كَامِلًا بِالرِّثَاءِ ، ثُمَّ مَاتَ وَلَدُهُ الْحَبِيبُ فَعَجَزَ أَنْ يَخُصَّهُ بِقَصِيدَةٍ ؛ لِهَوْلِ مَا أَحَسَّ مِنْ حَرَارَةٍ كَاوِيَةٍ قَيَّدَتْ لِسَانَهُ فَمَنَعَتْهُ الْحَدِيثَ !.

مَأْسَاةُ فِلِسْطِينَ

انْتَقَلَ إِلَى رَحْمَةِ اللَّهِ مُحَرَّمٌ فِي يُونْيَةَ ١٩٤٥م قَبْلَ أَنْ تَظْهَرَ كَارِثَةُ التَّقْسِيمِ، وَتُصْبِحَ إِسْرَائِيلُ حَقِيقَةً وَاقِعَةً، وَلَوْ رَأَى هَذَا الْهَوْلَ الْهَائِلَ وَهُوَ فِي شُعُورِهِ الْمُتَّقِدِ، وَحَمَاسِهِ الْمُشْتَعِلِ، لَأَرْسَلَ الزَّفَرَاتِ الْكَاوِيَةَ قَصِيدًا يَهُزُّ الْقُلُوبَ هَزًّا، وَيَرُجُّ الْأَرْوَاحَ رَجًّا؛ لِأَنَّهُ الشَّاعِرُ الْأَوْحَدُ فِي مِصْرَ الَّذِي اشْتَعَلَ حَمِيَّةً وَغَضَبًا مُنْذُ إِعْلَانِ وَعْدِ «بِلْفُورَ» سَنَةَ ١٩١٧م، وَقَدْ وَالَى صَرَخَاتِهِ الْعَالِيَةَ مُحَذِّرًا مِنْ وُقُوعِ الْكَارِثَةِ قَبْلَ أَنْ تَحْدُثَ بِأَكْثَرَ مِنْ عِشْرِينَ عَامًا، وَأَذْكُرُ بِهَذِهِ الْمُنَاسَبَةِ أَنَّ شَاعِرَ فِلِسْطِينَ الشَّابَّ الْبَاسِلَ الْأُسْتَاذَ إِبْرَاهِيمَ طُوقَانَ - رَحِمَهُ اللَّهُ - كَانَ قَدْ أَخَذَ عَلَى شَوْقِيٍّ وَحَافِظٍ وَمُطْرَانَ قِلَّةَ الْتِفَاتِهِمْ إِلَى مَأْسَاةِ فِلِسْطِينَ، حِينَ قَامَتِ الثَّوْرَةُ فِي الْعِشْرِينِيَّاتِ، فَأَرْسَلَ عِدَّةَ قَصَائِدَ تَلُومُ هَؤُلَاءِ الثَّلَاثَةَ الْكِبَارَ عَلَى سُكُوتِهِمْ، وَفِي إِحْدَى هَذِهِ الْقَصَائِدِ يَعْجَبُ كَيْفَ يَنْظِمُ شَوْقِيٌّ قَصِيدَةً فِي وَصْفِ رُومَا، وَيَكْتُبُ حَافِظٌ عَنْ غَادَةِ الْيَابَانِ، وَيَنْظِمُ مُطْرَانُ مَلْحَمَةً فِي «نَيْرُونْ» ثُمَّ يَسْكُتُ الثَّلَاثَةُ الْكِبَارُ عَنْ مَأْسَاةِ فِلِسْطِينَ، يَقُولُ شَاعِرُ فِلِسْطِينَ الْأُسْتَاذُ إِبْرَاهِيمُ طُوقَانُ(١):

(١) نقلًا عن مقال رائع كتبه الأستاذ أكرم زعيتر بمجلة العربي «ديسمبر سنة ١٩٨٠م».

جِئْتُكُمْ عَاتِبًا، بَلَابِلَ مِصْرٍ، بُلْبُلُ الرَّوْضِ عُتْبُهُ أَلْحَانُ
رَفْرَفَ الشِّعْرُ فَوْقَكُمْ بِجَنَاحَيْـــ(م) ـــهِ وَفِي سَاحِكُمْ غَذَاهُ الْبَيَانُ
وَتَسَامَىٰ صَرْحُ الْعُرُوبَةِ فِي مِصْـــ(م) ـــرَ وَهَلْ غَيْرُكُمْ لَهُ أَرْكَانُ؟!
كَمْ بِلَادٍ تَهُزُّكُمْ لَيْسَ فِيهَا لَكُمْ جِيرَةٌ وَلَا إِخْوَانُ
خَطْبُنَا لَا يَهُزُّ «شَوْقِي»، وَلَكِنْ جَاءَ «رُومَا» فَهَزَّهُ الرُّومَانُ
خَطْبُنَا لَا يَهُزُّ حَافِظَ إِبْرَا(م) هِيمَ، لَكِنْ تَهُزُّهُ الْيَابَانُ
مَا لِمُطْرَانَ يَا فِلِسْطِينُ شَأْنٌ بِكِ لَكِنْ لَهُ «بِنَيْرُونَ» شَانُ
سَيَقُولُونَ قُدِّسَتْ هَذِهِ الْأَ(م) رْضُ فَمَا إِنْ لَنَا بِهَا شَيْطَانُ
بَلْ فِلِسْطِينُ بِالشَّيَاطِينِ مَلْأَىٰ ضَجَّتِ الْإِنْسُ مِنْهُمُ وَالْجَانُ
إِنْ بَلَوْتُمْ مِنْهُمْ فَرِيقًا فَإِنَّا قَدْ رَمَانَا بِاثْنَيْنِ هَذَا الزَّمَانُ

وَنَقْدُ طُوقَانَ لَهُ وِجْهَتُهُ الصَّائِبَةُ، وَكَانَ عَلَيْهِ أَنْ يَمُدَّ الْقَوْلَ فَيَذْكُرَ مِنْ شُعَرَاءِ مِصْرَ مَنْ أَشْعَلَتْهُمْ كَارِثَةُ فِلِسْطِينَ، فَنَظَمُوا أَحَرَّ الْقَصَائِدِ لَوْعَةً، وَأَذْكَاهَا حَمِيَّةً، وَفِي طَلِيعَتِهِمُ الشَّاعِرُ الْكَبِيرُ أَحْمَدُ مُحَرَّم حَيْثُ كَانَتْ ثَوْرَةُ الْأَبْطَالِ، وَدِمَاءُ الشُّهَدَاءِ فِي هَذِهِ الرُّبُوعِ الْمُبَارَكَةِ مِنْ مَصَادِرِ وَحْيِهِ، وَمِنْ دَوَاعِي اهْتِمَامِهِ، فَظَهَرَتْ قَصَائِدُهُ الرَّنَّانَةُ فِي جَرَائِدِ الْأَهْرَامِ وَالْبَلَاغِ وَالصِّدْقِ، وَفِي مَجَلَّةِ الْفَتْحِ بِالذَّاتِ، حَيْثُ كَانَتْ تَنْقُلُ مِنَ الصُّحُفِ الْيَوْمِيَّةِ بَعْضَ مَا سَجَّلَهُ مُحَرَّمٌ، فِي هَذَا الْمَجَالِ، وَمُحَرَّمٌ شَاعِرٌ لَا يَقِلُّ عَنْ حَافِظِ إِبْرَاهِيمَ بِكُلِّ الْمَقَايِيسِ، وَهُوَ يُزَاحِمُ شَوْقِيًّا وَمُطْرَانَ مُزَاحَمَةَ النَّظِيرِ لِلنَّظِيرِ، فَقَصَائِدُهُ الْفِلِسْطِينِيَّةُ الْمُتَكَرِّرَةُ كَانَتْ مِنَ الْقُوَّةِ وَالِاحْتِفَاءِ بِحَيْثُ لَا يَغْفَلُ عَنْهَا شَاعِرُ

فِلِسْطِينَ النَّاقِدُ ! وَمَنْ يَدْرِي لَعَلَّهُ قَرَأَهَا مَرَّاتٍ ، وَتَحَدَّثَ عَنْهَا فِي مَقَالٍ لَمْ أَطَّلِعْ عَلَيْهِ ، فَطُوقَانُ قَارِئٌ دَءُوبٌ ! وَأُتَابِعُ فِي هَذَا الْبَابِ بَعْضَ مَا قَالَهُ الشَّاعِرُ الْكَبِيرُ .

فَفِي سَنَةِ ١٩٣٣م ظَهَرَ بِوُضُوحٍ انْدِفَاعُ السِّيَاسَةِ الْبِرِيطَانِيَّةِ فِي تَهْوِيدِ الْأَرَاضِي الْفِلِسْطِينِيَّةِ ، وَبَانَ كَذِبُ الِادِّعَاءِ الْإِنْكِلِيزِيِّ الْمُتَظَاهِرِ بِالْحِيَادِ قَوْلًا لَا عَمَلًا ، فَقَامَتْ أَعْظَمُ مُظَاهَرَةٍ احْتِجَاجِيَّةٍ ، نَظَمَتْهَا اللَّجْنَةُ التَّنْفِيذِيَّةُ الْعَرَبِيَّةُ لِإِعْلَانِ الْغَضَبِ الْهَائِجِ عَلَى التَّحَيُّزِ الْإِنْكِلِيزِيِّ الْمَقِيتِ ، وَقَدْ رَأَى الْقَائِمُونَ عَلَى الْمُظَاهَرَةِ مِنْ رِجَالِ النِّضَالِ السِّيَاسِيِّ أَنْ تَكُونَ الْمُظَاهَرَةُ سِلْمِيَّةً ، لَا تَجْنَحُ لِلْعُنْفِ ، وَكَانَ الْمُنْتَظَرُ بَعْدَ إِعْلَانِ ذَلِكَ أَنْ يَتْرُكَ الْإِنْكِلِيزُ لِهَؤُلَاءِ الْمُعْتَدَى عَلَى حُقُوقِهِمْ أَنْ يُعْلِنُوا رَأْيَهُمْ لِلْعَالَمِ أَجْمَعَ فِي احْتِشَادٍ حَافِلٍ بَعْدَ صَلَاةِ الْجُمُعَةِ بِالْقُدْسِ الشَّرِيفِ ، وَلَكِنَّ نِيَّةَ الْغَدْرِ الظَّاهِرَةَ دَفَعَتِ السُّلُطَاتِ إِلَى إِذَاعَةِ بَلَاغٍ رَسْمِيٍّ تُحَذِّرُ فِيهِ الْفِلِسْطِينِيِّينَ مِنَ الْقِيَامِ بِأَيِّ تَظَاهُرٍ ، وَتُنْذِرُ الْمُتَظَاهِرِينَ بِالْمُقَاوَمَةِ الْبَاطِشَةِ دُونَ احْتِرَازٍ ، وَلَمْ تَعْبَأِ اللَّجْنَةُ التَّنْفِيذِيَّةُ بِبَلَاغِ السُّلْطَةِ وَقَامَتِ الْمُظَاهَرَةُ فِي مِيعَادِهَا الْمُحَدَّدِ ، وَهَاجَ ذَلِكَ التَّغَطْرُسَ الْإِنْكِلِيزِيَّ ، فَفُوجِئَتِ الْمُظَاهَرَةُ بِرَصَاصِ الْإِنْكِلِيزِ يَنْهَالُ عَلَى الْمُتَظَاهِرِينَ ، وَقُتِلَ أَكْثَرُ مِنْ ثَلَاثِينَ شَهِيدًا ، وَجُرِحَ أَكْثَرُ مِنْ مِائَتَيْنِ ، وَاعْتُقِلَ كِبَارُ الْمَسْئُولِينَ مِنْ زُعَمَاءِ الْأُمَّةِ ، وَفِي مُقَدِّمَتِهِمُ الشَّيْخُ الْوَقُورُ كَاظِمُ بَاشَا الْحُسَيْنِيُّ ، وَكَانَتْ مَأْسَاةٌ هَاجَتْ لَهَا الْبِلَادُ الْعَرَبِيَّةُ ، وَانْفَجَرَتِ الصُّحُفُ الْمِصْرِيَّةُ تُنَدِّدُ بِهَذَا الْعُدْوَانِ الْأَلِيمِ ، وَكَانَ شَوْقِيٌّ وَحَافِظٌ قَدْ فَارَقَا الْحَيَاةَ فَلَا مَلَامَ إِذَا لَمْ يَسْتَطِيعَا الْقَوْلَ ، أَمَّا الْأُسْتَاذُ الْكَبِيرُ أَحْمَدُ مُحَرَّم فَقَدْ أَنْشَدَ مَلْحَمَةً(١) رَنَّانَةً قَدَّمَتْهَا

(١) الدّيوان ج «١» ص ٧٤٠ وَمَا بعدها .

جَرِيدَةُ الْبَلَاغِ الْمِصْرِيَّةُ بِقَوْلِهَا :

« هَذِهِ صَيْحَةٌ عَالِيَةٌ يُرْسِلُهَا الشِّعْرُ الْحَيُّ فِي مَمَالِكِ الشَّرْقِ وَشُعُوبِهِ رَحْمَةً بِفِلِسْطِينَ الْجَرِيحَةِ ، وَعِظَةً لَهَا وَلِغَيْرِهَا مِنْ هَذِهِ الْأَقْطَارِ الْوَالِهَةِ ، وَالْمَمَالِكِ الْحَزِينَةِ ، تَلَقَّاهَا الْبَلَاغُ مِنْ نَاظِمِهَا الْأُسْتَاذِ أَحْمَدَ مُحَرَّم شَاعِرِ الْوَطَنِيَّةِ الْمِصْرِيَّةِ ، وَالْجَامِعَةِ الشَّرْقِيَّةِ ، وَنَحْنُ نُذِيعُهَا كَعُنْصُرٍ قَوِيٍّ مِنْ عَنَاصِرِ الْأَدَبِ وَالتَّارِيخِ وَالسِّيَاسَةِ » .

وَقَدْ بَدَأَ الشَّاعِرُ قَصِيدَتَهُ بِتَصْوِيرِ الْمَأْسَاةِ ، وَأَثَرِهَا فِي الْعَالَمِ الْإِسْلَامِيِّ إِذْ :

فَزِعَ الْقُدْسُ وَضَجَّتْ مَكَّةٌ ... وَبَكَتْ يَثْرِبُ مِنْ فَرْطِ الْأَلَمِ

وَانْطَلَقَ يُعَدِّدُ بَلَاءَ الِاسْتِعْمَارِ الْبِرِيطَانِيِّ ، وَوَبَاءَ الِاسْتِيطَانِ الْيَهُودِيِّ ، وَأَثَرَهُمَا فِي إِزْهَاقِ الْعَدْلِ وَتَأْيِيدِ الظُّلْمِ ، ثُمَّ انْتَقَلَ إِلَى الْمَعْرَكَةِ الْحَامِيَةِ الَّتِي حَصَدَتْ أَرْوَاحَ الشُّهَدَاءِ عِنْدَ التَّظَاهُرِ السِّلْمِيِّ فَقَالَ[1]:

يَا فِلِسْطِينُ اصْطَلِيهَا نَكْبَةً ... هَاجَهَا لِلْقَوْمِ عَهْدٌ مُضْطَرِمْ
وَاشْرَبِي كَأْسَكِ مِمَّا عَصَرُوا ... مِنْ زُعَافٍ جَائِلٍ فِي كُلِّ فَمْ
فِي فُؤَادِي جُرْحُكِ الدَّامِي وَفِي ... كَبِدِي مَا فِيكِ مِنْ حُزْنٍ وَهَمْ
كَمْ صَرِيعٍ لَكِ فِي أَشْلَائِهِ ... مَصْرَعُ الْقُرْبَى وَأَشْلَاءُ الرَّحِمْ
شُهَدَاءُ الْحَقِّ مَاتُوا دُونَهُ ... وَهْوَ حَيُّ الْعِزِّ مَوْفُورُ الشَّمَمْ
هِمَمُ الْأَحْرَارِ تَحْمِي وَطَنًا ... عَرَبِيًّا سِيمَ خَسْفًا وَظُلِمْ

(١) الدِّيوَان ج «١» ص ٧٤٠ وَمَا بعدهَا .

بَاعَهُ ذِئْبٌ لِذِئْبٍ غِيلَةً   فَهْوَ لِلذِّئْبَيْنِ نَهْبٌ مُقْتَسَمْ
تُنْزَعُ الْأَرْزَاقُ مِنْ أَبْنَائِهِ   وَتُغَلُّ الْأَرْضُ مِنْ فَرْطِ النَّهَمْ
يُرْهَقُ الْقَوْمُ فَإِنْ هُمْ غَضِبُوا   رَاحَتِ الْأَرْوَاحُ مِنْهُمْ تُخْتَرَمْ
أَخَذَتْهُمْ لِلْأَذَىٰ عَاصِفَةٌ   هَاجَهَا الْبَغْيُ فَهَبَّتْ مِنْ أَمَمْ
عَصَفَتْ ظَمْأَىٰ إِلَىٰ آجَالِهِمْ   فَتَرَوَّتْ مِنْ شَبَابٍ وَهِرَمْ
وَأَرَاهَا مِنْ تَلَظِّي جَوْفِهَا   تَتَدَاعَىٰ كَالشُّوَاظِ الْمُحْتَدِمْ

ثُمَّ تَحَدَّثَ عَنِ الشُّعُورِ الْمِصْرِيِّ فِي هَذِهِ الْمِحْنَةِ، فَقَالَ بَعْدَ أَبْيَاتٍ رَائِعَةٍ:

مِصْرُ، نَاجِي مِنْ فِلِسْطِينَ الرُّبَىٰ   وَابْعَثِي صَوْتَكِ مِنْ أَعْلَىٰ الْهَرَمْ
وَإِذَا أَعْوَزَ هَمٌّ أَوْ أَسًى   فَاسْتَمِدِّي الْهَمَّ مِنْ ذَاكَ الْقَلَمْ
نَبْغِيهَا أَنَّنَا مِنْ وَجْدِهَا   نَجِدُ الْعَلْقَمَ فِي الْعَذْبِ الشَّبِمْ
نَشْتَكِي اللَّيْلَ وَيَرْمِينَا الْأَسَىٰ   إِنْ مَضَىٰ اللَّيْلُ بِصُبْحٍ مُدْلَهِمْ
فَكَأَنَّا مِنْهُمَا فِي مُلْتَقَىٰ   نَكْبَةٍ تَطْغَىٰ، وَأُخْرَىٰ تَسْتَجِمْ
أُخْتُكِ الْوَلْهَىٰ عَنَاهَا شَجْوُهَا   وَدَهَا أَبْنَاءَهَا الْخَطْبُ الْمُلِمْ
فَزَعَتْ تَدْعُوكِ فِي مِحْنَتِهَا   مِصْرُ، جَلَّ الْخَطْبُ هُبِّي، لَا جَرَمْ
رَبِّ أَنْتَ الْعَوْنُ إِنْ طَافَ بِنَا   طَائِفُ الْبَغْيِ، وَأَنْتَ الْمُنْتَقِمْ
مَنْ يُجِيرُ الْقَوْمَ إِنْ صَبَّحَهُمْ   خَطْبُ عَادٍ وَثَمُودٍ فِي الْقِدَمْ
لَا يَغُرَّنَّ قَوِيًّا جُنْدُهُ   قُوَّةٌ صَرْعَىٰ، وَجُنْدٌ مُنْهَزِمْ

وَمُنْذُ دَوَّتْ أَنْبَاءُ هَذِهِ الْمُظَاهَرَةِ الدَّامِيَةِ، تَوَالَتِ اجْتِمَاعَاتُ الْأَحْرَارِ مِنَ الْمِصْرِيِّينَ، فِي جَمْعِيَّاتِ الشُّبَّانِ الْمُسْلِمِينَ، وَقَامَتِ الْمُظَاهَرَاتُ فِي عَوَاصِمِ الدَّوْلَةِ؛ بَدَأَهَا طُلَّابُ الْأَزْهَرِ فِي حَمِيَّةٍ مُشْتَعِلَةٍ، وَأَدَعُ الْمَجَالَ لِلْأُسْتَاذِ الْكَبِيرِ أَكْرَم زُعَيْتِر الْوَزِيرِ الْأُرْدُنِّيِّ السَّابِقِ حَيْثُ قَالَ[1]:

«كَانَتْ غَضْبَةُ الْأَزْهَرِ عَارِمَةً، فَأَضْرَبَ الْأَزْهَرِيُّونَ عَنِ الدَّرْسِ، وَانْطَلَقُوا فِي مُظَاهَرَةٍ صَاخِبَةٍ نَحْوَ مَكْتَبِ الْجَامِعِ، لِيُطَالِبُوهُ بِمَوْقِفٍ حَازِمٍ، وَقَدِ اصْطَدَمُوا بِالْقُوَّاتِ الْمُسَلَّحَةِ الَّتِي حَاوَلَتْ صَدَّهُمْ فَمَا أَفْلَحَتْ، وَتَأَلَّفَتْ مِنْ مُمَثِّلِيهِمْ لَجْنَةٌ لِمُتَابَعَةِ نُصْرَةِ فِلِسْطِينَ، كَمَا تَأَلَّفَتِ اللَّجْنَةُ الْمِصْرِيَّةُ الْعُلْيَا لِمُسَاعَدَةِ ضَحَايَا فِلِسْطِينَ، وَأَبْرَقَ الشَّيْخُ مُحَمَّدٌ مُصْطَفَى الْمَرَاغِيُّ رَئِيسُ جَمَاعَةِ الدِّفَاعِ عَنِ الْإِسْلَامِ، بِبَرْقِيَّةٍ مُهِمَّةٍ تَحَدَّثَ فِيهَا عَنْ الِارْتِيَاعِ الَّذِي عَمَّ مِصْرَ، لِأَخْبَارِ الْفَوَاجِعِ الَّتِي فُجِعَتْ بِهَا فِلِسْطِينُ، بِسَبَبِ مَوْقِفِهَا فِي الدِّفَاعِ عَنْ أَعَزِّ شَيْءٍ لَدَيْهَا، وَهُوَ الْوَطَنُ وَالْمُقَدَّسَاتُ، يَقُولُ الْمَرَاغِيُّ: «وَقَدْ حَزَّ فِي نُفُوسِنَا أَنْ يُسَلَّطَ الْأَقْوِيَاءُ عَلَيْكُمْ، وَأَنْتُمْ فِي مَوْقِفِ الدِّفَاعِ عَنْ حَقِّكُمْ، وَإِنَّنَا لَنَخْشَى كَمَا تَخْشَوْنَ أَنْ تَكُونَ النَّتِيجَةُ الْقَرِيبَةُ وَالْبَعِيدَةُ لِسَيْلِ هِجْرَةِ الْيَهُودِ إِلَى الْبِلَادِ الْمُقَدَّسَةِ تَحْوِيلَ هَذِهِ الْبِلَادِ الْعَرَبِيَّةِ الْإِسْلَامِيَّةِ إِلَى بِلَادٍ يَهُودِيَّةٍ، لَا يُذْكَرُ فِيهَا الْإِسْلَامُ، وَلَا نَشُكُّ لَحْظَةً وَاحِدَةً فِي أَنَّ هَذَا الَّذِي نَشْعُرُ بِهِ مِنَ الْأَلَمِ وَالْحُزْنِ يَشْعُرُ بِهِ جَمِيعُ الْمُسْلِمِينَ فِي سَائِرِ الْأَقْطَارِ الْإِسْلَامِيَّةِ، وَيَشْعُرُ بِهِ الْعَرَبُ جَمِيعُهُمْ سَوَاءٌ أَكَانُوا مُسْلِمِينَ أَمْ مَسِيحِيِّينَ، وَاللَّهُ تَعَالَى هُوَ الْمَسْئُولُ أَنْ يُضَمِّدَ جِرَاحَكُمْ، وَيُجَمِّلَ عَزَاءَكُمْ، وَيَجْعَلَ مَا تَبْلُغُونَهُ مِنَ الْأَمَانِي بِهَذَا الدِّفَاعِ

(١) مجلة العربي «ديسمبر سنة ١٩٨٠م ص ٤٣٣.

الْمَجِيدِ شِفَاءٌ لِآلَامِكُمْ » .

هَذِهِ الْمَعَانِي الَّتِي كَتَبَهَا الْأُسْتَاذُ الْأَكْبَرُ الشَّيْخُ مُحَمَّدٌ مُصْطَفَىٰ الْمَرَاغِيُّ كَانَتْ تُرْجُمَانًا لِعَوَاطِفِ الشَّعْبِ الْمِصْرِيِّ جَمِيعِهِ ، وَقَدْ أَقَامَتْ جَمْعِيَّةُ الشُّبَّانِ الْمُسْلِمِينَ حَفْلَةً كُبْرَىٰ تَدْعُو إِلَىٰ مُؤَازَرَةِ الشَّعْبِ الْفِلِسْطِينِيِّ الشَّقِيقِ ، وَقَدْ خَطَبَ فِيهَا عِلْيَةُ الْقَوْمِ مِنَ الْعُلَمَاءِ وَالرُّؤَسَاءِ وَافْتَتَحَهَا الدُّكْتُورُ عَبْدُ الْحَمِيدِ سَعِيدُ بِكَلِمَةٍ ضَافِيَةٍ ، وَكَانَ شَاعِرَ الِاحْتِفَالِ الْأُسْتَاذُ الْكَبِيرُ أَحْمَدُ مُحَرَّم ، حَيْثُ أَلْقَىٰ قَصِيدَةً اسْتُعِيدَتْ أَبْيَاتُهَا مِرَارًا ، وَنَشَرَتْهَا الصُّحُفُ الْمِصْرِيَّةُ لِلْيَوْمِ التَّالِي ، وَمِنْ أَبْيَاتِهَا[1] :

تِلْكَ الْقَضِيَّةُ ، هَلْ لَهَا مِيعَادُ ... شَرْطُ الْقَضِيَّةِ أَنْ يَطُولَ جِهَادُ
هَلْ دَانَ لِلْهِمَمِ الرَّوَاكِدِ مَطْلَبٌ ... أَمْ صَحَّ لِلْأُمَمِ الضِّعَافِ مُرَادُ ؟
لَا تَحْسَبَنَّ الْحَقَّ صَيْحَةَ عَاجِزٍ ... الْحَقُّ عَزْمٌ صَادِقٌ وَجِلَادُ
صُونِي فِلِسْطِينُ الذِّمَارَ وَجَاهِدِي ... مَا لِلْحَيَاةِ سِوَىٰ الْجِهَادِ عِمَادُ
طَغَتِ الْخُطُوبُ عَلَيْكِ لَا مُتَوَقِّدٌ ... يَخْبُو ، وَلَا مُتَمَرِّدٌ يَنْقَادُ
فِي نُصْرَةِ الْآجَامِ يُحْتَمَلُ الْأَذَىٰ ... وَلَهَا تَجُوعُ وَتَشْبَعُ الْآسَادُ
عَرَبٌ إِذَا غَضِبُوا لِأَمْرٍ طَارِقٍ ... غَضِبَتْ عَلَىٰ بِيضِ الظُّبَى الْأَغْمَادُ
وَجَرَىٰ الدَّمُ الْمَسْفُوحُ يَشْهَدُ أَنَّهُمْ ... سُئِلُوا الْجَزِيلَ مِنَ الْفِدَاءِ فَجَادُوا
اللَّهُ أَكْبَرُ يَا خَلَائِفَ يَعْرُبٍ ... أَتَضِيعُ أَوْطَانٌ لَكُمْ وَبِلَادُ ؟!
تِلْكَ الذَّخَائِرُ يَأْنَفُ الْإِسْلَامُ أَنْ ... تُؤْذَىٰ كَرَائِمُهَا وَتَأْبَىٰ الضَّادُ

---

(١) الديوان ج ١٥، ص ٧٩٩.

أَبَنِي الْعُرُوبَةِ مَا سَهِرْتُمْ وَحْدَكُمْ   مِصْرُ الشَّقِيقَةُ لَوْعَةٌ وَسُهَادُ
إِنْ سَاءَكُمْ أَلَّا تَزَالَ هُمُومُكُمْ   تَتْرَىٰ، فَتِلْكَ هُمُومُنَا تَزْدَادُ
لَيْتَ الْأُلَىٰ نَصَبُوا الْمَصَائِدَ جَمَّةً   سَأَلُوا عَنِ الْعَنْقَاءِ، كَيْفَ تُصَادُ ؟
يَا قَوْمِ، تِلْكَ شَرِيعَةٌ، مَا سَنَّهَا   مِنْ قَبْلُ، ذَبَّاحٌ وَلَا جَلَّادُ
لَا تُنْكِرُوا الدَّمَ فِي الْمَصَارِعِ يَلْتَقِي   إِنَّ الرِّجَالَ بِمِثْلِ ذَلِكَ سَادُوا

وَطَالَتِ الْحَرْبُ فِي رُبُوعِ فِلِسْطِينَ، وَقَدَّمَ أَبْطَالُهَا الشُّهَدَاءُ مِنْ ضُرُوبِ الِاسْتِبْسَالِ مَا أَرَّقَ الْعَدُوَّ وَأَمَضَّهُ؛ لِأَنَّ الْعَرَبَ فِي فِلِسْطِينَ لَمْ يَكُونُوا يُحَارِبُونَ عَدُوًّا وَاحِدًا، بَلْ كَانُوا يُحَارِبُونَ عَدُوَّيْنِ لَئِيمَيْنِ، هُوَ الِاسْتِعْمَارُ الْإِنْكِلِيزِيُّ، وَالِاحْتِلَالُ الصُّهْيُونِيُّ، وَقَدِ اسْتَطَاعَ الْيَهُودُ بِمُسَاعَدَةِ الْمُحْتَلِّ الْإِنْكِلِيزِيِّ أَنْ يَنْتَزِعُوا الْأَرْضَ مِنْ أَهْلِهَا، وَأَنْ يُقِيمُوا مُسْتَعْمَرَاتِهِمْ فِي أَهَمِّ الْبِقَاعِ الْخَصِيبَةِ، وَأَنْ يُسَيْطِرُوا عَلَىٰ الْمَوَانِئِ وَالْمُدُنِ وَالْمَصَانِعِ، كَمَا شَنُّوا غَارَاتٍ شَدِيدَةً عَلَىٰ الْقُرَىٰ وَالزُّرُوعِ، وَالْمُقَاوِمُونَ لَا يَمْلِكُونَ مِنَ الْأَسْلِحَةِ مَا لَدَىٰ هَؤُلَاءِ الْبُغَاةِ مِنْ أَفْتَكِ الذَّخَائِرِ، وَأَشَدِّهَا إِبَادَةً، وَلَكِنَّهُمْ بِالسِّلَاحِ الْبِدَائِيِّ قَدْ قَتَلُوا الْكَثِيرِينَ، وَوَاجَهُوا النَّارَ الْمُشْتَعِلَةَ دُونَ نُكُوصٍ، فَفَنِيَتْ أَرْوَاحٌ شَهِيدَةٌ، فَاضَتْ لِتَرْفَعَ إِلَىٰ السَّمَاءِ عُدْوَانَ الْآثِمِ، وَبَغْيَ الْجَاحِدِ اللَّئِيمِ، وَقَدْ سَاعَدَتِ انْكِلْتِرَا يَهُودَ أُورُبَّا عَلَىٰ الِاسْتِيطَانِ، وَمَهَّدَتْ لَهُمْ سُبُلَ الْإِقَامَةِ فِي دِيَارٍ أُجْبِرَ ذَوُوهَا عَلَىٰ الرَّحِيلِ تَحْتَ قَذَائِفِ الْمَوْتِ، وَفِي وَسَطِ دُخَانِ الْمَعَارِكِ، وَكَمْ مِنْ أَبْطَالٍ سَجَّلُوا تَارِيخَ الْعِزَّةِ بِدِمَائِهِمْ حِينَ قَادُوا الشَّبِيبَةَ فِي مَعَارِكَ غَيْرِ مُتَكَافِئَةٍ، وَمِنْهُمُ الْفِدَائِيُّونَ الَّذِينَ قَدِمُوا مِنْ دِيَارِ الْعَرَبِ حَمِيَّةً وَاسْتِبْسَالًا، وَحَمَلُوا مِنْ بِلَادِهِمْ مَا قَدَرُوا عَلَىٰ جَمْعِهِ مِنَ الْعَتَادِ، وَأَحَدُ

هَؤُلَاءِ الشَّهِيدُ الْبَارُّ مُحَمَّدٌ سَعِيدُ بْنُ الْعَاصِي أَحَدُ قُوَّادِ الثَّوْرَةِ مِنْ أَبْنَاءِ سُورِيَا الْبَوَاسِلِ ، حَيْثُ كَانَ يَقُومُ بِنَقْلِ السِّلَاحِ إِلَى الْمُجَاهِدِينَ فِي فِلِسْطِينَ مُتَسَتِّرًا بِلِبَاسِ اللَّيْلِ ، فَإِذَا ظَهَرَ الصَّبَاحُ اخْتَبَأَ فِي الْأَغْوَارِ كَيْلَا تَقَعَ عَلَيْهِ مَدَافِعُ الِاحْتِلَالِ ، وَقَدِ اسْتُشْهِدَ فِي مَعْرَكَةِ «الْخَلِيلِ» الَّتِي اسْتَمَرَّتْ ثَلَاثَ لَيَالٍ رَهِيبَةٍ بَيْنَ سِتِّينَ مِنَ الْمُجَاهِدِينَ الْأَبْطَالِ ، وَبَيْنَ أَلْفَيْ جُنْدِيٍّ بِرِيطَانِيٍّ بِأَسْلِحَتِهِمْ وَدَبَّابَاتِهِمْ وَطَائِرَاتِهِمْ !! وَكَانَ لِاسْتِشْهَادِ الْبَطَلِ الْمِغْوَارِ رَنَّةُ أَسًى فِي دُوَلِ الْعُرُوبَةِ ، فَقَامَتْ حَفَلَاتُ التَّأْبِينِ لَهُ فِي مِصْرَ وَسُورِيَا ، وَكَانَ شَاعِرُ مِصْرَ الْأُسْتَاذُ أَحْمَدُ مُحَرَّم مِنْ أَوَائِلِ مَنْ بَكَوْا عَلَيْهِ فِي شِعْرٍ حَارٍّ مُؤَثِّرٍ ، حَيْثُ صَوَّرَ مَعْرَكَةَ الْخَلِيلِ تَصْوِيرًا يُبْرِزُ شَجَاعَةَ الْقِلَّةِ الضَّئِيلَةِ الصَّابِرَةِ ، أَمَامَ الْكَثْرَةِ الْكَاثِرَةِ الْفَاجِرَةِ ، وَمِمَّا قَالَهُ فِي تَأْبِينِ الشَّهِيدِ[1]:

إِيهِ يَا ابْنَ الْعَاصِ أَشْبَهْتَ الْأُلَى ... زَلْزَلُوا الدُّنْيَا وَهَزُّوا الْأُمَمَا
يَا لَهَا مِنْ شِيَمٍ بَدْرِيَّةٍ ... مَا ارْتَضَى اللَّهُ سِوَاهَا شِيَمَا
لَيْسَ بِالْحَيِّ ، وَإِنْ طَالَ الْمَدَى ... مَنْ يَخَافُ الْمَوْتَ فِيمَا اعْتَزَمَا
بَعَثُوا الْأَلْفَيْنِ فِي نِيرَانِهِمْ ... ضَرَمًا لِلْبَغْيِ يُزْجِي ضَرَمَا
يَأْخُذُ السِّتِّينَ[2] فِي أَنْقَابِهَا ... وَهْيَ مَا تَنْفَكُّ تَمْضِي قُدُمَا
أَرَأَيْتَ الرُّقْشَ فِي أَوْكَارِهَا ... يَتْبَعُ الْأَرْقَمُ مِنْهَا الْأَرْقَمَا
يَا لِقَوْمِي أَغْرَقَتْهُمْ دِيَمٌ ... لِلْمَنَايَا الْحُمْرِ تَحْدُو دِيَمَا
جَاشَ مِنْ كُلِّ النَّوَاحِي سَيْلُهَا ... فَطَغَى السَّيْلُ عَلَيْهَا وَطَمَا

(١) الديوان ج ٤، ص ٨٠٤.
(٢) الستون : عدد أفراد الكتيبة المجاهدة .

قِيلَ: يَا ابْنَ الْعَاصِ، دَعْهَا غَمْرَةً ضَجَّ فِيهَا الْهَوْلُ مِمَّا ازْدَحَمَا
إِنْ يَنَالُوا مِنْكَ مَا يُفْجِعُنَا فَتَحُوا الْفَتْحَ وَنَالُوا الْمَغْنَمَا
ذَاكَ غُولُ الْحَتْفِ يَدْنُو أَفَلَا تَنْظُرُ الْمِخْلَبَ مِنْهُ وَالْفَمَا؟
قَالَ: كَلَّا لَسْتُ مِمَّنْ يَتَّقِي عَاصِفَ الْمَوْتِ إِذَا الْمَوْتُ ارْتَمَىٰ
أَيَقُولُ النَّاسُ: مَنَّاعُ الْحِمَىٰ ضَنَّ بِالنَّفْسِ عَلَيْهِ فَاحْتَمَىٰ؟!!
مَرْحَبًا بِالْمَوْتِ يَغْشَاهُ الْفَتَىٰ فَيَرَاهُ لِلْمَعَالِي سُلَّمَا
وَطَنِي الْأَكْرَمُ أَوْلَىٰ بِدَمِي فَاذْكُرُوا مَنْ مَاتَ حُرًّا مُكْرَمَا
اذْكُرُوهُ عَرَبِيًّا مَاجِدًا نَابِهَ الذِّكْرِ، كَرِيمَ الْمُنْتَمَىٰ
تِلْكَ ذِكْرَىٰ الْمَجْدِ فِي مَوْسِمِهِ فَاذْكُرُوهُ، وَأَقِيمُوا الْمَوْسِمَا

وَالْأَسَىٰ يَبْعَثُ الْأَسَىٰ، فَمَا كَانَ دَمُ الشَّهِيدِ مُحَمَّدٍ سَعِيدٍ الْعَاصِيِّ يَجِفُّ، حَتَّىٰ اسْتَقْبَلَتِ الْفِرْدَوْسُ شَهِيدًا آخَرَ، لَمْ يَكُنْ شَابًّا يَتَدَفَّقُ دَمُ الْحَمِيَّةِ فِي عُرُوقِهِ، فَتَدْفَعُهُ عَرَاقَةُ الْقُوَّةِ إِلَىٰ الْمَيْدَانِ وَلَكِنَّهُ كَانَ شَيْخًا فَوْقَ الثَّمَانِينَ، رَأَىٰ أَنْ يَحْمِلَ الرَّايَةَ عَلَىٰ وَهَنِ الشَّيْخُوخَةِ، وَضَعْفِ الْمِنَّةِ، لِتَعْصِفَ الْحَمِيَّةُ بِالشَّبِيبَةِ مِنْ خَلْفِهِ حِينَ يَنْظُرُونَ شَيْخًا لَا تَكَادُ تَحْمِلُهُ قَدَمَاهُ يَتَقَدَّمُ إِلَىٰ الْمَيْدَانِ مُضَحِّيًا بِنَفْسِهِ، لِيَضْرِبَ الْمَثَلَ فِي الِاسْتِشْهَادِ، وَإِذَا لَمْ يَكُنْ لَهُ مِنْ قُوَّتِهِ الْجِسْمِيَّةِ مَا يُعِينُهُ عَلَىٰ الِاسْتِمْرَارِ فِي الْمَعْمَعَةِ، فَقَدْ كَانَ فِكْرُهُ الثَّاقِبُ يُدِيرُ الْمَعَارِكَ مُدَبِّرًا وَمُشِيرًا وَنَاصِحًا، ثُمَّ هَاجَ هَائِجُ الْغَيْرَةِ فِي نَفْسِهِ، فَحَمَلَ الْمِدْفَعَ، وَسَارَ مَعَ أَبْنَائِهِ لِلْمَيْدَانِ، وَكَأَنِّي بِهِ كَانَ يَرْتَقِبُ النِّهَايَةَ السَّعِيدَةَ مُسْتَبْشِرًا، فَأَحَبَّ أَنْ يُرْزَقَ أَجْرَ الشَّهَادَةِ، لِيَكُونَ دَمُهُ فِي

الْعَزَاءِ دَعْوَةٌ لِلثَّأْرِ مِصْدَاقًا لِقَوْلِ أَحْمَدَ شَوْقِي فِي شَبِيهِهِ عُمَرَ الْمُخْتَارِ[1]:

نَصَبُوا رُفَاتَكَ فِي الرِّمَالِ لِوَاءَ ... يَسْتَنْهِضُ الْوَادِي صَبَاحَ مَسَاءَ
يَا وَيْحَهُمْ نَصَبُوا مَنَارًا مِنْ دَمٍ ... يُوحِي إِلَىٰ جِيلِ الْغَدِ الْبَغْضَاءَ
جُرْحٌ يَسِيلُ عَلَى الْمَدَىٰ وَضَحِيَّةٌ ... تَتَلَمَّسُ الْحُرِّيَّةَ الْحَمْرَاءَ
مَا ضَرَّ لَوْ جَعَلُوا الْعَلَاقَةَ فِي غَدٍ ... بَيْنَ الشُّعُوبِ مَوَدَّةً وَإِخَاءَ

أَمَّا هَذَا الْمُجَاهِدُ الْفِلِسْطِينِيُّ الشَّهِيدُ فَهُوَ الشَّيْخُ مُحَمَّدٌ فَرْحَانُ، وَقَدْ أُقِيمَتْ حَفْلَةٌ كُبْرَىٰ لِتَأْبِينِهِ بِدَارِ الشُّبَّانِ الْمُسْلِمِينَ بِالْقَاهِرَةِ كَانَ شَاعِرَهَا الْأُسْتَاذُ أَحْمَدُ مُحَرَّم، فَأَلْقَىٰ قَصِيدَةً بَاكِيَةً قَالَ فِيهَا[2]:

شَيْخٌ مِنَ النَّفَرِ الْأُبَاةِ مِرَاسُهُ ... مُرٌّ، وَمَطْعَمُهُ أَمَرُّ وَأَوْخَمُ
حَمَلَ الثَّمَانِينَ الثِّقَالَ إِلَى الْوَغَىٰ ... وَانْسَابَ فِي غَمَرَاتِهَا يَتَضَرَّمُ
شَابَتْ ذَوَائِبُهُ وَفِي عِرْنِينِهِ ... شَمَمُ الْعُرُوبَةِ مَا يَشِيبُ وَيَهْرَمُ
قَتَلُوهُ مَتَاعَ الذِّمَارِ مُؤَمَّلًا ... لِلْحَقِّ يُسْلَبُ، وَالْعَشِيرَةِ تُظْلَمُ
فَرْحَانُ، مَا جَزَعَتْ لِفَقْدِكَ أُمَّةٌ ... أُمَمُ الْعُرُوبَةِ كُلُّهَا تَتَأَلَّمُ
فِي مِصْرَ مِنْكَ وَفِي الشَّآمِ صَوَاعِقٌ ... تُرْمَىٰ بِهَا دَارُ السَّلَامِ وَتُرْجَمُ
وَلَئِنْ هَفَتْ لِجَلِيلِ خَطْبِكَ يَثْرِبٌ ... فَبِمَا اقْشَعَرَّ لَهُ الْحَطِيمُ وَزَمْزَمُ
اللَّهُ أَكْرَمَ فِيكَ مِنْ أَنْصَارِهِ ... حُرًّا، يُجَلُّ الْحَقُّ فِيهِ وَيُكْرَمُ
نُوَبُ الزَّمَانِ كَثِيرَةٌ، وَأَشَدُّهَا ... وَطَنٌ يُطَاحُ بِهِ وَشَعْبٌ يُهْدَمُ

(١) الشوقيات ج «٣» ص ١٧.
(٢) الديوان ج «١» ص ٨٤٨.

شَهِدَتْ فِلِسْطِينُ الْبَلَاءَ فَزَادَهَا   صَبْرًا وَعَاوَدَهَا الْحِفَاظُ الْأَقْدَمُ
اللَّهُ طَهَّرَهَا، وَبَرَّأَ شَعْبَهَا   مِمَّا تُعَابُ بِهِ الْبِلَادُ وَتُوصَمُ
أَوْدَىٰ بِأَهْلِ التِّيهِ مِنْ أَوْهَامِهِ   تِيهٌ عَوَاقِبُهُ أَضَرُّ وَأَشْأَمُ
نَشَرَتْهُمُ الْأَقْدَارُ شَرًّا شَائِعًا   أَمْسَىٰ عَلَىٰ يَدِهِ يُضَمُّ وَيُنْظَمُ
كَالدَّاءِ مُنْتَشِرًا تَجَمَّعَ كُلُّهُ   فِي مَوْضِعٍ يُجْتَثُّ مِنْهُ وَيُحْسَمُ
إِنَّا لَنَمْنَعُ أَنْ تَكُونَ بِلَادُنَا   سَلَبًا لِكُلِّ مُشَاغِبٍ يَتَهَجَّمُ

ثُمَّ جَاءَ مَشْرُوعُ التَّقْسِيمِ، هَذَا الْمَشْرُوعُ الْإِنْكِلِيزِيُّ الْغَادِرُ الَّذِي اقْتَرَحَتْهُ لَجْنَةُ «اللُّورْدِ بِيلْ» فِي صِيَاغَةٍ خَادِعَةٍ إِذْ أَعْلَنَ كَاتِبُوهُ أَنَّهُ سَبِيلٌ مُعْتَدِلٌ لِلتَّوْفِيقِ بَيْنَ الْعَرَبِ وَالْيَهُودِ، وَغَالَطَتِ انْكِلْتِرَا نَفْسَهَا حِينَ ادَّعَتْ أَنَّ فِلِسْطِينَ لَمْ تَكُنْ دَاخِلَةً فِيمَا عَنَتْهُ بِالْبِلَادِ الْعَرَبِيَّةِ فِي الْحَرْبِ الْعَالَمِيَّةِ الْأُولَىٰ، إِذْ وَعَدَتْ هَذِهِ الْبِلَادَ بِالْحُرِّيَّةِ وَالِاسْتِقْلَالِ، وَقَدْ فَنَّدَ الْمَلِكُ عَبْدُ اللَّهِ هَذَا الزَّعْمَ الْوَقِحَ فَكَتَبَ مُذَكِّرَةً إِلَىٰ الْمَنْدُوبِ السَّامِيِّ فِي فِلِسْطِينَ يَذْكُرُ لَهُ النُّصُوصَ الصَّرِيحَةَ، وَالرَّسَائِلَ الْمُتَبَادَلَةَ بَيْنَ وَالِدِهِ وَالْخَارِجِيَّةِ الْإِنْكِلِيزِيَّةِ، وَكُلُّهَا تَنْطِقُ بِحَقِّ فِلِسْطِينَ، وَتُؤَكِّدُ أَنَّهَا كَانَتْ فِي صَمِيمِ الدُّوَلِ الْعَرَبِيَّةِ، عَلَىٰ أَنَّ الْمَسْأَلَةَ لَمْ تَكُنْ رَسَائِلَ وَنُصُوصًا، فَالْوَاقِعُ الَّذِي يَعْرِفُهُ الْعَالَمُ جَمِيعُهُ شَرْقِيُّهُ وَغَرْبِيُّهُ أَنَّ فِلِسْطِينَ عَرَبِيَّةٌ، وَأَنَّ أَهْلَهَا جَمِيعَهُمْ عَرَبٌ، وَلَمْ يَأْتِ الْوَافِدُ الْبَغِيضُ إِلَّا بَعْدَ أَنْ سَيْطَرَتِ انْكِلْتِرَا عَلَىٰ الْبِلَادِ وَفَتَحَتْ بَابَ الْهِجْرَةِ لِلْيَهُودِ! وَقَدْ كَانَ وَعْدُ «بِلْفُور» هُوَ النَّكْبَةَ الْأُولَىٰ الَّتِي فَتَحَتْ لِلدَّخِيلِ بَابَ الْأَمَلِ، وَهُوَ سِيَاسَةٌ اسْتِعْمَارِيَّةٌ لَمْ تَكُنِ انْكِلْتِرَا حِينَ صَدَرَ هَذَا الْوَعْدُ تُرِيدُ بِهِ مَصْلَحَةَ الْيَهُودِ فَقَطْ، بَلْ تُرِيدُ بِهِ إِضْعَافَ الْعَرَبِ وَتَشَتُّتَ كَلِمَتِهِمْ، وَذَهَابَ قُوَّتِهِمْ

قَبْلَ كُلِّ شَيْءٍ ، وَمَعْنَاهُ فِي صَمِيمِهِ الْوَاقِعِيِّ أَنْ يُشَرَّدَ الْعَرَبُ عَنْ بِلَادِهِمْ ! وَهَذَا مَا كَانَ مِنْ بَعْدُ ، وَلَقَدْ كَتَبَ السِّيَاسِيُّونَ كَثِيرًا فِي تَفْنِيدِ هَذَا الْبَاطِلِ الصَّرِيحِ ، وَامْتَلَأَتِ الصُّحُفُ الْعَرَبِيَّةُ بِالتَّنْدِيدِ بِهِ ، وَأَذْكُرُ مِمَّا قَالَهُ الْأُسْتَاذُ الْمَازِنِيُّ حِينَئِذٍ(1):

« تَجِيءُ بِرِيطَانْيَا فَتَقُولُ : دَعُونِي أُقَسِّمْ بَيْنَكُمَا الْبِلَادَ ، لِلْيَهُودِ شِطْرٌ ، وَلِلْعَرَبِ شِطْرٌ ، وَلِتَكُونُوا بَعْدَ ذَلِكَ إِخْوَانًا وَجِيرَانًا مُتَوَادِّينَ ، فَهِيَ تَأْخُذُ مِنِّي أَرْضِي وَتُعْطِيهَا لِأَجْنَبِيٍّ ثُمَّ تَقُولُ لِي : كُنْ أَخًا لَهُ ، وَبِأَيِّ حَقٍّ تُخَوِّلُ لِنَفْسِهَا أَنْ تَفْعَلَ ذَلِكَ ؟ لَا حَقَّ إِلَّا أَنَّهَا وَعَدَتِ الْيَهُودَ بِإِنْشَاءِ وَطَنٍ قَوْمِيٍّ لَهُمْ فِي فِلِسْطِينَ ، وَلَوْ أَنَّهَا كَانَتْ تُقْطِعُ الْيَهُودَ أَرْضًا مِنْ بِلَادِهَا لَمَا كَانَ لِأَحَدٍ وَجْهُ الِاعْتِرَاضِ عَلَى مَا تَصْنَعُ ، فَإِنَّ الْأَرْضَ أَرْضُهَا ، وَهِيَ حُرَّةٌ فِي أَنْ تَجُودَ بِهَا عَلَى مَنْ تَشَاءُ مِنْ خَلْقِ اللَّهِ ، وَلَكِنَّ الْبِلَادَ لَيْسَتْ بِلَادَهَا ، وَلَا تَزْعُمُ قَطُّ أَنَّهَا مُسْتَعْمَرَةٌ لَهَا ، وَإِنَّمَا هِيَ فِيهَا بِمَا سَمَّتْهُ « الِانْتِدَابَ » ، وَمَعْنَى الِانْتِدَابِ أَنَّ الْبِلَادَ أَمَانَةٌ فِي عُنُقِ الدَّوْلَةِ الَّتِي نَدَبَتْهَا عُصْبَةُ الْأُمَمِ لِإِصْلَاحِهَا وَتَرْقِيَتِهَا ، وَإِعْدَادِهَا لِحُكْمِ نَفْسِهَا ، وَلَمْ نَكُنْ نَعْرِفُ قَبْلَ الْيَوْمِ أَنَّ مِنْ مَعَانِي أَدَاءِ الْأَمَانَةِ تَضْيِيعَهَا وَالسَّخَاءَ بِهَا عَلَى غَيْرِ أَصْحَابِهَا » .

وَالتَّهَكُّمُ فِي أُسْلُوبِ الْأُسْتَاذِ إِبْرَاهِيمَ الْمَازِنِيِّ بَارِزٌ ؛ لِأَنَّهُ يَعْرِفُ مُؤَكَّدًا أَنَّ الْإِنْكِلِيزَ لَا أَمَانَةَ لَدَيْهِمْ ، حَتَّى يُطَالِبَهُمْ بِرِعَايَتِهَا ، وَأَنَّهُمْ مُغْتَصِبُونَ فَرَضُوا عَلَى عُصْبَةِ الْأُمَمِ أَنْ تُقِرَّ وُجُودَهُمْ فِي بِلَادٍ لَا صِلَةَ قَانُونِيَّةً لَهُمْ بِهَا ، وَإِنَّمَا أَرَادُوا اسْتِعْمَارَهَا ، ثُمَّ شَاءُوا أَنْ يَأْتُوا بِذِئْبٍ آخَرَ ، لِيَأْخُذَ نَصِيبَهُ مِنَ الْغَنِيمَةِ

(1) مجلة الرسالة - العدد ٢١٥ - ١٦/٨/١٩٣٧م .

الْمَسْرُوقَةِ عَلَنًا عَلَىٰ رُءُوسِ الشُّهَّادِ، وَهَذَا مَا ثَارَ لَهُ الْعَالَمُ الْعَرَبِيُّ، فَنَدَّدَ بِمَشْرُوعِ اللُّورْدِ «بِيل»، الْخَاصِّ بِهَذَا التَّقْسِيمِ الْجَائِرِ، وَتَعَالَتِ الْأَصْوَاتُ طَالِبَةً رَفْضَ الْوُجُودِ الصُّهْيُونِيِّ مِنْ أَسَاسِهِ، مُنْذُ قَامَ وَعْدُ «بِلْفُور» بِتَكْرِيسِهِ، وَهُنَا صَاحَ الْأُسْتَاذُ أَحْمَدُ مُحَرَّم صَيْحَتَهُ الرَّنَّانَةَ حِينَ نَظَمَ قَصِيدَةً تَحْتَ عُنْوَانِ «ذِكْرَىٰ وَعْدِ بِلْفُور» قَالَ فِيهَا[1]:

تِلْكَ الْعُرُوبَةُ جُرْحُهَا يَجْرِي دَمًا   مَنْ يَمْنَعُ الْإِسْلَامَ أَنْ يَتَأَلَّمَا؟
هَذَا تُرَاثُ مُحَمَّدٍ فِي قَوْمِهِ   أَمْسَىٰ بِأَيْدِي النَّاهِبِينَ مُقَسَّمَا
أَثَرُ السُّيُوفِ عَلَيْهِ، وَالدَّمُ حَوْلَهُ   حَرَّانُ يَصْرُخُ: أَيْنَ أَبْطَالُ الْحِمَىٰ؟

وَمُحَرَّمٌ بِهَذَا يَجْعَلُ الْقَضِيَّةَ إِسْلَامِيَّةً قَبْلَ أَنْ تَكُونَ عَرَبِيَّةً؛ لِأَنَّ فِلِسْطِينَ تُرَاثُ مُحَمَّدٍ ﷺ، وَمَوْطِنُ الْفَاتِحِينَ الْأَبْرَارِ الَّذِينَ عَنَاهُمْ بِقَوْلِهِ[2]:

أَيْنَ الْأُلَىٰ جَعَلُوا الْمَمَالِكَ حُرَّةً   تَقْضِي الْقَضَاءَ عَلَى الْقَيَاصِرِ مُبْرَمَا؟
تَتَلَفَّتُ الدُّنْيَا إِذَا رَفَعَتْ يَدًا   وَتَطِيرُ مِنْ فَزَعٍ إِذَا فَتَحَتْ فَمَا
دَارَ الزَّمَانُ فَعَاثَ فِي أَرْجَائِهَا   مَنْ كَانَ يَنْزِلُهَا فَيَمْشِي مُحْرِمَا

ثُمَّ يَتَأَوَّهُ الشَّاعِرُ تَأْوِيهَتَهُ الْحَارَّةَ فِي قَوْلِهِ[3]:

إِيهِ فِلِسْطِينُ اصْبِرِي أَوْ فَاجْزَعِي   وَكَفَىٰ بِصَبْرِكِ فِي الْحَوَادِثِ مَغْنَمَا
ظَلَمَ الْيَهُودُ بَنِيكِ حِينَ تَحَكَّمُوا   وَأَرَىٰ الْأُلَىٰ بَاعُوكِ كَانُوا أَظْلَمَا
يَا وَيْحَهُمْ أَفَمَا رَأَوْا مِنْ حَوْلِهِمْ   شَعْبًا أَعَزَّ مِنَ الْيَهُودِ وَأَكْرَمَا؟!!

---

(١) ديوان مُحرَّم ج «١» ص ٨٤٢.
(٢) السابق.
(٣) السابق.

شَوْكُ الشُّعُوبِ رَمَتْ بِهِ أَقْدَامَهَا   وَرَمَوْا بِهِ مِنَّا الْعُيُونَ النُّوَّمَا
نَظَرَتْ فَلَمْ تَرَ فِي مَنَازِلِ قَوْمِنَا   بِالْقُدْسِ إِلَّا مَصْرَعًا أَوْ مَأْتَمَا
أَثَرُ الْبُرَاقِ جَرَتْ عَلَيْهِ صَوَاعِقٌ   لِلْبَغْيِ مِنْ حُلَفَائِنَا فَتَضَرَّمَا
عَقَدُوا لَنَا الْعَهْدَ الْبَغِيضَ وَإِنَّهُمْ   لَأَضَرُّ مَنْ عَقَدَ الْعُهُودَ فَأَحْكَمَا
مَا الْعَهْدُ يُكْتَبُ لِلسَّلَامِ عَلَىٰ رِضًى   كَالْعَهْدِ يُكْتَبُ بِالسِّلَاحِ مُسَمَّمَا
تِلْكَ الدِّيَارُ الْمُشْرِفَاتُ لَوَانَّهَا   نَزَلَتْ مَنَازِلَهَا لَكَانَتْ أَنْجُمَا
مَا انْفَكَّ مَجْرَىٰ الْوَحْيِ فِي جَنَبَاتِهَا   يُلْقِي عَلَىٰ الدُّنْيَا الشُّعَاعَ الْأَقْدَمَا
إِيهِ شُعُوبَ الْمُسْلِمِينَ تَنَبَّهُوا   وَتَدَارَكُوا أَسْبَابَكُمْ أَنْ تُجْذَمَا
اللَّهَ فِي إِخْوَانِكُمْ وَبِلَادِكُمْ   أَوَ مَا تَرَوْنَ الْخَطْبَ كَيْفَ تَهَجَّمَا؟
لَا تَخْذُلُوهُمْ، وَالْمَلَائِكُ شُهَّدٌ   بِالْمَسْجِدَيْنِ، كَفَىٰ بِذَلِكَ مَأْثَمَا
إِنِّي وَفَيْتُ لَهُمْ، وَلَسْتُ بِمُسْلِمٍ   إِنْ خُنْتُ فِي دُنْيَايَ شَعْبًا مُسْلِمَا
أَتَبِيتُ أُولَىٰ الْقِبْلَتَيْنِ حَزِينَةً   وَأَبِيتُ وَسْنَانَ الْجُفُونِ مُنَعَّمَا؟!

وَقَدْ أُنْشِدَتْ هَذِهِ الْقَصِيدَةُ بِدَارِ جَمْعِيَّةِ الشُّبَّانِ الْمُسْلِمِينَ بِالْقَاهِرَةِ فِي ٣/١١/١٩٣٧م، وَتَنَاقَلَتْهَا أَكْثَرُ الصُّحُفِ وَالْمَجَلَّاتِ، حَيْثُ قَرَأْتُهَا فِي جَرَائِدَ عِدَّةٍ؛ لِأَنَّهَا عَبَّرَتْ عَنْ صَدًى رَنَّانٍ تَتَجَاوَبُ بِهِ الصُّدُورُ، وَكَوَّنَتْ رَأْيًا عَامًّا لَا فِي الْبِلَادِ الْعَرَبِيَّةِ وَحْدَهَا، بَلْ فِي الْبِلَادِ الْإِسْلَامِيَّةِ جَمِيعِهَا، وَنَبْضُ مُحَرِّمِ الْإِيمَانِيِّ يَجْمَعُ الْمَشَاعِرَ الْإِسْلَامِيَّةَ فِي كُلِّ مَوْطِنٍ إِسْلَامِيٍّ عَلَىٰ هَدَفٍ وَاضِحٍ صَرِيحٍ، وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَبِيهٌ فِي ذَلِكَ بَيْنَ شُعَرَاءِ عَصْرِهِ! وَلَوْ أَنَّ أَحْمَدَ شَوْقِيٍّ - رَحِمَهُ اللَّهُ - قَدِ امْتَدَّ بِهِ الْأَجَلُ حَتَّىٰ قَرَأَ مَشْرُوعَ

التَّقْسِيم ، لَكَانَ مَعَ مُحَرَّمٍ فِي صَيْحَتِهِ النَّارِيَّةِ وَلَزَادَهَا وَقُودًا وَاشْتِعَالًا ؛ لِأَنَّ تَأْثِيرَهُ الْقَوِيَّ فِي مِثْلِ هَذِهِ الْمَوَاقِفِ كَانَ جَمْرًا يَلْتَهِبُ !.

وَبَعْدَ أَنِ اتَّضَحَتِ النِّيَّاتُ الْغَادِرَةُ لِلْعَالَمِ الْإِسْلَامِيِّ جَمِيعِهِ ، تَنَادَىٰ أَبْنَاؤُهُ فِي شَتَّىٰ الْبِلَادِ الْإِسْلَامِيَّةِ إِلَىٰ عَقْدِ مَا سَمَّوْهُ « الْمُؤْتَمَرُ الْبَرْلَمَانِيُّ لِلْأُمَمِ الْإِسْلَامِيَّةِ » فِي أُكْتُوبَرَ سَنَةَ ١٩٣٨م[1]، فَاجْتَمَعَتْ لِأَوَّلِ مَرَّةٍ وُفُودُ الْأُمَمِ الْإِسْلَامِيَّةِ الشَّرْقِيَّةِ وَالْغَرْبِيَّةِ فِي مِصْرَ وَرَاءَ غَرَضٍ مُشْتَرَكٍ ، وَسِيَاسَةٍ مُوَحَّدَةٍ ، فَفِي السَّاعَةِ الْخَامِسَةِ مِنْ مَسَاءِ الْجُمُعَةِ ١٩٣٨/١٠/٧م اجْتَمَعَ فِي مُؤْتَمَرِ الْقَاهِرَةِ الْبَرْلَمَانِيِّ مُمَثِّلُو الْمَغْرِبِ وَمِصْرَ وَفِلِسْطِينَ وَسُورِيَا وَلُبْنَانَ وَالْيَمَنِ وَالْعِرَاقِ وَإِيرَانَ وَالْهِنْدِ وَالصِّينِ وَيُوغُوسْلَافْيَا وَعَرَبِ الْمَهْجَرِ ، فَكَانَ هَذَا الِاجْتِمَاعُ ، كَمَا يَقُولُ الْأُسْتَاذُ أَحْمَدُ حَسَنُ الزَّيَّاتُ :

« تَعْبِئَةٌ عَامَّةٌ لِقُوَىٰ الْعُرُوبَةِ وَالْإِسْلَامِ ، ذِيَادًا عَنْ جُزْءٍ عَزِيزٍ مِنْ أَجْزَاءِ وَطَنِهَا الْأَكْبَرِ ، دَهَمَهُ الْمُسْتَعْمِرُ بِالْقُوَّةِ ، وَاقْتَحَمَهُ الْمُسْتَثْمِرُ بِالْحِيلَةِ ، فَوَقَفَ يُدَافِعُهُمَا عَنْ قُوتِهِ وَعَنْ سَكَنِهِ ، وَلَا وَزَرَ إِلَّا بِالْحَقِّ ، وَلَا عُدَّةَ إِلَّا بِالصَّبْرِ ، وَلَا سَبِيلَ إِلَّا بِالتَّضْحِيَةِ ! أَجَلْ عَبَّأَتِ الْعُرُوبَةُ قُوَاهَا بَعْدَ أَنْ سَأَلَتِ انْكِلْتِرَا الْحَقَّ فَلَمْ تُعْطِ ، وَسَأَلَتْهَا الْعَدْلَ فَلَمْ تُجِبْ ، وَأَهَابَتْ بِضَمِيرِ الْإِنْسَانِيَّةِ ، فِي قَاعَةِ الْعُصْبَةِ ، وَدَارِ الْبَرْلَمَانِ ، وَإِدَارَاتِ الصُّحُفِ ، فَلَمْ تَجِدْ إِلَّا هَوًى غَشَّىٰ عَلَىٰ الْأَفْئِدَةِ ، وَطَمَعًا خَتَمَ عَلَىٰ الْأَسْمَاعِ » .

وَفِي هَذَا الْمُؤْتَمَرِ الْحَاشِدِ تَحَدَّثَ السِّيَاسِيُّونَ الْكِبَارُ « مُحَمَّدُ عَلِيٍّ عَلُّوبَةُ » عَنْ مِصْرَ ، وَ« مَوْلُودُ مُخْلِصُ » عَنِ الْعِرَاقِ ، وَ« فَارِسُ الْخُورِيِّ » عَنْ

(١) مجلة الرّسالة ـ العدد ٢٧٥ ـ ١٩٣٨/١٠/١٠م.

سُورِيَا وَلُبْنَانَ ، وَ« عَبْدُ الرَّحْمَنِ الصِّدِّيقِيُّ » عَنِ الْهِنْدِ ، وَغَيْرُ هَؤُلَاءِ الْأَفَاضِلِ ؛ حَدِيثَ الْكَلِمَةِ الْوَاحِدَةِ ، وَالرَّأْيِ الْجَمِيعِ ، وَقَدْ أَقَامَتْ جَمْعِيَّةُ الشُّبَّانِ الْمُسْلِمِينَ حَفْلَةً رَائِعَةً لِتَكْرِيمِ أَعْضَاءِ الْمُؤْتَمَرِ النِّيَابِيِّ ، كَانَ الشَّاعِرُ الْكَبِيرُ الْأُسْتَاذُ أَحْمَدُ مُحَرَّم بُلْبُلَهَا الصَّادِحَ ، إِذْ أَنْشَأَ قَصِيدَةً مُمْتَازَةً قَالَتْ عَنْهَا مَجَلَّةُ الْفَتْحِ : « إِنَّهَا كَتِيبَةٌ مِنْ كَتَائِبِ الْإِيمَانِ فِي آيَةٍ مِنْ مُعْجِزَاتِ الْبَيَانِ ، نَظَمَهَا شَاعِرُ مِصْرَ الْكَبِيرُ الْأُسْتَاذُ أَحْمَدُ مُحَرَّم لِتُلْقَىٰ فِي حَفْلَةِ الشُّبَّانِ الْمُسْلِمِينَ » وَمِنْ فَرَائِدِهَا قَوْلُهُ(١):

لَبَّيْكَ يَا وَطَنَ الْجِهَادِ وَمَرْحَبًا ... لَبَّيْكَ مِنْ دَاعٍ أَهَابَ وَثَوَّبَا
لَبَّيْكَ إِذْ بَلَغَ الْبَلَاءُ ، وَإِذْ أَبَىٰ ... جِدُّ الزَّمَانِ وَصَرْفُهُ أَنْ نَلْعَبَا
مَنْ ذَا يَرَىٰ دَمَهُ أَعَزَّ مَكَانَةً ... مِنْ أَنْ يُخَضِّبَ مِنْ فِلِسْطِينَ الرُّبَىٰ
كَبُرَتْ حِينَ عَفَا الْوَفَاءُ وَمَا عَفَا ... فِي أَرْضِهَا أَثَرُ الْبُرَاقِ وَلَا خَبَا
وَطَنٌ يُعَذَّبُ فِي الْجَحِيمِ وَأُمَّةٌ ... أَعْزِزْ عَلَيْنَا أَنْ تُصَابَ وَتُنْكَبَا
بِقُلُوبِنَا الْحَرَّىٰ وَفِي أَحْشَائِنَا ... مَا شَبَّ مِنْ أَشْجَانِهَا وَتَلَهَّبَا
وَبِنَا مِنَ الْأَلَمِ الْمُبَرِّحِ مَا بِهَا ... وَأَرَىٰ الَّذِي نَلْقَىٰ أَشَدَّ وَأَصْعَبَا
نَتَجَرَّعُ الْبَلْوَىٰ ، وَنَدَّرِعُ الْأَسَىٰ ... نَرْعَىٰ لِإِخْوَتِنَا الذِّمَامَ الْأَقْرَبَا
إِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ آكِلَ لَحْمِهِمْ ... سَيَخُوضُ مِنَّا فِي الدِّمَاءِ لِيَشْرَبَا
جَعَلُوا الْكِفَاحَ عَنِ الْعُرُوبَةِ حَرْثَهُمْ ... وَتَعَهَّدُوهُ فَكَانَ حَرْثًا طَيِّبَا
يَسْقُونَ مَا ذَرَعُوا دَمًا فِي مُخْصِبٍ ... لَوْلَا الدَّمُ الْجَارِي لَأَصْبَحَ مُجْدِبَا

(١) الدّيوان ج ١، ص ٨٥٤.

الْبَيْتُ يَطْرَبُ مِنْ أَنِينِ جِرَاحِهِمْ   أَرَأَيْتَ فِي الدُّنْيَا أَنِينًا مُطْرِبَا ؟!
رُسُلَ الْعُرُوبَةِ هَلْ سَأَلْتُمْ جُرْحَهَا   مَا بَالُهُ اسْتَعْصَىٰ ؟ وَمَاذَا أَعْقَبَا ؟
جُرْحٌ تَقَادَمَ عَهْدُهُ ، وَتَفَتَّحَتْ   أَفْوَاهُهُ تَدْعُو الْأُسَاةَ الْغُيَّبَا
أَنْتُمْ أُسَاةُ الْجُرْحِ فَاتَّخِذُوا لَهُ   مِنْ طِبِّ شَيْخِ أُسَاتِكُمْ مَا جَرَّبَا
يَا قَوْمِ لَسْتُمْ بِالضِّعَافِ فَغَامِرُوا   وَخُذُوا مَطَالِبَكُمْ سِرَاعًا وُثَّبَا
أَوَ مَا كَفَاكُمْ قُوَّةٌ مِنْ دِينِكُمْ   مَا جَمَّعَ الْإِيمَانُ فِيهِ وَأَلَّبَا ؟!

ثُمَّ قَامَتِ الْحُكُومَةُ الْبِرِيطَانِيَّةُ بِاعْتِقَالِ زُعَمَاءِ الْجِهَادِ مِنَ الْعَرَبِ وَبَادَرَتْ بِنَفْيِهِمْ إِلَىٰ « سِيشِلْ » كَمَا فَعَلَتْ مِنْ قَبْلُ بِزُعَمَاءِ الثَّوْرَةِ الْمِصْرِيَّةِ سَنَةَ ١٩١٩م حِينَ بَادَرَتْ بِنَفْيِ سَعْدِ زَغْلُولٍ وَرُفَقَائِهِ إِلَىٰ هَذِهِ الْجَزِيرَةِ نَفْسِهَا ، وَهُوَ عَمَلٌ يَدُلُّ عَلَىٰ غَبَاءِ الْحُكُومَةِ الْبِرِيطَانِيَّةِ ؛ لِأَنَّ نَفْيَ سَعْدِ زَغْلُولٍ وَرُفَقَائِهِ قَدْ سَاعَدَ عَلَىٰ الْتِهَابِ الثَّوْرَةِ ، وَأَمَدَّهَا بِاللَّهَبِ الْمُشْتَعِلِ ، فَعَجَزَتِ انْكِلْتِرَا عَنْ أَنْ تُقَاوِمَ التَّيَّارَ الْجَارِفَ ، وَاضْطُرَّتْ بِرَغْمِ أَنْفِهَا إِلَىٰ إِطْلَاقِ سَرَاحِ الزَّعِيمِ الْمِصْرِيِّ الْخَالِدِ ، وَهَذَا مَا سَيَحْدُثُ فِعْلًا - وَحَدَثَ - فِي فِلَسْطِينَ ، بَلْ إِنَّ حُدُوثَهُ بِهَا أَكْثَرُ تَوَقُّعًا مِمَّا كَانَ فِي مِصْرَ ؛ لِأَنَّ الْأَرْضَ تُنْتَزَعُ انْتِزَاعًا ، وَالْأَهَالِي يُشَرَّدُونَ مِنْ مَنَازِلِهِمْ وَحُقُولِهِمْ وَمَتَاجِرِهِمْ ، فَتَكُونُ النِّقْمَةُ أَشَدَّ ، وَالْغَضَبُ أَكْثَرَ ، وَقَدْ سَمَّتْ هَؤُلَاءِ الْأَبْطَالَ بِالْمُتَطَرِّفِينَ ، وَهِيَ تَسْمِيَةٌ كَاذِبَةٌ تُقَالُ عِنْدَ كُلِّ تَبْرِيرٍ سِيَاسِيٍّ مِنْ حَاكِمٍ ظَالِمٍ لِأَعْمَالٍ شَائِنَةٍ لَا يَجِدُ الدَّلِيلَ الْمُقْنِعَ عَلَىٰ إِثْبَاتِهَا ، وَهَلِ الْمُتَطَرِّفُ مَنْ يُدَافِعُ عَنِ الْبَيْتِ الَّذِي يَسْكُنُهُ ؟ أَمِ الْغَرِيبُ الَّذِي يَحْتَلُّ الْبَيْتَ بِالْحَدِيدِ وَالنَّارِ ، وَمُؤَيِّدُهُ الْمُحْتَلُّ الْبِرِيطَانِيُّ ، وَكِلَاهُمَا غَاصِبٌ بَاغٍ ! فِي هَذِهِ الظُّرُوفِ الْمُلْتَهِبَةِ قَامَتِ الصَّحَافَةُ الْمِصْرِيَّةُ

بِانْتِقَادٍ صَارِخٍ لِهَذَا الاِعْتِقَالِ الظَّالِمِ ، وَكَتَبَ الْأُدَبَاءُ الْكِبَارُ مِنْ أَمْثَالِ الْمَازِنِيِّ وَعَبْدِ الْقَادِرِ حَمْزَةَ وَالزَّيَّاتِ وَعَبْدِ الرَّحْمَنِ عَزَّامٍ مَا وَضَّحَ هَذَا الْعَمَلَ بِالتَّحَيُّزِ وَالِانْتِقَامِ دُونَ مُبَرِّرٍ ، وَنَشَرَ الْأُسْتَاذُ أَحْمَدُ مُحَرَّمٍ قَصِيدَتَهُ الَّتِي بَدَأَهَا بِقَوْلِهِ[1]:

فِلِسْطِينُ صَبْرًا ، إِنَّ لِلْفَوْزِ مَوْعِدًا ... فَإِلَّا تَفُوزِي الْيَوْمَ فَانْتَظِرِي غَدَا
ضَمَانٌ عَلَى الْأَقْدَارِ نَصْرُ مُجَاهِدٍ ... يَرَى الْمَوْتَ أَنْ يَحْيَا ذَلِيلًا مُعَبَّدَا
إِذَا السَّيْفُ لَمْ يُسْعِفْهُ أَسْعَفَ نَفْسَهُ ... بِبَأْسٍ يَرَاهُ السَّيْفُ حَتْمًا مُجَرَّدَا
يَلُوذُ بِحَدَّيْهِ وَيَمْضِي إِلَى الْوَغَى ... عَلَى جَانِبَيْهِ ، مِنْ حَيَاةٍ وَمِنْ رَدَى
مَنَعْتِ ذِئَابَ السُّوءِ عَنْ غَيْلِ حُرَّةٍ ... سَمَتْ فِي الضَّوَارِي الْغُلْبِ جِذْمًا وَمَحْتِدَا
نَفَتْهُمْ فِجَاجُ الْأَرْضِ مِنْ سُوءِ مَا جَنَوْا ... فَجَاءُوا عَلَى ذُعْرٍ عَبَادِيدَ شُرَّدَا
يُرِيدُونَ مُلْكًا فِي فِلِسْطِينَ بَاقِيًا ... عَلَى الدَّهْرِ يَحْمِي شَعْبَهُمْ إِنْ تَمَرَّدَا
بِلَادٌ أَعَزَّتْهَا سُيُوفُ مُحَمَّدٍ ... فَمَا عُذْرُهَا أَلَّا تُعِزَّ مُحَمَّدَا
أَحَلُّوا الرِّبَا فَالْأَرْضُ غُبْرٌ وُجُوهُهَا ... تُرِينَا الصَّبَاحَ الطَّلْقَ أَقْتَمَ أَرْبَدَا
أَيُمْسِي عَبِيدُ الْعِجْلِ فِي النَّاسِ سَادَةً ... وَمَا عَرَفُوا مِنْهُمْ عَلَى الدَّهْرِ سَيِّدَا
لَهُمْ مِنْ فِلِسْطِينَ الْقُبُورُ وَلَمْ يَكُنْ ... تَرَاهَا لِأَهْلِ الرِّجْسِ مَثْوًى وَمَرْقَدَا
فَقُلْ لِحُمَاةِ الظُّلْمِ مِنْ حُلَفَائِهِمْ ... لَنَا الْعَهْدُ نَحْمِيهِ ، وَنَمْضِي عَلَى هُدَى

وَهِيَ قَصِيدَةٌ حَارَّةٌ قَالَتْ جَرِيدَةُ « الصِّدْقِ » فِي تَقْدِيمِهَا : « إِنَّهَا تَنْشُرُهَا لِشَاعِرِ الْعُرُوبَةِ وَالْإِسْلَامِ الْأُسْتَاذِ أَحْمَدَ مُحَرَّمٍ الَّذِي وَقَفَ قَلَمَهُ وَنَفْسَهُ عَلَى الدِّفَاعِ عَنِ الْقَضَايَا الْإِسْلَامِيَّةِ ، فَكَانَ لَهُ مِنَ الْفَضْلِ فِي هَذَا

(١) الديوان ج ١، ص ٨٧٠.

الْبَابِ مَا لَمْ يَكُنْ لِشَاعِرٍ سِوَاهُ فِي الْمُتَقَدِّمِينَ وَالْمُتَأَخِّرِينَ » .

وَهَذَا حَقٌّ ؛ لِأَنَّ سِوَاهُ مِنْ غَيْرِ شُعَرَاءِ فِلِسْطِينَ يَكْتَفِي بِقَصِيدَةٍ أَوِ اثْنَتَيْنِ أَمَّا أَحْمَدُ مُحَرَّم ، فَقَدْ وَالَى الْحَدِيثَ عَنِ الْمَأْسَاةِ الدَّامِيَةِ مُوَالَاةَ مَنْ يَسْتَشْعِرُ الْحَسْرَةَ بَيْنَ ضُلُوعِهِ ثَائِرَةً لَاذِعَةً لَا تَهْدَأُ وَلَا تَخْمُدُ ، بَلْ إِنَّهُ فِي قَصَائِدَ أُخْرَى لَا تَتَّصِلُ بِفِلِسْطِينَ اتِّصَالًا جَوْهَرِيًّا ، كَانَ يَلْتَمِسُ أَهْوَنَ الْمُنَاسَبَاتِ لِلْحَدِيثِ عَنْهَا ، وَمِنْ ذَلِكَ قَصِيدَتُهُ الَّتِي قَالَهَا فِي اسْتِقْبَالِ الزَّعِيمِ مُحَمَّدٍ مَحْمُودٍ بَاشَا حِينَ رَجَعَ مِنِ انْكِلْتِرَا بَعْدَ مُحَادَثَاتٍ سِيَاسِيَّةٍ فِي الشُّئُونِ الْمِصْرِيَّةِ شَفَعَهَا بِمُحَادَثَاتٍ مَعَ وَزِيرِ الْخَارِجِيَّةِ الْبِرِيطَانِيِّ عَنِ الْبَلَاءِ الْمُرْهِقِ الَّذِي يَقُومُ بِهِ الْإِنْكِلِيزُ فِي فِلِسْطِينَ ، مُسَاعَدَةً لِلْيَهُودِ ، وَعَدَّ ذَلِكَ انْحِيَازًا ظَالِمًا لَا يُبَرِّرُهُ قَانُونٌ ، وَانْكِلْتِرَا تَزْعُمُ الْحِيَادَ ، وَلَكِنَّ الْوَاقِعَ يُكَذِّبُ هَذِهِ الْمَزَاعِمَ ، وَهَذَا مَا نَشَرَتْهُ الصُّحُفُ الْمِصْرِيَّةُ أَثْنَاءَ رِحْلَةِ الزَّعِيمِ مُحَمَّدٍ مَحْمُودٍ ، وَحِينَ عَادَ اسْتَقْبَلَهُ الْأُسْتَاذُ أَحْمَدُ مُحَرَّم بِقَصِيدَةٍ طَوِيلَةٍ قَالَ فِيهَا[1]:

الْمَسْجِدُ الْأَقْصَى لِسَانٌ صَارِخٌ ... يُهْدِي تَحِيَّتَهُ وَقَلْبٌ وَاجِبُ
أَمَّا فِلِسْطِينُ الثَّكُولُ فَإِنَّهَا ... تُطْرِي صَنِيعَكَ ، وَالدُّمُوعُ سَوَاكِبُ
لَمْ تَنْسَهَا ، وَالظُّلْمُ مُنْتَصِرٌ بِهَا ... وَالْعَدْلُ مُنْهَزِمُ الْفَيَالِقِ هَارِبُ
وَالنَّارُ تَأْخُذُ أَهْلَهَا فَمُعَذَّبٌ ... يُشْوَى عَلَى أَيْدِي الطُّغَاةِ وَذَائِبُ
مَا لِلشُّيُوخِ وَلِلْعَذَارَى عِصْمَةٌ ... الْهَوْلُ طَاغٍ ، وَالرَّدَى مُتَكَالِبُ
أَمِنَ الْجَرَائِمِ أَنْ يُزَحْزَحَ غَاصِبٌ ... وَيُرَدُّ عَنْ حَقِّ الْمَمَالِكِ نَاهِبُ

---

(١) الديوان ج ١، ص ٦٦٨.

اللَّهُ أَكْبَرُ يَا سُلاَلَةَ يَعْرُبٍ بَالَتْ عَلَى حُرُمِ الأُسُودِ ثَعَالِبُ

وَفِي الدِّيوَانِ قَصَائِدُ أُخْرَى لَمْ أُلِمَّ بِهَا مُكْتَفِيًا بِمَا ذَكَرْتُ ، وَقَدْ قُلْتُ فِي صَدْرِ هَذَا الْبَحْثِ : إِنَّ الشَّاعِرَ الْعَزِيزَ رَحَلَ قَبْلَ أَنْ تَحِلَّ كَارِثَةُ التَّقْسِيمِ ، وَقَبْلَ أَنْ تَصِيرَ إِسْرَائِيلُ حَقِيقَةً وَاقِعَةً ، وَلَعَلَّ اللَّهَ رَحِمَهُ أَنْ يَشْهَدَ مَا لاَ يُطِيقُ .

حُمَاةُ الْإِسْلَامِ

يَقُولُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ : ﴿ **وَالْـمُؤْمِنُونَ وَالْـمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْـمَعْرُوفِ ، وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْـمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ** ﴾[1].

وَكَانَ مِنْ حَظِّ أَحْمَدَ مُحَرَّمٍ أَنْ يَكُونَ مُؤْمِنًا صَادِقًا مَعَ فَرِيقٍ مِثْلِهِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ الصَّادِقِينَ ، جَمَعَتْهُمْ وَحْدَةُ الْهَدَفِ وَوَحْدَةُ الْأَمَلِ ، فَاتَّفَقُوا عَلَى قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ أَنْ يَكُونُوا دُعَاةَ الْإِسْلَامِ ، وَأَنْصَارَ الدُّوَلِ الْإِسْلَامِيَّةِ فِي شَتَّى رُبُوعِهَا ، وَكَانَتْ خُطَبُهُمْ تَرِنُّ فِي الْأَنْدِيَةِ ، وَمَقَالَاتُهُمْ تَفِيضُ فِي الصُّحُفِ ، وَشِعْرُهُمْ يَتَرَدَّدُ عَلَى الْأَفْوَاهِ مُجْتَمِعِينَ عَلَى رَأْيٍ وَاحِدٍ ، وَعَقِيدَةٍ وَاحِدَةٍ ، وَلَيْسَ لَهُمْ مِنْ نَاصِرٍ غَيْرُ الْإِيمَانِ الصَّادِقِ ، وَالْعَزِيمَةِ الْمَاضِيَةِ ؛ لِأَنَّ مَا حَوْلَهُمْ وَمَنْ حَوْلَهُمْ مِنْ أَصْحَابِ الْأَمْرِ وَالنَّهْيِ يَرَوْنَهُمْ غُصَّةً فِي حُلُوقِهِمْ ، وَشَجًى فِي صُدُورِهِمْ ، حِينَ يُنَادُونَ بِعِزَّةِ الْإِسْلَامِ ، وَطَرْدِ الْمُحْتَلِّ الْغَاصِبِ ، وَعَوْدَةِ الْحَضَارَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ إِلَى نَهْرِهَا الدَّافِقِ مُنْذُ جَفَّ مَعِينُهُ فِي عُصُورٍ مُنْحَدِرَةٍ ،

(١) سورة التوبة الآية ٧١.

وَلَا بُدَّ أَنْ يَتَدَفَّقَ النَّهْرُ مِنْ جَدِيدٍ ..

نَعَمْ ، كَانَ أَحْمَدُ مُحَرَّم أَحَدَ هَؤُلَاءِ ، بَلْ كَانَ شَاعِرَهُمْ الَّذِي يَمُدُّهُمْ بِمَوَاقِفِ التَّأْيِيدِ ، وَيَنْحَازُ إِلَيْهِمْ أَمَامَ خُصُومِهِمْ مُجَاهِدًا غَيْرَ مُخَافِتٍ ، وَلِذَلِكَ تَجَمَّعَ خُصُومُ الدَّعْوَةِ إِلْبًا عَلَيْهِ ، بِحَيْثُ لَمْ يَجِدِ الْمَكَانَ الْمُنْتَظَرَ لِمَنْ يَمْلِكُ مَوْهِبَتَهُ ، بَلْ وَجَدَ النُّكْرَانَ وَالْجُحُودَ ، حَتَّىٰ صَاحَ فِي أَزْمَةٍ مِنْ أَزَمَاتِ حَيَاتِهِ صَارِخًا :

لِرَبِّي مَا صَنَعْتُ وَعِنْدَ قَوْمِي دُيُونِي حِينَ تُلْتَمَسُ الدُّيُونُ
ظَمِئْتُ ، وَفِي فَمِي الْأَدَبُ الْمُصَفَّىٰ وَضِقْتُ ، وَفِي يَدِي الْكَنْزُ الثَّمِينُ ..

وَكَانَ الشَّاعِرُ حَفِيًّا بِجَمَاعَتِهِ ، مُشِيدًا بِهِمْ فِي كُلِّ مُنَاسَبَةٍ ، يُلْبِسُهُمْ حُلَلَ الْمَدِيحِ أَحْيَاءً ، وَيَبْكِي عَلَيْهِمْ بِدُمُوعِهِ السَّاخِنَةِ أَمْوَاتًا ، فَإِذَا قَرَأْتَ دِيوَانَهُ الْحَافِلَ عَرَفْتَ سِيَرَ هَؤُلَاءِ ، وَرَأَيْتَ الشَّاعِرَ يَنُوبُ عَنِ الْمُؤَرِّخِ فِي تَرْدَادِ مَا أَحْرَزُوا مِنْ فَضْلٍ .. وَفِي طَلِيعَةِ هَؤُلَاءِ الْمُنَاضِلِينَ مُحِبُّ الدِّينِ الْخَطِيبُ ، وَعَبْدُ الْعَزِيزِ جَاوِيشُ ، وَأَمِينُ الرَّافِعِيُّ ، وَعَبْدُ الْحَمِيدِ سَعِيدُ ، وَعُمَرُ طُوسُون ، وَمُحَمَّدٌ الْهِهْيَاوِيُّ ، وَمُحَمَّدٌ عَبْدُه ، وَكُلُّهُمْ خِيَارٌ مِنْ خِيَارٍ ، وَنَحْنُ الْآنَ نَرَىٰ مِنْ يَلْهَجُونَ بِدَعْوَىٰ التَّنْوِيرِ ، وَيُقِيمُونَ الْحَفَلَاتِ لِمَنْ يَعُدُّونَهُمْ قَادَةَ التَّنْوِيرِ ، وَلَكِنَّكَ لَا تَجِدُ وَاحِدًا مِنْ هَؤُلَاءِ يَذْكُرُهُ أَدْعِيَاءُ التَّنْوِيرِ(١) ، بَلْ يَذْكُرُونَ مَنِ ارْتَفَعَتِ الْأَبْوَاقُ بِتَمْجِيدِهِ ، وَكُلُّ مَحْصُولِهِ أَنَّهُ جَدَّدَ وَخَالَفَ ، وَبَاعَدَ وَجَادَلَ ، بَلْ إِنَّ مِنَ الْأَسَفِ أَنْ يَجْرُؤَ نَفَرٌ مِنْ هَؤُلَاءِ عَلَىٰ أَنْ يَصِفُوا

---

(١) يذكرون الإمام مُحمَّد عبده ، وَيخَالفونه فِي كُلِّ مَا اتجه إِلَيْهِ ، فكأنهم يجعلونه أداة تضليل لمن لا يعرف الرَّجل الْعظيم .

زَعِيمًا دِينِيًّا مُجَاهِدًا كَعَبْدِ الْحَمِيدِ سَعِيدِ بِأَنَّهُ يُمَثِّلُ الرَّجْعِيَّةَ الْمُتَخَلِّفَةَ !! وَدَلِيلُهُمُ الأَوْحَدُ أَنَّهُ يُنَادِي بِتَطْبِيقِ شَرِيعَةِ الإِسْلَامِ، وَيَسْأَلُ عَنْ أَحْوَالِ الْمُسْلِمِينَ فِي الصِّينِ وَالْيَابَانِ وَالْهِنْدِ وَهُمْ لَيْسُوا مِنْ مِصْرَ !!.

أُمُورٌ تَضْحَكُ السُّفَهَاءُ مِنْهَا   وَيَبْكِي مِنْ عَوَاقِبِهَا اللَّبِيبُ

وَإِذَا كَانَ أَصْحَابُ الطَّبْلِ الأَجْوَفِ قَدْ أَضَاعُوا الْكِرَامَ مِنْ هَؤُلَاءِ فِي حَفَلَاتِ التَّهْرِيجِ الصَّاخِبِ، فَإِنَّ دِيوَانَ أَحْمَدَ مُحَرَّمٍ قَدْ حَفِظَ لِهَؤُلَاءِ حُقُوقَهُمْ، وَأَجْلَسَهُمْ فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ بِقِمَّةِ التَّارِيخِ الصَّحِيحِ، وَمَا كَانَ يَنْشُدُ مَأْرَبًا فِي تَمْجِيدِ هَؤُلَاءِ الأَبْطَالِ، كَمَا يَنْشُدُ التَّنْوِيرِيُّونَ مَآرِبَ فِي السِّيَاسَةِ وَالْمَنْصِبِ وَالْمَالِ، بَلْ كَانَ يَضَعُ أَمَامَ الشَّبِيبَةِ الْمُسْلِمَةِ أَمْثِلَةً بَارِزَةً لِلْقُدْوَةِ الصَّحِيحَةِ، لِيَكُونُوا مَشَاعِلَ ضَوْءٍ فِي غَيَاهِبِ الظُّلُمَاتِ..

فَمُحِبُّ الدِّينِ الْخَطِيبُ لَا يُنْكَرُ مَقَامُهُ فِي طَرِيقِ الْجِهَادِ الإِسْلَامِيِّ الْمَرِيرِ، وَقَدْ أَرَّخْتُ بَعْضَ سِيرَتِهِ فِي كِتَابِي «النَّهْضَةُ الإِسْلَامِيَّةُ فِي سِيَرِ أَعْلَامِهَا الْمُعَاصِرِينَ»، وَقُلْتُ فِي مُقَدِّمَةِ مَا كَتَبْتُ(١):

«أَوْجَزُ مَا يُقَالُ عَنْ مُحِبِّ الدِّينِ أَنَّهُ كَانَ أُمَّةً فِي وَاحِدٍ؛ لِأَنَّ أَكْثَرَ حَرَكَاتِ التَّحَرُّرِ الإِسْلَامِيِّ فِي الأُمَّةِ الْعَرَبِيَّةِ عَرَفَتْ مِنْهُ الظَّهِيرَ الْمُؤَيِّدَ، وَالْمُقْتَرِحَ الْمُصَمِّمَ، وَلَكِنَّ طَبِيعَةَ الْجُنْدِيِّ فِي نَفْسِهِ جَعَلَتْهُ لَا يَطْمَحُ لِمَنْزِلَةِ الْقَائِدِ الرَّسْمِيَّةِ، أَمَّا فِي الْوَاقِعِ فَهُوَ قَائِدٌ عَمَلِيٌّ حَقًّا، وَأَنْتَ حِينَ تَعْرِضُ أَسْمَاءَ شُكْرِي الْقُوَتْلِيِّ، وَالْحُسَيْنِ بْنِ عَلِيٍّ، وَحَسَنِ الْبَنَّا، وَشَكِيبِ أَرْسِلَانَ، وَصَالِحِ حَرْبٍ، وَمُحَمَّدِ كُرْدِ عَلِيٍّ، وَعَبْدِ الرَّحْمَنِ عَزَّامٍ، وَعَزِيزِ الْمِصْرِيِّ،

---

(١) النَّهْضَةُ الإِسْلَامِيَّةُ في سير أعلامها المعاصرين المجلد الثاني.

تَجِدُ ارْتِبَاطًا قَوِيًّا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مُحِبِّ الدِّينِ فِي كَثِيرٍ مِنَ الْمَوَاقِفِ الْحَاسِمَةِ عَلَىٰ مَدَىٰ نِصْفِ قَرْنٍ مُتَطَاوِلٍ ..» .

هَذَا الْمُجَاهِدُ وَجَدَ مِنْ أَحْمَدَ مُحَرَّم مُؤَيِّدًا لِمَسِيرَتِهِ الشَّرِيفَةِ ، وَكَانَتْ مَجَلَّتَا الزَّهْرَاءِ وَالْفَتْحِ بَعْضَ مَا أَخْرَجَ الرَّجُلُ فِي مَيْدَانِ الصَّحَافَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ ، وَنَظَرَ أَحْمَدُ مُحَرَّم فَوَجَدَ مَجَلَّةَ الْفَتْحِ بِالذَّاتِ لِسَانَ الصَّفْوَةِ الْمُخْتَارَةِ مِنْ ذَوِي الْحَمِيَّةِ الْإِسْلَامِيَّةِ ، فَآثَرَهَا بِنِتَاجِهِ الْكَثِيرِ ، عَلَىٰ حِينَ أَنَّ الْجَرَائِدَ الْيَوْمِيَّةَ ذَاتَ الشُّهْرَةِ الْوَاسِعَةِ كَانَتْ تَتَهَافَتُ عَلَىٰ نَشْرِ قَصَائِدِ الشَّاعِرِ الْكَبِيرِ ، لِتَسِيرَ بِهَا إِلَىٰ كَافَّةِ الْقُرَّاءِ فِي الْعَالَمِ الْعَرَبِيِّ ، وَلَكِنَّ تَقْدِيرَ الشَّاعِرِ لِرِسَالَةِ الْفَتْحِ فِي مَيْدَانِ الْجِهَادِ الْإِسْلَامِيِّ جَعَلَهُ يُحَيِّيهَا فِي أَعْوَامِهَا الْمُتَتَابِعَةِ بِقَصَائِدَ مُشَجِّعَةٍ ؛ لِأَنَّهُ يَعْلَمُ أَنَّ صَاحِبَ الْفَتْحِ لَا يَجِدُ النَّصِيرَ مِنْ ذَوِي الْجَاهِ ، كَمَا أَنَّهُ يُحِبُّ أَنْ يَسْتَمِرَّ عَلَىٰ أَدَاءِ رِسَالَتِهِ حَامِيًا كَبِيرًا مِنْ حُمَاةِ الْإِسْلَامِ فِي عَالَمِ الزَّيْفِ وَالِادِّعَاءِ ، وَكَأَنَّ الشَّاعِرَ قَدْ أَحَسَّ بِعَنَاءِ مُحِبِّ الدِّينِ الْمُمَاثِلِ لِعَنَائِهِ ، وَأَدْرَكَ مَا يُقَاوِمُ بِهِ مِنْ خُصُومِهِ ؛ لِأَنَّهُ شَرِيكُهُ فِي هَذَا الْبَلَاءِ ، فَقَالَ مُخَاطِبًا مَجَلَّةَ الْفَتْحِ ، وَكَأَنَّهُ يَتَحَدَّثُ عَنْ نَفْسِهِ[1]:

أَمَنَارَةَ السَّارِي وَأَمْنَ الْوَادِي ... هَلْ بَاتَ حَوْلَكِ سَامِرٌ فَأُنَادِي
أَسَفُ الصَّدَىٰ أَنْ يَضْمَحِلَّ وَمَا قَضَىٰ ... وَطَرًا مِنَ الْأَسْمَاعِ وَالْأَكْبَادِ
وَمِنَ الْعَنَاءِ وَقَدْ بَلَوْتُ صُنُوفَهُ ... فَشَلُ الْهُدَاةِ ، وَطِيبَةُ الْقُوَّادِ
فِي ذِمَّةِ الذِّكْرِ الْحَكِيمِ رِسَالَتِي ... وَإِلَيْكَ رَبِّي مَرْجِعِي وَمَعَادِي

(١) ص ٣١١ ط دار القلم، للدكتور محمد رجب البيومي .

أَنْتَ الْعَلِيمُ بِمَا أُرِيدُ وَأَبْتَغِي   وَبِمَا أُكَابِدُ مِنْ أَذًى وَعِنَادِ
أَغْرَىٰ الْخَوَارِجَ بِالْعَدَاوَةِ أَنَّهُمْ   وَجَدُوا مُرَادَكَ فِي الْحَيَاةِ مُرَادِي

وَبَعْدَ أَنْ وَفَّىٰ مَجَلَّةَ الْفَتْحِ حَقَّهَا فِي تَسْجِيلِ دَوْرِهَا الرِّيَادِيِّ فِي الْيَقَظَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ وَالْبَعْثِ الدِّينِيِّ، اتَّجَهَ إِلَىٰ مُحِبِّ الدِّينِ رَئِيسِ تَحْرِيرِهَا فَحَيَّاهُ بِقَوْلِهِ(١):

إِيهٍ مُحِبَّ الدِّينِ، زِدْهُ مَحَبَّةً   فِي الْمُؤْمِنِينَ وَزِدْهُ صَفْوَ وِدَادِ
لِي مِنْ يَرَاعِكَ فِي الصَّبَابَةِ مُسْعِدٌ   فَامْزُجْ مِدَادَكَ فِي الْهَوَىٰ بِمِدَادِي
وَتَعَالَ نَقْضِ الْحَقَّ فِي مِيعَادِهِ   إِنَّ الْحَيَاةَ قَرِيبَةُ الْمِيعَادِ
الْيَوْمَ نَمْلِكُ أَنْ نَقُولَ وَإِنَّنَا   لَإِلَىٰ رُفَاتٍ صَامِتٍ وَرَمَادِ
اللَّهُ يَسْأَلُ أَيْنَ غُودِرَ دِينُهُ   وَيَقُولُ: أَيْنَ فَوَارِسِي وَجِيَادِي؟
سِرْ يَا دَلِيلَ الرَّكْبِ مَأْمُونَ الْخُطَىٰ   وَارْفَعْ يَدَيْكَ تَحِيَّةً لِلْحَادِي
الْمُسْلِمُونَ عَلَىٰ هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ   مَا دَامَ نُورُكَ عَنْ يَمِينِ الْوَادِي

وَفِي مُنَاسَبَةٍ أُخْرَىٰ يَقُولُ الشَّاعِرُ فِي تَحِيَّةِ «الْفَتْحِ» وَصَاحِبِهَا مُحِبِّ الدِّينِ(٢):

حَمَلَتْ سَنَاكِ مَوَاكِبُ الْأَعْوَامِ   فَخُذِي سَبِيلَكِ وَاضِحَ الْأَعْلَامِ
مَا أَنْتِ إِلَّا مَوْكِبٌ جَمَعَ الْهُدَىٰ   فِيهِ جَلَالُ الْعِلْمِ وَالْإِلْهَامِ
أَرْخِي زِمَامَكِ لَا عِثَارَ لِآخِذٍ   مِنْ رَبِّهِ وَكِتَابِهِ بِذِمَامِ

(١) الدّيوان ج ١، ص ٧٥٢.
(٢) الدّيوان ص ٧٩٦ وَمَا بعدها.

وَصِفِي لِهَذَا الْجِيلِ أَيَّامَ الْأُلَىٰ سَبَقُوكِ من صَحْبٍ عَلِيكِ كِرَامِ
ضَاعَتْ ثُغُورُ الْمُسْلِمِينَ فَأَدْرِكِي سُؤْرَ[1] الْهُدَىٰ وَبَقِيَّةَ الْإِسْلَامِ
عَزَّ الذَّلِيلُ مِنَ الثَّعَالِبِ وَانْقَضَىٰ عِـزُّ الْأُسُـودِ وَسُـؤْدُدُ الْآجَـامِ
مَا أَكْثَرَ الْأَبْطَالَ، إِلَّا أَنَّهُمْ أَبْطَالُ وَهْمٍ فِي سِلَاحِ كَلَامِ
لَمْ يَرْقَ شَعْبٌ بِالْكَلَامِ وَلَمْ يَقُمْ مُلْكٌ عَلَىٰ ضَعْفٍ وَلَا اسْتِسْلَامِ

ثُمَّ يُخَاطِبُ صَدِيقَهُ مُحِبَّ الدِّينِ قَائِلًا[2]:

قُلْ يَا نَجِيَّ النَّفْسِ مَا بَالُ الْأُلَىٰ مَلَأُوا الْمَصَارِعَ مِنْ ذَوِي الْأَرْحَامِ
أَلْقَوْا سِهَامَ اللَّهِ مِنْ أَيْمَانِهِمْ فَتَنَاوَلُوهَا مِنْ يَمِينِ الرَّامِي
هَلْ كُنْتَ تَعْرِفُ قَبْلَ مَصْرَعِ قَوْمِنَا لُغَةَ الْجِرَاحِ، وَمَنْطِقَ الْآلَامِ؟!
بِاللَّهِ إِنْ طَلَبُوا الْأُسَاةَ فَكُنْ لَهُمْ مَثَلًا مِنَ الرُّوحِ الْبَدِيعِ السَّامِي
احْفَظْ بَقِيَّتَهُمْ، وَإِنْ هُمْ ضَيَّعُوا مَا اسْتُحْفِظُوا مِنْ حُرْمَةٍ وَذِمَامِ

وَأَعْدَادُ «الْحَدِيقَةِ» الَّتِي تُمَثِّلُ الْمُخْتَارَ مِنَ الشِّعْرِ الْإِسْلَامِيِّ، قَدْ جَمَعَتْ قَصَائِدَ مُحَرَّمٍ فِي تَحِيَّةِ مُحِبِّ الدِّينِ، كَمَا جَمَعَتْ رَوَائِعَ مُخْتَارَةً مِنَ الْأَدَبِ الْإِسْلَامِيِّ شِعْرًا وَنَثْرًا، وَهِيَ كَاسْمِهَا «حَدِيقَةٌ» يَانِعَةٌ، وَلَا أُطِيلُ فِي الِاسْتِشْهَادِ لِأَنْتَقِلَ إِلَىٰ عَلَمٍ آخَرَ مِنْ أَعْلَامِ الْجِهَادِ، هُوَ الشَّيْخُ عَبْدُ الْعَزِيزِ جَاوِيشُ.

وَأَنْقُلُ كَلِمَةً مُوجَزَةً مِمَّا كَتَبْتُهُ عَنْ هَذَا الْعَلَمِ الْبَارِزِ فِي مَيْدَانِ الْكِفَاحِ الْبُطُولِيِّ[3] حَيْثُ قُلْتُ:

---

(١) السُّؤْرَ: بقية الشراب.

(٢) الدّيوَان ص ٧٩٦ وَمَا بعدهَا.

(٣) النّهضة الْإِسْلَامِيَّة فِي سير أعلامها الْمعاصرين ج «١» ص ٧٣ للدكتور مُحَمَّد رجب الْبيومي.

«إذَا كَانَ جَمَالُ الدِّينِ الْأَفْغَانِيُّ صَاحِبَ النَّظْرَةِ الْوَاسِعَةِ فِي الْمُحِيطِ الْإِسْلَامِيِّ ، إِذْ يَتَنَقَّلُ فِي شَتَّىٰ دُوَلِهِ مِنْ أَعْجَمِيَّةٍ وَعَرَبٍ لِيُعْلِنَ وَحْدَةَ الْبِلَادِ الْإِسْلَامِيَّةِ ، فَإِنَّ عَبْدَ الْعَزِيزِ جَاوِيش قَدْ أَخَذَ عَنْهُ مَبْدَأَهُ فَكَانَ امْتِدَادًا لَهُ حِينَ يُشْغَلُ بِهُمُومِ الْعَالَمِ الْإِسْلَامِيِّ ، وَيَقُومُ بِرِحْلَاتِهِ إِلَىٰ تُرْكِيَا وَالْمَغْرِبِ وَالْقُدْسِ وَمَكَّةَ لِيَجْمَعَ أَصْحَابَ التَّوْحِيدِ عَلَىٰ كَلِمَةٍ وَاحِدَةٍ ، وَكَانَ وُجُودُ مِثْلِهِ ضَرُورَةً هَامَّةً فِي عَصْرِهِ ؛ لِأَنَّ ذُيُولَ الِاسْتِعْمَارِ أَخَذُوا يُرَدِّدُونَ بِأَنَّ الشُّعُوبَ الشَّرْقِيَّةَ الضَّعِيفَةَ أَصْفَارٌ هَزِيلَةٌ ، وَلَا فَائِدَةَ مِنَ اتِّحَادِهَا ، وَعَلَىٰ كُلِّ أُمَّةٍ تُرِيدُ النُّهُوضَ أَنْ تُحَالِفَ دَوْلَةً أُورُبِّيَّةً ذَاتَ سُلْطَانٍ» إِلَىٰ آخِرِ مَا انْتَشَرَ مِنْ صَيْحَاتِ التَّخْذِيلِ ، فَكَانَ عَبْدُ الْعَزِيزِ بِسُلُوكِهِ فِي رِحْلَاتِهِ ، وَآرَائِهِ فِي مَقَالَاتِهِ أَوَّلَ مَنْ دَحَضَ هَذِهِ الْعَزِيمَةَ ، وَتَارِيخُهُ فِي مُقَاوَمَةِ الِاسْتِعْمَارِ فِي مِصْرَ قَذَفَ بِهِ إِلَىٰ السِّجْنِ تَارَةً ، وَإِلَىٰ النَّفْيِ خَارِجَ الْبِلَادِ تَارَةً أُخْرَىٰ ، فَصَادَفَ مِنْ أَهْوَالِ الِاغْتِرَابِ مَا كَدَّسَ أَمَامَهُ الْحَوَاجِزَ دُونَ إِعْلَانِ آرَائِهِ ، لَوْلَا هِمَّةٌ نَافِذَةٌ أَمَدَّهُ اللَّهُ بِهَا ، وَقَدْ شَعَرَ الْمُسْلِمُونَ بِأَسًى بَالِغٍ لِمَا نُقِلَ عَنْهُ أَثْنَاءَ اغْتِرَابِهِ مِنْ مُكَابَدَةِ الصِّعَابِ ، ثُمَّ أُتِيحَ لَهُ أَنْ يَرْجِعَ خُفْيَةً إِلَىٰ مِصْرَ ، فَسَكَتَ ذَوُو الْغَرَضِ عَنِ التَّنْوِيهِ بِمَقْدِمِهِ ، وَكَأَنَّهُمْ حَاوَلُوا أَنْ يَنْسَىٰ الْمِصْرِيُّونَ تَارِيخَهُ الْمَجِيدَ ، وَلَكِنَّ الشَّاعِرَ أَحْمَدَ مُحَرَّم بَادَرَ بِاسْتِقْبَالِهِ بِقَصِيدَةٍ مُمْتَازَةٍ ، كَانَ فِيهَا لِسَانَ الشَّعْبِ الْمُعَبِّرَ عَمَّا يُكِنُّهُ حَوْلَ هَذَا الْبَطَلِ مِنْ تَقْدِيرٍ ، وَمِمَّا قَالَ(١):

مِنْ حَقِّ رَكْبِكَ أَنْ يَهُزَّ النِّيلَا ، وَيَشُوقَ عَصْرَكَ بَهْجَةً وَالْجِيلَا
حَيْثُ وُفُودُ النِّيلِ مِنْكَ مُوَقَّرًا يُزْرِي بِأُبَّهَةِ الْمُلُوكِ جَلِيلَا

(١) الدِّيوَان ج ١، ص ٤٣٣.

لَمَّا مَشَىٰ بَيْنَ الْمَوَاكِبِ لَمْ يَدَعْ   لِـمُـتَـوَّجٍ عَـرْشًـا وَلَا إِكْـلِـيـلَا
تَمْشِي الْجُمُوعُ إِلَىٰ إِمَامِ هُدَاتِهَا   وَتَؤُمُّ شَـيْـخَ حُـمَـاتِـهَـا الْـمَـأْمُولَا
دَلِفَ الْفَوَارِسِ فِي لِوَائِكَ حُسَّرًا   وَمَضَـوْا رَعِيلًا لِلْوَغَىٰ وَرَعِيلَا
قُلْ لِلْكِنَانَةِ جَدَّ جَدُّكِ فَانْظُرِي   أَتَرَيْنَ إِلَّا سَيْفَكِ الْمَسْلُولَا ؟!
أَمُعَاوِدَ الْأَوْطَانِ بَعْدَ فِرَاقِهَا   أَنَـوَيْـتَ إِلَّا فُـرْقَـةً وَرَحِـيـلَا ؟!
بَعُدَ الْقَرَارُ فَسِرْ بِقَوْمِكَ هَادِيًا   وَاطْوِ الْمَدَىٰ مِيلًا إِلَيْهِ فَمِيلَا
بَيِّنْ لَهُمْ مَعْنَىٰ الثَّبَاتِ، فَلَيْسَ مِنْ   خُلُقِ الْمُجَاهِدِ أَنْ يَكُونَ مَلُولَا
إِنَّا لَنَذْكُرُ لِلْكِنَانَةِ حَقَّهَا   وَنَرَىٰ الْكَثِيرَ مِنَ الْوَفَاءِ قَلِيلَا
نَأْبَىٰ الْكَرَىٰ، حَتَّىٰ نَقُومَ بِنَصْرِهَا   وَنَرُدَّ غَاصِبَ حَقِّهَا مَخْذُولَا

وَقَدْ قَامَتِ الْحَوَائِلُ، دُونَ أَن يَكُونَ لِعَبْدِ الْعَزِيزِ الْمَقَامُ الْأَوَّلُ بَيْنَ أَصْحَابِ الرَّأْيِ، كَمَا كَانَ قَبْلَ النَّفْيِ، وَلَكِنَّهُ ثَابَرَ عَلَىٰ الْجِهَادِ خَطِيبًا فِي الْمَحَافِلِ، وَمُرَشَّحًا فِي الدَّوَائِرِ الِانْتِخَابِيَّةِ، وَوَكِيلًا لِجَمْعِيَّةِ الشُّبَّانِ الْمُسْلِمِينَ، ثُمَّ مُرَبِّيًا كَبِيرًا فِي وَزَارَةِ الْمَعَارِفِ يُشْرِفُ عَلَىٰ التَّعْلِيمِ الْأَوَّلِيِّ، وَيُعِدُّ مَنَاهِجَهُ الْمُنَاسِبَةَ بَعْدَ أَنْ خَلُصَتِ الْبِلَادُ مِنْ سَيْطَرَةِ «دَنْلُوبْ»، ثُمَّ انْتَهَىٰ الرَّجُلُ إِلَىٰ خَاتِمَتِهِ الصَّادِقَةِ، فَرَثَاهُ أَحْمَدُ مُحَرَّم رِثَاءً حَارًّا قَالَ فِي مَطْلَعِهِ(١):

سَائِلِ الْقَوْمَ فِي الْمَقَابِرِ صَرْعَىٰ   أَفَمَا تَمْلِكُونَ لِلْقَوْلِ رَجْعَا
أَيْنَ عَبْدُ الْعَزِيزِ يَطْلُعُ بِالْحَقِّ   مُضِيئًا يَمْحُو الْأَبَاطِيلَ سَفْعَا

(١) الدِّيوَان ج ٢، ص ٤٠٣.

فِي بَيَانٍ مِنَ الْهِدَايَةِ عَالٍ ... يَنْزِعُ الْجَهْلَ وَالْغِوَايَةَ نَزْعَا

وَالْقَصِيدَةُ فَوْرَةٌ عَاجِلَةٌ نَفَّسَ فِيهَا الشَّاعِرُ عَنْ ذَاتِ صَدْرِهِ دُونَ تَرَيُّثٍ، وَقَدْ رَأَىٰ بَعْدَ هُدُوءِ نَفْسِهِ أَنْ يُعِيدَ الْكَرَّةَ مُتَأَنِّيًا مُطْمَئِنًّا لِيُنْشِدَ مَرْثِيَّةً جَدِيدَةً بِالْمُجَاهِدِ الْكَبِيرِ، فَأَبْدَعَ إِبْدَاعًا رَائِعًا إِذْ هَتَفَ فِي مَطْلَعِ الْقَصِيدَةِ[1]:

أَطَوَيْتَهُنَّ وَمَا اسْتَرَاحَ النَّاعِي؟ ... يَا لِلرِّفَاقِ لِأَرْبَعِينَ سِرَاعِ!

هُنَّ الْمَطَايَا النُّكْدِ يَصْدَعْنَ الْهَوَىٰ ... وَيَهِجْنَ شَجْوَ الْوَاجِدِ الْمُلْتَاعِ

خَيْرُ اللِّدَاتِ الصَّالِحِينَ فَقَدْتُهُمْ ... فَفَقَدْتُ خَيْرَ ذَخِيرَةٍ وَمَتَاعِ

قُلْ لِلرِّفَاقِ الْهَاجِعِينَ تَنَبَّهُوا ... إِنَّ الْخُطُوبَ قَلِيلَةُ التَّهْجَاعِ

وَاهْزُزْ يَدَيْ عَبْدِ الْعَزِيزِ وَحَيِّهِ ... بِصَحِيفَةٍ قُدْسِيَّةٍ وَيَرَاعِ

وَقِفِ الْبَيَانَ عَلَىٰ جَوَانِبِ قَبْرِهِ ... حَيِّ التَّفَجُّعِ مَيِّتَ الْإِبْدَاعِ

وَإِذَا كَانَ عَبْدُ الْعَزِيزِ جَاوِيشُ مِنْ زُعَمَاءِ الْحِزْبِ الْوَطَنِيِّ، وَثَالِثَ مُصْطَفَىٰ كَامِلٍ وَمُحَمَّدٍ فَرِيدٍ فَإِنَّ الْأَغْلَبِيَّةَ الشَّعْبِيَّةَ الْكُبْرَىٰ الَّتِي كَانَتْ لِلْوَفْدِ بِزَعَامَةِ الرَّئِيسِ الْجَلِيلِ سَعْدِ زَغْلُولٍ قَدْ جَعَلَتْ مُرَشَّحَ الْوَفْدِ يَفُوزُ عَلَىٰ عَبْدِ الْعَزِيزِ فِي الِانْتِخَابَاتِ الْبَرْلَمَانِيَّةِ، وَلَيْسَ فِي ذَلِكَ أَدْنَىٰ نَقْدٍ يُوَجَّهُ لِلشَّيْخِ، فَالْأَكْثَرِيَّةُ لَا تَعْرِفُ بَيَانَ عَبْدِ الْعَزِيزِ، وَقَدْ طَالَتْ مُدَّةُ نَفْيِهِ فَجَهِلَتْهُ، وَلَكِنَّ الشَّاعِرَ مُحَرَّمًا قَدْ سَاءَتْهُ نَتِيجَةُ هَذِهِ الِانْتِخَابَاتِ؛ فَقَالَ[2]:

جَعَلُوا النِّيَابَةَ لِلْجَبَانِ فَرَاعَهُمْ ... إِقْدَامُ بَدْرِيِّ اللِّوَاءِ شُجَاعِ

صَنَعُوا مِنَ الْأَحْجَارِ عُبَّادًا لَهُمْ ... لَا يَسْأَمُونَ عِبَادَةَ الصُّنَّاعِ

---

(١) الدِّيوَان ج ٢، ص ٤٠٦.

(٢) السابق.

هِيَ فِتْنَةٌ لَا الْأَحْوَذِيُّ بِنَافِعٍ فِيهَا، وَلَا دَاعِي الْهُدَىٰ بِمُطَاعٍ

وَفِي الْقَصِيدَةِ تَلْمِيحٌ سَيِّءٌ بِسَعْدِ زَغْلُولٍ، وَكَانَ مِنَ الْأَوْفَقِ أَلَّا يَتَّجِهَ مُحَرَّمٌ إِلَىٰ انْتِقَاصِ كَبِيرٍ مِنْ أَخْلَصِ زُعَمَاءِ الْوَطَنِ، وَلَكِنَّهَا الْمُغَالَاةُ! وَمَعَ مَنْ؟ مَعَ زَعِيمِ الْأُمَّةِ دُونَ مِرَاءٍ!.

وَلِأَمِينِ الرَّافِعِيِّ حُبٌّ أَكِيدٌ فِي نَفْسِ مُحَرَّمٍ، أَخْلَصَ الْمَدِيحَ لَهُ حَيًّا، وَكَرَّرَ الرِّثَاءَ لَهُ مَثْنَىٰ وَثُلَاثَ مَيْتًا، وَأَمِينٌ الزَّعِيمُ الْحُرُّ الْمُلْتَهِبُ حَمَاسَةً وَحَمِيَّةً جَدِيرٌ بِتَقْدِيرِ ذَوِي الْإِنْصَافِ، وَأَذْكُرُ أَنِّي قُلْتُ فِي مَجَالِ الْحَدِيثِ عَنْهُ[1]: «إِنَّ عَنَاصِرَ الطَّهَارَةِ وَالْإِخْلَاصِ وَالْفِدَائِيَّةِ، وَمُجَابَهَةِ الْبَاطِلِ، وَالِاسْتِعْلَاءِ عَلَىٰ الطُّغْيَانِ وَالْهُيَامِ بِالْمَثَلِ الْأَعْلَىٰ صِفَاتٌ مُشْتَرَكَةٌ بَيْنَ الْمُجَاهِدَيْنِ الْكَبِيرَيْنِ «مُصْطَفَىٰ كَامِلٍ وَأَمِينِ الرَّافِعِيِّ»».

هَٰذِهِ الْعَنَاصِرُ الْمِثَالِيَّةُ جَدِيرَةٌ بِأَنْ تَكُونَ مَوْضِعَ الِاسْتِشْهَادِ الْمُلِحِّ فِي مُؤَلَّفَاتِ أَسَاتِذَةِ التَّرْبِيَةِ وَعُلَمَاءِ الْأَخْلَاقِ، وَعَلَىٰ هَؤُلَاءِ أَنْ يَرُدُّوهَا إِلَىٰ مَنْبَعِهَا الْأَوَّلِ، وَهُوَ مَبَادِئُ الْإِسْلَامِ، الَّتِي تَبْعَثُ الْعِزَّةَ فِي قَلْبِ الْمُؤْمِنِ الْحَقِيقِيِّ، فَيَنْطَلِقُ إِلَىٰ تَحْقِيقِ الْمَثَلِ الْأَعْلَىٰ، كُلَّمَا اسْتَمَعَ إِلَىٰ وَحْيِهِ مِنْ كِتَابِ اللَّهِ وَسُنَّةِ رَسُولِهِ ﷺ، وَوَقَائِعِ السَّلَفِ مِنْ صُدُورِ الْأَئِمَّةِ وَالْمُجَاهِدِينَ، لَقَدْ سَانَدَ أَمِينٌ الرَّافِعِيُّ ثَوْرَةَ سَنَةَ ١٩١٩م، وَكَتَبَ أَحْسَنَ مُذَكِّرَةٍ سِيَاسِيَّةٍ قَدَّمَتْهَا مِصْرُ إِلَىٰ مَنْدُوبِي الدُّوَلِ الْأُورُبِّيَّةِ فِي مِصْرَ، وَتَحَدَّثَ عَنِ السِّيَاسَةِ الْإِنْكِلِيزِيَّةِ بِمَا يَكْشِفُ غَدْرَهَا فِي دِرَاسَةٍ قَانُونِيَّةٍ تُثْبِتُ بُطْلَانَ الِاحْتِلَالِ، وَكَذِبَ الْوُعُودِ الْمُتَكَرِّرَةِ بِالْجَلَاءِ، ثُمَّ وَضَعَ نَمُوذَجًا لِلدُّسْتُورِ الْمُرْتَقَبِ حَازَ قَبُولَ

(١) النهضة الإسلامية في سير أعلامها المعاصرين ج «٢» ص ٢٥٧ للدكتور محمد رجب البيومي.

الْقَانُونِيِّينَ، وَهَذَا مَا هَزَّ شَاعِرِيَّةَ مُحَرَّم، فَكَتَبَ إِلَيْهِ قَصِيدَةً يَقُولُ فِيهَا[1]:

أَأَمِينُ أَعْطَيْتَ الْقَضِيَّةَ حَقَّهَا ... وَحَكَمْتَ فِيهَا حُكْمَكَ الْمَقْبُولَا
وَشَرَعْتَ لِلزُّعَمَاءِ دِينَ هِدَايَةٍ ... يَمْحُو الرِّيَاءَ وَيَمْحَقُ التَّضْلِيلَا
دِينٌ يَلُوذُ الْحَقُّ مِنْ أَحْكَامِهِ ... بِالْبَأْسِ صِدْقًا وَالْجِهَادِ طَوِيلَا
أَمُّ الْكَبَائِرِ فِيهِ أَنْ يَجِدَ الْفَتَىٰ ... يَأْسًا، وَأَنْ يَخْشَىٰ الْكِفَاحَ مَلُولَا
وَالْكُفْرُ أَجْمَعَ أَنْ يسَاوِمَ خَصْمَهُ ... يَبْغِي مِنَ الْخَطَرِ الْجَلِيلِ بَدِيلَا
أَنْتَ الْمِثَالُ لِكُلِّ حُرٍّ صَادِقٍ ... يَأْبَىٰ التَّقَلُّبَ فِي الْأُمُورِ سَبِيلَا
إِنَّ الْأَئِمَّةَ غَادَرُوكَ بِمَوْقِفٍ ... وَقَفَ الْوَصِيُّ بِهِ يَصُونُ الْغِيلَا
تَجِدُ النَّبِيَّ يَجُولُ فِي غَمَرَاتِهِ ... وَتَرَىٰ عَلَىٰ أَرْجَائِهِ جِبْرِيلَا

وَالنَّبِيُّ ﷺ وَجِبْرِيلُ وَعَلِيٌّ! لَا يَكُونُونَ إِلَّا فِي مَوْقِفِ الْحَقِّ، لِذَلِكَ أَكَّدَ الشَّاعِرُ صَوَابَ أَمِين، بِمَا ذَكَرَهُ مِنْ هَؤُلَاءِ الصَّفْوَةِ! وَقَدْ كَانَ أَمِينٌ يَفْتَتِحُ مَقَالَاتِهِ السِّيَاسِيَّةَ بِآيَاتٍ مِنَ الْكِتَابِ الْمُبِينِ كَمَا كَانَ كَثِيرَ الِاسْتِشْهَادِ بِأَحَادِيثِ الرَّسُولِ ﷺ وَالصَّحَابَةِ، وَهُوَ مَا دَفَعَ مُحَرَّمًا إِلَىٰ هَذَا التَّصْوِيرِ..

وَحِينَ مَاتَ هَذَا الزَّعِيمُ الْحُرُّ رَثَاهُ مُحَرَّمٌ بِثَلَاثِ قَصَائِدَ أَشَرْتُ إِلَىٰ وَاحِدَةٍ مِنْهَا مِنْ قَبْلُ، وَأُشِيرُ هُنَا إِلَىٰ قَصِيدَةٍ ثَانِيَةٍ مُؤَثِّرَةٍ قَالَ فِيهَا[2]:

سَلُوا مِصْرَ إِذْ أَوْدَىٰ فَتَاهَا الْمُحَبَّبُ ... أَمَا انْصَرَفَتْ آمَالُهَا وَهْيَ خُيَّبُ؟
وَحُوطُوا حِمَىٰ الْإِسْلَامِ إِنِّي أَخَافُهَا ... كَتَائِبَ شَتَّىٰ حَوْلَهُ تَتَأَلَّبُ

(١) الدّيوان ج ١، ص ٦٣٢.
(٢) الدّيوان ج ١، ص ٦٩٦.

دَعَوْتُ الْأَمِينَ الْحُرَّ دَعْوَةَ مُشْفِقٍ   يَرَىٰ دَوْلَةَ الْأَحْرَارِ فِي مِصْرَ تُنْكَبُ
تَتَابَعَ أَبْطَالُ الْجِهَادِ وَغُودِرَتْ   بَقَايَا سُيُوفٍ فِي يَدِ اللَّهِ تَضْرِبُ
تَصُونُ جَلَالَ الدِّينِ ، وَالدِّينُ يُزْدَرَىٰ   وَتَحْمِي لِوَاءَ الْحَقِّ ، وَالْحَقُّ يُسْلَبُ
أَقَامَ الْهُدَىٰ أَعْلَامَهُ فِي ظِلَالِهَا   فَمَا فِيهِ لِلْغَاوِي الْمُضَلِّلِ مَأْرَبُ
دَوَافِعُ لِلْجُلَّىٰ ، سَوَاطِعُ فِي الدُّجَىٰ   طَوَالِعُ لِلسَّارِينَ ، وَالشُّهْبُ غُيَّبُ
وَإِنَّا لَنَأْبَىٰ أَنْ نَرَىٰ مِصْرَ عَوْرَةً   نُسَبُّ بِهَا فِي الْعَالَمِينَ وَنُثْلَبُ
أَنَتْرُكُهَا نَهْبَ الْمُغِيرِينَ؟ إِنَّنَا   لَتُنْكِرُنَا آبَاؤُنَا حِينَ نُنْسَبُ

وَنَأْتِي إِلَىٰ الرَّجُلِ الْعَظِيمِ حَقًّا عَبْدِ الْحَمِيدِ سَعِيدٍ ، فَقَدْ كَانَ بَطَلَ الْأَبْطَالِ شَجَاعَةَ رَأْيٍ ، وَمُوَاجَهَةَ مُحْتَلٍّ ، وَصِدْقَ حَمِيَّةٍ ، رَأَسَ جَمْعِيَّةَ الشُّبَّانِ الْمُسْلِمِينَ لِيَجْعَلَهَا حِصْنَ الدِّفَاعِ أَمَامَ الْهُجُومِ الِاسْتِعْمَارِيِّ الْوَافِدِ بِثَقَافَتِهِ الْمُغْرِضَةِ ، كَمَا كَانَ هُوَ حِصْنَ الدِّفَاعِ بِمَوَاقِفِهِ السِّيَاسِيَّةِ فِي بَرْلَمَانِ مِصْرَ ، وَفِي مَيَادِينِ الْحُرُوبِ بِطَرَابُلْسَ وَبَرْقَةَ ، وَفِي عَوَاصِمِ أُورُبَّا بِبَارِيس وَلَنْدَن وَبَرْلِين ، وَقَدْ صَمَدَ لِأَعْتَىٰ التَّيَّارَاتِ الْفِكْرِيَّةِ هُجُومًا عَلَىٰ الْإِسْلَامِ ، وَجَاءَ مَنْ يَذْكُرُهُ بِالرَّجْعِيَّةِ ، وَيَصِمُهُ بِالتَّخَلُّفِ لِأَنَّهُ دَافَعَ عَنْ كِتَابِ اللَّهِ فِي مَجْلِسِ النُّوَابِ ، لَقَدْ دَرَّسَ الدُّكْتُورُ طَهَ حُسَيْنٌ الْأُسْلُوبَ الْقُرْآنِيَّ عَلَىٰ نَفَرٍ مِنْ طُلَّابِ الْجَامِعَةِ فَنَقَلَ إِلَىٰ الشَّبَابِ الْغَرِيرِ الَّذِي لَا يَعْرِفُ وَجْهَ الْحَقِّ فِيمَا يَسْمَعُ مَا يَقُولُهُ أَعْدَاءُ الْقُرْآنِ عَنْ تَفَكُّكِ أُسْلُوبِهِ ، وَاخْتِلَافِ الْقِسْمِ الْمَدَنِيِّ مِنْهُ عَنِ الْقِسْمِ الْمَكِّيِّ فِي طَرِيقَةِ التَّعْبِيرِ ، لِأَنَّ مُحَمَّدًا صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي زَعْمِ مَنْ نَقَلَ عَنْهُ طَهَ حُسَيْنٌ قَدْ تَأَثَّرَ بِالْيَهُودِ فِي الْمَدِينَةِ فَارْتَقَىٰ أُسْلُوبُ الْقُرْآنِ

بِهَذَا التَّأَثُّرِ !! وَلَا أُطِيلُ فِي سَرْدِ تُرَّهَاتٍ مِنَ الْخَيْرِ أَنْ تُوءَدَ ، وَقَدْ وَأَدَهَا بِالدَّلِيلِ الْمُفْحِمِ ، وَالرَّدِّ الْمُلْجِمِ أُسْتَاذُنَا الْكَبِيرُ الشَّيْخُ مُحَمَّدٌ عَرَفَةُ ، عَلَىٰ نَحْوِ مَا يَجِدُهُ الْقَارِئُ مُدَوَّنًا بِالْجُزْءِ الْأَوَّلِ مِنْ كِتَابِنَا « النَّهْضَةُ الْإِسْلَامِيَّةُ فِي سِيَرِ أَعْلَامِهَا الْمُعَاصِرِينَ »[1].

ثُمَّ جَاءَ مِمَّنْ أَلَّفُوا الْكُتُبَ عَنْ طَهَ حُسَيْنٍ مَنْ يَقُولُ : « لَقَدْ لَغَطَ الْحَشْوِيُّونَ الْمُتَحَجِّرُو الْعُقُولِ حَوْلَ « طَهَ حُسَيْنٍ » بِمُنَاسَبَةٍ وَغَيْرِ مُنَاسَبَةٍ ، إِذْ أَثَارَ الْأُسْتَاذُ عَبْدُ الْحَمِيدِ سَعِيدٌ فِي الْبَرْلَمَانِ ، وَكَانَ رَحِمَهُ اللَّهُ وَغَفَرَ لَهُ مِنْ أَئِمَّةِ الرَّجْعِيَّةِ فِي مِصْرَ ، قَضِيَّةَ كِتَابِ الشِّعْرِ الْجَاهِلِيِّ مِنْ جَدِيدٍ ، وَكَانَ عَلَىٰ رَأْسِ الْحُكْمِ إِسْمَاعِيلُ صِدْقِي .. فَدَفَعَ النُّوَّابَ الرَّجْعِيِّينَ إِلَىٰ الثَّوْرَةِ عَلَىٰ طَهَ حُسَيْنٍ لِيُؤَلِّبُوا عَلَيْهِ الرَّأْيَ الْعَامَّ سَنَةَ ١٩٣٢م وَقَدْ دَفَعُوا الْأَزْهَرَ مِنْ جَدِيدٍ لِيَسْنِدَ الْحُكُومَةَ بِهَذَا الِاتِّجَاهِ ، فَنَقَلُوا طَهَ حُسَيْنَ مِنَ الْجَامِعَةِ إِلَىٰ وَزَارَةِ الْمَعَارِفِ » وَهَذَا الْكَلَامُ جَمِيعُهُ افْتِرَاءٌ صَارِخٌ ضِدَّ الْحَقِيقَةِ الَّتِي يَجْهَلُهَا أَوْ يَتَجَاهَلُهَا الْأُسْتَاذُ سَامِي الْكَيَالِي حِينَ سَرَدَ ذَلِكَ فِي كِتَابِهِ « مَعَ طَهَ حُسَيْنٍ »[2]، وَالْمُؤَلِّفُ سُورِيٌّ يَعِيشُ فِي حَلَبَ ، وَلَا يَدْرِي شَيْئًا عَمَّا كَانَ فِي مِصْرَ إِذْ ذَاكَ ؛ لِأَنَّ الدُّكْتُورَ عَبْدَ الْحَمِيدِ لَمْ يَتَحَدَّثْ فِي الْبَرْلَمَانِ عَنْ قَضِيَّةِ الشِّعْرِ الْجَاهِلِيِّ سَنَةَ ١٩٣٣م ، وَلَكِنَّهُ تَحَدَّثَ عَنِ الْمُذَكِّرَاتِ الَّتِي أَمْلَاهَا الدُّكْتُورُ طَهَ حُسَيْنُ خَاصَّةً بِتَفَكُّكِ الْأُسْلُوبِ الْقُرْآنِيِّ وَاخْتِلَافِ التَّعْبِيرِ فِي مَدَنِيِّهِ عَنْ مَكِّيِّهِ تَأَثُّرًا بِثَقَافَةِ الْيَهُودِ !! لَقَدْ أَصْبَحَ الْمُدَافِعُ عَنِ الْقُرْآنِ

(١) النهضة الإسلامية ج «١» ص ٥٣١ ط دار القلم .
(٢) مع طه حسين « سلسلة اقرأ » للأستاذ سامي الكيالي ص ٦٧.

الْكَرِيمِ حَشْوِيًّا مُتَحَجِّرًا مِنْ كِبَارِ الرَّجْعِيِّينَ ! وَقَدْ تَنَازَلَ الْكَاتِبُ فَطَلَبَ لَهُ الْمَغْفِرَةَ ، وَكُلُّنَا يَطْلُبُ الْمَغْفِرَةَ مِنَ اللَّهِ ، وَلَكِنْ هَلِ الدِّفَاعُ عَنْ كِتَابِ اللَّهِ فِي هَذَا الْمَوْقِفِ الصَّرِيحِ الْإِثْمِ يَتَطَلَّبُ الْمَغْفِرَةَ لِلْمُدَافِعِ أَمْ لِلْمُهَاجِمِ ! وَالْعَجِيبُ أَنَّ مَا كَتَبَهُ الْأُسْتَاذُ الْكَيَالِي عَلَىٰ بَاطِلِهِ الصَّرِيحِ أَصْبَحَ حَقِيقَةً مُسَلَّمَةً لَدَىٰ بَعْضِ مَنْ كَتَبَ فِي الْجَامِعَةِ رِسَالَةً عِلْمِيَّةً عَنْ طَهَ حُسَيْنٍ ، فَنَقَلَ هَذِهِ الْأَغَالِيطَ كَمَا هِيَ ، وَطَلَبَ الْمَغْفِرَةَ لِلرَّجُلِ الْجَامِدِ الْمُتَحَجِّرِ أَيْضًا ! وَكَمْ ذَا بِمِصْرَ مِنَ الْمُضْحِكَاتِ .

أَعُودُ إِلَىٰ مُحَرَّمٍ ؛ فَأَذْكُرُ أَنَّ الصِّلَاتِ الْحَمِيمَةَ الْقَائِمَةَ عَلَىٰ إِخْلَاصِ الْفِكْرَةِ ، وَاتِّحَادِ الْهَدَفِ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الدُّكْتُورِ عَبْدِ الْحَمِيدِ سَعِيدٍ قَدْ دَعَتْهُ إِلَىٰ الْمُشَارَكَةِ أَدَبِيًّا فِي أَكْثَرِ نَدَوَاتِ الشُّبَّانِ الْمُسْلِمِينَ الدِّينِيَّةِ وَالسِّيَاسِيَّةِ عَلَىٰ نَحْوِ مَا يُرَىٰ فِي دِيوَانِهِ الْكَبِيرِ بِأَجْزَائِهِ الْخَمْسَةِ ! كَمَا كَانَ مُحَرَّمٌ مِنْ أَسْرَعِ الْبَاكِينَ عَلَيْهِ حِينَ ارْتَحَلَ إِلَىٰ جِوَارِ رَبِّهِ ؛ فَرَثَاهُ بِقَصِيدَةٍ شَاجِيَةٍ قَالَ فِيهَا[1]:

يَا مُنْصِفَ الْإِسْلَامِ مِنْ أَعْدَائِهِ ... لَا الظُّلْمُ جَاوَزَهُ وَلَا الْعُدْوَانُ
أَتَنَامُ عَنْ حَالٍ تَظَلُّ لِمِثْلِهَا ... تَهْفُو الْقُبُورُ وَتَفْزَعُ الْأَكْفَانُ ؟
قُمْ لِلْكِفَاحِ فَلَاتَ حِينَ هَوَادَةٍ ... ضَجَّ الصَّرِيخُ وَجَالَتِ الْفُرْسَانُ
قُمْ فِي سِلَاحِكَ مَا لِمِثْلِكَ صَاحِبٌ ... إِلَّا حُسَامٌ قَاطِعٌ وَسِنَانُ
مَاذَا يَظُنُّ أُولُو الْحِفَاظِ بِبَاسِلٍ ... عَالِي اللِّوَاءِ سِلَاحُهُ الْقُرْآنُ
مُتَجَرِّدٌ لِلَّهِ، حَشْوُ قَمِيصِهِ ... تَقْوَىٰ، وَمِلْءُ فُؤَادِهِ إِيمَانُ

(١) الدِّيوَان ج ٤، ص ٨٩٨.

يَرْمِي وَيُرْمَىٰ لَا يَضِنُّ بِنَفْسِهِ   إِنَّ الضَّنِينَ بِنَفْسِهِ لَجَبَانُ
سَيْفٌ بِأَعْنَاقِ الْغُوَاةِ مُوَكَّلٌ   تَغْفَىٰ السُّيُوفُ، وَحَدُّهُ يَقْظَانُ
لِلَّهِ فِيهِ يَدٌ يُضِيءُ شُعَاعُهَا   سُبُلَ الْحَيَاةِ، وَلِلنَّبِيِّ لِسَانُ
أَوْ مَا رَأَيْتُمْ كَيْفَ كَانَ يَزِينُهُ   لِلْحَقِّ نُورٌ سَاطِعٌ وَبَيَانُ؟
عَبْدَ الْحَمِيدِ، أَلَا تَهُزُّكَ صَيْحَةٌ   فَزِعَتْ لَهَا الْأَقْطَارُ وَالْبُلْدَانُ؟
أَلْقَىٰ بِهَا الْإِسْلَامُ نَارًا تَرْتَمِي   فَإِذَا الْجَوَانِحُ وَالْقُلُوبُ دُخَانُ
جَاشَتْ لِفَقْدِكَ نَفْسُهُ وَطَغَىٰ الْأَسَىٰ   فِي قَلْبِهِ فَكَأَنَّهُ الْبُرْكَانُ
أَوْ لَمْ تَكُنْ لِلْمُسْلِمِينَ مَثَابَةً   يَأْوِي إِلَيْهَا الشِّيبُ وَالشُّبَّانُ
يُؤْذِيكَ أَنْ يُرْمَىٰ الضَّعِيفُ بِظَالِمٍ   شَرِسِ الْخَلَائِقِ، دَأْبُهُ الطُّغْيَانُ
وَيُثِيرُ سُخْطَكَ أَنْ يَضِيعَ لِمُسْلِمٍ   حَقٌّ وَيَغْشَاهُ أَذًى وَهَوَانُ
الْمَسْجِدُ الْأَقْصَىٰ لِمَوْتِكَ خَاشِعٌ   وَالْبَيْتُ بَعْدَكَ جَازِعٌ أَسْوَانُ
لَمَّا خَلَتْ مِنْكَ الْمَنَابِرُ بَغْتَةً   لَمْ يَخْلُ مِنْ أَسَفٍ عَلَيْكَ مَكَانُ
تَتَنَازَعُ الْأَجْيَالُ ذِكْرَكَ طَيِّبًا   عَبِقًا، وَتَهْتِفُ بِاسْمِكَ الْأَزْمَانُ
سِرْ فِي الدُّهُورِ، وَقُمْ عَلَىٰ هَامَاتِهَا   عَلَمًا يُضِيءُ، فَتَهْتَدِي الرُّكْبَانُ
مَا لِلْبِلَىٰ فِي الْعَبْقَرِيَّاتِ الْعُلَىٰ   أَمْرٌ يُطَاعُ، وَلَا لَهُ سُلْطَانُ
وَاطْوِ الْجِوَاءَ إِلَىٰ مَكَانِكَ صَاعِدًا   فَمَدَاكَ حَيْثُ تُحَلِّقُ الْعُقْبَانُ
مَا زِلْتَ تَخْتَارُ الْمَنَازِلَ تَبْتَغِي   مَا يَبْتَغِي الْمُتَزَوِّدُ الْعَجْلَانُ
حَتَّىٰ حَلَلْتَ مِنَ الْإِلَٰهِ مَحِلَّةً   مَا جَازَهَا عُمَرٌ وَلَا عُثْمَانُ

وَكَلِمَةُ جَازَهَا بِالْجِيمِ لَا بِالْحَاءِ ؛ لِأَنَّ التَّطْبِيعَ قَدْ أَوْقَعَ النَّاسَ فِي لَبْسٍ حِينَ نُشِرَتْ بِبَعْضِ الصُّحُفِ حَاءً ، وَصُحِّحَتْ بِالدِّيوَانِ ، وَمِثْلُ مُحَرَّمٍ الدَّقِيقُ لَا يُسَارِعُ أَحَدٌ بِمُؤَاخَذَتِهِ إِلَّا عَنْ يَقِينٍ .

أَمَّا الْأَمِيرُ عُمَرُ طُوسُون فَقَدْ كَانَ زَعِيمًا إِسْلَامِيًّا ، وَوَطَنِيًّا مِصْرِيًّا وَمُؤَرِّخًا عَالِمًا قَبْلَ أَنْ يَكُونَ أَحَدَ أُمَرَاءِ الْبَيْتِ الْمَالِكِ ، وَقَدْ تَعَدَّدَتْ هِبَاتُهُ الْكَثِيرَةُ لِلْجَمْعِيَّاتِ الْإِسْلَامِيَّةِ ، وَالْمَبَرَّاتِ الْخَيْرِيَّةِ ، وَالْمُنْشَآتِ التَّعْلِيمِيَّةِ وَالْمَسَاجِدِ الْمُتَعَدِّدَةِ ، فَأَثَارَتْ شَاعِرِيَّةَ مُحَرَّمٍ وَاخْتَصَّهُ بِقَصَائِدَ كَثِيرَةٍ فِي حَيَاتِهِ ، ثُمَّ رَثَاهُ رِثَاءً حَارًّا بَعْدَ مَمَاتِهِ ، وَكَيْلَا يَظُنَّ أَحَدٌ الْمُبَالَغَةَ فِيمَا نَظَمَ الشَّاعِرُ الْأَصِيلُ ، فَإِنَّنَا نَنْقُلُ عَنِ الْأُسْتَاذِ الْكَبِيرِ أَحْمَدَ حَسَنِ الزَّيَّاتِ صَاحِبِ الرِّسَالَةِ كَلِمَةً صَادِقَةً عَنِ الْأَمِيرِ قَالَ فِيهَا[1]؛ حِينَ كَتَبَ تَأْبِينَهُ :

فُجِعَتْ مِصْرُ فِي أَمِيرِهَا ، وَقَلَّمَا تُفْجَعُ مِصْرُ فِي أَمِيرٍ ! فَعُمَرُ بَاشَا أَحَقُّ أَنْدَادِهِ بِأَنْ تَقُولَ مِصْرُ فِيهِ : الْيَوْمَ فَقَدْتُ ابْنِيَ الْبَارَّ ، وَأَمِيرِيَ الْحَقَّ ؛ ذَلِكَ لِأَنَّهُ أَعَزَّهَا وَأَجَلَّهَا ، وَعَاشَ فِيهَا وَبِهَا وَلَهَا ، وَوَقَفَ عَلَى خِدْمَتِهَا حَيَاتَهُ كُلَّهَا ، فَلُغَتُهَا لُغَتُهُ ، وَدِينُهَا دِينُهُ ، وَقَوْمُهَا قَوْمُهُ ، وَتَقَالِيدُهَا تَقَالِيدُهُ .. لَمْ تُسَوِّلْ لَهُ نَفْسُهُ مَرَّةً أَنْ يَقِفَ عَلَى قِمَّةِ الشَّرَفِ الْمَوْرُوثِ ثُمَّ يَنْظُرُ مِنْ عَلْيَاءَ إِلَى رِزْقِ اللَّهِ ، وَخَلْقِ اللَّهِ ، بِشِطْرِ عَيْنِهِ وَيَقُولُ بِلَهْجَةِ الْمُتَغَطْرِسِ : أُولَئِكَ ضِيَاعِي ، وَهَؤُلَاءِ عَبِيدِي ! » .

شَاهَدَ مُحَرَّمٌ تَبَرُّعَاتِ الْأَمِيرِ تَنْسَابُ فِي كُلِّ مُنَاسَبَةٍ ، وَرُفَقَاؤُهُ الْأُمَرَاءُ لَا يَبْذُلُونَ قَلِيلًا وَلَا كَثِيرًا ، فَأَرَادَ بِمَدْحِهِ أَنْ يُوقِظَ فِيهِمْ شُعُورَ الْمَسْئُولِيَّةِ نَحْوَ

(١) مجلة الرّسالة - العدد ٥٥٢ - ١٩٤٤/١/٣م.

الْمُعْوِزِينَ ، وَكَرَّرَ هَذَا الْمَدِيحَ كُلَّمَا تَكَرَّرَ الْعَطَاءُ حَتَّى شَغَلَتِ الْقَصَائِدُ الْعُمَرِيَّةُ فِي الْجُزْءِ الرَّابِعِ مِنَ الدِّيوَانِ حَيِّزًا مَلْحُوظًا ، وَالشَّاعِرُ فِي مَدِيحِهِ الْمُخْلِصِ لَمْ يَنْسَ نَفْسَهُ ، بَلْ جَعَلَ أَدَبَهُ نِدًّا مُمَاثِلًا لِفَضْلِ الْأَمِيرِ ، فَهْوَ إِذَنْ لَا يَتَمَلَّقُهُ ، بَلْ يُقْرِنُ فَضْلَهُ بِفَضْلٍ مُمَاثِلٍ ! فَضْلُ النَّظِيرِ الْمُكَافِئِ لِلنَّظِيرِ ، فَهْوَ يَقُولُ تَحْتَ عُنْوَانِ « كِلَانَا مِنْ صَنِيعِ اللَّهِ بِدْعٌ » مُخَاطِبًا الْأَمِيرَ(١):

أَمِيرِي ، لَا بَرِحْتَ تَزِيدُ مَجْدًا ... وَتَعْلُو مَوْضِعًا ، وَتَطِيبُ ذِكْرَا
فَكَمْ مِنْ مُمْلِقٍ خَوَّلْتَ نُعْمَىٰ ... أَصَابَ بِهَا غِنًى ، وَأَصَبْتَ شُكْرَا
وَلَوْلَا مَا شَرَعْتَ لِكُلِّ حُرٍّ ... مِنَ الْأَخْلَاقِ مَا أَلْفَيْتُ حُرًّا
وَمَنْ يَكُ ذُخْرَهُ عُمَرٌ تَوَلَّتْ ... خُطُوبُ الدَّهْرِ عَنْهُ تَطِيرُ ذُعْرَا
كِلَانَا مِنْ صَنِيعِ اللَّهِ بِدْعٌ ... خُلِقْتَ سَمَاحَةً ، وَخُلِقْتُ شِعْرَا
فَإِنْ أَكُ أَبْلَغَ الشُّعَرَاءِ قَوْلًا ... فَإِنَّكَ أَرْفَعُ الْأُمَرَاءِ ذِكْرَا

وَيَقُولُ فِي مُنَاسَبَةٍ أُخْرَىٰ(٢):

أَدْرَكْتَ يَا عُمَرُ النُّفُوسَ بِرَحْمَةٍ ... هِيَ لِلضِّعَافِ الْبَائِسِينَ حَيَاةُ
يَا آسِيَ الْمَرْضَىٰ بِبِرِّكَ دَاوِهِمْ ... إِنَّ الْكِرَامَ الْمُنْعِمِينَ أُسَاةُ
بِكَ دَوْلَةُ الْإِحْسَانِ قَامَ عِمَادُهَا ... وَتَهَلَّلَتْ سَاحَاتُهَا النَّضِرَاتُ
إِنْ ضَجَّ بِاسْمِكَ فِي الْمَنَابِرِ شَاعِرٌ ... هَفَتِ الْقُلُوبُ ، وَضَجَّتِ الدَّعَوَاتُ
مَوْلَايَ ، دُمْ لِيَتِيمِ الْبِلَادِ تَدُمْ لَهَا ... مِنْ فَيْضِ جُودِكَ هَذِهِ النَّفَحَاتُ !

(١) الدّيوان ج ٤، ص ٢٨٥.
(٢) الدّيوان ج ٤، ص ٢٥٦.

هَذَا خَطٌّ مِنْ مَدَائِحِهِ ، وَلَكِنَّ الزَّفْرَةَ الْحَارَّةَ الَّتِي صَعَّدَهَا الشَّاعِرُ الْكَبِيرُ أَحْمَدُ مُحَرَّمٍ يَوْمَ رَحِيلِ الْأَمِيرِ كَانَتْ أَوْسَعَ مَجَالًا ، وَأَشْمَلَ حَدِيثًا ، وَكَأَنَّهُ فِي الْمَدَائِحِ كَانَ يَخْشَىٰ الْإِطَالَةَ كَيْلَا يَتَوَهَّمَ مُتَوَهِّمٌ أَنَّهُ يُبَالِغُ مُسْتَرْضِيًا ! وَلَيْسَ لِهَذَا الظَّنِّ مَوْضِعٌ فِي الرِّثَاءِ ، وَقَدِ اسْتَطَاعَ الشَّاعِرُ أَنْ يُصَوِّرَ لَوْعَةَ الْعَالَمِ الْإِسْلَامِيِّ جَمِيعِهِ بِفَقْدِ الْأَمِيرِ ، وَأَجْتَزِئُ بِمَا قَالَ فِي هَذَا الْمَجَالِ حَيْثُ هَتَفَ(١):

أَفِي عُمَرٍ تَقْضِي الْمَنَايَا قَضَاءَهَا ... فَيَا سُوءَ مَا تَجْنِي الْخُطُوبُ وَتَجْلِبُ
وَيَا طُولَ وَجْدِي إِنْ أَلَمَّتْ مُلِمَّةٌ ... وَقِيلَ : أَلَا أَيْنَ الْأَمِيرُ الْمُهَذَّبُ ؟
بَلَغْتَ الْمَدَىٰ يَا مَوْتُ لَمْ تُبْقِ حَاجَةً ... لِنَفْسِكَ تَقْضِيهَا ، وَلَمْ يَبْقَ مَأْرَبُ
كَأَنَّكَ مِنْ قَبْلِ الْأَمِيرِ وَبَعْدِهِ ... وَإِنْ جَدَّ مِنْكَ الْجِدُّ تَلْهُو وَتَلْعَبُ
طَوَىٰ الشَّرْقُ مَنْعَاهُ فَبَاتَتْ شُعُوبُهُ ... سَهَارَىٰ ، عَلَىٰ حَرِّ الْأَسَىٰ تَتَقَلَّبُ
وَرِيعَ حِمَىٰ الْإِسْلَامِ وَارْتَجَّ رُكْنُهُ ... وَضَجَّ الْمُصَلَّىٰ شَاكِيًا وَالْمُحَصَّبُ
لَئِنْ فَزِعَتْ مِنْ جَانِبِ الْبَيْتِ مَكَّةٌ ... لَقَدْ رَجَفَتْ مِنْ جَانِبِ الْقَبْرِ يَثْرِبُ
غَنِينَا زَمَانًا نَسْتَضِيءُ بِنُورِهِ ... إِذَا رَاعَنَا مِنْ حَادِثِ الدَّهْرِ غَيْهَبُ
لِوَاءٌ مِنَ الْحَقِّ الْمُبِينِ وَصَارِمٌ ... لَهُ مِنْ كِتَابِ اللَّهِ حَدٌّ وَمَضْرِبُ
وَصَرْحٌ مِنَ الْأَخْلَاقِ مَا فِيهِ مَطْمَعٌ ... وَلَا دُونَهُ لِلْعَبْقَرِيِّينَ مَطْلَبُ
سَلِ الدَّهْرَ إِنْ رُمْتَ الْيَقِينَ أَلَمْ تَكُنْ ... تَمُرُّ بِهِ أَحْدَاثُهُ وَهْيَ هُيَّبُ
عَلَيْكَ مِنَ اللَّهِ السَّلَامُ وَبُورِكَتْ ... عِظَامٌ بِمَا صَلَّىٰ عَلَيْهَا تُطَيَّبُ
وَسِعْتَ ذَوِي الْحَاجَاتِ بِرًّا وَرَحْمَةً ... وَكُنْتَ الْأَبَ الْمَأْمُولَ إِنْ أَعْوَزَ الْأَبُ

(١) الدّيوَان ج «٢» ص ٥٠٤.

لِقَوْمِكَ مَا تَأْبَىٰ وَمَا أَنْتَ تَرْتَضِي   وَلِلَّهِ مَا تَأْتِي ، وَمَا تَتَجَنَّبُ

وَأُلِمُّ بِمَرْثِيَّةِ مُحَرَّمٍ لِلْأُسْتَاذِ مُحَمَّدٍ الْهِهْيَاوِيِّ الْكَاتِبِ الْكَبِيرِ ، وَالْوَطَنِيِّ الصَّادِقِ الْغَيُورِ ، فَقَدْ كَانَ الْهِهْيَاوِيُّ شَبِيهًا بِمُحَرَّمٍ فِي اتِّجَاهِهِ الْخُلُقِيِّ وَالْأَدَبِيِّ مَعًا ، إِذْ كَانَ مِنْ نَفْسِهِ الشَّرِيفَةِ فِي جُنَّةٍ وَاقِيَةٍ ، تَمَسَّكَ بِرَأْيِهِ الْحُرِّ ، وَلَمْ تُغْرِهِ مَبَاهِجُ الْحَيَاةِ لَدَىٰ أَصْحَابِ الْمَنَاصِبِ ، فَيَتَرَضَّاهُمْ لِيُخَالِفَ مَا يَعْتَقِدُ ، وَعَارَضَ أَكْبَرَ زَعِيمٍ فِي مِصْرَ ، مُعَارَضَةَ الصَّادِقِ الْمُتَمَسِّكِ بِمَبْدَئِهِ ، حَتَّىٰ كَانَ سَعْدُ زَغْلُولٍ يَسْهَرُ لَيْلَةَ صُدُورِ « الْكَشْكُولِ » لِيَقْرَأَ مَا كَتَبَ الْهِهْيَاوِيُّ عَنْهُ فِي مَقَالِهِ الْأُسْبُوعِيِّ ، وَقَدْ عَاشَ الْهِهْيَاوِيُّ كَمَا عَاشَ مُحَرَّمٌ فَقِيرًا مُعْدَمًا لَا يَجِدُ السَّبِيلَ إِلَىٰ الْحَيَاةِ الرَّافِهَةِ ، وَحَسْبُهُ رِضَاهُ عَنْ نَفْسِهِ ، كَمَا كَانَ صَوْتُهُ رَنَّانًا فِي مُنَاصَرَةِ قَضَايَا الْعَالَمِ الْإِسْلَامِيِّ جَمِيعِهِ ، لِذَلِكَ تَحَدَّثَ مُحَرَّمٌ عَنِ الْهِهْيَاوِيِّ ، وَكَأَنَّهُ يَتَحَدَّثُ عَنْ نَفْسِهِ ، حِينَ قَالَ :

رَجُلٌ نَجَا مِنْ فِتْنَةِ الدُّنْيَا الَّتِي   هِيَ لِلضَّعِيفِ الْعَزْمِ شَرُّ مُصَابِ
وَمَضَىٰ إِلَىٰ الْمَلَإِ الْعَلِيِّ مُبَرَّءًا   مِنْ كُلِّ نَقْصٍ فِي الرِّجَالِ وَعَابِ
غَلَبَ الزَّمَانَ عَلَىٰ سَجَايَا أَهْلِهِ   وَأَبَىٰ عَلَىٰ حَدَثَانِهِ الْغُلَّابِ
لَاقَاهُ ، وَالْإِيمَانُ مِلْءُ سِلَاحِهِ   فَارْتَدَّ مِنْ فَزَعٍ عَلَىٰ الْأَعْقَابِ
وَإِذَا الْقُلُوبُ تَكَشَّفَتْ غَمَرَاتُهَا   عُرِفَ الْغَبِيُّ ، وَأَقْصَرَ الْمُتَغَابِي
اهْنَأْ مُحَمَّدُ بِالْحَيَاةِ قَضَيْتَهَا   بَيْضَاءَ سَافِرَةً بِغَيْرِ نِقَابِ
طَلَبَتْكَ أَهْوَاءُ النُّفُوسِ فَرُعْتَهَا   بِأَغَرَّ يَسْتَعْصِي عَلَىٰ الطُّلَّابِ
حُرٍّ يَقُولُ الْحَقَّ غَيْرُ مُصَانِعٍ   يَخْشَىٰ عَوَاقِبَهُ وَلَا هَيَّابِ

يَرْعَىٰ أَمَانَةَ قَوْمِهِ وَيَحُوطُهَا ... بِشَرِيعَةٍ مِنْ رَبِّهِ وَكِتَابِ
يَا نَاظِمَ الدُّرَرِ الْحِسَانِ تَزُفُّهَا ... عَرَبِيَّةَ الْأَوْطَانِ وَالْأَنْسَابِ
مَا غِبْتَ عَنْ دُنْيَا الْبَيَانِ وَلَا خَلَا ... يَوْمًا مَكَانُكَ فِي بَنِي الْآدَابِ
مَا كُنْتَ كَالسَّاعِينَ فِي طَلَبِ الْغِنَىٰ ... يُلْقِي الْهَوَانُ بِهِمْ عَلَىٰ الْأَبْوَابِ
أَخَذُوا بِأَسْبَابٍ مُفَكَّكَةِ الْعُرَىٰ ... وَأَخَذْتَ أَنْتَ بِأَوْثَقِ الْأَسْبَابِ
إِنَّ الْأُلَىٰ عَبَدُوا الْغُوَاةَ وَقَدَّسُوا ... لَيْسُوا بِآلِهَةٍ وَلَا أَرْبَابِ
مِنِّي السَّلَامُ عَلَيْكَ إِنَّ شَكِيَّتِي ... فَقْدُ الرِّفَاقِ، وَفُرْقَةُ الْأَحْبَابِ

أَلَمْ أَقُلْ إِنَّ مُحَرَّمًا يَتَحَدَّثُ عَنْ نَفْسِهِ فِي رِثَاءِ صَاحِبِهِ، إِذْ كَانَا فِي الْمَسْلَكِ الْأَخَوِيِّ مُتَشَابِهَيْنِ، وَشَبِيهُ الشَّيْءِ مُنْجَذِبٌ إِلَيْهِ، وَلَوْ مَاتَ مُحَرَّمٌ قَبْلَ الْهِهْيَاوِيِّ لَكَتَبَ عَنْهُ رَاثِيًا بِمِثْلِ مَا كَتَبَ صَاحِبُهُ تَمَامًا، فَهُمَا مُتَعَارِفَانِ مُتَفَاهِمَانِ !.

وَبَعْدُ، أَفَيَجُوزُ لِي أَنْ أَتَحَدَّثَ عَمَّا قَالَ أَحْمَدُ مُحَرَّم عَنْ حُمَاةِ الْإِسْلَامِ فِي عَصْرِهِ، وَلَا أَتَحَدَّثُ عَمَّا قَالَهُ فِي إِمَامِ الْعَصْرِ وَقَائِدِ الْفِكْرِ الْإِسْلَامِيِّ مُحَمَّدِ عَبْدُه رَحِمَهُ اللَّهُ ! لَقَدْ رَثَاهُ الشَّاعِرُ بِقَصِيدَتَيْنِ تَبَاعَدَ مَا بَيْنَهُمَا، إِذْ نَظَمَ الْأُولَىٰ عَقِبَ رَحِيلِهِ سَنَةَ ١٩٠٥م، وَنَظَمَ الثَّانِيَةَ بِمُنَاسَبَةِ مُرُورِ ثَلَاثِينَ عَامًا عَلَىٰ وَفَاتِهِ سَنَةَ ١٩٣٥م، فَقَالَ فِي الْأُولَىٰ(١):

خَفِّضِ الصَّوْتَ أَيُّهَذَا النَّاعِي ... رَحْمَةً بِالْقُلُوبِ وَالْأَسْمَاعِ
أَنَعَيْتَ الْإِمَامَ يَعْتَصِمُ الْإِسْـ(م) ... ـلَامُ مِنْهُ بِشَاهِقٍ ذِي امْتِنَاعِ

---
(١) الدّيوان ج «٢» ص ٣٢٦.

كَرَّ وَالْقَوْمُ يُمْعِنُونَ فِرَارًا   خِيفَةَ الْمَوْتِ فِي ظِلَال الْقِرَاعِ
فَرَمَىٰ الدَّارِعِينَ مِنْهُ بِعَزْمٍ   ظَلَّ يُفْرِي سَوَابِغَ الْأَدْرَاعِ
أَيْنَ أَنْدَادُهُ الَّذِينَ نُرَجِّيـــ(م)   ـــهِمْ إِذَا نَابَ مُفْظِعٌ لِدِفَاعِ
عَجَبًا لِلْحِمَامِ كَيْفَ طَوَاهُ ؟   غَيْرَ مَا هَائِبٍ وَلَا مُرْتَاعِ
إِنَّهُ كَانَ ذَا جَلَالٍ يَرُدُّ الْعَيْنَ   حَسْرَىٰ عَنْ مُشْرِقٍ ذِي شُعَاعِ
كَادَتِ الْأَرْضُ يَوْمَ ذَلِكَ تَنْـــ(م)   ـــشَقُّ فَتَهْوِي بِنَا إِلَىٰ شَرِّ قَاعِ
وَدَّعُوا فِيهِ أُمَّةً وَبِلَادًا   آذَنَتْ بِالذَّهَابِ قَبْلَ الْوَدَاعِ

وَمِنْ قَبْلِ ذَلِكَ قَالَ عَنْهُ فِي الْقَصِيدَةِ عَيْنِهَا :

إِنَّهُ الْمُصْلِحُ الَّذِي يَرْأَبُ الْأَمْــ(م)   ـــرَ إِذَا هَمَّ صَدْعُهُ بِاتِّسَاعِ
إِنَّهُ الشَّارِعُ الَّذِي يَجْمَعُ الْخَيْــ(م)   ـــرَ بِرَأْيٍ يُغْنِي عَنِ الْإِجْمَاعِ
إِنَّهُ الْمُرْشِدُ الْمُسَدِّدُ لَا مُرْ(م)   شِدَ أَوْلَىٰ مِنْهُ بِحُسْنِ اتِّبَاعِ

وَالْكَارِثَةُ فِي فَقْدِ الْإِمَامِ تَتَجَلَّىٰ فِي مَعْنًى قَالَهُ مُحَرَّمٌ ، وَتَرَدَّدَ عَلَىٰ لِسَانِ الشُّعَرَاءِ مِنْ قَبْلِهِ وَبَعْدِهِ ، وَهُوَ قَوْلُهُ :

أَيْنَ أَنْدَادُهُ الَّذِينَ نُرَجِّيـــ(م)   ـــهِمْ إِذَا نَابَ مُفْظِعٌ لِدِفَاعِ ؟

وَهُوَ مَعْنًى بَسَطَهُ حَافِظُ إِبْرَاهِيمُ بَسْطًا شَافِيًا حِينَ قَالَ فِي رِثَاءِ الْأُسْتَاذِ الْإِمَامِ(١):

تَبَارَكْتَ ، هَذَا عَالَمُ الشَّرْقِ قَدْ قَضَىٰ   وَلَانَتْ قَنَاةُ الدِّينِ لِلْغَمَزَاتِ

---

(١) ديوان حافظ ج «٢» ص ١٤٥.

زَرَعْتَ لَنَا زَرْعًا فَأَخْرَجَ شَطْأَهُ   وَبِنْتَ، وَلَمَّا نَجْتَنِ الثَّمَرَاتِ
مَدَدْنَا إِلَى الْأَعْلَامِ بَعْدَكَ رَاحَنَا   فَرُدَّتْ إِلَى أَعْطَافِنَا صَفِرَاتِ
وَجَالَتْ بِنَا تَبْغِي سِوَاكَ عُيُونُنَا   فَعُدْنَ وَآثَرْنَ الْعَمَى شَرِقَاتِ

أَمَّا الْقَصِيدَةُ الثَّانِيَةُ؛ فَتُصَوِّرُ أَثَرَ الْأَيَّامِ الْمُمْتَدَّةِ فِي تَغْيِيرِ الْأَحْوَالِ، وَاخْتِلَافِ النَّظْرَةِ إِلَى الْأُسْتَاذِ الْإِمَامِ عَنْ ذِي قَبْلِ، حَيْثُ أَجْمَعَ الْخَلَفُ عَلَى فَضْلِهِ، بَعْدَ تَنَازُعِ السَّلَفِ، وَأَصْبَحَ مَذْهَبُهُ الدِّينِيُّ مِنْهَاجًا يُسْلَكُ، وَطَرِيقًا يُتَّبَعُ، وَهَذَا مَا عَنَاهُ الشَّاعِرُ حِينَ قَالَ[1]:

قُمْ يَا مُحَمَّدُ فِي جَلَالِكَ وَاتَّخِذْ   عُلْيَا الْأَرَائِكِ فِي صُدُورِ عِدَاكَا
لَيْسُوا كَعَهْدِكَ فِي الضَّلَالَةِ إِنَّهُمْ   سَلَكُوا سَبِيلَكَ وَاقْتَدَوْا بِهُدَاكَا
هِيَ سُنَّةُ الْإِصْلَاحِ إِنَّكَ إِنْ تَذُقْ   فِيهِ الْأَذَى بَعْدَ الْأَذَى فَكَذَاكَا
لَا يَحْمِلُ الْأَزْهَارَ فِي أَفْيَائِهِ   مَنْ لَيْسَ يَحْمِلُ قَبْلَهَا الْأَشْوَاكَا..

وَقَدِ ابْتَدَأَ قَصِيدَةَ الذِّكْرَى بِتَمْجِيدٍ حَافِلٍ يُصَوِّرُ قَدْرَ الْإِمَامِ فِي نُفُوسِ النَّشْءِ الْجَدِيدِ، إِذْ لَا يَزَالُ مِلْءَ السَّمْعِ وَالْبَصَرِ بَيْنَ الْمُثَقَّفِينَ، وَقَدْ خَاطَبَهُ بِقَوْلِهِ:

الْمَوْتُ آيَتُهُ السُّكُونُ، وَلَمْ تَزَلْ   مِلْءَ الْمَمَالِكِ وَالشُّعُوبِ حِرَاكَا
مَا اسْتَعْصَمَتْ مِنْكَ الْعُلُومُ وَلَا النُّهَى   هِيَ مِنْ عُلُومِكَ كُلُّهَا وَنُهَاكَا

وَلَعَلَّ فِي مَا جَدَّ مِنْ تَقْدِيرِ الْإِمَامِ بَعْدَ رَحِيلِهِ عَزَاءً لِلْعَالَمِينَ، وَسَلْوَى لِلْمُصْلِحِينَ.

---

(١) ديوان مُحَرَّم ج ٢، ص ٤٧٠.

كِفَاحُ الرَّذِيلَةِ

أَشَرْتُ مِنْ قَبْلُ إِلَىٰ مَا بَيْنَ مُصْطَفَىٰ صَادِقِ الرَّافِعِيِّ وَأَحْمَدَ مُحَرَّم مِنْ صِلَةٍ حَمِيمَةٍ فِي الاتِّجَاهِ الْخُلُقِيِّ ، فَكِلَاهُمَا عُرِفَ أَنَّهُ أَدِيبٌ ذُو رِسَالَةٍ مُنْذُ بَدَأَ يَمْتَشِقُ الْقَلَمَ ، وَكِلَاهُمَا جَعَلَ الْمُثُلَ الْعُلْيَا الَّتِي نَادَىٰ بِهَا كِتَابُ اللَّهِ ، مَجَالَ تَفْكِيرِهِ ، وَمَوْضِعَ اسْتِلْهَامِهِ ، وَلَمْ يَدْرُسْ أَحْمَدُ مُحَرَّم دَوَاوِينَ الشِّعْرِ وَكُتُبَ الْأَدَبِ فِي نَشْأَتِهِ الْأُولَىٰ فَحَسْبُ ، وَلَكِنَّهُ دَرَسَ الْقُرْآنَ وَالْحَدِيثَ وَالسِّيرَةَ النَّبَوِيَّةَ دِرَاسَةً مُتَوَازِيَةً مَعَ الدِّرَاسَةِ الْأُولَىٰ ، لِتُحَدِّدَ مَنْزِعَهُ الْفِكْرِيَّ فِيمَا يَقُولُ ، وَقُرَّاءُ مُحَرَّم يَعْرِفُونَ مَنْزِعَهُ قَبْلَ أَنْ يَقْرَءُوا قَصِيدَتَهُ ، فَإِذَا أَلَمَّتْ مُعْضِلَةٌ أَوْ وَقَعَتْ حَادِثَةٌ ، وَطَالَعَتِ الصُّحُفُ قُرَّاءَهَا بِآيَةٍ مِنْ آيَاتِ مُحَرَّم فِي هَذِهِ الْحَادِثَةِ ، فَإِنَّهُمْ قَبْلَ أَنْ يَقْرَءُوا الْقَصِيدَةَ يُدْرِكُونَ الْمَغْزَىٰ الَّذِي يَعْنِيهِ ، وَيُقْبِلُونَ عَلَىٰ الْقَصِيدَةِ لِيَرَاهَا الْأَخْلَاقِيُّونَ مِنْهُمْ صُورَةً لِنُفُوسِهِمْ ، بَلْ إِنَّهُمْ يَتَشَوَّقُونَ إِلَىٰ مُحَرَّم ، وَيَتَلَهَّفُونَ عَلَىٰ مَا يَقُولُ ؛ لِأَنَّهُ سَيُعَبِّرُ عَنْ وِجْدَانِهِمْ بِمَا لَمْ يَسْتَطِيعُوا أَنْ يَقُولُوهُ .

وَإِذَا كَانَتِ النَّاحِيَةُ الاجْتِمَاعِيَّةُ قَدْ شَغَلَتْ شُعَرَاءَ هَذِهِ الْحِقْبَةِ ، بِحَيْثُ أَصْبَحَتِ الاجْتِمَاعِيَّاتُ بَابًا مَرْمُوقًا لَدَىٰ أَكْثَرِهِمْ ، فَإِنَّ مُحَرَّمًا كَانَ مِنْ

أَكْثَرِهِمْ إِقْبَالًا عَلَىٰ هَذَا الْبَابِ، إِذْ كَانَ مَفْتُوحَ الْعَيْنَيْنِ لِمَا يَجْرِي حَوْلَهُ، مُتَغَلْغِلًا فِي أَطْوَاءِ النُّفُوسِ، لِيَكْتَنِهَ النَّوَازِعَ، وَيَرْصُدَ النَّبَضَاتِ فِي مَجْرَىٰ الدَّمِ، ثُمَّ لِتَتَحَرَّقَ نَفْسُهُ أَلَمًا وَحَسْرَةً، لِمَا يَلْمَسُ مِنْ رَذَائِلِ الْغَدْرِ وَالْجَشَعِ وَالْعُقُوقِ، وَلِمَا يَرَىٰ مِنَ الِانْتِهَازِيَّةِ الصَّارِخَةِ لَيْسَ لَدَىٰ الْعَامَّةِ فَحَسْبُ، بَلْ لَدَىٰ أُنَاسٍ يَتَظَاهَرُونَ بِالْفَضَائِلِ، وَيَدْعُونَ إِلَيْهَا مُكَرِّرِينَ مُرَدِّدِينَ، وَلَكِنَّ أَفْعَالَهُمْ تَنْطِقُ بِغَيْرِ مَا يَقُولُونَ!.

وَهُنَا يَزْدَادُ مُحَرَّمٌ أَلَمًا؛ لِأَنَّهُ قَدْ يَرْحَمُ الْجَاهِلَ الْأُمِّيَّ، أَمَّا الْمُتَشَدِّقُ بِالْمُرُوءَةِ وَالدَّاعِي إِلَيْهَا لِسَانًا وَقَلَمًا، ثُمَّ هُوَ فِي مَسْلَكِهِ الِاجْتِمَاعِيِّ يَسِيرُ عَلَىٰ نَقِيضِ مَا يَخْطُبُ وَيَكْتُبُ، فَهُوَ بَاعِثُ الْحَسْرَةِ الْأَلِيمَةِ لَدَىٰ شَاعِرٍ حُرٍّ يَرَىٰ أَنَّ الْأَدَبَ رِسَالَةٌ، وَأَنَّ الثَّقَافَةَ ذَاتُ حُرْمَةٍ وَحَدٍّ.

وَكَمْ يَسُوءُ الشَّاعِرَ أَنْ تَشِيعَ رُوحُ الِاسْتِخْفَافِ لَدَىٰ بَعْضِ مَنْ يُنْسَبُونَ إِلَىٰ الْفَنِّ الْأَدَبِيِّ، وَالثَّقَافَةِ الْمُعَاصِرَةِ إِذْ يُجَاهِرُونَ بِإِسْفَافِهِمْ فَيَشْرَبُونَ الْخَمْرَ، وَيَكْتُبُونَ الْقَصَصَ الدَّاعِرَةَ، وَيَتْرُكُونَ أَدَاءَ الْفَرَائِضِ، وَيَدَّعُونَ أَنَّ الْفَنَّانَ لَا يَلْتَزِمُ بِالْحُدُودِ، وَإِنَّمَا هُوَ إِبَاحِيٌّ مُنْطَلِقٌ، وَأَنَّ الثَّقَافَةَ ذَاتُ صَدْرٍ رَحِيمٍ يَتَّسِعُ لِمُمَارَسَةِ النَّقَائِصِ، وَهَذَا التَّحَلُّلُ وُجِدَ وَلَا يَزَالُ مَوْجُودًا لَدَىٰ بَعْضِ الْمُتَحَلِّلِينَ مِمَّنْ يُتَاهُونَ بِانْحِدَارِهِمْ، وَيَزْعُمُونَهُ شَيْئًا طَبِيعِيًّا لِلْمُثَقَّفِ وَالْفَنَّانِ، وَهُنَا يَصْرُخُ أَحْمَدُ مُحَرَّمٍ صَرْخَاتِهِ الْعَالِيَةَ فِي وُجُوهِ هَؤُلَاءِ فَيَقُولُ(١):

إِذَا أُوتِيتَ مَعْرِفَةً وَخُلْقًا فَقَدْ أُوتِيتَ مَنْزِلَةً وَجَاهَا

(١) الدّيوان ج ٢، ص ٢٥٩.

يَقُولُ الْقَوْمُ: هَذَا عَبْقَرِيٌّ وَذَاكَ مُثَقَّفٌ، فَأَقُولُ وَاهَا
عُيُوبُ الْعَبْقَرِيَّةِ مَنْ قَضَاهَا؟ وَآثَامُ الثَّقَافَةِ مَنْ جَنَاهَا؟
وَهَذَا النُّورُ كَيْفَ تَرَاهُ عَيْنِي ظَلَامًا يَسْلُبُ الدُّنْيَا سَنَاهَا؟
دَعُوا يَا قَوْمِ مَا زَعَمَ الْمُدَاجِي فَقَدْ بَلَغَتْ لَجَاجَتُهُ مَدَاهَا

وَفِي هَذِهِ الْقَصِيدَةِ انْتِقَادٌ حَادٌّ لِبَعْضِ الظَّوَاهِرِ السُّلُوكِيَّةِ، وَقَدْ أُلْقِيَتْ فِي مُؤْتَمَرِ الْأَخْلَاقِ الَّذِي عَقَدَتْهُ جَمْعِيَّةُ الْهِدَايَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ سَنَةَ ١٩٣٧م، وَافْتَتَحَهُ الْأُسْتَاذُ الْأَكْبَرُ الشَّيْخُ مُحَمَّدٌ الْخِضْرُ حُسَيْنٌ بِمُحَاضَرَةٍ تُرْشِدُ إِلَى السُّقُوطِ الْمُنْحَدِرِ الَّذِي شَاعَتْ ظَوَاهِرُهُ لَدَى طَائِفَةٍ مِنَ النَّاسِ، مُتَعَلِّمِينَ وَجَاهِلِينَ، وَقَدْ أَنْحَى عَلَى الْمَدَارِسِ الْمِصْرِيَّةِ حِينَ اهْتَمَّتْ بِالْعُلُومِ وَتَرَكَتْ مَنَاحِيَ السُّلُوكِ، فَأَصْبَحَ التِّلْمِيذُ وَاعِيَةَ حِفْظٍ، وَلَكِنَّهُ خَوَاءٌ مِنَ الرُّوحِ الْإِنْسَانِيِّ الشَّرِيفِ، فَتَوَافَقَ بِذَلِكَ مَعَ الْأُسْتَاذِ أَحْمَدَ مُحَرَّم حِينَ قَالَ[1]:

دَعُوا الشِّمَمَ الطِّوَالَ وَمَنْ بَنَاهَا حِمَى الْأَخْلَاقِ أَمْنَعُ مِنْ حِمَاهَا
كَفَاكَ مِنَ الْمَدَارِسِ مَا تُلَاقِي نُفُوسٌ لَا تَرِيعُ إِلَى هُدَاهَا
تَفِيدُ الْعِلْمَ لَيْسَ عَلَيْهِ وَسْمٌ مِنَ الْأَخْلَاقِ مُشْرِقَةٌ حُلَاهَا
هُمَا تَاجَانِ مَا اجْتَمَعَا لِنَفْسٍ فَلَمْ تَبْلُغْ مِنَ الدُّنْيَا مُنَاهَا
فَإِنْ عَزَّ اجْتِمَاعُهُمَا لِأَمْرٍ فَخَيْرُهُمَا لِنَفْسِكَ مَا كَفَاهَا

وَكَانَتْ قَضِيَّةُ الْمَرْأَةِ مِمَّا اهْتَمَّ بِهِ الْمُؤْتَمَرُ، فَتَحَدَّثَ الْمُتَكَلِّمُونَ عَمَّا اتَّسَعَتْ لَهُ صَفَحَاتُ الْجَرَائِدِ الْيَوْمِيَّةِ حِينَئِذٍ مِنْ تَمَلُّقِ عَوَاطِفِ النِّسَاءِ بِالدَّعْوَةِ

(١) الدِّيوَان ج «٢» ص ٢٥٩ وَمَا بعدهَا.

إِلَىٰ سَيْطَرَتِهِنَّ فِي الْمَنْزِلِ وَالشَّارِعِ؛ لِأَنَّهُنَّ مُتَسَاوِيَاتٌ فِي حُقُوقِهِنَّ مَعَ الرِّجَالِ، وَفِي الرِّجَالِ مَنِ اسْتَجَابَ لِهَذِهِ السَّيْطَرَةِ تَبَاهِيًا بِدَعْوَىٰ الرُّقِيِّ الْمُصْطَنَعِ، وَوَقَفَ الْقَائِلُونَ عِنْدَ هَذَا الْحَدِّ، وَلَكِنَّ الشَّاعِرَ النَّاصِحَ أَحْمَدَ مُحَرَّم تَجَاوَزَهُ إِلَىٰ الصَّرَاحَةِ الْأَلِيمَةِ؛ فَقَالَ[1]:

رَأَيْتُ نِسَاءَكُمْ غَلَبَتْ عَلَيْكُمْ فَأَمْسَىٰ الْخِزْيُ قَدْ وَسَمَ الْجِبَاهَا
عَجِبْتُ لِذِي الْحَلِيلَةِ رَاوَدَتْهُ عَنِ الشَّرَفِ الْمَنِيعِ فَمَا عَصَاهَا
وَمَا عِنْدَ الرِّجَالِ قَضَاءُ أَمْرٍ إِذَا قَضَتِ النِّسَاءُ عَلَىٰ لِحَاهَا
بَرِئْتُ إِلَىٰ الْمُرُوءَةِ مِنْ بِلَادٍ تَبَلَّدَ شَيْخُهَا، وَغَوَىٰ فَتَاهَا..

وَقَدْ تَدَبَّرَ الشَّاعِرُ شَأْنَ هَؤُلَاءِ الْمُتَعَلِّمِينَ الَّذِينَ يُقَارِفُونَ الْإِثْمَ، ثُمَّ لَا يَسْتَشْعِرُونَ أَيَّ نَدَمٍ؟ وَجَعَلَ يَتَغَلْغَلُ فِي أَطْوَائِهِمْ، فَعَرَفَ أَنَّ الضَّمِيرَ قَدْ مَاتَ فِي نُفُوسِهِمْ، فَهُوَ دَفِينٌ فِي الْأَحْشَاءِ، وَبِمَوْتِهِ قَدْ هَدَأَ الْعِرَاكُ، وَانْقَضَتْ مَوْقِعَةُ النِّزَالِ، مِنْ نَاهٍ زَاجِرٍ، وَمُقْبِلٍ دَاعِرٍ، لَقَدْ أَحْسَنَ مُحَرَّمٌ التَّصْوِيرَ الْأَدَبِيَّ حِينَ قَالَ فِي تَهَكُّمٍ مَرِيرٍ[2] تَحْتَ عُنْوَانِ «الضَّمِيرُ الْمَيِّتُ»:

بَيْنَ جَنْبَيْكَ قَتِيلٌ مَا لَهُ قَاتِلٌ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا سِوَاكْ
كَمْ دَفِينٍ بَيْنَ أَحْشَاءِ الثَّرَىٰ ذَاقَ حَتْفًا مِنْ دَفِينٍ فِي حَشَاكْ
هَلَكَ الْقَاضِي فَمَا مِنْ رَادِعٍ إِنْ سَقَيْتَ النَّاسَ مَقْضِيَّ الْهَلَاكْ
هَدَأَ الْمَيْدَانُ مِنْ حَوْلِكُمَا وَانْقَضَىٰ مَا كَانَ مِنْ هَوْلِ الْعِرَاكْ
أَيُّهَا الْهَامِدُ فِي مَصْرَعِهِ لَيْتَ شِعْرِي أَيُّ جَبَّارٍ رَمَاكْ؟

(1) السابق.
(2) الديوان ج ٣، ص ٣٨٠.

أَرَأَيتَ النَّعشَ وَالقَبرَ مَعًا؟ هُوَ يَا إِلْفَ الْبِلَىٰ، هَذَا وَذَاكْ

وَالْبَيْتُ الْأَخِيرُ عَجِيبَةُ الْعَجَائِبِ فِي التَّصْوِيرِ الْفَنِّيِّ؛ لِأَنَّ الضَّمِيرَ، وَهُوَ الْمَيِّتُ، مَحْمُولٌ بَيْنَ ضُلُوعٍ يَمْشِي صَاحِبُهَا بَيْنَ النَّاسِ، فَهْوَ فِي وَاقِعِهِ مَيِّتٌ فِي قَبْرٍ، كَمَا هُوَ فِي نَعْشٍ إِذْ يَسِيرُ مَعَ صَاحِبِهِ إِذَا سَارَ!.

وَقُلْتُ: إِنَّ حَسْرَةَ مُحَرَّمٍ عَلَى الْمُثَقَّفِينَ الْمُنْحَدِرِينَ أَشَدُّ لَهَبًا مِنْ حَسْرَتِهِ عَلَى الْجُهَلَاءِ الْمُتَحَلِّلِينَ؛ لِأَنَّ أُولَئِكَ يُتْقِنُونَ الصَّيْدَ مُسْتَخْفِينَ، فَيَنْبَهِمُ كَيْدُهُمْ عَلَى الْقُرَّاءِ، وَهَذِهِ أَشْنَعُ وَأَوْجَعُ، فَأَحَدُهُمْ حِينَ يَكْتُبُ مَا يَنْضَحُ بِهِ لُؤْمُهُ لِصٌّ يَسْرِقُ فِي خِفْيَةٍ، وَلَا عَلَى اللِّصِّ أَنْ يَأْسَفَ إِذَا سَرَقَ الْمَالَ، وَتَنَعَّمَ بِرَافِهِ الْعَيْشِ مَهْمَا سَاءَ مَصْدَرُهُ؛ لِأَنَّهُ أَسْكَتَ صَوْتَ الضَّمِيرِ، لِذَلِكَ يَتَسَاءَلُ عَنْهُ الشَّاعِرُ قَائِلًا[1]:

يَرَاعُ أَدِيبٍ أَمْ حِبَالَةُ صَائِدٍ يُقَلِّبُهَا فِي كُلِّ مُقْتَنَصٍ عَشْرَا؟
تَظُنُّ بِهِ الظَّنَّ الْجَمِيلَ وَقَدْ جَنَىٰ مِنَ الْأَمْرِ مَا يُودِي بِآمَالِنَا الْكُبْرَىٰ
فَتَى الْمَالِ أَلْبَسْتَ الصَّحَائِفَ خِزْيَةً يُجَلِّلُ ضَافِيهَا الْمَمَالِكَ وَالْعَصْرَا
قُصَارَاكَ أَنْ تَحْيَا بِمِصْرَ مُمَوَّلًا وَأَنَّكَ فِيهَا لَا تَجُوعُ وَلَا تَعْرَىٰ
حَقِيبَةُ لِصٍّ، أَمْ صَحِيفَةُ كَاتِبٍ وَقَائِدُ شَعْبٍ أَنْتَ، أَمْ بَائِعٌ خَمْرَا؟
دَعِ الصُّحْفَ وَالْأَقْلَامَ وَاعْكُفْ عَلَى الَّتِي تَرَىٰ الْقَوْمَ صَرْعَىٰ فِي جَوَانِبِهَا سُكْرَا
كَأَنِّي، وَبَعْضُ النَّاسِ حِينَ أُسِيمُهُمْ أُسِيمُ نِعَاجًا تَتْبَعُ الذِّئْبَ أَوْ حُمْرَا

وَمَرَّةً أُخْرَىٰ يَجِدُ الشَّاعِرُ كَاتِبًا يُؤَيِّدُ حِزْبًا وَطَنِيًّا كَرِيمًا، يَكْتُبُ فِي

(١) الدِّيوَان ج ٢، ص ٢٤٤.

صَحِيفَتِهِ ، وَيَتَنَاوَلُ الْأَجْرَ ، وَلَكِنَّهُ يَجِدُ صَحِيفَةً أُخْرَىٰ تُعَارِضُ اتِّجَاهَ الْحِزْبِ الَّذِي يَنْتَمِي إِلَيْهِ ، وَتَدْفَعُ مِنَ الْأَجْرِ لِلْكُتَّابِ أَكْثَرَ مِمَّا تَدْفَعُ الصَّحِيفَةُ الْأُولَىٰ ، فَيُسْرِعُ إِلَىٰ الِانْخِرَاطِ بَيْنَ كُتَّابِهَا ، وَيُهَاجِمُ أَعْنَفَ الْمُهَاجَمَةِ مَنْ كَانَ بَيْنَ صُفُوفِهِمْ بِالْأَمْسِ ، لَا لِأَنَّهُمْ حَادُوا عَنِ الطَّرِيقِ ، بَلْ لِأَنَّهُمْ أَقَلُّ سَخَاءً مِنْ سِوَاهُمْ ، وَهُمْ بَعْدُ مُجَاهِدُونَ لَا يَمْلِكُونَ مِنْ أَدَوَاتِ الثَّرَاءِ مَا يَمْلِكُ مَنْ يُصَانِعُ الْمُحْتَلَّ فَيَجْتَبِيهِ وَيَمُدُّهُ بِمَا يُرَفِّهُ وَيُبْهِجُ ! لَقَدْ عَرَفَ الشَّاعِرُ مِنْ هَؤُلَاءِ مَنْ مَلَأَهُ غَيْظًا حِينَ أَخَذَ يُهَاجِمُ الشُّرَفَاءَ لِمَا يَكْسِبُ مِنْ مَالِ الْأَخِسَّاءِ ، فَقَالَ فِي حَسْرَةٍ(١):

أَتَعْلَمُ يَا أَخَا النَّزَوَاتِ مَاذَا رَكِبْتَ مِنَ الضَّلَالِ الْمُسْتَبِينِ
عَهِدْتُكَ أَكْثَرَ الْكُتَّابِ لُؤْمًا فَكَيْفَ عَيِيتَ بِالدَّاءِ الدَّفِينِ
عَقَدْتَ لِأَكْرَمِ الْخُلَطَاءِ عَهْدًا فَلَمْ تَكُ بِالْوَفِيِّ وَلَا الْأَمِينِ
أَيُنْ غَمَرُوكَ إِحْسَانًا وَبِرًّا بَطِرْتَ وَرُحْتَ تَرْكَبُ كُلَّ دُونِ
هُمُ اخْتَبَرُوكَ حَالًا بَعْدَ حَالٍ فَمَا وَجَدُوكَ ذَا أَدَبٍ وَدِينِ
وَمَا نَبَذُوكَ إِلَّا بَعْدَ يَأْسٍ وَمَا اطَّرَحُوكَ إِلَّا عَنْ يَقِينِ
أَلَسْتَ تَرَىٰ الْعَرِينَ ، وَكَيْفَ أَضْحَىٰ غَدَاةَ خَلَا مِنَ الذِّئْبِ اللَّعِينِ ؟!
خَلَتْ جَنَبَاتُهُ مِنْ كُلِّ سُوءٍ وَأَدْرَكَ غَايَةَ الشَّرَفِ الْمَصُونِ

وَإِذَا كَانَ مُحَرَّمٌ قَدْ نَاصَرَ الْفُضَلَاءَ مِنْ عُلَمَاءِ الدِّينِ مِمَّنْ صَدَعُوا بِالْحَقِّ ، وَآثَرُوا الْجِهَادَ عَلَىٰ الرَّاحَةِ ، فَقَدْ كَرَّرَ حَمَلَاتِهِ عَلَىٰ قَوْمٍ يَنْتَسِبُونَ

(١) الدّيوَان ج ٢، ص ٢٥٦.

لِهَؤُلَاءِ، وَقَدْ جَعَلُوا مَا عَرَفُوهُ مِنَ الْعِلْمِ وَسِيلَةً لِإِرْضَاءِ ذَوِي الشَّأْنِ حِينَ يُصْدِرُونَ الْفَتْوَىٰ كَمَا يَبْتَغُونَ، لَا كَمَا يَبْتَغِي الْحَقُّ، طَمَعًا فِيمَا بِأَيْدِيهِمْ مِنْ جَاهٍ، وَفِي هَؤُلَاءِ يَقُولُ النَّاقِدُ الْمُتَأَلِّمُ[1]:

أَرَىٰ عُلَمَاءَ الدِّينِ لَا يَحْفَظُونَهُ ... وَلَا يَعْرِفُونَ الْيَوْمَ قِيمَتَهُ الْعُلْيَا
هُمُ اتَّخَذُوا مَا أَدْرَكُوا مِنْ عُلُومِهِ ... سَبِيلًا إِلَىٰ مَا يَشْتَهُونَ مِنَ الدُّنْيَا
فَضَاعُوا وَضَاعَ الدِّينُ مَا بَيْنَ أُمَّةٍ ... هُمُ شَرَعُوا فِيهَا الضَّلَالَةَ وَالْغَيَّا
إِذَا الْمُفْسِدُ اسْتَفْتَىٰ يُرِيدُ تَمَادِيًا ... أَتَوْهُ بِأَعْلَامِ الْهُدَىٰ تَحْمِلُ الْفُتْيَا
أَيَعْجَبُ قَوْمٌ مِنْ أُولِي الْعِلْمِ أَنَّهُمْ ... يَسِيرُونَ بَيْنَ النَّاسِ فِي نُورِهِ عُمْيَا
أَلَا هَلْ رَأَىٰ مِنْ جِلَّةِ الْقَوْمِ شَافِيًا ... لِشَعْبٍ مَرِيضٍ لَا يَمُوتُ وَلَا يَحْيَا
مَحَتْهُ عَوَادِي الدَّهْرِ إِلَّا بَقِيَّةٌ ... مِنَ الدِّينِ وَالدُّنْيَا لِمَنْ يُؤْثِرُ الْبُقْيَا

وَنَدَعُ مَا قَالَ الشَّاعِرُ فِي أَدْعِيَاءِ الْفَنِّ وَالثَّقَافَةِ وَالصَّحَافَةِ وَالْفُتْيَا مِمَّنْ سَبَقَ الْقَوْلُ فِيهِمْ إِلَىٰ غَيْرِهِمْ مِنْ ذَوِي الثَّرَاءِ الْمَنْهُوبِ، وَالْجَاهِ الْمَغْصُوبِ، وَالْغِشِّ الْكَاذِبِ، وَالنِّفَاقِ الْمُمَوَّهِ، فَقَدْ فَضَحَ الشَّاعِرُ هَؤُلَاءِ بِمَا جَعَلَهُمْ عِبْرَةَ الْمُعْتَبِرِ، وَمَوْعِظَةَ الْوَاعِظِ، وَقَدْ رَسَمَ مِنْ صُوَرِهِمْ مَا تَتَفَتَّتُ لَهُ الْأَكْبَادُ حُزْنًا، وَيَمْتَرِي الدَّمْعُ حَسْرَةً وَلَهَبًا؛ إِذْ أَتَىٰ بَعْضُهُمْ مِنَ الْمُنْكَرَاتِ مَا لَا يَكَادُ يُتَصَوَّرُ! وَمَا ظَنُّكَ بِقَوْمٍ لِئَامٍ كَانُوا أَصْدِقَاءَ أَعِزَّاءَ لِثَرِيٍّ مَاتَ عَنْ مَالٍ وَعَقَارٍ، وَتَرَكَ صَبِيًّا غَرِيرًا لَا يَدْرِي مِنْ أَمْرِهِ شَيْئًا، وَبَدَلَ أَنْ يَرَىٰ مِنْ أَصْدِقَاءِ وَالِدِهِ مَنْ يُرْشِدُهُ وَيَمُدُّهُ بِالْعَوْنِ، يَجِدُ مِنْهُمْ مَنْ يَتَأَلَّبُونَ عَلَيْهِ مُحْتَالِينَ، لِيَسْتَنْفِذُوا ثَرْوَتَهُ احْتِيَالًا فِي

(١) الدِّيوان ج ٢، ص ١٩٣.

مَجالِ الْعَرْبَدَةِ والسُّكْرِ، ثُمَّ وَلاَ أَدْرِي مَاذَا أَقُولُ بَعْدَ ثُمَّ !! ثُمَّ يَجُرُّونَهُ لِلإِثْمِ إِذْ يَنْحَدِرُونَ بِهِ إِلَىٰ أَسْوَإِ هَاوِيَةٍ تُنْتَظَرُ! وَهُوَ - بَعْدُ - وَحِيدُ مَنْ أَكَلُوا طَعَامَهُ، وَأَظْهَرُوا الْكَلَفَ بِهِ، وَتَهَافَتُوا عَلَىٰ مَجْلِسِهِ مُقِيمًا، وَرُفْقَتِهِ مُسَافِرًا! أَلَا تَخْجَلُ الإِنْسَانِيَّةُ مِنَ انْتِسَابِ هَؤُلَاءِ إِلَيْهَا، وَهُمْ فِي غَيِّهِمْ يَعْمَهُونَ؟! لَقَدْ صَوَّرَ الشَّاعِرُ لِهَؤُلَاءِ صُورَةً تَدْفَعُ الْغَيْظَ الْمُتَّقِدَ فِي الصُّدُورِ، وَالْحُزْنَ اللَّاهِجَ فِي الْقُلُوبِ! فَقَالَ(1):

عَرَفْتُ فَتَى النَّدِيِّ فَمَنْ أَبُوهُ؟ وَأَيُّ سُرَاةِ قَوْمٍ أَنْجَبُوهُ؟
وَأَيُّ مَوَاطِنِ الْأَحْسَابِ مِنْكُمْ؟ فَقَدْ نَمَّتْ عَلَى الْحَسَبِ الْوُجُوهُ
أَمَا تَنْهَاكُمُ الْآدَابُ عَنْهُ؟ وَمَا يَنْهَى الْفَتَى عَنْكُمْ ذَوُوهُ
أَلَيْسَ أَبُوهُ كَانَ لَكُمْ صَدِيقًا عَلَى الْحِلْفِ الَّذِي أَكَّدْتُمُوهُ؟!
فَأَيَّةُ حُرْمَةٍ لَمْ تَحْفَظُوهَا وَأَيُّ أَخِي وَفَاءٍ خُنْتُمُوهُ؟
لَبِئْسَ الْقَوْمُ مَا احْتَرَمُوا أَخَاهُمْ وَلَا احْتَفَظُوا بِعِرْضٍ دَنَّسُوهُ
إِذَا مَا عَاقَرَ الْفَحْشَاءَ مِنْهُمْ أَخُو النَّزَوَاتِ غَنَّاهُ أَخُوهُ
عَلَيْهِمْ مِنْ خَزَايَاهُمْ سِمَاتٌ وَمَا أَنِفُوا الْفِجَارَ فَيَجْحَدُوهُ
إِذَا مَا عَنَّ فِي الظَّلْمَاءِ صَيْدٌ تَدَاعَوْا حَوْلَهُ فَتَصَيَّدُوهُ
تَرَدَّى بَيْنَهُمْ فَتَعَاوَرُوهُ إِلَى أَنْ قَالَ قَائِلُهُمْ: دَعُوهُ
عَفَا السُّمَّارُ وَادَّلَجُوا إِلَيْهِ وَأَكْبَرُ هَمِّهِمْ أَنْ يَبْلُغُوهُ
أَيَأْمُرُهُمْ بِتَقْوَى اللَّهِ قَوْمٌ وَمَا عَرَفُوا الْإِلَهَ فَيَتَّقُوهُ؟!

(1) الدّيوان ج 2، ص 163.

شَبَابُ الْعَارِ مَا تَرَكُوا رَجَاءً   لَنَا فِي مِصْرَ إِلَّا خَيَّبُوهُ
فَوَا أَسَفِي لِعَهْدِ اللَّهِ فِيهِمْ   وَعَهْدِ مُحَمَّدٍ إِذْ ضَيَّعُوهُ!

هَذَا عَنْ حُلَفَاءِ السُّوءِ، وَأَصْدِقَاءِ الْأَمْسِ، وَجُنَاةِ الْفَاحِشَةِ فِي حَقِّهِ الْيَوْمَ، فَمَاذَا عَنِ الْخَوَنَةِ مِنَ الْأَوْصِيَاءِ، الَّذِينَ تَظَاهَرُوا بِحِفْظِ أَمْوَالِ الْيَتَامَىٰ، فَكَانُوا أَسْرَعَ النَّاسِ إِلَىٰ ابْتِلَاعِهَا، وَمَلَأُوا كُنُوزَهُمْ بِالْمَالِ، وَبُطُونَهُمْ بِالطَّعَامِ الْفَاخِرِ، وَرَاحَ الصَّبِيُّ الْيَتِيمُ جَائِعًا لَا يَكَادُ يَأْكُلُ الْفُتَاتَ؟ هَل يُجْدِي هَؤُلَاءِ أَنْ يَصْرُخَ مُحَرَّمٌ فِي وَاحِدٍ مِنْهُمْ؛ فَيَقُولُ[1]:

يَا أَمِينَ اللَّهِ فِي النَّفْسِ الَّتِي   شَفَّهَا الْيُتْمُ فَذَابَتْ أَلَمَا
ذِئْبُ قَفْرٍ أَنْتَ، أَمْ أَنْتَ امْرُؤٌ   يَتَّقِي اللَّهَ، وَيَرْعَىٰ الْحُرُمَا؟

وَإِذَا كَانَ الشَّاعِرُ الْكَبِيرُ يَعْلَمُ قَوْلَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا**﴾[2] فَقَدْ صَوَّرَ هَذَا الْمَعْنَىٰ تَصْوِيرًا شِعْرِيًّا، حِينَ جَعَلَ هَذِهِ الْأَمْوَالَ الْمَغْصُوبَةَ بُرْكَانًا مِنْ حِمَمٍ يَفُورُ فِي جَوْفِ الْوَصِيِّ الظَّالِمِ، وَلَوْ تَرَامَىٰ لَهَبٌ مِنْهَا لَأَحْرَقَ الدُّنْيَا جَمِيعًا، مِنْ هَوْلِ نَارِهِ، وَلَهُ أَنْ يَنْظُرَ إِلَىٰ أَعْمَاقِهِ فِي سَاعَةِ نَدَمٍ؛ لِيَشْهَدَ مَا بِهَا مِنَ اللَّهَبِ الْمُتَّقِدِ، وَالدَّمِ الْقَانِي الْمُحْتَدِمِ فِي جَوْفِ مَنْ عَنَاهُ الشَّاعِرُ بِقَوْلِهِ[3]:

تُضْمِرُ الْبُرْكَانَ مِنْ أَمْوَالِهِ   وَتُوَارِي فِي حَشَاكَ الْحِمَمَا
لَوْ تَرَامَىٰ مَارِجٌ مِنْ نَارِهِ   دَمَّرَ الدُّنْيَا وَأَفْنَىٰ الْأُمَمَا

(١) الدِّيوَان ج ٢، ص ١٢٩.
(٢) سورة النساء الآية ١٠.
(٣) الدِّيوَان ج ٢، ص ١٣٠.

ادْنُ مِنْ حَافَّةِ جَوْفٍ مُظْلِمٍ وَاشْهَدِ السِّرَّ الْأَجَلَّ الْأَعْظَمَا
يَتَرَاءَىٰ الْهَوْلُ فِي أَرْجَائِهِ تَارَةً نَارًا، وَأَحْيَانًا دَمَا
عَفْوَكَ اللَّهُمَّ، هَذَا مَا جَنَىٰ مَنْ نُسَمِّيهِ حَنِيفًا مُسْلِمَا
جَاءَ مِنْكَ الذِّكْرُ نُورًا وَهُدًى فَاسْتَحَبَّ النَّاسُ مَكْرُوهَ الْعَمَىٰ

ثُمَّ بَعْدَ هَذَا النَّهْبِ الْفَادِحِ، وَالسَّلْبِ الْفَاضِحِ، هَلِ انْتَفَعَ الثَّرِيُّ الظَّالِمُ بِمَا نَهَبَ وَسَلَبَ؟ إِنَّ الَّذِي أَغْرَاهُ بِسَلْبِ مَالِ الْيَتِيمِ دَفَعَهُ إِلَىٰ التَّهَالُكِ عَلَىٰ اللَّذَّاتِ فِي مَوَاخِيرِ الْفَسَادِ، وَعَلَىٰ الْمَكْسَبِ الْحَرَامِ حَوْلَ مَوَائِدِ الْقُمَارِ، وَمَا نَزَلَ الْقُمَارُ نَفْسًا إِلَّا أَبَادَهَا، فَإِذَا خَسِرَ الْمُقَامِرُ مَا مَعَهُ لَجَأَ إِلَىٰ الدَّيْنِ يَأْخُذُ الْأَلْفَ بِأَلْفَيْنِ وَبِثَلَاثَةٍ، وَيَتَرَاكَمُ الدَّيْنُ فَيَعْصِفُ بِمَا بَنَىٰ مِنْ عَقَارٍ، وَمَا شَرَىٰ مِنْ أَرْضٍ، وَيُمْسِي بَيْنَ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ فَقِيرًا جَائِعًا حَافِيًا، بَعْدَ الطَّيَالِسِ الثَّمِينَةِ وَالْمَرَاكِبِ الْفَارِهَةِ، وَالْقُصُورِ الشَّمَّاءِ، وَالرُّتْبَةِ الْعَالِيَةِ الَّتِي اشْتَرَاهَا بِمَالِهِ الْحَرَامِ، فَلَمْ تَعُدْ تَنْفَعُهُ بَعْدَ أَنِ ارْتَمَىٰ إِلَىٰ الْحَضِيضِ! صُوَرٌ نَرَاهَا فِي الْمُجْتَمَعِ مُتَكَرِّرَةً، ثُمَّ لَا تَتْرُكُ وَاعِظًا لِمُعْتَبِرٍ، وَلَا تُعْطِي دَرْسًا لِمُتَعَلِّمٍ، وَحُقَّ لِمُحَرِّمٍ أَنْ يُقَرِّعَ هَؤُلَاءِ فَيَقُولَ[1]:

جَرَيْتُمْ إِلَىٰ الْفَقْرِ فِي حَلْبَةٍ رَكِبْتُمْ بِهَا الْغَيَّ فِيمَنْ رَكِبْ
فَمَا بَرِحَ الْمَالُ حَتَّىٰ خَوَىٰ وَمَا بَرِحَ الْخَيْرُ حَتَّىٰ ذَهَبْ
أَيَشْكُو الْغَنِيُّ فَرَاغَ الْيَدَيْنِ وَيَمْضِي الْفَقِيرُ شَهِيدَ السَّغَبْ؟!
فَوَيْحَ الطَّيَالِسِ وَالْمَرْكَبَاتِ! وَوَيْحَ الْقُصُورِ، وَوَيْحَ الرُّتَبْ؟

(١) الدِّيوان ج ٢، ص ١٥٢.

فَغُضُّوا الْعُيُونَ وَلَا تَعْبِسُوا   إِذَا اهْتَاجَ شَاعِرُكُمْ، أَوْ غَضِبْ
دُيُونٌ تَؤُودُ طِوَالَ الْجِبَالِ   وَتُعْيِي الْبِحَارَ، وَتُفْنِي السُّحُبْ
تَذُوبُ قُوَىٰ مِصْرَ مِنْ هَوْلِهَا   كَمَا ذَابَ دَمْعِي لَهَا فَانْسَكَبْ
فَكُلٌّ إِلَىٰ فَمِهِ قَدْ هَوَىٰ   وَكُلٌّ عَلَىٰ وَجْهِهِ قَدْ أَكَبْ

ثُمَّ يُوَاصِلُ الشَّاعِرُ تَقْرِيعَهُ الْأَلِيمَ، فَيَسْأَلُ(1):

عَلَامَ أَضَعْتُمْ ثَرَاءَ الْبِلَادِ   وَمَاذَا قَضَيْتُمْ بِهِ مِنْ أَرَبْ؟
وَكَيْفَ تَجِفُّ ضُرُوعُ الْحَيَاةِ   وَفِي يَدِكُمْ دَرُّهَا الْمُحْتَلَبْ؟
حَرَصْتُمْ عَلَى الْمَالِ حِرْصَ الشَّحِيحِ   فَهَلَّا، وَأَمْوَالُكُمْ تُنْتَهَبْ!
عَشِيَّةَ لَا حُرْمَةٌ تُتَّقَىٰ!   لِمِصْرَ، وَلَا سُبَّةٌ تُجْتَنَبْ!
أَكَفٌّ تَدُرُّ عَلَىٰ الْأَبْعَدِينَ   وَيَلْوِي بِهَا الشُّحُّ عَنْ ذِي النَّسَبْ
أَمَا رَاعَكُمْ مَنْ يَبِيعُ الْبَنِينَ   بِسُوقِ الْمَهَانَةِ بَيْعَ الْجَلَبْ!
يَبِيعُ الْبَنِينَ لِأَجْلِ الرَّغِيفِ   فَيَا لِلرِّجَالِ، وَيَا لِلْعَجَبْ!
أَمَا فِيكُمْ مُنْعِمٌ يُرْتَجَىٰ   أَمَا بَيْتُكُمْ مَاجِدٌ يُنْتَخَبْ؟
تَمَاثِيلُ مَرْفُوعَةٌ أَمْ نُصُبْ   أَمِ الْقَوْمُ فِي غَمْرَةٍ أَمْ لَعِبْ؟

وَفِي الْأَبْيَاتِ إِشَارَةٌ إِلَىٰ الْفَلَّاحِ الْجَائِعِ، وَقَدْ نَشَرَتِ الصُّحُفُ حِينَئِذٍ خَبَرًا عَنْ فَلَّاحٍ أَرَادَ أَنْ يَبِيعَ أَوْلَادَهُ؛ لِأَنَّهُ مَرِيضٌ، وَلَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يَجِدَ لَهُمْ طَعَامًا، وَفِي ظَنِّهِ أَنَّ هَذَا رَحْمَةٌ بِهِمْ؛ لِأَنَّهُمْ سَيَجِدُونَ مَنْ يُهَيِّءُ لَهُمُ الْمَسْكَنَ وَالطَّعَامَ

(1) الدّيوان ج ٢، ص ١٥٣.

وَالتَّعْلِيمَ ، فَيَرْتَفِعُونَ إِلَىٰ طَبَقَةٍ فَوْقَ طَبَقَتِهِ ، وَالْمُشْتَرِي ثَرِيٌّ عَقِيمٌ يُرِيدُ ابْنًا يَنْتَسِبُ إِلَيْهِ ، وَفِي ظَنِّهِ أَنَّ الطِّفْلَ الْمُشْتَرَىٰ سَيَحْمِلُ اسْمَهُ ، وَكَأَنَّهُ يَجْهَلُ حُكْمَ اللَّهِ الصَّرِيحِ فِي رَفْضِ التَّبَنِّي الْجَاهِلِيِّ إِذْ قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ : ﴿ **ادْعُوهُمْ لِآبَائِهِمْ ، هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ** ﴾[1] وَلِلشَّيْطَانِ مَدَاخِلُ تُلْبِسُ الْأَمْرَ عَلَىٰ الْعُقُولِ فَيَضِلُّ الْبَائِعُ وَالْمُشْتَرِي مَعًا ، وَمِنْ وَرَاءِ ذَلِكَ الْحَاجَةُ الْقَاتِلَةُ ، وَالْبُؤْسُ الْمُرِيعُ ، وَقَدْ كَتَبَ الِاجْتِمَاعِيُّونَ مَقَالَاتٍ تَدْعُو إِلَى التَّكَافُلِ الِاجْتِمَاعِيِّ ، وَتَضْرِبُ الْمَثَلَ بِمَا يَجْرِي فِي بَعْضِ الْبِلَادِ الْأُورُبِيَّةِ ، وَاغْتَنَمَهَا مُحَرَّمٌ فُرْصَةً لِإِعْلَانِ كَلِمَةِ اللَّهِ ، وَوُجُوبِ الزَّكَاةِ فِي شَرِيعَةِ الْإِسْلَامِ ، فَنَشَرَ قَصَائِدَ مُتَتَالِيَةً أَصَابَتْ هَدَفَهَا الْبَالِغَ حِينَئِذٍ ، وَمِمَّا قَالَهُ[2]:

ضَاعَ حَقُّ اللَّهِ إِنْ لَمْ يُنْشَدِ ... وَوَهَىٰ الْإِيمَانُ إِنْ لَمْ يُشْدَدِ
فِي ضَمِيرِ الْمَجْدِ مِنَّا لَوْعَةٌ ... حَمِدَ الدَّهْرُ ، وَلَمَّا تُحْمَدِ
نَحْنُ بِالْمَعْرُوفِ أَوْلَىٰ وَلَنَا ... فِيهِ قَبْلَ الْيَوْمِ فَضْلُ الْمُبْتَدِي
نَحْنُ أَهْلُوهُ قَدِيمًا ، وَبِنَا ... كُلُّ شَعْبٍ فِي الْمَعَالِي يَقْتَدِي
يَشْهَدُ التَّارِيخُ أَنَّا أُمَّةٌ ... عَصَفَتْ عَلْيَاؤُهَا بِالْفَرْقَدِ
هِيَ فِي دِينِ الْمَعَالِي مُصْحَفٌ ... ضَمَّ آيَاتِ الْجَلَالِ السَّرْمَدِي
وَهْيَ لِلْأَجْيَالِ إِنْجِيلُ الْهُدَىٰ ... فِي دَيَاجِيرِ الزَّمَانِ الْأَسْوَدِ
مَا لِقَوْمِي عَطَّلُوهَا شِرْعَةً ... أَصْبَحَتْ غُفْلًا كَأَنْ لَمْ تُعْهَدِ
نَزَعُوا الْأَخْلَاقَ غُرًّا وَارْتَدَوْا ... شَرَّ مَا يَلْبَسُ مِنْهَا الْمُرْتَدِي

(١) سورة الأحزاب : آية ٥.
(٢) الديوان ج ٢، ص ١٩٥.

جَفَّ وِرْدُ اللَّهِ فِي أَمْوَالِهِمْ فَهْيَ لِلشَّيْطَانِ أَصْفَىٰ مَوْرِدِ
حَرَمُوا الْبَائِسَ مِمَّا اسْتُخْلِفُوا فِيهِ مِنْ مَالٍ وَعَيْشٍ أَرْغَدِ
ضَجَّتِ الْهَلْكَىٰ تُنَادِي رَبَّهَا رَبِّ، هَلْ مِنْ دِيَةٍ أَوْ قَوَدِ
يَتَرَامَىٰ صَوْتُهَا مُهْتَزِمًا كَاهْتِزَامِ الْمُسْتَشِيطِ الْمُرْعِدِ
ذَعَرَ الْأَجْوَاءَ مِنْهُ عَاصِفٌ بَلَغَ الْعَرْشَ، وَلَمَّا يَرْكُدِ

أَمَّا الْفَلَّاحُ وَمَا يُعَانِيهِ مِنْ كَرْبٍ حِينَ يُصْبِحُ آلَةً لِلثَّرَاءِ فَحَسْبُ ، دُونَ أَنْ يَعُودَ عَلَيْهِ مَا يُمْسِكُ الرَّمَقَ ، فَقَدْ أَكْثَرَ مُحَرَّمٌ التَّوَجُّعَ لِمُصَابِهِ إِذْ رَأَىٰ الْجُبَاةَ مِنْ وَرَائِهِ يَعْتَصِرُونَهُ اعْتِصَارًا مِنْ كُلِّ مُلْتَهِمٍ قَاسٍ لَوْ رَأَىٰ حَجَرًا لَابْتَلَعَهُ ظَانًّا أَنَّهُ مَالٌ ، وَهُوَ يَنْظُرُ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشِّمَالِ إِلَىٰ كُلِّ مَا زَرَعَ الْفَلَّاحُ أَوْ حَصَدَ ، وَيَهُمُّ أَنْ يَغْتَصِبَ أَرْضَهُ اغْتِصَابًا لِيَضُمَّهَا إِلَىٰ مِئَاتِ الْأَفْدِنَةِ تَحْتَ يَدِهِ ، وَقَدِ اشْتَدَّتِ الْأَزْمَةُ اللَّازِبَةُ بِهِ ، حَتَّىٰ أَصْبَحَ عُودُ الثِّقَابِ ذَا قَدْرٍ ، فَلَا يَهَبُهُ مَالِكُهُ إِلَّا إِذَا رَجَا أَنْ يَسْتَرِدَّهُ بَعْدَ أَنْ يُؤَدِّيَ دَوْرَهُ ! يَسْتَرِدُّهُ قَبَسًا مِنْ نَارٍ يُشْعِلُ أَدَاةَ الْخُبْزِ إِذْ لَا يَجِدُ عُودَ ثِقَابٍ آخَرَ ! لِذَلِكَ يَطُوفُ طَالِبُ الشُّعْلَةِ عَلَىٰ الْمَنَازِلِ فَلَا يَجِدُ غَيْرَ الرَّمَادِ ! لَقَدْ خَمَدَتِ النَّارُ فِي الْأَتُّونِ وَاتَّقَدَتْ فِي الْأَحْشَاءِ ، وَإِذَا كَانَتْ هَذِهِ مَأْسَاةَ عُودِ الثِّقَابِ ، فَمَا ظَنُّكَ بِرَغِيفِ الْخُبْزِ ! وَلُقْمَةِ الْأُرْزِ ، مِلْعَقَةِ الدَّوَاءِ ؟! ذَلِكَ هُوَ الْبَائِسُ الْمِسْكِينُ الَّذِي يَقُولُ عَنْهُ مُحَرَّمٌ شَاكِيًا ظُلْمَ جَابِيهِ وَسَالِبِهِ(١):

هَلَّا سَأَلْتَ عَنِ الْفَلَّاحِ مَا صَنَعَتْ بِهِ الْخُطُوبُ ، وَهَلْ أَبْقَتْ لَهُ جَلَدَا ؟
جَفَّتْ مَوَارِدُهُ الْقُصْوَىٰ وَطَاحَ بِهِ مَا ذَاقَ مِنْ عَنَتِ الْأَيَّامِ أَوْ وَرَدَا

(١) الديوان ج «٢» ص ٢٤٠.

يَمْضِي الْجُبَاةُ بِهِ مِنْ كُلِّ مُلْتَهِمٍ   لَوْ يُلْقَمُ الْحَجَرُ الْجُلْمُودُ لَازْدَرَدَا
أَفْنَىٰ الْخَزَائِنَ حَتَّىٰ مَا بِهَا رَمَقٌ   وَاجْتَاحَ مَا زَرَعَ الْفَلَّاحُ أَوْ حَصَدَا
إِنَّ الَّذِي كَانَ مِنْ أَعْوَادِهَا نَضِرًا   مَا انْفَكَّ يُعْصَرُ حَتَّىٰ جَفَّ أَوْ جَمُدَا
عُودُ الثِّقَابِ إِذَا اسْتَوْهَبْتَهُ رَجُلًا   فَلَا تَلُومَنْ أَأَبْدَىٰ السُّخْطَ أَمْ حَقَدَا
أَمَا أَسَيْتَ لِنَارِ الْحَيِّ خَامِدَةً   وَلِلْأَسَىٰ بَاتَ فِي الْأَحْشَاءِ مُتَّقِدَا
مَضَىٰ يَطُوفُ عَلَىٰ الْأَحْيَاءِ قَابِسُهُمْ   فَارْتَدَّ حَرَّانَ يَشْكُو الْهَمَّ وَالْكَمَدَا
لَمْ يَلْقَ إِلَّا رَمَادًا لَا غَنَاءَ بِهِ   تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ أَوْ تَمْضِي بِهِ صَعَدَا
بَكَىٰ الْعِيَالُ، وَبَاتَتْ أُمُّهُمْ أَسَفًا   تَقُولُ يَا وَيْلَتَا، مَنْ يُصْلِحُ الْأَوَدَا؟
لَوْ كَانَ لِي مِنْ وُلَاةِ الْأَمْرِ مُعْتَمَدٌ   أَرْجُوهُ مَا سَهِرَتْ عَيْنِي وَمَا رَقَدَا
لَوْ كُنْتُ فِي زَمَنِ «الْفَارُوقِ» أَدْرَكَنِي   بِنَفْحَةٍ مِنْهُ تَشْفِي الْقَلْبَ وَالْكَبِدَا

وَهٰكَذَا يَحِنُّ شَاعِرُ الْإِسْلَامِ إِلَىٰ عَهْدِ الْخِلَافَةِ الرَّاشِدَةِ، وَزَاهِرِ أَيَّامِهَا فِي عَصْرِ الْفَارُوقِ عُمَرَ إِذِ ادْلَهَمَّتِ الْحَيَاةُ فِي عَيْنِهِ، ثُمَّ يَنْتَقِلُ إِلَىٰ تَقْرِيعِ الْحُكَّامِ كَيْ يُؤَدُّوا وَاجِبَهُمْ نَحْوَ الْفَلَّاحِ الْبَائِسِ، وَقَدْ ظَلَمُوهُ بِانْتِهَابِهِ وَسَلْبِهِ، صَائِحًا بِهِمْ(١):

لَا تَكْتُمُوا الْحَقَّ إِنَّ الْحَقَّ يَعْلَمُهُ   مَنْ غَابَ عَنْ قَوْمِهِ مِنْكُمْ وَمَنْ شَهِدَا
لَا تَجْعَلُوا دِينَكُمْ أَنْ تَحْكُمُوا شَطَطًا   فَالْحُكْمُ فِي كُلِّ دِينٍ رَحْمَةٌ وَهُدَىٰ

ثُمَّ يوَاصِلُ الشَّاعِرُ طَرْقَهُ الْحَادَّ عَلَىٰ رُءُوسِ الْمُتَكَبِّرِينَ مِنْ نَاهِبِي خَيْرِ الْفَلَّاحِ، وَتَهْتَاجُ أَشْجَانُهُ حِينَ يَمُرُّ عَلَىٰ الْجَدَاوِلِ الْهَادِرَةِ، وَالزُّرُوعِ النَّاضِرَةِ،

(١) الدّيوان ج ٢، ص ٢٤١.

فَيَتَسَاءَلُ لِمَنْ جَنَىٰ هَذِهِ الزُّرُوعَ ؟ أَهُوَ لِغَارِسِهَا الَّذِي بَذَلَ فِي حَرْثِهَا دَمَهُ وَبَأْسَهُ ؟ أَمْ هُوَ لِلْمَالِكِ الْإِقْطَاعِيِّ الَّذِي لَمْ يَبْذُلْ شَيْئًا سِوَىٰ التَّكَبُّرِ وَالِاسْتِعْلَاءِ ، وَكَيْفَ يَعِيشُ مُتْرَفًا مَنْ لَوْ تَأَمَّلَ بِفِكْرِهِ لَعَرَفَ أَنَّهُ مَدِينٌ بِتَرَفِهِ لِهَذَا الْبَائِسِ الْمُحْتَاجِ ، إِنَّهَا لَخَطَرَةٌ غَاضِبَةٌ أَوْحَتْ بِهَا الزُّرُوعُ النَّاضِرَةُ ، وَالْجَدَاوِلُ الْمُتَرَقْرِقَةُ ، وَعَهْدِي بِهَا تَبْعَثُ الْبَهْجَةَ وَالِانْتِشَاءَ لِرَائِيهَا ، وَلَكِنَّ مُحَرِّمًا يَتَجَاوَزُ السَّطْحَ إِلَىٰ الْأَعْمَاقِ ، وَلَا تَخْدَعُهُ الْقِشْرَةُ الرَّقِيقَةُ النَّاصِعَةُ عَمَّا تَحْتَهَا مِنْ سُوسٍ يَنْخُرُ ، وَدَاءٍ يَعْضُلُ فَيَقُولُ(1):

قُلْ لِلْجَدَاوِلِ وَالزُّرُوعِ: تَحَدَّثِي ... فِي غَيْرِ مَا وَجَلٍ وَلَا إِشْفَاقِ
مَاذَا يُمَارِسُ مِنْ شَدَائِدِ دَهْرِهِ ... مَنْ أَنْتِ كُلُّ رَجَائِهِ وَيُلَاقِي
وَلِمَنْ جَنَاكِ؟ أَلِلَّذِي هُوَ زَارِعٌ ... أَمْ أَنْتِ لِلْجَانِي بِلَا اسْتِحْقَاقِ؟!
وَيْلِي، عَلَىٰ فَلَّاحِ مِصْرَ، أَمَا كَفَىٰ ... مَا ذَاقَ مِنْ عَنَتٍ وَمِنْ إِرْهَاقِ
يُغْنِي أُلُوفَ الْمُتْرَفِينَ بِمَالِهِ ... وَيَعِيشُ فِي فَقْرٍ، وَفِي إِمْلَاقِ
سُبْحَانَ مَنْ شَرَعَ السَّبِيلَ لِخَلْقِهِ ... أَكَذَا يَكُونُ تَفَاوُتُ الْأَرْزَاقِ؟!!

وَيَمْضِي الشَّاعِرُ فِي رِحْلَتِهِ الْعَابِسَةِ ، رَاكِبًا السَّيَّارَةَ مِنْ دَمَنْهُورَ إِلَىٰ الْقَاهِرَةِ ، فَلَا يَكَادُ يَنْسَىٰ فَلَّاحَ مِصْرَ وَزُرُوعَهُ النَّاضِرَةَ الَّتِي لَا يَكْسِبُ مِنْهَا غَيْرَ الْبَلَاءِ ، حَتَّىٰ يَجِدَ نَفْسَهُ أَمَامَ الْقَنَاطِرِ الْخَيْرِيَّةِ ، وَقَدْ خَرَجَ الشُّبَّانُ زُرَافَاتٍ إِلَيْهَا يُهَامِسُ الْفَتَىٰ الْفَتَاةَ ، وَيَتَّخِذُ مِنْ جَمَالِ الْمَشْهَدِ مَقْبَرَةً لِلْفَضِيلَةِ ، وَمَسْرَحًا لِلرَّذِيلَةِ ، فَيَنْسَىٰ مَا يُشَاهِدُ مِنْ صَفَاءِ النَّهْرِ ، وَبَهَاءِ الزَّرْعِ ، وَجَمَالِ الْأُفُقِ ، وَابْتِسَامِ الرَّبِيعِ ، وَيَصْرُخُ فِي أُذُنِ سَائِقِ السَّيَّارَةِ كَيْ يَنْطَلِقَ مِنْ هَذَا

(1) الديوان ج «٥» ص ٩٣.

الْمَكَانِ ! وَيَتَعَجَّبُ السَّائِقُ إِذْ يَرَىٰ النَّاسَ كُلَّهُمْ يَقِفُونَ لِيُشَاهِدُوا بَهَاءَ الْقَنَاطِرِ الْخَيْرِيَّةِ، مَاءً وَزَرْعًا، وَشَمْسًا وَأُفُقًا، وَشَبَابًا وَشَابَّاتٍ، وَرَقْصًا وَشَدْوًا وَطَيْرًا، وَالشَّاعِرُ الْمِسْكِينُ يَدْعُوهُ كَيْ يَطِيرَ بِهِ إِلَىٰ مَكَانٍ آخَرَ، وَكَأَنَّ الْقَنَاطِرَ لَيْسَتْ أُمْنِيَةً لَذِيذَةً، وَحُلْمًا زَاهِيًا يَتَخَيَّلُهُ الْقَوْمُ فِي الْأَمْسِ، لِيَنْعَمُوا بِهِ عِيَانًا فِي الْغَدِ، أَجَلْ يَدْعُوهُ الشَّاعِرُ إِلَىٰ الْإِسْرَاعِ قَائِلًا[1]:

.. سِرْ يَا رَفِيقِي لَيْتَنِي فِي مَحْبِسِي ... وَلَسَوْفَ أَمْنَعُ أَنْ يُحَلَّ وَثَاقِي

أَهِيَ الْقَنَاطِرُ فِي بَدِيعِ جَمَالِهَا ... أَمْ تِلْكَ بَعْضُ مَقَابِرِ الْأَخْلَاقِ ؟!

لَا تَظْلِمُوا الْعُشَّاقَ يَا قَوْمِي فَمَا ... أَبْصَرْتُ غَيْرَ مَسَارِحِ الْفُسَّاقِ

وَدَعُوا الْعُهُودَ فَمَا وَجَدْتُ لِمُدَّعٍ ... فِي الْحُبِّ مِنْ عَهْدٍ وَلَا مِيثَاقِ

الْحُبُّ مَا صَرَفَ الْقُلُوبَ إِلَىٰ الْهُدَىٰ ... وَسَمَا إِلَىٰ الْجَوْزَاءِ بِالْأَحْدَاقِ

دِينُ الْمُرُوءَةِ وَالْوَفَاءِ وَإِنْ هُمُ ... زَعَمُوهُ دِينَ تَصَنُّعٍ وَنِفَاقِ

الْقَبْرُ أَطْيَبُ مِنْ فُؤَادِ مُنَافِقٍ ... خَدَعَ النُّفُوسَ بِظَاهِرٍ بَرَّاقِ

وَالْبَيْتُ الثَّالِثُ «لَا تَظْلِمُوا الْعُشَّاقَ» مَعَ أَنَّهُ بَيْتُ الْقَصِيدِ !! وَذُو الدِّلَالَةِ الْمُعَبِّرَةِ عَنْ أَسَفِ الشَّاعِرِ وَاسْتِيَائِهِ قَدْ سَقَطَ مِنَ الْقَصِيدَةِ حِينَ جُمِعَ الدِّيوَانُ بَعْدَ وَفَاتِهِ ! مَعَ أَنَّهُ مَوْجُودٌ بِالْأَصْلِ بِمَجَلَّةِ الرِّسَالَةِ الَّتِي نَشَرَتِ الْقَصِيدَةَ لِأَوَّلِ مَرَّةٍ بِالْعَدَدِ «٣٥٤» الصَّادِرِ بِتَارِيخ ١٩٤٠/٤/١٥م، وَقَدْ حَفِظْتُهَا عَنْ ظَهْرِ قَلْبٍ عِنْدَ صُدُورِهَا، وَأَنَا لَا أَزَالُ طَالِبًا بِالْقِسْمِ الِابْتِدَائِيِّ، وَقَدَّمَ لَهَا الْأُسْتَاذُ الْكَبِيرُ أَحْمَدُ حَسَنِ الزَّيَّاتُ بِمُقَدِّمَةٍ مُوجَزَةٍ قَالَ فِيهَا :

(١) الدّيوان ج «٥» ص ٩٤.

«لَقَدْ مَرَّ الشَّاعِرُ فِي طَرِيقِهِ بِدُنْشُوَايَ وَالْقَنَاطِرِ الْخَيْرِيَّةِ وَالْأَهْرَامِ فَتَنَكَّرَتْ شَاعِرِيَّتُهُ لِكُلِّ هَذِهِ الْمَشَاهِدِ، أَوْ هِيَ قَدْ تَنَكَّرَتْ لِهَذِهِ الشَّاعِرِيَّةِ السَّاخِطَةِ، وَحَسْبُهُ أَنْ يَكُونَ فِي جَوْفِ الصَّحْرَاءِ فَيَحْسَبُ أَنَّهُ فِي نَفَقٍ مِنَ الْأَنْفَاقِ، وَأَنْ يَكْرَهَ الشَّمْسَ فَيَرَاهَا تَخْلَعُ رِدَاءَ الْحُسْنِ وَالْإِشْرَاقِ، وَيَشْهَدَ الرَّوْضَ يَكْرَهُ نَفْسَهُ، فَيُلْقِي بِمَا فِيهِ مِنْ زَهْرٍ وَأَوْرَاقٍ».

وَأُسْتَاذُنَا الزَّيَّاتُ - رَحِمَهُ اللَّهُ - فَنَّانٌ مُبْدِعٌ تَسْحَرُهُ مَشَاهِدُ الطَّبِيعَةِ فَتَحْبِسُ مَشَاعِرَهُ فِي نِطَاقِهَا، أَمَّا الشَّاعِرُ - مَعَ أَنَّهُ فَنَّانٌ مِثْلُهُ - فَلَمْ يَنْسَ رِسَالَةَ الْمُصْلِحِ الْهَادِي إِلَى الصِّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ، لِذَلِكَ ضَجَّ سَاخِطًا حِينَ رَأَى مَضَاجِعَ الْفُسَّاقِ، فَأَحَسَّ أَنَّهُ أَخْفَقَ فِي تَحْقِيقِ رِسَالَةِ الطُّهْرِ وَالْإِيمَانِ، وَقَالَ مُتَأَسِّفًا[1]:

اصْبِرْ وَلَا تَعْجَبْ لِمَا أَنَا قَائِلٌ ... فَالْهَمُّ وَيْحَكَ آخِذٌ بِخِنَاقِي

ذُقْتُ الْخُطُوبَ فَمَا وَجَدْتُ مَرَارَةً ... كَمَرَارَةِ الْحِرْمَانِ وَالْإِخْفَاقِ

هَذَا بَعْضُ مَا يُقَالُ عَنْ مُهَاجَمَةِ الرَّذِيلَةِ بِلِسَانِ الشَّاعِرِ، وَقَدْ ذَكَرْتُ شَيْئًا يَسِيرًا، وَتَرَكْتُ قَدْرًا وَفِيرًا، إِذْ كَيْفَ تَتَّسِعُ الصَّفَحَاتُ لِمَا صَرَخَ بِهِ الشَّاعِرُ فِي وُجُوهِ الْبُخَلَاءِ وَالْمُرْتَشِينَ وَالْخَائِنِينَ وَالْكَذَّابِينَ، وَرُوَّادِ الْمَوَاخِيرِ وَمُدْمِنِي الْمُخَدِّرَاتِ، وَلَاعِبِي الْمَيْسِرِ وَالْقُمَارِ؟! إِنَّ الدِّيوَانَ بِأَجْزَائِهِ الْخَمْسَةِ سِجِلٌّ لِهَذِهِ الْأَوْبِئَةِ الْمُهْلِكَاتِ.

(١) الدِّيوَان ج ٥، ص ٩٤.

حُرِّيَّةُ الْمَرْأَةِ

يُخَيَّلُ إِلَيَّ أَنَّ قَاسِمَ أَمِينٍ لَوْ جَعَلَ عُنْوَانَ كِتَابِهِ « حُرِّيَّةُ الْمَرْأَةِ » بَدَلَ « تَحْرِيرُ الْمَرْأَةِ » لَمَا صَادَفَ هَذِهِ الضَّجَّةَ الْعَالِيَةَ الَّتِي دَفَعَتِ الْكَثِيرِينَ مِنْ مُعَارِضِيهِ إِلَىٰ مُهَاجَمَتِهِ، وَمِنْهُمْ شَاعِرُنَا الْغَيُورُ أَحْمَدُ مُحَرَّمٍ، لِأَنَّ كَلِمَةَ « التَّحْرِيرِ » تُوحِي بِالرِّقِّ وَالْعُبُودِيَّةِ، وَقَدْ أَسْرَفَ كُتَّابُ أُورُبَّا عَنْ عَمْدٍ فِي تَرْدَادِ ذَلِكَ لِيَنْسِبُوا إِلَىٰ الْإِسْلَامِ مَا هُوَ بَرِيءٌ مِنْهُ، وَالْإِسْلَامُ بِاعْتِرَافِ الْمُنْصِفِينَ مِنْ هَؤُلَاءِ قَدْ أَعْطَىٰ الْمَرْأَةَ مِنَ الْحُرِّيَّةِ مَا لَمْ تَأْخُذْهُ نِسَاءُ أُورُبَّا فِي عَهْدِ حَضَارَتِهَا ! إِلَّا إِذَا كَانَ التَّبَرُّجُ السَّافِرُ، وَالِاخْتِلَاطُ الشَّائِنُ مَظْهَرَ التَّقَدُّمِ الْأَوْحَدِ لَدَىٰ مَنْ تُغْشِيهِمُ الْأَضْوَاءُ، فَيَرْتَدُّونَ تَائِهِينَ.

لَقَدْ دَارَتْ مَعَارِكُ قَلَمِيَّةٌ حَوْلَ كِتَابِ قَاسِمِ أَمِينٍ، مَا بَيْنَ أَخْذٍ وَرَدٍّ، وَكُلُّ كِتَابٍ تَجْدِيدِيٍّ لَا بُدَّ أَنْ تَخْتَلِفَ فِيهِ الْآرَاءُ، وَلَكِنَّ كَثِيرًا مِنَ الْمُعَارِضِينَ تَرَكُوا حَقَائِقَ الْكِتَابِ إِلَىٰ مَا لَيْسَ فِيهِ، فَهَاجَمُوا التَّبَرُّجَ السَّافِرَ وَالِاخْتِلَاطَ الشَّائِنَ، وَهَجْرَ الْمَنْزِلِ إِلَىٰ حَيْثُ تَرْتَادُ الْمَرْأَةُ الْمَسَارِحَ وَالْمَقَاهِيَ وَحَفَلَاتِ الرَّقْصِ، وَاجْتِمَاعَاتِ اللَّهْوِ، وَكُلُّ ذَلِكَ لَمْ يَدْعُ إِلَيْهِ

قَاسِمُ أَمِينٍ ، وَلَوِ امْتَدَّ بِهِ الْعُمُرُ لَحَارَبَهُ مُحَارَبَةً جَرِيئَةً ، وَلَا أُدَافِعُ عَنِ الرَّجُلِ بِوَحْيٍ مِنْ تَفْكِيرِي الْقَاصِرِ ، وَلَكِنَّنِي أَكِلُ الْأَمْرَ إِلَىٰ كَاتِبٍ غَيُورٍ مُلْتَزِمٍ ، حَارَبَ الِاتِّجَاهَاتِ الْغَرْبِيَّةَ وَدُعَاتِهَا مُحَارَبَةً سَافِرَةً ، جَعَلَتْهُ عَلَمًا فِي هَذَا الْمَجَالِ ، ثُمَّ قَالَ عَنْ قَاسِمِ أَمِينٍ[1]:

« إِنَّ النَّاسَ قَدْ خَطَوْا إِلَىٰ أَبْعَدَ مِمَّا نَادَىٰ بِهِ قَاسِمُ أَمِينٍ ، فَقَدْ كَانَ الرَّجُلُ صَرِيحًا فِي أَنَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَقِفَ بِالْحِجَابِ عِنْدَ مَا أَمَرَ بِهِ اللَّهُ ، وَأَنَّهُ يَدْعُو إِلَىٰ أَلَّا يَجُورَ النَّاسُ بِتَجَاوُزِ حُدُودِ اللَّهِ ، وَسَتْرِ مَا لَمْ يَنْزِلِ الدِّينُ بِأَنَّهُ عَوْرَةٌ ، وَبِحِرْمَانِ الْمَرْأَةِ مِنَ الْعِلْمِ ، وَقَصْرِهَا فِي الْبُيُوتِ ، وَلَمْ يَدْعُ قَاسِمُ أَمِينٍ قَطُّ إِلَىٰ اخْتِلَاطِ الْمَرْأَةِ بِالرِّجَالِ وَمُرَاقَصَتِهِمْ ، وَلَمْ يَدْعُ قَطُّ إِلَىٰ أَنْ تَتَجَاوَزَ كَشْفَ النِّقَابِ إِلَىٰ الْكَشْفِ عَنِ الْأَذْرُعِ وَالسُّوقِ ، وَالصُّدُورِ وَالظُّهُورِ ، وَلَمْ يَدْعُ قَطُّ إِلَىٰ اتِّخَاذِ الْمَلَابِسِ الضَّيِّقَةِ الَّتِي لَا تُخْفِي عَوْرَاتِ الْجِسْمِ إِلَّا لِتُبْرِزَ مَوَاضِعَ الْفِتْنَةِ وَالْإِغْرَاءِ مِنْهَا ، وَلَكِنَّ قَاسِمَ أَمِينٍ وَإِنْ لَمْ يَدْعُ إِلَىٰ شَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ ، هُوَ الَّذِي فَتَحَ الْبَابَ لِمِثْلِ هَذِهِ الدَّعْوَاتِ ، وَهُوَ الَّذِي خَطَا الْخُطْوَةَ الْأُولَىٰ فِي طَرِيقٍ كَانَ لَا بُدَّ أَنْ يَسِيرَ النَّاسُ فِيهِ مِنْ بَعْدِهِ خُطُوَاتٍ » .

وَقَوْلُ الدُّكْتُورِ مُحَمَّدٍ مُحَمَّدٍ حُسَيْنٍ : « هُوَ الَّذِي فَتَحَ الْبَاب » يَحْتَاجُ إِلَىٰ تَعْلِيقٍ ، فَأَنْتَ لَوْ قَدَّمْتَ فَاكِهَةً لِصَدِيقٍ ، وَطَلَبْتَ مِنْهُ أَنْ يَأْكُلَ مَا تَحْتَمِلُهُ نَفْسُهُ فَقَطْ ، ثُمَّ خَالَفَ رَأْيَكَ وَأَكَلَ حَتَّىٰ بَشِمَ وَمَرِضَ ! فَمَا ذَنْبُكَ أَنْتَ ؟ وَقَدْ أَرَدْتَ إِسْعَادَهُ بِمَا أَحَلَّ اللَّهُ ، فَاتَّبَعَ هَوَاهُ .

« لَقَدْ دَعَا قَاسِمُ أَمِينٍ إِلَىٰ أَنْ تَكُونَ الْمَرْأَةُ الْحَدِيثَةُ شَقِيقَةَ الرَّجُلِ ، شَرِيكَةَ

(١) الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر ج ٢، ص ٢٣٧.

الزَّوْجِ مُهَذَّبَةَ النَّوْعِ ، مُرَبِّيَةَ الْأَوْلَادِ ، وَقَالَ صَرَاحَةً : لَوْ كَمُلَتْ تَرْبِيَةُ النِّسَاءِ عَلَىٰ مُقْتَضَىٰ الدِّينِ وَقَوَاعِدِ الْأَدَبِ ، وَوَقَفَ النَّاسُ بِالْحِجَابِ عِنْدَ الْحَدِّ الْمَعْرُوفِ فِي أَغْلَبِ الْمَذَاهِبِ الْإِسْلَامِيَّةِ لَسَمَتِ الْمَرْأَةُ إِلَىٰ مَا نَنْشُدُهُ لَهَا مِنَ الْكَمَالِ » .

لَقَدْ نَقَلَ الدُّكْتُورُ مَنْصُورُ فَهْمِي هَذِهِ الْعِبَارَاتِ وَعَلَّقَ عَلَيْهَا بِقَوْلِهِ(١):

« وَمِنْ حَقِّ الْمُتَأَمِّلِ أَنْ يَجِدَ فِيمَا كَانَ يَنْشُدُهُ ذَلِكَ الْمُصْلِحُ الْكَبِيرُ ، صُورَةً لِلْمَرْأَةِ الْعَامِلَةِ الْجَادَّةِ الشَّرِيفَةِ الْكَرِيمَةِ ، وَلَيْسَتْ صُورَةً لِلْمَرْأَةِ الْمُسْتَهْتِرَةِ الْعَابِثَةِ فِي مَهَازِلِ الْعَيْشِ ، وَتُرَّهَاتِ الْمُجْتَمَعِ ، وَأَنَّ الِاخْتِلَاطَ الَّذِي كَانَ يَدْعُو إِلَيْهِ بَيْنَ الْمَرْأَةِ وَالرَّجُلِ ، هُوَ ذَلِكَ الِاخْتِلَاطُ الْبَرِيءُ مِنْ مُثِيرَاتِ الْمَفَاسِدِ ، وَتَدْعُو إِلَيْهِ مُقْتَضَيَاتُ الْحَيَاةِ النَّزِيهَةِ الْمُثْمِرَةِ ، وَأَنَّ مَا كَانَ يُنَادِي بِهِ قَاسِمٌ مِنَ الْحُرِّيَّةِ ، هِيَ الَّتِي تُعِينُ عَلَىٰ الْخَيْرِ ، وَلَيْسَت تِلْكَ الَّتِي تَرْتَكِبُ الشُّرُورَ وَالْآثَامَ ، عَلَىٰ أَنَّ قَاسِمًا كَانَ شَأْنُهُ فِي دَعْوَتِهِ لِمَثَلِهِ الْأَعْلَىٰ شَأْنَ كُلِّ مُصْلِحٍ ، يَمْلِكُ فُؤَادَهُ وَلُبَّهُ الْمَثَلُ الَّذِي كَانَ يَدْعُو إِلَيْهِ ، فَكَانَ اهْتِمَامُهُ لِتَحْقِيقِ دَعْوَتِهِ أَشْغَلَ لِفِكْرِهِ ، وَأَصْرَفَ لِنَفْسِهِ عَنِ الِاشْتِغَالِ بِالْبَحْثِ فِي مُخْتَلَفِ الْوَسَائِلِ الَّتِي تَقِي أَغْرَاضَهُ الصَّالِحَةَ مِنَ الِانْحِرَافِ » .

نَعُودُ إِلَىٰ مُحَرَّمٍ ؛ فَنَجِدُهُ بَدْءًا قَدْ أَعْلَنَ الثَّوْرَةَ عَلَىٰ قَاسِم أَمِين فَقَالَ(٢):

أَغَرَّكِ يَا أَسْمَاءُ مَا ظَنَّ قَاسِمٌ ... أَقِيمِي وَرَاءَ الْخِدْرِ فَالْمَرْءُ وَاهِمُ
سَلَامٌ عَلَىٰ الْأَخْلَاقِ فِي الشَّرْقِ كُلِّهِ ... إِذَا مَا اسْتُبِيحَتْ فِي الْخُدُورِ الْكَرَائِمُ
أَقَاسِمُ ، لَا تَقْذِفْ بِنَفْسِكَ تَبْتَغِي ... بِقَوْمِكَ وَالْإِسْلَامِ مَا اللَّهُ عَالِمُ

(١) الرسالة - العدد ٤٠٥ - ٧/٤/١٩٤١م .
(٢) الديوان ج ١، ص ٦١.

لَنَا مِنْ بِنَاءِ الْأَوَّلِينَ بَقِيَّةٌ تَلُوذُ بِهَا أَعْرَاضُنَا وَالْمَحَارِمُ
وَلَوْلَا اللَّوَاتِي أَنْتَ تَبْكِي مُصَابَهَا لَمَا قَامَ لِلْأَخْلَاقِ فِي مِصْرَ قَائِمُ
حَنَانَكَ ، إِنَّ الْأَمْرَ قَدْ جَاوَزَ الْمَدَىٰ وَلَمْ يَبْقَ فِي الدُّنْيَا لِقَوْمِكَ رَاحِمُ
أَحَاطَتْ بِنَا الْأُسْدُ الْمُغِيرَةُ جَهْرَةً وَدَبَّتْ إِلَيْنَا فِي الظَّلَامِ الْأَرَاقِمُ
لَنَا فِي كِتَابِ اللَّهِ مَجْدٌ مُؤَثَّلٌ وَمُلْكٌ عَلَىٰ الْحَدَثَانِ وَالدَّهْرِ دَائِمُ
هَمَمْنَا بِرَبَّاتِ الْحِجَالِ نُرِيدُهَا أَقَاطِيعَ تَرْعَىٰ الْعَيْشَ ، وَهْيَ سَوَائِمُ
وَإِنَّ امْرَأً يُلْقِي بِلَيْلِي نِعَاجَهُ إِلَىٰ حَيْثُ تَشْتَدُّ الذِّئَابُ لَظَالِمُ
وَكُلُّ حَيَاةٍ تَثْلُمُ الْعِرْضَ سُبَّةٌ وَلَا كَحَيَاةٍ جَلَّلَتْهَا الْمَآثِمُ
أَلَا إِنَّ بِالْإِسْلَامِ دَاءً مُخَامِرًا وَإِنَّ كِتَابَ اللَّهِ لِلدَّاءِ حَاسِمُ

وَوَاضِحٌ أَنَّ الشَّاعِرَ الثَّائِرَ حِينَ نَظَمَ هَذِهِ الْقَصِيدَةَ مَحْمُودٌ عَلَىٰ ثَوْرَتِهِ الْمُؤْمِنَةِ ، وَحَمِيَّتِهِ الْفَاضِلَةِ ، وَلَكِنَّهُ مَعَ ذَلِكَ ، لَمْ يَقْرَأْ كِتَابَ قَاسِم أَمِين ، وَإِنَّمَا قَرَأَ مَا نَشَرَهُ الْغَاضِبُونَ عَلَيْهِ حِينَ اتَّهَمُوهُ بِمَا لَمْ يَقُلْ ، وَإِلَّا فَمُحَرَّمٌ أَعْرَفُ بِتَعَالِيمِ الْإِسْلَامِ مِنْ أَنْ يُعْلِنَ بَعْدَ قِرَاءَةِ الْكِتَابِ نَفْسِهِ ، أَنَّ الْمُؤَلِّفَ قَدْ خَالَفَهَا ، وَأَعْرَفُ بِقَاسِمٍ مِنْ أَنْ يُعْلِنَ أَنَّهُ يُرِيدُ رَبَّاتِ الْحِجَالِ سَوَائِمَ ، تَعِيشُ فِي مُجْتَمِعٍ يَثْلُمُ الْعِرْضَ ، وَمَا دَعَا إِلَيْهِ قَاسِمٌ زَيَّنَهُ مُحَرَّمٌ وَأَشَادَ بِهِ فِي قَصَائِدَ أُخْرَىٰ ، فَقَدْ قَالَ فِي الِاحْتِفَالِ بِمُرُورِ عِشْرِينَ عَامًا عَلَىٰ تَأْسِيسِ الِاتِّحَادِ النِّسَائِيِّ بِرِيَاسَةِ هُدَىٰ شَعْرَاوِي(١):

هُنَّ اتَّخَذْنَ إِلَىٰ الْحَيَاةِ سَبِيلَهَا وَحَمَلْنَ مِنْ حَاجَاتِهَا الْأَثْقَالَا

(١) ديوان مُحرّم ج «٢» ص ٢٩٧.

سَلِمَتْ أَكُفُّ الْبَانِيَاتِ، وَبُورِكَتْ   تِلْكَ السَّوَاعِدُ أُسْوَةً وَمِثَالَا
مَا ضَرَّهُنَّ إِذَا الرِّجَالُ تَخَاذَلَتْ   مِنْهَا الْقُوَىٰ أَلَّا يَكُنَّ رِجَالَا
الْمَرْأَةُ انْطَلَقَتْ تَسُنُّ لِقَوْمِهَا   سُبُلَ الْهُدَىٰ، وَتُعَلِّمُ الْجُهَّالَا
إِنِّي نَظَرْتُ إِلَىٰ الْقُيُودِ فَلَمْ أَجِدْ   كَالْعَقْلِ قَيْدًا، وَالْعَفَافِ عِقَالَا
لَا شَيْءَ يَمْنَعُ أَنْ تَزُولَ حِجَالُهَا   عَنْهَا، إِذَا الْأَخْلَاقُ كُنَّ حِجَالَا
وَثِقَتْ بِقُوَّتِهَا فَمَا تَخْشَىٰ الْأَذَىٰ   مِنْ مُفْسِدٍ تَشْقَىٰ وَيَنْعَمُ بَالَا
وَمَضَتْ إِلَىٰ الْهَيْجَا تَصُونُ لِوَاءَهَا   بِيَدٍ تَرُدُّ الْفَاتِكَ الْمُغْتَالَا
لَمْ يَشْرَعِ اللَّهُ الْهَوَانَ لِنَفْسِهَا   دِينًا، وَلَمْ يَصْنَعْ لَهَا الْأَغْلَالَا
يَا قَوْمَنَا اتَّخِذُوا الْحَقَائِقَ شِرْعَةً   وَدَعُوا الْجِدَالَ، كَفَىٰ الْبِلَادَ جِدَالَا

فَأَيْنَ هَذَا مِنْ قَوْلِهِ السَّابِقِ:

أَغَرَّكِ يَا أَسْمَاءُ مَا قَالَ قَاسِمٌ   أَقِيمِي وَرَاءَ الْخِدْرِ فَالْمَرْءُ وَاهِمُ

وَلَا يُعَابُ الْمُفَكِّرُ فِي شَيْءٍ، حِينَ يَرَىٰ رَأْيًا ثُمَّ يَعْدِلُ عَنْهُ، وَلَكِنِّي أُشِيرُ إِلَىٰ أَنَّهُ هَاجَمَ قَاسِمَ أَمِينٍ دُونَ أَنْ يَقْرَأَ كِتَابَهُ، فَرَمَىٰ الْكِتَابَ بِمَا لَيْسَ فِيهِ، وَأَذْكُرُ أَنَّ شَوْقِيًّا - رَحِمَهُ اللَّهُ - كَانَ قَدْ قَرَأَ الْكِتَابَ وَاتَّجَهَ فِي تَقْدِيرِهِ وِجْهَةً قَالَ عَنْهَا فِي رِثَاءِ قَاسِمِ أَمِينٍ[1]:

مَاذَا رَأَيْتَ مِنَ الْحِجَابِ وَعُسْرِهِ   فَدَعَوْتَنَا لِتَرَفُّقٍ وَيَسَارِ؟
رَأْيٌ بَدَا لَكَ لَمْ تَجِدْهُ مُخَالِفًا   مَا فِي الْكِتَابِ وَسُنَّةِ الْمُخْتَارِ

(١) الشوقيات ج ٣، ص ٨٥.

أَوَدِدْتَ لَوْ صَارَتْ نِسَاءُ النِّيلِ مَا   كَانَتْ نِسَاءُ قُضَاعَةٍ وَنِزَارِ؟
يَجْمَعْنَ فِي سِلْمِ الْبِلَادِ وَحَرْبِهَا   بَأْسَ الرِّجَالِ وَخَشْيَةَ الْأَبْكَارِ
إِنَّ الْحِجَابَ سَمَاحَةٌ وَيَسَارَةٌ   لَوْلَا وُحُوشٌ فِي الرِّجَالِ ضَوَارِي
جَهِلُوا حَقِيقَتَهُ وَحِكْمَةَ حُكْمِهِ   فَتَجَاوَزُوهُ إِلَىٰ أَذًى وَضِرَارِ

قُلْتُ فِي مُقَدِّمَةِ هَذَا الْفَصْلِ: إِنَّ كِتَابَ تَحْرِيرِ الْمَرْأَةِ لَوْ كَانَ عُنْوَانُهُ حُرِّيَّةَ الْمَرْأَةِ لَتَجَنَّبَ كَثِيرًا مِنَ الْهُجُومِ، وَأَكْبَرُ الظَّنِّ أَنَّ مُحَرَّمًا كَانَ سَيُقْبِلُ عَلَىٰ قِرَاءَتِهِ بِإِمْعَانٍ، فَقَدْ نَادَىٰ بِحُرِّيَّةِ الْمَرْأَةِ قَبْلَ أَنْ يَظْهَرَ كِتَابُ قَاسِم أَمِين وَبَعْدَهُ، نَادَىٰ بِالْحُرِّيَّةِ الْحَقِيقِيَّةِ الَّتِي تَدَعُ لِلْمَرْأَةِ رَأْيًا فِي اخْتِيَارِ زَوْجِهَا دُونَ أَنْ تُجْبَرَ عَلَىٰ الاقْتِرَانِ بِمَنْ لَا تَوَدُّهُ، وَلَهُ فِي هَذِهِ النَّاحِيَةِ قَصَصٌ شِعْرِيٌّ صَادَفَ هَوَىٰ الْقُرَّاءِ حِينَ نُشِرَ فِي الصُّحُفِ فِي مَطْلَعِ الْقَرْنِ الْعِشْرِينَ، وَمِنْ ذَلِكَ قَصِيدَتُهُ الَّتِي مَطْلَعُهَا[1]:

شَغَفَتْ هِنْدٌ بِسَعْدٍ   إِذْ رَأَتْهُ وَرَآهَا
فَهْيَ نَهْبٌ لِهَوَاهُ   وَهْوَ نَهْبٌ لِهَوَاهَا

وَالشِّعْرُ الْقَصَصِيُّ لَا يُغْنِي الاسْتِشْهَادُ بِبَعْضِهِ عَنْ بَعْضِهِ؛ لِأَنَّهُ مُتَسَلْسِلٌ مُطَّرِدٌ، لِذَلِكَ نُوجِزُ الْقِصَّةَ فِي كَلِمَاتٍ تُشِيرُ إِلَىٰ تَحَكُّمِ الْوَالِدِ فِي ابْنَتِهِ وَإِجْبَارِهَا عَلَىٰ الزَّوَاجِ بِمَنْ لَا تَرْضَاهُ، ثُمَّ مَرِضَتْ حَسْرَةً وَمَاتَتْ، وَابْتَلَعَ السُّمَّ حَبِيبُهَا لِيَلْحَقَ بِهَا، فَكَانَتْ كَارِثَتَيْنِ لَا كَارِثَةً، كَذَلِكَ تَحَدَّثَ الشَّاعِرُ عَنِ اللَّقِيطِ[2] وَأُمِّهِ الَّتِي أُجْبِرَتْ عَلَىٰ تَرْكِهِ خِيفَةَ الْفَضِيحَةِ بِمَا يَفْهَمُهُ الْقَارِئُ

(١) الدّيوان ج «٢» ص ٨٢.
(٢) الدّيوان ج «٢» ص ٩٣.

بَدَاهَةً دُونَ اسْتِشْهَادٍ ، أَمَّا زَوَاجُ الْفَتَاةِ[1] الصَّغِيرَةِ بِشَيْخٍ فِي سِنِّ أَبِيهَا بِرَغْمِ مُعَارَضَتِهَا ، وَمَا أَعْقَبَ ذَلِكَ مِنْ شِقَاقٍ فِي أُسْرَةِ الزَّوْجِ الْهَرِمِ إِذْ عَصَاهُ بَنُوهُ ، ثُمَّ تَحْرِيضُ الْأُمِّ أَبْنَاءَهَا عَلَىٰ قَتْلِ الْأَبِ ؛ فَقَدْ أَلْهَمَ الشَّاعِرَ قَصِيدَةً مُؤَثِّرَةً تَدْعُو لِحُرِّيَّةِ الْفَتَاةِ فِي اخْتِيَارِ مَنْ يَتَنَاسَبُ ، أَمَّا مَا جَلَبَهُ الِاسْتِعْمَارُ مِنَ الرَّقِيقِ الْأَبْيَضِ فِي مَوَاخِيرِ الْبِغَاءِ ، فَقَدْ أَفْزَعَ الشَّاعِرَ وَآلَمَهُ ، وَفَزِعَ إِلَىٰ شِعْرِهِ يَقُولُ عَنْ هَؤُلَاءِ الْبَائِسَاتِ[2]:

بِيضٌ يَنَلْنَ مِنَ الْقُلُوبِ شَغَافَهَا ... وَيُنِلْنَهَا شَغَفَ الصَّرِيحِ الْعَانِي
أَضْفَتْ عَلَيْهِنَّ الْمَلَاحَةُ وَشْيَهَا ... فَوَسِعْنَ سِرْبَ الْحُورِ وَالْوِلْدَانِ
الْمَالِكَاتُ، وَمَا لَهُنَّ وِلَايَةٌ ... الْغَالِبَاتُ بِغَيْرِ مَا سُلْطَانِ
النَّاعِمَاتُ ، وَهُنَّ غَيْرُ نَوَاعِمٍ ... الْغَانِيَاتُ ، وَهُنَّ غَيْرُ غَوَانِ
كَادَ الْجَمَالُ لَهُنَّ كَيْدَ مُنَاوِئٍ ... قَلِقَ الْحُقُودِ مُسَهَّدَ الْأَضْغَانِ[3]
نَصَبَ الْحَبَائِلَ حَوْلَهُنَّ كَثِيرَةً ... فَوَقَعْنَ مِنْ مَثْنًى وَمِنْ وَحْدَانِ
رَجَعَتْ نُفُوسُ الْقَانِصِينَ بِغِبْطَةٍ ... وَرَجَعْنَ بِالْحَسَرَاتِ وَالْأَحْزَانِ
وَإِذَا أَسَاءَ إِلَىٰ الْمَلِيحَةِ حُسْنُهَا ... فَالنَّاسُ فِي حِلٍّ مِنَ الْإِحْسَانِ
جَاءُوا بِهِنَّ بِضَاعَةً يُزْجُونَهَا ... لِلطَّالِبِينَ، بِأَبْخَسِ الْأَثْمَانِ
الْبَاخِلَاتُ وَمَا بِهِنَّ تَمَنُّعٌ ... وَالنَّائِيَاتُ هَوًى، وَهُنَّ دَوَانِ
يَلْقَيْنَ مِنْ نَكَدِ الْحَيَاةِ وَبُؤْسِهَا ... صُوَرَ الْمَنَايَا جَمَّةَ الْأَلْوَانِ

(١) الدّيوَان ج «٢» ص ١١.
(٢) الدّيوَان ج «٢» ص ١٢٤.
(٣) الْأَضْغَان : الأحقاد .

وَقَدْ عَاشَ مُحَرَّمٌ بِدَمَنْهُورَ حِينَ كَانَتْ شَبِيهَةً بِقُرَىٰ الرِّيفِ فِي هُدُوئِهَا ، يَتَمَتَّعُ النَّاسُ فِيهَا بِجَوٍّ مِنَ الْوَقَارِ الْآمِنِ ، وَالصَّفَاءِ الْمُرِيحِ ، وَكَانَ يَزُورُ الْقَاهِرَةَ وَالْإِسْكَنْدَرِيَّةَ عَلَىٰ فَتَرَاتٍ مُتَبَاعِدَةٍ ، فَيَجِدُ مِنَ اخْتِلَافِ الْبِيئَةِ مَا يَرْسِمُ انْطِبَاعًا خَاصًّا فِي نَفْسِهِ ، حِينَ يُوَازِنُ بَيْنَ الْهُدُوءِ وَالصَّخَبِ ، وَالتَّبَرُّجِ وَالِاحْتِشَامِ ، وَكَانَتِ الْقَرَوِيَّاتُ يَفِدْنَ إِلَىٰ دَمَنْهُورَ فِي مَوَاسِمِ الْبَيْعِ وَالشِّرَاءِ بَعْدَ الْحَصَادِ ، فَيَجِدُ فِي سُلُوكِهِنَّ الْمُلْتَزِمِ ، وَسَيْرِهِنَّ الْمُحْتَشِمِ مَا يَهُزُّ قَرِيحَتَهُ إِعْجَابًا بِهِنَّ ، وَقَدْ عَرَفَ أَنَّ مِنْهُنَّ مَنْ يُسَاعِدْنَ الْأَبَ وَالزَّوْجَ فِي الْحَقْلِ ، وَكُلُّهُنَّ تَقُمْنَ بِأُمُورِ الْمَنْزِلِ فِي تَرْحِيبٍ ، مُتَبَاعِدَاتٍ عَنْ أَسَالِيبِ الزِّينَةِ وَالتَّكَسُّرِ فِي الْقَوْلِ وَالْعَمَلِ ، لِذَلِكَ انْفَتَحَ الْمَجَالُ فِي شِعْرِهِ كَثِيرًا لِلْمُقَارَنَةِ بَيْنَ فَتَاةِ الرِّيفِ ، وَفَتَاةِ الْمَدِينَةِ ، فِي عِدَّةِ قَصَائِدَ بِالدِّيوَانِ ، وَأَذْكُرُ قَصِيدَتَيْنِ مُتَبَاعِدَتَيْنِ زَمَنًا ، قَالَ إِحْدَاهُمَا سَنَةَ ١٩٠٩م ، وَقَالَ الْأُخْرَىٰ سَنَةَ ١٩٤٣م ، وَكِلْتَاهُمَا تَتَعَرَّضُ لِهَذِهِ الْمُوَازَنَةِ فِي مَنْطِقٍ وِجْدَانِيٍّ يَرَاهُ الشَّاعِرُ أَقْرَبَ السُّبُلِ إِلَىٰ التَّأْثِيرِ فِي الْقَارِئِ ! وَنُطَالِعُ الْقَصِيدَةَ الْأُولَىٰ ، وَقَدْ نُشِرَتْ بِالْجُزْءِ الْخَامِسِ تَحْتَ عُنْوَانِ : « الطَّبِيعَةُ وَفَتَاةُ الرِّيفِ » فَنَجِدُ ابْتِدَاءً رَائِعًا بِتَصْوِيرِ الْفَتَاةِ الشَّابَّةِ ، وَقَدْ نَهَضَتْ مِنَ الْمَنْزِلِ إِلَىٰ الْحَقْلِ الْبَهِيجِ ، بَيْنَ الْمُرُوجِ الْخُضْرِ وَالْأَنْهَارِ ، لِتَقُومَ بِدَوْرِهَا الْعَمَلِيِّ فِي سُكُونٍ يُكْسِبُهَا جَمَالًا وَجَلَالًا ، فَهِيَ كَمَا قَالَ مُحَرَّمٌ(١):

بَكَرَتْ تُصَافِحُ ضَاحِكَ النُّوَّارِ   بَيْنَ الْمُرُوجِ الْخُضْرِ وَالْأَنْهَارِ
نَفَذَتْ عَلَىٰ الْفَجْرِ الدَّجِيِّ ، وَحَبَتْ عَلَىٰ   صَدْرِ الصَّبَاحِ ، وَأَمْسَكَتْ بِنَهَارِ

(١) الدّيوَان ج «٥» ص ٣٤ وَمَا بعدهَا .

أَهْدَىٰ إِلَيْهَا الْحُسْنُ كُلَّ فُنُونِهِ إِهْدَاءَ سَمْحٍ غَيْرِ ذِي اسْتِئْثَارِ
فَتَنَفَّسَتْ عَنْ عَاطِرٍ، وَتَبَسَّمَتْ عَنْ نَاضِرٍ، وَتَلَأْلَأَتْ عَنْ وَارِ

وَبَعْدَ أَنْ أَسْهَبَ الشَّاعِرُ فِي هَذَا الْمَنْحَىٰ، تَسَاءَلَ عَنْ أُخْتِ النُّجُومِ هَذِهِ، لِمَ هَجَرَتْ مَكَانَهَا بَيْنَ أَخَوَاتِهَا وَنَزَلَتْ إِلَىٰ الْأَرْضِ؟ لَقَدْ أَصْبَحَتْ صَفْحَتُهَا الْبَيْضَاءُ الزَّاهِرَةُ نَقِيضًا لِصَفْحَةٍ سَوْدَاءَ لِأُخْتٍ لَهَا بِالْمَدِينَةِ، فَهِيَ فِي قَرْيَتِهَا شَرِيفَةٌ طَاهِرَةٌ بَعِيدَةٌ عَنِ الْخِزْيِ وَالْعَارِ، يَكْسُوهَا الْحَيَاءُ فَتَأْبَىٰ التَّبَذُّلَ وَالِانْحِدَارَ، إِنَّهَا كَمَا نَادَاهَا مُحَرَّمٌ بِقَوْلِهِ(١):

يَا أُخْتَ مُشْرِقَةِ النُّجُومِ مَلَاحَةً وَطَهَارَةً فِي هَيْبَةٍ وَوَقَارِ
شَرَفُ الطَّبِيعَةِ فِي يَدَيْكِ صَحِيفَةٌ مُزْدَانَةٌ بِنَفَائِسِ الْأَشْعَارِ
بَيْضَاءُ هَانِئَةٌ بِهِنَّ صَحَائِفًا سُودًا، يُجَلِّلْنَ ابْنَةَ الْأَمْصَارِ
مُكِّنْتِ مِنْ شَرَفِ الْحَيَاةِ، وَمُكِّنَتْ مِنْ سَوْءَتَيْ خِزْيٍ هُنَاكَ وَعَارِ
وَكَسَوْتِ عِرْضَكِ بِالْحَيَاءِ، وَعِرْضُهَا بَادِي الْعُيُوبِ مِنَ التَّبَذُّلِ عَارِ
أَيْنَ الْقُلُوبُ الْمُظْلِمَاتُ كَأَنَّهَا بَيْنَ الْجُنُوبِ صَحَائِفُ الْكُفَّارِ
مَاتَ الْهَوَىٰ بَيْنَ الْقُصُورِ وَأَقْفَرَتْ مِنْهُ الْمَدَائِنُ أَيَّمَا إِقْفَارِ

وَوَاضِحٌ أَنَّ الشَّاعِرَ فِي إِعْجَابِهِ بِابْنَةِ الرِّيفِ قَدْ عَمَّمَ الْحُكْمَ تَعْمِيمًا لَا يَنْطَبِقُ عَلَىٰ الْوَاقِعِ، فَلَيْسَتْ كُلُّ بَنَاتِ الْحَوَاضِرِ مُتَبَذِّلَاتٍ كَمَا قَالَ! وَلَكِنَّ انْدِفَاعَ الشَّاعِرِ فِي تَحْبِيذِ التَّصَوُّنِ الْمُنْتَشِرِ عَلَىٰ مَدًى وَاسِعٍ فِي الْقَرْيَةِ أَوْحَىٰ لَهُ أَنْ يَنْتَقِصَ كُلَّ فَتَيَاتِ الْمَدِينَةِ، وَهَذَا ظُلْمٌ أَيُّ ظُلْمٍ، وَلَوْ عَاشَ

(١) السّابق.

الشَّاعِرُ إِلَىٰ عَهْدِنَا الْيَوْمَ بَعْدَ انْتِشَارِ «التِّلِيفِزْيُونِ وَالْفِيدْيُو» فِي قُرَىٰ الرِّيفِ لَعَرَفَ أَنَّ الْبَلَاءَ أَصْبَحَ مُشْتَرَكًا، وَأَنَّ ابْنَةَ الرِّيفِ الَّتِي كَانَتْ فِي عَهْدِهِ بَعِيدَةً عَنْ خَوَاطِرِ الرِّيْبَةِ، وَجَدَتْ مِنَ الْإِذَاعَةِ الْمَرْئِيَّةِ، عَامِلًا مِنْ عَوَامِلِ الْإِفْسَادِ! وَمَا تَصْنَعُ الْفَتَاةُ الْبَرِيئَةُ حِينَ تُشَاهِدُ تَمْثِيلِيَّةً هَابِطَةً، تَشْتُمُ فِيهَا الْفَتَاةُ أُمَّهَا وَأَبَاهَا، وَتَعِدُ أَصْدِقَاءَهَا مَوَاعِيدَ اللِّقَاءِ غَيْرَ مُتَصَوِّنَةٍ، وَتَلْبَسُ مَا يَنْدَىٰ لَهُ الْوُجُوهُ حَيَاءً!.

أَتَسْتَقِرُّ فَتَاةُ الرِّيفِ عَلَىٰ عَفَافِهَا، وَدُرُوسُ الِانْحِلَالِ تُزْجَىٰ لَهَا صَبَاحَ مَسَاءَ! إِنَّهَا كَارِثَةٌ، لَيْسَ لَهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ كَاشِفَةٌ، وَقَدْ حَفِيَتِ الْأَقْلَامُ الْمُؤْمِنَةُ فِي تَسْفِيهِ هَذَا الْفُجُورِ، دُونَ جَدْوَىٰ، فَقَدْ أَسْمَعْتَ لَوْ نَادَيْتَ حَيًّا.

أَمَّا الْقَصِيدَةُ الثَّانِيَةُ، فَقَدْ نَشَرَهَا أَحْمَدُ مُحَرَّم بَعْدَ أَكْثَرَ مِنْ ثَلَاثِينَ عَامًا، لِيُقَارِنَ أَيْضًا بَيْنَ فَتَاتَيْنِ، فَتَاةٍ رِيفِيَّةٍ، نَظَرَ إِلَيْهَا بَعْضُ الشَّبَابِ نَظْرَةً خَاطِفَةً ثُمَّ رَدَّ الطَّرْفَ، فَاشْتَجَرَ النِّزَاعُ، وَدَبَّ الصِّرَاعُ، وَكَادَتْ تَقُومُ الْحَرْبُ مِنْ أَجْلِ نَظْرَةٍ عَابِرَةٍ! وَفَتَاةٍ حَضَرِيَّةٍ لَا تَرَىٰ فِي ذَلِكَ خَطْبًا، وَلَا يَتَأَثَّرُ ذَوُوهَا بِغَضَبٍ مَا إِذَا عَلِمُوا شَيْئًا عَنِ النَّظَرَاتِ الْمُتَبَادَلَةِ! هَذَا تَلْخِيصٌ شَائِهٌ يَرْتَدُّ إِلَىٰ جَمَالِهِ الْأَصِيلِ فِي قَوْلِ الشَّاعِرِ الْكَبِيرِ أَحْمَدَ مُحَرَّمٍ عَنْ أَبْنَاءِ الرِّيفِ(١):

مَنَعُوا حِمَىٰ الْأَخْلَاقِ فَاسْتَعْصَىٰ عَلَىٰ ... بَأْسِ الْمُغِيرِ، وَقُوَّةِ الْمُحْتَاجِ
وَلَقَدْ يُبَاحُ دَمُ الْفَتَىٰ فِي قَوْمِهِ ... ضَنًّا بِعِرْضٍ مِنْهُ غَيْرِ مُبَاحِ
كَمْ نَظْرَةٍ هَوْجَاءَ مِنْ مُتَوَسِّمٍ ... عَصَفَتْ بِأَحْلَامٍ هُنَاكَ رَجَاحِ
دَلَفَ الشُّيُوخُ إِلَىٰ الشُّيُوخِ حَمِيَّةً ... وَتَدَافَعَتْ أَبْطَالُهُمْ بِالرَّاحِ

(١) الدّيوَان ج «٥» ص ١٠٨ وَمَا بعدهَا.

وَتَوَثَّبَ الْفِتْيَانُ لَوْ قَدَرُوا مَضَوْا بِـصَـوَارِمٍ مَـسْـنُـونَـةٍ وَرِمَـاحِ
أَرَأَيْتِ يَا ذَاتَ الْقِنَاعِ سَوَادَهُ يُلْقَىٰ عَلَىٰ وَجْهِ النَّهَارِ الضَّاحِي
أَكَذَاكِ أَنْتِ إِذَا تَسَرَّعَ نَاظِرٌ فَأَصَابَ جَانِبَ وَجْهِكِ اللَّمَّاحِ
هَا إِنَّ قَوْمَكِ كَادَ يَهْلِكُ جَمْعُهُمْ لَوْلَا الْهَوَادَةُ مِنْ ذَوِي الْإِصْلَاحِ
مَا أَنْتِ مِنْ بَكْرٍ وَلَا مِنْ تَغْلِبٍ لَـٰكِنَّهُ الشَّرَفُ الْمَنِيعُ السَّاحِ
مَا كَانَ خَطْبُكِ فِي ذَوِيكِ بِرَائِعٍ لَوْ كُنْتِ ذَاتَ غُلَالَةٍ وَوِشَاحِ

وَمَوْضِعُ الْمُفَارَقَةِ الصَّارِخَةِ تَجَلَّىٰ فِي قَوْلِ الشَّاعِرِ: «لَوْ كُنْتِ ذَاتَ غُلَالَةٍ وَوِشَاحٍ» أَيْ: لَوْ كُنْتِ مِنْ سَاكِنَاتِ الْمَدِينَةِ، حَيْثُ لَا بَكْرٌ وَلَا تَغْلِبٌ، وَلَا شُيُوخٌ تَتَدَافَعُ إِلَىٰ شُيُوخٍ، وَلَا مُصَاوَلَةُ فِتْيَانٍ لِفِتْيَانٍ صَوْنًا لِلْكَرَامَةِ وَالْعَفَافِ!.

لَقَدْ شَنَّ مُحَرَّمٌ حَرْبًا عَلَىٰ التَّبَرُّجِ السَّافِرِ فِي الْمَدِينَةِ، وَشَاهَدَ مِنْ مَظَاهِرِهِ مَا وَصَفَهُ أَدَقَّ وَصْفٍ فِي قَصَائِدِهِ النَّاقِدَةِ، وَكَانَ أَكْثَرَ مَا يُؤْلِمُهُ أَنْ يُشَاهِدَ فَتَيَاتِ الْمَدَارِسِ بَعْدَ تَخَرُّجِهِنَّ يُبَالِغْنَ فِي أَسَالِيبِ الزِّينَةِ، وَكَأَنَّهُنَّ لَمْ يَتَعَلَّمْنَ فِي حُجُرَاتِ الدَّرْسِ غَيْرَ مَا يَدْعُو إِلَىٰ التَّبَرُّجِ وَالِابْتِذَالِ، وَيَتَسَاءَلُ الشَّاعِرُ: أَهَذَا غِرَاسُ الْعِلْمِ؟ أَمَا لِلْحُسْنِ حُرْمَةٌ؟ أَمَا لِلتَّصَوُّنِ سَبِيلٌ؟ يَقُولُ الشَّاعِرُ الْغَيُورُ(١):

لِمَنْ وَاضِحَاتٌ فِي الْغَلَائِلِ حُرَّةٌ يَمُوجُ سَنَاهَا فِي الضُّحَىٰ فَيَشُوقُ
فَبِالنَّفْسِ مِنْ إِشْرَاقِهِنَّ عَلَاقَةٌ وَلِلْقَلْبِ مِنْ إِجْلَالِهِنَّ خُفُوقُ

(١) الدّيوان ج ٥، ص ٢١٩.

تَصِيدُ الْفَتَىٰ مِنْهُنَّ وَالنَّفْسُ بَرَّةٌ مَنَاظِرُ إِثْمٍ كُلُّهُنَّ فُسُوقُ
مَشَيْنَ فَلَمْ تَتْرُكْ لِذِي الدِّينِ عِفَّةً مَعَاصِمُ يُصْبِينَ الْحَلِيمَ وَسُوقُ
أَقُولُ، وَقَدْ رَاعَ الْعُيُونَ سَلِيبُهَا أَهَذَا الَّذِي كُنَّا إِلَيْهِ نَتُوقُ؟
أَهَذَا غِرَاسُ الْعِلْمِ؟ لَمْ يَعْدُ أَنْ خَبَتْ عَلَىٰ مِصْرَ أَعْوَادٌ لَهُ وَعُرُوقُ
مِنَ الطَّالِبَاتِ الْعِلْمَ، أَمَّا صَنِيعُهَا فَسُوءٌ، وأَمَّا ثَوْبُهَا فَأَنِيقُ
تَقُولُ: أَمَا لِلْحُسْنِ عِنْدَكَ حُرْمَةٌ وَلَا لِلْهَوَىٰ يَوْمًا إِلَيْكَ طَرِيقُ
وَقُلْتُ لَهَا: رُدِّي عَلَىٰ الشَّوْقِ نَفْسَهُ فَقَدْ جُنَّ حَتَّىٰ مَا يَكَادُ يَفِيقُ
عُنِينَا زَمَانًا بِابْنَةِ النِّيلِ نَبْتَغِي لَهَا الْعِلْمَ إِذْ غَشَّىٰ الْعُيُونَ بَرِيقُ
بَنَيْنَا لَهَا شُمَّ الْمَدَارِسِ فَخْمَةً تَزِيدُ عَلَىٰ أَمْثَالِهَا وَتَفُوقُ
فَمَاذَا مِنَ الْخُلْقِ الْمُهَذَّبِ نَتَّقِي؟ وَمَاذَا مِنَ الْعِلْمِ الصَّحِيحِ نَذُوقُ؟

وَيُخَيَّلُ إِلَيَّ أَنَّ كَلَامَ الشَّاعِرِ مُضْمَرٌ يَحْتَاجُ إِلَىٰ إِظْهَارٍ، فَهُوَ يَطْوِي فِي خَوَافِيهِ مَعَانِيَ لَا يَجْرُؤُ فَاضِلٌ مِثْلُهُ عَلَىٰ بَثِّهَا، وَيُشِيرُ إِلَيْهَا بَعِيدًا بَعِيدًا دُونَ تَلْمِيحٍ! لِأَنَّهُ فِي صَمِيمِ نَفْسِهِ يَعْرِفُ أَنَّهُ يَتَحَدَّثُ عَنْ طَالِبَاتٍ غَرِيرَاتٍ، دُفِعَ بِهِنَّ فَانْدَفَعْنَ، فَإِذَا لَامَ فَلَا يَصْرُخُ، وَإِذَا عَاتَبَ فَلَا يَشْتِمُ، أَمَا غَيْرُهُنَّ مِنْ ذَوَاتِ التَّهَاوُنِ الصَّرِيحِ، صَاحِبَاتِ الْحُسْنِ الْجَلِيبِ، مِمَّنْ يَصْبِغْنَ الْوُجُوهَ وَالشِّفَاهَ خَدِيعَةً لِلْأَغْرَارِ، وَاصْطِيَادًا لِلدُّعَّارِ، فَقَدْ سَلَقَهُنَّ الشَّاعِرُ الْغَيُورُ بِلِسَانٍ حَادٍّ، وَوَاجَهَهُنَّ صَرِيحًا بِمِثْلِ قَوْلِهِ[1]:

أَرِينِي أَيْنَ وَجْهُكِ؛ إِنَّ عَيْنِي مِنَ الْأَصْبَاغِ فِي أَمْرٍ مُرِيبِ

(١) الدِّيوَان ج ٥ ص ٢١٢.

أَرِينِي أَيْنَ أَنْتِ، فَأَنْتِ سِرٌّ عَجِيبُ الْوَصْفِ فِي الزَّمَنِ الْعَجِيبِ
أَمِنْ عِنْدَ التِّجَارِ جَلَبْتِ حُسْنًا فَمَنْ أَغْرَاكِ بِالْحُسْنِ الْجَلِيبِ؟
خَدَعْتِ الصَّيْدَ، مَا بِكِ مِنْ غَنَاءٍ وَلَا لَكِ فِي الدَّمَامَةِ مِنْ ضَرِيبِ
وَلَوْ صَحَتِ الْعُيُونُ، وَهُنَّ نَشْوَىٰ لَمَا نَفَذَتْ سِهَامُكِ فِي الْقُلُوبِ
تُغَطِّينَ الْمَسَاوِيَ بِالْمَسَاوِي وَتُطْفِينَ الْعُيُوبَ عَلَىٰ الْعُيُوبِ
كَأَنَّ بِوَجْهِكِ الْمَمْسُوحِ جُرْحًا يُعَلُّ أَدِيمُهُ بِدَمٍ صَبِيبِ
يَذُوبُ جَمَالُكِ الْمَكْذُوبُ رُعْبًا فَإِلَّا تَهْلِكِي أَسَفًا فَذُوبِي
تَكَشَّفَتِ النَّضَارَةُ عَنْ ذُبُولٍ وَأَقْلَعَتِ الْبَشَاشَةُ عَنْ شُحُوبِ
أَرَاكِ لِكُلِّ مُمْتَهِنٍ نَصِيبًا وَمَا لَكِ فِي الْكَرَامَةِ مِنْ نَصِيبِ
فَمَا لِأَبِيكِ لَا تَنْهَاكِ مِنْهُ حَمِيَّةُ ذِي مُحَافَظَةٍ غَضُوبِ
جَنَاهَا سَوْءَةً كَانَتْ حَنَانًا فَأَمْسَتْ، وَهْيَ مِنْ شَرِّ الْخُطُوبِ
وَمَا لِلنَّشْءِ يُلْهِمُهُ هُدَاهُ كَأُمٍّ حُرَّةٍ وَأَبٍ نَجِيبِ

وَصِلَاتُ الشَّاعِرِ الشَّهِيرِ بِأَدِيبَاتِ الْعَصْرِ وَزَعِيمَاتِهِ دَفَعَتْهُ إِلَىٰ إِطْرَائِهِنَّ إِطْرَاءً أَدَبِيًّا، فَكَانَتْ صَاحِبَتَا مَجَلَّتَيْ «أَنِيسُ الْجَلِيسِ» بِالْإِسْكَنْدَرِيَّةِ، وَ«الْمَرْأَةُ الْجَدِيدَةُ» بِبَيْرُوتَ تَحْظَيَانِ بِوُدِّهِ وَتَقْدِيرِهِ، كَذَلِكَ الزَّعِيمَةُ النِّسَائِيَّةُ «هُدَىٰ شَعْرَاوِي» وَالْأَدِيبَةُ النَّابِهَةُ «مَيُّ زِيَادَةَ»، وَمِنَ الطَّرِيفِ أَنَّهُ نَشَرَ بِمَجَلَّةِ الْمَرْأَةِ الْجَدِيدَةِ الَّتِي أَصْدَرَتْهَا السَّيِّدَةُ «جُولِيَا دِمَشْقِيَّةَ» قَصِيدَةً قَالَ فِيهَا[1]:

(١) الدّيوان ج ٢، ص ٢٣٥.

هَلْ أَتَىٰ الْمَرْأَةَ الْجَدِيدَةَ أَنِّي رَجُلٌ مِنْ ذَوِي الْحِفَاظِ قَدِيمُ
أُوثِرُ الْخِدْرَ وَالْحِجَابَ وَأَخْشَىٰ أَنْ يُبَاحَ الْحِمَىٰ وَيُغْشَىٰ الْحَرِيمُ
جُهْدُ مَا تَبْلُغُ السَّمَاحَةُ مِنِّي أَنْ يُرَىٰ النَّجْمُ أَوْ يَمُرَّ النَّسِيمُ
إِنَّمَا الْبَيْتُ، وَالْعَوَالِمُ شَتَّىٰ عَالَمٌ لَا تَحُدُّ مِنْهُ التُّخُومُ
الْجَسِيمُ الْخَطِيرُ فِي كُلِّ أَمْرٍ فِي نَوَاحِيهِ، وَالْجَلِيلُ الْعَظِيمُ
يَا ذَوَاتِ الْخُدُورِ أَنْصِفْنَ قَوْمًا هُمْ ذَوُو الْحَقِّ إِنْ أَلَحَّ الْخُصُومُ
تِلْكَ مِنْكُنَّ ثَوْرَةٌ تَبْعَثُ الْحَرْ بَ، وَإِنِّي بِبَأْسِكُنَّ عَلِيمُ

وَقَدْ نَشَرَتْ صَاحِبَةُ الْمَجَلَّةِ هَذِهِ الْقَصِيدَةَ مُعْتَزَّةً بِهَا، مَعَ أَنَّهَا تُعَارِضُ رِسَالَةَ الْمَجَلَّةِ الَّتِي تَهْدِفُ إِلَيْهَا، وَمُحَرَّمٌ هُنَا يَرْجِعُ إِلَىٰ أَعْمَاقِ نَفْسِهِ حِينَ يَرَىٰ أَنْ تَلْزَمَ الْمَرْأَةُ الْخِدْرَ، مَعَ أَنَّنَا أَشَرْنَا مِنْ قَبْلُ إِلَىٰ قَصِيدَتِهِ الَّتِي قَالَ فِيهَا(١):

مَا ضَرَّهُنَّ إِذَا الرِّجَالُ تَخَاذَلَتْ مِنْهَا الْقُوَىٰ أَلَّا يَكُنَّ رِجَالَا
الْمَرْأَةُ انْطَلَقَتْ تَسُنُّ لِقَوْمِهَا سُبُلَ الْهُدَىٰ، وَتُعَلِّمُ الْجُهَّالَا
لَا شَيْءَ يَمْنَعُ أَنْ تَزُولَ حِجَالُهَا عَنْهَا، إِذَا الْأَخْلَاقُ كُنَّ حِجَالَا

وَكَانَ ذَلِكَ فِي أَوَاخِرِ حَيَاتِهِ سَنَةَ ١٩٤٣م، وَقَصِيدَةُ الْمَرْأَةِ الْجَدِيدَةِ نُشِرَتْ بِتَارِيخِ ١٩٣٢م، وَأَكَادُ أُرَجِّحُ أَنَّ الشَّاعِرَ حِينَ دَرَسَ سِيرَةَ الرَّسُولِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ دِرَاسَةً مُسْتَوْعِبَةً، وَعَرَفَ كَيْفَ كَانَتِ الصَّحَابِيَّاتُ الْجَلِيلَاتُ يَغْشَيْنَ الْحُرُوبَ، وَيُجَاوِرْنَ الرِّجَالَ، يُدَاوِينَ الْجَرْحَىٰ، وَيَسْقِينَ

(١) الدِّيوَان ج ٤، ص ٢٩٧.

الظَّمْأَىٰ، رَأَىٰ أَنَّ الْإِسْلَامَ لَا يَتَشَدَّدُ فِي لُزُومِ الْمَنْزِلِ، وَالْمُكْثِ بِالْخِدْرِ، وَلَهُ فِي الْإِلْيَاذَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ إِشَادَةٌ تَامَّةٌ بِمِثْلِ هَذِهِ الْمَوَاقِفِ الرَّائِعَةِ لِلْمَرْأَةِ الْمُسْلِمَةِ الْمُنَاضِلَةِ، كَصَفِيَّةَ بِنْتِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ، وَأُمِّ سُلَيْمٍ زَوْجِ أَبِي طَلْحَةَ، وَرُفَيْدَةَ الْأَسْلَمِيَّةِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُنَّ، وَقَدْ أَشَارَ إِلَىٰ غَزْوَةِ خَيْبَرَ، حَيْثُ خَرَجَ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ عِشْرُونَ امْرَأَةً مِنْ نِسَاءِ الْمُسْلِمِينَ، فِيهِنَّ عَمَّتُهُ السَّيِّدَةُ صَفِيَّةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، فَجَاهَدْنَ وَأُعْطِينَ نَصِيبًا مِنَ الْغَنَائِمِ، وَقَالَ عَنْهُنَّ صَاحِبُ الْإِلْيَاذَةِ[1]:

أَتَيْنَ بِهِنَّ مِنْ شَوْقٍ غَلِيلُ ... وَعُدْنَ لَهُنَّ مُنْقَلَبٌ جَلِيلُ
خَرَجْنَ مِنَ الْخُدُورِ مُهَاجِرَاتٍ ... فَلَا دَعَةٌ، وَلَا ظِلٌّ ظَلِيلُ
يَسِرْنَ مَعَ النَّبِيِّ عَلَىٰ سَوَاءٍ ... وَلَا هَادٍ سِوَاهُ، وَلَا دَلِيلُ
يُرِدْنَ اللَّهَ، لَا يَبْغِينَ دُنْيَا ... كَثِيرُ مَتَاعِهَا نَزْرٌ قَلِيلُ
عَقَائِلُ فِي حِمَىٰ الْإِسْلَامِ يَسْمُو ... بِهِنَّ مِنَ الْعُلَىٰ فَرْعٌ طَوِيلُ
يُجَرِّدْنَ النُّفُوسَ مُجَاهِدَاتٍ ... بِحَيْثُ يُجَرِّدُ الْعَضْبُ الصَّقِيلُ
أَخَذْنَ عَطَاءَهُنَّ عَلَىٰ حَيَاءٍ ... يَزِيدُ جَمَالَهُ الْخُلُقُ النَّبِيلُ
لَئِنْ قَلَّ الَّذِي أُوتِينَ مِنْهُ ... فَأَجْرُ اللَّهِ مَوْفُورٌ جَزِيلُ

أَمَّا رُفَيْدَةُ الْأَسْلَمِيَّةُ؛ فَقَدْ ضَرَبَتْ أَحْسَنَ الْمَثَلِ لِأَخَوَاتِهَا الْمُسْلِمَاتِ، حِينَ أَقَامَتْ خَيْمَةً لِمُدَاوَاةِ جَرْحَىٰ الْمُسْلِمِينَ الَّذِينَ لَمْ يَصْحَبُوا مِنْ أَهْلِيهِمْ مَنْ يَقُومُ عَلَىٰ تَمْرِيضِهِمْ، وَكَانَتْ هَذِهِ الْخَيْمَةُ الْمُبَارَكَةُ فِي نَاحِيَةٍ مِنْ

(١) دِيوَان مجد الإسْلَام ص ٢٥٢.

مَسْجِدِ الرَّسُولِ ﷺ بِالْمَدِينَةِ، وَقَدْ هَزَّتْ هَذِهِ الْمُجَادَّةُ النَّسَوِيَّةُ شَاعِرِيَّةَ مُحَرَّمٍ فَقَالَ[1]:

رُفَيْدَةُ عَلِّمِي النَّاسَ الْحَنَانَا   وَزِيدِي قَوْمَكِ الْعَالِينَ شَانَا
خُذِي الْجَرْحَىٰ إِلَيْكِ فَأَكْرِمِيهِمْ   وَطُوفِي حَوْلَهُمْ آنًا فَآنَا
وَإِنْ هَجَعَ النِّيَامُ فَلَا تَنَامِي   عَنِ الصَّوْتِ الْمُرَدَّدِ حَيْثُ كَانَا
أَعِينِي السَّاهِرِينَ عَلَىٰ كُلُومٍ   تُؤَرِّقُهُمْ، فَمِثْلُكِ مَنْ أَعَانَا
هُمُ الْأَهْلُونَ مَا عَرَفُوا أَنِيسًا   سِوَاكِ لَهُمْ، وَمَا وَجَدُوا مَكَانَا
حَبَاكِ اللَّهُ مِنْ تَقْوَاهُ قَلْبًا   وَسَوَّىٰ مِنْ مَرَاحِمِهِ الْبَنَانَا
رَفَعْتِ لِأَسْلَمٍ ذِكْرًا جَلِيلًا   يُزَاحِمُ فِي مَوَاكِبِهِ الزَّمَانَا
ضُيُوفُ اللَّهِ حَوْلَكِ فِي مَحَلٍّ   تُذَكِّرُنَا مَحَاسِنُهُ الْجِنَانَا
فَيَا لَكِ خَيْمَةً لِلْبِرِّ فِيهَا   جَلَالٌ لَا يُرَامُ وَلَا يُدَانَىٰ
نَسِيجٌ مِنْ شُعَاعِ الْحَقِّ بِدْعٌ   نَزِيدُ عَلَىٰ الزَّمَانِ بِهِ افْتِنَانَا
تَقِلُّ بَدَائِعُ النُّسَّاجِ عَنْهُ   وَإِنْ نَسَجُوا اللُّجَيْنَ أَوِ الْجُمَانَا
وَمَا يَجِدُ الْأَدِيبُ الْفَرْدُ وَصْفًا   يُحِيطُ بِهِ، وَلَوْ أَفْنَىٰ الْبَيَانَا
لَهُ فِي النَّفْسِ تَرْجَمَةٌ وَمَعْنًى   جَلِيلُ الشَّأْنِ يُعْيِي التُّرْجُمَانَا

وَتَمْضِي الْقَصِيدَةُ عَاطِرَةٌ فَوَّاحَةٌ فِي رَوْضٍ أَرِيجٍ ! وَمَا كَانَ الشَّاعِرُ لِيَبْلُغَ هَذِهِ الْإِجَادَةَ الْبَيَانِيَّةَ إِلَّا حِينَ اقْتَنَعَ بِصِدْقِ الرِّسَالَةِ الشُّجَاعَةِ الَّتِي قَامَتْ بِهَا رُفَيْدَةُ الْأَسْلَمِيَّةُ، وَإِخَالُهَا عَدَّلَتْ مِنْ نَظْرَةِ الشَّاعِرِ إِلَىٰ الْمَرْأَةِ الْمُسْلِمَةِ، عَلَىٰ

(١) ديوان مجد الإسْلَام ص ١٨١.

نَحْوِ مَا سَبَقَ أَنْ أَوْضَحْنَاهُ ..

لَقَدْ تَرَكْتُ الْكَثِيرَ مِمَّا قَالَ الشَّاعِرُ فِي وُجُوبِ تَعْلِيمِ الْمَرْأَةِ وَتَثْقِيفِهَا ؛ لِأَنِّي فِي هَذِهِ الدِّرَاسَةِ لَا أَسْتَوْعِبُ بَلْ أُشِيرُ ، وَقَدْ يُغْنِي الْبَيْتُ الْوَاحِدُ عَنْ قَصِيدَةٍ ، كَمَا تُغْنِي الْقَصِيدَةُ الْوَاحِدَةُ عَنْ دِيوَانٍ ..

شَكَاةُ الْجَرِيحِ

أَلَيْسَ مِنْ حَقِّ الْجَرِيحِ أَنْ يَشْكُوَ ؟ لَا سِيَّمَا إِذَا كَانَ شَاعِرًا ذَا إِحْسَاسٍ مُلْتَهِبٍ ، وَنَفَسٍ حَارٍّ ، لَقَدْ شَكَا مُحَرَّمٌ سُوءَ حَظِّهِ ، كَمَا شَكَا الشُّعَرَاءُ مِنْ قَبْلِهِ ، وَكَمَا شَكَوْا مِنْ بَعْدِهِ ، وَسَتَظَلُّ هَذِهِ الشَّكْوَىٰ تَتَرَدَّدُ مَا وُجِدَ عَلَىٰ الْأَرْضِ مَظْلُومٌ وَجِيعٌ .

عَاشَ الشَّاعِرُ فِي عَصْرٍ لَا يَعْرِفُ فِيهِ مَكَانَ النَّعِيمِ مِنَ الشُّعَرَاءِ إِلَّا مَنْ عَرَفَ كَيْفَ يَتَسَلَّقُ وَيَتَزَلَّفُ ، وَقَالَ مَا لَا يَعْتَقِدُ لِيُطْرِبَ غَيْرَهُ ، وَمَا عَلَيْهِ إِذَا أَنْكَرَ مَا قَالَهُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ نَفْسِهِ ، مَا دَامَ هَذَا الْإِنْكَارُ صَامِتًا لَا يُحِسُّ بِهِ أَحَدٌ ، وَقَدْ طَبَعَ اللّٰهُ نَفَرًا مِنَ النَّاسِ وَفِي طَلِيعَتِهِمْ مُحَرَّمٌ عَلَىٰ الصِّدْقِ ، وَعَارٌ أَيُّ عَارٍ أَنْ تَنْطِقَ أَلْسِنَتُهُمْ بِمَا لَا يُخْفُونَ ، وَلَعَلَّ هَؤُلَاءِ يَصْدُقُ عَلَيْهِمْ قَوْلُ مَنْ قَالَ :

إِنَّ الَّذِي خَلَقَ الْحَقِيقَةَ عَلْقَمًا   لَمْ يُخْلِ مِنْ أَهْلِ الْحَقِيقَةِ جِيلَا !

وَقَدِ اشْتُهِرَ بِالْبُؤْسِ جَمَاعَةٌ مِنْ نَاظِمِي الْقَرِيضِ ، مِنْهُمْ مَنْ رُزِقَ اللِّسَانَ الْقَارِصَ ، وَالْوَجْهَ الْبَارِزَ فَمَدَّ يَدَهُ طَالِبًا ؛ وَلَا عَلَيْهِ إِذَا أَنْكَرَ النَّاسُ أَوْ خَالَفُوا ، فَهْوَ يَهْجُو وَيَمْدَحُ ، وَيَطْلُبُ وَيُلِحُّ ، وَبُؤْسُ هَؤُلَاءِ مَوْقُوتٌ مَهْمَا ادَّعَوْا

الْحِرْمَانَ ؛ لِأَنَّ إِلْحَاحَهُمْ يُنْزِلُ النَّدَىٰ عَلَىٰ قُلُوبِهِمُ الظَّامِئَةِ فَيَرْتَوُونَ ، وَقَدْ يَكُونُ الْبُؤْسُ مُصْطَنَعًا لَدَىٰ بَعْضِهِمْ ، إِذْ يَرَوْنَ فِيهِ حُبَالَةً لِلصَّيْدِ ، وَبَابًا لِلِارْتِزَاقِ .

كَمَا رُزِقَ الْبُؤْسَ جَمَاعَةٌ آخَرُونَ ، فِي قُلُوبِهِمْ حَسَاسِيَّةٌ ، وَفِي نُفُوسِهِمْ إِبَاءٌ ، وَلِوُجُوهِهِمْ حَيَاءٌ دُونَهُ حَيَاءُ الْعَذْرَاءِ ، وَهَؤُلَاءِ الَّذِينَ يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ ، بَلْ يُحِسُّ النَّاسُ بَلْوَاهُمْ فِي أَكْثَرِ أَحْوَالِهِمْ ثُمَّ لَا يَفْعَلُونَ شَيْئًا ؛ لِأَنَّ أَكْثَرَ الْأَثْرِيَاءِ أَشِحَّاءُ ، يَتَكَارَمُونَ وَيَتَسَاخَوْنَ ، وَلَا يَكْرُمُونَ وَيَسْخُونَ ، فَإِذَا لَمْ يَسْمَعُوا صَوْتَ السَّائِلِ الْمُلِحِّ حَمِدُوا اللَّهَ ، بَلْ إِذَا سَمِعُوا الصَّوْتَ تَجَاهَلُوهُ حَتَّىٰ يَتَكَرَّرَ وَيَتَرَدَّدَ ، ثُمَّ يَسْتَجِيبُوا مَخَافَةَ الْمَذَمَّةِ ! هَذَا إِنِ اسْتَجَابُوا .

وَقَدْ كَانَ الْكَرَمُ فِي الْقَدِيمِ يَنْحَصِرُ فِي الْعَطَاءِ الْمَادِّيِّ فَتْرَةً بَعْدَ فَتْرَةٍ ! وَلَكِنَّهُ فِي الْقَرْنِ الْعِشْرِينَ قَدْ خَرَجَ مِنْ هَذَا النِّطَاقِ إِلَىٰ نَوْعٍ آخَرَ ، هُوَ اصْطِنَاعُ الْجَاهِ الْمُمْتَدِّ ، فِي تَهْيِئَةِ وَظِيفَةٍ تُدِرُّ ، فَتَكْفِي صَاحِبَهَا سَغَبَ الْحَيَاةِ ، وَالَّذِي يَمْلِكُ أَنْ يُوَظِّفَ ، لَا يَفْعَلُ إِلَّا إِذَا سِيقَتْ لَهُ الْمَدَائِحُ ، وَتَرَادَفَ حَوْلَهُ الْمَلَقُ الْكَاذِبُ ، وَإِذَا كَانَ الشَّاعِرُ أَبِيًّا غَيُورًا فَكَيْفَ يَمْدَحُ وَيَتَمَلَّقُ ؟ وَهُوَ يَرَىٰ نَفْسَهُ صَاحِبَ رِسَالَةٍ ، وَمَصْدَرَ إِشْعَاعٍ !!.

لَقَدْ كَانَ أَحْمَدُ مُحَرَّم ، كَمَا كَانَ عَبْدُ الْمُحْسِنِ الْكَاظِمِيُّ شَاعِرَيْنِ كَبِيرَيْنِ حَقًّا ، وَلَكِنَّهُمَا مُتَرَفِّعَانِ شَامِخَانِ ، فَلَمْ تُغْنِهِمَا الشَّاعِرِيَّةُ السَّاطِعَةُ ، وَالنُّبُوغُ الْمُزْدَهِرُ شَيْئًا فِي مِضْمَارِ الْعَيْشِ ، بَلْ عَادَ هَذَا النُّبُوغُ عَلَيْهِمَا بِالْحِقْدِ الْمُسْتَتِرِ وَالظَّاهِرِ ، فَوَقَفَتِ الْعَقَبَاتُ أَمَامَ رِزْقِهِمَا الْكَرِيمِ ، وَأَخَذَا يَتَأَوَّهَانِ

شَاكِيَيْنِ، وَلَا مِنْ سَمِيعٍ، وَالْعَجِيبُ أَنَّهما بَعْدَ أَنْ حَقَّ عَلَيْهِمَا الْحَقُّ، وَانْتَقَلَا إِلَىٰ رَحْمَةِ اللَّهِ أَخَذَ الْكُتَّابُ يَبْكُونَ حَظَّهُمَا الْعَاثِرَ، وَيَقُولُونَ: لَقَدْ حُرِمَا نَصِيبَهُمَا الطَّبِيعِيَّ، لَا مِنْ لَذَّةِ الْعَيْشِ، بَلْ مِنْ مُقَوِّمَاتٍ ضَرُورِيَّةٍ وَأَخَذُوا يَتَلَاوَمُونَ!.

رَحَلَ الْكَاظِمِيُّ قَبْلَ مُحَرَّمٍ بِمَا يَقْرُبُ مِنْ عِقْدٍ كَامِلٍ، فَانْطَلَقَتِ الْأَلْسِنَةُ فِي رِثَائِهِ تَلُومُ مَنْ أَهْمَلُوهُ، وَقَالَ رَفِيقُهُ مَعْرُوفٌ الرُّصَافِيُّ فِي رِثَائِهِ مُتَهَكِّمًا[1]:

عَاشَ مَنْسِيَّ عَارِفِيهِ، وَلَمَّا   مَاتَ فَاضَتْ بِنَعْيِهِ الْأَنْبَاءُ!

ذَكَرَتْهُ نُعَاتُهُ بِنُعُوتٍ   قَبْلَهُ حَازَ مِثْلَهَا الْعُظَمَاءُ

فَلَئِنْ كَانَ مَا يَقُولُونَ حَقًّا   إِنَّهُمْ بِالَّذِي نَسُوا لُؤَمَاءُ

أَفَيُنْسَىٰ حَيًّا، وَيُذْكَرُ مَيْتًا   إِنَّ هَذَا مَا تُنْكِرُ الْعُقَلَاءُ

ضَحِكُوا مِنْهُ فِي الْحَيَاةِ، وَمُذْمَا(م)   تَ تَعَالَىٰ نَحِيبُهُمْ وَالْبُكَاءُ

وَالَّذِي قَالَهُ مَعْرُوفٌ الرُّصَافِيُّ فِي رِثَاءِ الْكَاظِمِيِّ قَالَهُ أَحْمَدُ مُحَرَّمٍ بِمَعْنَاهُ، وَلَكِنْ فِي أُسْلُوبٍ أَقْوَىٰ، وَتَهَكُّمٍ أَوْجَعِ، وَتَعْنِيفٍ أَحَرَّ، إِذْ بَدَأَ حَدِيثَهُ مُخَاطِبًا زَمِيلَهُ الرَّاحِلَ بِقَوْلِهِ[2]:

مَا شِئْتَ، فَانْأَ مَحَلَّةً وَمَزَارَا   مَا كُنْتَ قَبْلَ نَوَاكَ أَقْرَبَ دَارَا

إِنِّي لَأَسْتَحْيِيكَ أَحْسَبُ أَنَّنِي   لَمْ أَجْفُ غَيْرَكَ صَاحِبًا أَوْ جَارَا

قَالُوا: ذَهَبْتَ، فَأَيْنَ كُنْتَ؟ وَمَا لَهُمْ   قَلَبُوا الْأُمُورَ وَحَرَّفُوا الْأَخْبَارَا؟

---

(١) مجلة الرّسالة - العدد ١٠٤ - يولية ١٩٣٥م.

(٢) الدّيوان ج «٢» ص ٤٥٣.

حلَّقْتَ ، فاتَّخذُوا الْجفاءَ سَجيّةً — وَعَفَفْتَ ، فاتَّخذُوا الْعُقُوقَ شِعارًا

وَقَدْ قَدَّمَتْ مَجلَّةُ «الْفَتْحِ» هَذِهِ الْقَصِيدَةَ بِكَلِمَةٍ كَاشِفَةٍ ، حيْثُ قَالَ الْأُسْتَاذُ مُحِبُّ الدِّينِ الْخَطِيبُ : «فِي حَيَاةِ شَاعِرِ الْعَرَبِ الشَّيْخِ عَبْدِ الْمُحْسِنِ الْكَاظِمِيِّ - رَحِمَهُ اللَّهُ - مَعْنًى قَدْ يَلْمَحُهُ مِنَّا الْكَثِيرُونَ بِعَيْنِ الْخَجَلِ وَيُحِسُّونَهُ خِزْيًا صَامِتِينَ ، وَلَكِنَّ شَاعِرَ مِصْرَ الْأُسْتَاذَ أَحْمَدَ مُحَرَّمٍ أَبْلَغُ مَنْ يُدْرِكُ دَقَائِقَ هَذَا الْمَعْنَى ، وَأَفْصَحُ مَنْ يُعَبِّرُ عَنْهُ بِبَيَانِهِ الْخَالِدِ ، عَسَى أَنْ يَسْتَغْفِرَ أَهْلُ الْمَقْدِرَةِ ، فَيُكَفِّرُوا عَنْ ذُنُوبِهِمْ لِلْعَبْقَرِيَّةِ الَّتِي تَحْمِلُ مِنَ الزَّمَانِ وَأَهْلِهِ مَا يُصِمُّ وَيُعْمِي» .

وَأَنَا مِمَّنْ يَظُنُّونَ أَنَّ مُحَرَّمًا الْعَظِيمَ قَدْ تَحَدَّثَ عَنْ نَفْسِهِ سَلَفًا ، حِينَ تَحَدَّثَ عَنْ زَمِيلِهِ فِي الشَّقَاءِ عَبْدِ الْمُحْسِنِ الْكَاظِمِيِّ ، حَيْثُ اتَّفَقَا مَعًا فِي سَوَادِ الْعَيْشِ ، وَقَسَاوَةِ الْحَيَاةِ ، وَقَدْ وَجَدَ بَعْدَهُ مَنْ يَقُولُ فِي رِثَائِهِ ، مِثْلَ مَا قَالَهُ هُوَ فِي رِثَاءِ الْكَاظِمِيِّ ، حَيْثُ قَالَ الشَّاعِرُ الْأَدِيبُ عَلِيُّ أَحْمَدَ بَاكَثِير ، وَقَدْ زَارَ دَمَنْهُورَ بَيْنَ مَنِ احْتَفَلُوا بِذِكْرَاهُ بَعْدَ ثَمَانِيَةَ عَشَرَ عَامًا(١):

مُحَرَّمٌ كَانَ يَمْشِي هَا هُنَا جَذِلًا — حِينًا ، وَحِينًا أَخَا هَمٍّ وَتَفْكِيرِ
يَجْفُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِنْ مَعَارِفِهِ — يَا لَلرِّجَالِ ، لِفَضْلٍ غَيْرِ مَقْدُورِ
يَمُرُّ كَالطَّيْفِ فِي رِفْقٍ وَفِي دَعَةٍ — وَفِي جَوَانِحِهِ مَسْجُورُ تَنُّورِ
قَدْ أَكْبَرَ الشِّعْرَ أَنْ يُهْدَى إِلَى مَلِكٍ — وَأَنْ يُرَادَ بِهِ صَيْدُ الدَّنَانِيرِ
فَعَاشَ مَا عَاشَ فِي عِزٍّ وَفِي شَرَفٍ — وَإِنْ تَقَلَّبَ فِي بُؤْسٍ وَتَقْتِيرِ !

بَعْدَ ذَلِكَ كُلِّهِ نَتَسَاءَلُ عَنْ شَقَاءِ مُحَرَّمٍ كَمَا تَنْطِقُ بِهِ صَفَحَاتُ دِيوَانِهِ ،

(١) مجلة الرسالة «الجديدة» ٣١/١٠/١٩٦٣م.

إِذْ لَيْسَ لَنَا فِي هَذَا الْمَجَالِ أَصْدَقُ مِنْهُ قَوْلًا ، وَأَبْلَغُ تَصْرِيحًا ، وَقَدْ قَالَ وَكَرَّرَ ، وَعَلَيْنَا أَنْ نَسْتَمِعَ وَنَعْتَبِرَ !.

نَشَأَ أَحْمَدُ مُحَرَّم فِي عَصْرٍ كَانَتْ فِيهِ الصَّحَافَةُ مَيْدَانًا لِكُلِّ أَدِيبٍ نَابِغٍ ، دُونَ نَظَرٍ إِلَى شَهَادَةٍ عِلْمِيَّةٍ ، أَوْ ثَرْوَةٍ مَالِيَّةٍ ، فَقَدْ سَيْطَرَ « عَلِيُّ يُوسُفَ » وَ« خَلِيلُ مُطْرَانَ » وَ« أَدِيبُ إِسْحَاقَ » ، وَ« نَجِيبُ الْحَدَّادُ » عَلَى الصُّحُفِ الْيَوْمِيَّةِ وَالْأُسْبُوعِيَّةِ ، وَلَيْسَ لَدَيْهِمْ غَيْرُ أَسِنَّةِ أَقْلَامِهِمْ ، وَطَارَ لَهُمْ وَلِأَمْثَالِهِمْ ذِكْرٌ فِي الْبِلَادِ ؛ لِأَنَّهُمْ أُدَبَاءُ يَعْرِفُونَ كَيْفَ يَكْتُبُونَ ، وَلِذَلِكَ تَطَلَّعَ أَحْمَدُ مُحَرَّم إِلَى أَنْ يَكُونَ ذَا رَأْيٍ مَسْمُوعٍ ؛ لِأَنَّهُ يَمْلِكُ أَدَاتَيِ الْبَيَانِ نَثْرًا وَشِعْرًا ، وَقَدْ أَرْسَلَ نِتَاجَهُ الْأَدَبِيَّ إِلَى الْجَرَائِدِ فَلَاقَى حُظْوَةً تَامَّةً ، وَعَرَفَهُ الْجُمْهُورُ فِي الْعَالَمِ الْعَرَبِيِّ ، وَجَاءَتْهُ رَسَائِلُ الْأُدَبَاءِ مِنَ الشَّامِ وَالْعِرَاقِ تَخْطُبُ وُدَّهُ ، وَطَارَحَهُ الشُّعَرَاءُ فِي حَلَبَاتِ الْقَصِيدِ فَبَرَزَ وَأَجَادَ .. وَكَانَ يَنْتَظِرُ بَعْدَ ذَلِكَ كُلِّهِ أَنْ يَجِدَ مُرْتَزَقًا كَافِيًا لِحَيَاتِهِ مِنْ أَدَبِهِ الْمُزْدَهِرِ ، وَبَيَانِهِ الْمُنْتَشِرِ ، وَلَكِنَّهُ يَكْتُبُ دُونَ أَجْرٍ ، وَيَعُولُهُ أَبُوهُ ، وَلَيْسَ بِدَائِمٍ لَهُ ، وَلَهُ نَخْوَةٌ تَمْنَعُهُ أَنْ يَلِجَ الْأَبْوَابَ مُعْتَصِمًا بِكَبِيرٍ يَسْتَظِلُّ بِهِ لِيَكُونَ قَلَمُهُ تَحْتَ إِرَادَتِهِ ، أَوْ رَئِيسِ تَحْرِيرِ جَرِيدَةٍ يَجْعَلُهُ مِنْ كِبَارِ الْمُحَرِّرِينَ ذَوِي الرَّوَاتِبِ الشَّهْرِيَّةِ ! لَقَدْ نَبَغَ ، وَهُوَ شَابٌّ غَضُّ الْإِهَابِ ، وَلَكِنَّهُ لَمْ يَجْنِ ثَمَرَةَ النُّبُوغِ ، فَأَخَذَ يُنَفِّسُ عَنْ صَدْرِهِ بِالتَّعْبِيرِ عَمَّا يُكِنُّ فِي أَبْيَاتٍ لَا تَدُلُّ عَلَى أَنَّ قَائِلَهَا شَاعِرٌ نَاشِئٌ ، إِذْ تُظْهِرُ تَمَكُّنًا لَا يُتَاحُ إِلَّا لِشَاعِرٍ مُتَمَرِّسٍ ! تَجِدُ ذَلِكَ فِي قَوْلِهِ[1]:

أَسِيتُ لِآمَالٍ تَوَلَّيْنَ خُيَّبًا ... فَوَكَّلْنَ بِي طُولَ الْأَسَى وَالتَّوَجُّعِ

(١) الديوان ج ٣، ص ٢٠ وما بعدها .

ذَعَرْتُ بِهَا سِرْبَ اللَّيَالِي غَرَانِقًا[1] أُنَاجِي الصِّبَا فِي ظِلٍّ فَيْنَانَ مَمْرَعِ
فَمَا بَرِحَتْ حَتَّىٰ رَمَىٰ الدَّهْرُ سِرْبَهَا بِأَسْحَمَ مِنْ طَيْرِ الْحَوَادِثِ أَسْفَعِ
يَمُرُّ بِهَا نَحْسًا وَيَفْتِنَّ نَاعِبًا بِكُلِّ مَطَارٍ تَنْتَحِيهِ وَمَوْقِعِ
يَحِيدُ بِهَا عَنْ كُلِّ وِرْدٍ وَمَنْهَلٍ وَيَحْمِي عَلَيْهَا كُلَّ مَرْعًى وَمَرْتَعِ
إِذَا أَنْتَ أَحْبَبْتَ الْحَيَاةَ خَصِيبَةً فَخُذْهَا بِأَسْبَابِ الْجَهَالَةِ أَوْدَعِ
نَزَلْتُ بِوَادٍ مِنْ حَيَاتِيَ مُجْدِبٍ يُجَانِبُ مُجْتَازُ الْحَيَا فِيهِ مَوْضِعِي
يُقَلِّصُ مِنْ أَطْرَافِهِ، فَإِذَا انْتَحَىٰ أَسَفَّتْ هَوَادِي وَبْلِهِ الْمُتَرَفِّعِ
أَلَيْسَ وَرَائِي أَنْ أَكُونَ جِنَازَةً فَيَذْهَبُ مَا عِنْدِي، وَيُسْلَبُ مَا مَعِي

فَمَاذَا يَرَىٰ الْقَارِئُ فِي هَذَا اللَّوْنِ مِنَ الْبَيَانِ، يَقُولُهُ نَاشِئٌ فِي الْعِشْرِينَ مِنْ عُمُرِهِ؟ وَهُوَ شَبِيهٌ بِمَا قَالَهُ مُحَرَّمٌ فِي كُهُولَتِهِ وَشَيْخُوخَتِهِ، مِمَّا يَدُلُّ عَلَىٰ أَنَّ أَدَاتَهُ الْفَنِّيَّةَ قَدِ اكْتَمَلَتِ اكْتِمَالًا نَاضِجًا مُنْذُ أَخَذَ يَقْرِضُ الشِّعْرَ، وَمِنَ الْمُؤَكَّدِ أَنَّهُ دَرَسَ أَشْعَارَ الْفُحُولِ فِي دَوَاوِينِهِمُ الْمُتَعَدِّدَةِ فِي زَمَنِ صِبَاهُ، وَتَغَلْغَلَ إِلَىٰ أَعْمَاقِهَا صِيَاغَةً وَتَرْكِيبًا وَافْتِنَانًا، وَلَكِنْ لَمْ يَكُنْ لِيُتَاحَ لَهُ أَنْ يَبْلُغَ هَذِهِ الْمَقْدِرَةَ لَوْلَا مَوْهِبَةٌ أَصِيلَةٌ جَازَتْ بِهِ مَدَىٰ النَّظَرِ، وَمِمَّنْ كَانُوا يُوَاكِبُونَهُ أَوْ يَتَقَدَّمُونَهُ سِنًّا، وَإِلَّا فَهَلْ كَانَ فِي مَقْدِرَةِ حَافِظٍ أَوْ أَحْمَدَ الْكَاشِفِ أَوْ أَحْمَدَ نَسِيمٍ أَنْ يَقُولَ فِي سِنِّ الْعِشْرِينَ:

نَزَلْتُ بِوَادٍ مِنْ حَيَاتِيَ مُجْدِبٍ يُجَانِبُ مُجْتَازُ الْحَيَا فِيهِ مَوْضِعِي
يُقَلِّصُ مِنْ أَطْرَافِهِ، فَإِذَا انْتَحَىٰ أَسَفَّتْ هَوَادِي وَبْلِهِ الْمُتَرَفِّعِ

(١) غَرَانِقًا: ذوات حسن وجمال.

وَنَدَعُ ارْتِقَاءَ الصَّنْعَةِ الْبَيَانِيَّةِ لِنَسْأَلَ عَنِ الْحَسْرَةِ الْكَاوِيَةِ فِي هَذَيْنِ الْبَيْتَيْنِ، فَهِيَ مَوْضِعُ الِاسْتِشْهَادِ الْأَوَّلِ فِي بَابِ الشَّكْوَىٰ، إِذْ يُعْلِنُ الشَّاعِرُ أَنَّهُ نَزَلَ مِنَ الْحَيَاةِ فِي وَادٍ مُجْدِبٍ، بِحَيْثُ يَسْتَهِلُّ الْغَيْثَ مُنْهَلًّا فِي كُلِّ مَكَانٍ، فَإِذَا مَرَّ بِوَادِيهِ اجْتَازَهُ دُونَ قَطْرَةِ مَاءٍ! وَمَعْنَىٰ ذَلِكَ أَنَّ الْأَسْمَاءَ اللَّامِعَةَ فِي الصُّحُفِ يَنَالُ أَصْحَابُهَا رِزْقَهُمُ الْمَوْفُورَ، وَهُوَ ضَارِعٌ جَائِعٌ بِوَادٍ غَيْرِ زَرْعٍ، ظَامِئٌ بِقَفْرٍ غَيْرِ ذِي مَاءٍ!.

وَتَمُرُّ الْأَيَّامُ، وَاسْمُ الشَّاعِرِ يَسْتَفِيضُ شُهْرَةً، وَقَصَائِدُهُ تَجِدُ التَّعْقِيبَ الْمُقَرِّظَ، وَالثَّنَاءَ الْحَافِلَ، وَهُوَ بَعْدَ ذَلِكَ عَاجِزٌ عَنْ تَهْيِئَةِ طَعَامِهِ، إِذْ يَأْكُلُ مِنْ كَدْحِ أَبِيهِ، وَيَتَأَلَّمُ لِذَلِكَ فَيَصِيحُ(١):

أَقْبَلْتُ أَرْفَعُ لِلْقَصِيدِ لِوَاءَهُ ... ثُمَّ انْصَرَفْتُ أَصُدُّ عَنْهُ وَأُعْرِضُ
لَمْ يَبْقَ مِنْ حَقٍّ يُسَنُّ لِفَاضِلٍ ... ذَهَبَ الْعُقُوقُ بِمَا يُسَنُّ وَيُفْرَضُ
ضَاعَ الْأَدِيبُ الْعَبْقَرِيُّ وَشَفَّهُ(٢) ... عَيْشٌ أَمَرُّ مِنَ الْحِمَامِ وَأَبْغَضُ
يَرِدُ الْقَلِيلَ إِذَا اسْتَحَرَّ غَلِيلُهُ ... وَالْمَاءُ صَافٍ، وَالْمَنَاهِلُ فُيَّضُ
لَوْ يَسْتَطِيعُ مِنَ الضَّنَانَةِ قَوْمُهُ ... فَجَعُوهُ بِالثَّمَدِ(٣) الَّذِي يَتَبَرَّضُ
لَا يَرْفَعُ التَّارِيخُ هَامَةَ أُمَّةٍ ... وَرْهَاءَ(٤) يَرْفَعُهَا الْأَدِيبُ، فَيُخْفَضُ
لَمْ تَدْرِ أَنَّ مِدَادَهُ وَيَرَاعَهُ ... فِيهَا دَمٌ يَجْرِي، وَعِرْقٌ يَنْبِضُ
عِنْدِي مِنَ الْأَدَبِ الْمُطَهَّرِ حُجَّةٌ ... لَا الدَّهْرُ يُنْكِرُهَا، وَلَا هِيَ تُدْحَضُ

---

(١) الدّيوان ج «٣» ص ٥٩.
(٢) شَفَّه: أضناه.
(٣) الثَّمَد: الماء القليل.
(٤) وَرْهَاء: حمقاء.

قَدْ كُنْتُ أَنْفُضُ عَنْ فُؤَادِيَ هَمَّهُ ... لَوْ أَنَّ هَمَّ الْعَيْشِ مِمَّا يُنْفَضُ

وَ« هَمُّ الْعَيْشِ » الَّذِي عَبَّرَ عَنْهُ الشَّاعِرُ فِي بَيْتِهِ الْأَخِيرِ ، هُوَ أَسَاسُ الْبَلْوَىٰ ، وَقَدْ فَاضَ بِهِ الْأَلَمُ ، وَبَرَّحَ بِهِ الْحُزْنُ ، حِينَ أَقْبَلَتْ أُمُّهُ عَلَيْهِ تَسْأَلُهُ عَنْ حَاضِرِهِ وَمُسْتَقْبَلِهِ ، وَتُؤَكِّدُ لَهُ أَنَّ انْهِمَاكَهُ فِي نَظْمِ الْقَصَائِدِ ، لَا يُجْدِي عَلَيْهِ كِسْرَةَ خُبْزٍ ، وَهُوَ فِي شَرْخِ شَبَابِهِ ، يَغْذُوهُ وَالِدُهُ الْكَبِيرُ الْأَشْيَبُ ! كَمَا يَغْذُو الْبَنَاتِ الْجَاثِمَاتِ فِي الْمَنْزِلِ سَوَاءً بِسَوَاءٍ ! أَيُّ نَارٍ أَشْعَلَتْهَا الْأُمُّ فِي صَدْرِ وَلَدِهَا حِينَ صَارَحَتْهُ بِمَا كَانَ يُحِسُّهُ فِي نَفْسِهِ ، ثُمَّ لَا يُطِيقُ أَنْ يُظْهِرَهُ ! لَمْ يَعُدِ الْكِتْمَانُ جَائِزًا بَعْدَ أَنِ اتَّضَحَتْ حَقِيقَةُ بَلْوَاهُ ، وَجَرَتْ عَلَىٰ لِسَانِ أُمِّهِ ، وَلَا شَكَّ أَنَّ أَبَاهُ يَكْتُمُ عَنْهُ مَا يَجِيشُ بِخَاطِرِهِ عَطْفًا وَرَحْمَةً ، وَلَا بُدَّ لَهُ حِينَئِذٍ أَنْ يُعَبِّرَ عَنْ خَوَاطِرِهِ الْهَائِجَةِ ، وَأَقَلُّ مَا يَقُولُهُ فِي هَذَا الْمَجَالِ أَنْ يُسَجِّلَ الْحِوَارَ الَّذِي دَارَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ وَالِدَتِهِ فَيُسَجِّلُ مُتَأَوِّهًا مَا قَالَتْهُ(١):

أَبُنَيَّ ، مَا فِي الشِّعْرِ نَفْعٌ يُطْلَبُ ؟ ... فَارْفِقْ بِنَفْسِكَ كَمْ تَكِدُّ وَتَتْعَبُ
أَبُنَيَّ ، إِنَّ الْمَرْءَ يُغْنِي نَفْسَهُ ... فَيَعِيشُ فِي الْأَهْلِينَ وَهْوَ مُحَبَّبُ
وَأَرَاكَ فِي شَرْخِ الشَّبَابِ وَرَوْقِهِ ... يَغْذُوكَ وَالِدُكَ الْكَبِيرُ الْأَشْيَبُ !
يَسْعَىٰ ، وَأَنْتَ مَعَ الْبَنَاتِ كَبَعْضِهَا ... ثَاوٍ ، وَلَيْتَكَ مِثْلُهُنَّ فَتُخْطَبُ
لَا مَالَ تَكْسِبُهُ ، وَلَسْتَ بِبَارِحٍ ... تُفْنِي وَتُتْلِفُ جَاهِدًا مَا يَكْسِبُ
تَدَعُ السِّرَاجَ فَلَسْتَ تُطْفِئُ نُورَهُ ... حَتَّىٰ تَرَىٰ أُخْرَىٰ النُّجُومِ تُغَيَّبُ
أَيُبَاعُ هَذَا الشِّعْرُ؟ أَمْ أَنْتَ امْرُؤٌ ... تَهْوَىٰ مِنَ الْأَشْيَاءِ مَا يُتَجَنَّبُ ؟!

(١) الدّيوَان ج «٣» ص ١٢٠ وَمَا بعدهَا.

وَالِابْنُ الْمُتَحَامِلُ عَلَىٰ نَفْسِهِ يَأْسَىٰ لِمَا يَسْمَعُ، وَقَدْ أَحَسَّهُ فِي وِجْدَانِهِ قَبْلَ أَنْ يُقَالَ، وَلَكِنَّهُ يُضْطَرُّ إِلَى الْمُخَالَفَةِ الظَّاهِرِيَّةِ لِيُثْبِتَ أَنَّ لَهُ أَرَبًا قَدْ لَا تَصِلُ إِلَىٰ مَغْزَاهُ أُمٌّ رِيفِيَّةٌ سَاذِجَةٌ، فَيَقُولُ[1]:

أُمَّاهُ، أَكْثَرْتِ الْمَلَامَ فَأَجْمِلِي ... إِنْ كَانَ ذَنْبٌ فَالْقَضَاءُ الْمُذْنِبُ
أُمَّاهُ، لَوْلَا الشِّعْرُ أَنْظِمُ دُرَّهُ ... مَا كَانَ لِي هَذَا الثَّنَاءُ الطَّيِّبُ
أُمَّاهُ، مَا أَمْرُ الْغِنَىٰ بِيَدِ الْفَتَىٰ ... لَكِنَّمَا يُعْطِي الْمَلِيكُ وَيَسْلُبُ
فَذَرِي عِتَابِي فِي الْقَضَاءِ فَإِنَّهُ ... يَمْضِي فَمَا يَثْنِيهِ أُمٌّ أَوْ أَبُ
الْحُرُّ يُؤْثِرُ أَنْ يَطُولَ بِهِ الصَّدَىٰ ... بَيْنَ الْمَوَارِدِ أَوْ يَطِيبَ الْمَشْرَبُ

هَذَا مَا قَالَهُ الِابْنُ فِي مَوْقِفِ الْحَرِجِ الضَّائِقِ بِهِ، وَلَكِنْ أَهُوَ فِي أَعْمَاقِهِ قَدِ اقْتَنَعَ بِمَا قَالَ! أَكَانَ يَرَى الشِّعْرَ - فِي هَذِهِ اللَّحْظَةِ الْحَرِجَةِ بَيْنَ السُّؤَالِ وَالْجَوَابِ - مَجْلَبَةَ الثَّنَاءِ، وَمَوْضِعَ النَّبَاهَةِ بَيْنَ النَّاسِ أَكَانَ يَرَىٰ أَنَّهُ يَقُومُ مَقَامَ الْمَالِ فِي مَعْرَكَةِ الْغِذَاءِ وَالْكِسَاءِ وَالْمَسْكَنِ؟ كُلُّ ذَلِكَ لَا يُصَدِّقُهُ الشَّاعِرُ وَلَا يَرْتَضِيهِ، وَقَدْ رَجَعَ إِلَىٰ نَجْوَىٰ فُؤَادِهِ، وَسَمِعَ خَلَجَاتِ ضَمِيرِهِ، فَانْتَفَضَ عَلَىٰ نَفْسِهِ، وَصَاحَ يُفَنِّدُ مَذْهَبَهُ الْأَوَّلَ قَائِلًا[2]:

هَذِي الْقَصَائِدُ مَا انْتَفَعْتُ بِنَظْمِهَا ... فَعَلَامَ أَرْجُو نَفْعَهَا لِغُلَامِي؟!
أَيُفَاخِرُ الْأَقْوَامُ مِنْ بَعْدِي بِهَا؟ ... فَلَقَلَّمَا تَدْرِي بِذَاكَ عِظَامِي
هَبْنِي أَبَا تَمَّامَ فِي إِبْدَاعِهِ ... مَاذَا يَسُرُّكَ مِنْ أَبِي تَمَّامِ؟
أَوْدَىٰ فَضَاعَ قَرِيضُهُ فِي مَعْشَرٍ ... لَيْسُوا بِأَعْرَابٍ وَلَا أَعْجَامِ

(١) السابق.
(٢) الديوان ج ٣ ص ١٥٤ وما بعدها.

الْمَالُ أَصْبَحَ خَيْرَ شَيْءٍ يُقْتَنَىٰ   لَا شَيْءَ يَعْدِلُهُ لَدَىٰ الْأَقْوَامِ
لَا الْمَجْدُ يَشْغَلُهُمْ وَلَا يَعْنِيهِمُ   ذِكْرٌ يَدُومُ عَلَىٰ بِلَىٰ الْأَيَّامِ

ثُمَّ تَنْفَجِرُ لَوَاعِجُهُ، فَيُعْلِنُ أَنَّهُ يَوَدُّ أَنْ يَنْسَحِبَ مِنَ الْمُجْتَمَعِ نِهَائِيًّا، وَيَعِيشَ بَيْنَ الْمَقَابِرِ، بِحَيْثُ لَا يَرَاهُ أَحَدٌ يُذَكِّرُهُ بِكُرُوبِهِ؛ فَيَصِيحُ[١]:

كَمْ بِالْمَقَابِرِ لَوْ يُحِسُّ قَطِينُهَا   نَجْوَايَ مِنْ رِمَمٍ عَلَيَّ كِرَامِ
لَوْلَا مَخَافَةُ عَاتِبِينَ وَلُوَّمٍ   آثَرْتُ فِيهَا مَا حَيِيتُ مَقَامِي
أُحِبُّ بِسُكَّانِ الْمَقَابِرِ جِيرَةً   لَا يَطْرُقُونَ مُجَاوِرًا بِعُرَامِ[٢]
لَا مِثْلَ قَوْمٍ لَا يُصَانُ لِجَارِهِمْ   عَهْدٌ، وَلَا يُوفَىٰ لَهُ بِذِمَامِ
مَا زَالَ حُسْنُ الظَّنِّ دَأْبِي فِيهِمُ   حَتَّىٰ غَضِبْتُ عَلَىٰ ذَوِي أَرْحَامِي
وَإِخَالُ عَذْبَ الْمَاءِ يُضْمِرُ لِي الصَّدَىٰ   فَأَصُدُّ عَنْهُ وَبِي الْتِيَاعُ[٣] الظَّامِي
هَبْنِي إِمَامَ الشِّعْرِ مَا بَالِي أُرَىٰ   وَمَعَاشِرُ الْمُتَشَاعِرِينَ أَمَامِي
لَوْ أَنَّنِي أُعْطِيتُ مَا أَنَا أَهْلُهُ   لَانْقَادَ لِي دَهْرِي بِغَيْرِ زِمَامِ
إِنِّي لَأَرْفَعُ لِلْقَرِيضِ لِوَاءَهُ   وَأَصُونُ مَجْدَ الْكُتْبِ وَالْأَقْلَامِ!

مُشْكِلَةٌ أُخْرَىٰ تَأْخُذُ بِخِنَاقِ الشَّاعِرِ غَيْرُ مُشْكِلَةِ الطَّعَامِ وَالشَّرَابِ عَلَىٰ فَدَاحَةِ خَطْبِهَا، مُشْكِلَةٌ نَفْسِيَّةٌ لَا سَبِيلَ إِلَىٰ تَجَاهُلِهَا، تِلْكَ الَّتِي عَنَاهَا الشَّاعِرُ **الشَّاكِي فِي قَوْلِهِ[٤]:**

هَبْنِي إِمَامَ الشِّعْرِ مَا بَالِي أُرَىٰ   وَمَعَاشِرُ الْمُتَشَاعِرِينَ أَمَامِي

---

(١) [illegible]
(٢) عُرام: تهجم ونقد.
(٣) الْتِيَاع: الشدة.
(٤) الدّيوَان ج «٣» ص ١٥٤ وَمَا بعدهَا.

إنَّ مُحرِّمًا يَعرِفُ مَعْدِنَهُ الْأَصِيلَ فِي كُنُوزِ الْبَيَانِ ، وَيَتَأَكَّدُ أَنَّهُ سَابِقٌ غَيْرُ لَاحِقٍ ، وَلَٰكِنَّهُ يَرَىٰ بَعْضَ الْمُتَشَاعِرِينَ يَحْتَلُّونَ الصَّفَحَاتِ الْأُولَىٰ مِنَ الْجَرَائِدِ الشَّهِيرَةِ ، وَتَظْهَرُ قَصَائِدُهُمُ الْمُتَوَاضِعَةُ مَسْبُوقَةً بِالْإِطْرَاءِ الْحَافِلِ ، وَالتَّقْدِيرِ الَّذِي لَا تَسْتَحِقُّ ! وَقَدْ يُرْسِلُ الْقَصِيدَةَ فَلَا تُنْشَرُ أَحْيَانًا ، وَقَدْ يُنْشَرُ بَعْضُهَا فَقَطْ حَتَّىٰ لَيَضْطَرُّ أَنْ يَنْشُرَهَا جَمِيعَهَا فِي كُتَيِّبٍ خَاصٍّ ، لَا أَدْرِي كَيْفَ يَتَيَسَّرُ لَهُ طَبْعُهُ مَعَ مَا هُوَ فِيهِ مِنْ إِمْلَاقٍ ، كَمَا أَشَرْتُ إِلَىٰ مَثَلٍ لِذَٰلِكَ مِنْ قَبْلُ ! أَلَيْسَتْ هَٰذِهِ مَأْسَاةً أُخْرَىٰ حِينَ يَتَقَدَّمُ الْمُتَشَاعِرُ الشَّاعِرَ ، وَتَعْلُو الْجِيَفُ عَلَىٰ السَّطْحِ ، وَتَخْفَىٰ اللَّآلِئُ ، وَكَأَنَّ عَالَمَ الشِّعْرِ مُحِيطٌ زَاخِرٌ !! مَأْسَاةٌ أُخْرَىٰ أَشَارَ إِلَيْهَا الشَّاعِرُ حِينَ قَالَ(١):

يَا ضَيْعَةَ الْآدَابِ فِي يَدِ فِتْيَةٍ ... نُكِبَ الْأَدِيبُ بِمَا تَقُولُ وَتَفْعَلُ
رُزِئَتْ بِهَا صُحُفٌ تَظَلُّ سُطُورُهَا ... حَيْرَىٰ مُوَلَّهَةً تَرِنُّ وَتُعْوِلُ
كُلٌّ إِمَامُ الشِّعْرِ فِيمَا تَدَّعِي ... عِنْدَ الْحُكُومَةِ، وَالْأَدِيبُ الْأَوَّلُ
تِلْكَ السَّفَاهَةُ لَوْ يَفِيقُ أَخُو الْعَمَىٰ ... وَيَرَىٰ الْمَحَجَّةَ، وَالصَّوَابُ مُضَلَّلُ
لَا يَحْكُمُ الْجُهَلَاءُ فِيمَا بَيْنَنَا ... أَيَجُوزُ حُكْمُ الْمَرْءِ فِيمَا يَجْهَلُ ؟!

وَيَسْبَحُ الشَّاعِرُ بِخَيَالِهِ إِلَىٰ الْمَاضِي الْأَدَبِيِّ فِي التَّارِيخِ الْقَدِيمِ ، حِينَ كَانَ كَثِيرٌ مِنَ الشُّعَرَاءِ نَاعِمِي الْبَالِ مُرَفَّهِي الْعَيْشِ ، فِي جِوَارِ سَيِّدٍ كَرِيمٍ مِنْ كِبَارِ السَّرَاةِ ، كَهَرِمِ بْنِ سِنَانٍ حِينَ كَفَىٰ زُهَيْرًا حَاجَةَ عَيْشِهِ ، وَكَالْفَتْحِ بْنِ خَاقَانَ حِينَ مَنَحَ الْبُحْتُرِيَّ الضِّيَاعَ ، وَكَسَيْفِ الدَّوْلَةِ حِينَ رَفَعَ الْمُتَنَبِّيَ رِفْعَةً

(١) الديوان ج ٣، ص ٧٤.

اسْتَطَالَ بِهَا عَلَىٰ النُّظَرَاءِ، يَسْبَحُ الشَّاعِرُ بِخَيَالِهِ مَعَ هَذِهِ الْخَوَاطِرِ، فَيَتَمَنَّىٰ أَنْ يَكُونَ لَهُ مِنْ هَؤُلَاءِ الْكِرَامِ مَنْ كَانَ لِسَابِقِيهِ مِنَ الشُّعَرَاءِ، وَهُوَ كُفْءٌ لِلْقَوْلِ، فَارِسٌ فِي الْحَفْلِ، فَكَيْفَ يُعْدَمُ النَّصِيرَ؟ إِنَّهُ يُسَجِّلُ أُمْنِيَاتِهِ الْبَعِيدَةَ فِي شِعْرٍ مَأْثُورٍ يَقُولُ فِيهِ(١):

أَلَا ذُو غِنًى مِنْ قَوْمِنَا غَيْرُ جَامِدٍ ... أَلَا أَرْيَحِيٌّ لِلْمُرُوءَةِ نَاصِرٌ؟
عَلَىٰ الْخَيْرِ أُسْدِيهِ إِلَىٰ كُلِّ وَافِدِ ... يُخَوِّلُنِي مِنْ مَالِهِ مَا يُعِينُنِي
يَفِيءُ إِلَىٰ عَمٍّ كَرِيمٍ وَوَالِدِ!! ... وَيَنْصُرُنِي مِنْهُ أَخٌ ذُو حَمِيَّةٍ
عَقِيدُ الْقَوَافِي وَافِدًا بِالْفَرَائِدِ ... عَقِيدُ النَّدَىٰ إِنْ زُرْتُ مَغْنَاهُ زَارَهُ
إِلَىٰ سُدَّةٍ أَعْيَتْ عَلَىٰ كُلِّ صَاعِدِ ... يَسُوقُ إِلَيْهِ الْحَمْدَ جَذْلَانَ صَاعِدًا
إِهَابَةَ دَاعٍ، أَوْ إِذَاعَةَ شَاهِدِ ... شَهِدْتُ لَقَدْ أَطْرَبْتُ مَنْ لَيْسَ يَبْتَغِي

وَأَنَا أَحْسَبُ أَنَّ تَمَنِّي ذَوِي الثَّرَاءِ كَانَ سَحَابَةً عَارِضَةً فِي أُمْنِيَّاتِ الشَّاعِرِ؛ لِأَنَّ تَارِيخَهُ الْوَاقِعِيَّ قَدْ نَأَىٰ بِهِ عَنِ الزُّلْفَىٰ لِهَؤُلَاءِ، وَلَهُ مَعَهُمْ مَوَاقِفُ صَارِمَةٌ تَدُلُّ عَلَىٰ الِاسْتِعْلَاءِ الشَّامِخِ، أَنَفَةَ أَنْ يَكُونَ صَاحِبُ الْقَلَمِ طَوْعًا لِصَاحِبِ الْمَالِ، كَمَا أَنَّهُ قَرَعَهُمْ بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ، حِينَ رَآهُمْ يُخَزِّنُونَ الْمَالَ، وَيَمْنَعُونَ حَقَّ الْفَقِيرِ وَالْمِسْكِينِ فِيمَا لَدَيْهِمْ مِنَ الْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ ذَهَبًا وَفِضَّةً، لِذَلِكَ مَا لَبِثَ الشَّاعِرُ أَنْ تَرَكَ أُمْنِيَّتَهُ تَضِيعُ كَسَائِرِ الْأُمْنِيَّاتِ دُونَ أَنْ يَأْسَفَ عَلَىٰ ضَيَاعِهَا، وَآثَرَ الِالْتِجَاءَ إِلَىٰ رَبِّهِ، فَهُوَ وَحْدَهُ مَنْ يَعْصِمُ رُوحَهُ مِنْ مَوَاقِفِ الْهُونِ، وَمَنْ يُضِيءُ لَهُ قَصْدَ السَّبِيلِ، هُنَا عَادَ الشَّاعِرُ إِلَىٰ مُنَاخِهِ الطَّبِيعِيِّ، وَإِلَىٰ سَجِيَّتِهِ الَّتِي فَطَرَهُ اللَّهُ عَلَيْهَا حِينَ نَاجَىٰ رَبَّهُ بِقَوْلِهِ(٢):

(١) الدّيوان ج ٣، ص ٥٠.
(٢) الدّيوان ج ٣، ص ٣١٢.

رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الْغِنَىٰ مَا يَقِينِي   مَوْقِفَ الْهُونِ، وَاكْفِنِي كُلَّ سُوءِ
وَارْعَ نَفْسِي مَدَىٰ الْحَيَاةِ وَجَنِّبْهَا   مِنَ الْعَيْشِ كُلَّ مَرْعًى وَبِيءِ
وَأَضِئْ لِي قَصْدَ السَّبِيلِ بِنُورٍ   مِنْكَ يَهْدِي إِلَىٰ السَّبِيلِ الْمُضِيءِ
لَا أَرَىٰ الْيَوْمَ غَيْرَ بَابِكَ مِنْ بَا(م)   بٍ يُرَجَّىٰ لِمُذْنِبٍ أَوْ بَرِيءِ
رَبِّ، إِنَّا لَعَاجِزُونَ فَمَا نَسْتَطِيعُ   صَبْرًا عَلَىٰ الزَّمَانِ الْجَرِيءِ
إِنَّ عَيْشًا يَشُوبُهُ الْهَمُّ وَالْخَوْ(م)   فُ وَفَرْطُ الْأَذَىٰ لَغَيْرُ هَنِيءِ
نَحْمِلُ الْهَمَّ مُصْبِحِينَ وَمُمْسِينَ   فَمَا مِنْ سَكِينَةٍ أَوْ هُدُوءِ
رَبَّنَا، اكْتُبْ لَنَا الْأَمَانَ وَهَبْنَا   مِنْكَ صَبْرًا عَلَىٰ الزَّمَانِ الْمُسِيءِ

وَقَدْ حَاوَلَ الشَّاعِرُ أَنْ يَتَصَبَّرَ، إِذْ مِنَ الْمُحَالِ عَلَىٰ مَنْ رُزِقَ إِحْسَاسَهُ أَنْ يَصْبِرَ، فَكُنْتَ تَرَىٰ فِي قَصَائِدِهِ الْكَثِيرَةِ صَرَخَاتِ الشَّكْوَىٰ حَتَّىٰ فِي غَيْرِ أَبْوَابِ الشَّكْوَىٰ، تَدُلُّ عَلَىٰ مَا يَعْتَلِجُ فِي نَفْسِهِ مِنْ لَوْعَةٍ، وَبِخَاصَّةٍ فِي مِضْمَارِ الرِّثَاءِ؛ لِأَنَّ الرِّثَاءَ مَدْعَاةُ الْأَسَىٰ، وَفَقْدُ الْأَعِزَّاءِ كَحِرْمَانِ الثَّرَاءِ كِلَاهُمَا هَمٌّ مُوجِعٌ يَضْرِبُ إِلَىٰ جُذُورِ النَّفْسِ الْإِنْسَانِيَّةِ دُونَ أَنْ تَقْتَدِرَ الرِّيحُ عَلَىٰ اقْتِلَاعِ هَذِهِ الْجُذُورِ، وَقَارِئُ بَابِ الرِّثَاءِ فِي دِيوَانِ الشَّاعِرِ لَا يُعْوِزُهُ أَنْ يَرَىٰ مِنَ الْخَوَاطِرِ الْحَزِينَةِ مَا يُشْبِهُ قَوْلَهُ(١):

أَوْلَىٰ بَنِي الدُّنْيَا بِفَقْدِ حَيَاتِهِ   مَنْ لَيْسَ يَنْفَعُ قَوْمَهُ وَيُوَاسِي

أَوْ قَوْلَهُ(٢):

لَبِئْسَ أَخُو الْعَشِيرَةِ إِذْ تَرَاهُ   تَرَىٰ حَجَرًا مِنَ الْأَحْجَارِ صَلْدَا

---
(١) الدّيوَان ج «٢» ص ٤٩٠.
(٢) الدّيوَان ج «٢» ص ٤٩٧.

يَعِيشُ لِنَفْسِهِ فَيَعِيشُ فَرْدًا   وَيَأْتِي يَوْمُهُ فَيَمُوتُ فَرْدَا

وَظَلَّ إِحْسَاسُ النِّقْمَةِ فِي نَفْسِ الشَّاعِرِ الشَّاكِي يَثُورُ وَيَهْدَأُ، وَلَكِنَّهُ عِنْدَ الْهُدُوءِ يَعْتَمِلُ فِي نَفْسِهِ، وَيَتَلَمَّسُ السُّبُلَ لِلْهُبُوبِ، فَيَثُورُ مَشْبُوبَ الْحَسْرَةِ، مُلْتَاعَ اللَّوْعَةِ، وَمِنْ أَشْجَىٰ مَا قَالَهُ فِي هَذَا الْمَنْحَىٰ فِي قَصِيدَةٍ بَارِعَةِ الصُّوَرِ، دَقِيقَةِ التَّحْلِيلِ، صَافِيَةِ التَّعْبِيرِ كَوَجْهِ الْبَدْرِ الْمُشْرِقِ(١):

تِلْكَ دُنْيَا زُخْرِفَتْ أَرْجَاؤُهَا   فَهَفَا الْأَعْمَىٰ إِلَيْهَا وَصَبَا
أَنَا فِي الصَّفْوَةِ مِنْ سُكَّانِهَا   غَيْرَ أَنِّي لَمْ أَجِدْ مُضْطَرَبَا
ضَاقَ عَنِّي كُلُّ رَحْبٍ وَاسِعٍ   فَأَنَا أَزْدَادُ فِيهَا تَعَبَا
لَمْ تَزَلْ تَدْفَعُنِي عَنْ ظِلِّهَا   لَا تُبَالِي أَيَّ حُرٍّ نُكِبَا
لَسْتُ أَشْكُوهَا، فَذَنْبِي جَلَلٌ   وَهْيَ كَالْجَنَّةِ تَأْبَىٰ الْمُذْنِبَا
لَا أُدَاجِي النَّاسَ ذَنْبِي أَنَّنِي   أَمْنَعُ الْعِرْضَ وَأَحْمِي الْأَدَبَا
هُوَ مُلْكِي، لَوْ هَوَىٰ مَا سَرَّنِي   أَنَّ لِي مُلْكَ الضَّوَارِي وَاللُّبَا
رَبِّ، مَا قَصَّرْتُ فِي صَالِحَةٍ   تُوضِحُ الْحَقَّ وَتَجْلُو الرِّيَبَا
هَلْ دَرَىٰ مَنْ رَامَ أَنْ يُطْفِئَنِي   أَنَّهُ يُطْفِئُ مِنِّي كَوْكَبَا
مَا تَنَاوَلْتُ عَطَائِي مِنْ يَدٍ   جَلَّ رَبِّي، هُوَ أَعْطَىٰ وَحَبَا
أَلْقَتِ الْأَقْدَارُ بِي فِي عَالَمٍ   يُنْكِرُ الرُّسْلَ، وَيُلْغِي الْكُتُبَا

وَيَمُوتُ شَوْقِيٌّ أَمِيرُ الشُّعَرَاءِ، فَيُسَارِعُ بَعْضُ الْكُتَّابِ إِلَىٰ الدَّعْوَةِ لِمُبَايَعَةِ مُحَرَّمٍ بِإِمَارَةِ الشِّعْرِ مِنْ بَعْدِ شَوْقِيٍّ! وَيَجِيءُ الْخَبَرُ إِلَىٰ مُحَرَّمٍ فَيَسْأَلُ

(١) الدّيوان ج «٣» ص ٤٠٨.

مُتَهَكِّمًا أَأَمِيرٌ أَنَا بَعْدَ شَوْقِي؟ وَأَنَا أَمْشِي عَلَىٰ قَدَمِي وَلَا سَيَّارَةَ عِنْدِي فِي سِنِّي الْمُتَقَدِّمَةِ، وَلَيْسَتْ لِي ضَيْعَةٌ كَشَوْقِي وَلَيْسَ لِيَ قَصْرٌ مِثْلُهُ! لَوْ كَانَ لِي ذَلِكَ كُلُّهُ، لَقَبِلْتُ الْإِمَارَةَ، وَقُمْتُ بِأَعْبَائِهَا كَالْأَمِيرِ الثَّرِيِّ الرَّاحِلِ.. يَقُولُ مُحَرَّمٌ(1):

قَالُوا: أَمِيرُ الشِّعْرِ، قُلْتُ: لَعَلَّهُمْ جَعَلُوا الْإِمَارَةَ لِلرَّئِيسِ الْأَكْبَرِ
لَا حَقَّ لِي فِيهَا وَلَسْتُ أُرِيدُهَا سِمَةً، لِغَيْرِ ذَوِي الْغِنَىٰ لَمْ تُقْدَرِ
أَمْشِي عَلَىٰ قَدَمِي، وَلَا سَيَّارَةٌ عِنْدِي، وَلَا أَنَا بِالْغَنِيِّ الْمُوسِرِ
لَوْ كَانَ لِي قَصْرٌ، وَعِنْدِيَ ضَيْعَةٌ لَقَبِلْتُهَا، وَجَدَعْتُ أَنْفَ الْمُنْكِرِ
مَا لِي سِوَىٰ أَدَبِي وَأَخْلَاقِي الَّتِي تَأْبَىٰ ثَرَاءَ الْمَالِ غَيْرَ مُطَهَّرِ
مَا فِي يَدِي يَا قَوْمِ مِنْ دُنْيَاكُمُ ثَمَنُ الْإِمَارَةِ، فَاذْهَبُوا لِلْمُشْتَرِي!

وَلَا أُرِيدُ أَنْ أَتَغَلْغَلَ فِي الْمَعَانِي الْخَفِيَّةِ فِي هَذِهِ الْأَبْيَاتِ، فَأَزْعُمُ أَنَّ مُحَرَّمًا يُرَدِّدُ مَا قَالَهُ خُصُومُ شَوْقِي مِنْ أَنَّهُ اشْتَرَىٰ الْإِمَارَةَ بِمَا أَقَامَ مِنْ مَآدِبَ وَحَفَلَاتٍ، فَمُحَرَّمٌ يُقِرُّ بِمَكَانَةِ شَوْقِي وَيَعْتَرِفُ أَنَّهُ أَبْرَعُ مَنْ نَسَجَ الْقَرِيضَ فِي عَصْرِهِ، وَذَلِكَ حِينَ قَالَ فِي رِثَائِهِ(2):

شَبَابُ الْفَنِّ كُنْتَ لَهُ جَمَالًا فَزَالَ جَمَالُهُ وَمَضَىٰ الشَّبَابُ
رَأَيْتُ الْقَوْلَ يُكْرَهُ مِنْهُ بَعْضٌ وَبَعْضٌ يُسْتَحَبُّ وَيُسْتَطَابُ
وَقَوْلُكَ كُلُّهُ، لَا عَيْبَ فِيهِ وَهَلْ فِي الْوَحْيِ مِنْ شَيْءٍ يُعَابُ!!

---

(1) الدِّيوَان ج ٣، ص ٤١٧.
(2) الدِّيوَان ج ٢، ص ٤٣٣.

سَتَذْكُركَ السَّوَاجِعُ فِي رُبَاهَا وَتَذْكُركَ الْأَمَالِيدُ[1] الرِّطَابُ

عَلَى أَنَّ أَقْوَى قَصِيدَةٍ - فِي رَأْيِي - قَالَهَا مُحَرَّمٌ، وَاصِفًا شُجُونَ نَفْسِهِ، شَاكِيًا مَا لَقِيَ مِنْ جُحُودٍ، هِيَ قَصِيدَتُهُ الذَّائِعَةُ الشَّهِيرَةُ الَّتِي نَشَرَهَا فِي الْمُقْتَطَفِ، فَتَنَاقَلَتْهَا الصُّحُفُ فِي الْبِلَادِ الْعَرَبِيَّةِ لِرَوْعَةِ تَأْثِيرِهَا، وَخَلَابَةِ تَصْوِيرِهَا، وَأَلِيمِ مَعْنَاهَا الْمُؤْسِي الْحَزِينِ، تِلْكَ هِيَ قَصِيدَةُ «وُجُودِي» وَسَأَجْعَلُهَا خِتَامًا مُوَفَّقًا لِصَفَحَاتِ هَذَا الْكِتَابِ؛ لِأَنَّ كُلَّ اجْتِزَاءٍ مِنْهَا يُضَائِلُ مِنْ حَرَارَتِهَا اللَّاذِعَةِ، وَمُوسِيقَاهَا الْبَارِعَةِ، وَتَصْوِيرِهَا الْبَلِيغِ..

(١) الأَمَاليد: جمع أملود وهو الغصن.

بَيْنَ التَّجْدِيدِ وَالتَّقْلِيدِ

« لَا يَعْرِفُ الشَّاعِرَ إِلَّا شَاعِرٌ » تَصْدُقُ هَذِهِ الْعِبَارَةُ كَثِيرًا فِي وَاقِعِنَا الْأَدَبِيِّ ، وَأَقُولُ كَثِيرًا ؛ لِأَنَّ مِنَ الْإِنْصَافِ أَنْ أُقَرِّرَ أَنَّ غَيْرَ الشُّعَرَاءِ لَهُمْ أَصَالَتُهُمُ النَّقْدِيَّةُ ، وَرُؤْيَتُهُمُ الصَّائِبَةُ ، وَلَكِنَّ بَعْضَ الَّذِينَ كَتَبُوا عَنْ مُحَرَّمٍ مِنْ مُؤَلِّفِي الدِّرَاسَاتِ الْأَكَادِيمِيَّةِ ، غَرِقُوا فِي تَفْصِيلَاتٍ بَاعَدَتْ بَيْنَ الشَّاعِرِ وَمَا يُقَالُ عَنْ حَقِيقَةِ فَنِّهِ ، فَجَاءَ كَلَامُهُمْ لَا يَخْدِمُ الْحَقِيقَةَ الْأَدَبِيَّةَ قَدْرَ مَا يَلْمَسُهَا ، أَمَّا أَنَا فَقَدْ قَرَأْتُ لِلشَّاعِرِ الرَّقِيقِ الْأُسْتَاذِ حَسَنٍ كَامِلٍ الصِّيرَفِيِّ بَحْثًا صَغِيرًا عَنْ مُحَرَّمٍ نُشِرَ فِي أَرْبَعِ صَفَحَاتٍ مِنْ مَجَلَّةِ « الْمَجَلَّةُ » ، دِيسَمْبِرَ سَنَةَ ١٩٥٧م فَكَانَ عَلَىٰ إِيجَازِهِ كَافِيًا لِلْإِفْصَاحِ عَنْ مَكَانَةِ الشَّاعِرِ ، وَمُغْنِيًا عَنْ عَشَرَاتٍ كَتَبَهَا بَعْضُ الْمَنْهَجِيِّينَ دُونَ جَدْوَىٰ كَبِيرَةٍ ، لِذَٰلِكَ سَأَنْقُلُ مِنْ هَذَا الْبَحْثِ الْمُوجَزِ مَا يُغْنِي فِي تَحْدِيدِ شَاعِرِيَّةِ مُحَرَّمٍ أَدِيبًا ، وَسُلُوكِهِ النَّفْسِيِّ مُتَنَزِّهًا عَنِ الْهَنَاتِ ، مِثَالِيَّ الاتِّجَاهِ .

يَقُولُ الْأُسْتَاذُ حَسَنٌ كَامِلٌ الصِّيرَفِيُّ :

« كَانَ أَحْمَدُ مُحَرَّمٍ شَاعِرًا فِي الطَّبَقَةِ الْأُولَىٰ مِنْ شُعَرَاءِ جِيلِهِ ، كَانَ

امْتِدَادًا لِمَدْرَسَةِ الْبَارُودِيِّ الَّتِي أَعَادَتْ لِلشِّعْرِ الْعَرَبِيِّ ، بَعْدَ تَدَهْوُرِهِ ، إِشْرَاقًا فِي الدِّيبَاجَةِ ، وَجَزَالَةً فِي اللَّفْظِ ، وَقُوَّةً فِي الْأَدَاءِ ، وَنَقَاءً فِي الْعِبَارَةِ ، وَتَأَثُّرًا بِالْمُتَقَدِّمِينَ مِنْ أَسَاتِذَةِ الشِّعْرِ الْعَرَبِيِّ فِي أَزْهَىٰ عُصُورِهِ .

كَانَ أَحْمَدُ مُحَرَّم مِنْ هَؤُلَاءِ الطَّلِيعَةِ ، وَلَكِنَّ تَرَفُّعَهُ عَنِ السَّيْرِ فِي رِكَابِ الْحَاكِمِينَ ، وَالزُّلْفَىٰ إِلَىٰ أَصْحَابِ الْجَاهِ أَلْقَىٰ عَلَىٰ اسْمِهِ سِتَارًا مِنَ الْجُحُودِ ، فَنَسِيَهُ النَّاسُ ، وَإِنْ لَمْ يَنْسَهُ الشُّعَرَاءُ الْكِبَارُ أَنْفُسُهُمْ ، فَقَدْ عَرَفُوا قَدْرَهُ بَيْنَهُمْ ، وَمَكَانَتَهُ فِي صُفُوفِهِمْ ، وَعَرَفَ لَهُ فَضْلَهُ فَرِيقٌ مِنَ الْأُدَبَاءِ الَّذِينَ يَزِنُونَ الْأُمُورَ بِمِيزَانِ الْجَوْدَةِ لَا الشُّهْرَةِ ، وَبِمِعْيَارِ التَّمْحِيصِ لَا الدِّعَايَةِ ، حَتَّىٰ ظَهَرَتْ مُوَازَنَاتٌ بَيْنَ شِعْرِهِ وَشِعْرِ شَوْقِيٍّ ، وَفِي الْحَقِّ أَنَّ أَنْصَارَ شَاعِرِنَا مُحَرَّم كَانُوا عَلَىٰ الْحَقِّ حِينَ أَقَامُوا هَذِهِ الدَّعْوَىٰ ، فَإِنَّ بَيْنَ شَوْقِيٍّ وَمُحَرَّم عَلَاقَةً قَوِيَّةً وَتَقَارُبًا بَيِّنًا .

لَقَدِ امْتَازَ شِعْرُ شَوْقِيٍّ بِمُوسِيقِيَّتِهِ الْعَذْبَةِ الْمَوْهُوبَةِ ، وَهِيَ مِيزَةٌ تَجِدُهَا فِي شِعْرِ مُحَرَّم كَذَلِكَ ، وَلَسْتُ مُغَالِيًا إِذَا قُلْتُ : إِنَّهَا لَا تُفَارِقُ لَفْظًا مِنْ أَلْفَاظِهِ ، مُوسِيقَىٰ آسِرَةٌ سَاحِرَةٌ تَشْغَلُكَ عَنِ الْمَعْنَىٰ السَّاذَجِ ، أَوِ الْحِكْمَةِ الْمُتَرَدِّدَةِ بِمَا يَتَضَمَّنُهُ الْبَيْتُ مِنْ شِعْرِهِ ، وَبَصَرٍ بِاللَّفْظِ بَعِيدِ الْغَوْرِ يَنْتَقِيهِ لِلْمَوْضِعِ اللَّائِقِ بِهِ دُونَ تَزَيُّدٍ شَأْنَ الصَّائِغِ الْمَاهِرِ ، حَتَّىٰ لَيَصْعُبُ عَلَيْكَ أَنْ تَرْفَعَ لَفْظًا مِنْ شِعْرِهِ لِتَضَعَ مَكَانَهُ لَفْظًا آخَرَ دُونَ أَنْ يَفْقِدَ الشِّعْرُ بَرِيقَهُ ، وَهُوَ مِنْ هَذِهِ النَّاحِيَةِ كَانَ مُتَفَوِّقًا عَلَىٰ حَافِظِ إِبْرَاهِيم ، حَتَّىٰ فِي الشِّعْرِ الْوَطَنِيِّ الَّذِي بَرَزَ فِيهِ حَافِظٌ ، ذَلِكَ بِأَنَّ حَافِظًا كَانَ فِي شِعْرِهِ الْوَطَنِيِّ يَمِيلُ إِلَىٰ شَعْبِيَّةِ اللَّفْظِ ، إِذْ رُوحُ الْخَطِيبِ كَانَتْ غَالِبَةً فِيهِ عَلَىٰ رُوحِ الشَّاعِرِ ، يُفَضِّلُ تَصْفِيقَ

السَّامِعِ ، عَلَىٰ اهْتِزَازَةِ الْقَارِئِ ، وَكَانَ مُحَرَّمٌ عَلَىٰ النَّقِيضِ مِنْ ذَٰلِكَ .

وَإِذَا كَانَتْ لِمُحَرَّم تِلْكَ الْمَيْزَةُ عَلَىٰ حَافِظٍ فِي الشِّعْرِ الْوَطَنِيِّ ، فَإِنَّ لَهُ فِيهِ أَيْضًا مَيْزَةً أُخْرَىٰ ، هِيَ أَنَّ شِعْرَهُ الْوَطَنِيَّ يَصْدُرُ عَنْ عَقِيدَةٍ صَادِقَةٍ ، لَا اسْتِجَابَةٍ لِلَّذِينَ يُطَالِبُونَ بِالِاشْتِرَاكِ فِي الْحَفَلَاتِ ، فَظَلَّ شِعْرُهُ فِي هَٰذِهِ النَّاحِيَةِ عَلَىٰ قِلَّتِهِ مُتَّجِهًا إِلَىٰ هَدَفٍ وَاحِدٍ ، وَجَارِيًا فِي حَقْلٍ وَاحِدٍ ، كَانَ لِسَانَ الْحِزْبِ الْوَطَنِيِّ لَمْ يَمِلْ هُنَا أَوْ هُنَاكَ ، وَلَمْ تَكُنْ لَهُ أَطْمَاعٌ فِي أَنْ يَبْلُغَ صَوْتُهُ حَيْثُ يَتَرَبَّعُ صَاحِبُ السُّلْطَانِ ، وَكَانَ حَافِظٌ فِي هَٰذِهِ النَّاحِيَةِ صَاحِبَ أَطْمَاعٍ وَطُمُوحٍ إِلَىٰ بُلُوغِ هَٰذِهِ الْغَايَةِ .

وَكَانَ شِعْرُ مُحَرَّم صُورَةً وَاحِدَةً أَخَذَتِ انْعِكَاسَاتِ فُحُولِ الشُّعَرَاءِ الْقُدَامَىٰ عَلَيْهَا ، فَطَبَعَتْهَا طَبْعَةً وَاحِدَةً لَا تَتَبَدَّلُ ، وَبَقِيَتْ سِمَاتُهُ ظَاهِرَةً وَاضِحَةً لَا تَتَشَكَّلُ ، فِي حِينِ كَانَ شِعْرُ شَوْقِي تَتَعَدَّدُ أَلْوَانُهُ بِتَعَدُّدِ الشُّعَرَاءِ الَّذِينَ يَتَأَثَّرُهُمْ فِي نَظْمِهِ ، فَلَا تَفْصِلُهُ عَنْهُمْ أَوْ تُمَيِّزُهُ مِنْهُمْ قَلِيلًا إِلَّا مُوسِيقَاهُ ، وَبَعْضُ أَلْفَاظٍ وَاصْطِلَاحَاتٍ الْتَزَمَهَا فِي قَصَائِدِهِ .

ثُمَّ قَالَ الْأُسْتَاذُ حَسَنُ كَامِلٍ الصَّيْرَفِيُّ :

هَٰذِهِ مَكَانَةُ أَحْمَدَ مُحَرَّم بَيْنَ شُعَرَاءِ جِيلِهِ ، وَبَقِيَ شَاعِرٌ وَاحِدٌ مِنْهُمْ وَهُوَ خَلِيلُ مُطْرَانَ الَّذِي تَزَعَّمَ حَرَكَةَ التَّجْدِيدِ فِي الشِّعْرِ الْعَرَبِيِّ ، وَغَلَّبَ الْمَعْنَىٰ فِي شِعْرِهِ ، وَنَظَرَ إِلَىٰ خَلْقِ فِكْرَةٍ تَتَبَلْوَرُ عِنْدَهَا الْقَصِيدَةُ ، نَرَىٰ شِعْرَ مُحَرَّم بَعِيدًا عَنِ التَّأَثُّرِ بِهَٰذِهِ النَّهْضَةِ ؛ لِأَنَّهُ يَرَىٰ أَنَّ الْأَدَبَ الْحَدِيثَ « زِيَادَةٌ فَنِّيَّةٌ تُعْطِي صُوَرًا مَعْنَوِيَّةً جَدِيدَةً » ، فَهُوَ يَقِفُ دُونَ هَٰذِهِ الزِّيَادَةِ ، وَلَٰكِنَّ مَنْ يُدَقِّقُ فِي شِعْرِهِ قَلِيلًا ، وَبِخَاصَّةٍ مَا نَظَمَهُ فِي أُخْرَيَاتِ عُمُرِهِ مِثْلَ قَصِيدَةِ « وُجُودِي »

يَجِدُ فِيهَا صُوَرًا رَمْزِيَّةً بَارِعَةً، وَيَجِدُ فِيهَا تَعْبِيرَاتٍ غَرِيبَةً عَلَىٰ أَسَالِيبِ الْقُدَامَىٰ مِثْلَ «ثَمِلِ الْأَلْفَاظِ» «مَرِحِ الْمَعَانِي».

هَذَا لُبَابُ مَا قَالَهُ الشَّاعِرُ النَّاقِدُ، وَجُلُّ مَا قَالَهُ عَنْ زُمَلَاءِ مُحَرَّمٍ مُسَلَّمٌ لَا شُبْهَةَ فِيهِ، وَمَا قَامَ بِهِ مِنَ الْمُوَازَنَةِ الْمُرَكَّزَةِ بَيْنَ شَوْقِيٍّ وَمُحَرَّمٍ مُسَلَّمٌ بِهِ أَيْضًا بَيْنَ مَنْ أَدْرَكُوا حَقِيقَةَ الشَّاعِرَيْنِ، وَأَكْثَرُ مَا يَتَّضِحُ ذَلِكَ حِينَ يَتَوَالَىٰ الشَّاعِرَانِ عَلَىٰ مَوْضُوعٍ وَاحِدٍ، بَلْ إِنِّي لَا أَخْشَىٰ أَنْ أَقُولَ: إِنَّ مُحَرَّمًا قَدْ سَبَقَ شَوْقِيًّا فِي بَعْضِ الْقَصَائِدِ الْمُتَّفِقَةِ، فَقَصِيدَةُ شَوْقِيٍّ فِي الرَّبِيعِ مَعَ اشْتِهَارِهَا وَكَثْرَةِ مَا قِيلَ عَنْهَا فِي مَجَالِ التَّنْوِيهِ، وَمَطْلَعُهَا(١):

آذَارُ أَقْبَلَ قُمْ بِنَا يَا صَاحِ حَيِّ الرَّبِيعَ حَدِيقَةَ الْأَرْوَاحِ

هَذِهِ الْقَصِيدَةُ الذَّائِعَةُ تَفُوقُهَا قَصِيدَةُ مُحَرَّمٍ فِي الرَّبِيعِ وَمَطْلَعُهَا(٢):

دُنْيَاكَ تَضْحَكُ عَنْ وِدَادٍ صَافِ وَتُرِيكَ طِيبَ الْعَيْشِ كَيْفَ يُوَافِي

وَلَسْتُ بِصَدَدِ الْمُوَازَنَةِ بَيْنَ الْقَصِيدَتَيْنِ، وَلَكِنِّي أَقْتَبِسُ مِنْ قَصِيدَةِ مُحَرَّمٍ مَا يَدُلُّ عَلَىٰ مَوْهِبَةٍ رَائِعَةٍ فِي الِاسْتِشْفَافِ الذَّوْقِيِّ، وَالتَّصْوِيرِ الْفَنِّيِّ، فَهْوَ - مَثَلًا - يُوَضِّحُ تَأْثِيرَ الرَّبِيعِ حِينَ يُقْدِمُ عَلَىٰ الْكَوْنِ بِمَبَاهِجِهِ فَيَخْلُقُ النَّفْسَ الشَّاعِرَةَ خَلْقًا جَدِيدًا؛ فَيَقُولُ(٣):

مَلِكُ الْخَمَائِلِ يَكْتَسِبْنَ نَضَارَةً فِي جَاهِهِ، وَيَمِلْنَ بِالْأَعْطَافِ
بَعَثَ الْحَنِينَ إِلَىٰ الْأَحِبَّةِ وَفْدُهُ فَطَوَىٰ الدِّيَارَ وَطَافَ كُلَّ مَطَافِ

(١) الشوقيات ج «٢» ص ٢٣.
(٢) الديوان ج «٥» ص ٥٨.
(٣) السابق.

دُنْيَا مَحَتْ رَسْمَ السُّلُوِّ وَجَدَّدَتْ   لِذَوِي الصَّبَابَةِ كُلَّ رَسْمٍ عَافِ
عَكَفَ الْجَرِيحُ عَلَىٰ هَوَىٰ أَحْشَائِهِ   وَمَضَىٰ بِقَلْبٍ وَالِهٍ وَشِغَافِ
لَمْ يَبْقَ مِنْ حَقِّ الْحَيَاةِ مُعَطَّلٌ   جَنَحَ الزَّمَانُ بِنَا إِلَىٰ الْإِنْصَافِ

وَيَسِيرُ مَعَ عَوَاطِفِهِ الْوَاثِبَةِ، فَيَلْفِتُ السَّاهِينَ إِلَىٰ جَمَالِ الرَّبِيعِ، وَيَدْعُوهُمْ إِلَىٰ أَنْ يَأْخُذُوا حَظَّهُمْ مِنْ جَمَالِهِ الْأَخَّاذِ، فَيَقُولُ(١):

قُلْ لِلْمُفَرِّطِ فِي لُبَانَةِ نَفْسِهِ   ضَيَّعْتَ أَمْرَكَ فَانْطَلِقْ لِتَلَافِ
نَاجِ الْحَدَائِقَ فَهْيَ شِعْرٌ ضَاحِكٌ   وَاسْتَنْشِدِ الْأَزْهَارَ فَهْيَ قَوَافِ
صُوَرُ الْعَوَاطِفِ وَالْحَيَاةُ تَمُوجُ فِي   دُنْيَا مِنَ الْأَلْوَانِ وَالْأَوْصَافِ
هَذَا يُنَاوِلُكَ الْهُمُومَ يُدِيرُهَا   حَرَّىٰ وَهَذَا مِنْ هُمُومِكَ شَافِ

وَإِذَا كَانَتِ الدُّنْيَا لَا تَثْبُتُ عَلَىٰ صُورَةٍ وَاحِدَةٍ، فَلَيْلٌ وَنَهَارٌ، وَجَدْبٌ وَخِصْبٌ، فَعَلَىٰ الْمَرْءِ أَنْ يَنْتَهِزَ مَقْدِمَ الرَّبِيعِ لِيَنْهَلَ مِنْ سُلَافِهِ مَا يُعَوِّضُهُ عَنْ مَرَارَةِ الْعَلْقَمِ فِي فَصْلٍ سِوَاهُ، إِذْ لَا تَثْبُتُ الدُّنْيَا عَلَىٰ حَالٍ، وَهِيَ حِكْمَةٌ وِجْدَانِيَّةٌ اسْتَشَفَّهَا الشَّاعِرُ مِنْ خَاطِرِهِ قَبْلَ أَنْ يَسْتَضِيءَ بِفِكْرِهِ، فَقَالَ(٢):

اسْتَوْفِ حَقَّكَ عَنْ مَرَارَةِ عَلْقَمٍ   يَسْقِيكَهُ السَّاقِي وَطِيبَ سُلَافِ
أَوْ مَا رَأَيْتَ الْأَرْضَ تَذْبُلُ تَارَةً   وَتَعُودُ أُخْرَىٰ غَضَّةَ الْأَطْرَافِ!!
نَزَلَتْ عَلَىٰ الْحَكَمَيْنِ يَعْتَوِرَانِهَا   مِنْ لَيِّنٍ سَمْحٍ، وَآخَرَ جَافِ
تُثْرِي مِنَ الْحُسْنِ الْبَدِيعِ فَإِنْ مَضَىٰ   رَاحَتْ بِمَنْزِلَةِ الْعَدِيمِ الْعَافِي

---
(١) الدّيوان ج «٥» ص ٥٩.
(٢) الدّيوان ج «٥» ص ٥٩، ٦٠.

خُذْ مِنْ عَوَارِفِهَا وَمِنْ آلَائِهَا ... مَا شِئْتَ، لَا تَكُ قَانِعًا بِكَفَافِ
تُعْطِيكَ مُشْرِفَةً تُعَلِّمُ ذَا الْغِنَى ... شَرَفَ الْعَطَاءِ، وَسُؤْدُدَ الْإِسْرَافِ
كَرُمَتْ عَلَى بُخْلِ الزَّمَانِ وَمَا جَنَى ... بِالْأَمْسِ مِنْ ظُلْمٍ وَمِنْ إِجْحَافِ

وَلَمْ يَنْسَ الشَّاعِرُ رِسَالَتَهُ الْخُلُقِيَّةَ أَبَدًا، إِذْ يَرَى فَيْضَ الْإِحْسَانِ فِي مَظَاهِرِ الطَّبِيعَةِ، فَيُطَالِبُ الثَّرِيَّ الشَّحِيحَ أَنْ يَتَعَلَّمَ مِنْهَا هَذَا الْبِرَّ الْعَطُوفَ، كَمَا يُطَالِبُ مَنْ يَتَمَتَّعُ بِجَمَالِهَا أَنْ يَشْكُرَ لَهَا هَذَا الْبَهَاءَ الْخَالِبَ، كَيْلَا يُسِيئَهَا هَذَا الْجُحُودُ، حِينَ لَا تَجِدُ مَنْ يَعْتَرِفُ لَهَا بِالرَّوْعَةِ وَالْجَمَالِ! لَكَأَنَّ الشَّاعِرَ يَقُولُ لِلنَّاسِ: كَمْ مِنْ نَابِغٍ هُضِمَ حَقُّهُ، وَضَاعَ فَضْلُهُ، فَانْزَوَى عَاثِرَ الْحَظِّ، دَامِعَ الْعَيْنِ، فَحَرَامٌ أَنْ يَضِيعَ فَضْلُ الرَّبِيعِ دُونَ إِشَادَةٍ وَإِعْلَانٍ، أَتَرَى مُحَرَّمًا كَانَ يَرْنُو لِنَفْسِهِ حِينَ ضَاعَ شِعْرُهُ بَيْنَ عُيُونٍ عُمْيٍ، وَآذَانٍ صُمٍّ، فَهَتَفَ بِقَوْلِهِ[1]:

أَسْبِغْ ثَنَاءَكَ وَاجْزِهَا مَا أَسْبَغَتْ ... مِنْ كُلِّ وَافٍ فِي الصَّنَائِعِ ضَافِ
أَتَجُرُّ أَفْوَافَ[2] النَّعِيمِ سَنِيَّةً ... وَتَعُودُ عَارِيَةً مِنَ الْأَفْوَافِ
أَوْدَى الْجُحُودُ بِمُحْسِنِينَ تَنَازَعُوا ... مِنْ عَبْقَرِيِّ الْفَنِّ كُلَّ طَرَافِ
فَقَدُوا الرِّجَالَ الْمُنْصِفِينَ فَشَأْنُهُمْ ... شَأْنُ الضِّعَافِ، وَمَا هُمُ بِضِعَافِ

وَيَمْضِي الشَّاعِرُ الْمُصَوِّرُ، فَيَدْعُو الطُّيُورَ السَّوَاجِعَ أَنْ تَهْتِفَ بِمَا حَبَاهَا اللَّهُ مِنْ أَلْحَانٍ، فَالْأَرْضُ رَوْضٌ تَزَيَّنُ، وَالْعَرُوسُ أَخَذَتْ أَبْهَى مَجَالِيهَا فِي الْعُيُونِ، وَيُعَاوِدُهُ أَسَاهُ عَلَى نَفْسِهِ فَيَقُولُ[3]:

---
(١) الدّيوان ج ٥٥ ص ٦٠ وَمَا بعدها.
(٢) أفواف: ثياب.
(٣) الدّيوان ج ٥٥ ص ٦٠ وَمَا بعدها.

يَا طَيْرُ مَا ضَاقَ الْبَيَانُ ، وَإِنَّمَا ... ضَاقَ الزَّمَانُ وَضَنَّ بِالْإِسْعَافِ
غَرِّدْ ، وَإِنْ هَجَتِ الْهُمُومُ لِطَائِرٍ ... حَمَلَ الْهُمُومَ كَثِيرَةَ الْأَصْنَافِ
وَرِدِ النَّمِيرَ الْعَذْبَ غَيْرَ مُرَوَّعٍ ... مِثْلِي ، بِوِرْدِ مَا يُطَاقُ زُعَافِ
هَانَ النَّفِيسُ فَضَاعَ بَيْنَ مَعَاشِرٍ ... وَضَعُوا اللَّآلِئَ مَوْضِعَ الْأَصْدَافِ

لَقَدْ كَانَ مُحَرَّمٌ شَاعِرًا وَحَكِيمًا مَعًا ، وَلَكِنَّ حِكْمَتَهُ لَمْ تَأْتِ جَافَّةً خَشِنَةً ، كَمَا نَرَاهَا عِنْدَ بَعْضِ النَّاسِ ، بَلْ أَشْعَلَتْهَا حَرَارَةُ الْعَاطِفَةِ ، فَوَصَلَتْ إِلَىٰ أَنْأَىٰ مَوَاطِنِ الشِّغَافِ مِنَ الْقُلُوبِ .

هَذَا بَعْضُ مَا أُضِيفُهُ إِلَىٰ قَوْلِ الصِّيرَفِيِّ عَنْ شَوْقِيٍّ وَمُحَرَّمٍ ، أَمَّا قَوْلُهُ فِي مَجَالِ الْحَدِيثِ عَنْ تَجْدِيدِ خَلِيلِ مُطْرَانَ : إِنَّ شِعْرَ مُحَرَّمٍ بَعِيدٌ عَنِ التَّأَثُّرِ بِهَذِهِ النَّهْضَةِ ؛ لِأَنَّهُ يَرَىٰ أَنَّ الْأَدَبَ الْحَدِيثَ زِيَادَةٌ فَنِّيَّةٌ تُعْطِي صُوَرًا مَعْنَوِيَّةً جَدِيدَةً ، فَهُوَ يَقِفُ دُونَ هَذِهِ الزِّيَادَةِ . هَذَا الْقَوْلُ يَحْتَاجُ إِلَىٰ تَوْضِيحٍ ؛ لِأَنَّ الشَّاعِرَ مُحَرَّمًا مِنْ حَيْثُ الدِّيبَاجَةُ الْبَيَانِيَّةُ ، وَالِالْتِزَامُ بِالْمَأْثُورِ مِنَ الْقَافِيَةِ وَالْوَزْنِ لَمْ يُضِفْ شَيْئًا يُحْسَبُ لَهُ فِي مِضْمَارِ التَّجْدِيدِ ، وَلَكِنَّهُ مِنْ حَيْثُ الْجِدَّةُ فِي الْأَغْرَاضِ الشِّعْرِيَّةِ ، مِثْلِ الشِّعْرِ الِاجْتِمَاعِيِّ وَالشِّعْرِ الْقَصَصِيِّ وَالشِّعْرِ السِّيَاسِيِّ قَدْ أَضَافَ الْجَدِيدَ حَقًّا إِلَىٰ التُّرَاثِ الشِّعْرِيِّ ، دَعْ عَنْكَ الشِّعْرَ التَّارِيخِيَّ الَّذِي بَرَزَ فِي مِضْمَارِ مَلْحَمَتِهِ الْخَالِدَةِ « الْإِلْيَاذَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ » وَقَدْ كَانَ الْأُسْتَاذُ الصِّيرَفِيُّ حَذِرًا حِينَ قَالَ بَعْدَ ذَلِكَ : « وَلَكِنَّ مَنْ يُدَقِّقُ فِي شِعْرِهِ قَلِيلًا وَبِخَاصَّةٍ فِيمَا نَظَمَهُ مِنْ أُخْرَيَاتِ حَيَاتِهِ مِثْلَ قَصِيدَتِهِ النُّونِيَّةِ « وُجُودِي » يَجِدُ فِيهَا صُوَرًا رَمْزِيَّةً بَارِعَةً ! وَهَذَا لِأَنَّ الشَّاعِرَ مُنْذُ أَوَائِلِ الثَّلَاثِينِيَّاتِ كَانَ فِي اتِّجَاهِهِ الشِّعْرِيِّ يُوَاكِبُ رَكْبَ الْمُجَدِّدِينَ ، بَلْ إِنَّهُ

أَحَسَّ بِضَرُورَةِ التَّجْدِيدِ فَنَظَمَ قَصِيدَةً مُمْتَازَةً تَحْتَ عُنْوَانِ «التَّجْدِيدُ وَالتَّقْلِيدُ» بَدَأَهَا بِقَوْلِهِ[1]:

يَا بَنِي الشِّعْرِ جَدِّدُوا عَاجِزٌ مَنْ يُقَلِّدُ
لَيْسَ لِلْفَنِّ غَايَةٌ فَاعْرِفُوا الْحَقَّ وَاشْهَدُوا
امْلَأُوا الْأَرْضَ نُضْرَةً وَانْظُرُوا كَيْفَ تُسْعَدُ
صُوَرٌ طَالَ عَهْدُهَا كُلَّ يَوْمٍ تُرَدَّدُ
وَمَعَانٍ كَأَنَّهَا فِي الْأَسَاطِيرِ تُجْلَدُ
عُذِّبَتْ، فَهْيَ تَشْتَكِي وَأُلُو الْأَمْرِ حُشَّدُ
أَهِيَ جَانٍ مُكَبَّلٌ أَمْ أَسِيرٌ مُصَفَّدُ
يَخْلَقُ الْيَوْمَ بُرْدُهَا ثُمَّ يَأْتِي بِهَا الْغَدُ
ثُمَّ لَا شَيْءَ غَيْرُهَا فَهْيَ هَمٌّ مُجَدَّدُ

فَالدَّعْوَةُ إِلَى التَّجْدِيدِ قَدْ فَهِمَهَا مُحَرَّمٌ حَقَّ الْفَهْمِ، وَلَكِنْ بِمَفْهُومِهِ الْخَاصِّ، الَّذِي حَصَرَهَا فِي الْأَغْرَاضِ وَالْمَعَانِي لَا فِي الْأَزْيَاءِ وَالْأَشْكَالِ، وَلَعَلَّ أَسْطَعَ الْأَغْرَاضِ الشِّعْرِيَّةِ الَّتِي اتَّجَهَ إِلَيْهَا مُحَرَّمٌ فِي مِضْمَارِ التَّجْدِيدِ هُمَا: غَرَضَا الطَّبِيعَةِ وَالْغَزَلِ، إِذْ بَدَأَ الشَّاعِرُ فِيهِمَا مُقَلِّدًا، لَا يَكَادُ يَنْفَحُ بِالْجَدِيدِ، ثُمَّ انْبَثَقَ تَيَّارُ الْجِدَّةِ عِنْدَهُ فِي الثَّلَاثِينِيَّاتِ؛ فَأَتَى بِالطَّرِيفِ الْمُبْتَكَرِ فِي هَذَيْنِ الْغَرَضَيْنِ، وَقَدْ أَشَرْتُ إِلَى نَمَطٍ مِمَّا قَالَهُ فِي اسْتِقْبَالِ الرَّبِيعِ، حَيْثُ لَمْ يَكْتَفِ بِالْوَصْفِ الظَّاهِرِيِّ لِلْوَرْدِ وَالطَّيْرِ وَالرَّوْضِ، بَلْ تَغَلْغَلَ إِلَى

(١) الدّيوان ج «٥» ص ١٠٠.

مَكْنُونَاتِ النَّفْسِ ، وَكَشْفِ السِّتَارِ عَنْ أَحَاسِيسَ مَكْظُومَةٍ كَانَ الْحَدِيثُ عَنِ الرَّبِيعِ مَجَالًا لِلْإِفْصَاحِ عَنْهَا بِأَجْلَى بَيَانٍ ، مَعَ الْمُحَافَظَةِ عَلَى الدِّيبَاجَةِ الْعَرَبِيَّةِ الْأَصِيلَةِ الَّتِي هِيَ عُنْوَانُ مَجْدِهِ الْأَدَبِيِّ !.

وَإِذَا كَانَ الرَّبِيعُ بِأَلْوَانِهِ الْمُتَجَدِّدَةِ وَشِيَاتِهِ الْمُتَعَدِّدَةِ ، وَمَنْظَرِهِ الْبَهِيجِ قَدْ أَتَاحَ لِلشَّاعِرِ هَذِهِ الصُّوَرَ الْأَخَّاذَةَ حِسِّيًّا وَمَعْنَوِيًّا ، فَإِنَّ الصَّحْرَاءَ بِصَمْتِهَا الْمُوحِشِ ، وَوَجْهِهَا الْجَدِيبِ ، وَسُكُونِهَا الْمُطْبِقِ ، كَانَتْ مَثَارَ إِلْهَامٍ دَافِقٍ لَهُ ، إِذْ أَنْشَدَ قَصِيدَتَهُ « قَصْرُ كِلْيُوبَاتْرَةَ » بَادِئًا بِوَصْفِ الصَّحْرَاءِ ، فَأَتَى مِنَ الْبَدَائِعِ الشِّعْرِيَّةِ مَا يُؤَكِّدُ أَصَالَتَهُ الْعَرِيقَةَ ، وَأَذْكُرُ أَنَّ مَجَلَّةَ « الْفَتْحِ » نَشَرَتْ هَذِهِ الْقَصِيدَةَ مُمَهِّدَةً لَهَا بِهَذِهِ النُّبْذَةِ :

« جَالَ الشَّاعِرُ لِأَوَّلِ مَرَّةٍ جَوْلَةً وَاسِعَةً فِي الصَّحْرَاءِ ، مَعَ فَرِيقٍ مِنْ صَفْوَةِ إِخْوَانِهِ ، وَشَاهَدَ مَا أَبْقَتِ الْأَيَّامُ مِنْ قَصْرِ كِلْيُوبَاتْرَةَ ، فَفَاضَتْ نَفْسُهُ بِهَذِهِ الْآيَةِ مِنْ آيَاتِ الْبَيَانِ ، بَعَثَتْ فِي الذَّوْقِ حَيَاةً جَدِيدَةً لِلَامِيَّةِ حَكِيمِ تَنُوخَ[1] فِي وَخْدِ الْقِلَاصِ » يَقُولُ مُحَرَّمٌ مُبْتَدِئًا بِوَصْفِ الصَّحْرَاءِ[2]:

هِيَ الدُّنْيَا الَّتِي تَسَعُ الْجِمَالَا ... فَسِرْ إِنْ شِئْتَ أَوْ أَلْقِ الرِّحَالَا
حَلَلْتُ بِهَا فَمَا صَادَفْتُ جَوًّا ... خَلَا مِمَّا أُحِبُّ ، وَلَا مَجَالَا
تَرَامَتْ فِي جَوَانِبِهَا الْأَمَانِي ... كَسِرْبِ الطَّيْرِ وَانْطَلَقَتْ عُجَالَا
هِيَ الدُّنْيَا الَّتِي وَسِعَتْ خَيَالِي ... مَرَرْتُ بِهَا فَظَنَّتْنِي خَيَالَا
أَقَمْتُ وَرِفْقَتِي فِيهَا قَلِيلًا ... فَيَا لَيْتَ الْمُقَامَ هُنَاكَ طَالَا

(١) حكيم تنوخ : هو أبو العلاء المعري .
(٢) الديوان ج ٥، ص ٨٦.

ثُمَّ أَخَذَ يُقَارِنُ بَيْنَ الصَّحْرَاءِ فِي الْعَهْدِ الْقَدِيمِ، وَالصَّحْرَاءِ الْيَوْمَ فَقَالَ(١):

ذِئَابُ الْقَفْرِ أَيْنَ ذَهَبْتِ؟ إِنِّي أَرَىٰ أَمْرَ الْحَيَاةِ قَدِ اسْتَحَالَا
خَلَتْ مِنْكِ الْبَدَاوَةُ فَاسْتَرَاحَتْ نُفُوسٌ ذُقْنَ بِالْأَمْسِ الْوَبَالَا
فَيَا لَكَ مَوْطِنًا لِلْأَمْنِ فِيهِ شَرَائِعُ لَا نَرَىٰ فِيهَا اعْتِلَالَا
وَيَا وَيْلَ الْحَضَارَةِ مِنْ ذِئَابٍ تَفُوقُ الْأُسْدَ فَتْكًا وَاغْتِيَالَا
أَثَارَ الْمُفْسِدُونَ الشَّرَّ فِيهَا وَظَنُّوا الْعَيْشَ مَكْرًا وَاحْتِيَالَا
وَقَالُوا: مَا الْحَيَاةُ سِوَىٰ نِضَالٍ وَمَا عَرَفُوا الْحَيَاةَ وَلَا النِّضَالَا

هَكَذَا يَلِجُ الشَّاعِرُ إِلَىٰ إِحْسَاسِهِ الدَّاخِلِيِّ مُقَارِنًا بِمَا يَرَىٰ مِنَ الْمَنْظَرِ الْخَارِجِيِّ! فَيَتَحَدَّثُ عَنِ الْحَضَارَةِ الَّتِي مُلِئَتِ الْيَوْمَ بَطْشًا وَاغْتِيَالًا، مُقَارَنَةً بِبَدَاوَةِ الْأَمْسِ الَّتِي لَمْ يَكُنِ الْإِنْسَانُ عَامِلَ الشَّرِّ فِيهَا، بَلْ كَانَتِ الذِّئَابُ وَحْدَهَا، وَهِيَ أَهْوَنُ شَرًّا مِنْ إِنْسَانِ الْيَوْمِ! أَمَّا الرَّوْعَةُ كُلُّ الرَّوْعَةِ، وَالْإِبْدَاعُ كُلُّ الْإِبْدَاعِ فَفِي الصُّورَةِ الَّتِي وَصَفَ الشَّاعِرُ بِهَا صُعُودَهُ إِلَىٰ الْقَصْرِ بَيْنَ الْمَغَاوِرِ وَالْأَحْجَارِ، وَقَدْ أَشْفَقَ عَلَىٰ نَفْسِهِ مِنَ السُّقُوطِ فِي الْمَهَاوِي، فَأَخَذَ يَعْتَصِمُ بِرَفِيقِهِ، وَيَتَحَسَّسُ مَوْضِعَ قَدَمِهِ، إِذْ إِنَّ أَقَلَّ زَلَّةٍ طَارِئَةٍ سَتَهْوِي بِهِ إِلَىٰ الْمَكَانِ السَّحِيقِ، صُورَةٌ جَدِيدَةٌ لَمْ أَقْرَأْهَا بِمِثْلِ مَا قَالَ مُحَرَّمٌ(٢):

نَزَلْنَا نَنْظُرُ الْقَصْرَ الْمُخَلَّىٰ لِرَيْبِ الدَّهْرِ يُرْهِقُهُ نَكَالَا
وَسِرْنَا فِي جَوَانِبِهِ خُشُوعًا نَرَىٰ الْأَحْجَارَ حَيْرَىٰ وَالتِّلَالَا

(١) الدِّيوَان ج «٥» ص ٨٨.
(٢) الدِّيوَان ج «٥» ص ٨٩.

فَنَصْعَدُ تَارَةً وَنَكُونُ أُخْرَىٰ   كَمِثْلِ الْجِنِّ مَنْزِلَةً وَحَالَا
يَقُولُ دَلِيلُنَا: سِيرُوا الْهُوَيْنَىٰ   مَخَافَةَ أَنْ نُرَاعَ وَأَنْ نُهَالَا
وَأُمْسِكُ صَاحِبِي أَخْشَىٰ عَلَيْهِ   إِذَا خُطَوَاتُهُ اضْطَرَبَتْ فَمَالَا
وَيُدْرِكُنِي بِعَوْنٍ مِنْ قُوَاهُ   إِذَا مَا ظَنَّ بِي ضَعْفًا وَخَالَا
يُلَازِمُنِي، فَمَا أَخْشَىٰ انْفِرَادًا   وَأَصْحَبُهُ، فَلَا يَخْشَىٰ انْفِصَالَا
كِلَانَا كَالدَّمِ الْجَارِي امْتِزَاجًا   بِصَاحِبِهِ، وَكَالرُّوحِ اتِّصَالَا

وَأَفَاضَ الشَّاعِرُ فِي ذِكْرَيَاتٍ تَارِيخِيَّةٍ عَنْ عَهْدِ الْقَصْرِ، وَمَلِكَتِهِ كِلْيُوبَاتْرَةَ، وَمَا أَبْقَتْ حُجُرَاتُهَا مِنْ آثَارٍ صَوَامِتَ. تَشْكُو بَرَحَ الْحَنِينِ لِمَجْدِهَا الْغَابِرِ، فَكَانَ مِمَّا قَالَ(1):

كِلْيُوبَاتْرَا، انْظُرِي تَجِدِي طُلُولًا   تَظَلُّ جُثُومُهَا تَشْكُو الْمَلَالَا
مَضَتْ أَيَّامُهَا وَتَدَاوَلَتْهَا   عَوَادِي الدَّهْرِ أَسْرًا وَاعْتِقَالَا
أَقَامَتْ بَعْدَ عَهْدِكِ إِذْ تَوَلَّىٰ   مُقَامَ الْوَالِهَاتِ مِنَ الثَّكَالَىٰ
رَحَلْتِ، وَلَوْ تُطَاوِعُهَا قُوَاهَا   أَبَتْ حُجُرَاتُهَا إِلَّا ارْتِحَالَا
كَأَنِّي إِذْ رَأَيْتُ الْقَصْرَ قَفْرًا   رَأَيْتُ الْجُنْدَ حَوْلَكِ وَالرِّجَالَا
مَشَىٰ الْقُوَّادُ صَفًّا إِثْرَ صَفٍّ   يَهُزُّونَ الْأَسِنَّةَ وَالنِّصَالَا
وَلِلْكُهَّانِ تَرْتِيلٌ تَدَاعَتْ   عَلَيْهِ حَمَائِمُ الْوَادِي انْتِحَالَا
وَهَاتِيكِ الْوَصَائِفُ كَالدَّرَارِي   تُطَالِعُ فِي أَرِيكَتِكِ الْهِلَالَا

(1) السّابق.

فَإِذَا تَرَكْنَا الصَّحْرَاءَ وَقَصْرَ كِلْيُوبَاتْرَا إِلَىٰ الْبَحْرِ، فَإِنَّنَا نَجِدُ مِنْ إِبْدَاعِ الشَّاعِرِ مَا لَا يَلْحَقُ بِهِ فَرِيقٌ مِمَّنْ يَرْمُونَهُ بِالتَّقْلِيدِ، وَقَدْ قَالُوا كَثِيرًا فِي الْبَحْرِ مِمَّا سَمَّوْهُ بِأَدَبِ الشَّاطِئِ، وَبَالَغُوا فِي ذَلِكَ إِلَىٰ دَرَجَةِ إِصْدَارِ دَوَاوِينَ مُنْفَرِدَةٍ بِالشَّاطِئِ وَأَيَّامِهِ وَلَيَالِيهِ، وَلَكِنْ هَلْ قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ مِثْلُ مَا قَالَ مُحَرَّمٌ مُخَاطِبًا الْبَحْرَ(١):

الشِّعْرُ شِعْرُكَ مَنْ يَقُولُ سِوَاكَا؟ قُلْ فَالْمَمَالِكُ كُلُّهَا نَجْوَاكَا
هِيَ نَفْثَةٌ مِمَّا تَبُثُّ وَخَطْرَةٌ مِمَّا تُرَدِّدُ فِي نَشِيدِ هَوَاكَا
مَا هَذِهِ الْأَصْبَاغُ؟ أَيْنَ وَجَدْتَهَا؟ يَا وَاحِدًا فِي الْفَنِّ لَيْسَ يُحَاكَىٰ
مَا بَالُ سَاقِي الْعَبْقَرِيَّةِ لَمْ يَدَعْ غَيْرَ الْقَذَىٰ لِسِوَاكَ حِينَ سَقَاكَا
لَيْلَاىٰ نَافِرَةٌ فَهَلْ تَجِدُ الَّذِي أَنَا وَاجِدٌ فِي الْحُبِّ مِنْ لَيْلَاكَا
هَلْ ثَوْرَةُ الْأَمْوَاجِ فِيكَ لَوَاعِجٌ تُذْكِي فُؤَادَكَ أَوْ تُذِيبُ حَشَاكَا؟
أَمْ أَنْتَ مِنْ أَلَمِ الصَّبَابَةِ صَارِخٌ تَشْكُو الْهَوَىٰ، وَتَضِجُّ مِنْ بَلْوَاكَا؟
أَمْ تِلْكَ آمَالٌ يُقَالُ لَهَا: اهْدَئِي فَتَثُورُ غَضْبَىٰ، مَا تَمَلُّ عِرَاكَا
هِيَ ثَوْرَةُ الدُّنْيَا وَحَيْرَةُ أَهْلِهَا مَثَّلْتَهَا لِلنَّاسِ فِي دُنْيَاكَا
مَا أَصْدَقَ التَّمْثِيلَ لَوْلَا رَوْعَةٌ تَبْدُو عَلَيْكَ وَرِقَّةٌ تَغْشَاكَا
تَصْفُو فَيَظْهَرُ مَا تُكِنُّ، وَإِنَّهَا لَتَرَىٰ حَرَامًا أَنْ تَكُونَ كَذَاكَا

وَالْبَيْتُ الْأَخِيرُ وَثْبَةٌ فَنِّيَّةٌ رَائِعَةٌ، إِذْ يُقَارِنُ الشَّاعِرُ بَيْنَ الْبَحْرِ الَّذِي يَصْفُو فَيَظْهَرُ لِلنَّاسِ مَا بِدَاخِلِهِ وَالدُّنْيَا الَّتِي لَا تَصْفُو أَبَدًا؛ لِأَنَّ شَرَّهَا مَخْبُوءٌ

(١) الدّيوَان ج «٥» ص ٨٢.

مَكْنُونٌ .

وَلِلشَّاعِرِ نَفَثَاتٌ أُخْرَىٰ فِي أَدَبِ الشَّاطِئِ أُشِيرُ إِلَيْهَا دُونَ أَنْ أُسْرِفَ فِي الاسْتِشْهَادِ !.

هَذَا بَعْضُ مَا أَقُولُهُ عَنْ خَطَرَاتِ مُحَرَّمٍ فِي مَعْبَدِ الطَّبِيعَةِ الْفَاتِنِ ، فَمَاذَا أَقُولُ عَنْ جَذَوَاتِهِ الْمُلْتَهِبَةِ فِي حَمِيمِ الْغَرَامِ ! فَالطَّبِيعَةُ وَالْغَزَلُ ، كَمَا قُلْتُ هُمَا أَظْهَرُ مَجَالَي التَّجْدِيدِ لَدَىٰ الشَّاعِرِ الْكَبِيرِ .

وَبَدْءًا أُعْلِنُ أَنَّ الْحُبَّ الْعَفِيفَ لَيْسَ مَجَالَ نَقْدٍ مَا ، وَقَدْ ذَكَرْتُ فِي كِتَابِ « مُصْطَفَىٰ صَادِقُ الرَّافِعِيُّ فَارِسُ الْقَلَمِ تَحْتَ رَايَةِ الْقُرْآنِ » مَا يَنْفِي هَذَا الزَّعْمَ فَقُلْتُ(1): « إِنَّ كِبَارَ عُلَمَاءِ الإِسْلَامِ فِي سَالِفِهِمُ الزَّاهِرِ ، قَدْ وَضَعُوا الْكُتُبَ الْوِجْدَانِيَّةَ ذَاتَ التَّحْلِيلِ الأَدَبِيِّ الرَّائِعِ ، وَالْقَصَصِ الْعَاطِفِيِّ الشَّاجِي ، وَالاسْتِشْهَادِ الشِّعْرِيِّ الرَّقِيقِ ، وَمِنْهُمُ الإِمَامُ ابْنُ حَزْمٍ فِي « طَوْقِ الْحَمَامَةِ » وَالإِمَامُ ابْنُ الْجَوْزِيِّ فِي « ذَمِّ الْهَوَىٰ » وَالإِمَامُ ابْنُ الْقَيِّمِ فِي « رَوْضَةِ الْمُحِبِّينَ » ، وَأَفَضْتُ فِي ذَلِكَ إِفَاضَةً تُبْطِلُ مَزَاعِمَ مَنْ يَتَنَكَّرُونَ لِصَادِقِ الْعَاطِفَةِ ، وَطَاهِرِ الْوِجْدَانِ ، وَكَانَ مِنْ حَظِّ مُحَرَّمٍ أَنَّ الْهَوَىٰ الْمُشْتَعِلَ صَادَفَهُ فِي خَرِيفِ حَيَاتِهِ بَعْدَ أَنْ وَدَّعَ عَهْدَ الشَّبَابِ ، إِذْ أَوْقَعَهُ الْمَقْدُورُ فِي هَوَىٰ مُدَرِّسَةٍ أَدِيبَةٍ تَقْرِضُ الشِّعْرَ ، وَتَعْشَقُ الأَدَبَ ، وَقَدْ طَرَقَتْ بَابَهُ تِلْمِيذَةً تَتَعَلَّمُ عَلَىٰ يَدِهِ ، وَلَكِنَّ الشَّاعِرَ أَحَسَّ نَحْوَهَا بِهَوًى جَارِفٍ لَمْ يَقْدِرْ عَلَىٰ كِتْمَانِهِ ، وَكَانَ هَوًى طَاهِرًا لَمْ تَعْلَقْ بِهِ رِيبَةٌ مَا ، وَقَدْ حَاوَلَ الْفِرَارَ مِنْهُ كَثِيرًا ، حِينَ كَانَ يَعْلَمُ وَقْتَ مَجِيئِهَا ، فَيَتَّفِقُ مَعَ أَصْدِقَائِهِ عَلَىٰ الْقِيَامِ بِرِحْلَةٍ مَا تُبْعِدُهُ عَنْ

(1) مصطفىٰ صادق الرافعي ص ٢١٧ ط دار القلم بدمشق .

مَوْطِنِ اللِّقَاءِ، وَقَدْ كَشَفَ عَنْ نَفْسِهِ، حِينَ قَالَ فِي مَطْلَعِ قَصِيدَتِهِ الشَّهِيرَةِ «رِحْلَةٌ عَابِسَةٌ»(١):

عَصَفَ الْهَوَىٰ بِجَوَانِحِ الْمُشْتَاقِ   وَهَفَا الْحَنِينُ بِقَلْبِهِ الْخَفَّاقِ
مَا يَصْنَعُ الْقَلْبُ الطَّرُوبُ إِذَا الْهَوَىٰ   بَلَغَ الْقَرَارَ وَجَالَ فِي الْأَعْمَاقِ
يَا صَاحِبِي، فِيمَ الْمُقَامُ عَلَىٰ الْأَذَىٰ؟   سِرْ فَالْبِلَادُ فَسِيحَةُ الْآفَاقِ

وَلَكِنَّ الرِّحْلَةَ لَمْ تُنْقِذْهُ مِنْ خَوَاطِرِهِ، إِذِ الْأَمْرُ كَمَا قَالَ الشَّاعِرُ الْعُذْرِيُّ مِنْ قَبْلُ:

أُرِيدُ لِأَنْسَىٰ ذِكْرَهَا فَكَأَنَّمَا   تُمَثَّلُ لِي لَيْلَىٰ بِكُلِّ سَبِيلِ

وَلَئِنْ كَانَ هَذَا الْحُبُّ عَذَابًا لِمُحَرَّمٍ، فَقَدْ كَانَ نَعِيمًا لِأَدَبِهِ، حَيْثُ تَطَوَّرَ بِشِعْرِهِ الْغَزَلِيِّ مِنْ نَمَطِ التَّقْلِيدِ الصَّارِمِ الَّذِي يَتَجَلَّىٰ فِي مِثْلِ قَوْلِهِ(٢):

أَوَ كُلَّمَا سَكَنَ الشَّوْقُ فَأَقْصَرَا   هَاجَتْهُ أَسْرَابُ الْمَهَا فَتَذَكَّرَا
مَرَّتْ تَجِدُّ لِذِي الصَّبَابَةِ شَجْوَهُ   وَتَرُدُّ مِنْ سَرْحِ الْهَوَىٰ مَا نَفَّرَا
يَا مَنْ لِمُسْتَلَبِ الْقَرَارِ مُفَزَّعٍ   مَا يَسْتَكِنُّ خَيَالُهُ إِلَّا انْبَرَىٰ
ذَكَرَ الْأَحِبَّةَ فَاسْتَبَدَّ بِهِ الْأَسَىٰ   وَرَأَىٰ الْمَنَازِلَ بِاللِّوَىٰ فَاسْتَعْبَرَا

إِلَىٰ نَمَطٍ رَائِعٍ مِنَ الشِّعْرِ الْغَزَلِيِّ الْبَدِيعِ، الَّذِي يَمْزُجُ الْغَزَلَ الْحَنُونَ بِوَصْفِ الطَّبِيعَةِ الْجَمِيلَةِ فِي أَبْهَىٰ مَظْهَرٍ مِنْ مَظَاهِرِهَا الْفَاتِنَةِ، وَكَأَنَّ الشَّاعِرَ لَمْ يَجِدْ فَرْقًا وَاضِحًا بَيْنَ زَهْرَةٍ تَخَيَّلَهَا بَاكِيَةً، إِذْ سَقَطَتْ حَبَّاتُ النَّدَىٰ فَوْقَ

(١) الدِّيوَان ج «٥» ص ٩٢.
(٢) الدِّيوَان ج «٤» ص ٩٥.

كِمِّهَا ، فَكَانَتْ فِي مَرْأَىٰ الشَّاعِرِ دَمْعًا يَنْحَدِرُ ، وَبَيْنَ عَيْنِ عَاشِقٍ كَابَدَ اللَّوْعَةَ فَانْفَجَرَ الدَّمْعُ مِنْ مُقْلَتِهِ ! لَقَدْ كَانَ مَشْهَدُ الزَّهْرَةِ الْبَاكِيَةِ مُعَادِلًا مَوْضُوعِيًّا لِمَشْهَدِ مُقْلَتِهِ الْبَاكِيَةِ ، فَآثَرَ أَنْ يُسَلِّيَهَا بِنَفْثَةٍ شِعْرِيَّةٍ رَائِعَةٍ ؛ لِأَنَّهَا زَمِيلَتُهُ فِي الشَّقَاءِ ، وَقَرِينَتُهُ فِي الْبَلْوَىٰ ، فَقَالَ مُتَسَائِلًا[1]:

أَهَذِي دُمُوعُ الطَّلِّ أَمْ هَاجَكِ الْهَوَىٰ ؟ فَأَنْتِ لِفَقْدِ الْإِلْفِ تَبْكِينَ مِنْ وَجْدِ
فَدَيْتُكِ ، لَوْلَا الزَّهْرُ مَا اشْتَاقَ عَاشِقٌ وَمَا ذَاقَ مَا يُدْمِي الْجُفُونَ مِنَ السُّهْدِ
سَمِعْتُكِ إِذْ مَرَّ النَّسِيمُ مُسَلِّمًا تَقُولِينَ : مَنْ أَغْرَاكَ بِالْهَجْرِ وَالصَّدِ ؟
وَأَبْصَرْتُ مِنْكِ الدَّمْعَ يَنْظِمُهُ الْأَسَىٰ فَسُخْطٌ عَلَىٰ سُخْطٍ ، وَعِقْدٌ عَلَىٰ عِقْدِ
عَذَرْتُكِ مَا بُعْدُ الْأَلِيفِ بِهَيِّنٍ وَإِنِّي رَأَيْتُ الْمَوْتَ مَغْنًى مِنَ الْبُعْدِ
خُذِي مِنْ دُمُوعِي مَا اسْتَطَعْتِ ، فَإِنَّ بِي رَسِيسَ الْهَوَىٰ[2]، يَزْدَادُ وَقْدًا عَلَىٰ وَقْدِ
كِلَانَا مُصَابٌ ، غَيْرَ أَنِّي إِذَا الْهَوَىٰ أَلَحَّ عَلَىٰ الْمَحْزُونِ وَاسَيْتُهُ جُهْدِي
سَأَجْعَلُ أَنْفَاسَ النَّسِيمِ رِسَالَةً تَزِيدُكِ يَا لَيْلَاىٰ وُدًّا عَلَىٰ وُدِّ
إِذَا مَا سَرَىٰ يُهْدِي إِلَيْكِ تَحِيَّتِي فَمِنْ عَبَقِ الرَّيْحَانِ أَوْ نُضْرَةِ الْوَرْدِ
أَعِنْدَكِ يَا لَيْلَاىٰ مِنْ لَاعِجِ الْهَوَىٰ وَمِنْ لَوْعَةِ الشَّوْقِ الْمُبَرِّحِ مَا عِنْدِي
أَتَبْكِينَ مِثْلِي ؟ لَا ، دَعِينِي ، فَإِنَّنِي رَضِيتُ بِأَنْ أَلْقَىٰ صُرُوفَ الْهَوَىٰ وَحْدِي
بِرَبِّكِ ، مَا هَذَا الْجَمَالُ الَّذِي أَرَىٰ أَلَيْسَ لَهُ فِيمَا تَرَىٰ الْعَيْنُ مِنْ حَدٍّ ؟
مَعَانِيهِ تَسْتَقْصِي الْمَدَىٰ وَفُنُونُهُ أَوَابِدُ ، تَسْتَعْصِي عَلَىٰ الشَّاعِرِ الْفَرْدِ
أُحِبُّكِ ، فَازْدَادِي عَلَىٰ الدَّهْرِ بَهْجَةً وَزِيدِي بَنِيَّ الشِّعْرِ مَجْدًا عَلَىٰ مَجْدِ

(١) الدِّيوَان ج «٥» ص ٣٥٩.

(٢) رَسِيسَ الْهَوَىٰ : كناية عن شدة الوجد .

وَبَرَاعَةُ التَّشْخِيصِ فِي هَذِهِ الْقَصِيدَةِ تُعْلِنُ عَنْ نَفْسِهَا ، فَقَدْ خَلَعَ الشَّاعِرُ أَحَاسِيسَهُ كُلَّهَا عَلَىٰ الزَّهْرَةِ النَّادِيَةِ ، فَالطَّلُّ دُمُوعٌ ، وَالنَّسِيمُ مَعْشُوقٌ ، وَالْوَرْدَةُ عَاشِقَةٌ ! وَمَا بَيْنَ حَوَّاءَ وَآدَمَ مِثْلُ مَا بَيْنَ النَّسِيمِ وَالزَّهْرَةِ فِي مَنْطِقِ الشَّاعِرِ ، أَمَّا اللُّغَةُ فَرَقِيقَةٌ تَرِفُّ صَفَاءً ؛ لِأَنَّ رِقَّةَ الْمَوْضُوعِ قَدْ نَظَمَتِ الْأَلْفَاظَ فِي عِقْدٍ لُؤْلُؤِيٍّ بَاهِرٍ ، وَجَعَلَتِ الْمَعَانِيَ ذَاتَ حَنِينٍ يُبِينُ عَنْ نَفْسِهِ بِمَا يَحْمِلُ مِنْ أُوَارٍ ، وَمَا هَكَذَا كَانَ غَزَلُ الشَّاعِرِ عَلَىٰ كَثْرَتِهِ مِنْ قَبْلُ !.

وَأَجْمَلُ مَا يَرُوقُكَ مِنْ غَزَلِ هَذَا الْكَهْلِ الضَّارِعِ الْمُسْتَكِينِ ، أَنَّهُ يَحْسَبُ نَفْسَهُ قَوِيًّا كَالْأَمْسِ الدَّابِرِ ، ثُمَّ يُدْرِكُ حَقِيقَةَ ضَعْفِهِ ، فَيَقَعُ فِي حَيْرَةٍ مِنْ أَمْرِهِ ، وَقَدْ أَوْهَمَ نَفْسَهُ حِينَ تَخَيَّلَ أَنَّ الضَّعْفَ ضَعْفُ الْحَبِيبَةِ لَا ضَعْفُ الْحَبِيبِ ، وَهِيَ عِزَّةٌ مُتَخَيَّلَةٌ يُحِسُّهَا أَرْبَابُ الْقَصِيدِ إِذْ يَتَوَهَّمُونَ أَنَّهُمْ فَوْقَ النَّاسِ ، وَمِنْ حُسْنِ الْحَظِّ أَنَّ هَذَا التَّوَهُّمَ لَا يَدُومُ غَيْرَ لَحَظَاتٍ تُوحِي لِلشَّاعِرِ أَنْ يَنْظِمَ شَيْئًا يَسْتَعْلِي بِهِ ، ثُمَّ يُعَاوِدُهُ الْيَأْسُ الصَّارِمُ ، فَيَعْرِفُ أَنَّهُ كَانَ حَالِمًا ، هَكَذَا كَانَ مُحَرَّمٌ فِي مَقْطُوعَتِهِ الَّتِي ادَّعَىٰ فِيهَا قُوَّةً لَمْ تَعْهَدْهُ بِهَا قَبْلُ ، ثُمَّ رَأَىٰ ضَعْفًا مُمَاثِلًا لَدَىٰ صَاحِبَتِهِ كَانَ أَقْوَىٰ مِنْ قُوَّتِهِ ، فَاسْتَجَابَ لَهُ خَاشِعًا ، وَهَذَا مَا أَفْهَمُهُ مِنْ قَوْلِهِ[1]:

قُلْتُ: أَطْوِيهِ بِمَا فِي قُوَّتِي ... مِنْ أَعَاصِيرَ تَهُدُّ الْأَقْوِيَاءَ

فَطَوَانِي فِي ثَنَايَا ضَعْفِهِ ... فَإِذَا بِي أَتَرَامَىٰ كَيْفَ شَاءَ

فَتَمَاسَكْتُ وَعُدْتُ الْقَهْقَرَىٰ ... أَنْفُضُ الْعُجْبَ وَأُلْقِي الْكِبْرِيَاءَ

وَجَعَلْتُ الضَّعْفَ عَوْنِي فِي الْهَوَىٰ ... فَأَصَبْتُ الطِّبَّ مِنْهُ وَالدَّوَاءَ

(١) الدِّيوَان ج ٥، ص ٣١٢.

لَانَ مَنْ أَحْبَبْتُ فَازْدَدْنَا هَوًى وَتَمَادَىٰ الْحُبُّ فَازْدَدْنَا وَفَاءَ
سَلَكَ الدَّمْعُ إِلَىٰ آمَاقِهِ سُبُلًا كَانَتْ مِنَ الدَّمْعِ خَلَاءَ
قُوَّتِي ضَعْفٌ، وَضَعْفِي قُوَّةٌ فَاخْشَعِي يَا نَفْسُ أَوْ طِيرِي هَبَاءَ
يَسْقُطُ الصَّخْرُ، وَيَمْضِي صَعَدًا سَاقِطَ التُّرْبِ فَيَحْتَلُّ السَّمَاءَ
إِنَّمَا السُّلْطَانُ فِي الدُّنْيَا لِمَنْ يُعْجِزُ الْأَيَّامَ حَزْمًا وَدَهَاءَ

هَذِهِ الْقُوَّةُ الْمَوْهُومَةُ الَّتِي تَخَيَّلَهَا الشَّاعِرُ لَحَظَاتٍ، وَبَاهَىٰ بِهَا مُخْتَالًا، لَمْ يَسْتَطِعْ أَنْ يَعُودَ إِلَيْهَا فِي قَصِيدَةٍ أُخْرَىٰ؛ لِأَنَّ الْوَاقِعَ الْجَهْمَ قَدْ أَوْقَفَهُ عَلَىٰ حَقِيقَةِ أَمْرِهِ، فَتَرَقْرَقَ شِعْرُهُ دَامِعًا خَاشِعًا، وَظَهَرَ الشَّاعِرُ فِي وَضْعِهِ الطَّبِيعِيِّ حِينَ جَعَلَ يُوَاصِلُ أَنَّاتِهِ الضَّارِعَةَ، فَنَظَمَ قَصَائِدَ مُؤَثِّرَةً، يَطُولُ بِنَا الْقَوْلُ إِذَا أَخَذْنَا نَتَعَقَّبُهَا بِبَعْضِ التَّحْلِيلِ، وَلَكِنَّا نَكْتَفِي بِمِثَالٍ ضَارِعٍ بَاكٍ، يَتَجَلَّىٰ فِي قَوْلِهِ(١):

مِنْ هُمُومِي فِيكِ مَا جَرَّعَنِي وَجَعُ الْمَرْضَىٰ، وَذُلُّ الْبَائِسِينْ
رُحْتُ أَسْتَشْفِي فَمَا أَلْفَيْتُ لِي مِنْ دَوَاءٍ غَيْرَ تَرْدَادِ الْأَنِينْ
آهِ لَوْلَا الْحُبُّ يَا قَاتِلَتِي عِشْتُ فِي الْأَحْيَاءِ عَيْشَ النَّاعِمِينْ
إِنَّ عِنْدِي مِنْ أَحَادِيثِ الْهَوَىٰ رَوْعَةَ الدُّنْيَا وَشَجْوَ الْعَالَمِينْ
بَيْنَ عَيْنَيَّ وَمَا حَوْلَهُمَا صُحُفٌ مَنْشُورَةٌ لِلْقَارِئِينْ
يَعْطِفُ السَّطْرُ عَلَىٰ السَّطْرِ كَمَا يَعْطِفُ الْبَاكِي عَلَىٰ الْبَاكِي الْحَزِينْ
يَا قَتِيلَ الْغِيدِ، لَا تُخْفِ الْهَوَىٰ وَاحْتَسِبْ نَفْسَكَ بَيْنَ الْهَالِكِينْ
هَاتِ عَيْنَيْكَ وَخُضْهَا لُجَّةً غَرِقَتْ فِيهَا دُمُوعُ الْعَاشِقِينْ

(١) الدّيوان ج «٥» ص ٣١٠.

هِيَ كَالْكَوْثَرِ فِي حُرْمَتِهِ   مَوْرِدُ الرُّسْلِ، وَحَوْضُ الْمُتَّقِينْ
حَرَمُ الْعِفَّةِ أَوْ قُدْسُ الْهَوَىٰ   لَمْ تُدَنِّسْهُ ذُنُوبُ الْخَاطِئِينْ
ذَابَتِ الْأَنْفُسُ فِيهَا وَجَرَتْ   فِي عُبَابٍ مِنْ هُيَامٍ وَحَنِينْ

وَلَعَلِّي بَعْدَ هَذِهِ الْخَطَرَاتِ النَّقْدِيَّةِ أَحْفَظُ لِلشَّاعِرِ حَقَّهُ فِي التَّجْدِيدِ الْأَدَبِيِّ الْمُلْتَزِمِ! حِينَ يَكُونُ مِنْ مَعَانِي التَّجْدِيدِ انْفِسَاحُ الْخَوَاطِرِ، وَتَعَدُّدُ الْأَغْرَاضِ، دُونَ مَسَاسٍ بِالْعَمُودِ الشِّعْرِيِّ الْقَائِمِ عَلَىٰ رَكِيزَةٍ قَوِيَّةٍ مِنَ التُّرَاثِ التَّلِيدِ، وَلَا أَكْتُمُ الْقَارِئَ رَأْيًا قَدِ اعْتَقَدْتُهُ، وَبَسَطْتُ الْحَدِيثَ عَنْهُ فِي مَقَالٍ ضَافٍ قُلْتُ فِيهِ مَا فَحْوَاهُ: إِنَّ كَثِيرًا مِنَ الْكَاتِبِينَ يُقْرِنُونَ حَافِظًا بِشَوْقِيٍّ عِنْدَ الْحَدِيث عَنْ شُعَرَاءِ النَّهْضَةِ الْأَدَبِيَّةِ، وَكَانَ الْأَصْوَبُ أَنْ يُقْرَنَ مُحَرَّمٌ بِشَوْقِيٍّ، فَهُمَا مُتَقَارِبَانِ، وَإِنْ لَمْ يَتَسَاوَيَا، أَمَّا حَافِظٌ فَبَعِيدٌ عَنْهُمَا، وَلِكُلٍّ شَاعِرٍ طَاقَتُهُ الْفَنِّيَّةُ، وَحَسْبُهُ أَنْ عَبَّرَ عَنْ خَوَاطِرِهِ فِي صِدْقٍ وَإِخْلَاصٍ.

دِيبَاجَةُ أَحْمَدَ مُحَرَّمٍ

أَصْبَحَتِ الْجَزَالَةُ عَيْبًا شَائِنًا لَدَىٰ بَعْضِ مَنْ يَتَعَرَّضُونَ لِنَقْدِ الشِّعْرِ هَٰذِهِ الْأَيَّامَ ، فَهُمْ يَقْرَءُونَ الْقَصِيدَةَ الرَّصِينَةَ ذَاتَ الْخَوَاطِرِ الصَّادِقَةِ وَالتَّعْبِيرِ الْقَوِيِّ ثُمَّ يَشْفَعُونَ قِرَاءَتَهَا بِابْتِسَامَةٍ هَازِئَةٍ ، فَإِذَا سَأَلْتَهُمْ عَنْ عِلَّةِ ذَٰلِكَ قَالُوا : إِنَّهَا الْجَزَالَةُ ، فَإِذَا اسْتَزَدْتَهُمْ إِيضَاحًا صَاحُوا بِكَ : تَقْلِيدٌ وَتَرْدِيدٌ لِمِيرَاثٍ قَدِيمٍ ، وَهَكَذَا أَصْبَحَ كُلُّ قَصِيدٍ قَوِيِّ السَّبْكِ مَتِينِ الْأَسْرِ صَلْبِ الْعُودِ تَقْلِيدًا مُتَكَرِّرًا لِلْعُصُورِ الْبَعِيدَةِ فِي تَارِيخِ الْأَدَبِ ، مَهْمَا حَوَىٰ الْخَاطِرَ الصَّادِقَ وَكَشَفَ عَنِ الشُّعُورِ الصَّحِيحِ ، ثُمَّ تَرَاهُمْ لَا يَعْدَمُونَ بَعْدَ ذَٰلِكَ تَعْلِيلًا يُلَفِّقُونَهُ لِلنَّاسِ إِذْ يَزْعُمُونَ أَنَّ الْبَارُودِيَّ حِينَ رَجَعَ بِالشِّعْرِ إِلَىٰ دِيبَاجَتِهِ النَّاصِعَةِ فِي أَزْهَىٰ عُصُورِ الْأَدَبِ إِنَّمَا صَوَّبَ اهْتِمَامَهُ الْكَبِيرَ لِلشَّكْلِ دُونَ الْمَضْمُونِ ، ثُمَّ أَعْقَبَهُ تَلَامِيذُ طَرِيقَتِهِ مِنْ أَمْثَالِ شَوْقِيٍّ وَحَافِظٍ وَمُحَرَّمٍ وَالْجَارِمِ وَعَبْدِ الْمُطَّلِبِ فَنَهَجُوا نَهْجَهُ عَلَىٰ أَبْعَادٍ مُتَقَارِبَةٍ تَخْتَلِفُ فِي اللَّوْنِ لَا فِي النَّوْعِ ، إِذْ يَصْدُرُونَ جَمِيعًا عَنِ الْجَزَالَةِ الرَّصِينَةِ وَمَا هِيَ غَيْرُ اسْتِرْجَاعٍ لِمَا تَدَّخِرُ الْحَوَافِظُ مِنْ مَعَانٍ مُتَكَرِّرَةٍ فَقَدَتِ الْجَدِيدَ فِي أَكْثَرِ مَا تَقُولُ ، وَبَعْضُ سَامِعِي هَٰذَا الْكَلَامِ أَوْ قَارِئِيهِ يَقَعُ فِي حَيْرَةٍ مُضَلِّلَةٍ لِمَا يَجِدُ مِنْ تَعْلِيلَاتٍ تَأْخُذُ طَابَعَ النَّظَرِ

وَالِاسْتِدْلَالِ فِي الظَّاهِرِ، إِذْ يَهْجِمُ أَصْحَابُهَا عَلَىٰ التُّرَاثِ الْأَدَبِيِّ هُجُومًا مُغْرِضًا يَتَصَيَّدُ بَعْضَ الشَّوَاهِدِ مِنْ هُنَا وَهُنَاكَ لِتَدْعِيمِ قَضِيَّةٍ زَائِفَةٍ لَا تَرْتَكِزُ عَلَىٰ مَنْطِقٍ صَحِيحٍ، وَإِذَا كَانَتِ الشَّوَاهِدُ فِي كُلِّ تُرَاثٍ أَدَبِيٍّ مِنْ شَرْقٍ أَوْ غَرْبٍ مِمَّا تَضُمُّ الزَّائِفَ وَالصَّحِيحَ، فَإِنَّ هَؤُلَاءِ يَخْدَعُونَ الْكَثِيرِينَ حِينَ يَقْصِرُونَ اسْتِشْهَادَهُمْ عَلَىٰ الزَّائِفِ وَحْدَهُ، وَكَأَنَّهُ الطَّابِعُ الْمُمَيِّزُ لِمَدْرَسَةِ الْبَارُودِيِّ، وَلَهُمْ بَعْدَ ذَلِكَ أَنْ يَصُبُّوا سَخَطَهُمْ عَلَىٰ الْجَزَالَةِ فَهِيَ الدَّاءُ الْأَصِيلُ.

قَالَ لِي أَحَدُ هَؤُلَاءِ: إِنَّهُ يَشْعُرُ بِحُبٍّ صَادِقٍ لِلْأَدَبِ الْعَرَبِيِّ شِعْرِهِ وَنَثْرِهِ، وَإِنَّ هَذَا الْحُبَّ الصَّادِقَ هُوَ الَّذِي يَدْفَعُهُ إِلَىٰ تَحْرِيرِهِ مِمَّا يُسَمَّىٰ بِالرَّصَانَةِ وَالْجَزَالَةِ؛ لِأَنَّ الشُّعُورَ الصَّادِقَ الدَّقِيقَ لَا يُمْكِنُ أَنْ يَرْتَسِمَ فِي أَنْمَاطٍ مُتَوَارَثَةٍ يَرْتَبِطُ فِيهَا اللَّفْظُ بِأَخِيهِ ارْتِبَاطًا يَجْعَلُهُ صَاحِبَ الْمَقَامِ الْأَوَّلِ فِي الْأُسْلُوبِ، وَالْقَارِئُ الْمُعَاصِرُ يُرِيدُ مِنَ الشِّعْرِ إِحْسَاسًا وَنَبْضًا، لَا وَزْنًا وَإِيقَاعًا، وَجُلُّ أَنْصَارِ الْجَزَالَةِ لَا يَصْدُرُونَ عَنْ خَوَالِجِهِمُ الدَّقِيقَةِ، وَآيَةُ ذَلِكَ أَنَّ الْجَدِيدَ لَدَيْهِمْ مِنَ الشُّعُورِ يَخْتَنِقُ فِي زِحَامٍ مِنْ حَاشِدِ الرَّثِّ الْقَدِيمِ، ثُمَّ طَلَبَ مِنِّي نَاصِحًا مُوَجِّهًا أَنْ أُعَاوِدَ النَّظَرَ فِي حَيْدَةٍ وَتَجَرُّدٍ لِأَهْتَدِيَ إِلَىٰ الْحُكْمِ الصَّحِيحِ.

وَحِينَ رَجَعْتُ إِلَىٰ مَنْزِلِي وَجَدْتُ مِنْ نَفْسِي نَشَاطًا لِقِرَاءَةِ بَعْضِ الدَّوَاوِينِ الْجَزْلَةِ فَمَدَدْتُ يَدِي إِلَىٰ الْجُزْءِ الْأَوَّلِ مِنْ دِيوَانِ أَحْمَدَ مُحَرَّم، وَهُوَ شَاعِرٌ عُرِفَ بِالِاهْتِمَامِ كُلَّ الِاهْتِمَامِ بِنُصُوعِ الدِّيبَاجَةِ، وَقُوَّةِ الْجَزَالَةِ، وَقَدْ نُشِرَ الْجُزْءُ الْأَوَّلُ مِنْ شِعْرِهِ فِي الطَّبْعَةِ الْأُولَىٰ قَبْلَ أَنْ يَعْدُوَ الْخَامِسَةَ

وَالْعِشْرِينَ مِنْ عُمُرِهِ ، أَيْ وَهُوَ فِي مَرْحَلَةٍ مِنْ حَيَاتِهِ أَدْنَىٰ إِلَىٰ التَّقْلِيدِ مِنْهَا إِلَىٰ التَّجْدِيدِ ، فَاحْتِمَالُ التِّكْرَارِ الْمَزْعُومِ حِينَئِذٍ أَقْوَىٰ وَأَشَدُّ ! وَقَدْ قُلْتُ فِي خَاطِرِي : إِنَّ شَاعِرَ الْجَزَالَةِ هَذَا فِي يَافِعِ عُمُرِهِ الشِّعْرِيِّ لَنْ يَأْتِيَكَ بِجَدِيدٍ ، أَوْ هُوَ أَحْرَىٰ أَلَّا يَأْتِيَ بِالْجَدِيدِ إِذَا صَحَّ مَا يُرَدِّدُهُ خُصُومُ الدِّيبَاجَةِ النَّاصِعَةِ ، فَلْنَقْرَأْ بَعْضَ مَا قَالَ لِنَرَىٰ ذَلِكَ عَنْ عِيَانٍ ! وَلَمَّا كُنْتَ أَمِيلُ دَائِمًا - لِشَجًى أَعْهَدُهُ مِنْ نَفْسِي - إِلَىٰ قِرَاءَةِ شِعْرِ الرِّثَاءِ ، فَقَدِ اخْتَرْتُ رِثَاءَ مُحَرَّمٍ لِوَالِدَتِهِ الرَّاحِلَةِ وَطَفِقْتُ أَقْرَأُ ؛ فَمَاذَا قَرَأْتُ ؟.

لَقَدْ بَدَأَ الشَّاعِرُ الْمَفْجُوعُ ، فَتَحَدَّثَ بَعْدَ الْمَطْلَعِ الْجَزْلِ عَنْ وَقْعِ الْفَجِيعَةِ فِي نَفْسِهِ وَأُسْرَتِهِ ؛ فَقَالَ(1):

لَعَلَّكَ لَمْ تَشْهَدْ غَدَاةَ تَرَجَّحَتْ ... بِنَا الْأَرْضُ حَتَّىٰ أَوْشَكَتْ تَتَحَوَّلُ
وَسُدَّ عَلَيْنَا كُلُّ فَجٍّ فَمَا لَنَا ... عَنِ الْهَوَىٰ مَنْأًى أَوْ عَنِ الْخَطْبِ مُزْحَلُ
وَحَتَّىٰ ظَنَنَّا الْبَعْثَ قَدْ حُمَّ يَوْمُهُ ... وَحَانَ الَّذِي يَغْشَىٰ النُّفُوسَ فَتَذْهَلُ
غَدَاةَ وَقَفْنَا لِلْوَدَاعِ نُفِيضُهَا ... قُلُوبًا جَرَتْ مِنْ حَوْلِنَا تَتَسَيَّلُ

وَلَعَلَّكَ تَقُولُ : إِنَّ الرَّجُلَ يَتَحَدَّثُ عَنْ شُعُورٍ سَائِدٍ عَامٍّ ، فَكُلُّ مَفْجُوعٍ بِالْمَوْتِ يَتَصَوَّرُ أَنَّ الْأَرْضَ تَرَجَّحَتْ بِهِ ، وَأَنَّ الدُّنْيَا قَدْ سُدَّتْ فِي وَجْهِهِ وَأَنَّ الْقِيَامَةَ قَدْ قَامَتْ !.

وَلَكِنْ عَلَىٰ رِسْلِكَ وَتَأَمَّلْ مَعِي ، أَتُرِيدُ مِنَ الشَّاعِرِ أَنْ يُصَوِّرَ إِحْسَاسَهُ جَمِيعَهُ أَمْ تُرِيدُ مِنْهُ أَنْ يَتَصَيَّدَ الْمَعَانِيَ الْبَعِيدَةَ ؟ فَإِذَا أَرَدْتَ جَمِيعَ إِحْسَاسِهِ

(1) الديوان ج 2، ص 319.

فَهُنَاكَ اشْتِرَاكٌ عَامٌّ بَيْنَ جَمِيعِ الْمُصَابِينَ أَوْ بَيْنَ أَكْثَرِهِمْ فِي بَعْضِ الْأَحَاسِيسِ الْإِنْسَانِيَّةِ ، فَإِذَا انْدَفَعَ الشُّعَرَاءُ إِلَىٰ تَصْوِيرِ هَذَا الْحِسِّ الْمُشْتَرَكِ ، فَلَيْسَتِ الْجَزَالَةُ هُنَا تَقْلِيدًا ، وَلَكِنَّهَا قِيثَارَةٌ تُرْسِلُ لَحْنًا صَادِقًا يَعْزِفُ عَلَىٰ أَوْتَارِ الْقُلُوبِ مَهْمَا تَرَدَّدَ فِي الْأَسْمَاعِ . وَتِلْكَ مُلَاحَظَةٌ أُولَىٰ نَنْتَقِلُ مِنْهَا إِلَىٰ قَوْلِ الشَّاعِرِ الشَّابِّ نَاهِجًا نَهْجَ غَيْرِهِ مِنْ عُشَّاقِ الْحِكْمَةِ الشِّعْرِيَّةِ ذَاتِ الْمَثَلِ السَّائِرِ[1]:

أُحَاجِيكَ مَا قَدْرُ الْحَيَاةِ نُرِيدُهَا ... عَلَىٰ الْكُرْهِ مَا فِيهَا لَنَا مُتَعَلَّلُ
أَرَىٰ الْمَرْءَ فِي الدُّنْيَا كَمَرْوَةِ[2] قَارِعٍ ... تَشَقَّقُ مِنْ أَطْرَافِهَا وَتَحَلَّلُ
تُصَارِعُهُ فِيهَا الْخُطُوبُ ، وَإِنَّهُ ... لَمُسْتَسْلِمٌ يَوْمًا لَهَا فَمُجَنْدَلُ
يُحَاوِلُ أَسْبَابَ النَّجَاةِ وَدُونَهَا ... قَضَاءٌ بِإِفْنَاءِ النُّفُوسِ مُوَكَّلُ

سَتَضْرِبُ كَفًّا بِكَفٍّ وَتَقُولُ مُنْتَصِرًا : هَذَا هُوَ التَّقْلِيدُ بِعَيْنِهِ ، فَالصَّخْرَةُ الَّتِي تَشَقَّقُ مِنْ أَطْرَافِهَا وَتَحَلَّلُ مِمَّا اسْتَهْلَكَهُ النَّاسُ مُنْذُ أَبِي ذُؤَيْبٍ الْهُذَلِيِّ إِلَىٰ عَصْرِنَا هَذَا ، تَقُولُ ذَلِكَ وَتَنْسَىٰ أَنَّ الشَّاعِرَ يُمَهِّدُ بِهِ إِلَىٰ الْحَدِيثِ عَنْ عَوَاطِفِهِ الْخَاصَّةِ ، وَلَوْ أَنَّهُ سَاقَ هَذِهِ الْحِكَمَ السَّائِرَةَ وَسَكَتَ مَا كَانَ الشَّاعِرَ الْمُبْدِعَ الَّذِي نَخُصُّهُ بِالْحَدِيثِ ، وَلَكِنَّهُ يَنْتَقِلُ سَرِيعًا إِلَىٰ مَشَاعِرِهِ الذَّاتِيَّةِ فَيَتَسَاءَلُ كَيْفَ يُغَادِرُ الرَّاحِلَةَ الْعَزِيزَةَ بِفَلَاةٍ مُوحِشَةٍ تَزْدَحِمُ بِالْقُبُورِ وَقَدْ خَلَا جَانِبَاهَا مِنَ النُّضْرَةِ وَالْبَهَاءِ ، مَعَ أَنَّهَا لَوْ سَكَنَتْ رَوْضَةً يَانِعَةً مِنَ الرِّيَاضِ لَكَانَ الِابْنُ الْمَفْجُوعُ ضَنِينًا عَلَىٰ الرَّوْضَةِ الْغَنَّاءِ بِعَزِيزَتِهِ الْمُفَدَّاةِ ، تَأَمَّلْ صَدِيقِي

---

(١) السابق .
(٢) يقول أبو ذؤيب : حتّى كأني للحوادث مروة بصفا المشقر كلّ يوم تقرع

الطَّرافَةَ فِي هَذَا الْإِحْسَاسِ ، ثُمَّ يَتَسَاءَلُ كَيْفَ تَنْفَرِدُ الْأُمُّ بِمَكَانِهَا الْبَعِيدِ ، فَلَا يَسْمَعُ أَحِبَّاؤُهَا حَدِيثَهَا الشَّهِيَّ ، وَلَا يَتَمَلَّئُونَ بِرَّهَا السَّخِيَّ ، وَلَا يُطَالِعُونَ وَجْهَهَا السَّنِيَّ . إِنَّ ذَلِكَ مَا يَدْعُو إِلَىٰ الذُّهُولِ ذُهُولًا لَا يَنْفَعُ فِيهِ عَذْلٌ أَوْ مَلَامٌ ، بَلْ إِنَّ الْعَذْلَ لَيَنْقَلِبُ إِلَىٰ طَرَفِهِ الْآخَرِ حَيْثُ يَظُنُّ الِابْنُ الْمِسْكِينُ أَنَّهُ عَذْلٌ عَلَىٰ التَّصَبُّرِ وَالتَّجَلُّدِ ، لَا عَذْلٌ عَلَىٰ الْجَزَعِ وَالْهُلُوعِ ، اسْمَعْهُ يَقُولُ(١):

حَرَامٌ عَلَيْنَا أَنْ نُغَادِرَ قَبْرَهَا ... بِمُوحِشَةٍ فِيهَا الْمَقَابِرُ هُمَّلُ
وَلَوْ ضَمِنَتْهَا رَوْضَةٌ لَوَجَدْتَنِي ... أَضِنُّ بِهَا حَتَّىٰ عَلَيْهَا وَأَبْخَلُ
أَتُفْرَدُ فِيهَا لَا نُمَلَّأُ بِرَّهَا ... وَلَا يَزْدَهِينَا وَجْهُهَا الْمُتَهَلِّلُ
وَلَا نَسْمَعُ الْقَوْلَ الشَّهِيَّ تَقُولُهُ ... فَنَطْرَبُ مَا شَاءَ النَّعِيمُ وَنَجْذَلُ
كَأَنِّي ، وَقَدْ زَالَتْ وَغُيِّبَ آلَهَا ... أَخُو جِنَّةٍ مِمَّا أَقُولُ وَأَفْعَلُ
وَيَعْذِلُنِي صَحْبِي فَأَحْسَبُ أَنَّنِي ... لِإِمْسَاكِ نَفْسِي أَنْ تَصَدَّعَ أَعْذَلُ

أَقَرَأْتَ يَا أَخِي هَذَا الشِّعْرَ الْحَيَّ فَمَا عَسَىٰ أَنْ تَقُولَ فِيهِ ؟ ثُمَّ تَعَالَ مَعِي نَسْتَعْرِضُ هَذَا الْمَشْهَدَ الْبَاكِيَ الَّذِي رَسَمَهُ مُحَرَّمٌ لِطِفْلِهَا الصَّغِيرِ وَقَدِ انْطَلَقَ يُرِيدُهَا مُقَلِّبًا عَيْنَيْهِ حَائِرًا دَهِشًا ، وَكَأَنَّهُ يَلْتَاعُ لِلدَّارِ الْمُوحِشَةِ حِينَ أَقْفَرَتْ مِنْ وَجْهِهَا ، إِنَّهُ يَنْظُرُ فَيَرَىٰ أُخْتَهُ الْكَبِيرَةَ تَشُقُّ ثِيَابَهَا صَارِخَةً نَاحِبَةً ، ثُمَّ تُقْبِلُ عَلَيْهِ لَائِمَةً تُحَدِّثُهُ فِي انْفِعَالٍ مُرٍّ ، وَالطِّفْلُ لَا يَعِي مَاذَا تَصْنَعُ وَتَأْتِي إِلَّا أَنَّهُ يَسْتَشْعِرُ حُزْنًا لَا يَدْرِي حَقِيقَتَهُ عَلَىٰ حِينِ قَدْ دَرَاهُ الشَّاعِرُ وَوَعَاهُ . لَنْ يُجْدِيَ هَذَا التَّلْخِيصُ الْمَبْتُورُ شَيْئًا أَمَامَ قَوْلِ الشَّاعِرِ(٢):

(١) الدِّيوان ج «٢» ص ٣٢٠.
(٢) السّابق.

وَمَا هَاجَنِي إِلَّا ابْنُ خَمْسٍ يُرِيدُهَا   وَقَدْ غَالَهَا مَا غَالَ فَالدَّمْعُ مُرْسَلُ
يُقَلِّبُ عَيْنَيْهِ وَيَسْأَلُ مَا لَهُ   يَرَىٰ الرَّبْعَ مِنْهَا وَهْوَ قَفْرٌ مُعَطَّلُ
وَمَا بَالُ مَنْ قَامَتْ تَشُقُّ إِزَارَهَا   وَتَنْحَبُ لَا تَأْلُو وَلَا تَتَحَمَّلُ؟
وَتَذْكُرُهُ فِعْلَ الْحَفِيِّ وَتَنْتَحِي   تُكَلِّمُهُ حِينًا وَحِينًا تُقَبِّلُ
خَرَجْتُ بِهِ أَلْهُوهُ عَنْهَا، وَإِنَّهُ   لَيَأْبَىٰ فَمَا يَلْهُو، وَلَا هُوَ يُغْفِلُ
كِلَانَا سَوَاءٌ فِي التَّفَجُّعِ وَالْأَسَىٰ   وَلَكِنَّنِي أَدْرِي الْمُصَابَ وَيَجْهَلُ

هَذَا هُوَ الصَّغِيرُ. أَمَّا مَنْ فَوْقَهُ مِمَّنْ دَرَىٰ حَقِيقَةَ الْمُصَابِ، فَقَدْ أَخَذَ يُعَاجِلُهَا التَّوْدِيعَ، وَلَكِنَّ الْمَوْتَ كَانَ أَعْجَلَ مِنْهُ فَاخْتَطَفَهَا غَيْرَ عَابِيءٍ بِوَدَاعِهِ، وَلَا مُكْتَرِثٍ بِلَهْفَتِهِ، حِينَ أَبْصَرَ عَيْنَيْهَا يَغِيضُ سَنَاهُمَا وَسَمِعَ حَشْرَجَةَ رُوحِهَا تَعْلُو وَتَسْفُلُ فِي حَلْقِهَا، ثُمَّ رَاعَهُ أَنْ تَسْكُتَ فَجْأَةً، فَهَوَىٰ صَارِخًا يَبْكِي بَيْنَ النَّوَادِبِ وَيَنُوحُ[1]:

وَآخَرُ لَمْ يَمْلِكْ مِنَ الْحُزْنِ نَفْسَهُ   يُعَاجِلُهَا التَّوْدِيعَ وَالْمَوْتُ أَعْجَلُ
دَعَاهَا وَعَيْنَاهَا يَغِيضُ سَنَاهُمَا   وَقَدْ حَشْرَجَتْ فَالرُّوحُ تَعْلُو وَتَسْفُلُ
فَلَمَّا رَأَىٰ أَنْفَاسَهَا قَدْ تَصَرَّمَتْ   هَوَىٰ صَارِخًا بَيْنَ النَّوَادِبِ يَثْكِلُ

وَقَدْ تَكُونُ الصُّورَةُ مُوجَزَةً إِذَا قُورِنَتْ بِصُورَةِ الطِّفْلِ، وَلَكِنَّهُ الْإِيجَازُ الْمُوحِي الْمَلِيءُ بِشَتَّىٰ الِانْفِعَالَاتِ، الْحَافِلُ بِمُخْتَلَفِ الْأَحَاسِيسِ، إِيجَازٌ لَا يَتْرُكُ قَارِئَهُ دُونَ أَنْ يُفَجِّرَ فِي نَفْسِهِ مِنْ ضُرُوبِ الشَّجَىٰ وَأَلْوَانِ التَّأَثُّرِ مَا يَجْعَلُهُ يَسْتَعْرِضُ الْأَبْيَاتَ الثَّلَاثَةَ، وَكَأَنَّهُ يَسْتَعْرِضُ صَفَحَاتٍ هَائِجَةٍ تَمُورُ

(١) الدّيوان ج ٢، ص ٣٢١.

وَتَصْخَبُ ! وَقَدْ كَانَ مُحَرَّمٌ دَقِيقًا لَبِقًا ، حِينَ تَحَدَّثَ عَنْ وَالِدِهِ فَقَالَ[1] :

وَأَشْيَبَ صَافَاهَا وَصَافَتْهُ حِقْبَةً   وَلِلْحُبِّ فِي قَلْبَيْهِمَا مُتَغَلْغَلُ
يُقَاسِمُهَا نُعْمَىٰ الْحَيَاةِ وَبُؤْسَهَا   وَتَنْهَضُ بِالْعِبْءِ الَّذِي هُوَ أَثْقَلُ
يُنَاشِدُهَا الرُّجْعَىٰ غَدَاةَ تَحَمَّلَتْ   لِطَيَّتِهَا ، وَالْقَلْبُ بِالْوَجْدِ مُشْعَلُ

أَجَلْ .. كَانَ الشَّاعِرُ دَقِيقًا حِينَ أَوْجَزَ حَدِيثَ وَالِدِهِ الْأَشْيَبِ ، فَأَلَمَّ إِلْمَامَةَ الطَّائِرِ بِحُبِّهِ الْمُتَغَلْغِلِ فِي أَعْمَاقِهِ وَنُهُوضِهِ بِعِبْءِ الْعَيْشِ وَإِنَّهُ لَثَقِيلٌ ، ثُمَّ مُنَاشَدَتِهِ إِيَّاهَا الرُّجْعَىٰ . أَلَا تَرَىٰ أَنَّ مُحَرَّمًا قَدْ أَحْسَنَ الرَّزَانَةَ وَالتَّعَقُّلَ فِي هَذِهِ الْمُنَاشَدَةِ كَمَا أَحْسَنَ تَصْوِيرَ الْهَلَعِ وَالْفَزَعِ فِي الْبِنْتِ الصَّارِخَةِ الْمِجْزَاعِ ؟ مُعَبِّرًا عَنْ كُلِّ مَوْقِفٍ بِمَا يَقْتَضِيهِ ، وَتِلْكَ هِيَ الْحَاسَّةُ الدَّقِيقَةُ الَّتِي تُحَبِّبُ لَنَا الْكِبَارَ مِنَ الشُّعَرَاءِ ، وَقَدْ عَادَ الشَّاعِرُ إِلَىٰ نَفْسِهِ فَصَوَّرَ عَوَاطِفَهُ الْمُلْتَاعَةَ حِينَ سَارَ بِهَا الْمَوْكِبُ إِلَىٰ آخِرِ مَثْوًى ؛ فَقَالَ[2] :

أَأُمَّاهُ هَلْ تَدْرِينَ مَا صَنَعَ الْأَسَىٰ   بِنَفْسٍ عَنَاهَا الْخَطْبُ فَهْيَ تَمَلْمَلُ
وَهَلْ أَبْصَرَتْ عَيْنَاكِ أَيَّةَ عَبْرَةٍ   شَرَقْتُ بِهَا وَالنَّعْشُ خَلْفِيَ يُحْمَلُ
تَسِيرُ الْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينُ حَوْلَهُ   فَمِنْ هَالِكٍ يَبْكِي وَآخَرَ يُعْوِلُ
سَخَوْا بِالدُّمُوعِ الْغُزْرِ يَنْهَلُّ صَوْبُهَا   سَخَاءَكِ بِالْعُرْفِ الَّذِي كَانَ يُبْذَلُ
فَإِنْ يَكُ مَا أَثْنَتْ عَلَيْكِ دُمُوعُهُمْ   جَزِيلًا فَمَا أَسْدَتْ يَمِينُكِ أَجْزَلُ

وَقَدْ يَقُولُ قَائِلٌ : إِنَّ هَذَا مِمَّا يُقَالُ فِي كُلِّ مَشْهَدِ تَشْيِيعٍ ، وَأَنَا أَرُدُّ عَلَىٰ ذَلِكَ بِأَنَّهُ يُقَالُ فِي كُلِّ مَشْهَدِ تَشْيِيعٍ ؛ لِأَنَّهُ شُعُورٌ مُشْتَرَكٌ عَامٌّ لَا تَكْرَارَ

(١) الديوان ج «٢» ص ٣٢١.   (٢) السابق.

يُلْقَىٰ بِهِ دُونَ قَصْدٍ ، وَالْقَارِئُ يَسْتَعْرِضُ نَفْسَهُ حِينَ يَقْرَأُ غَيْرَهُ ، فَيَطْرَبُ لَهُ كُلَّ الطَّرَبِ ، إِذْ يَجِدُ مَا يُعَبِّرُ عَنْ شُعُورِهِ فِي بَعْضِ الْمَوَاقِفِ سَارَّةً كَانَتْ أَمْ حَزِينَةً ، وَذَلِكَ يَرْتَفِعُ بِالشِّعْرِ وَلَا يَنْخَفِضُ بِهِ مَا دَامَ يَحْمِلُ مِنَ التَّأْثِيرِ قُوَّةً تَنْتَقِلُ كَهْرُبَاؤُهَا قَوِيَّةً مِنْ نَفْسٍ إِلَىٰ نَفْسٍ سَرِيعَةٍ دُونَ إِمْهَالٍ .

عَلَىٰ أَنَّ الْمَشْهَدَ لَمْ يَنْتَهِ عِنْدَ هَذَا الْحَدِيثِ الْمُتَدَاوَلِ ، بَلْ تَطَرَّقَ الشَّاعِرُ إِلَىٰ إِحْسَاسٍ خَاصٍّ تَفَرَّدَ بِهِ تَفَرُّدًا هُوَ فِيهِ السَّابِقُ الْمُبَرِّزُ ، إِذْ ذَكَرَ أَنَّ الْأَمْوَاتَ قَدْ فَرِحُوا كَثِيرًا بِمَقْدِمِ هَذِهِ الزَّائِرَةِ الْجَدِيدَةِ ، فَخَفُّوا لِاسْتِقْبَالِهَا مُرَحِّبِينَ مُهَلِّلِينَ ، إِذْ كَانَتْ رَحْمَةً مِنَ اللَّهِ تُؤْنِسُهُمْ فِي مَضَاجِعِهِمُ الْمُوحِشَةِ ، وَإِذَا كَانَ الْحَيُّ مِنْهَا مَحْرُومًا عَلَىٰ أَرْضِهِ فَقَدْ سَعِدَ الْمَيِّتُ فِي بَاطِنِهَا بِمَا عَزَّ عَلَىٰ سِوَاهُ أَنْ يَنَالَ ، هَذَا إِحْسَاسٌ طَرِيفٌ بَادَهَنَا بِهِ الشَّاعِرُ حِينَ قَالَ(١):

لَقَدْ عَلِمَ الْمَوْتَىٰ ثُوَاءَكِ بَيْنَهُمْ   وَأَنَّكِ فِيهِمْ رَحْمَةُ اللَّهِ تُشْمَلُ
فَبَاتَ لَهُمْ مِنْ حَوْلِ قَبْرِكِ ضَجَّةٌ   كَمَا ضَجَّ مِنْ عَالٍ أَجَشُّ مُجَلْجِلُ
فَمَا أَعْجَبَ الْأَقْسَامَ يُرْزَقُ مَيِّتٌ   وَيُحْرَمُ حَيٌّ حَبْلُهُ بِكِ يُوصَلُ

وَقَدْ فَطِنَ الْقَارِئُ لَا مَحَالَةَ إِلَىٰ أَنَّنَا نَقْصِدُ بِالطَّرِيفِ فِي الْقَصِيدَةِ ، الطَّرِيفَ مِنَ الشُّعُورِ الْحَيِّ وَالْإِحْسَاسِ الصَّادِقِ ، أَمَّا مَا يُوحِي بِهِ التَّكَلُّفُ الذِّهْنِيُّ وَالِاصْطِيَادُ الْعَقْلِيُّ مِنْ طَرَافَةٍ خَادِعَةٍ . فَلَنْ تُفْلِحَ كَثِيرًا فِي اسْتِثَارَةِ الْمَشَاعِرِ لَدَىٰ الْقَارِئِ ، وَمَا هِيَ فِي مَجَالِ الشِّعْرِ غَيْرُ بَرْقٍ خُلَّبٍ وَسَرَابٍ لَا يَنْقَعُ ، وَقَدْ أَجَادَ الشَّاعِرُ الْحَدِيثَ عَنْ نَفْسِهِ إِذْ يَقُولُ(٢):

أَكُنْتُ سِوَىٰ الدُّنْيَا فَوَلَّىٰ نَعِيمُهَا   وَقَدْ كُنْتُ فِي أَفْنَائِهَا أَتَنَقَّلُ

(١) الدّيوان ج ٤٢٥ ص ٣٢٢.   (٢) السّابق.

لِأُقْبِلَ مِمَّا كُنْتُ أَحْذَرُ مُدْبِرٌ   وَأُدْبِرَ مِمَّا كُنْتُ آمُلُ مُقْبِلُ
وَلَوْ صَدَقَ الظَّنُّ الْتَقَيْنَا فَسَرَّنَا   تَجَدُّدُ عَهْدٍ شَاقَنَا مِنْهُ أَوَّلُ
إِذِ الدَّهْرُ سِلْمٌ لَا يَهُمُّ بِفَاجِعٍ   وَإِذْ نَحْنُ لَا نَنْأَىٰ وَلَا نَتَزَيَّلُ
فُجِعْنَا بِهَا كَالشَّمْسِ سَالَ شُعَاعُهَا   بِفَيْضِ الْهُدَىٰ وَالْخَيْرِ أَوْ هِيَ أَفْضَلُ
لَئِنْ جَنَّهَا بَيْتٌ مِنَ التُّرْبِ مُوصَدٌ   لَقَدْ جَنَّنَا لَيْلٌ مِنَ الْحُزْنِ أَلْيَلُ

أَصْدِقَائِي خُصُومَ الْجَزَالَةِ :

هَذِهِ قَصِيدَةُ شَاعِرٍ جَزْلٍ قَالَهَا فِي دَوْرِ التَّقْلِيدِ ، وَلَمْ تَمْنَعْهُ الْجَزَالَةُ الرَّصِينَةُ فِي فَتْرَةِ الْمُحَاكَاةِ الْأُولَىٰ أَنْ يُصَوِّرَ إِحْسَاسَهُ الصَّادِقَ وَشُعُورَهُ الْمُتَّقِدَ ، وَقَدْ تَجِدُونَ فِي بَعْضِ الْمُقَابَلَاتِ بَيْنَ إِقْبَالِ الْمَحْذُورِ وَإِدْبَارِ الْمَأْمُولِ ، وَبَيْنَ الْبَيْتِ الْمُوصَدِ وَاللَّيْلِ الْأَلْيَلِ مَا تَعُدُّونَهُ تَرْدِيدًا ، وَلَكِنْ أَلَمْ يُفْصِحِ الرَّجُلُ عَنْ نَفْسِهِ إِفْصَاحًا مُبِينًا فَنَقَلَ عَنْ خَاطِرٍ مَفْجُوعٍ وَفُؤَادٍ حَزِينٍ مَا لَا يَسْتَطِيعُ كَثِيرٌ مِنْ أَصْحَابِ التَّهْوِيمِ وَالرَّمْزِ أَنْ يَبْلُغُوهُ وَهُمْ عَنْهُ بَعِيدُونَ ؟.

أَرَىٰ أَنَّهُ أَفْصَحَ ؛ فَحَالَفَهُ التَّوْفِيقُ .

وُجُودِي (١)

وُجُودِي ، لَسْتَ لِي ، فَلِمَنْ تَكُونُ ؟   أَسِرٌّ أَنْتَ عَنْ نَفْسِي مَصُونُ ؟
يُصِيبُ حَقَائِقَ الْأَشْيَاءِ عِلْمِي   وَتَعْصِفُ بِي حَوَالَيْكَ الظُّنُونُ
أَمِنْ نَفْسِي عَلَىٰ نَفْسِي غِطَاءٌ ؟   فَكَيْفَ أَنَا ؟ أَشَكٌّ أَمْ يَقِينُ ؟

☆ ☆ ☆

وُجُودِي ، مَا عَرَفْتُكَ غَيْرَ مَعْنًى   تَغَلْغَلَ فِي الْخَفَاءِ ، فَمَا يَبِينُ
غَرِيقٌ فِي الظَّلَامِ ، وَلَا مَنَاصٌ   وَلَا جِسْرٌ يُلَاذُ بِهِ أَمِينُ
أُقِيمَ عَلَيْهِ سُورٌ مِنْ عُبَابٍ   تَضِلُّ عَلَىٰ جَوَانِبِهِ السَّفِينُ
أُطِلُّ ، وَيَضْرِبُ التَّيَّارُ وَجْهِي   فَأَيْنَ أَنَا ؟ أَحُرٌّ أَمْ سَجِينُ ؟

☆ ☆ ☆

وُجُودِي ، أَيْنَ أَنْتَ ؟ أَلَا سَبِيلٌ   إِلَيْكَ ، فَيَهْدَأُ الْعَانِي الْحَزِينُ ؟
وَمَنْ أَنَا فِي بَنِي الدُّنْيَا ؟ وَمَا لِي   وَلِلدُّنْيَا ؟ وَمَا وَعَتِ الْقُرُونُ ؟
أَتَشْغَلُنِي الْحَيَاةُ بِكُلِّ حَيٍّ   وَتُولِعُنِي بِمَنْ طَوَتِ الْمَنُونُ

(١) الدّيوان ج «٣» ص ٣٩٥.

أُرِيدُ هَوَادَةً، وَتَثُورُ حَوْلِي   هُمُومٌ، مَا لِعَاصِفِهَا سُكُونُ
وَتَسْلُبُنِي خُطُوبُ الدَّهْرِ نَفْسِي   فَمَا خَطْبِي؟ أَحَيٌّ أَمْ دَفِينُ؟

☆ ☆ ☆

وُجُودِي، مَا وَجَدْتُكَ غَيْرَ خَصْمٍ   تَلِينُ قُوَى الْخُصُومِ، وَلَا يَلِينُ
قَرِينُ مَضَرَّةٍ لَا بُدَّ مِنْهُ   إِذَا رَابَنِي، فَمَضَى الْقَرِينُ
تُطِيلُ عَدَاوَتِي، وَأَنَا الْمُعَادِي   وَتَهْدِمُ قُوَّتِي، وَأَنَا الْمُعِينُ
أُرِيدُ الصَّمْتَ أَسْتَبْقِيكَ جُهْدِي   وَتُنْطِقُنِي الْحَوَادِثُ وَالشُّئُونُ
وَمَا لِي أَرْقُبُ الْعُقْبَى فَأَشْقَى؟   وَمَا الْعُقْبَى؟ أَجِدٌّ أَمْ مُجُونُ؟

☆ ☆ ☆

وُجُودِي، مَا الْوُجُودُ، وَمَا وَرَائِي؟   إِذَا عَدَتِ النَّوَى، وَمَضَى الرَّهِينُ؟
رَأَيْتُ الْمَرْءَ لَا يُغْنِيهِ عَقْلٌ   وَلَا يَهْدِيهِ فِي الْأَحْيَاءِ دِينُ
سَأَلْتُ الْعِلْمَ كُلَّ فَتًى عَلِيمٍ   فَلَا سَمْحٌ أَفَادَ، وَلَا ضَنِينُ
وَمَا تُغْنِي الشُّرُوحُ، وَإِنْ تَنَاهَتْ   إِذَا اسْتَعْصَتْ عَلَى الْعَقْلِ الْمُتُونُ
وَمَا الْعُقَلَاءُ إِلَّا فِي ضَلَالٍ   إِذَا اسْتَوْلَى عَلَى الدُّنْيَا الْجُنُونُ

☆ ☆ ☆

دِيَارَ الشَّوْقِ، هَلْ بِكِ مِنْ قَطِينٍ؟   دَعِينِي؟ مَا الدِّيَارُ، وَمَا الْقَطِينُ؟
ظَمِئْتُ، وَفِي فَمِي الْأَدَبُ الْمُصَفَّى   وَضِعْتُ، وَفِي يَدِي الْكَنْزُ الثَّمِينُ
ظَلَمْتُ أَبِي وَنَفْسِي إِنَّ مِثْلِي   لَغَالٍ فِي النَّوَابِغِ لَا يَهُونُ
كَرِيمٌ تَدْفَعُ الْأَخْلَاقُ عَنْهُ   وَيَمْنَعُ رُكْنَهُ الْأَدَبُ الْحَصِينُ

أَقُولُ فَيُفْزِعُ الشُّعَرَاءَ صَوْتِي   وَمَا أَنَا فِي بَنِي وَطَنِي ظَنِينُ

لِرَبِّي مَا عَمِلْتُ وَعِنْدَ قَوْمِي   دُيُونِي، حِينَ تُلْتَمَسُ الدُّيُونُ

أَمِنْ أَدَبِي تَبِيتُ الطَّيْرُ تَبْكِي؟   فَمَا أَدَبِي؟ أَشَدْوٌ أَمْ رَنِينُ؟

☆ ☆ ☆

وُجُودِي، أَيْنَ كُنْتَ، وَلَيْتَ شِعْرِي   عَلَىٰ طُولِ الْمُقَامِ، مَتَىٰ تَبِينُ؟

لَئِنْ أَعْجَبْتَنِي فَرَضِيتُ حِينًا   لِذَلِكَ مَا جَنَىٰ الرَّأْيُ الْغَبِينُ؟

كَبُرْتُ، وَمَا عَرَفْتُ مَكَانَ نَفْسِي   فَمَا أَدْرِي أَشَيْخٌ أَمْ جَنِينُ؟

☆ ☆ ☆

وُجُودِي، حَانَ مَوْعِدُ كُلِّ صَادٍ   وَأَبْطَأَ مَوْعِدِي، فَمَتَىٰ يَحِينُ؟

نَهَانِي عَنْ حَيَاةِ السُّوءِ عِلْمِي   بِمَا يَصِمُ الرِّجَالَ، وَمَا يَزِينُ

أَشُدُّ عَلَىٰ الْفُنُونِ يَدِي، وَإِنِّي   لَفِي زَمَنٍ جَهَالَتُهُ فُنُونُ

يَصُونُ الْحُرُّ مُهْجَتَهُ فَيَبْقَىٰ   وَيُهْلِكُ نَفْسَهُ الضَّرِعُ الْمَهِينُ

رَأَيْتُ الْعِزَّ أَجْمَعَ فِي يَرَاعٍ   يَصُونُ جَلَالَهُ خُلُقٌ مَتِينُ

وَمَا يَبْقَىٰ الْهِزَبْرُ بِغَيْرِ نَابٍ   وَلَوْ أَنَّ السَّحَابَ لَهُ عَرِينُ

☆ ☆ ☆

سَلِ «الْهَرَمَ» الْمُخَلَّدَ بَعْدَ «خُوفُو»   أَيَضْرَعُ لِلْخُطُوبِ وَيَسْتَكِينُ؟

خَصِيمُ الدَّهْرِ تَسْتَعْصِي ذُرَاهُ   عَلَىٰ مَا كَانَ مِنْهُ وَمَا يَكُونُ

يُزَلْزِلُ رَاجِفَ الْأَحْدَاثِ مِنْهُ   وَقُودٌ فِي زَلَازِلِهَا رَزِينُ

فَتَىٰ الدَّوْلَاتِ، يُلْهِمُهَا هُدَاهَا   وَيُوقِظُهَا إِذَا غَفَتِ الْعُيُونُ

وَيَنْهَىٰ الْـمَالِكِينَ، فَلَا غُرُورٌ   إِذَا قَهَرُوا الشُّعُوبَ، وَلَا فُتُونُ
نَصِيحٌ لَا يَغُشُّ، وَلَا يُدَاجِي   وَقَاضٍ لَا يَضِلُّ، وَلَا يَخُونُ
زَهَا نَبْتُ الْـمَمَالِكِ فِي ثَرَاهُ   وَطَاحَ عَلَىٰ جَوَانِبِهِ الدَّرِينُ[1]
مُشَيِّعُ نَعْشِهَا، إِنْ كَانَ مَوْتٌ   وَإِنْ يَكُ مَوْلِدٌ فَهْوَ الشَّبِينُ[2]
ثَوَى دَارَتْ عَلَيْهِ رَحَىٰ اللَّيَالِي   فَمَا وَقَفَتْ، وَلَا انْقَطَعَ الطَّحِينُ
حِمَىٰ «فِرْعَوْنَ» دُمِّرَ كُلُّ عَالٍ   وَهِيبَ بِنَاؤُهُ الْعَالِي الْـمَكِينُ
أَمِئْذَنَةُ الْـخُلُودِ يُطِلُّ مِنْهَا   عَلَىٰ الدُّنْيَا إِذَا نَزَلَ الْأَذِينُ؟
تَـمُرُّ بِهِ الْعُصُورُ، فَمُسْتَسِرٌّ   يُحَاذِرُ أَنْ يَرَاهُ مُسْتَبِينُ
بِنَاءُ الْعَبْقَرِيَّةِ فِي صِبَاهَا   بَنَاهُ شَبَابُهَا اللَّبِقُ الْفَطِنُ
تَدِينُ لَهُ الصَّوَاعِقُ، وَهْوَ رَاسٍ   بِمُصْطَدَمِ الصَّوَاعِقِ لَا يَدِينُ
تَشَكَّتْ طُولَ صُحْبَتِهِ اللَّيَالِي   وَمَلَّ جِوَارَهُ الرَّصَدُ الْكَمِينُ

☆ ☆ ☆

وُجُودِي، أَنْتَ لِي، وَلِكُلِّ حُرٍّ   خَدِينُ جَلَالَةٍ، نِعْمَ الْـخَدِينُ
حَنِينٌ مَا رَأَيْتَ، وَلَا خُلُودٌ   خُلُودٌ مَا بَنَيْتَ، وَلَا حَنِينُ
إِذَا عَزَّ السَّبِيلُ عَلَىٰ أُنَاسٍ   فَأَنْتَ إِمَامُهُمْ، وَأَنَا الضَّمِينُ

أَحْمَدُ مُحَرَّم

(١) الدّرين: مَا اسود وَقدم من النّبات.
(٢) الشّبين: من يقوم بخدمة الْعَرِيس فِي الْعرس، وَالْأَمر متقارب.

الفهرس

تَعْرِيفٌ بِالْمُؤَلِّفِ

وُلِدَ الدُّكْتُورُ مُحَمَّدُ رَجَبِ الْبَيُّومِيِّ فِي أُكْتُوبَرْ سَنَةَ ١٩٢٣م ، بِقَرْيَةِ « الْكَفْرِ الْجَدِيدِ » مَرْكَزِ الْمَنْزَلَةِ مُحَافَظَةِ الدَّقَهْلِيَّةِ . تَلَقَّىٰ تَعْلِيمَهُ الِابْتِدَائِيَّ وَالثَّانَوِيَّ بِمَعْهَدِ الزَّقَازِيقِ الدِّينِيِّ ثُمَّ انْتَقَلَ إِلَىٰ الْقَاهِرَةِ طَالِبًا بِكُلِّيَّةِ اللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ ، وَحَصَلَ مِنْهَا عَلَىٰ دَرَجَةِ اللِّيسَانْسِ سَنَةَ ١٩٤٩م . ثُمَّ وَاصَلَ دِرَاسَاتِهِ الْعُلْيَا ، حَتَّىٰ حَصَلَ عَلَىٰ الدُّكْتُورَاه مِنْ كُلِّيَّةِ اللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ بِمَرْتَبَةِ الشَّرَفِ الْأُولَىٰ .

عَمِلَ مُدَرِّسًا ثُمَّ أُسْتَاذًا ، فَعَمِيدًا لِكُلِّيَّةِ اللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ بِالْمَنْصُورَةِ ، وَكَانَ مُقَرِّرًا لِلَجْنَةِ الْبَلَاغَةِ ، وَعُضْوًا بِلَجْنَةِ الْأَدَبِ وَالنَّقْدِ لِتَرْقِيَةِ الْأَسَاتِذَةِ بِجَامِعَةِ الْأَزْهَرِ .

كَمَا عَمِلَ أُسْتَاذًا بِالْجَامِعَاتِ الْعَرَبِيَّةِ عِدَّةَ سَنَوَاتٍ ، وَاشْتَرَكَ فِي مُؤْتَمَرَاتٍ عِلْمِيَّةٍ فِي عَوَاصِمَ مُخْتَلِفَةٍ بِالدُّوَلِ الْعَرَبِيَّةِ . وَأَشْرَفَ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِنَ الرَّسَائِلِ الْجَامِعِيَّةِ ، وَشَارَكَ فِي مُنَاقَشَةِ كَثِيرٍ مِنْهَا . وَيَعْمَلُ الْآنَ رَئِيسًا لِتَحْرِيرِ مَجَلَّةِ الْأَزْهَرِ ، وَعُضْوًا بِمَجْمَعِ الْبُحُوثِ الْإِسْلَامِيَّةِ .

وَقَدْ نَالَ الْأُسْتَاذُ الدُّكْتُورُ مُحَمَّدُ رَجَبِ الْبَيُّومِيُّ جَوَائِزَ أَدَبِيَّةً عَدِيدَةً مِنْهَا :

- جَائِزَةُ وَزَارَةِ التَّرْبِيَةِ وَالتَّعْلِيمِ سَنَةَ ١٩٥٨م ، عَنِ الْمَسْرَحِيَّةِ الشِّعْرِيَّةِ [**مَلِكُ غَسَّانَ**] .
- جَائِزَةُ شَوْقِيٍّ بِالْمَجْلِسِ الْأَعْلَىٰ لِلْفُنُونِ وَالْآدَابِ بِمِصْرَ سَنَةَ ١٩٦١م ، عَنِ الْمَسْرَحِيَّةِ الشِّعْرِيَّةِ [**انْتِصَارُ**] .
- الْجَائِزَةُ الْأُولَىٰ بِمَجْمَعِ اللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ بِالْقَاهِرَةِ ، عَنِ الْمَسْرَحِيَّةِ الشِّعْرِيَّةِ [**فَوْقَ الْأُبُوَّةِ**] سَنَةَ ١٩٦٢م .
- جَائِزَةُ مَجْمَعِ اللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ بِالْقَاهِرَةِ سَنَةَ ١٩٦٣م ، عَنْ دِيوَانِهِ الشِّعْرِيِّ [**صَدَىٰ الْأَيَّامِ**] .
- الْجَائِزَةُ الْأُولَىٰ بِمَجْمَعِ اللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ بِالْقَاهِرَةِ سَنَةَ ١٩٦٤م ، فِي الدِّرَاسَاتِ الْأَدَبِيَّةِ عَنْ كِتَابِهِ [**الْأَدَبُ الْأَنْدَلُسِيُّ بَيْنَ التَّأَثُّرِ وَالتَّأْثِيرِ**] .
- جَائِزَةُ مَجْمَعِ اللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ بِالْقَاهِرَةِ سَنَةَ ١٩٦٥م ، فِي التَّرَاجِمِ الْأَدَبِيَّةِ عَنْ حَيَاةِ [**مُحَمَّدِ**

تَوْفِيقِ الْبَكْرِيِّ] .

● جَائِزَةُ مَجْمَعِ اللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ بِالْقَاهِرَةِ سَنَةَ ١٩٧٢م ، عَنِ الْمَسْرَحِيَّةِ الشِّعْرِيَّةِ [**بِأَيِّ ذَنْبٍ**] .

وَالدُّكْتُورُ مُحَمَّدُ رَجَبٍ الْبَيُّومِيُّ كَاتِبٌ سَخِيُّ الْعَطَاءِ ؛ أَثْرَى الْمَكْتَبَةَ الْعَرَبِيَّةَ بِمُؤَلَّفَاتٍ شَتَّى فِي مَجَالَاتٍ مُتَنَوِّعَةٍ .. فَفِي الدِّرَاسَاتِ الْقُرْآنِيَّةِ لَهُ : [**الْبَيَانُ الْقُرْآنِيُّ**] ، وَ [**خُطُوَاتُ التَّفْسِيرِ الْبَيَانِيِّ**] أَصْدَرَهُمَا مَجْمَعُ الْبُحُوثِ الْإِسْلَامِيَّةِ بِالْأَزْهَرِ . وَ [**التَّفْسِيرُ الْقُرْآنِيُّ**] أَصْدَرَتْهُ الْمُؤَسَّسَةُ الْعَرَبِيَّةُ الْحَدِيثَةُ .

وَفِي مَجَالِ السِّيرَةِ وَالسُّنَّةِ أَلَّفَ [**الْبَيَانَ النَّبَوِيَّ**] أَصْدَرَتْهُ دَارُ الْوَفَاءِ لِلنَّشْرِ وَهُوَ رِسَالَتُهُ لِلدُّكْتُورَاه . وَ [**فِي ظِلَالِ السِّيرَةِ النَّبَوِيَّةِ**] أَصْدَرَتْهُ الْمُؤَسَّسَةُ الْعَرَبِيَّةُ الْحَدِيثَةُ . وَ [**السِّيرَةَ النَّبَوِيَّةَ عِنْدَ الرُّوَّادِ الْمُعَاصِرِينَ مُنَاقَشَاتٌ ورُدُودٌ**] أَصْدَرَتْهُ الْأَمَانَةُ الْعَامَّةُ لِلَجْنَةِ الْعُلْيَا لِلدَّعْوَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ بِالْأَزْهَرِ .

أَمَّا التَّارِيخُ الْإِسْلَامِيُّ فَقَدْ حَظِيَ بِجُهْدٍ كَبِيرٍ مِنَ الدُّكْتُورِ الْبَيُّومِيِّ ، إِذْ أَصْدَرَ عَدَدًا كَبِيرًا مِنَ الْمُؤَلَّفَاتِ التَّارِيخِيَّةِ مِنْهَا : [**صَفَحَاتٌ هَادِفَةٌ مِنَ التَّارِيخِ الْإِسْلَامِيِّ**] ، وَ [**مِنْ شُرُفَاتِ التَّارِيخِ**] ، وَ [**مِنَ الْقَصَصِ الْإِسْلَامِيِّ**] « جُزْءَانِ » الْمُؤَسَّسَةُ الْعَرَبِيَّةُ الْحَدِيثَةُ . وَ [**الْأَزْهَرُ بَيْنَ السِّيَاسَةِ وَحُرِّيَّةِ الْفِكْرِ**] دَارُ الْهِلَالِ ثُمَّ أَصْدَرَهُ مَجْمَعُ الْبُحُوثِ الْإِسْلَامِيَّةِ .

وَلِلدُّكْتُورِ مُحَمَّدِ رَجَبٍ الْبَيُّومِيِّ عِنَايَةٌ كَبِيرَةٌ بِأَعْلَامِ الْإِسْلَامِ وَعُلَمَائِهِ ، فَكَشَفَ عَنْ جُهُودِهِمُ الْعِلْمِيَّةِ ، وَجِهَادِهِمْ ضِدَّ الْبَاطِلِ وَتَصَدِّيهِمْ لِأَرَاجِيفِ الْمُرْجِفِينَ وَذَلِكَ فِي مُؤَلَّفَاتِهِ [**عُلَمَاءُ فِي وَجْهِ الطُّغْيَانِ ـــ مَعَ الْأَبْطَالِ ـــ ابْنُ حَنْبَلٍ**] عَنْ مَجْمَعِ الْبُحُوثِ بِالْأَزْهَرِ ، [**مُصْطَفَى صَادِقٍ الرَّافِعِيُّ فَارِسُ الْقَلَمِ تَحْتَ رَايَةِ الْقُرْآنِ**] ، [**مُحَمَّدُ مُتَوَلِّي الشَّعْرَاوِيُّ جَوْلَةٌ فِي فِكْرِهِ الْمَوْسُوعِيِّ الْفَسِيحِ**] ، [**أَحْمَدُ أَمِين**] ، [**مُحَمَّد فَرِيد وجدي**] ، [**هَارُون الرَّشِيدِ**] ، [**أَحْمَدُ حَسَنِ الزَّيَّاتُ بَيْنَ الْبَلَاغَةِ وَالنَّقْدِ**] أَصْدَرَتْهُ دَارُ الْأَصَالَةِ بِالرِّيَاضِ .

[**أَعْلَامُ الْعَصْرِ ، كَيْفَ عَرَفْتُ هَؤُلَاءِ**] أَصْدَرَتْهُ الدَّارُ الْمِصْرِيَّةُ اللُّبْنَانِيَّةُ ، ثُمَّ إِنَّ لَهُ مِنْ وَرَاءِ ذَلِكَ كِتَابًا جَامِعًا هُوَ [**النَّهْضَةُ الْإِسْلَامِيَّةُ فِي سِيَرِ أَعْلَامِهَا الْمُعَاصِرِينَ**] « ٥ أَجْزَاءٍ » ، دَارُ الْقَلَمِ بيروت .

وَالدُّكْتُورُ مُحَمَّدُ رَجَبٍ الْبَيُّومِيُّ رَائِدٌ فِي الدِّرَاسَاتِ الْإِسْلَامِيَّةِ ، وَمِنْ مُؤَلَّفَاتِهِ فِي هَذَا الْمَجَالِ : [**فِي مِيزَانِ الْإِسْلَامِ**] « جزءان » . وَ [**مِنْ مُنْطَلَقٍ إِسْلَامِيٍّ**] « جزءان » . وَ [**مَجَالِسُ الْعِلْمِ فِي حَرَمِ الْمَسْجِدِ**] ، وَ [**الْمُثُلُ الْإِسْلَامِيَّةُ**] ، وَ [**قَضَايَا إِسْلَامِيَّةٌ مُنَاقَشَاتٌ وَرُدُودٌ**] « جزءان » دَارُ الْوَفَاءِ بِالْمَنْصُورَةِ .

وَلَهُ فِي الدِّرَاسَاتِ الْأَدَبِيَّةِ وَالنَّقْدِيَّةِ بَاعٌ طَوِيلٌ ، فَأَلَّفَ كُتُبًا مِنْهَا [**الْأَدَبُ الْأَنْدَلُسِيُّ بَيْنَ التَّأَثُّرِ وَالتَّأْثِيرِ**] ، وَ [**النَّقْدُ الْأَدَبِيُّ لِلشِّعْرِ الْجَاهِلِيِّ**] أَصْدَرَهُمَا الْمَجْلِسُ الْعِلْمِيُّ لِجَامِعَةِ الْإِمَامِ مُحَمَّدِ بْنِ سُعُودٍ بِالرِّيَاضِ . وَ [**دِرَاسَاتٌ أَدَبِيَّةٌ**] أَصْدَرَتْهُ دَارُ السَّعَادَةِ بِمِصْرَ . وَ [**نَظَرَاتٌ أَدَبِيَّةٌ**] « ٤ أَجْزَاءٍ » أَصْدَرَتْهُ دَارُ زَهْرَانَ بِمِصْرَ . وَ [**حَدِيثُ الْقَلَمِ**] ، وَ [**قَطَرَاتُ الْمِدَادِ**] أَصْدَرَهُمَا النَّادِي الْأَدَبِيُّ بِجَدَّةَ . وَ [**بَيْنَ الْأَدَبِ وَالنَّقْدِ**] أَصْدَرَتْهُ الدَّارُ الْمِصْرِيَّةُ اللُّبْنَانِيَّةُ .

وَلَمْ يَقِفْ نِتَاجُهُ الْأَدَبِيُّ عِنْدَ الدِّرَاسَةِ الْأَكَادِيمِيَّةِ وَحْدَهَا ، بَلْ تَخَطَّاهُ إِلَىٰ الْإِبْدَاعِ الْأَدَبِيِّ قِصَّةً وَشِعْرًا وَمَسْرَحِيَّةً ..

فَمِنْ مَسْرَحِيَّاتِهِ : [**انْتِصَارٌ**] ، وَ [**فَوْقَ الْأُبُوَّةِ**] فِي كِتَابٍ وَاحِدٍ ، مَطْبَعَةُ السَّعَادَةِ . وَ [**بِأَيِّ ذَنْبٍ**] ، وَ [**مَلِكُ غَسَّانَ**] « مَسْرَحِيَّةٌ شِعْرِيَّةٌ » أَصْدَرَهُ مَكْتَبُ الْجَامِعَاتِ لِلنَّشْرِ .

وَمِنْ دَوَاوِينِهِ : [**صَدَىٰ الْأَيَّامِ**] ، وَ [**حَنِينُ اللَّيَالِي**] مَطْبَعَةُ السَّعَادَةِ . وَ [**مِنْ نَبْعِ الْقُرْآنِ**] ، وَ [**حَصَادُ الدَّمْعِ**] دَارُ الْأَصَالَةِ بِالرِّيَاضِ .

كَمَا أَصْدَرَ قَصَصًا لِلْأَطْفَالِ ، فِي أَجْزَاءٍ مُتَوَالِيَةٍ : أَصْدَرَتْهَا دَارُ الْأَصَالَةِ ، وَدَارُ الْقَاسِمِ بِالرِّيَاضِ :

١ ـ الْمُغَامِرُ الشُّجَاعُ . ٢ ـ الْهِمَّةُ الْعَالِيَةُ . ٣ ـ مُؤَامَرَةٌ فَاشِلَةٌ .
٤ ـ الْفَارِسُ الْوَفِيُّ . ٥ ـ يَوْمُ الْمَجْدِ . ٦ ـ دَجَّالُ الْقَرْيَةِ .
٧ ـ الْحَبْلُ الْأَسْوَدُ . ٨ ـ الْفَتَاةُ الْمِثَالِيَّةُ . ٩ ـ إِلَىٰ الْأَنْدَلُسِ .
١٠ ـ رِحْلَةُ الْخَيْرِ . ١١ ـ اللَّهُ مَعِي . ١٢ ـ بَطَلُ شَيْبَانَ .
١٣ ـ إِلَىٰ الْإِسْلَامِ . ١٤ ـ لَسْتَ وَحْدِي . ١٥ ـ حِكْمَةُ اللَّهِ .
١٦ ـ الْأَصْلُ الطَّيِّبُ ... « وغيرها » .

وَقَدْ تَدَفَّقَتْ مَقَالَاتُهُ عَبْرَ أَنْهُرِ الصُّحُفِ وَالْمَجَلَّاتِ ؛ فَكَتَبَ فِي مَجَلَّاتِ :

١ ـ الأدب الإسلامي . ٢ ـ الأديب . ٣ ـ الأزهر .
٤ ـ الأقلام . ٥ ـ الثّقافة . ٦ ـ الحج .
٧ ـ رابطة العالم الإسلامي . ٨ ـ الرّسالة . ٩ ـ الضّياء .
١٠ ـ علامات . ١١ ـ الفيصل . ١٢ ـ الكتاب .
١٣ ـ المجلة العربيّة . ١٤ ـ منار الإسلام . ١٥ ـ المنهل .
١٦ ـ الهلال ... « وغيرها » .

* * *

من مطبوعات
دار الأدب الإسلامي

• نَحْو مَذْهَب إِسْلَامِيّ فِي الْأَدَب وَالنَّقْد
للدّكتور عبد الرّحمـٰن رأفت الباشا .

• ذَاكِرَة الْأُمة
للدّكتور عبد الرّحمـٰن رأفت الباشا .

• فَضَائِل الْقُرْآنِ الـحَكِيم
للشّيخ المحدث محمّد زكريا الكاندهلوي .

• الْعُدْوَان عَلَىٰ الْعَرَبِيَّة عُدْوَان عَلَىٰ الْإِسْلَام
للدّكتور عبد الرّحمـٰن رأفت الباشا .

تحت الطبع :

• الدَّوْحَة الْمُبَارَكَة
للدّكتور عبد الرّحمـٰن رأفت الباشا .

• عَلِيّ بن الْجَهْم حَيَاته وشِعْره
للدّكتور عبد الرّحمـٰن رأفت الباشا .